المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
مركز البحوث

بحوث المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول



المجلد الخامس

أشرف على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

اهداءات ١٩٩٤
المملكة العربية
السعودية

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مركـز الـبحـوث

بحـوث
المؤتـمر الجغرافى الاسلامى الأول

المجلد الخامس

أشرفت على طباعته ونشره : إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

راجع وصحح التجارب الطباعية

د. محمود توفيق محمود
مركز البحوث

صالح حسين السمر
مركز البحوث

راجع الخرائط واعاد رسمها

نعمان محمد صيام
كلية العلوم الاجتماعية

المحتـــــويات

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

المدينة الإسلامية وخصائصها

دكتور هاشم خضير نايف

المدينة كغيرها من الظاهرات التي تدرسها الجغرافية ليست (حقيقة) جغرافية، بمعنى أنها ليست حكرا خاصا على الجغرافية، بل هي موضوع دراسة علوم أخرى كثيرة: كالتأريخ، والاجتماع، والإدارة، والسياسة، والهندسة، والعمارة. ولا مفر بالتالي من أن تستخدم وتتداول هذه الدراسات أحيانا، وربما كثيرا، نفس المعلومات أو الحقائق لأغراضها،[1] (ويقصد بها المعلومات الجغرافية). لهذا فإننا سوف نتطرق من هذه الحقيقة إلى دراسة موضوع خصائص المدينة الإسلامية، ولسوف نستند في موضوع تعريفها وتطورها التأريخي على جغرافيين وباحثين اجتماعيين ومؤرخين وغيرهم .

أولا : تعريف المدينة وشكل تطورها وتركيبها :

١ ـ تعريف المدينة :

في كثير من الحالات يتخذ عدد السكان مقياسا لتعريف المدن والمراكز الحضرية وتميزها عن القرى (٢)، وهناك أقطار أخرى أهملت مقياس عدد السكان لاعتبار المكان مدينة، واعتبرت أى مستوطنة على أنها مركز حضري أو متمدن، إذا كانت تلك المستوطنة مجهزة ببعض الخدمات العامة وخاصة الخدمات البلدية. وبعض الدول أخذت بالتعريف الإداري صفة أو أساسا لتصنيف المناطق السكنية كمدن. ودول أخرى تأخذ با لتعريف التأريخي أو التعريف اللاندسكيبي، أي تتعرف على المدينة بمظهرها وكتلتها وطبيعة شوارعها ومؤسساتها ومصانعها.[٢] .

وهناك أيضا تعريف وظيفي وآخر اجتماعي، وهكذا ولكثرة هذه التعاريف وغيرها لا يوجد حتى الآن تعريف موحد يستند عليه ، ومقبول من جميع الدول والأقطار. وإن أفضل تعريف للمدينة حسب رأيي هو التعريف الوظيفي، لأن أساس التفرقة هنا بين المدينة أو القرية مثلا هو نمط الحياة فيهما، والوظائف التي تقدمها كلا المنطقتين المتحضرتين لمواطنيها .

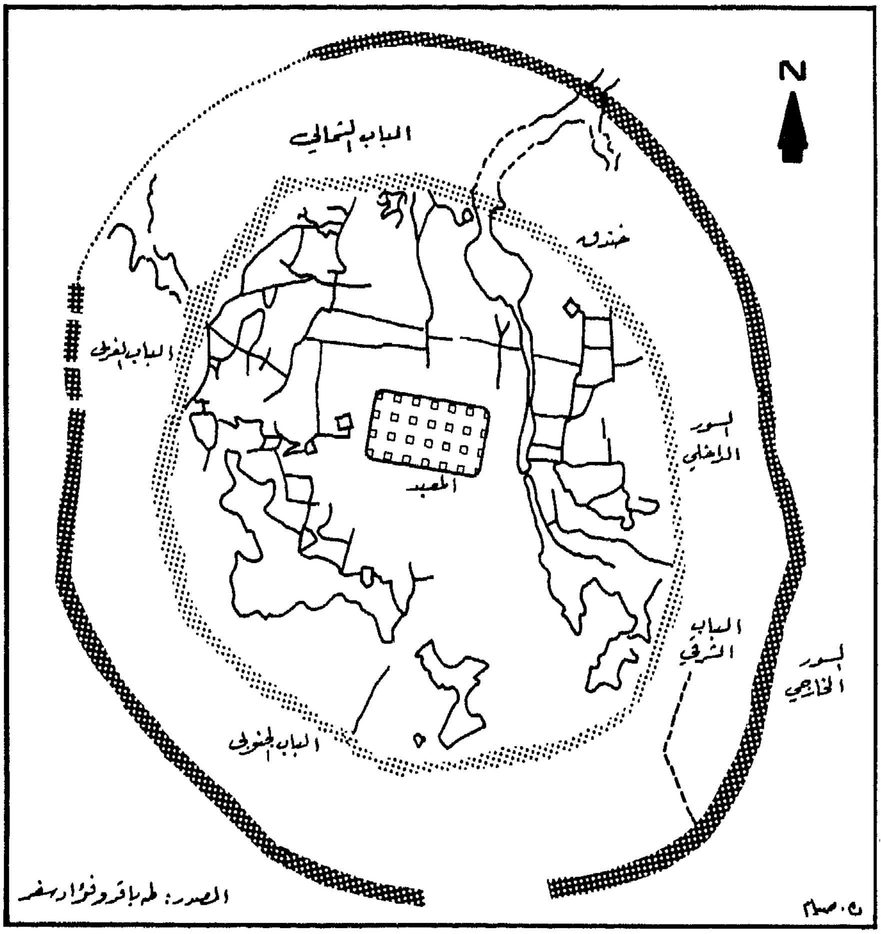
٢ ـ التطور التأريخي لنشأة المدن :

أ ـ المدن القديمة والمدن التقليدية المعاصرة:

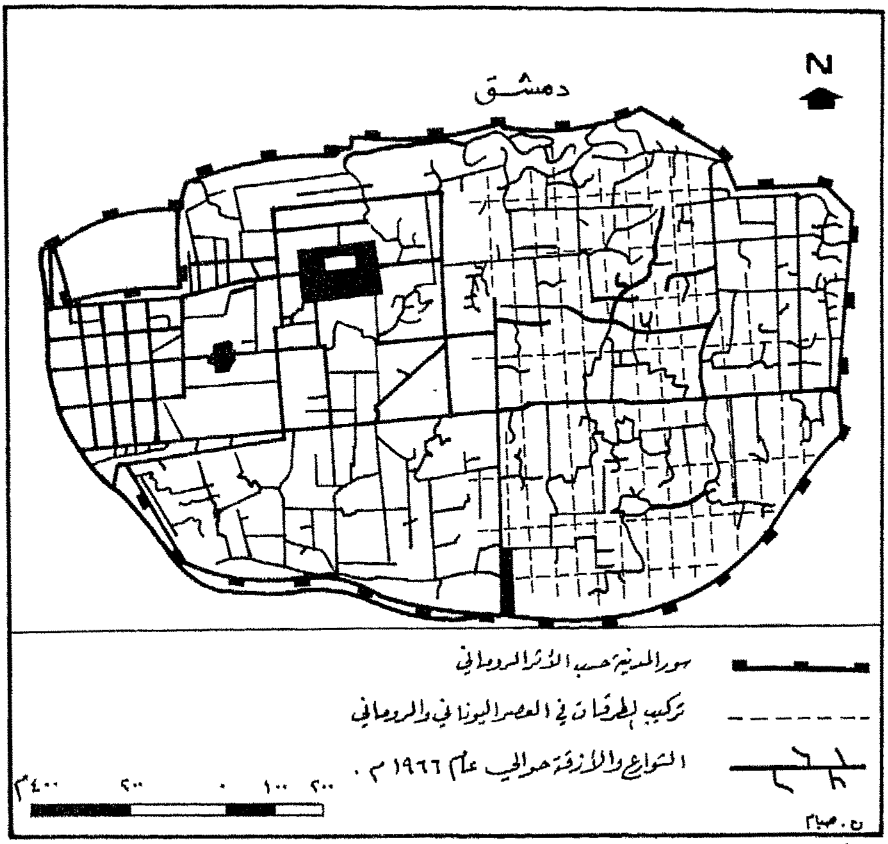
يقول الدكتور عبدالرازق عباس حسين[٤]: «لا يمكن أن يعد التحضر ظاهرة حديثة، فقد اهتدى الإنسان إلى العيش والسكن في المدن منذ آلاف السنين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أقدم القرى القديمة أو المدن قد ظهر بعد التبلور الحضاري، أي إن ظهور المدن كان أحد الظواهر الحضارية. ومما لا شك فيه أن المدن بعد ظهورها قد ساهمت في التطور الحضاري عندما أخذ الإنسان يمارس الزراعة واستعمال الأدوات المعدنية واستحداث العجلات، واهتدى إلى الكتابة، وذلك في العصر الحجري الجديد». وهناك مناطق ثلاث في الشرق ظهرت فيها الأدلة على وجود أقدم المدن التي عرفها العالم، وهي العراق ومصر والسند. وكان التركيب الداخلي لأغلب هذه المدن يتألف من قواعد عامة مشتركة، منها أن المباني العامة، كالمعابد والقصور تتوسط قلب المدينة، ومنها تتفرع الطرق العامة الأخرى (الشكل١)، وتقع دور الطبقة الغنية غالبا على امتداد هذه الطرق الرئيسية، وتتصف باتساع مساحاتها وتعدد مرافقها. أما أحياء الطبقة الفقيرة فإنها تقع خلف أحياء الطبقة الغنية، وتتصف بصغر المساحة، وتقع في أزقة ضيقة وملتوية، وغالبا ما تكون غير نافذة. وتتركز المناطق التجارية في العادة على واجهات الأنهار القريبة والقناطر والجسور، أو بالقرب من الأبواب الخارجية لأسوار المدن، وكانت مثل هذه المدن محاطة بالأسوار والخنادق، لحمايتها من هجمات القبائل وأطماع الحكام المجاورة[٥] .

أما في العصور الكلاسيكية أي في العصر اليوناني والروماني فقد توسعت المدينة بالمعنى التأريخي بالانتشار، وذلك بسبب الاحتكاك والاستعارة الحضارية من الوطن الأول. أما المدينة النواة القديمة فقد أخذت بدورها في الحقبة الجديدة تتوسع وتزداد وظائفها مقارنة بمدن العصور القديمة (الشكل ٢) .

وفي فترة العصور الوسطى تبلورت شخصيات ومفارقات إقليمية مهمة، ففي هذه الفترة كانت العوامل والحضارات التي تؤثر في مدينة الشرق الأوسط لا تختلف عن تلك التي تؤثر في الغرب الأوربي، بل لقد انتشرت حضارة اليونان والرومان على السواء من إنكلترا حتى إيران. ولكن في القرون الوسطى بدأ الغرب يأخذ خطا تطوريا مدنيا غير الشرق، إذ لم يعد بينهما



شكل (١) مخطط مدينة الحضر القديمة


دمشق
N
سور المدينة حسب الأثر الروماني
تركيب الطرقات في العصر اليوناني والروماني
الشوارع والأزقة حوالي عام ١٩٦٦ م .
٢٠٠ ١٠٠ ٠ ٢٠٠ ٤٠٠م
ن . صباغ

شكل (٢)

عامل مشترك، وبدأت بذلك أول جذور الطوابع الإقليمية الحالية الشديدة التباين.[٦] وانتشر تعدد المدن في هذه الفترة تعددا كبيرا، وكان قانون نمو المدينة ليس بتضخمها، ولكن بانشطار مدينة عنها حتى تظل الأحجام دائما محدودة، تتناسب مع إمكانيات العصر الحضارية، أو كان أساس المدن الغالب هو التجارة. أما تركيبها الداخلي فيتألف من الكنيسة والمباني العامة التي تتوسط مركزها، وتتفرع من هذا المركز الشوارع الرئيسية التي تقع عليها دور الطبقة الغنية تليها دور بقية المواطنين، أما بالنسبة لظهور المدن الكبيرة والمتصفة بتعدد الوظائف كالوظيفة الحربية والتجارية والسياسية والصناعية والصحية والدينية وغيرها فلم تظهر وتتكامل إلا بعد الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر وبعده، فزاد سكان العالم، وارتفعت الهجرة إلى المدن، مما أدى إلى زيادة عدد نفوسها، وبالتالي زيادة حجومها، وأدى ذلك أيضا إلى زيادة الوظائف التي تقدمها المدن لسكانها وللأقاليم المحيطة بها .

ب ـ المدن الإسلامية :

كما ذكرنا آنفا كانت القرون الوسطى تمتاز بتنافر اتجاه المدينة بين الشرق والغرب، فحين كانت العصور المظلمة في تاريخ المدينة في أوربا كان العصر الذهبي في الشرق العربي، وهذا على النقيض من الاتجاه في الفترة الكلاسيكية حين كان الانتعاش أو الانكماش ـ كما يقول الدكتور جمال حمدان ـ [٧] نغمة مشتركة بين القطاعين .

لهذا فإننا نعد القرون الوسطى، القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادى خاصة، مرحلة مهمة في تأريخ إنشاء المدن التي أسسها العرب في العالم الإسلامي، فبنوا الحصون والأسياف والقصبات والقلاع والقرى في أثناء الفتوحات الإسلامية في زمن الخلفاء الراشدين وزمن الدولة الأموية والعباسية، التي تطور بعضها حتى أصبح مدنا كبيرة كالبصرة والكوفة والقاهرة (الفسطاط سابقا) وقرطبة والنجف وكربلاء وغيرها . ويرجع الدكتور جمال حمدان[٨] تطور نمو المدينة العربية إلى خمسة عوامل، هي: العامل الديني، والحربي، والسياسي، والتجاري، والاجتماعي. فالعامل الديني واضح في أن تعاليم الإسلام تحث على حياة التجمع، لأن فروضه تؤدى أحسن أداء في ظل حياة تجمعية مدنية، فمن المدن الدينية التي خلقها الإسلام: المهدية، فاس، مراكش، الرباط، جدة، النجف، كربلاء . أما العامل الحربي فقد كان من ضرورات الغزو في البداية، فكان لا بد من إنشاء مراكز عسكرية للسيطرة كالكوفة والفسطاط والقيروان.

ويلاحظ أنها جميعا مواقع على سيف الصحراء. أما الناحية السياسية فقد كان من التقاليد العربية أن كل حاكم أو أسرة حاكمة، لارتباطها بأصول قبلية متعادية، كانت تحاول القضاء على المدينة العاصمة السابقة إما بتدميرها أو بهجرها. وكان هذا العامل السياسي من أسباب تعدد المدن الجديدة، كالانتقال من القطائع إلى العسكر إلى القاهرة. ولكن هذا يضفي عنصرا من عدم الاستقرار على كيان هذه المدن. كما أنشأ العامل السياسي مدن البلاط قبل مدن البلاط الأوربية بعشرة قرون في الأقل، مثل سامراء ومكناس التي سميت فيما بعد «بفرساي مراكش» .

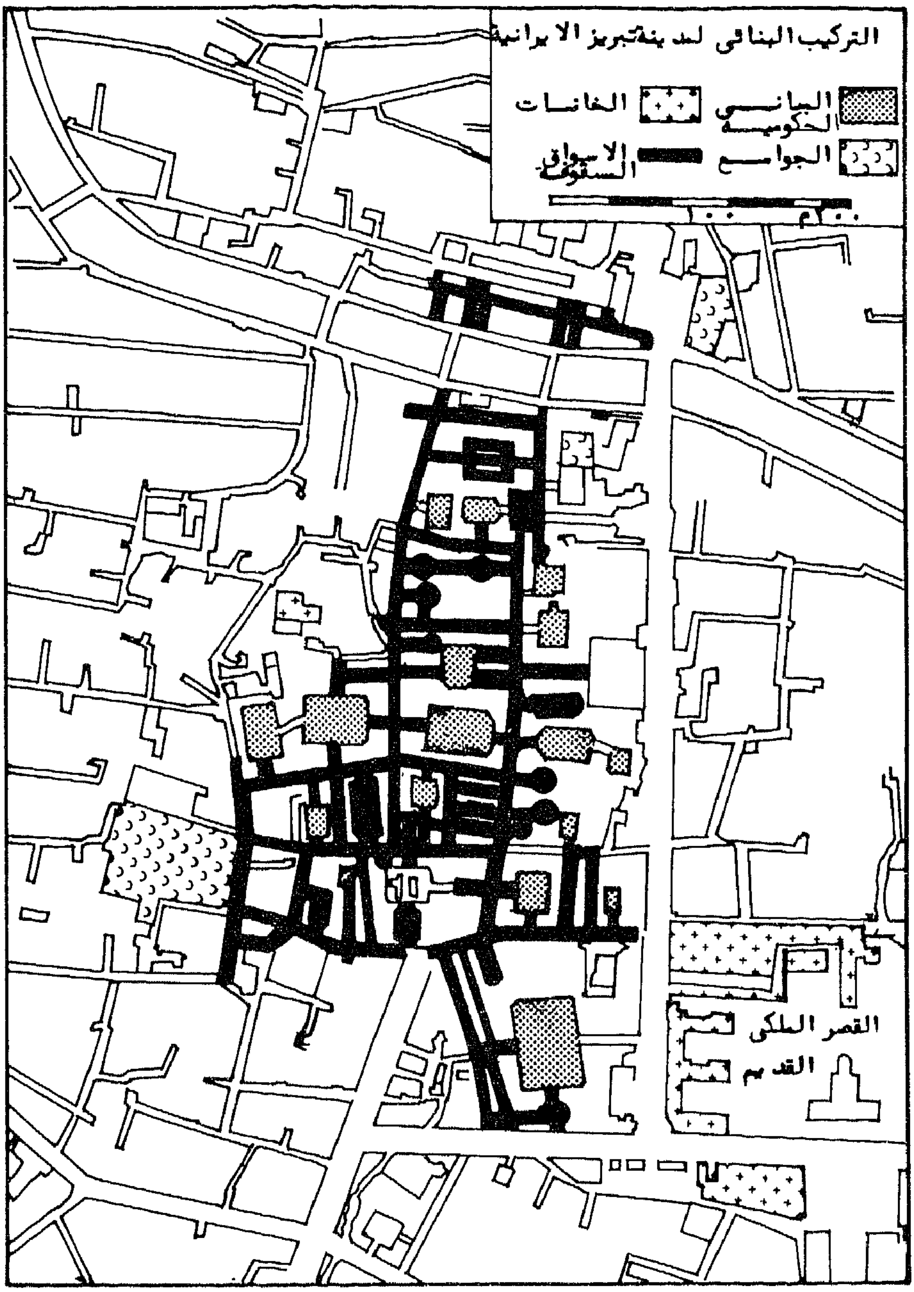
أما العامل التجاري فقد ساعد كثيرا على ازدهار حياة المدن، لأنه مع اتساع نطاق المعمور بدأت الشخصية الكامنة للعالم العربي تتبلور باعتبارها منطقة عبور بين المقر الآسيوي والمقر الأوربي، وأصبح الشرق الأوسط هو الشرق الوسيط وكان النشاط التجاري كله مركزا بالضرورة في المدن. وهناك أخيرا العامل الاجتماعي، وهو أن الفاتحين العرب حيثما انتقلوا لم يكونوا سكان ريف، ففي البدء اعتصموا بأطراف الصحراء كامتداد لتأريخهم البيئي السابق، فلما استقرت الحلة ونمت إلى مدينة ظل الاسم الصحراوي يذكر بأصلها، والفسطاط والقيروان كلمتان بمعنى واحد هو الخيمة. وفيما عدا حلات هوامش الصحراء فإن البطون والقبائل النازحة كانت تأنف سكنى الريف (وذل) الاستقرار الزراعي، فكانوا بالضرورة سكان مدن.

أما فيما يخص تركيب وبنية المدينة الإسلامية فإن معظم المدن كانت تشترك بصفات عامة، تعد انعكاسا للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي مرت بها، حيث إن للنظام الاجتماعي القبلي تأثيرا كبيرا في تشكيل بنية المدينة الإسلامية وتركيبها. فالبدوي لا يعرف الولاء إلا لعشيرته، وقد ظهر انعكاس هذه الروح في الأحياء السكنية للمدن، حيث إن كل قبيلة تحتل حيا خاصا بها في المدينة، وبهذه الطريقة يكون كل حي أو محلة وحدة حضرية مستقلة أو شبه مدينة، لها مبانيها العامة والخاصة وسوقها وأحيانا سورها. وكانت العلاقات بين أحياء المدينة الواحدة شبه معزولة، ولا يربطها بالحياة اليومية سوى الجامع الكبير وسوق المدينة المركزي .

وغالبا ما خطط المسلمون الأوائل عند بناء مدنهم بأن يقع الجامع الكبير في مراكزها، تحيط

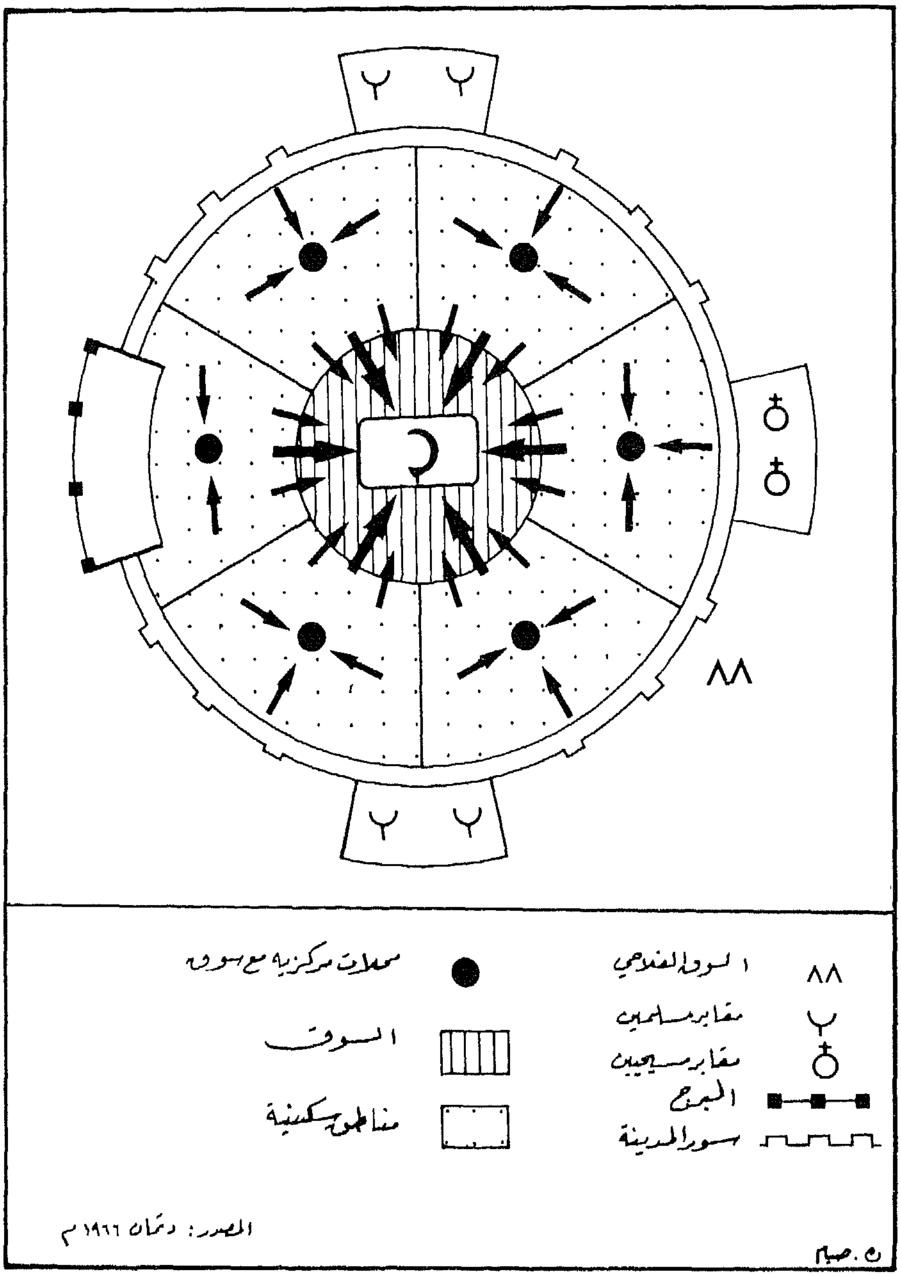
به الأسواق والأماكن التجارية. أما بالنسبة لنظام الشوارع في المدن العربية الموروثة فإنه يشابه تخطيط شوارع أغلب المدن الإسلامية، فقد تطرق إليه الدكتور خالص الأشعب(٩) بالقول بأن للمدينة العربية وضعها الوظيفي والاجتماعي والاقتصادي والطبيعي الخاص، مما ينعكس على أنماط شوارعها التي غالبا ما كانت غير مستقرة، لأسباب تتعلق باختفاء السيطرة البلدية والإدارية ، والتي لم توجد في أكثر من مدينة، ثم لتجاوز المتنفذين من السكان على الشوارع، وربما كذلك بسبب دفاعي أو لعلاج الظروف المناخية، فصيفا لا يسمح لأشعة الشمس أن تنزل عمودية، أو لكي تكسر حدة الرياح الصحراوية، وإن أهم العوامل المؤثرة على اتجاه وسعة، وبالتالي أهمية الشارع، هو مداخل المدينة وموقع الجامع الكبير والأسواق الرئيسة، حيث تصب غالبية الشوارع الرئيسة في المنشآت المركزية، ومن الشوارع الرئيسية تتفرع شوارع ثانوية إلى منشآت أقل أهمية، ومن ثم شوارع أو أزقة الدرجة الثالثة التي تخدم أبناء المحلة. وهنا فلا بد من التطرق إلى نوع رابع من الشوارع والفضاءات في المدينة العربية وتلك التي تأثرت بحضارة العرب، ألا وهو الزقاق الأعمى، أي المغلق من أحد طرفيه (الشكل ٣). إن هذا التدرج في مراتب الشوارع له علاقة بسلوكية سكان المدينة، فلو تابعنا إنسانا يخرج من مسكنه الذي يقع على زقاق أعمى، وأثناء مروره بزقاق من الدرجة الثالثة فالثانية فالرئيسة أو الأولى، حيث مركز المدينة، سنجد أن نمط سلوكه في تبدل مستمر مع المسافة التي قطعها بعيدا عن بيته. فيأخذ هذا الإنسان حريته الكبرى في التصرف عندما يصل إلى المنطقة المركزية، بسبب اختلاطه بأناس لا يعرفهم .

ومما تتصف به المدينة الإسلامية أيضا أنها غالبا ما تكون مدورة ومحاطة بسور كبير ذي أبواب أربعة رئيسية، ومحاط بخنادق عميقة تملأ بالمياه عند قيام عدوان عليها. وإن أحسن ما يعبر عنه في تحليل شكل المدينة الإسلامية التقليدية العام هو أن الجامع الكبير أو الرئيسي يتوسط مركزها، وأن السوق الرئيسة يحيط به، تليها الأحياء السكنية وأسواقها المحلية، ثم يحيط بالجميع بعد ذلك السور الخارجي للمدينة، وخارج نطاق السور الخارجي توجد أسواق بيع الحيوانات (الوقفة)، وكذلك مقابر أموات المدينة (شكل ٤) .



شكل - ٣ - التركيب البنائي لمدينة تبريز وأسواقها

المصدر : شفايزر ، ١٩٧٢م.



شكل - ٤ مخطط التركيب الوظيفي لمدينة شرقية إسلامية

ثانيا: خصائص المدينة الإسلامية في العهد العثماني :

١ ـ الكيان غير المستقل وانعدام الإرادة الذاتية :

تتصف المدينة الإسلامية في العهد العثماني بعدم الاستقلالية، وذلك من وجهة نظر قانونية واجتماعية. فمن وجهة النظر القانونية لا وجود لقانون إداري ينظم شؤون تلك المدن، حيث تنعدم البلديات والإدارات العامة إلا فيما ندر. فنجد أن مدينة إسطنبول، وهي مركز الحكم العثماني آنذاك، لم تستحدث فيها إدارة بلدية مشابهة لما هو موجود في أوربا إلا في سنة ١٨٥٥م. أما من وجهة النظر الاجتماعية فهو انتفاء أي نوع من التجانس والتطابق بين سكنة تلك المدن، فقد كانت المدينة منقسمة على نفسها بسبب وجود أحياء سكنية لا تضم في أحضانها سوى تلك المجموعات التي تنتسب إلى قبيلة أو عشيرة أو قومية أو معتقد معين، وكانت هذه الفئات تعيش بسبب سياسة اللامبالاة التي تتبعها الحكومة العثمانية آنذاك شبه منعزلة عن بعضها البعض ، ولا يهم سكنة أحد الأحياء ما يحدث في الحي الآخر. ولهذا السبب فإن سكنة المدينة الإسلامية كانوا من ناحية إدارة الشؤون المركزية والإدارية لمدينتهم شبه مفقودة أو معدومة، وذلك لأن هذه المدن لم تحكم من أبنائها ، بل من قبل حكام غالبا ما يعينون ويعزلون في سلطة الباب العالي. (حكم مثلا في مدينة دمشق في الفترة ما بين ١٨١٥ ـ ١٨٩٥ واحد وستون واليا) .

هذا ولما كانت المدينة الإسلامية في هذه الفترة لا تتمتع بالحرية والاستقلال، وأن حرية الاجتماعات والاحتجاجات العلنية فيها محرمة، نجد لهذا افتقادها إلى الساحات العامة، ولهذا فقد كانت أهم الأماكن لعقد مثل هذه التجمعات الجماهيرية هو الجامع الكبير وكذلك الأماكن السوقية .

وكانت أهم الجبهات التى تصدر منها آنذاك الاحتجاجات ورفض أوامر الحكام القساة هي المؤسسات الدينية ومؤسسات الطوائف النقابية (العرفاء) في السوق، أو من قبل رؤساء الطوائف في الأحياء السكنية.[١٠] .

٢ ـ عدم التجانس الاجتماعي لسكنة المدينة الإسلامية:

كما مر ذكره نجد أن المدينة الإسلامية تقسم إلى أحياء عديدة، تضم بين ظهرانيها فئات

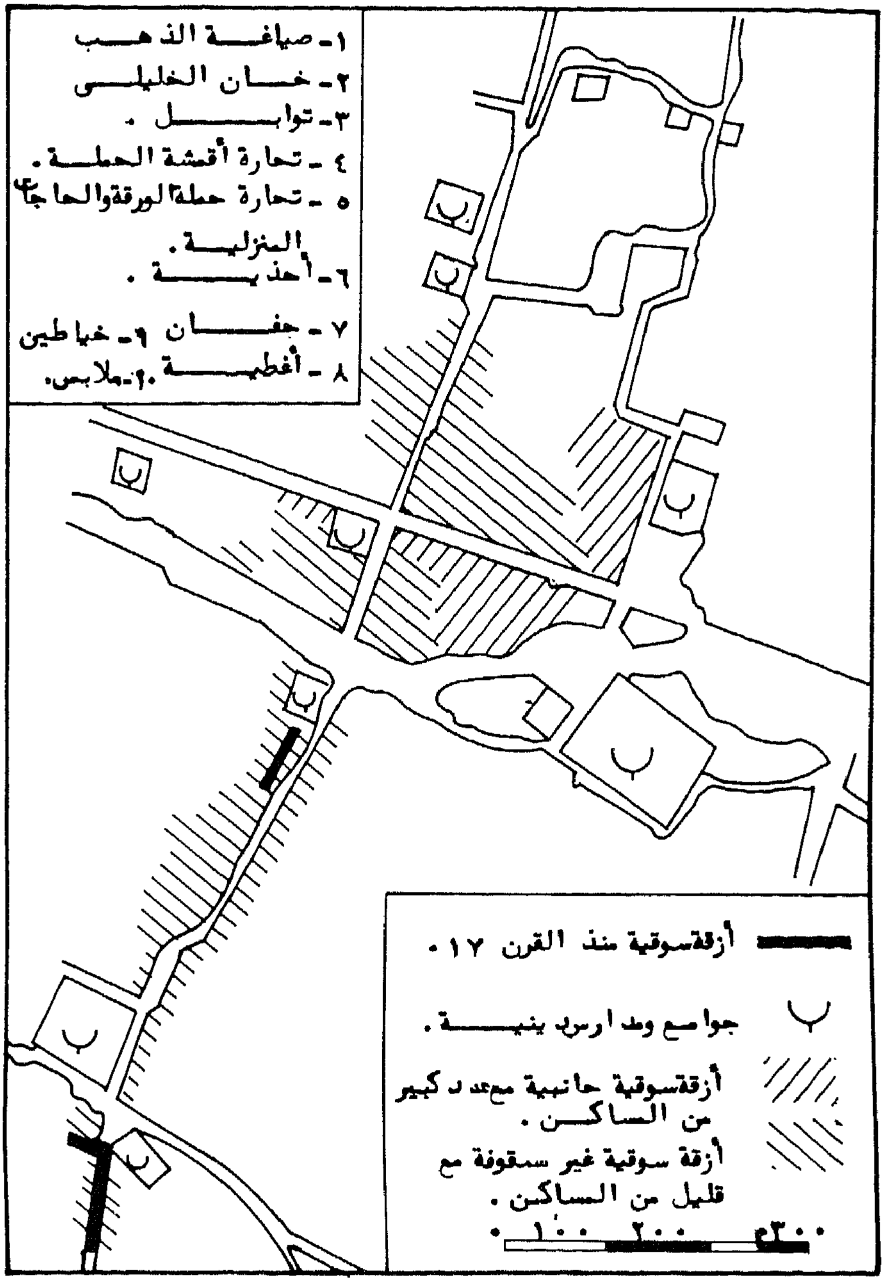
أو قوميات أو مذاهب غالبا ما تكون متشابهة في العقيدة والاتجاه، فهناك مثلا أحياء تضم قبائل أو قوميات معينة تطلق عليها بأسمائها، كالحي العربي واليهودي والمسيحي والتركي والبربري واليوناني والإيراني والأرمني، وحتى في حوالي سنة ١٩٠٠م كانت توجد في تونس وفاس أحياء تضم مسلمين عائدين من بلاد الأندلس فقط، وكانت أغلب هذه الأحياء منفصلا أحدها عن الآخر أحيانا بأسوار ذات أبواب وساحبات خاصة. ويعتقد أن ذلك جاء نتيجة للنظام الذي اتبعه المسلمون الأوائل في أثناء فتوحاتهم، حيث كانوا يضعون الأسرى والسبايا في أحياء ينفصل بعضها عن بعض، وذلك خوفا من وقوع الفتن والحوادث بين هذه الطوائف والملل المختلفة. فنجد مثلا بعد إنشاء مدينة القاهرة سنة ٩٧٠م أن قسمت أحياؤها السكنية إلى حي عربي، وآخر يوناني، وأرمني، وبربري، وتركي، وكردي. وقد تطور عدد هذه الأحياء في القرن الثامن عشر حتى أصبح (٥٣) حيا[١١]. وكانت أغلب الأحياء والمحلات خاصة الكبيرة منها تحتوي على جامع أو كنيسة وسوق صغير ومدرسة وحمام وأحيانا مقبرة خاصة بها .

وكانت النزاعات والاتفاقات الشخصية وكذلك إبرام عقود الزواج والطلاق يتم حلها وتنظيمها من قبل رؤساء أو ممثلي هذه الأحياء، وليس من قبل جهة إدارية حكومية مركزية .

ومن الفوائد العامة التي توفرها هذه الأحياء لسكانها هي الانسجام والتقارب والتحابب والتعاون والمشاركة في السراء والضراء، وذلك بسبب تقاربهم في الاتجاهات والمصالح، وتجمعهم غالبا رابطة العقيدة أو القومية أو العنصر الواحد، هذا ويشكل الحي الواحد نوعا من الضبط الاجتماعي لسلوك الفرد، ويتحدد في نمط حركة الإنسان وتعامله مع الآخرين من جيرانه وأبناء حيه، مقارنة مع سلوك نفس الشخص عند خروجه وذهابه إلى حي غريب أو إلى السوق الكبير، حيث يرتادها أفراد من محلات المدينة كلها[١٢].

٣ ـ السوق مركز اقتصادي للمدينة الإسلامية :

لما كان موقع الجامع الكبير في مركز المدينة يمثل أهمية دينية واجتماعية عالية، لذا نجد أن موقع المحلات التجارية ذات القيمة الاجتماعية والاقتصادية العالية غالبا ما كان مجاورا أو محاذيا له، حيث توجد هناك محلات بيع الروائح العطرية والتوابل والأحذية والأغطية والأقمشة الحريرية والصناعات الجلدية الجيدة، أما السلع الاستهلاكية والكمالية الأخرى ذات التقييم



شكل (٥) نظام سوق مدينة القاهرة القديمة

(المصدر : فيرث ، ١٩٧٣ م) .

الاجتماعي الواطئ فكانت توجد في الأزقة السوقية الخلفية لمواضع السلع الأولى، أما الوحدات الإنتاجية (أصحاب الحرف) فغالبا ما كانت تقع في مكان منزو بعيدا عن المحلات التجارية التي يكثر فيها الازدحام. أما بالنسبة لتجارة الجملة فكانت محصورة غالبا في الخانات التي تحيط بمنطقة تجارة المفرد[١٣]. (الشكل ٥ ، ٦). ومن مميزات السوق في المدينة الإسلامية في أيام الدولة العثمانية هو انتشار مهنة ما يطلق عليهم بأصحاب الحرف، حيث كان لكل صاحب حرفة رئيس (أو ما يطلق عليه أيضا اسم عريف)، ينظم أمور أصحابها، ويجمع الضرائب السنوية منهم حسب ضمان يعقده مع المحتسب (ناظر المدينة)، ولهذا نجد في أثناء هذه الفترة التأريخية كثيرا من هؤلاء الممثلين الذين تتشابه أعمالهم اليوم تقريبا بأعمال رؤساء النقابات. فكان لتجار بيع الأقمشة رئيس طائفة، ولباعة الكتب رئيس طائفة، للصاغة وغيرهم كذلك. ويعتقد المؤلفان (J.M Lapidus)[١٤] و (C. Cahen)[١٥] بأنه كان لممثلي أصحاب الحرف المختلفين دور كبير في المساعدة على تنظيم السوق الإسلامي، والوصول به إلى قمة ما يطلق عليه اليوم بمصطلح التخصص في بيع وإنتاج السلع في هذه الأسواق، ذلك لأن مثل هذا التنظيم المكاني في السوق كان ضروريا جدا لمساعدة رئيس الحرفة على تسهيل وتنظيم أمور منتسبيه من جهة ، وسهولة جمع الضرائب منهم من جهة أخرى، وبدون أن يبذل جهدا ووقتا كبيرين في البحث عن أعضاء نقابته المنتشرين في طول السوق الكبير وعرضه .

ومما هو جدير بالذكر أيضا أن لرؤساء الطوائف في الأحياء السكنية نفس الدور في تنظيم أمور سكنة أحيائهم ، كإيصال المعلومات والأوامر الصادرة من سلطات المدينة المركزية إليهم. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على انفصال الرابطة بين الإدارة الحكومية وبين الأفراد بصفتهم الشخصية، وأن ممثل الطائفة هذا يعد حسب إجراء حكومي مسبق وكيلا مفوضا للسلطة الإدارية في محلته أو منطقته التجارية. ومن فوائد هذا التنظيم للإدارة الحكومية هو قلة النفقات والمصاريف الإدارية، وبعكس ذلك يجب تعيين موظفين وجباة رسميين كثيرين[١٦] .

ولقد فرضت طبيعة المناخ السائد في مدن العالم الإسلامي نمطا معينا في الأسواق ذات طبيعة معمارية خاصة، فغالبا ما تكون هذه الأسواق مسقفة للوقاية من الأمطار وأشعة الشمس والرياح القوية، ولقد لوحظ عند بناء الأسواق وملحقاتها كالخانات والقيصريات والبدستيات



شكل -٦- نظام سوق مدينة القيروان.
المصدر: فيرث، ١٩٧٢.

معالجة أمور أساسية، كتوفير الضياء الكافي بأقل حرارة ممكنة، وضمان حركة الهواء داخل هذه الأسواق، وكذلك توفير حرية الحركة للمشاة ولوسائط النقل المستعملة فيها(١٧) .

٤ ـ التركيب الاجتماعي للمدينة الإسلامية في أثناء القرن التاسع عشر :

يمكن إرجاع إعادة تقويم المكانة الشخصية للفرد في المدينة الإسلامية خلال هذه الفترة إلى أربعة عوامل :

أ ـ الثروة : ويتصدر هذه المجموعة أصحاب الأراضي والإقطاعيات الكبيرة، ويمكن تشبيههم بأغنياء المدن الغربية، حيث كانت لهم امتيازات خاصة، فبواسطة رؤوس أموالهم وثرواتهم كان يمكنهم التأثير على أصحاب السلطة والجاه، وبالتالي حصولهم على الامتيازات التي يريدونها .

ب ـ العمل : على قمة هذا السلم الاجتماعي يتصدر هذه المجموعة أولئك الذين يمتلكون القوافل التجارية وتجارة الجملة والصرافة وتجارة المفرد، ويلي هذه المجموعة من أرباب العمل العمال المهرة وغير المهرة .

جـ النسب واللقب : لقد كان الانتساب في ذلك الوقت لأحد العشائر أو العوائل المعروفة ذات أثر كبير في تقويم الفرد اجتماعيا .

د ـ التعليم والثقافة: لقد كانت معرفة الشخص للغة العربية الفصحى ومبادىء الشريعة والقرآن الكريم ذات أثر بعيد في تقويم الشخص اجتماعيا .

واستنادا إلى المعايير المذكورة أعلاه يمكن أن يقسم التركيب الاجتماعي للمدنية الإسلامية كما يلي :

أ ـ الطبقة الغنية :

وتتألف غالبية هذه الفئة إما من التجار أو أصحاب الأراضي، ومن أصحاب المراتب العالية، وكذلك من رؤساء العشائر والقبائل. وكانت تعد هذه الطبقات في عصر الدولة العثمانية ذات تأثير ونفوذ سياسي ومالي بعيدين. فكان أصحاب الإقطاعيات الكبيرة والتجار

المصدرون وكذلك تجار الجملة ورؤساء القوافل التجارية ممن يقفون على قمة هرم التقويم الاجتماعي، فمعظم أرباح التجار التي يجنونها من مهنة التجارة كانت غالبا ما تستثمر في شراء العقارات والأراضي أو إقراضها لقاء فوائد عالية. وفي نهاية قوة الحكم العثماني وافتتاح قناة السويس أخذت تجارة القوافل تقل وتندثر تدريجيا، واستعيض عنها باستيراد السلع الأوروبية المصنعة التي كانت بالمقارنة إلى تجارة القوافل تدر أرباحا عالية جدا. وقد كان من نصيب الطائفة المسيحية بسبب ارتباطها بالغرب المسيحي في أثناء القرن التاسع عشر وبعده أن تصعد إلى مرتبة الطبقات الغنية، بسبب مبادرتها لاستيراد السلع والبضائع الأوروبية المصنعة وبيعها في الشرق الإسلامي. ومن تلك الفئات المسيحية التي استطاعت أن تثبت جدارة في هذا الميدان هم المسيحيون اللبنانيون، وكذلك مسيحيو أنطاكية وحلب والإسكندرية وإزمير وإسطنبول.[١٨] .

وبعد انهيار الدولة العثمانية استطاعت طبقة التجار والملاك مرة أخرى أن تثبت من مراكزها الاقتصادية والاجتماعية بطريقة أخرى هي إنشاء المؤسسات والمصانع وشركات الخدمات، وكذلك مكننة الزراعة بواسطة استصلاح أراض جديدة، وأصبحت هذه الطبقة في النهاية تقلد الطبقة الرأسمالية الغربية في أسلوب عملها وتفكيرها .

إلى جانب طبقة الملاك والتجار هذه كانت هناك طبقة أرستقراطية أخرى ممثلة بموظفي الإدارة الكبار وقادة الجيش، والحكام، ورجال القصر، وكذلك ممثلي الطوائف الدينية المعترف بهم من قبل الدولة. وبعد أن أخذت إدارة الحكم المركزية ينتابها الضعف في أواسط القرن الماضي أخذت وظائف هذه الفئات الاجتماعية تمثل مصدر إيراد وكسب كبير لهم، فالرشوة واستغلال النفوذ وعيوب نظام الالتزام الخاصة بجميع الضرائب كانت عوامل مساعدة جدا على زيادة ثراء هذه الطبقات، التي أخذت تنشط في شراء وبناء العقارات ، وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية نجد أن أولئك الذين أثروا لسبب من الأسباب لم يفقدوا امتيازاتهم بسرعة، لتجاربهم السابقة فى الإدارة والجيش، وكذلك لإمكاناتهم المادية الكبيرة، فإنهم قلدوا وأعطوا مسؤوليات حساسة حتى بعد تأسيس الحكومات الوطنية، فنجد مثالا لذلك أنه في ربيع عام ١٩٦٥م كان (١٢) وزيرا في الحكومة اللبنانية التي شكلت في ذلك الحين من أصحاب الملايين، كما كانت هناك فئة ثالثة تحسب أيضا على الطبقة الأرستقراطية، وهم شيوخ القبائل الساكنون

في المدن، إلا أن دخول هذه الفئة إلى طبقة المجتمع الراقي لم تتم إلا بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك بعد أن ترك الكثير من هؤلاء أراضيهم لوكلائهم في الريف، وانتقلوا إلى المدن للتمتع بالحياة المتحضرة والمريحة. هذا ولما لم يكن هؤلاء الشيوخ يتمتعون بقسط وافر من الثقافة فقد صعب عليهم الاختلاط بالطبقات المتمدنة المثقفة والغنية، وبقوا لهذا السبب حتى يومنا هذا يشعرون بعزلة لعدم الاختلاط بالطبقات المذكورة .

ب ـ الطبقة الوسطى :

كانت الطبقة الوسطى أيام الدولة العثمانية فى أغلب المدن الإسلامية تتألف في الغالب من تجار المفرد وأصحاب الحرف والمثقفين، ويعكس أصحاب مثل هذه الحرف في الدول الأوربية سلوكهم في أثناء الثورة الصناعية أنهم لا يطمعون فقط إلى نفوذ اقتصادي بل وسياسي أيضا. وبمقارنة سلوك هؤلاء مع سلوك زملائهم من نفس الفئة في مدن الدول العثمانية نجد أنهم لم يكونوا يطمحون إلى أي نفوذ سياسي، وإنما كانوا يفضلون أن يتركوا وحدهم وعدم التدخل في شؤونهم. ومن الصفات التي كانت تتصف بها هذه الطبقة هو كنزها للأموال خاصة الذهب والفضة، وتحاول دائما أن تظهر طريقة عيشها وسكنها بمظهر البساطة حتى لا تثير شبهات رجال الإدارة والضرائب عليها .

جـ ـ الطبقات الدنيا :

وتتألف هذه الطبقات من العمال الصناعيين غير المهرة، أو من الطبقات المعدومة التي تقل دخولها إلى ما دون الحد الأدنى لمستوى المعيشة، ولهذا فإنهم يعدون من أشد مؤيدي الأفكار الثورية وحملة شعار المساواة مع الطبقات الغنية، لأنهم يعتقدون أن بؤسهم جاء نتيجة عدم المساواة بين الطبقات الغنية وبينهم. وتتألف هذه الفئة المعدمة اقتصاديا واجتماعيا من عمال الأجور اليومية، والحراس، وعمال النقل، والبائعين المتجولين ، ومنظفي الشوارع ، وعمال المقاهي، وكذلك الدلالين، وقراء العشت، والمتسولين ، والسراق، وبائعات الهوى وغيرهم. وكانت هناك طبقة مميزة وفقيرة في هذه الفترة، وهي طبقة العبيد وخدام المساكن، فقد كانت ممارسة مثل هذه المهن من وجهة النظر الاجتماعية السائدة آنذاك من أحط الأعمال طرا بالرغم من أن هؤلاء الخدم من ناحية وضعهم المعاشي والمادي أحسن حظا من أولئك الذين يمارسون أعمالا غير مستقرة .

د ـ طبقة علماء الدين :

وتعتبر هذه الطبقة الوحيدة التي لها مكانة اجتماعية وروحية خاصة لدى طبقات المجتمع عامة، وقد تميزت حياة علماء الدين بالبساطة وعدم الثراء، أما مدخولاتهم فكانت غالبا ما تأتي من أملاك الأوقاف العامة، والقسم الآخر من الدولة .

٥ ـ استغلال مجتمع المدينة الإسلامية ـ العثمانية لأقاليمها الزراعية :

تعد المدينة المركز الرئيسي لتصريف حاصلات الأراضي الزراعية المحيطة بها، ولهذا فإن قوات المدينة العسكرية غالبا ما تكون الحامي الوحيد لأطرافها وظهيرها الزراعي. هذا وما اتصفت به المدينة الإسلامية على مدى عصور طويلة من خضوع للسيطرة الأجنبية فلهذا فإن ظهرها الزراعي لم يسلم من الاستغلال .

وبمقارنة تصرفات متنفذي المدينة الإفرنجية في المقاطعات الزراعية المحيطة بها، بأمثالهم من متنفذي مدن العالم الإسلامي، نجد أن متنفذي المدينة الغربية أكثر جدا وعملا في إيجاد وخلق روابط اقتصادية بين مدينتهم والريف المحيط بها. ففتحوا الشوارع الحديثة، وسهلوا بذلك عملية نقل الحاصلات الزراعية بين مدينتهم والريف، كما أنهم أنشأوا المصانع في الريف لتصنيع المنتوجات الزراعية، كما ساعدوا في تأسيس الجمعيات الزراعية التعاونية لتسهل عملية نقل المنتجات، وإيجاد أسواق مناسبة لها. أما بالنسبة لمتنفذي مدن العالم الإسلامي في العهد العثماني فإنهم للأسف الشديد لم يسعوا مطلقا لخلق روابط اقتصادية بين الريف والمدينة، بل إنهم بالعكس حاولوا استغلال الريف، وزادوه فقرا على فقر. وما المصطلح الذي أطلقه العالم الجغرافي النمساوي (Hans Bobek[١٩]، وهو (المردود الرأسمالي Rentenkapitalismus) إلا خير دليل على صدق أبحاثه الخاصة في هذا الموضوع، والتي تقول بقسمة عوامل الإنتاج الزراعية إلى خمس حصص ، هي: الأرض، والماء، والبذور، والعمل البشري، وغير البشري (العمل الحيواني). ونتيجة لنظام الحصص هذا فإن صاحب الأرض الذي هو بنفس الوقت مالك الأرض ومالك لثلاث عوامل إنتاج أخرى، هي: الماء، والبذور، والقوى العاملة غير البشرية، فإن المزارع في هذه الحالة لا يحصل عند قسمة الحاصلات الزراعية في نهاية السنة إلا على حصة واحدة، وهي مجهوده العضلي. وهذا إن دل

على شيء فإنما يدل على زيادة ارتباط الفلاح بالأرض، وزيادة استغلاله وتكبيله اقتصاديا من قبل صاحب الأرض. وهذا ما يعد من العوامل التي لا تؤدي إلى تطوير الريف الزراعي المحيط بالمدينة، بل تجعله خاضعا لها ولوقت غير محدود.

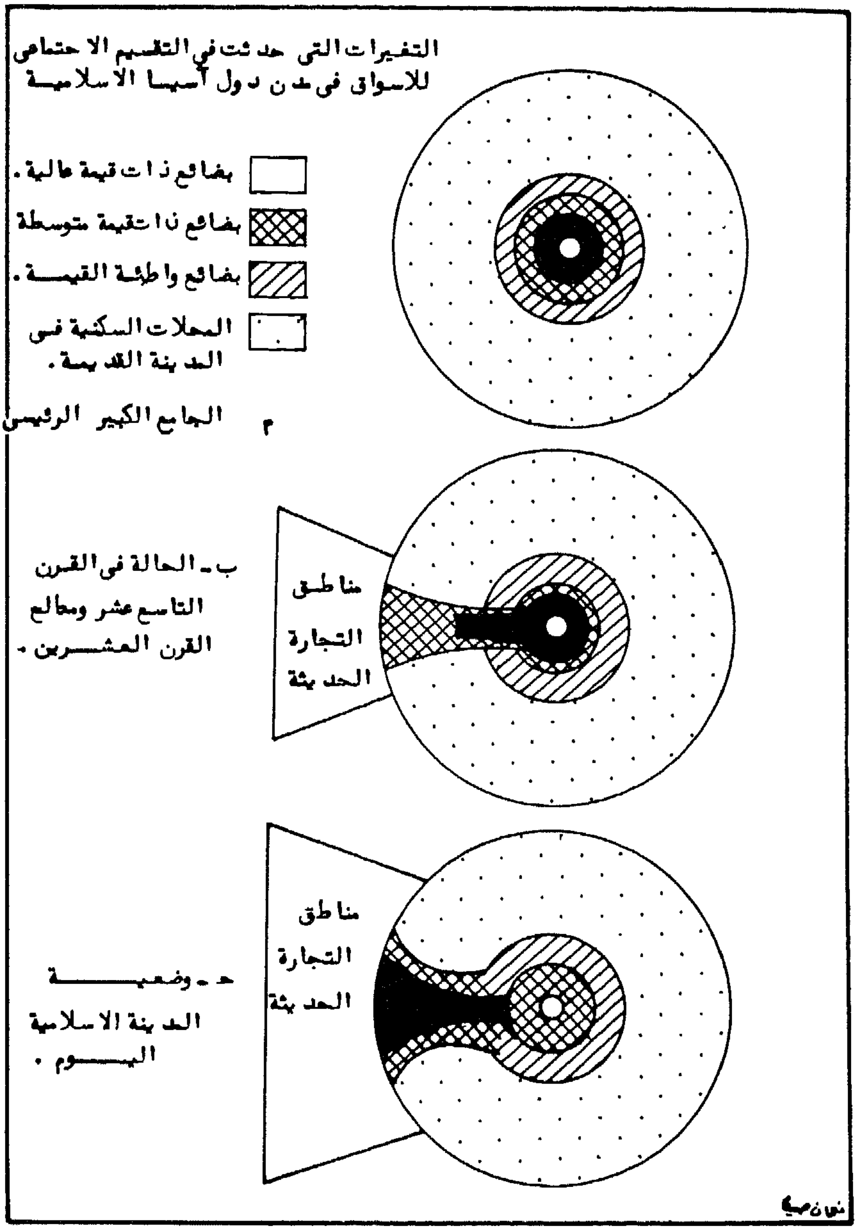
ثالثا: الاتجاهات الحضرية الجديدة التي أثرت في تركيب المدينة الإسلامية المعاصرة :

بالرغم من تدفق التيارات الحضرية الوافدة إلينا والتي أخذت تدق أبواب مدننا التأريخية من عدة عقود وتؤثر في معالمها الطبيعية وفي سلوك وعادات سكانها، فلا زال هذا الغزو الحضري غير راسخ الأركان، وذلك لاستمرارية ودوام تمسك الشخص الشرقي المسلم بكثير من عادات وتقاليد الأجداد والآباء الموروثة. إلا أن هذا لم يمنع من أن يقوم كثير من هؤلاء بتقليد أعمى لبعض ما يضلهم من مستوردات حضرية. ونتيجة لهذا التخبط بين الحضارة الوافدة وبين حضارة وعادات الشرق الراسخة نجد أن هناك تيارا لا يمكن مقاومته، أخذ يؤثر على النمط والطرز المعمارية في المدينة الإسلامية، وكذلك على أسلوب حياة وسلوك أبناءها، وبالرغم من استمرارية تمسكهم وتظاهرهم بالعادات والتقاليد الموروثة، ولهذا فإننا سنحاول فيما يأتي أن نختبر مدى التأثير الذي أحدثته هذه الحضارة الوافدة ، خاصة في مجال الوظائف التجارية والسكنية والنقل على مدى عالمنا الإسلامي .

١ ـ تغير تركيب الوظيفة التجارية للمدينة الإسلامية الموروثة :

أ ـ الطرز الحديثة في بناء الأسواق :

إن أغلب الطرز المعمارية الموروثة للأسواق كانت ولا زال قسم منها تتميز ببساطة بنائها وقلة عدد طوابقها، إلا أنها أخذت بعد ذلك طابع التعقيد والتجميل، فبدلا من الطراز القديم لوحدات تصريف الإنتاج (الدكاكين) المتميز بصغر حجمه وانفتاح واجهته وطريقة عرضه الواضحة للسلع، نجد الآن محلات فارهة متخصصة، وذات واجهات وأبواب زجاجية ومكيفة الهواء من الداخل صيفا وشتاء. كما أن مكان بعض الخانات الكبيرة التي كانت سابقا ذات وظيفة خزنية ومكان لتجارة الجملة تحولت إلى عمارات حديثة الطرز، ذات طوابق متعددة ووظائف جديدة، فنجد فيها مثلا كثرة المكاتب لشركات ومؤسسات التصدير والاستيراد



التغيرات التي حدثت في مراكز المدن أو الأسواق
(المصدر : دتمان ، ١٩٦٩م) .
شكل (٧) .

والقوميسون، وكذلك احتواءها بالإضافة إلى ذلك على مكاتب للمحامين، كما أن أجزاء من هذه العمارات أخذت تستغل من قبل بعض الحرفيين كالخياطين والدلالين والمضاربين وغيرهم. أما تجار المفرد فنجدهم يحتلون الطوابق الأرضية لهذه العمارات التجارية وهذا ما نجده في كثير من مدن العالم الإسلامي الكبير، كدمشق وتبريز وتونس وبغداد وغيرها[٢٠] .

ب ـ التغير الوظيفي في استخدامات الأرض في السوق :

لقد كانت المحلات التجارية المجاورة للجامع الرئيسي قبل حدوث الغزو الحضري ذات قيمة اقتصادية واجتماعية عالية، حيث كانت هناك تعرض السلع النادرة والغالية الثمن، كالكتب والأقمشة المستوردة، وكذلك السلع الكمالية والاستهلاكية العالية القيمة. وغالبا ما كان أحد باعة المفرد يتعامل آنذاك بأكثر من سلعة واحدة، أي ندرة وجود ظاهرة التخصص. ونتيجة للتزاوج الحضري في بداية هذا القرن حدث تغيير ملحوظ جدا في أماكن عرض السلع الجيدة، وذلك لصالح مداخل الأسواق الرئيسة وفي الشوارع المفتوحة حديثا في المدينة القديمة (الشكل ٧) . ومن هذا نستنتج بأن القيمة لأماكن التصريف القديمة التي كانت مجاورة للجامع الرئيسي أو في الأسواق المعروفة سابقا، انخفضت اجتماعيا واقتصاديا. والجدول الإحصائي التالي يوضح لنا الاختلاف الذي حدث في الوظائف لأربعة أسواق في تبريز (إيران)، أحصيت في فترتين زمنيتين متباعدتين .

اسم السوق	موجودات السوق حسب تحقيق ولسن سنة ١٨٩٩	موجودات السوق حسب شفايزر سنة ١٩٧٢
بازار أمير	أقمشة، وملابس، ومصوغات فضية .	أقمشة، ومصوعات ذهبية (المصوغات الفضية توجد اليوم في شارع بهلوي)
سراي أمير	شرك عائلة سيكلر المتحدة والبنك القيصري، تجار أوربيون ومحليون .	تجارة جملة الأقمشة الوطنية، ومخازن للسجاد والصوف .
تمشية كرجي	سلع روسية ذات قيمة واطئة.	سجاد فقط .
رسته بازار جديد	زجاج ، فرنوريات، مزهريات، فوانيس، جلود، سجاد، شاى، سكر	مصوغات ملابس وأدوات منزلية .

ومن هذا نفهم أن معروضات أحد الأسواق في فترة زمنية معينة ليس معناه أن السوق سوف يبقى يعرض نفس موجوداته السابقة لمدد طويلة متواصلة، وإنما يحدث تغيير في الوظائف بين آونة وأخرى، وذلك تبعا للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في البلاد أو المدينة، فنجد في الجدول اختفاء بعض المؤسسات والمصالح، وكذلك بعض السلع المتطورة في شارع سراي أمير ورسته بازار جديد في إحصاء شفايزر سنة ١٩٧٢، وذلك لانتقالها (استنادا لنفس المؤلف) إلى خارج السوق المركزي القديم، أي إلى الأسواق والشوارع المفتوحة حديثا. كما أن المشتري أخذت تستهويه وتجذبه المحلات التجارية الحديثة المميزة بطرازأبنيتها الحديث وطريقة عرضها الجيد. ولأسباب حضرية تكنولوجية وفنية بحتة وجب انتقال تجارة الجملة (خاصة تلك السلع الكبيرة الحجم، والتي تستغل حيزا كبيرا من المكان)، والتي كانت تتركز في السوق المركزي

الموروث إلى أطراف هذا السوق أو إلى حافات المدن (كعلاوي المخضرات والسكلات)، حيث تتوفر وسائط النقل الحديثة، والشوارع العريضة الجديدة، والتي سهلت كثيرا من مشاكل النقل والتفريغ القديمة. اما الوظائف الحالية التي أخذت تشغلها الأماكن المتروكة كالخانات والعلاوي فهى تحول هذه الأماكن إلى ورشات عمل للنجارين والحدادين والصفارين والسراجين، وكذلك إلى مخازن صغيرة لتجار باعة المفرد أو باعة السلع الكمالية، والبعض الآخر منها حول إلى عمارات متعددة الطوابق ذات وظائف تجارية مختلفة.(٢٢)

جـ ـ الانفصال بين وحدات التصريف والوحدات الإنتاجية في السوق :

ويقصد به هنا الانفصال المكاني بين المحلات التي تتعامل بتجارة المفرد للسلع المختلفة وبين تلك التي تنتج هذه السلع أو تقوم بأعمال حرفية معينة. فبعد أن كان السوق القديم أو الموروث يتصف بتقارب أماكن بيع السلع التجارية أو صناعتها، حدث الانفصال تدريجيا لأسباب اقتصادية توسعية أو احتياطية (كتجنب الحرائق والروائح النتنة)، فانتقل أصحاب الصناعات والحرف إلى أطراف السوق أو حافات المدن، وبقي في السوق تجار المفرد وبعض تجار الجملة (خاصة أولئك المتعاملين بالسلع ذات الحجوم غير الكبيرة) كتجار بيع السجاد والأقمشة والسلع المنزلية كالأواني وأدوات الطبخ ، وكذلك باعة السلع الكهربائية والاستهلاكية كالسكر والشاي والتبوغ والكرزات والمعلبات وغيرها .

وعموما يمكن القول: إن السوق الإسلامي التقليدي بالرغم من التغيرات التي طرأت عليه خلال العقود القليلة الأخيرة، فإنه لا يزال يستقبل ألوف الناس يوميا كعملاء أو كمشترين . والشيء الوحيد الذي يتميز به مرتادو هذه الأسواق هو قلة قدراتهم الشرائية، لأنهم غالبا ما يتكونون من الطبقات الفقيرة أو المتوسطة، ولا يستطيعون أن يشبعوا رغباتهم الاستهلاكية إلا من هذه الأسواق التي تميل بدورها إلى مثل هذه الفئات من السكان، وتعرض لهم سلعا تتلاءم ورغباتهم وأذواقهم، وبأثمان غالبا ما تتصف بانخفاض السعر، ولكنها تتصف بقلة الجودة والمتانة .

٢ ـ المراكز التجارية الجديدة ذات الطابع الغربي :

بجانب السوق أو البازار الموروث الذي لا يزال يقوم بوظائف لا يمكن الاستغناء عنها

لسكنة المدينة من ذوي الدخول الواطئة والمتوسطة كما رأينا، ظهرت أسواق جديدة عصرية في طرز بنائها وهندستها داخل نفس المدينة القديمة أو على حافاتها، ويمكن إعادة نشوء وتطور هذه الأسواق إلى فترتين زمنيتين هما:

أ ـ فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية :

تحت ظروف التكنولوجيا الحديثة المستوردة خاصة وسائط النقل كالسيارات، أصبح من الضرورة جدا أن تشق شوارع طولية وعرضية داخل المدن الإسلامية الموروثة .

ويمكن اعتبار تاريخ ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرة نقطة تحول في تغير مورفولوجية المدينة الإسلامية ، حيث تم استغلال معظم هذه الشوارع الحديثة لأغراض تجارية بحتة، تتلاءم مع التطور الجديد الذي أخذ يغزو هذه المدن. فأنشئت العمارات التجارية المتعددة الطوابق، والمحلات التجارية ذات الطرز الحديثة، بحيث أدى هذا إلى تغير شكل المدينة التقليدية تغيرا جذريا، فالطرق التكنولوجية الحديثة التي استخدمت في تطوير شارع الرشيد في بغداد مثلا، وفي مدينة تبريز (في المنطقة المحاذية لشارع خيبان بهلوي)، وكذلك في مدينة حلب (في المنطقة الشمالية والغربية لساحة باب الفرج)، وفي شيراز (في قلب القلعة القديمة)[٢٣]، ما هي إلا دلائل على مثل هذه التغيرات المورفولوجية للمدينة الإسلامية من ناحية تغير شكل وتركيب المواقع التجارية فيها. إن طريقة العرض الحديث ، وأسلوب البيع الجديد للسلع والبضائع ، وكذلك الهندسة المعمارية المتطورة، والديكورات الجذابة لمحلات تصريف هذه السلع، لا يمكن توفرها إلا في مثل هذه الأسواق ذات الشوارع العريضة الفارهة. ولهذا فإننا نجد اليوم تركز كثير من أصحاب المصالح الحديثة في مثل هذه الشوارع السوقية، فهناك فنادق الدرجة الثانية (وأحيانا الأولى)، ومكاتب شركات النقل والسفر والكازينوات، وكذلك دور العرض السينمائية من الدرجة الأولى والثانية، ومحلات عرض وبيع الأقمشة الجاهزة، وحلاقو المودة ومصففو الشعر للنساء، ومحلات بيع الروائح والعطور ومواد التجميل ، وبائعو الأحذية الرجالية والأحذية النسائية ذات الكعوب العالية، والمصورون ، وبائعو النظارات الطبية والشمسية، والصاغة، ومحلات بيع الموبيليا الحديثة، والأدوات الكهربائية والغازية على اختلاف أنواعها، والصور الزيتية، وكذلك محلات بيع الآلات الكاتبة وعربات الأطفال ولعبهم، وكذلك محلات بيع الحلويات الجيدة والشكولاته والمعلبات ، وعيادات

الأطباء المتخصصين والصيدليات ، ومكاتب المحامين، وكذلك محلات بيع التأسيسات الصحية، ومحلات بيع الزهور وغيرها. كل أصحاب هذه المحلات كما رأينا يتعاملون ببيع سلع وخدمات حديثة غالبها مستورد أو مصدرها غربي لم يعرفها سوق المدينة الإسلامية التقليدي من قبل .

ب ـ فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية :

تعد هذه الأسواق التي أنشئت على حافات مدننا الإسلامية الموروثة (خارج نطاق حدود أسوار المدينة القديمة)، على الرغم من محدودية وجودها في المدن الإسلامية، نسخة شبه مطابقة لأحد الأسواق الغربية، وأحسن مثال على تلك الأنواع من الأسواق هو شارع أو سوق «الحمرة» في بيروت (قبل الحرب الأهلية الأخيرة)، وفي المنطقة المجاورة للسوق المركزي القديم وشمال الحي الذي يطلق عليه اليوم بخيبان لاله زار في طهران[٢٥]، ففي مثل هذه الأسواق الحديثة الطراز جدا تتمركز العمارات العالية والفخمة، وكذلك مكاتب شركات الطيران العالمية والسفارات الأجنبية. ويتردد على مثل هذه الأسواق للتزود بسلعها وخدماتها أغلبية الطبقات ذات الدخول المرتفعة، ومن ذوي الثقافة وطبيعة الاستهلاك الغربي، وكذلك الأجانب الأوربيون .

ومما هو جدير بالذكر والملاحظة لمن يزور هذه الأسواق الحديثة أنها على الرغم من مظهرها المصقول بقالب غربي لا زالت تحوي معالم طرز عمارية وتنظيمية شرقية موروثة، فنجد مثلا في طرز بعض عماراتها الحديثة انتقال الفناء أو الساحة المتروكة المتعارف على وجودها في غالبية خانات وبيوتات العصر الموروث، إلى مثل هذه الدور الحديثة[٢٦] وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم تحقق الانفصال التام بين طرز وهندسة الأبنية القديمة وبين تلك التي اكتسبت تصاميمها من حضارات أخرى .

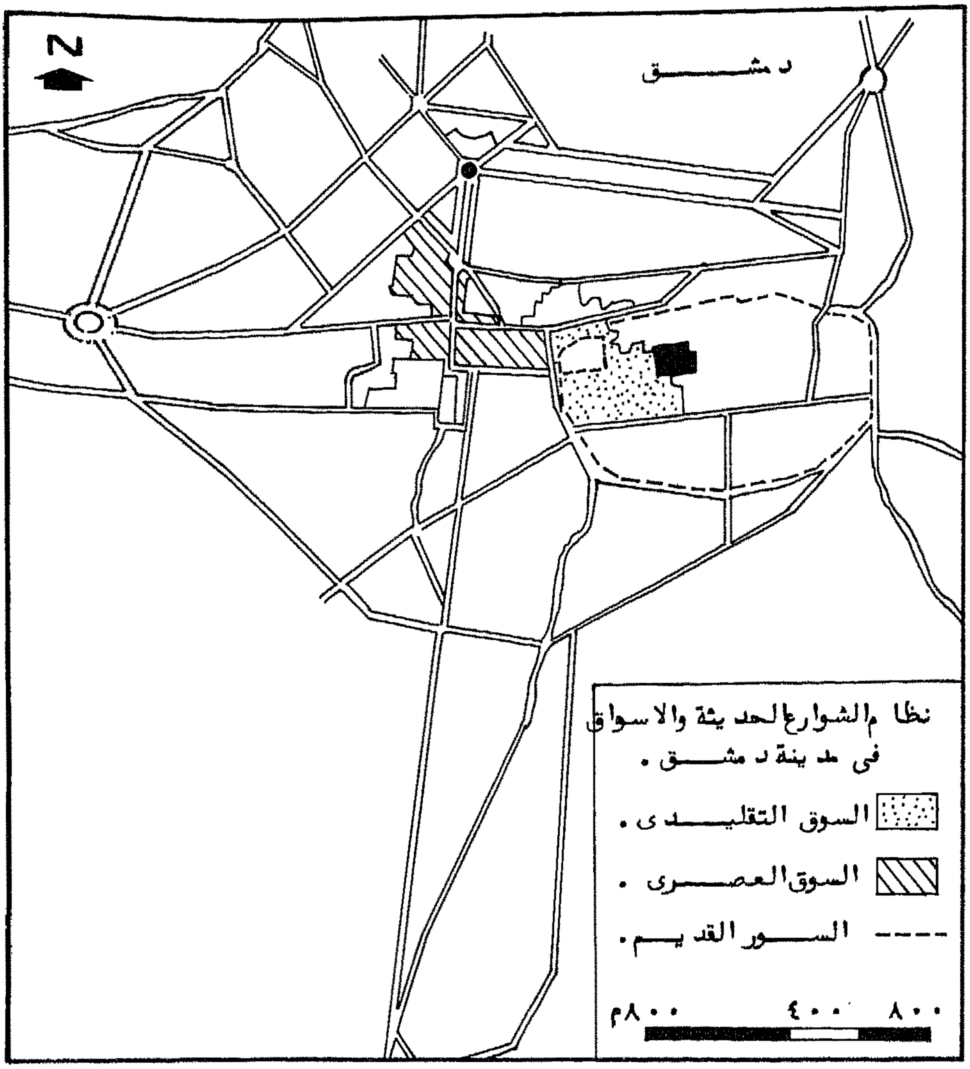
كما أن ما يمكن ملاحظته عند زيارة مثل هذه الأسواق الحديثة أيضا هو أن الطرق التنظيمية المتبع سلوكها في عرض السلع وبيعها في السوق المركزي القديم هو التخصص وتجاور أصحاب السلع المتشابهة بعضها مع بعض، فقد أخذت لها صورة مطابقة في مثل هذه الأسواق الحديثة، وهذا ما لا يمكن ملاحظته أو مشاهدته في أسواق المدينة الغربية، خاصة ما يتعلق الأمر بتجاور أصحاب محلات لم يعتمد في طريقة تنظيمه المورفولوجي على نفس

الأسس والمبادئ والطرق المتبعة في السوق الغربية، بل نقل شيئا من تنظيم السوق الموروثة إلى السوق الحديثة .

٣ ـ تغير تركيب الوظيفة السكنية للمدينة الإسلامية بعد الغزو الحضري :

لقد حدثت بعد الحرب العالمية الأولى، وخاصة في الثلاثينيات، تغيرات ملموسة وواضحة على شكل وتركيب الوظيفة السكنية في المدينة الإسلامية، والسبب الحقيقي الذي أدى إلى مثل هذا التغير هو تطور الاتصال بالعالم المتقدم، وكثرة تدفق الصناعات المتطورة الحديثة، مثل وسائط النقل والمصانع والمكائن وغيرها إليها . وكان من نتائج هذا الغزو الحضري وجوب فتح الشوارع الحديثة، وإجراء تغيرات في التركيب القديم للوظائف. فحدث تغير وتفكك في التركيب والترابط الاجتماعي، خاصة في نهاية الحكم العثماني وما بين الحربين العالميتين، فقد ترك أصحاب الثروات العالية والمستوطنون الأوربيون محلات سكنهم القديمة إلى محلات سكن حديثة، فخرج الفرنسيون والإيطاليون مثلا من مدن المغرب العربي كما كان هو الحال في تونس والجزائر وليبيا[٢٧]، حيث بدأوها بالهجرة إلى حواف وأطراف المدينة القديمة، أي خارج حدود أسوارها التي هدمت أو أهملت نتيجة لفقدان الحماية التي كانت تقدمها سابقا لسكانها (تقدم أسلحة الحرب)، وبذلك فقد أضحت المدينة القديمة نتيجة لهذا التغير مأوى للطبقات الفقيرة، وكذلك مكانا لتقديم الخدمات وورشة كبيرة لأصحاب الحرف والصناعات الصغيرة. ولهذا فقد انخفض التقويم الاجتماعي للأحياء السكنية القديمة في مراكز مدن العالم الإسلامي التقليدية بالمقارنة لتلك الأحياء السكنية الحديثة التي أنشئت على أطراف هذه المدن، وذلك لعدة أسباب، منها: توفر وسائط النقل الحديثة والسريعة، توفر وسائل التسلية واللهو القريبة منها كالحدائق العامة والمتنزهات، وكذلك توفر الأسواق وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن غالبية سكنة هذه الأحياء (الأحياء الحديثة) هم من أصحاب الدخول والقدرات المادية العالية، ولهذا السبب أو غيره (ثقافي أو اجتماعي) فإنهم يتميزون بتقبل كل ما هو حديث وطارئ، بحيث إن هذا التصرف انعكس على أذواقهم وطريقة عيشهم، فنراهم يمتطون السيارات الفاخرة، ويلبسون ما ينسجم مع المودة الوافدة، ويسكنون المنازل ذات الطرز الفنية والمستقاة هندستها من أمهات المدن الأوربية والأمريكية .



شكل (٨) نظام الشوارع الحديثة والأسواق فى مدينة دمشق

ومما يمكن ملاحظته في هذا المجال أيضا هو أن أغلب هذه الأحياء ذات التقويم الاجتماعي والمادي المرتفع تقع إما على شواطئ الأنهار مباشرة كما هي الحال في بغداد، أو في سفوح الجبال كما هو الأمر في دمشق وطهران، أو تلك التي تطل على البحر أو الشاطئ كما في رأس بيروت في لبنان. ومما يجلب الانتباه في الأحياء السكنية الحديثة في مدن العالم الإسلامي هو أخذها ببعض التقاليد في التركيب السكني القديم، أي التجاور السكني لأصحاب الحرفة أوالمعتقدات الواحدة بعضهم لبعض، كما نجد ذلك في بعض أحياء بغداد الحديثة (غالبا ما هو تركيب وظيفي وحرفي) كحي الشرطة، والضباط، والمهندسين، والحقوقيين، والمعلمين، أو حي السكك، وحي العامل، أو الحي الأثوري وغيرها. أما في بيروت فنجد أن التركيب السكني تغلب عليه الروح الطائفية، فهناك حي سني، وآخر شيعي، وماروني، ويهودي، وأرمني، ويوناني، وأرثوذكسي وهكذا ...(٢٨)

٤ ـ وسائط النقل الحديثة وأثرها في تغير مورفولوجية المدينة الإسلامية :

كما مر بنا في مواضع كثيرة من هذا البحث أنه كان لوسائط النقل الحديثة كالسيارات ومولدات الاحتراق الأخرى أثر بعيد في تغيير مورفولوجية المدينة الإسلامية التقليدية، فبعد أن كانت أنظمة شوارع المدينة وأزقتها تتميز بالضيق والالتواء وكثرة التشعب، والتي كانت آنذاك تتلاءم مع وسائط النقل والمستوى الاقتصادي والاجتماعي السائد، أصبح بعد شق وإنشاء الشوارع الحديثة الطولية والعرضية فيها تأثير واضح وملموس على شكل وتركيب المدينة القديم، حيث نتيجة لذلك تغيرت وظيفة استعمال الأرض من مكان لآخر ، فسهولة عملية النقل داخل المدينة أثرت في سرعة إنشاء العمارات المتعددة الطوابق والأسواق الحديثة، وخاصة في الشوارع المفتوحة حديثا. (الشكل ٨) .

ليس هذا فقط وإنما كان لوجود هذا النوع من السلع (السيارات) أثر جديد وغريب على أسواق المدينة الإسلامية التقليدية، هو تطور نوع جديد في الأسواق ، وهي الأسواق الخاصة بتصليح وبيع السيارات، وقد احتلت مثل هذه الأسواق أماكن واسعة في أطراف المدينة الإسلامية، كما نجد ذلك في شارع الشيخ عمر وشارع الشيخ معروف في بغداد، وكذلك الحال في مدينة أصفهان وحلب وطهران وغيرها من مدن العالم الإسلامي .

وقد أخذت هذه الأسواق أيضا فكرة التخصص في بيع السلع، وتجاور أصحاب الحرفة الواحدة لبعضهم البعض .

وكان لإدخال وسائط النقل الحديثة في بلاد العالم الإسلامي، بالإضافة إلى ما ورد سابقا، دور خطير في تطوير ونمو أماكن صغيرة إلى مدن كبيرة ذات وظائف مركزية متعددة، وقد حدث هذا بالنسبة لتلك الأماكن التي كانت تقع بين المدن الكبيرة التي تفصلها مسافات بعيدة. فغالبا ما يضطر سائقو السيارات، لأسباب فنية تتعلق بواسطة النقل نفسها، أو لأسباب خاصة برغبات المسافرين، إلى التوقف لراحة قصيرة في المناطق التي يتوفر بها الماء والظل وبعض الخدمات البسيطة الأخرى، وبمرور الوقت ونتيجة لهذه الأسباب تطورت هذه المناطق التي كانت في السابق غالبا ما تخدم احتياجات القوافل التجارية، والتي كانت شبه قرى بدائية، إلى مدن تتوفر فيها ما يحتاج إليه المسافرون ووسائط نقلهم من سلع وخدمات حديثة ومتطورة، وهذا ما يمكن أن نجده في بعض مدن العراق الصغيرة مثلا كالمحمودية والإسكندرية والمسيب الواقعة على الطريق الممتد بين بغداد وكربلاء والبالغة مسافته مائة كيلو متر .

وملخص لهذا الفصل أننا نجد أن الغزو الحضري على الرغم من تأثيره تأثيرا كبيرا في تركيب المدينة الإسلامية ، وذلك من حيث تغير استعمالات الأرض والتركيب البنائي، فإنه لم يؤثر على طبيعة وسلوك سكنة المدينة الإسلامية تأثيرا جذريا وحاسما ، بل إن تركيب السوق بقي متأثرا ببعض خصائص السوق القديم، خاصة في مجال التخصص وتجاور أصحاب السلع المتشابهة بعضها مع بعض. أما الأحياء السكنية فإنها على الرغم من المعالم الحضرية الكثيرة التي دخلت على مظهرها لا تزال تخضع للقاعدة القديمة الموروثة، ألا وهي تجاور أصحاب الوظيفة أو الحرفة أو المعتقد الواحد لبعضهم البعض، وإن دل هذا التطور الجديد على شيء فإنه يدل على أن المدينة الإسلامية الحديثة التي أخذت مبادىء تطورها وتقدمها من المدينة الغربية الأوربية لا تزال تساير إلى حد ما سلوكها وطبيعتها الموروثة حتى الآن .

رابعا : التشابه والاختلاف في خصائص المدينة الإسلامية الموروثة (وأحيائها العصرية) الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي الشمال الغربي لشبه القارة الهندية (باكستان وأفغانستان) .

١ ـ وجوه التشابه والاختلاف في المعالم المورفولوجية للمدينة الإسلامية الموروثة :

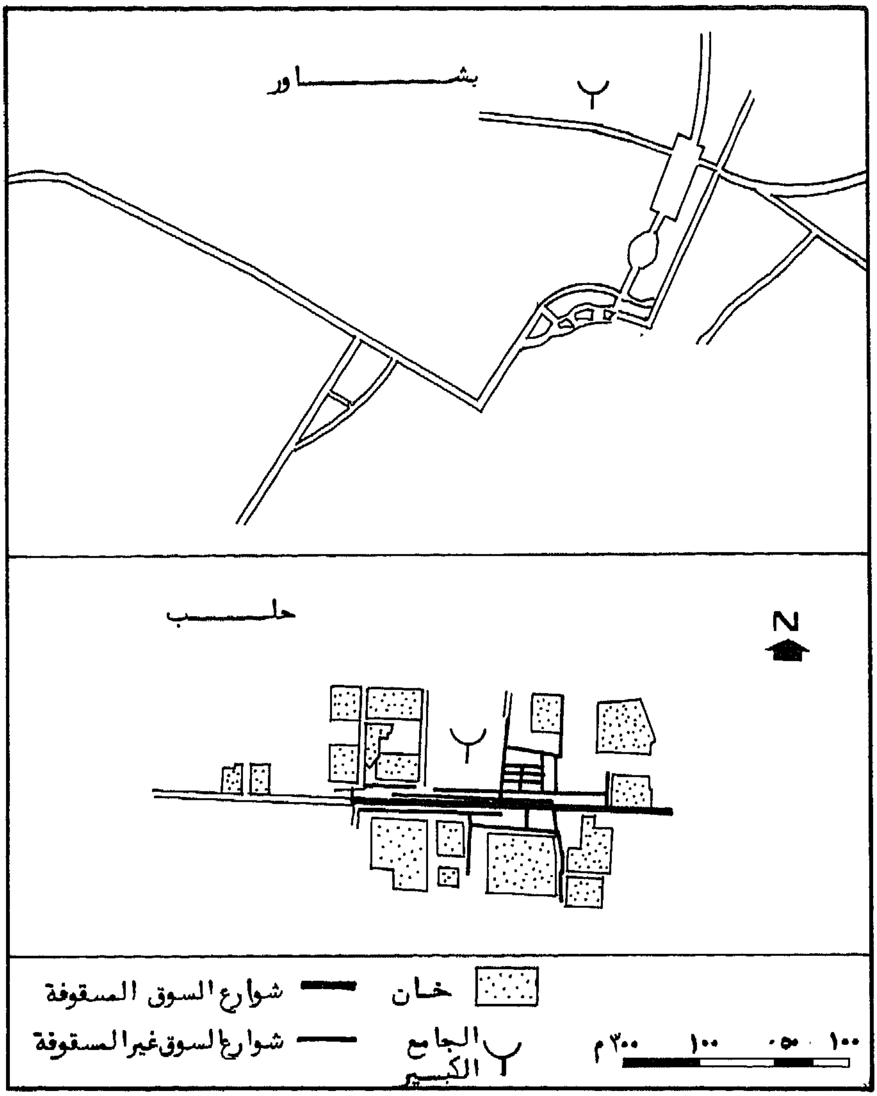
أ ـ وجوه التشــابه:

هناك كثير من وجوه التشابه بين مدن العالم الإسلامي، وخاصة بين تلك التي تقع في شرقه الأقصى، أي مدن الباكستان وأفغانستان، وبين تلك التي تقع في حوض البحر الأبيض المتوسط أو قريبا منه كمدن العراق وسوريا وتركيا وإيران ولبنان ومصر. ويمكن تحديد المعالم المورفولوجية الواضحة لمثل هذا التشابه في كلا المنطقتين بالنقاط التالية :

* مركزية الجامع الرئيسي لوسط المدينة القديم .
* تجاور السوق المركزي الموروث للجامع الرئيسي .
* التشابه في نظام الشوارع والأزقة .
* وجود الأحياء السكنية المنفصلة بعضها عن البعض بسبب صلة القرابة أو الدين أو القومية أو المهنة .
* وجود الفناء أو الفضوة الخالية (غير المسقوفة) في البيوت السكنية والخانات .
* وجود الأسوار أو آثارها المحيطة في المدينة .
* تركز الحياة الاقتصادية في سوق المدينة المركزي .
* شيوع ظاهرة التخصص في بيع سلعة واحدة، وظاهرة تجاور أصحاب السلع المتشابهة بعضها البعض .
* كثرة أصحاب الحرف والصناعات الصغيرة والخفيفة في السوق الموروث وجواره .
* وجود أسواق خاصة بالمزارعين والريفيين .

ب ـ وجوه الاختلاف :

إن أهم ما يميز البيوت السكنية في مدن غرب العالم الإسلامي (مدن حوض البحر الأبيض المتوسط) عن مدن شرقه هو أنها تتألف من طابق واحد أو طابقين، تتصف بالاتجاه أو الميل البسيط نحو الشارع أو الزقاق الذي تقع عليه ، وهذا يعكس الطراز المعماري للبيوت السكنية في الباكستان وأفغانستان، حيث إن دورها المتعددة الطوابق ذات ميل أو اتجاه نحو الخلف، أي إنها من هذه الناحية بعكس مدن الغرب الإسلامي تماما. كما أن هذه الدور



شكل (٩) نظام الشوارع السوقية فى مدينتين اسلاميتين

(المصدر : دتمان ، ١٩٦٩م٠)

السكنية تتصف بكثرة عدد النوافذ في جميع طوابقها، وهذا بالمقارنة لمدن العالم الإسلامي في حوض البحر المتوسط غير متعارف عليه إلا في الطوابق العلوية من الدور السكنية(٢٩). أما بالنسبة لنظام السوق في كلتا المنطقتين من العالم الإسلامي فإننا نجد في أسـواق المدن الإسلامية التقليدية الموروثة في حوض البحر الأبيض المتوسط ميزة تنفرد بها هذه الأسواق، هي خلوها من الوظيفة السكنية، أي عدم وجود المساكن داخلها، وأنها تحوي فقط على وحدات للتصريف وللإنتاج، وبحلول الظلام تخلو من كل إنسان ما عدا الحراس الليليين ودوريات البوليس، وهذا بعكس أسواق مدن الشمال الغربي لشبه القارة الهندية تماما، حيث إننا نجد هناك أن تاجر المفرد أو صاحب الحرفة اليدوية يسكن مع أفراد عائلته في أحد أقسام المحل، أو أن مسكنه يوجد في الطوابق العلوية لتلك العمارة الموجود فيها المحل التجاري أو الورشة الصناعية، ومن هذا يمكن أن نفهم أيضا أنه لا توجد في أحياء مدن شرق العالم الإسلامي الموروثة (باستثناء الأحياء الحديثة) أسواق محلية كالتي نجدها في المحلات السكنية في مدن البحر الأبيض المتوسط التقليدية، بل إن السوق المركزية هي المكان الوحيد للتزود بالبضائع والسلع والخدمات على مختلف أنواعها ومن غالبية سكنة المدينة، وهذا طبعا عكس ما نجده في الطرف الآخر من أسواق مدن العالم الإسلامي، حيث يوجد هناك انفصال تام بين الأسواق المحلية، أي تلك الموجودة في الأحياء السكنية، والتي من وظائفها تزويد سكنة المحلة بالسلع والخدمات اليومية كاللحوم والفواكه والخضر وخدمات الحلاق والصفار والنجار وغيرها، وبين الأسواق المركزية التي غالبا ما تزود سكنة المدينة بسلع وخدمات ذات ديمومة ومواصفات خاصة .

ومما تتميز به أسواق مدن الباكستان وأفغانستان أيضا أن أسواقها تتصف بالاتسـاع العمودي، وبطول واستقامة شوارعها، وأزقتها السوقية غير المسقوفة، أي عكس ما نجده في أسواق مدن مقدمة آسيا، حيث الأسواق ذات اتساع أفقي وضيقة وقصيرة متعرجة، ولكن أغلبها مسقوفة(٣٠) (الشكل ٩) .

ومن الاختلافات الأخرى لمورفولوجية السوقين هو أن الخانات في مدن شرق العالـم الإسلامي تقع في الغالب خارج نطاق السوق المركزي، أي على حدود المدينة ، وهذا هو تماما عكس ما هو معروف في أسواق مدن مقدمة آسيا الإسلامية، حيث غالبا ما توجد في وسط أو بالقرب من الأسواق المركزية .

ومن تركيزنا الجيد على ملاحظة الاختلافات المذكورة أعلاه نجد أن أسواق مدن الغرب الإسلامي تختلف عن الأسواق في الشرق الإسلامي من حيث تركيبها المورفولوجي العام، حيث في الأولى يغلب على أبنية وهندسة أسواقها التشابه الكبير، أما في الأخرى فإن هذه تتصف بعدم الأحادية والتشابه .

٢ ـ وجوه التشابه والاختلاف في المعالـم المورفولـوجية للأحياء العصرية في المدينة الإسلامية الموروثة :

أ ـ وجوه التشابه :

يتميز هذا النوع من الأحياء وفي كافة مدن العالم الإسلامي بتشابه كبير في نمط وطرز بنائها المعماري والهندسي. ويمكن إعادة هذا التطور إلى تأثيرات الغزو الحضري عن طريق الاقتباس وتأثيرات السيطرة الأجنبية في المنطقتين خاصة فرنسا وبريطانيا. ولا يتجاوز عمر هذه التوسعات الحديثة في الأحياء الجديدة بين المئة والخمسين والمئة سنة الأخيرة. والصفة الغالبة على مثل هذه الأحياء هو حسن وجودة تنظيم شوارعها، وتشابه في الطرز الهندسية والمعمارية للدور السكنية التابعة لها. أما أسواق هذه الأحياء فهي تتشابه أيضا من حيث تركيبها المورفولوجي العام، ومن حيث الخدمات والسلع التي تقدمها وذلك في كافة هذه المناطق. (راجع الصفحة ٢٣) .

ب ـ وجوه الاختلاف:

إن أهم ما يميز تطور الأحياء السكنية في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط الإسلامية عنه في شرق العالم الإسلامي (باكستان وأفغانستان) هو أن إنشاء وتوسع الأحياء السكنية في أغلب مدن المنطقة الأولى اتصف بشيء من البطء، وأن أي توسع حدث لم يكن طفر على حساب الحدود البلدية للمدينة القديمة (التقليدية)، وإنما كان امتدادا لها. أما في المنطقة الثانية فإن التوسع لم يأخذ بالأسلوب المذكور، وإنما أخذ طور الانفصال الواضح عن المدينة الموروثة، وذلك لأسباب أمنية احتياطية اتبعها الإنكليز عند إنشائهم وتأسيسهم هذه الأحياء السكنية لجنودهم ومواطنيهم المدنيين في الأطراف البعيدة من المدن، كما نجد ذلك في مدينة روالبندي في باكستان. وكانت هذه المناطق التي أنشئت على هذا الغرار في النصف الثاني من

القرن الماضي ذات وظائف عسكرية، غالبا ما يفصلها عن المدينة القديمة محطات وخطوط سكك الحديد[٣١] (الشكل ١٠). وقد أطلق الإنكليز على هذه المناطق بـ Contonments والـ Civil Lines. فالمناطق الأولى حوت في جوانبها الثكنات العسكرية وساحات التدريب والرمي وكذلك المستشفيات والدوائر العسكرية، وبهذه المناطق مباشرة ترتبط الأحياء السكنية الحديثة لعوائل هذه المناطق العسكرية من الضباط والجنود الإنكليز. أما المناطق الثانية فهي بعكس الأولى، حيث إنها تضم فقط دوائر ومؤسسات عامة ذات وظائف غير عسكرية، كالدوائر المدنية كالبريد ومكاتب التلغراف والبنوك الأجنبية والوطنية وفنادق ودور عرض الأفلام السينمائية، وتضم كذلك المحلات التجارية التي تقدم سلعا وبضائع تنسجم مع الأذواق والأمزجة الغربية، كما تتوفر هنا أيضا مساكن وفلات حديثة لكبار الموظفين المدنيين الإنكليز، وتتخلل هذه المناطق الشوارع العريضة الطويلة والمستقيمة .

وتتألف أحياء الـ Contonments والـ Civil Lines من وحدات متجانسة، وتنطبق عليها صفات المدن، ولا يمكن أحيانا التفريق بين الاثنين من حيث تقديم الوظائف المختلفة[٣٢] .

ومن مميزات هذه الأحياء أنها تضم شوارع عريضة ومستقيمة ، وأن الوحدات السكنية فيها كبيرة الحجم وذات طرز هندسية غربية. ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن مجلس إدارة الكونتنمنت الذي تشرف عليه اليوم وزارة الدفاع الباكستانية تعارض في إجراء أي تغير داخلي في نمط التركيب المورفولوجي لهذه الأحياء الذي أوجده الإنكليز، والذي يوجب فصل المدينة الموروثة عن أحيائها الحديثة بفواصل معينة كبناء خطوط السكك الحديدية، أو وجود الفراغات غير المسكونة بين المنطقتين[٣٣]. أما بالنسبة للأسواق الحديثة في هذه المنطقة الإسلامية فإن تكوينها لم يكن نتيجة لتوسع طبيعي أوجدته الظروف الاقتصادية والاجتماعية، كما هو الحال بالنسبة لأسواق مدن منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، بل جاء نتيجة لتخطيط سابق أشرف عليه الإنكليز، ونفذوه عند تأسيسهم لمناطق الكونتمنت والسفيل لاين. ومن أهم تلك الأسواق التي أشرف على تنظيمها وتخطيطها الإنكليز هو سوق الصدر في مدينة روالبندي، والذي أنشئ في سبعينات القرن الماضي، أي في وقت تأسيس المعسكرات والأحياء السكنية المدنية. (الشكل ١٠). وكانت وظيفة السوق في البداية هو تقديم السلع والخدمات للجنود والهنود العاملين مع القوات الإنكليزية فقط، حيث حرم على هؤلاء آنذاك التزود بالسلع

والبضائع في سوق المدينة المركزي الموروث. إلا أن هذا السوق الذي يعتبر اليوم من حيث طراز عمارته الحديثة وموجوداته من السلع والخدمات من أكثر الأسواق تنظيما وتنسيقا في المدينة، وتؤمه في الآونة الأخيرة (أي بعد خروج الإنكليز) كافة الطبقات، خاصة الطبقات المتوسطة والفقيرة للتزود بسلعه وخدماته(٣٤) .

أما الأسواق الحديثة جدا والتي أنشئت في مناطق الكونتنمنت والسفيل لاين فقد كان إنشاؤها يتلاءم وأذواق الإنكليز من كافة الوجوه، وهي اليوم محل لتزويد الطبقات الغنية والمتوسطة ذات الأذواق والثقافة الغربية بكافة السلع والخدمات الجيدة والمتطورة. (الشكل ١٠) .



شكل - ١٠ - مدينة راولبندي بقسميها القديم والحديث
المصدر: دتمان ١٩٦٩

وخلاصة لهذه الدراسة ككل يمكننا أن نقول: إن المدينة الإسلامية بالرغم من نهوضها في منتصف القرن الماضي من سباتها الطويل، والذي أوجبته ظروف السيطرة الأجنبية والاستعمارية، فإنها لم تزل بالرغم من انفتاح أكثرها على العالم الخارجي المتمدن غير متكاملة الخواص، بسبب تقليدها لكل ما هو غريب عنها تقليدا أعمى، فنجد التناقض الكبير في هندسة أبنيتها وشوارعها وأسواقها واضحة بين مدينة إسلامية وأخرى، وحتى داخل المدينة الواحدة يمكن ملاحظة التناقضات نفسها. وإنه سيمر وقت طويل قبل أن تأخذ المدينة الإسلامية طابعا موحدا ومتميزا عن المدن ذات الحضارات الأخرى كالمدينة الأوربية والمدينة الصينية واليابانية. ولهذا فإن استمرار غياب التخطيط في بناء المدن ، وكذلك غياب الإشراف الحكومي الدقيق على تنفيذ مخططها المدروس، على نمو الأحياء السكنية الحديثة، والتغير الذي يجري في الأحياء القديمة، سوف يبقي مدننا الإسلامية عارية من كثير من المميزات الخاصة بها، وسيزيد في النهاية من تناقضاتها الكثيرة .

الحواشى

(١) جمال حمدان، جغرافية المدن، (القاهرة : مطبعة البيان العربى، ١٩٦٠) ص ١٣ .

(٢) عبدالرزاق عباس حسين، جغرافية المدن، (بغداد : مطبعة أسعد، ١٩٧٧)، ص ١ ـ ٣ .

(٣) جمال حمدان، المصدر السابق نفسه، ص ٥٨ .

(٤) عبدالرزاق عباس حسين، المصدر السابق، ص ٤ .

(٥) عبدالرزاق عباس حسين، نشأة مدن العراق وتطورها، (بغداد: مطبعة الإرشاد ١٩٧٧)، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٦) جمال حمدان، المصدر السابق، ص ٨٩ .

(٧) جمال حمدان، المصدر السابق، ص ٨٩ .

(٨) جمال حمدان، المصدر السابق، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٩) خالص الأشعب، أصالة المدينة العربية، (بغداد، مجلة آفاق عربية، العدد الأول، السنة ١٩٧٧م)، ص ٣٦ .

10 - Wirth, E : Die Soziale Stellung und Gliederung der Stadat im Osmanisschen Reich des 19. Jahrhunderts In: Vortrage und Forschungen Konstanz, Stuttgart 1966, pp. 403-427. (1966b).

11 - Wirth. E : OP. Cit., P. 405.

(١٢) خالص الأشعب، المصدر السابق، ص ٣٦ .

13 - Wirth, E : Strukturwandlungen und Entwicklungestendenzen der Orientalischen Stadt .- Erdkunde, XXII , 1968 , PP. 102-111.

14 - Lapidus , J.M. Muslim cities in the Later Middle Ages. Cambridge, Mass. 1967. p. 100.

15 - Cahen , C . : Ya-t-il des Coroporations Professionelles dans Le Monde Muselman Classiques ? in: Hourani , A. H., Stern, S.M. (Herg.) : the Islamic city. A Colloquium : Papers on Islamic History I , Oxford 1970 , pp. 51-63.

16 - Grunebbaum , E . V . : Die Islamische Stadt. Saeclum 6 , 1955 , pp. 138 - 153.

(١٧) خالص الأشعب، المصدر السابق، ص ٣٦ .

18 - Wirth , E : OP. Cit . , Stuttgart 1966, pp. 413 - 423.

19 - Bobek , H. : Die Hauptstufen der Gesellschafts - und Wirtschaftsentfaltung in Geographischer Sicht.
Die Eede 90 , 1959 , pp. 258 - 298.

(٢٠) لزيادة المعلومات عن مثل هذه التغيرات فى مدن العالم الإسلامي انظر الكتب والمجلات الجغرافية التالية :

Wirth , E : OP . Cit . , Erdkunde , XXII , 1968 , PP. 101-128.
Schweizer , G . : Tabriz (Nordwest-Iran) und der Tabrizer Bazar.- Erdkunde XXVI, 1972. pp. 32 - 46
Wagner . Horst - Gunter : Die Souks in der Medina von Tunis . Versuch Einer Standort Analyse von Einzelhandel und Handwerk in Einer Nordafrikanischen Stadt. - Schriften des Geographischen Instituts der Universitat Kiel , Band 38 , 1973 , pp. 91 - 135.
Al - Genabi , K.N. Hashim : Der Suq (Bazar) von Bagdad . Eine Wirtschafts und Sozialgeographische Untersuchung. Erlanger Geoger. Arb . , H . 36 , 1976 , PP. 34 - 122 .

21 - Schweizer , G. : OP . Cit . , P. 42
22 - Al - Genabi , K.N. Hashim : OP. Cit . , 34 - 122
23 - Wirth , E. : OP. Cit . , 1968 , PP. 101 - 128
24 - Ruppert , H . : Beirut, Eine Westliche Gepragte Stadt des Orients. Erlanger Geogr. Arbeiten, H. 27 Erlangen 1969, p. 84
25 - Wirth, E. : OP. Cit . , 1968 , pp. 101 - 128
26 - Wirth, E. : OP. Cit . , 1968 , PP. 115 - 116
27 - Wirth, E. : OP. Cit . , 1968 , PP. 177 - 122
28 - Ruppert, H. : OP. Cit . , P. 135
29 - Dettmann , K . : Zur Variationsbreite der Stadt in der Islamisch Orientalischen Welt . - GZ , 58 , 1970 , PP. 95 - 123
30 - Dettmann , K. : OP. Cit . , 1970 , PP. 95 - 123
31 - Dettmann , K. : OP. Cit . , 1970 , PP. 144
32 - Spate , O.H.K./ Learmonth, A.T. : India and Pakistan. 3. Aufl., Bungay / Suffolk 1967 . P. 215 .
33 - Dettmann , K. : OP. Cit . , 1970 , PP. 95 - 123
34 - Spate , O.H.K. / Learmonth , A. T. : OP. Cit . , P. 210 .

المصادر

١ ـ جمال حمدان، جغرافية المدن، القاهرة : مطبعة البيان العربي، ١٩٦٠م .

٢ ـ عبدالرزاق عباس حسين، جغرافية المدن، بغداد: مطبعة أسعد، ١٩٧٧م .

٣ ـ عبدالرزاق عباس حسين، نشأة مدن العراق وتطورها، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧٧م .

٤ ـ خالص الأشعب، أصالة المدينة العربية، بغداد: مجلة آفاق عربية العدد ١/١٩٧٧م .

5 - Al -Genabi ,K.N. Hashim : Der Suq (Bazar) von Bagdad. Eine Wirtschafts und Sozial Geographische Untersuchung . Erlanger Geoger. Arb ., H. 36, 1976 .

6 - Bobek , H . : Die Hauptstufen der Gesellschafts - und Wirtschaftsentfaltung in Geographischer Sicht . Die Erde 90 , 1959

7 - Cahen , C . : Ya-t-il des Corporations Professionelles dans le Monde Muselman Classiques ? ; In : Hourani , A.H., Stern, S. M. (Herg.) : The Islamic City. A Collequium , Papers on Islamic History I, Oxford 1970 .

8 - Dettmann , K . : Damaskus . Eine Orientalische Stadt Zwischen Tradition und Moderne . - Erlanger Geogr. Arb. , H. 26 , 1969 .

9 - Dettmann . K . : Zur Variationshreite der Stadt in der Islamisch Orientalischen Welt. Gz, 58 , 1970 .

10 - Grunebaum, E. V. : Die Islamische Stadt . Saeculum 6, 1955 .

11 - Lapidus , J . M . : Muslim Cities in the Later Middle Ages . Cambridge, Mass., 1967 .

12 - Ruppert , H . : Beirut , Eine Westlische Gepragte Stadt des Orients : Erlanger Geogr. Arb .. H. 27, Erlangen 1969 .

13 - Schweizer , G . : Tabriz (Nordwest - Iran) und der Tabrizer Bazar .-Erdkunde XXVI , 1972 .

14 - Spate , O.H.K. / Learmonth , A.T. : India and Pakistan 3 . Aufl . , Bungay / Suffolk 1967 .

15 - Wagner , Horst - Günter : Die Souk in der Medina von Tunis. Versuch Einer Standortanalyse von Einzelhandel und Handwerk in Einer Nordafrikanischen Stadt . - Schriften des Geographischen Instituts der Universitat Kiel , Band 38 , 1973 .

16 - Wirth , E . : Die Soziale Stellung und Gliederung der Stadt im Osmainischen Reich des 19, Jahrhunderts - In : Vortage und Forschungen 11 . Konstanz, Stuttgart 1966.
17 - Wirth . E. : Strukturwandlungen und Entwicklungstendendenzen der Orientalischen Stadt Erdkunde , XXII , 1968.

المدينة الإسلامية وخصائصها

دكتور صبري فارس الهيتي

نشــوء المدن الإســلامية :

بعد ظهور الدين الإسلامي وبدء الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) دعوته في مكة التي كانت مركزا لنفوذ قبيلة قريش التي عارضت تلك الدعوة في بداية الأمر، أمر الله سبحانه الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين إلى الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة)، حيث بدأت أول دولة عربية إسلامية ذات عاصمة سياسية وهي المدينة المنورة، ثم أصبحت هذه الدولة في أواخر حياة الرسول تشمل جميع الجزيرة العربية .

واستمرت المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية طوال عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) حتى جاء عهد الخليفة الأخير علي (رضي الله عنه)، حيث نقل مركز الخلافة إلى الكوفة بالعراق .

وقد شهد عهد الخليفتين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) الكثير من الفتوحات العربية الإسلامية، وقد نجح العرب المسلمون في تحرير العراق والشام ومصر من السيطرة الفارسية والرومانية، وأصبحت هذه الأقطار جزءاً من الدولة الإسلامية .

ولما انتهت العمليات العسكرية وبدأت مرحلة الاستقرار شعر العرب المسلمون بحاجتهم إلى إقامة المعسكرات وإلى الاستقرار لكي يستطيعوا أن يكونوا حامية تستطيع أن توطد أركان السيادة العربية الإسلامية .

وأصبح من المحتم بناء مدن جديدة تتوفر فيها شروط الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) التي كان من أهمها أن يكون المناخ ملائما للعرب وإبلها، ولا يفصلها عن الجزيرة العربية بحر(١) .

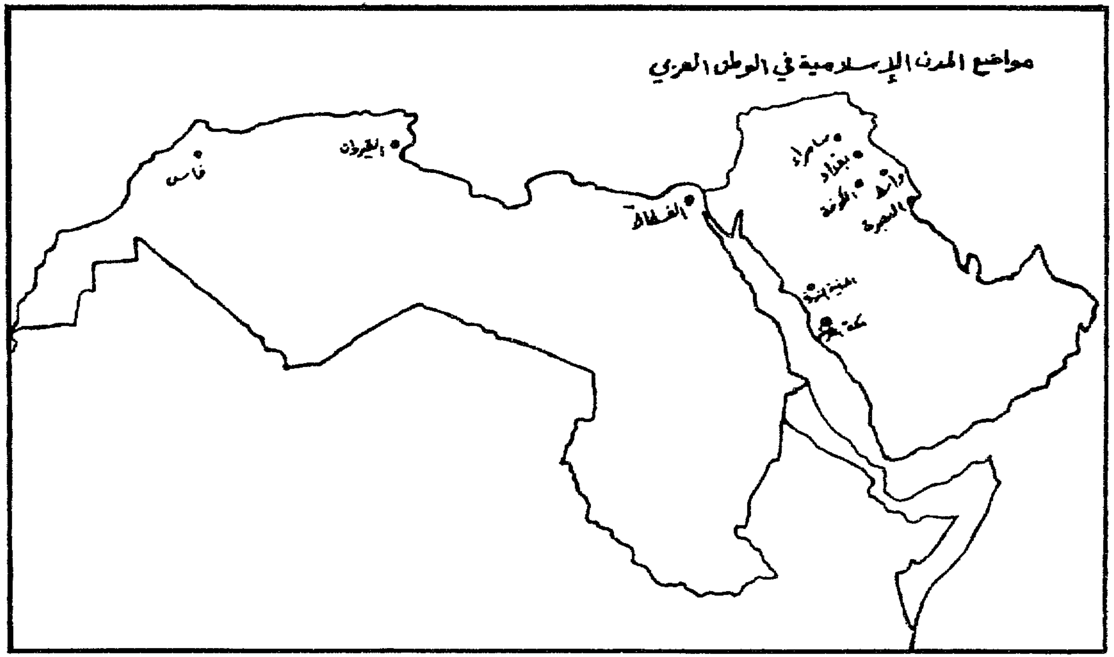
وهكذا عدت البصرة أول مدينة بنيت في الإسلام، إذ مصرت في ربيع سنة ١٤هـ، ثم تلتها الكوفة سنة ١٧هـ(٢)، والفسطاط في مصر التي اختطها عمرو بن العاص سنة ٢٠ أو ٢١ هـ(٣)، والقيروان في تونس التي بناها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ، وواسط التي اختطها الحجاج بن يوسف الثقفي في عام ٨٠ أو ٨١ هـ، وبغداد التي بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ، ثم سامراء التي بناها المعتصم سنة ٢٢١ هـ(٤). وهذه المدن سيتناولها البحث كأمثلة على المدن الإسلامية .

وقد بلغ عدد المدن التي أنشأها المسلمون خارج أرض الجزيرة العربية ما يزيد على مئتي مدينة خلال حكم الخلفاء الراشدين وفي العهدين الأموي والعباسي (٥) ويوضح الجدول التالي أهم تلك المدن، كما توضح الخارطة شكل (١) مواقعها .

المدينة	سنة بنائها (بالهجري)	مؤسسها
البصرة	١٤	عتبة بن غزوان
الكوفة	١٧	أبو الهياج الأسدي
الفسطاط	٢١	عمرو بن العاص
القيروان	٥٠ أو ٥١	عقبة بن نافع
واسط	٨٠ أو ٨١	الحجاج بن يوسف الثقفي
قم	٨٣	طلحة بن الأحوص الأشقري
هاشمية الكوفة	١٣٢	ابن هبيرة تم السفاح
هاشمية السفاح	١٣٢	أبو العباس السفاح
بغداد	١٤٥	المنصور
سامراء	٢٢١	المعتصم
فاس	١٩٢	إدريس الثاني

المصدر: د. ناجي معروف، عروبة المدن الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السابع، ١٩٦٤م ، ص ٣٧ ـ ٤١ .

خارطة شكل (١)


مواضع المدن الإسلامية في الوطن العربي
فاس
القيروان
الفسطاط
سامراء
بغداد
واسط
الكوفة
البصرة
المدينة المنورة
مكة

العوامل التي أثرت في اختيار مواضع المدن الإسلامية :

هناك عدة عوامل أثرت على نشوء وتخطيط المدن الإسلامية واتخاذها لمواضع معينة روعيت من قبل مخططيها، إذ لا يمكن لأي من تلك المدن أن تنشأ اعتباطا من دون ضوابط تحدد قيامها. ومن أهم تلك العوامل التي ينبغي الإشارة إليها هي :

١ ـ العوامل الطبيعية :

تعتبر دراسة المكان الذي تنشأ عليه المدينة من الخطوات المهمة التي ينبغي التأكيد عليها عند التخطيط لإنساء أية مدينة، فقد كان العرب إذا أرادوا بناء مدينة ارتادوا الأماكن المختلفة، وأجروا التحريات الطبوغرافية والتعبوية لمعرفة صلاحها للأغراض العسكرية، كما فعلوا ذلك عندما بنوا البصرة والكوفة وبغداد وسامراء وغيرها(٦) . وذلك لأن «ما تجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث غفل عن تلك المراعاة، ولما كانت المدن مركزاً للقرار والمأوى، وجب أن يراعى فيها دفع المضارب بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها»(٧) .

كما أن العرب المسلمين اختاروا مواضع معينة للمدن الساحلية، «فإذا لم تكن في موضع جبلي، تحتاج إلى ظهير بشري موفور العدد يكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدد، والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات، ولا موضعها متوعر في الجبل تكون في غرة للبيات، وسهل طروقها من الأساطيل البحرية على عدوها وتسحيقه لها، لما يأمن عن حكم المقاتلة»(٨) .

وهذا سعد بن أبي وقاص نراه يكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بعد ما خرج من معركة القادسية منتصرا يستأذنه ويستشيره في إيجاد سكن للمسلمين، فيحدد له الخليفة الشروط التي يجب توفرها فيه، إذ يكتب له قائلا: «إن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما صلح الشاة والبعير، فلا تجعل بيني وبينهم بحرا، وعليك بالريف»(٩) .

وكان المسلمون يحرصون أن تكون المدينة على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرة، فإن وجود الماء قريبا من المدينة يسهل على السكان الحصول عليه بوفرة، وهذا ضروري لأن وجوده بعد مرفقة عظيمة عامة(١٠)، ولذا فقد قامت البصرة سنة ١٤ هـ في تلك البقعة التي يصب فيها

نهرا دجلة والفرات مياههما في البحر. وكان من الضروري على الفاتحين العرب احتلال المنطقة التي تتلاقى فيها الطرق المرتفعة التي تسرف بوجه خاص على كل من يفد من ناحية البحر[١١]، كما يمكن ملاحظة موضع الكوفة من الخارطة شكل (٢)، والذي يتميز بأهميته لوقوعه على نهر الفرات، لكونه يشكل حلقة وصل بين أهل البادية وسكان القرى الساكنين في منطقة الحيرة .

وكما أن الحجاج عندما أراد أن يبني مدينة واسط قال لرجل ممن يثق بعقله: «امض وابتع لى موضعا في كرش من الأرض أبني فيه مدينة، وليكن على نهر جار[١٢]» وقد اختير فعلا لمدينة واسط موضع كثير الخيرات وافر الغلات، بشقه نهر دجلة، وكانت المدينة فى فضاء من الأرض صحيحة الهواء عذبة الماء[١٣]، (انظر الى الخارطة شكل رقم٣)، وكانت من نهر دجلة تحمل أنهار كثيرة في أسفل مدينة واسط تصب كلها فـي البطيحه، وبعضها في بعض، وإذا انفصل نهر دجلة عن واسط اقتسم إلى سبعة أنهر عظام تحمل السفن، منها نهر ساسي، ونهر الغراف، ونهر دقلة، ونهر جعفر، ونهر ميسان، ونهر هوفري، ونهر الهامه. تم تجتمع هذه الأنهر وما ينضاف إليها من الفرات كلها قرب مطارة، وهي قرية من قرى البصرة[١٤] .

وهكذا نلاحظ الأقدمين من المسلمين كانوا يستفيدون من الأراضي التي تقع فى ذنائب الجداول عند مصباتها في الأنهار، حيث تكثر المياه، وينبت القصب والبردى، فيتخذونها مناطق لصيد الطيور فيها. فالأنهار التي كانت تقع على ضفة نهر الفرات اليسرى جنوب الصقلاوية الحالية، كانت لها مكانة سامية في العهد العربي، إذ اتخذها الخليفة العباسي الأول عبدالله السفاح في سنة ١٣٢ هـ عاصمة لمملكته، كما أن «أبو جعفر المنصور» أنشأ مدينته المدورة في سنة ١٤٥هـ على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة ومجرى دجلة شمالا». (انظر الخارطتين شكلي ٤ ، ٥) .

وكان مما يراعيه المسلمون أيضا من المرافق في اختيار مدنهم هو «طيب المراعي لسائمتهم، إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى، فإذا كان قريبا طيبا كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يراعى أيضا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات ، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ والخشب أيضا ضروري لسقفهم (للبناء)[١٦] .

٢ ـ العوامل العسكرية :

لقد كانت المعسكرات التي أوجدتها الجيوش الإسلامية طلائع المدن العربية الإسلامية في الأقطار التي فتحتها، فعندما أسس المسلمون المستوطنات أصبحت قواعد عسكرية، وظائفها الأساسية إيواء المقاتلين وعوائلهم، ومراكز إدارية للمناطق التي سيطرت عليها الجيوش في تلك الأقطار، وواسطة لإرسال الأوامر العسكرية والنجدات من قاعدتهم الأساسية في شبه الجزيرة العربية إلى المناطق المفتوحة كالعراق ومصر وتونس وغيرها، إضافة إلى أنهم اتخذوا منها خطا مفتوحا يؤمن رجعتهم في حالة تعرضهم للخطر، ليحتموا بها عندما يضايقهم العدو[١٧] .

لذلك فقد تأثرت بهذا الهدف كل من مواقع المدن وبنيتها الداخلية التي روعي فيها أن تكون منسجمة مع روح الإسلام وأساليب الحياة العربية الإسلامية البسيطة، ويتجلى ذلك في أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى عتبة بن غزوان الذي ذكر له فيه: «فتح الله جل وعلا على إخوانكم الحيرة وما حولها، وقتل عظيم من عظمائها ولست آمن أن يمدهم إخوانهم من أهل الفرس، فإني أريد أن أوجهك إلى أرض الهند لتمنع أهل تلك الجيزة من إمداد إخوانهم على إخوانكم، وتقاتلهم لعل الله يفتح عليكم، فسر على بركة الله»[١٨] .

كذلك يتضح مراعاة العامل العسكري في تخطيط المدن في كتابات الخليفة عمر (رضي الله عنه) إلى جميع القادة المسلمين، إذ كان يشترط عليهم عندما يريدون أن يبنوا مدينة ألا يفصل ماء بينه وبينهم (كما مر معنا آنفا)، كذلك في كتابته إلى عمرو بن العاص التي ذكر فيها: «إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى أردت أن أركب إليكم راحلتي حتى أقدم إليكم قدمت»[١٩] .

وعندما أسس المسلمون الكوفة في الجانب الغربي من الفرات على بضعة أميال إلى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة، كان السبب من تأسيسها أن تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق، أو دار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن. أما موضعها فيمكن اعتباره بصورة عامة ثغرا من ثغور البادية ، وممرا لتبادل البضائع والسلع بين الفرس من جهة وأصحاب الإبل البدو من جهة أخرى[٢٠] لاحظ الخارطة شكل (٦) .

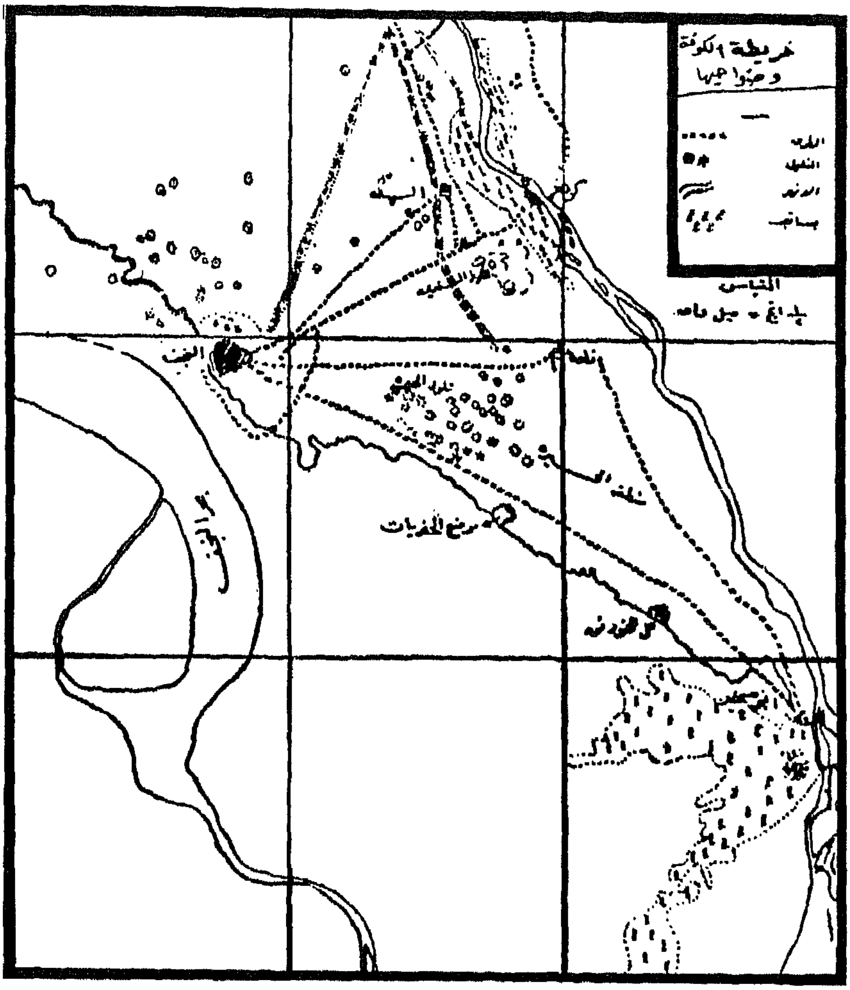
وقد لخص القائد سعد بن أبي وقاص هذه الجوانب في رسالته إلى الخليفة عمر بن الخطاب بعد ما فرغ من اختطاطها، فكتب: «إني نزلت الكوفة منزلا بين الحيرة والفرات بريا وبحريا ، ينبت الحلي والنص، وخيرت المسلمون بالمدائن، فمن أعجبه المقام تركته فيها كالمسلحة، فبقي أقوام من الأقناء، وأكثرهم بنو عبس»(٢١) .

وكذلك كانت العوامل العسكرية من أبرز الأمور التي دفعت بالحجاج إلى بناء مدينته الحصينة واسط، إذ عندما تولى إدارة العراق قامت عدة ثورات عليه، انضم إليها معظم أهل الكوفة والبصرة، فاضطر الحجاج لأن يستنجد بالجند الشامي للقضاء على هذه الثورات. وكان الحجاج في أثناء ذلك ينتقل في إقامته بين الكوفة والبصرة حسب ما يتطلبه الموقف العسكري آنذاك، فرأى من حسن الإدارة بناء مدينة حصينة تكون معسكرا لجنده الشامي، لكي يعتمد عليهم في قمع الثورات التي تقوم عليه في المستقبل، وذلك لعدم إمكانه الاعتماد على أهل الكوفة والبصرة بسبب تمردهم، المستمر عليه(٢٢)، فرأى أن يبني مدينة منيعة في منطقة حصينة، تكون قريبة من البصرة والكوفة لكي يكون باستطاعته أن يخمد أي ثورة تقوم في إحداهما بسهولة . ومما يدل على أن الهدف من بنائه مدينة واسط عسكريا هو مناعة المدينة وعدم استطاعة أحد دخولها إلا من الأبواب لأنه أحاطها بخندق وسورين، كما أنه جعل على كل باب من أبواب المدينة حرسا(٢٣) .

ولم يكن إنشاء المنصور لمدينة بغداد يبعد عن هذا الغرض، فهو عندما تفحص موضع بغداد القديم فوجده منطقة صالحة من الناحية العسكرية(٢٤)، قال عنه: «هذا موضع معسكر صالح(٢٥)، وذلك لكونه موقعا يتمتع بميزة تعبوية جيدة، إذ كان أبو جعفر المنصور لما أراد بناء مدينة بغداد بعث روادا يرتادوا موضعا يتخذه سكنا لنفسه وجنده، ويبنى به مدينة، فقيل له: «أرى يا أمير المؤمنين أن تبني على شاطئ دجلة حيث تجلب إليها الميرة والأمتعة من البر والبحر، وتأتيها المادة من دجلة والفرات، وتحمل إليها ظرائف الهند والصين، وتأتيها ميرة أرمينية وأذربيجان وديار بكر وربيعة، لا يحمل الجند الكثير إلا مثل هذا الموضع»(٢٦) .

وعندما بنى المنصور بغداد لم تكن المدينة إلا حصنا جبارا، فيه جميع مرافق المقاومة عند الحصار وأسباب العيش والمصابرة (كما سنأتي على ذكر ذلك فيما بعد)، فكانت الغاية من بناء السور في تلك العصور الحماية من العدو، والحفظ والصيانة من الغرق، أو كلاهما معا(٢٧) .

خارطة شكل (٢)

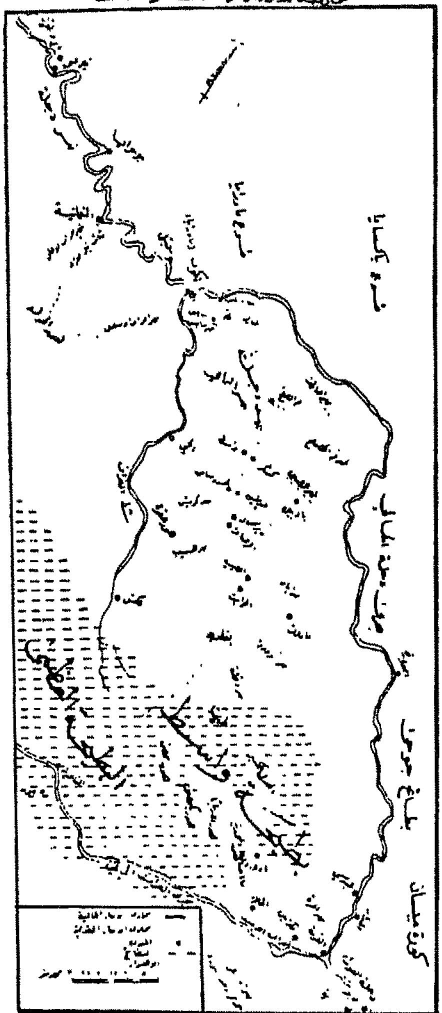


خريطة الكوفة وضواحيها

المصدر: د. كاظم الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، بغداد، ١٩٦٧

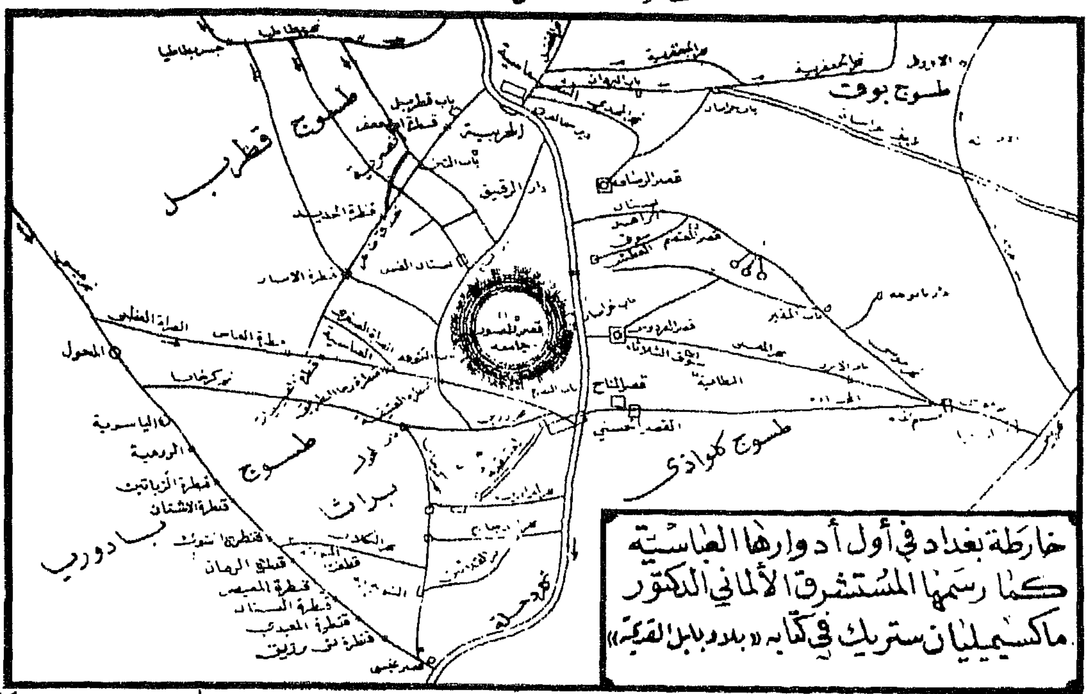
قارطه شكل (٣)

خارطه مدن انهار منطقة واسط



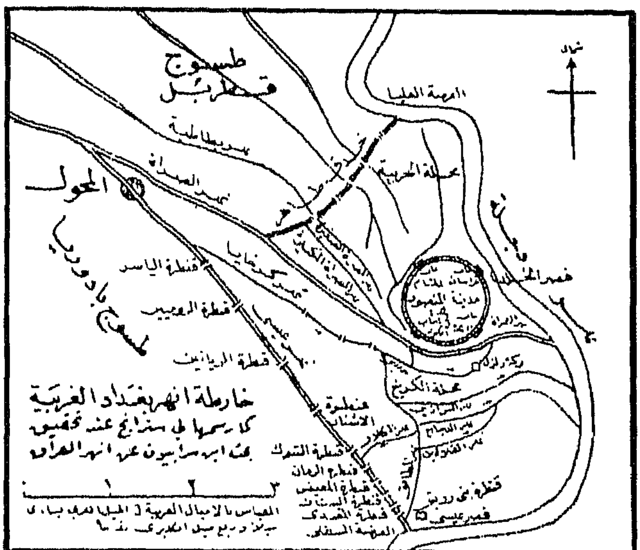
[illegible]

خارطة شكل (٤)



المصدر : د. احمد سوسة ود. مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٨ ، ص٧٤

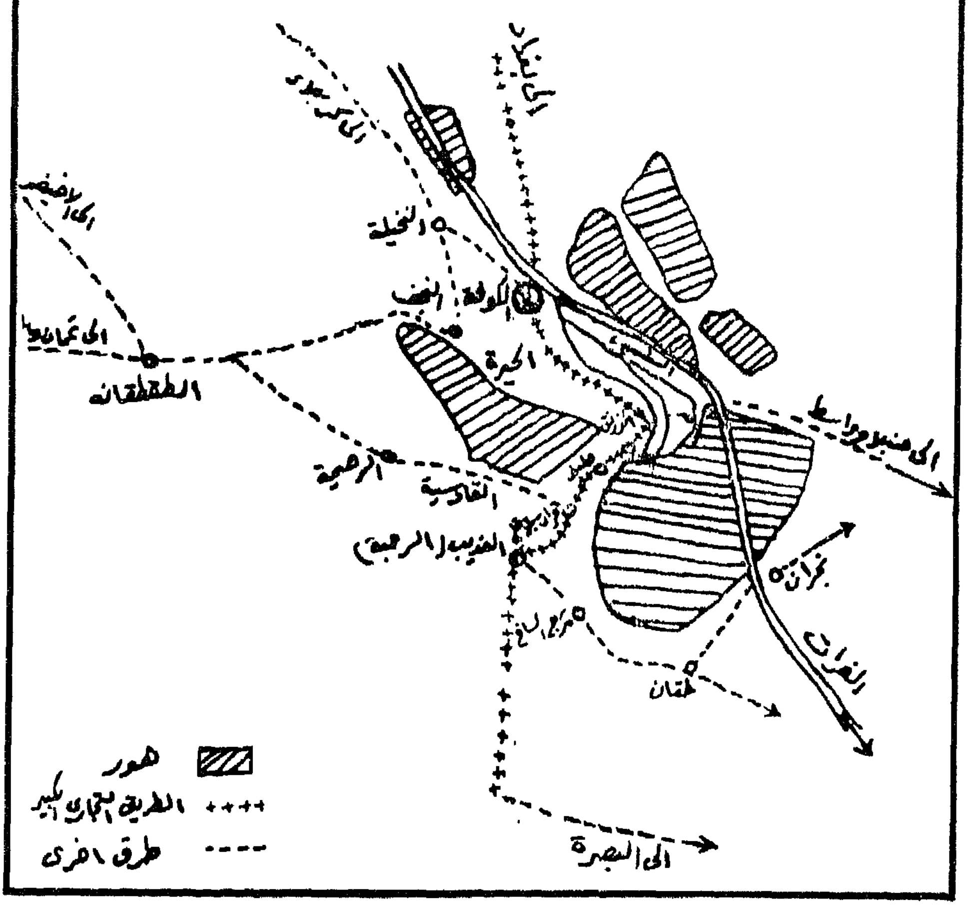
خارطة شكل (٥)



المصدر : د. احمد سوسة ود. مصطفى جواد ، المصدر السابق ، ص٦٨

خارطة تبين موقع مدينة الكوفة

خارطة شكل (٦)



عن: لويس ماسينيون، خطط مدينة الكوفة.

وهكذا نرى أن العرب الفاتحين اختطوا مدنهم على أطراف الصحراء كالبصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر والقيروان في تونس، لأن هذه المدن أشبه بلواء من ألوية الجيش أو قاعدة من قواعد الجند خلال حملتهم الحربية أثناء الفتوح، فهي بهذا تشبه في مواقعها المنافذ أو الثغور المؤدية إلى صحرائهم ، فهي كجبل طارق وسنغافورة اليوم بالنسبة إلى الدول البحرية[٢٨] .

٣ ـ العوامل السياسية والإدارية :

بسبب كون العرب في أيام الراشدين جنودا محاربين تحت السلاح، فقد كان محظورا عليهم سكنى المدن القديمة كالمدائن في العراق والإسكندرية في مصر، وأُمِرَ ولاتُهم بان يُنْزِلوا العربَ بمواضع نائية عن المدن والقرى[٢٩]، لكي لا يصبحوا أقلية بين السكان الأصليين ، وقد يتعرضون إلى عدائهم .

لذلك فقد أنشأ العرب مدينتي البصرة والكوفة، لأن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أراد المحافظة على نقاء الدماء العربية، وصيانة اللغة العربية من المؤثرات الأعجمية[٣٠]، وأن يحتفظ العرب بطابعهم العسكري، ليكونوا حامية عسكرية مستعدة للقتال في كل وقت، كما كان الخليفة عمر يدرك أن إيمان العرب وصفاتهم الخلقية والنفسية كانت من عوامل انتصارهم على الفرس والرومان رغم قلة عدد الجند العرب بالنسبة لأعدائهم[٣١]، ولذلك أراد لهم أن يحافظوا على صفاتهم تلك .

وهناك العديد من المدن الإسلامية التى لعبت دورا مهما في الحياة السياسية، ومنها الكوفة التي اتخذها الخليفة الرابع علي (رضي الله عنه) عاصمة للدولة الإسلامية، حيث انتقل إليها عام ٣٦ هـ. وبعد قيام الدولة الأموية انتقلت العاصمة إلى الشام، وكان عملاؤهم يحكمون العراق، وأحدهم الحجاج الذي بنى مدينة واسط عاصمة له تتوسط المسافة بين الكوفة والبصرة. وعلى ضوء ذلك أيضا قام العباسيون بنقل عاصمتهم بعد توليهم السلطة من دمشق إلى بغداد[٣٢] .

ولأسباب سياسية أيضا فقد اضطر المنصور إلى تأسيس الجانب الشرقي (الرصافة)، إذ يرى ضرورة جعل مقر ولي العهد وجيشه الخراساني مفصولا عن مقر الخلافة، ليكون مستعدا

إذا اقتضت الحال لقمع كل نزاع ينشب بين هذا الجانب وبين جنده العرب في حاميات المدينة المـــدورة[٣٣] .

٤ ـ العوامل الدينية :

لقد شجعت الديانة الإسلامية الحياة الحضرية والاستقرار البشري والتآلف بين الناس، لذلك أكد المسلمون على اللقاءات في المساجد الجامعة، ومنها صلاة الجمعة التي تتم في تلك المساجد، لما فيها من منافع عديدة دينية واجتماعية، يضاف إلى ذلك أن تلك المساجد تعتبر مراكز سياسية وثقافية وإدارية .

فالإسلام دين المدينة، وقد بنيت كثير من أسسه لتنسجم مع حاجات المجتمع الحضري، وقد كان العامل الديني وما زال يعد من العوامل المهمة التي أدت إلى بناء المدن وتطويرها في الوطن العربي والإسلامي .

وبحكم ما يتطلبه الناس الذين تهمهم الوظيفة الدينية التي تقوم بها المدن من حاجيات وخدمات، فإن ذلك قد أدى إلى ازدياد حجومها وازدهارها. ويمكن أن نورد أمثلة عديدة من تلك المدن كالمدينة المنورة ومكة المكرمة وكربلاء والنجف وأحياء مهمة من بغداد في العراق هي أشبه بالمدن الكاملة كالأعظمية والكاظمية إضافة إلى العديد من المدن الأخرى .

خصائص بنية المدينة الإسلامية :

يعد تخطيط المدن العربية الإسلامية من أهم الظواهر الحضارية والفنية عند المسلمين التي بدأت مع الفتح العربي الإسلامي بتمصير الأمصار، على الرغم من أن هذه المراكز الحضارية كانت لها صفاتها الحربية عند تخطيطها الأول، إلا أنها اشتملت على سمات حضارية تعكس تخطيط المدن عند العرب[٣٤]

ومن مجمل تتبعنا لتخطيط بعض المدن الإسلامية كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط وبغداد وسامراء سنحاول إعطاء صورة مجملة لخصائص تركيب المدينة الإسلامية التي يمكن تمييزها كصفات مشتركة في معظم المدن، من خلال مناقشة تلك الصفات في هذه المدن السبع، والتي يمكن إجمالها بما يلي :

١ ـ بناء المسجد الجامع في وسط المدينة، وجعل دار الأمارة ملاصقة له في أغلب المدن .
٢ ـ بناء السوق حول المسجد .
٣ ـ تخطيط المناطق السكنية التي تحيط بالسوق وتقسيمها إلى أحياء بحسب القبائل التي سكنت المدن .
٤ ـ مراعاة الأمور العسكرية والمناخية في تخطيط الشوارع وأزقة المدينة، وجعل بعضها ضيقة وملتوية وبعضها الآخر غير سالكة .
٥ ـ الاهتمام بحماية المدينة عسكريا، وجعلها مدينة دفاعية عن طريق إحاطتها بخنادق وأسوار محكمة التحصين .

١ ـ كان للمسجد الجامع في المدينة الإسلامية دور كبير، لأنه مركز للحياة الدينية والسياسية والثقافية والتعليمية والاجتماعية، إذ كانت تعقد فيه الاجتماعات العامة ، وتنظر فيه القضايا ، وتعطى في رحابه الدروس، ومن فوق منبره كانت تقرأ النشرات الرسمية والخطابات التي تتضمن أخبارا هامة كالانتصارات الحربية، كما اتخذ بعض الفقهاء من المسجد الجامع مركزا لعقد حلقاتهم الفقهية والعلمية .

ونظرا لتلك الأهمية فقد اعتبره العديد من الباحثين أساس التنظيم لعمران المدينة، ومن حوله يخطط لبقية الأنشطة، وهو لذلك فقد احتل موضع المركز الرئيسي من المدينة، وبعد ذلك يتم تخطيط مواضع الأسواق والأحياء السكنية وبقية النشاطات الأخرى(٣٤) .

ففي البصرة حدث هذا التقليد عند بنائها ، إذ أسس المسجد الجامع أولا، وبجواره دار الأمارة ، وحولها خطط لكل قبيلة مسجد ومقبرة، وذلك بعد أن أخذ عتبه بن غزوان إذنا من الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما كتب له قائلا: «إني وجدت أرضا كثيرة القضة (أي الحصى) في طرف البر إلى الريف ، ودونها منافع فيها ماء وفيها قصب». ولما وصل هذا الجواب إلى عمر قال: «هذه أرض بصره قريبة من المشارب والمراعي والمحطب»، وكتب إليه أن انزلها ، فنزلها وبنى مسجدها من قصب في رحبة بني هاشم، وبنى دار أمارتها والديوان وبقية البيوت وكلها من القصب، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناء ما كان(٣٥) .

أما الكوفة فكانت على غرار البصرة، فقد كان المسجد الجامع ودار الأمارة أول أبنيتها، فقد أسس المسجد في وسطها بحيث تفرعت منه الطرق والشوارع، كما أقيمت دار سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) في نهاية أحد هذه الطرق، وكانت تبعد عن المسجد مسافة ٢٠٠ ذراع (انظر الخارطة شكل ٧)، واتخذ فيها بيت المال، وكان ذلك بعدما أتى ابن بقلية إلى سعد، فقال له: أأدلك على أرض انحدرت عن الفلاة، وارتفعت عن المبقة ؟ قال: نعم، فدله على موضع الكوفة، وكان يقال له سورستان، فانتهى إلى موضع مسجدها، فأمر غالبا، فرمى بسهم قِبَل مهب القبلة، فعلم على موقعه .[٣٦] .

وفي الفسطاط التي اختطت بعد الفتح العربي الإسلامي لمصر فقد بني مسجدها الجامع أولا، ثم دار أمارتها المعروفة بدار الرمل، وجعل الأسواق محيطة بالمسجد في الجانب الشرقي، وقسمت أرضها قطعا للقبائل[٣٧] .

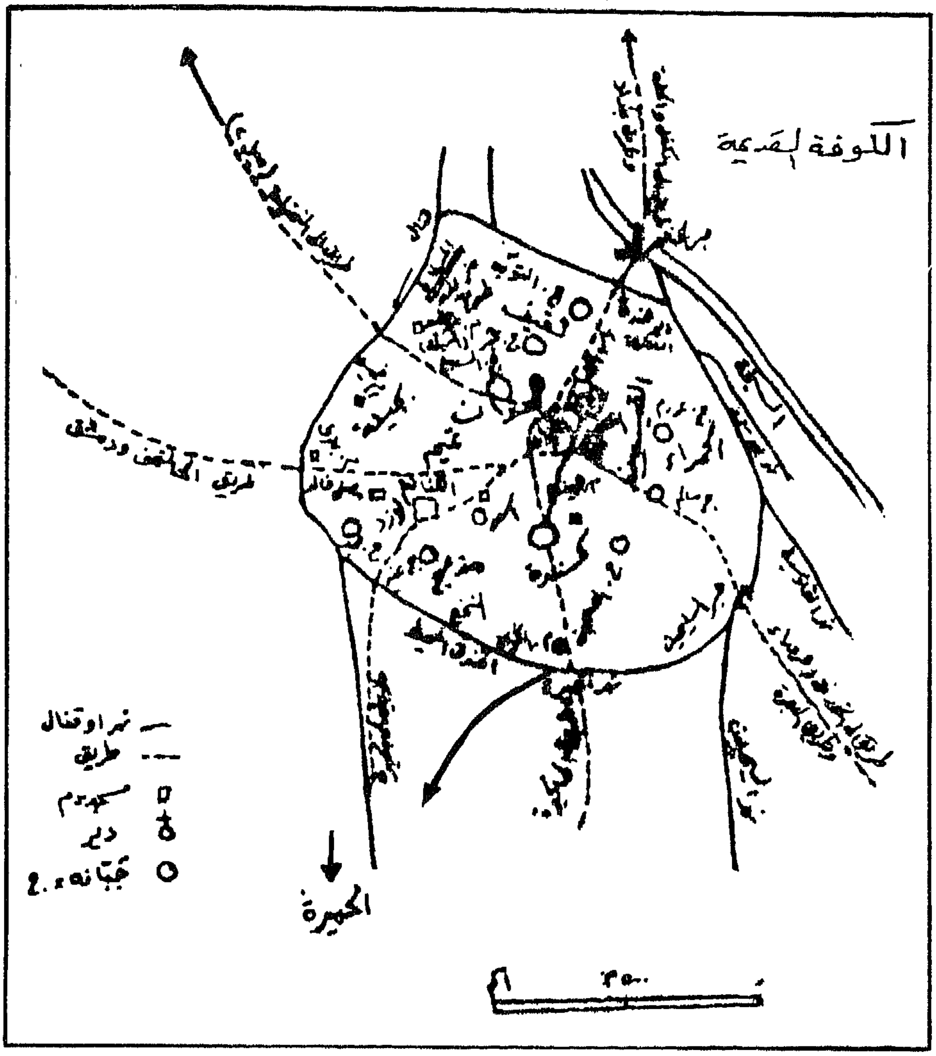
وعندما بدأ التخطيط لمدينة واسط اختار الحجاج أولا موضع المسجد الجامع بدار الأمارة ودواوين الدولة ودار الرزق والسجن، فكانت هذه تؤلف قسما من أقسام المدينة، له كيانه الخاص، يقع وسط المدينة.[٣٨] .

كما أن عقبة بن نافع بنى القيروان في تونس، فإن أول ما اختط فيها ابن عذارى المسجد الجامع الأعظم ودار الأمارة، ولم يحدث فيه بناء، وكان يصلي فيه وهو كذلك، وبعد تحديد محراب المسجد اقتدى الناس به[٣٩] .

وفي بغداد فقد شيد المنصور في وسط الرحبة الأولى وهي العظمى للمدينة جامعا سمي بجامع المنصور، وابتنى إلى جانب الجامع «قصر الذهب» المشهور ذا القبة الخضراء التي قلد بها خضراء الحجاج في واسط، وجعل الدوائر الحكومية حول الرحبة[٤٠]، وعمل لمدينته سورين وفصيلين، والسور الداخل أطول من الخارج، وأمر ألا يبني إنسان تحت السور شيئا من المنازل، وأمر أن يبني الفصيل الثاني مع السور منازل، ثم بنى قصره في وسطها، وبنى المسجد الجامع مع القصر، وعمل الشوارع على ما أراد، وأقطعها القواد، وأنزل فيها خاصته وأهل ثقته[٤١] .

وكان لبناء العرب المسلمين لدار الأمارة بلصق الضلع القبلية من المسجد الجامع أسباب

خارطة شكل (٧)



م : لويس ماسينيون ، خطط الكوفة ، ترجمة تقي المصعبي ، ١٩٣٩م .

دينية ، ذلك لكي يدخل الأمير الذي يؤم المسلمين بالصلاة من دار الأمارة من فتحة في الضلع القبلية قرب المحراب دون أن يتخطى رقاب الناس فيما لو بنيت دار الأمارة في غير الضلع القبلية[٤٢] .

٢ ـ اهتم المسلمون عند تخطيط المدن بتحديد مواضع الأسواق فيها، بحيث جعلوها قريبة من المناطق السكنية وحول المسجد الجامع، وذلك لكون السوق هو المكان الذي يتم فيه اللقاء بين تجار الجملة والمفرد وذوي الحرف والمستهلكين، حيث تعقد بينهم المعاملات التجارية .

وكانت الأسواق تقسم إلى عدة مناطق ثانوية، يختص كل منها بعرض بضاعته أو منتوج معين، وذلك بسبب التأثير الذي تركته النقابات المهنية، حيث كان على أصحاب المهن المتشابهة أن ينتموا إلى نقابة خاصة بهم، تنظم شؤونهم. إن هذا التنظيم النقابي يتطلب تقارب منتسبي المهنة الواحدة، لضمان سهولة الاتصال ببعضهم، ولغرض جمع الضرائب منهم بسرعة وسهولة وفي وقت واحد، بالإضافة إلى ميل أصحاب المصالح المشتركة إلى التقارب، وذلك للاستفادة من بعضهم من حيث المنافسة وتصريف بضائعهم[٤٣] .

ففي الكوفة حدد الموضع الذي تقوم فيه الأسواق ، إلا أن تلك الأسواق كانت في بادىء أمرها أرضا فضاء لابناء فيها ولا سقوف سوى ظلال من الحصير كان يضعها الباعة لتظلهم في الأماكن التي يختارونها للبيع والشراء[٤٤]. وكان نظام الأسواق على سنة المساجد، فمن سبق إلى موضع فهو له حتى يفرغ منه[٤٥]، لكنها بنيت فيما بعد، وأصبحت ذات أهمية كبيرة واتساع مهم، شأنها شأن مدينة البصرة التي يذكر المؤرخون أنها كانت بعد سنة ٢٧٥ هـ ذات تجارة مزدهرة واسعة وغنى عظيم، فقد كانت في سنة ٤٣٧ هـ مدينة ذات ثلاثة أسواق، إذ كان ينصب فيها ثلاث جهات كل يوم، ففي الصباح يجري التبادل في سوق خزاعة، وفي الظهر في سوق عثمان ، وفي المغرب في سوق القداحين، والعمل في السوق هكذا، من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكا، ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف، فلا يستخدم المشتري شيئا غير صك الصراف طالما يقيم في المدينة[٤٦] .

وعندما اختطت الفسطاط جعلت أسواقها محيطة بالمسجد الجامع من جانبه الشرقي، وكان ذلك السوق في بداية الأمر قد شيد على أنه دار ، فقد كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر

يخبره: «إنا اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع»، فكتب إليه عمر: «إني لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر !! وأمره أن يجعلها سوقا»(٤٧) .

وفي واسط عين مكان السوق العامة، ثم قسم ذلك السوق إلى قطاعات، فأنزل اصحاب الطعام والبزارون والصيارفة والعطارون عن يمين السوق إلى درب الخرازين، وأنزل البقالون وأصحاب السقط وأصحاب الفاكهة في قبلة السوق وإلى درب الخرازين، وأنزل الخرازون والروزجاريون (وهم العمال الذين يعملون بأجرة يومية) والصناع في درب الخرازين وعن يسار السوق إلى دجلة، وقطع لأهل كل تجارة قطعة لا يخالطهم غيرهم، وأمر أن يكون مع أهل كل قطعة صيرفي.(٤٨) (انظر الشكل رقم ٨) .

أما في مدينة بغداد فقد أمر المنصور أن تجعل الأسواق في طاقات المدينة إزاء كل باب سوق، فلم تزل كذلك حتى أمر أن تبنى في ناحية الكرخ على هيئة صفوف، لكل سوق صفة(٤٩) .

٣ ـ إن تخطيط المناطق السكنية التي تحيط بالسوق وتقسيمها إلى أحياء سكنية على أساس قبلي كان واضحا في تخطيط معظم المدن الإسلامية، ففي بناء كل من مدينتي البصرة والكوفة كان التخطيط للمناطق السكنية على أساس قبلي، فكان لكل قبيلة حي ومسجد ومقبرة، حتى أصبحت هذه الأحياء وكأنها مدن صغيرة منفصلة .

فقد قسمت البصرة إلى عدة أقسام قبلية: قسم لبني تميم الذين سكنوا بين المربد والمسجد الجامع، وكانت إحدى القبائل التي استوطنت البصرة منذ بداية نشوئها، ولعبت دورا كبيرا في حياتها السياسية والاجتماعية والإدارية، وقسم لبكر التي سكنت الزاوية والمسجد الجامع، وقسم آخر لعبد القيس، ثم قسم لأهل العالية، وآخر لهمدان، وقسم للأزد . وكان الخليفة عمر قد أمر أبا موسى الأشعري بالرحيل إلى البصرة وتوزيع الخطط على قبائلها(٥٠) .

وفي الكوفة بدأ البناء فيها بالآجر بعد عام ٢٢هـ، بعد أن كان عبارة عن أكواخ من القصب، وأول تلك المساكن بنيت في محلة كندة (منازل مراد والخزرج من الأنصار) الذين كانوا قد سكنوا مع كندة في محلة واحدة عقب تحالفهم(٥١) .

وفي الثلاثين سنة الأولى كانت تلك الأكواخ مقسمة إلى سبع مناطق عسكرية (الأسباع) نسبة إلى النقاط السبع لحشر مقاتلة القبائل، ووفقا للقيادات والتعبئة عند النفير والخروج للجهاد في المواسم، ثم توزيع الغنائم والأعطيات بعد العودة من قبل رؤوس الأسباع(٥٢) .

وكان للكوفة في كل قبيلة مقبرة خاصة بها بالقرب من خططها، وكانت هذه المقابر الكوفية تلعب دورا هاما في الحياة السياسية، إذ يتخذها أفراد القبائل مركزا للتجمع عندما يريدون التمرد والثورة(٥٣) .

وفي الفسطاط عندما تناقس الناس في المواضع ولي عمرو بن العاص على الخطط معاوية ابن حديج وشريك بن شمسي وعمرو بن محزم وجبريل بن ناشرة المعافري، فكانوا أهم الذين نزلوا القبائل وفصلوا بينهم(٥٤) .

أما عن تخطيط المناطق السكنية في مدينة واسط فبعد أن عين موضع المسجد الجامع ودار الأمارة والدواوين ترك فراغا حوله، ثم عين مكان السوق العامة، وبعدها شرع المخططون يقطعون القطائع، ويقيمون المرافق، فاختطت كل قبيلة المكان المخصص لها(٥٥) .

إن السبب في مراعاة المبدأ القبلي في تخطيط المدن التي بناها المسلمون يرجع إلى الحكمة التي مؤداها مراعاة تحقيق الانسجام والتكاتف بين القبائل، ومنعا للتنافر أو التنافس ووقوع المصادمات في مثل هذه الظروف الحربية، لهذا فقد خصصت الأحياء لسكنى القبائل(٥٦) .

٤ ـ لقد راعى المسلمون عند تخطيط شوارع المدن الجوانب العسكرية والمناخية، لذا فقد اتسمت تلك المدن بكونها ذات شوارع وأزقة تتميز بعدة ميزات رسمت لها استجابة لعوامل عديدة، منها :

أنها جعلت ضيقة لغرض مساعدة المسلمين على التكيف للمناخ الحار وشدة توهج الشمس وأشعتها الحارة في فصل الصيف خاصة، ومن ثم فقد كان ضيق الشوارع سببا في زيادة مساحة الظل في الطرق. وفوق ذلك فإن شوارع الحي التجاري أو السوق كانت لها سقائفها لحماية المترددين على المحلات التجارية من الشمس والمطر معا(٥٧) . كما بنيت الأطواق والعقود.

وجعلت الشوارع ضيقة لكي تعطي المدينة شكلا[٥٨] محتشدا يساعد السكان على الدفاع عن أنفسهم ضد الغارات الخارجية، كما خططت بعض الأزقة غير السالكة أو المقفلة ليتمكن المسلمون من حصر الغزاة إذا ما تعرضت مدينتهم إلى هجماتهم، هذا يصدق أيضا على صفة جعل الشوارع ملتوية ومتعرجة[٥٩].

ولما كانت الشوارع تستعمل كمسالك للناس وكممرات للحيوانات فقد أخذ المسلمون ذلك بنظر الاعتبار إضافة إلى الجوانب المذكورة أعلاه عند التخطيط لإنشاء مدينتي البصرة والكوفة، أمر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يكون عرض الشارع الأعظم في كل منها ستين ذراعا (٣٠ مترا)، وهو وسط المدينة الذي كان يسمى في البصرة بالمربد، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا، وعرض كل زقاق سبعة أذرع ، وفي وسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم، كما أمرهم أن يتلاصقوا في المنازل[٦٠] .

وفي بغداد خططت السكك والدروب بين الطاقات وإلى الطاقات، وكانت تعرف بأسماء القواد وموالي الخليفة ومكان كل سكة، وأمرهم المنصور أن يجعلوا في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل وحولهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعا بالسوداء والدروب ستة عشر ذراعا[٦١] .

وتطور الأمر في بعض المدن العباسية التى كانت مسورة مثل سامراء، حيث جعلت الشوارع عريضة لأن الخلفاء كانوا يحضرون إلى الجامع أيام الجمع بمواكب كبيرة من جيوشهم وخيولهم ورجالهم، لذلك فقد ازداد عرض الشارع، فقد بلغ عرض الشارع الرئيسي مائتي ذراع، وجعلت الشوارع العرضانية بعرض ١٠٠ ذراع، أما الفرعية فكان عرضها يتراوح بين (٥٠ ـ ٧٠) ذراعا[٦٢] .

٥ ـ تخطيط المدينة وفق خطة عسكرية تهتم بتحصين المدينة ومنحها قوة تعبوية للدفاع عن نفسها فيما إذا داهمها عدو يتمتع بقوة كبيرة تفوق مقدرة المسلمين العسكرية، لذلك كان المسلمون يحيطون مدنهم بأسوار وأحيانا بخنادق، ويحصنون الأسوار بأبراج للمراقبة، عليها شرفات مدورة لغرض الاستطلاع والدفاع عن المدينة وإعطاء الإنذار إلى الجيش المرابط في الداخل للتهيؤ للدفاع عنها .

ويمكن أن نستوضح هذا الأمر بشكل جلي من دراسة العديد من المدن الإسلامية، فقد كانت مدينة واسط معسكرا منيعا (لا يدخله أحد إلا من أبواب المدينة) فقد أحاط الحجاج مدينته بخندق وسورين، بينهما فصيل يسكنه الجنود للدفاع عن المدينة، (لاحظ الشكل رقم ٨)، كما لا يدع أحداً من أهل السواد ليبيت في واسط، فإذا كان الليل خرجوا عن واسط، ثم يعودوا في اليوم التالي، كما أنه جعل على كل باب من أبواب المدينة حرسا، فإذا كان الغروب رجع من كان خارج المدينة ، وخرج من كان بالمدينة من أهل السواد، فكان لا يسمح لأحد بدخول المدينة إلا بموافقة[٦٣] .

وهكذا يتضح أن تلك الإجراءات الأمنية المتشددة التي اتخذها الحجاج في مدينته تشبه الإجراءات التي تتخذها الدول في الوقت الحاضر في المعسكرات لصيانتها من التخريب وتسرب الأسرار العسكرية من وإلى الأعداء .

أما المدن الإسلامية الأولى كالبصرة والكوفة والفسطاط التي أنشئت لكي تكون قواعد عسكرية هجومية تقيم بها أسر المقاتلين وأهلوهم، ويستنفر بها الجند بعد أوبتهم من الفتوح، فلم ير المسلمون والحالة هذه حاجة إلى تسويرها، غير أنها سورت فيما بعد، فعند تولي المنصور الخلافة وبناءه بغداد ارتأى تحصين البصرة والكوفة، فبنى البصرة سوراً لها يطيف بها، وخندق عليها من دون السور، ذكره المؤرخون على أنه سور عظيم يحيط بالمدينة ما عدا الجزء المطل إلى شط العرب[٦٥] .

كما أن الفسطاط لم تسور هي الأخرى إلا بعد أن بنيت القاهرة أيام الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ، حيث أقيم حول خطط المدينة سور جديد، وكان القصد الأول من إنشائها أن تكون معقلا للفاطميين في مصر لرد خطر القرامطة، فابتنى معزالدين الفاطمي السور باللبن على منافسه الذي نزل فيه بعساكره. وكان للقاهرة في بداية إنشائها ثمانية أبواب : اثنان في الناحية البحرية (الشمالية)، هما بابا النصر والفتوح، واثنان في الناحية القبلية هما بابا زويلة، واثنان في الناحية الشرقية هما باب المحروق وباب البرقية، واثنان في الناحية الغربية المطلان على الخليج الكبير هما باب السعادة وباب الفرج.[٦٦]

أما في مدينة سامراء فكان سورها عبارة عن جدار ثنائي، أي إنه يتكون من جدارين بينهما فصيل ضيق. وكان هذا السور لصد الحيوانات الضارية من مداهمة المدينة .

أما مدينة بغداد فكانت تتميز باستحكامات كثيرة، تتألف من خندق عميق يدور حول المدينة من الخارج، وتحده من الداخل مسناة ضخمة بنيت بالآجر والصاروج متقنة محكمة عالية، وكان يلي المسناة فصيل عرضه مائة ذراع (٥٠ مترا)، وكان هذا الفصيل الخارجي الذي يحاذي سور المسناة ، ويدور معه بين المداخل الرئيسية الأربعة، خاليا من الدور والأبنية لوضع مجال للرقابة والدفاع ومنع كل نار تلقى بالسهام أو غيرها من التعلق بالمباني، وكان يلي هذا الفصيل السور الرئيسي للمدينة والذي يسمى «بالسور الأعظم» ، وكان قد أنشئ باللبن العظام، وله أبراج عظام، وعليه الشرفات المدورة، وكان عدد الأبراج بين باب الكوفة وباب البصرة ٢٩ برجا، بينما كان عددها وبين كل باب من الأبواب الأربعة الأخرى ٢٨ برجا .

وكان يلي هذا السور فصيل ثان آخر هو فصيل الداخلي، وكان عرضه ٣٠٠ ذراع (١٥٠ مترا)، وكان ينتهي بسور ثالث هو أشبه بحاجز داخلي منه بسور دفاعي متين، وكان هذا الحاجز يفصل الرحبة العظمى التي كان يتوسطها القصر والجامع عن منطقة الأسوار، وكان في الفصيل الثاني هذا الشوارع والسكك والدروب والدور .

أما مداخل هذه المدينة فكانت تنحصر بأبوابها الأربعة، وكان كل مدخل نظير المدخل الآخر في تصميمه، فكان إذا دخل الداخل مدينة المنصور من أحد أبوابها الأربعة يعبر أولا الخندق العميق الواقع خارج المسنآه، لاحظ الشكل رقم (٩)، وكان قد أجري فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا، ثم يدخل من باب دهليز ٨٠ ذراعا، وهو معقود بالآجر والجص. وبعد أن يجتاز هذا الدهليز يخرج من الباب الثاني، ويدخل رحبة مربعة مفروشة بالصخر، وفي كل من جانبي هذه الرحبة باب يؤدي إلى الفصيل الخارجي، وهو الفصيل الواقع بين سور المسناة والسور الأعظم، وبعد أن يخرج من هذه الرحبة يخترق السور الأعظم في دهليز آخر عليه بابان من الحديد عظيان: باب في أوله، وآخر في آخره، لا يغلق كل باب ولا يفتحه إلا جماعة رجال، والأبواب الأربعة كلها على ذلك. فإذا اجتاز المرء دهليز السور الأعظم سار في رحبة إلى طاقات معقودة بالآجر والجص وعددها ٥٣ طاقا، كل منها نظير لصاحبه، يتوسطها طريق عرضه ٨ أمتار، فيها كوى رومية يدخل منها الشمس والضوء ولا يدخل منها المطر، وفيها منازل الغلمان، وكانت الطاقات على مثال واحد، فإذا خرج من الطاقات سار إلى الرحبة الأخرى، ثم دهليز عظيم وأزج معقود بالآجر والجص عليه باب حديد، فيخرج من

الباب إلى الرحبة العظمى، وكان في الطاقات غرف (بيوت عالية) كانت للرابطة غلمان الخليفة، كما كانت هناك أسواق المدينة .

وكان على كل باب من أبواب المدينة التي على السور الأعظم «قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها مجالس مرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل فيه، ويصعد إلى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام، وقد عملت أزاجا بعضها أعلى من بعض، فداخل الأزاج للرابطة والحرس وظهورها عليها المصعد إلى القباب التي على الأبواب على دواب، وعلى المصعد أبواب تغلق[٦٨] .

ooo

الحــواشي

(١) أبو جعفر بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، القسم الأول، مكتبة بيروت ١٩٦٥م ، ص ٢٣٧٨ .

(٢) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، دار النشر للجامعين ١٩٧٥م، ص ٣٨٧ .

ـ طاهر مظفر العميد، بغداد مدينة المنصور، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٧م، ص ٤١ .

(٣) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، جـ ١ ـ ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٤) د. ناجي معروف، تخطيط مدينة سامراء، مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس السنة (١٤) العدد ٢٧ . يناير ـ يوليو ١٩٧٧م ، ص ١٠٧ .

ـ د. ناجي معروف عروبة المدن الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السابع، ١٩٦٤م ، ص ٣٧ .

ـ د. أحمد فكري، المدخل ، مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف،، ١٩٦١م ، ص ٥٨ .

ـ د. مصطفى جواد، د. أحمد سوسه، دليل خارطة بغداد، المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٨م، ص ٤٣ .

(٥) د. ناجي معروف ـ عروبة المدن الإسلامية ، المصدر نفسه ص ١٢ .

(٦) البلاذري ، المصدر نفسه، المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٣٢م ، ص ٣٤١ .

(٧) ابن خلدون، المقدمة ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب، بيروت ١٩٦١، ص ٦١٩ .

(٨) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص ٦٢١ .

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، ١٩٥٧م ، جـ ٤ ، ص ٤٩١ .

(١٠) د. عبدالعالي عبدالمنعم الشامي، جغرافية المدن عند العرب مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع بالعدد الأول ١٩٧٨م ص ١٣٠ .

(١١) دائرة المعارف الإسلامية، تهران «جـ ٥» ، ص ٤٧٨ .

(١٢) ياقوت الحموي ،المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٣٤٨ .

(١٣) د. أحمد صالح العلي، منطقة واسط، مجلة سومر، مجلد ٢٦ ، ١٩٧٠م، ص ٢٤٢ .

(١٤) د. أحمد سوسه ، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية، مطبعة المعرفة، بغداد ١٩٤٨ ، جـ ٢ ، ص ٤٣٨ ، ٤٤٢ .

(١٥) د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسه، المصدر السابق، ص ٣ ـ ٤، ٤٣ .

(١٦) ابن خلدون، المصدر السابق ، ص ٦٢٠ .

(١٧) د. عبدالرزاق عباس، نشأة المدن العراقية، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٣م، ص ٣٠ .

(١٨) الطبري. المصدر السابق ص ٣٧٨ .

(١٩) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ عمرو بن العاص، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٢٦م ص ١٣١ .

(٢٠) لويس ماسنيون ، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة تقي بن محمد المصعبي، مطبعة العرفان ، صيدا ، ١٩٣٩م ص ٦ .

(٢١) د. كاظم الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، بغداد ١٩٦٧م ص ٢٥ .

(٢٢) عبدالقادر سلمان المعاضيدي، واسط في العصر الأموي ٨١ هـ ـ ١٣٢ هـ . مطبعة الحرية، بغداد ١٩٧٦م ص ١١ .

(٢٣) أسلم بن سهل الرزاز (بحشل)، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٧م، ص ٤٥ .
(٢٤) طاهر العميد، المصدر السابق، ص ١٣٨ .
(٢٥) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩، جـ ٦، ص ٢٣٤ .
(٢٦) دائر المعارف الإسلامية، جـ ٤ ، ص ٣١٤ .
(٢٧) د. مصطفى جواد (وجماعته)، بغداد ،مؤسسة رمزي للطباعة، بغداد، ١٩٦٩م ،ص ١٩ و ٤٩ .
(28) Bernard Lewis, The Arabism History, London, 1950, P. 55.
(٢٩) د. ناجي معروف، المصدر السابق، ص ٢٠ .
(٣٠) ابن خلدون ،المقدمة، ص ٢٦٦ .
(٣١) رمزية محمد الأطرقجي، بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٧م ص ١٧ .
(٣٢) د. عبدالرزاق عباس، المصدر السابق، ص ١٨ .
(٣٣) د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسه ـ المصدر السابق ـ ص ٦٤ .
(٣٤) السيد محمود عبدالعزيز سالم ، التخطيط ومظاهر العمران في العصور الوسطى، مجلة المجلة، العدد ٩ ، ١٩٥٧م ص ٥٤ .
(٣٥) الشيخ عبدالقادر باش أعيان العباسي ، البصرة في أداورها التاريخية، مطبعة دار البصري ، بغداد، ١٩٦١م ص ١٧ .
ـ سليمان فيضي ، البصرة العظمى، دار التضامن، بغداد ١٩٦٥م ص ١٣ .
ياقوت الحموي، المصدر السابق ، ص ٤٩١ .
(٣٧) جرجي زيدان، المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٨٣ .
(٣٨) عبدالقادر المعاضيدي، المصدر السابق، ص ١١٥ ـ ١١٦ .
(٣٩) د. أحمد فكري، المسجد الجامع بالقيروان، دار المعارف، ١٩٣٦م ص ١١ .
(٤٠) د. مصطفى جواد، ود. أحمد سوسه ،المصدر السابق ، ص ٤٨ .
(٤١) د. ناجي معروف، تخطيط مدينة سامراء، المصدر السابق، ص ١٠٤ .
(٤٢) د. صالح أحمد العلي، بغداد مدينة السلام لابن الفقيه الهمداني ، وزارة الإعلام العراقية، سلسلة التراث (٦١)، ١٩٧٧م ، ص ٣٦ .
(٤٣) د. عبدالرزاق عباس، المصدر السابق، ص ٣٨ .
(٤٤) اليعقوبي، البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٧م، ط ٣، ص ٧١ .
(٤٦) الجنابي ، المصدر السابق، ص ٨٦ .
(٤٦) ناصر خسرو علوي، سفرنامة ، ترجمة د. علي الخساب، ١٩٤٥م .
(٤٧) أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن الحكم ، فتوح مصر وأخبارها، مطبعة بريل ١٩٢٠م ، ص ٩٢ .
(٤٨) بحشل، المصدر السابق ، ص ٤٤ .
(٤٩) د. صالح العلي ،المصدر السابق ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٥٠) الدينوري ، الأخبار الطوال، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .
(٥١) ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .
(٥٢) ماسينون ، المصدر السابق ، ص ٩ .

(٥٣) د. صالح أحمد العلي ، خطط البصرة، مجلة سومر، المجلد ٨ ، جـ ٢ ، ١٩٥٢م ، ص ٢٨٣ .

(٥٤) الحموي . المصدر نفسه ، ص ٢٦٣ .

ـ محمد عبدالله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مطبعة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٩م ص ١٣ .

(٥٥) المعاضيدي ـ المصدر السابق، ص ١٣٧ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .

(58) A. H. Hourani (ed.) The Ilsamic city Brouno cassirer, Oxford, 1967, P.25 .

(٥٩) د. عبدالرزاق عباس، جغرافية المدن، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٢٢ . ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٦٠) جرجي زيدان ، المصدر السابق، ص ٤٢٥ .

(٦١) اليعقوبي، البلدان ، ص ١٠ ـ ١١ .

(٦٢) د. ناجي معروف ـ تخطيط سامراء ـ المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٦٣) بحشل، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٦٤) عبدالقادر المعاضيدي ، المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ١١٦ ـ ١١٨ .

(٦٥) د. صالح أحمد العلي خطة البصرة ، مجلة سمير ، المجلد (٨) ١٩٥٢م ، ص ٢ ـ ٣ .

ـ فيضي ، المصدر السابق ، ص ٩ .

(٦٦) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الآثار، مكتبة المثنى ، بغداد ، أوفسيت عن طبعة ١٩١٠م، ص ٢١٥ .

(٦٧) د. ناجي معروف، المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(٦٨) انظر: د. مصطفى جواد ود. احمد سوسة ، المصدر السابق ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

ـ د. مصطفى جواد ، المصدر السابق ، ص ١٨ ـ ٢١ .

ـ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ،مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٣١م ، جـ ١، ص ٧١ ! ٧٧ .

ـ اليعقوبي ، البلدان، ص ٨ ـ ٩ .

المدينة المنورة « دراسة سكانية »

دكتور عمر الفاروق السعيد

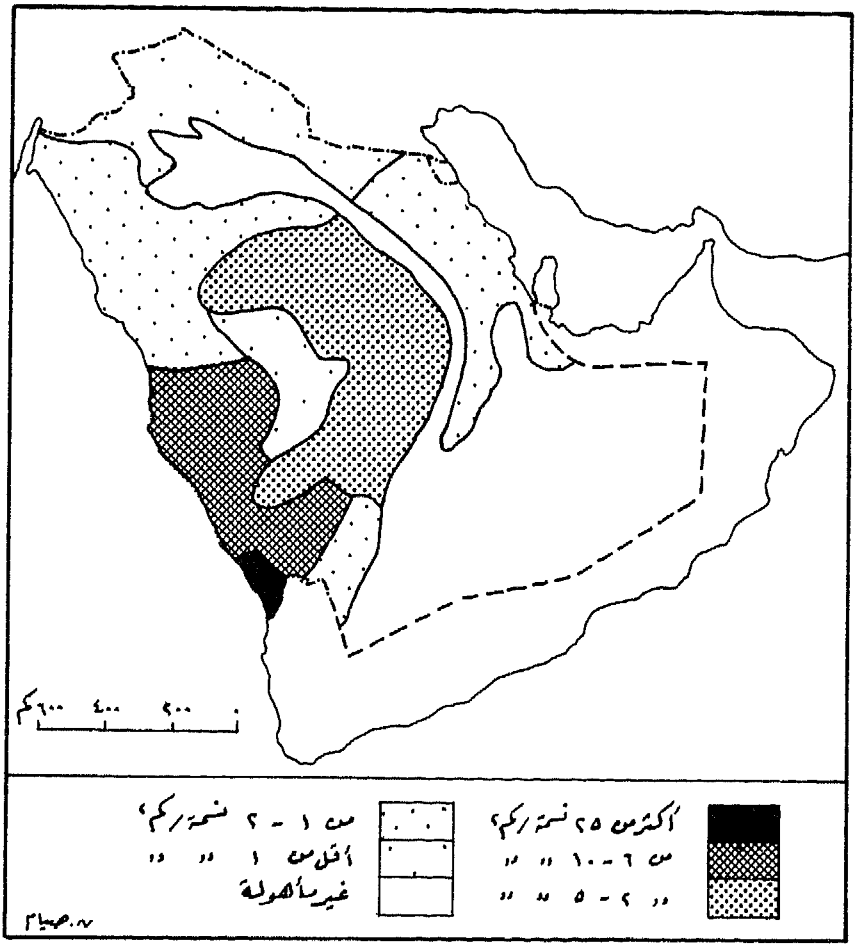
مقدمـــة :

لم يكن لمثل هذه الدراسة عن «سكان المدينة المنورة» أن تتم فصولا، منهجا وموضوعا، لولا صدور بعض الإحصـــائيات المعاصرة للغاية (بعد ١٩٦٠) عن جوانب معينة ـ وليس عن كل الجوانب ـ التي تتصل بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالمجتمع السكاني في المملكة العربية السعودية عامة ، وببعض مناطقها ومدنها الرئيسية خاصة . فقد بدأت المملكة تظهر في قوائم الإحصائيات السكانية التي تصدرها الأمم المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية أو بداية من عام ١٩٥٠ م على وجه التحـــديد ، ليســت باعتبــارات إحصــائيــة دقيقــة ، وإنما كتقديرات تعتمد على مؤشرات خاصة ذات دلالات عديدة، وإلى ما قبـل ١٩٦٠م كانت الأرقام السكانية الخاصة بالمملكة تأتي متناثرة مبثوثة هنا وهناك غير موثقة غالبا، ثم اتخذت لفترة بعـد ذلك طابع التقديـرات المعتمدة على وسائـــل خاصة في إطار برامج التنميـــة والمشروعات، متبعة في ذلك مناهج معينة وأساليب إحصائية عديدة، ذات أهداف محددة، تلبية لأغراض التخطيط فى بعض مناطق المملكة .

وقد أجرى أول إحصاء سكاني للمملكـة يتسم بدرجة من الشمول في ١٩٦٣/٦٢م (١٣٨٣/٨٢هـ)، ورغم أن معظم الجداول والأرقام الخاصة بهذا الإحصاء لم تنشر بعد إتمامه وحتى الآن، فقد أتيح الحصول على بعضها من بحث «السكان والمؤسسات» الذي نشر في أبريل ١٩٦٣م (مصلحة الإحصاء، وزارة المالية والاقتصاد الوطني) ، ويشتمل على جداول خاصة بتوزيع السكان حسب النوع ومجموعات السن في المدن الرئيسية، وجملة السكان العامة وتوزيعهم حسب الكثافة في مناطق المملكة المختلفة (شكل ١) ، هذا عدا تقرير (غير مطبوع) عن تركيب السكان حسب العمر في المملكة كلها .

غير أنه نظرا لعدم نشر جداول إحصاء ١٩٦٣/٦٢م بشكل رسمي، فقد ظهرت بين هذه السنة وحتى إجراء إحصاء ١٩٧٤م الأخير مجموعة من التقديرات السكانية العديدة، سواء ضمن تقارير الأمم المتحدة أو في بعض الدراسات الخاصة عن مناطق معينة في المملكة. وقد

شكل (١)



توزيع الكثافة السكانية في المملكة ٦٢/١٩٦٣م

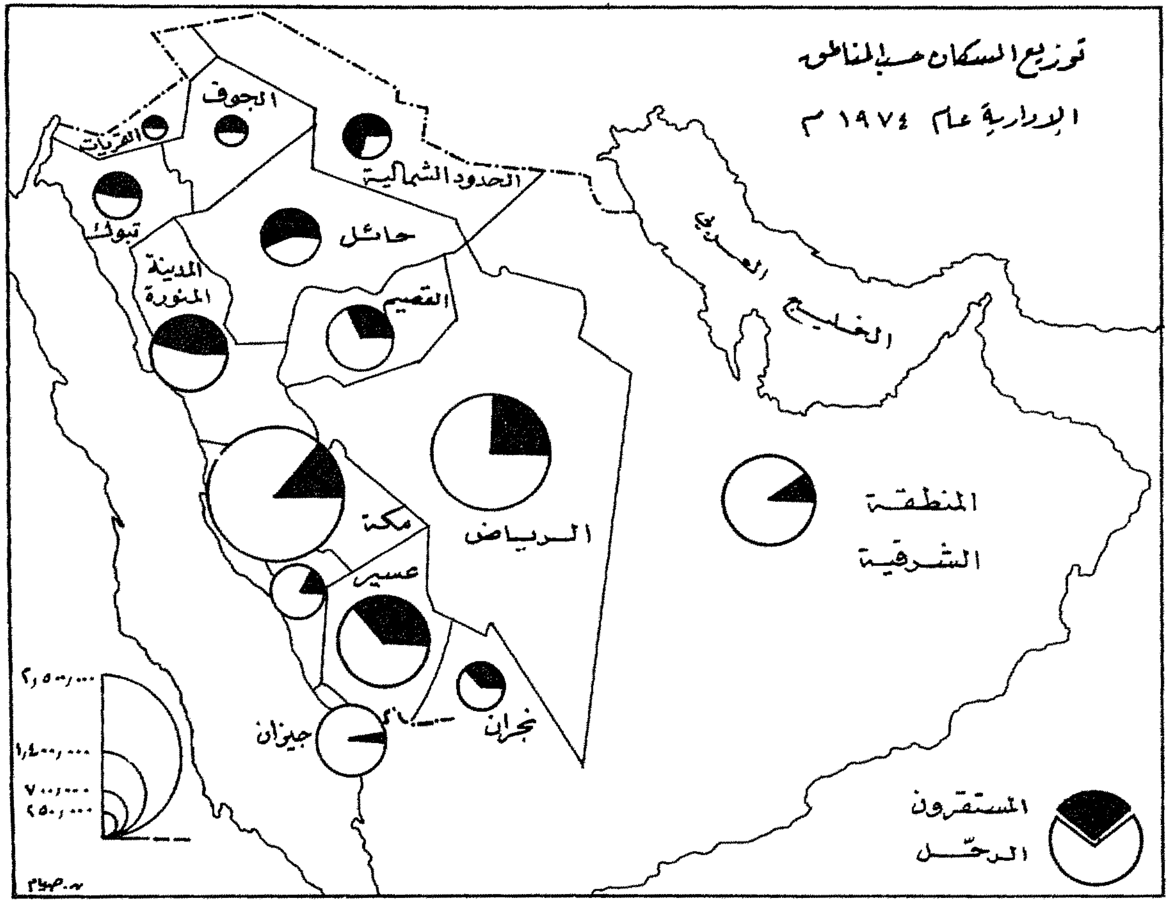
قامت مصلحة الإحصاءات العامة في المملكة بتعديل النتائج الإحصائية التي تمت على مستوى «الأمارات» في إحصاء ١٩٦٣/٦٢م، مع وضع بعض المقاييس الاعتبارية لمعدلات الزيادة الطبيعية والهجرة قبل هذا التاريخ وبعده، والثابت أن نسبة هامة من هذه التقديرات قد تمت باعتبارات غير إحصائية تماما، حيث تخلو معظم هذه الأمارات من أية سجلات للمواليد والوفيات والبيانات الحيوية عامة، كما لا توجد أية بيانات عن تدفق الهجرة (خاصة الداخلية) وتياراتها واتجاهاتها .

وبغض النظر عن أرقام مثل هذه التقديرات المتضاربة وغير الموثقة في أغلبها، يرد إحصاء ١٩٧٤م[1] متميزا بشموله لجميع مناطق المملكة، وتبدو الصلة بين أرقامه وما سبقها ضعيفة، وقد أدى تعدد مصادر التقدير قبله إلى افتقاد الاستمرارية بينها جميعا، وبالتالي لم يعد ممكنا ـ إلا بشكل عام للغاية ـ إجراء نوع من المقارنة بين جداوله، باعتبارها تمثل الوضع السكاني للفترة الراهنة بالفترات السابقة التي تكاد تخلو من الأرقام الموثقة كما سبقت الإشارة .

ورغم أن هذا الإحصاء الثاني لسكان المملكة ١٩٧٤م لا يتعدى ما نشر عنه حتى الآن حصرا لمسميات المملكة السكانية، وتقسيما لسكانها بين مستقرين ورحل، فهو ـ بلا شك ـ يقدم للمرة الأولى بيانات تفصيلية لم تكن متوافرة من قبل بأي درجة، وتتضاعف أهميته باعتبار أن أرقامه تقدم خلاصة لجملة التغيرات السكانية التي أخذت طريقها إلى المملكة منذ اكتشاف البترول وتدفق موارده، وهي تغيرات تتمثل مباشرة في إعادة توزيع السكان بين مناطق المملكة، وفي نمو مراكزها الحضرية، وفي بزوغ عدد آخر منها، وفي تناقص نسبة البداوة بها نتيجة النزوح السكاني من البادية إلى المراكز الحضرية القديمة منها والبازغة .

لقد بلغت جملة سكان المملكة حسب أرقام هذا الإحصاء الأخير (١٩٧٤م) أكثر قليلا من ٧ مليون نسمة، (٧٫٠١٢٫٦٤٢ نسمة) على وجه التحديد، وحسب التقسيم الإداري لمناطقها الواردة بهذا الإحصاء (جدول ١ ، شكل ٢) فإن جملة المسميات السكانية بها قد بلغت ٢٠٩٩٥ تسمية، وتشمل التسميات هذه (المدن والقرى والهجر والمزارع وموارد المياه وأماكن تجمع البادية)، أي إنها تشمل كل نقطة مسكونة كبيرة أو صغيرة، وقد توزع هذه التسميات بين عدد من التجمعات السكانية الأكبر تحت اسم «الأمارات والأمارات التابعة»، وجملتها ٥٦١ تجمعا، وهي تمثل نوعا من الإطارات الإدارية الوسيطة تندرج تحت التنظيم

شكل (٢)


توزيع السكان حسب المناطق
الإدارية عام ١٩٧٤م
الجوف
القريات
الحدود الشمالية
تبوك
حائل
المدينة المنورة
القصيم
الرياض
مكة
عسير
نجران
جيزان
المنطقة الشرقية
الخليج العربي
المستقرون
الرحل
٢,٥٠٠,٠٠٠
١,٤٠٠,٠٠٠
٧٠٠,٠٠٠
٢٥٠,٠٠٠

الإداري العام لمناطق المملكة، وقد توزع هذه التجمعات بدورها بين مناطق المملكة الإدارية، (وعددها ١٤ منطقة)[٢]. ويلخص تفاوت كثافة هذه «المسميات والتجمعات» بين مناطق المملكة الإدارية الرئيسية جملة الخصائص المتصلة بخريطة توزيع السكان المعاصرة بها، وكذلك عواملها الطبيعية والحضارية المؤثرة، فضلا عن إشارته لأنماط هذا التوزع وسماته الجغرافية والإقليمية .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه المقدمة العامة ليست معدومة الارتباط بموضوع هذه الدراسة (المدينة المنورة)، ليس فقط باعتبارها عرضا لمصادر الأرقام والإحصائيات التي تخص المملكة ككل، متضمنة في ذلك المدينة المنورة ومنطقتها الإدارية بل ـ أيضا ـ لأن جملة العوامل المؤثرة فيها وفي تغيراتها إنما هي في الحقيقة ـ وكما سيتضح ـ ذات العوامل العامة المؤثرة في المدينة المنورة ومنطقتها، ولذلك فإن معظم العناصر التي سبقت الإشارة إليها في هذه المقدمة تمثل الزوايا التي يمكن تحليلها بالنسبة للمدينة ومنطقتها، بالإضافة إلى أخرى أتيحت بياناتها تفصيليا كما سيأتي بيانه

أولا : سكان منطقة المدينة .

ثانيا : سكان المدينة المنورة .

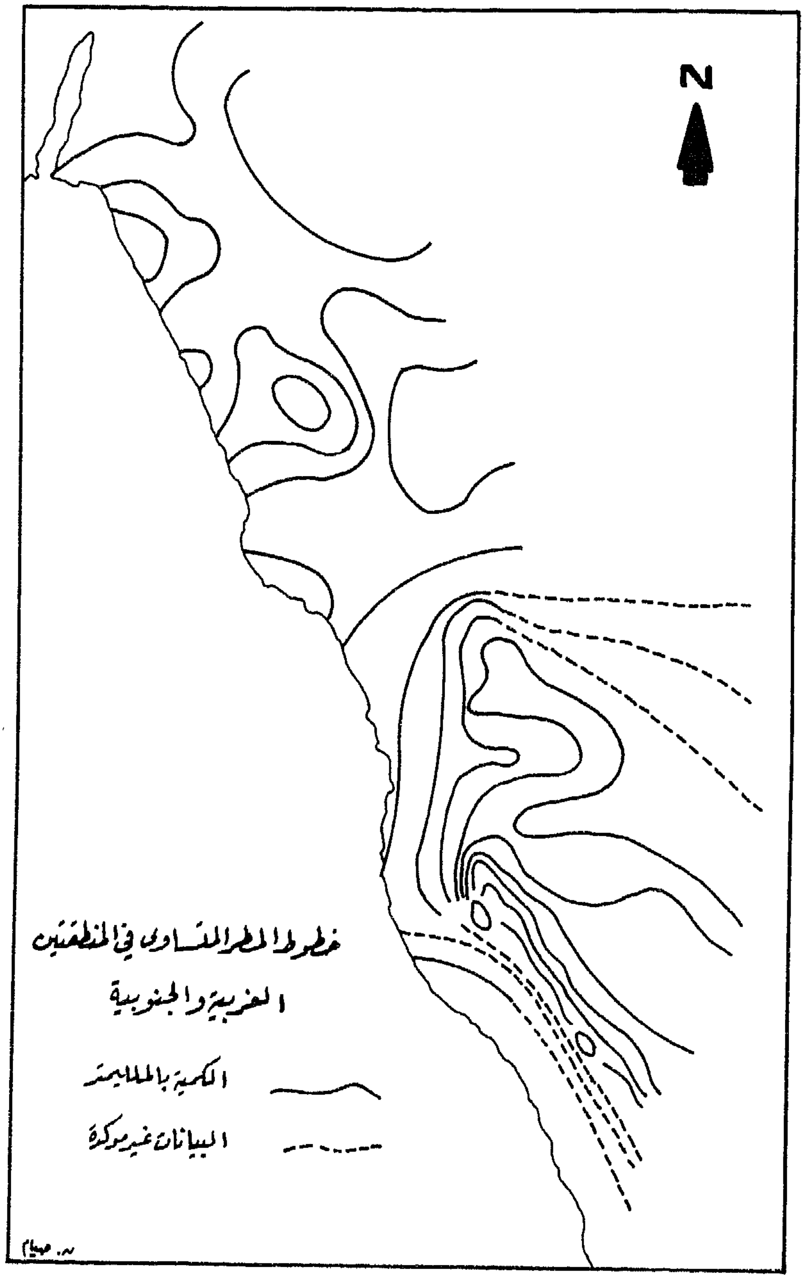
أولا : السكان في منطقة المدينة المنورة :

تعد منطقة المدينة جزءا من إقليم أكبر يشملها هو «الحجاز» ، ويتوزع إقليم الحجاز «الحجاز تسمية طبيعية تاريخية»[٣] الآن بين خمس مناطق إدارية، هي (مكة المكرمة، عسير، الباحة، نجران، جيزان، المدينة المنورة) وتمثل مجتمعة الثقل السكاني الرئيسي في المملكة، إذ إنها تستوعب نسبة قدرها ٥٢٫٦٢٪ من جملة سكان المملكة (١٩٧٤م)، ويتوزع في أنحائها نحو ٨٧٫٦٢٪ من مسمياتها، مما يعكس ميل السكان ـ عدا المراكز الحضرية الرئيسية ـ للتبعثر في مجتمعات صغيرة مرتبطة بالساحل والسهل والحافة والسلسلة ، ويتضح من دراسة الخريطة الكونتورية « للمنطقة الغربية » التي تشمل الحجاز وعسير ، ان التباين لا يقتصر في جغرافية المنطقة الطبيعية على ارتفاعات السلسلة واتساعات السهل وانحدارات الحافة ، بل يظهر أيضا في تفاوت كمية المطر السنوي التي تتلقاها هذه الأقسام تبعا لظروف سقوطه

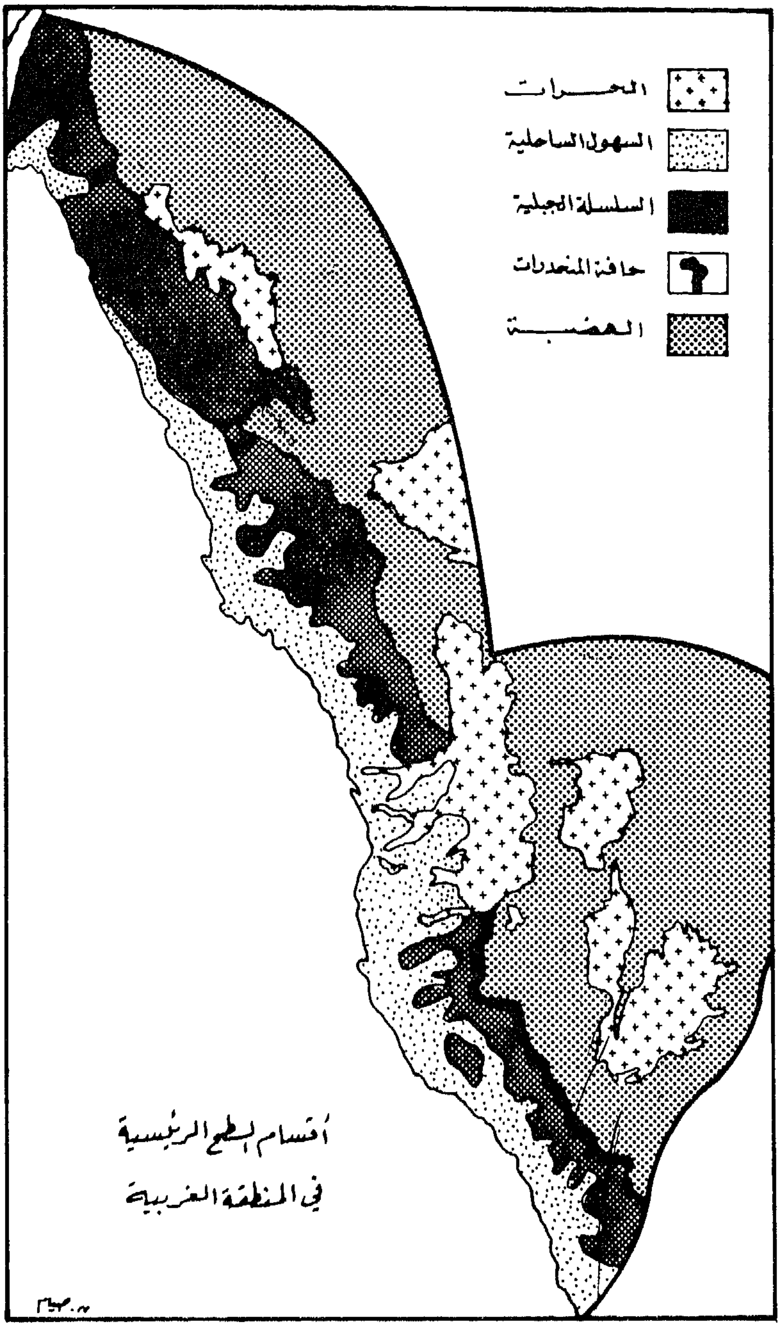
ونظامه وعوامله (شكل ٣) ، ورغم أن السلسلة الجبلية ـ وتمثل العمود الفقري لسطح المنطقة ـ تمثل الحافة الانكسارية للدرع العربي ، Aradian Shield (شكل ٤) إلا أن مظاهر التباين والتفاوت السابق تحديدها بالنسبة للسطح والمطر ، وكذلك في التركيب الجيولوجي تفصيليا ، قد أدت إلى انقسام المنطقة إلى قسمين متمايزين ، هما : «الحجاز ، وعسير» (م ٤ ص ١٢) ، حيث تتميز «عسير» باتساع المساحة المزروعة في السهل والسلسلة وفي كثرة قراها وتجمعها ، وفي وجود الغابات على ارتفاعات معينة منها ، كما أن الوديان بها أكثر عددا وأوفر مياها وأكبر قطاعا سواء طوليا أو عرضيا ، وهى الخصائص التي نبهت تدريجيا في الاتجاه نحو الشمال ، حتى تتغير مورفولوجية الإقليم الطبيعية والاقتصادية والعمرانية تماما إلى الشمال من جدة ، حيث تسود ظروف الجفاف الصحراوي وشبه الصحراوي في السهل والسلسلة والهضبة على حد سواء .

وتقع «المدينة المنورة» في نطاق الظروف الحجازية هذه، وتحتل المرتبة الخامسة بين مناطق المملكة من حيث الحجم السكاني (٧,٤١٪ من جملة السكان)، يتوزعون في ارتباط واضح بمحاور المكان الطبيعية (الساحل، السهل، الحافة، السلسلة، الهضبة) فعلى الساحل تقع مجموعة من المرافئ الصغيرة، يعمل معظم سكانها بالصيد والرعي والزراعة، ويضيق السهل الساحلي للغاية في منطقة المدينة، وقد تشرف السلسلة في بعض أجزائه عليه مباشرة، ويتجمع السكان في قرى صغيرة تتناثر في جوانب الوديان (حمض ، الفرعة)، على أن إمكانيات الزراعة محدودة في السهل، لضيقه وشدة جفافه وارتفاع ملوحة تربته، ورغم شهرة المنطقة التاريخية بواحاتها الزراعية، إلا أنها لا تشتمل في الوقت الحاضر إلا على أقل من ٥٥,٠٪ من جملة المساحة الزراعية بالمملكة، (جدول ٢)[٤]، وتتوزع هذه المساحة كبقع متناثرة في «رابغ ، ينبع النخل، العلا، خيبر، الكامل، الحناكية، المهد، وادي الصفراء، وادي الفرع». وتعتمد النسبة الكبرى من زراعتها على الري بالآبار، خاصة العادية (٣٠٢١ بئرا)، أما الإرتوازية فلا يزيد عددها عن ٣٣ بئرا، يوجد منها ٢٩ بئرا في زمام المدينة المنورة ذاتها، وتعتمد باقي المساحة على الري بالعيون والأمطار، وتوجد أهم بقع الزراعة في السلسلة، خاصة على جوانب الوديان التي لا تصل للبحر الأحمر، مثل وادي «الجزل»، ويجري بين العلا والمدينة المنورة، وتتيح الإمكانيات المائية لهذا الوادي فرصة زيادة مساحته المزروعة، ثم واديا «وج ، لية»، غير أن واحات المنطقة، تعد أهم مناطق زراعتها، وتبدو الواحات كسلسلة متتابعة تشمل «تيماء، العلا، خيبر، المدينة المنورة، ينبع النخل، وتجري على مقربة منها مجموعة من وديان

شكل (٣)


N
خطوط المطر المتساوي في المنطقتين
الغربية والجنوبية
الكمية بالمليمتر
البيانات غير مؤكدة

شكل (٤)



الحرات
السهول الساحلية
السلسلة الجبلية
حافة المنحدرات
الهضبة
أقسام السطح الرئيسية
في المنطقة الغربية

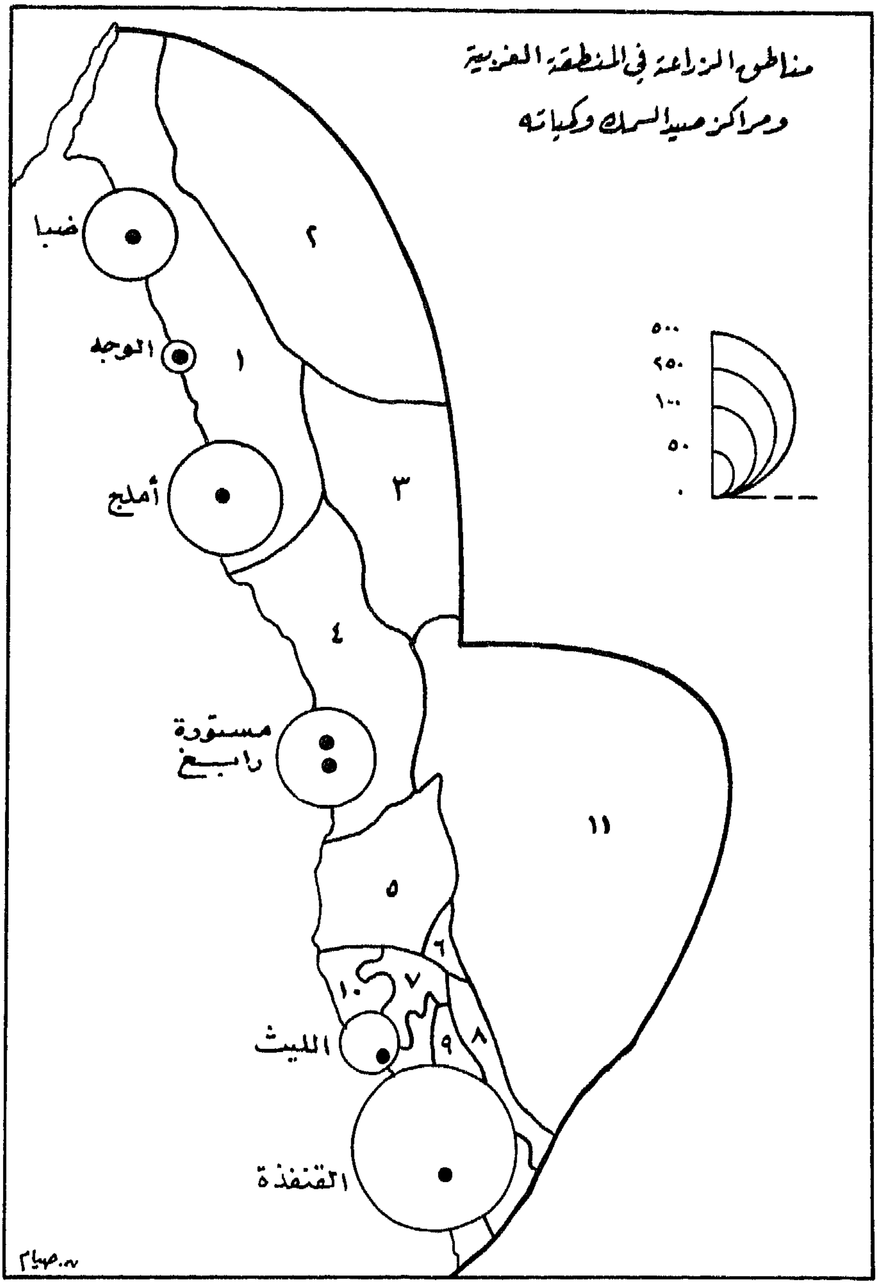
السلسلة مثل «الحناكية»، حيث تقوم عليها زراعات جيدة، خاصة في زمام قرية الحناكية، وأودية «سويدرة»، و«الفرع» ، و«الصفراء»، وتعد «خيبر» واحة زراعية قديمة تستمد مياهها من عيون قديمة تتعرض للنضوب، أما «ينبع النخل» فهي منطقة زراعة متجمعة تعتمد على العيون، كما تروى سطحيا من بعض الآبار الإرتوازية. ويوضح (شكل ٥) توزيع مواضع الزراعة في «المنطقة الغربية» بأكملها بناء على الإمكانيات الحالية والمستقبلة، بالإضافة إلى مراكز صيد السمك وكمياته من مراكز صيده الرئيسية بها، وهما ـ الزراعة والصيد ـ ما يزالان كما تشير الدراسات دون المستوى بمراحل، سواء من ناحية الإنتاج الفعلي أو الوسائل المستخدمة (م ٢٦ ص ١١٩)، وعموما فإن الكثافة السكانية تتجه للانخفاض من السلسلة للساحل، ومن الجنوب للشمال، ويتوزع السكان بكثافة أكبر فوق السلسلة خاصة على طول وديانها، ومن أهمها ـ فوق السلسلة ـ «وادي الصفراء» حيث تقع عليه قرى «الفقير، أبو ضباع، أم العيال، ضغينة»... وغيرها[٥]. ويتوزع نحو ٦٠ قرية على مسافات متقاربة من المدينة المنورة، وإلى الشمال منها، ويتبع «خيبر» قرى الوادي، التمد، الصلصة، اللحن، الحرضة، العشاش ... وغيرها، كما يتبع «ينبع النخل» نحو ٣٠ قرية أخرى، أهمها «العيص ، العين، المربع، أم سليلة، الزبابر ... وغيرها، ويتبع «العلا» قرى زراعية كبيرة نسبيا، أهمها «مدائن صالح»، العذيب، معيزاء، أبو زرائب»[٦]. (شكل ٦) .

المسميات والتجمعات السكانية في منطقة المدينة :

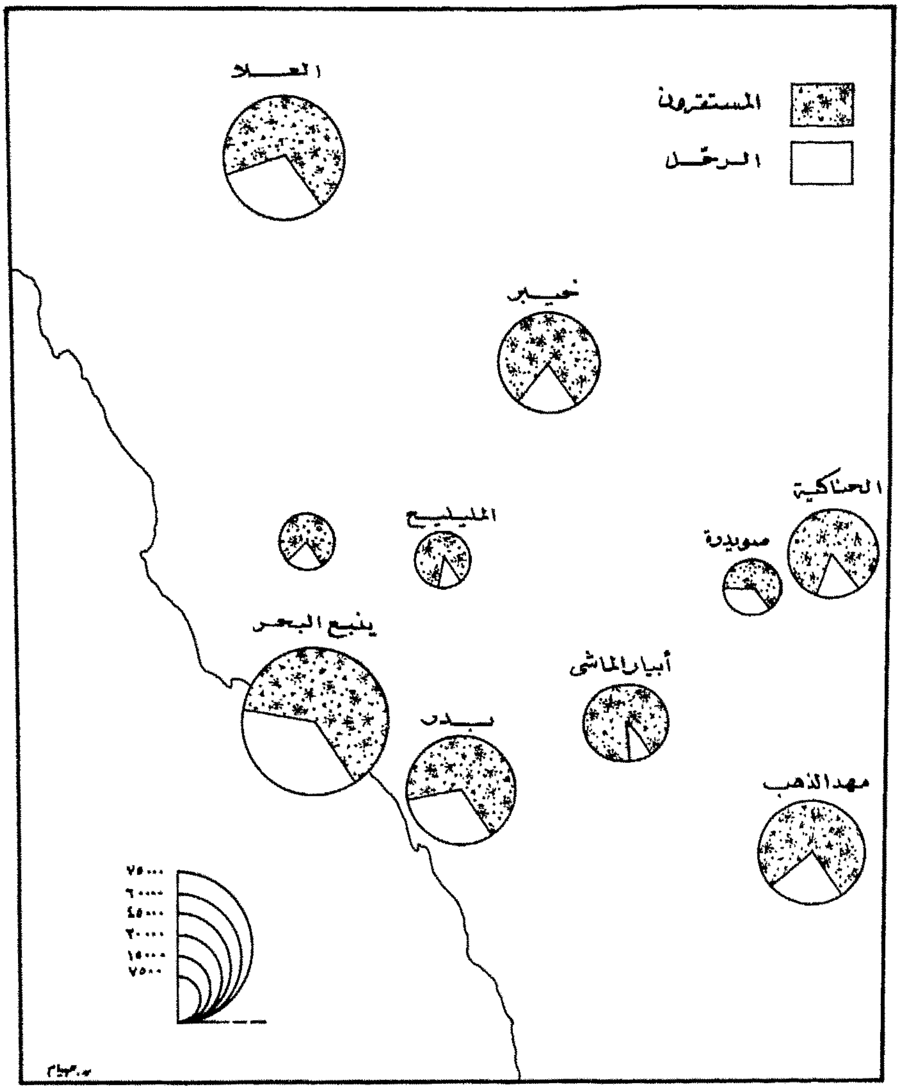
حسب أرقام إحصاء ١٩٧٤م بلغت جملة سكان منطقة «المدينة المنورة» ٥١٩٢٩٤ نسمة، أي بنسبة قدرها ٧٫٤١٪ من جملة سكان المملكة في ذلك الإحصاء، كما بلغت جملة مسمياتها السكانية ١٧٤٢ تسمية (٨٫٣٠٪ من جملتها في المملكة ٢٠٩٩٥ تسمية). وقد استوعبت المدينة المنورة (١٩٨١٨٦ نسمة) وحدها نسبة تقدر بنحو ٣٨٫١٦٪ من جملة سكان منطقتها ، وتوزع باقي السكان بين مسميات المنطقة السكانية ، فيكون متوسط حجم التسمية بها ١٨٤ نسمة لكل تسمية .

وتتوزع هذه المسميات الصغيرة الحجم غالبا بين عدد من التجمعات السكانية الأكبر (الأمارات والأمارات التابعة)، ويبلغ عددها في منطقة «المدينة المنورة» ٤٤ أمارة وأمارة تابعة،

شكل (٥)


مناطق الزراعة في المنطقة الغربية
ومراكز صيد السمك وكمياته
ضبا
الوجه
أملج
مستورة
رابغ
الليث
القنفذة
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
٥٠٠
٢٥٠
١٠٠
٥٠
٠

شكل (٦)



التجمعات السكانية في منطقة المدينة المنورة ونسبة البداوة فيها

أي إن متوسط ما يتبع كل منها من المسميات يبلغ نحو ٤٠ تسمية سكانية، وبالنسبة لمتوسط الحجم السكاني لها فهو يبلغ نحو ٧٢٩٨ نسمة .

وباستثناء «المدينة المنورة» يمثل الرحل النسبة الكبرى من تجمعات منطقتها السكانية، حيث تصل هذه النسبة بينها إلى ٧٣٫٩٠٪ (جملة الرحل بالمنطقة ٢٣٧٠٩٩ نسمة)، وإذا كانت «المدينة المنورة» تستوعب نحو ٣٨٫١٦٪ من جملة سكان منطقتها، فإنها تستوعب وحدها نسبة تقدر بنحو ٨٣٫٥٩٪ من جملة المستقرين بالمنطقة (جملة المستقرين بها ٢٨٢١٩٥ نسمة)، ويتوزع باقي المستقرين في القرى الزراعية ومراكز الخدمة الحضرية والمرافئ والموانئ المتناثرة بها .

وتتفاوت هذه التجمعات في المواقع فيما بينها ـ بعد ذلك ـ تفاوتا كبيرا، سواء من حيث عدد توابعها من المسميات، أو من حيث أحجامها السكانية، ويلخص الجدول الآتي الحقائق السابق ذكرها كما يلي (لا تشمل الحسابات المدينة المنورة ذاتها) .

	العدد	نسبة التوزيع السكاني ٪	جملة مسمياتها	نسبة الرحل٪
التجمعات الكبيرة	٦	٣٨٫٦٠	٣٣٩	٦٦٫٣٤
التجمعات المتوسطة	١٨	٤٦٫٤٩	١٠٢٧	٧٩٫٢٢
التجمعات الصغيرة	٢٠	١٤٫٩١	٣٧٦	٧٥٫٩٧
الجملة	٤٤	١٠٠٪	١٧٤٢	٧٣٫٧٦

وبدراسة الجدول السابق يمكن تحديد ما يلي:

١ ـ تشمل التجمعات الكبيرة تلك التي يزيد حجمها عن ١٥ ألف نسمة، وتأتي «خيبر» في مقدمتها من حيث الحجم (٣٢٢١٦) نسمة، ويتبعها وحدها ٧٣ تسمية، ويجيء بعدها

«أبيار الماشي، ينبع النخل، بدر، العلا، ينبع البحر» بترتيب أحجامها، وتتميز بأنها تمثل أكبر ستة مراكز سكنية في منطقة المدينة بعد المدينة المنورة، وهي مراكز تتميز باستقرارها الراسخ، ولذلك فإن النسبة العامة للبداوة (الرحل) بها أقل من غيرها من التجمعات الأصغر، ويدل على ذلك أيضا أنها رغم استيعابها لنحو ٣٨٫٦٠٪ من سكان المنطقة (باستثناء المدينة المنورة)، فإنها لا تضم سوى أقل من ١٩٫٥٠٪ من جملة مسمياتها، فالنمط السائد هو المراكز الحضرية والقرى الكبيرة التي يتناثر في زمامها عدد محدود نسبيا من المسميات الصغيرة

٢ ـ أما التجمعات المتوسطة الحجم (بين ٥ ـ ١٥ ألف نسمة) فيصل عددها في المنطقة إلى ١٨ تجمعا، من بينها ٣ تجمعات بين ١٠ ـ ١٥ ألف نسمة: (الحناكية، وادي الفرع، الفريش)، والباقي ١٥ تجمعا بين ٥ ـ ١٠ ألف نسمة(٧)، وجملة سكانها ١٤٩٢٨٥ نسمة (٤٦٫٤٩٪ من جملة سكان المنطقة عدا المدينة المنورة) فهي تستوعب النسبة الكبرى من سكان منطقة المدينة، كما تضم العدد الأكبر من مسمياتها (نحو ٥٤٪ من جملتها)، وفي نفس الوقت تصل نسبة البداوة بينها إلى أعلاها، وخاصة بالنسبة للتجمعات الأكبر، ويتوزع هذا النمط من التجمعات فيما يعرف بالبادية الحقيقية في منطقة المدينة. وإذا كانت قد برزت من بينها بعض التجمعات من فئة حجم كبيرة نسبيا، فإنما يدل ذلك على استجابة البادية المعاصرة للتجمع في بؤر سكانية على طول محاور توزع حديثة مرتبطة بالطرق البرية ومراكز الخدمة الحضرية بصفة أساسية .

٣ ـ وبالنسبة للتجمعات الصغيرة (أقل من ٥ آلاف نسمة) فإن عددها يبلغ ٢٠ تجمعا، أي إنها ـ مجتمعة ـ تمثل نمط التجمعات السكانية السائدة في المنطقة (٤٥٫٤٥٪) من جملة التجمعات، غير أن جملة سكانها مجتمعة تبلغ ٤٧٨٦٦ نسمة، أي إنها لا تستوعب سوى أقل من ١٤٫٩١٪ من جملة سكان المنطقة (عدا المدينة)، وقد لا يتجاوز حجم بعض تجمعاتها ٥٠٠ نسمة (٣ تجمعات، ٢٠٦ نسمة لأصغرها) ، وتقع ٧ تجمعات منها في فئة أقل من ٢٥٠٠ نسمة، أما بقيتها (١٠ تجمعات) فتقع في فئة حجمية بين ٢٥٠٠ ـ ٥٠٠٠ نسمة، وتعكس هذه الأرقام حالة التبعثر السابق الإشارة إليها في التجمعات المتوسطة، فهي استمرار لها بدرجة أشد، ورغم أن نسبة البداوة بينها أقل

قليلا منها في التجمعات المتوسطة الحجم، إلا أنه فارق بلا دلالة تقريبا، وقد لا يعني أكثر من اتجاه بعض هذه التجمعات نحو بعض الزراعة المحدودة التي لا يمكن أن تحول تجمعات أكبر حجما، خاصة وأن هذا النمط من التجمعات السكانية الصغيرة يشمل نحو ٢٦٫٥٪ من جملة مسميات منطقة المدينة ، والمرجح أن المساحات الزراعية المحدودة قد تكون أكثر مناسبة وكفاية لمثل هذه المسميات الصغيرة المبعثرة، وأنه إذا زاد حجمها عن ذلك فإن الرعي يكون أكثر جاذبية لها من الزراعة .

والحقيقة أن الصورة السابق تحليلها بتفصيلاتها تتشابه مع الوضع السكاني في المملكة وتوزيع تجمعاتها وخصائصها ، فبدراسة جدو (٣) يتضح أن التجمعات السكانية الصغيرة من فئة حجم أقل من ٥٠٠٠ نسمة تمثل نمط التجمعات السائد في المملكة، ورغم قلة ما تستوعبه من سكان بالقياس إلى جملة سكان الدولة (١٢٫٦٣٪) ، إلا أنها الأوسع انتشارا، وربما كانت تستوعب في الماضي القريب نسبة أكبر مما تقدمه أرقامها الحالية وهي ـ عامة ـ تمثل نمط التبعثر السكاني المرتبط بخصائص البيئة الصحراوية عامة، وهي تتوزع بشكل خاص في بوادي مناطق الدولة المختلفة، وهي تجمعات رعوية أساسا، ولا يبرز من بينها مراكز حضرية متميزة، أما بالنسبة للتجمعات السكانية المتوسطة الحجم (٥٠٠٠ ـ ١٥ ألف نسمة)، فهي التي تستوعب النسبة الكبرى من سكان المملكة (باستثناء مدنها الرئيسية)، وإن كانت أقل انتشارا من التجمعات الأصغر، كما أن فئة حجم ٥ ـ ١٠ آلاف نسمة تمثل أيضا أكثر الفئات تكرارا بين التجمعات السكانية على مستوى المملكة، (١٠٩ تجمعا بنسبة ١٩٫٥٠٪ من جملة التجمعات العامة) ، ويبرز من بينها بعض المراكز الحضرية، خاصة تلك التي استثمرت معطيات الواقع الاقتصادي الجديد بعد البترول (المواصلات، الخدمات الحضرية ، التجارة ...) وغيرها، أما التجمعات الكبيرة (١٥ ألف نسمة) فهي أقل عددا وانتشارا على مستوى المملكة (٦٨ تجمعا)، غير أنها تستوعب نسبة قدرها ٢٧٫٥٧٪ من جملة سكان المملكة، وهي تلي «المدن الرئيسية، بها مباشرة من حيث نسبة التوزيع السكاني، ويبرز من بينها عدد كبير من مراكز الخدمة الحضرية في ريف المملكة وباديتها .

وعلى أية حال فالواقع أن مثل هذه التشكيلات إنما تتعرض لتغيرات مستمرة في المرحلة الراهنة في مناطق المملكة، وتقوم المدينة المنورة بدورها في هذا المجال في منطقتها مع مجموعة من

العوامل الأخرى المتصلة بتنمية ريفها وباديتها، وتؤدي في جملتها إلى إعادة توزيع السكان في المنطقة .. تبعا لعوامل التحضر واتجاهات تيارات النزوح، فالثابت أن المدينة المنورة تجتذب منذ فترة تيارات نزوح متزايدة الامتلاء من سكان منطقتها تبعا لنفس الديناميات السائدة في المملكة عامة تقريبا، وتؤثر هذه العوامل وغيرهـا في سكان المدينة ومنطقتها على حد سواء وفي إعطاء خريطتها السكانية خصائصها المعاصرة .

ثانيا : سكان المدينة المنورة :

تقف «المدينة المنورة» بحجم خاص في منطقتها(١٩٨١٨٦ نسمة)، وباستثناء «مكة» فإن المدينة ـ حسب إحصاء ١٩٧٤م ـ تعد ثانية مدن الحجاز بعد «الطائف»[٨]، ولا يقترب من حجمها أي مدينة أخرى شمالي دائرة عرضها في المملكة (٢٨َ ٢٤° شمالا)، وهي تنتمي لمجموعة المدن الحجازية المرتبطة في توزعها بالساحل والسهل والسلسلة ، ويلاحظ أنها تختلف كثيرا ـ كمجموعة ـ من مجموعة مدن المنطقة الشرقية، من حيث عوامل الظهور والنمو المدني المعاصر، فهذه المنطقة الغربية لم تشهد ظهورا مدنيا سريعا ونموا مفاجئا مثل معظم مدن المنطقة الشرقية، بل الأرجح أن تأثيرات البترول عليها ـ وقد بدأت بها متأخرة نسبيا ـ قدأدت إلى إنعاش مدنها القديمة وإلى بزوغ بعض أسواقها وقراها الكبيرة إلى مستوى المراكز الحضرية، وقد يرجع ذلك إلى عاملين أساسيين ، الأول: أن المنطقة كانت تمثل مركز الثقل السكاني في المملكة حتى عهد قريب، ولم يتجه توزيع السكان نحو نوع من التوازن بين المنطقتين «الغربية والشرقية» إلا حديثا، والثاني: أن معظم المدن الكبرى والمراكز الحضرية في المنطقة الغربية .. كانت قائمة بالفعل كمرافئ ساحلية وكقرى زراعية في السهل والجبل، وكأسواق محلية، وكمدن لها مكانتها الدينية، وما حدث في أغلبه هو إنعاشها اقتصاديا ونمو حجمها سكانيا، مع ظهور بعضها كمراكز حضرية تبعا للدينامية السائدة في عملية التحضر المعاصرة في المملكة .

وقد أتيح بفضل بعض الدراسات المتصلة بالمنطقة الغربية عامة وبالمدينة المنورة خاصة (م ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠) التعرف بصورة تفصيلية نسبيا على عدد من الخصائص السكانية لمجتمع المدينة المنورة، يمكن تحديدها فيما يلي :

أ ـ تغيرات حجم المدينة المنورة .

ب ـ توزيع سكان المدينة المنورة بين أحيائها .
جـ ـ تغيرات الخصائص الديموجرافية العامة للمدينة المنورة .
د ـ توقعات النمو السكاني للمدينة وأحيائها .
هـ ـ تيارات النزوح للمدينة ونتائجها .
و ـ قوة العمل في المدينة المنورة .
ز ـ المساكن والتزاحم بالمدينة المنورة .
حـ ـ الحج ونتائجه السكانية .

أ ـ تغيرات حجم المدينة المنورة :

لقد قدر حجم «المدينة المنورة» في بداية هذا القرن بما لا يتجاوز ١٣ ألف نسمة، وتشير بعض التقارير (م ٦٧ ص ٦) إلى أن هذا الحجم قد قفز إلى نحو ٨٠ ألف نسمة بعد إنشاء سكة حديد الحجاز في ١٩٠٩م ، حيث أدى ذلك وما تداعى عنه من انتعاش اقتصادي شامل في كيانها أن جذبت إليها تيارات متزايدة الامتلاء من سكان باديتها وريفها، غير أن ذلك لم يستمر سوى أقل من ٧ سنوات، فقد دمر الخط خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٥م)، وبعده انحدر الخط البياني لنموها ليعود إلى سابق وضعه قبل إنشاء الخط الحديدي، وتكاد تخلو الفترة بين نهاية الحرب العالمية الأولى ونهاية الثانية من تقديرات يوثق بها في هذا المجال، وهي تظهر في تقديرات الأمم المتحدة في ١٩٥٠م بحجم يبلغ ٤٤ ألف نسمة في التاريخ المذكور (م ٨٠ جدول ٤). وتبعا لمسح سكاني أولي أجري في المملكة في ١٩٦٢ قدر عدد سكانها بنحو ٥٠ ألف نسمة، ويلاحظ أنه بالنسبة لجميع هذه التقديرات أنها غير موثقة ولا تشير إلى مصادرها، فهي تقريبية تعتمد على بعض الشواهد والارتباطات النظرية القياسية، غير أنه قد أجري في سنة ١٩٧١م مسح سكاني اقتصادي للمنطقة الغربية (م ٢٧)، قدمت بواسطته مجموعة كبيرة من الجداول الإحصائية المتنوعة التي يمكن الوثوق بأرقامها بدرجة عالية، وستعتمد عليها هذه الدراسة في كثير من نواحي تحليلها لسكان المدينة، خاصة ما يتصل منها بالعمالة والهجرة الداخلية، وقد بلغ حجم المدينة المنورة حسب هذا المسح نحو ١٣٧ ألف نسمة، وهو رقم يعكس درجة نمو عالية، لا يمكن أن تتحقق بمجرد الزيادة الطبيعية بالقياس للتقديرات السابقة، فتبعا لأرقامه وأرقام تقدير ١٩٦٢م تكون المدينة قد نمت بنسبة عامة قدرها ١٧٤٪ ، أي بنسبة

نمو سنوي قدرها ٤ر١٧٪ ، فإذا كانت التقديرات السابقة أقل مما يجب احتمالا، فإن ذلك وحده لا يمكن أن يفسر نسبة نمو بهذا الارتفاع، ويتأكد أن «المدينة المنورة» قد شهدت ـ مثل غيرها من مدن المملكة ـ تيارات نزوح متزايدة الامتلاء منذ نحو عقدين من السنين، وقد بدأت هذه التيارات ببطء نسبي بين ١٩٥٥ ـ ١٩٦٥م، وتسارعت معدلاتها بين ٦٥ ـ ١٩٧٥م. والمرجح أنها قد بلغت أقصاها خلال السنوات الخمس الأخيرة من العقد الأخير، ذلك أن إحصاء السكان العام الذي أجري في المملكة قرب نهاية ١٩٧٤م يقدم لنا المدينة المنورة بحجم حول المائتي ألف نسمة (١٩٨١٨٦ نسمة)، أي إنها قد تزايدت بنحو ٤ مرات بالقياس لتقدير ١٩٦٢م (٤٠٠٪)، وبنحو ٧٠٪ بين ١٩٧١ ـ ١٩٧٤م، وإذا كان معدل نموها بين ٦٢ ـ ١٩٧١م لا يمكن تفسيره بغير عامل الهجرة والنزوح، فإن معدل النمو الأخير يدل على اشتداد تأثير هذا العامل بالنسبة لنمو المدينة إلى احتمال زيادة حجمها إلى حول النصف مليون حسب أعلى التوقعات بين ٧١ ـ ١٩٩١م، وبعد ذلك لا تتيح أرقام إحصاء ١٩٧٤م إمكانية دراسة سكان المدينة تفصيليا، إذ إنها لا تقدم سوى هذا الرقم الخاص بجملة حجمها ورقم آخر يخص عدد المترحلين بين سكانها وهم بضعة مئات، ورقم ثالث يخص «عدد الأسر» في المدينة (٣٥٣٩٠ أسرة)، وقد تكون له فائدته من بعض الزوايا، أما المسح السكاني الاقتصادي فهو أكثر جدوى وتفصيلا في مثل هذا المجال .

ب ـ توزيع سكان المدينة بين أحيائها :

تقدم الدراسة الخاصة بتخطيط المدينة المنورة حتى سنة ١٩٩١م «Medina Master Plan Report» (م ٦٧)، وهي غير المسح الاجتماعي الاقتصادى «Socio Economic Survey» (م ٢٧) السابق الإشارة إليه، تقدم الأرقام اللازمة للقيام بمثل هذا التحليل، وهي تقدمها ضمن إطار ولغة ومنهج مخططي المدن، مما يقتضي ضرورة تطويعها لأغراض مثل هذه الدراسة في جغرافية المدن المنفردة Monograph وعلاقاتها الإقليمية العامة والخاصة، وبدراسة جدول (٤) يمكن تبين ما يلي :

١ ـ يتوزع سكان المدينة بين أحيائها بكثافة متباينة ، ومن بين جملة السكان في ١٩٧١م (١٣٧ ألف نسمة) يسكن نحو ٢٥٪ منهم في مركز المدينة City Center

والمنطقة المجاورة لها مباشرة في حدود (١) كم من هذا المركز على شكل دائرة، ويتوزع باقي السكان في بقية أحيائها على النحو التالي (النسبة المئوية) :

المنطقـة	الحرة الشرقية	الحرة الغربية وقبا	سيد الشهداء	سـلطانة
نسبة التوزيع ٪	١٦	٤٧	١١	١

ويتميز مركز المدينة (ويظهر أشبه بنصف دائرة مركزها المسجد النبوي الشريف، ونصف قطرها نحو ٥٠٠ م) بارتفاع الكثافة السكانية به إلى أعلاها، والمرجح أن ارتفاع الكثافة والتزاحم الشديد في هذا المركز المتميز سوف يكون شديد الوطأة في المستقبل القريب، خاصة وأنها الآن بين (٤٠٠ ـ ٥٠٠ شخص/هكتار)، وتتحقق به درجة عالية من الارتباط بين أماكن السكن ومراكز العمل، ويمثل بذلك حالة نموذجية يحاول مخططو المدن التوصل إليها أو إيجادها (م ٧٨ ص ١٠٧)، وإن كان يعوزه الكثير من الخدمات الضرورية اللازمة لخطته المعاصرة .

٢ ـ تقل الكثافة تدريجيا في الاتجاه من المركز إلى المنطقة الوسطى Central District حتى لا تتجاوز ٣٠٠ نسمة/هكتار عند هوامشها، غير أنها ما تزال أعلى من غيرها من مناطق المدينة الأخرى باستثناء مركزها، ومن غير المتوقع أن يقل عدد سكان المنطقة الوسطى أو تقل كثافتها كثيرا عما هي عليه، وذلك لأسباب تتصل بشدة جاذبيتها كقلب ديني تنبض حركة المدينة برمتها من خلاله، وكمركز اقتصادي تجاري لها، حيث تتركز به معظم مؤسسات التجارة بأنواعها والمطاعم والفنادق وغيرها من دعائم اقتصاديات المدينة .

٣ ـ ومرة أخرى تتجه الكثافة للتناقص خارج المنطقة الوسطى، فلا تزيد الكثافة في «قبا» عن ١٠٠ نسمة/هكتار، وهي نحو ٦٤ نسمة/هكتار في «الحرة الغربية»، وتتجه كثافة المنطقتين للزيادة بسرعة في المرحلة الراهنة، مع اختلاف أسباب ذلك بينهما ، ففي «قبا والعنبرية» تتناثر المساكن بسبب وجود مساحات واسعة في الأراضي غير المستغلة، ولذلك

فإن النمو يتجه إلى المنطقتين أكثر من غيرهما، وقد تبدو الحاجة ملحة لضبط النمو فيهما وفي «المنطقة الوسطى» لإيجاد نوع من التوازن بين معدلات نمو أجزاء المدينة، أما في «الحرة الغربية» فإن ارتفاع كثافتها نسبيا إنما يعود إلى نقص مساحة الأراضي الجيدة والصالحة للمباني الدائمة، ولأن المسقط الراسي لمساكنها ليس مرتفعا، فهي تظهر متجاورة متلاصقة، ولانخفاض مستوى الدخل بين سكانها عامة فإن التزاحم بها يبدو أعلى بالمقارنة مع غيرها من مناطق المدينة .

٤ ـ وتعد «الحرة الشرقية» من أقل أجزاء المدينة كثافة، كما أن معدلات نموسكانها وسكنها ما تزال أقل من غيرها من أجزاء المدينة، سواء من ناحيتها في اتجاه الكتلة الرئيسية للمدينة، أو من الأخيرة في اتجاهها، وتبعا لأرقام هذه الدراسة فإن جملة سكانها (١٩٧١م) تبلغ ٢١٧٠٠ نسمة، وربما يكون من المفيد توجيه النمو السكني الحالي وفي المستقبل إليها .

وبالنسبة للمدينة ككل يجدر الاحتفاظ بالمستوى الحالي للكثافة السكانية في بعض أحيائها، والعمل على زيادة الكثافة في بعض أجزائها الهامشية، سواء في إطار خطة من إعادة توزيع السكان Population- redistribution بين أحياء المدينة وأقسامها، أو ضمن غير ذلك من الخطط المتاحة، ومن أجل أغراض حسابات الاحتياجات المستقبلية من الأراضي فإن تحديد الكثافات السكانية يعد ضروريا، ومن هذه الناحية قد يجدر العمل على خلخلة الكثافة السكانية للمنطقة الوسطى ـ رغم صعوبة ذلك ـ بحيث لا تتجاوز كثافتها السكانية ٣٠٠ نسمة/هكتار، ولا تقل كثافة المناطق الخارجية عن ١٠٠ نسمة/هكتار، أما المناطق المستحدثة فحول ٦٠ نسمة/هكتار، على أن يسود نمط الشقق في المنطقة الوسطى، أما المناطق الخارجية والمستحدثة فتتحول إلى نمط الفيلات، مع المحافظة قدر الإمكان على نسق وحدات الجوار، ومراعاة مبادىء التخطيط الخاصة بتوزيع مراكز الخدمات وطرق المواصلات .

جـ ـ تغيرات الخصائص الديموجرافية العامة :

رغم التغيرات الديموجرافية الأساسية التي تعرض لها مجتمع المدينة المنورة السكاني ـ في الفترة الأخيرة ـ سواء من حيث التكوين أو الحركة السكانية واتجاهاتها ـ فإن رصد ذلك

وتسجيله لا يتم إلا في أضيق نطاق، وبشكل جزئي للغاية، وحتى الآن فإن تسجيل المواليد والوفيات ـ وهما من أهم عناصر التسجيل الإحصائي الحيوي Vital-Statistics للسكان ما يزال أقل انتظاما مما يجب، أما بالنسبة لتسجيل تيارات الهجرة ـ خاصة الداخلية ـ فلا يمثلها سوى بعض الأرقام التي تقدمها بعض الدراسات الخاصة من زوايا معينة، تفتقر للتكامل والاستمرارية، وليس هذا حال المدينة المنورة وحدها، بل يمكن اعتبارها حالة المدن السعودية جميعها بدرجات ، على أية حال فقد أدى ذلك إلى ضرورة الاعتماد على بعض البيانات المتصلة بالمملكة ككل (م ٤٥) عند محاولة الكشف عن تغيرات الخصائص الديموجرافية العامة لمجتمع المدينة منذ حوالي عام ١٩٦٢م، هذا بالإضافة إلى ما قدمته الدراسات الخاصة بالمدينة المنورة من نتائج تتصل بهذه التغيرات .

١ ـ معدلات الزيادة الطبيعية :

تعكس معدلات الزيادة الطبيعية طبيعة المرحلة الديموجرافية التي يمر بها المجتمع السكاني، وإذا كانت المدينة المنورة ـ كما سبقت الإشارة ـ قد نمت سكانيا بمعدلات عالية في الفترة الأخيرة، فليس ذلك نتيجة لارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية، ودخول المدينة مرحلة متفجرة سكانيا فقط، بل ربما تعود النسبة الكبرى من نمو حجمها إلى تدفق تيارات الهجرة إليها من ريفها وباديتها، أي إن هذا النمو إنما يعود إلى عامل النمو الذاتي لمجتمع المدينة من خلال الزيادة الطبيعية، بالإضافة إلى عامل الهجرة إليها، ومع نقص البيانات (الدائمة والمستمرة) عن العاملين، وباعتبار تشابه تأثير العاملين عامة في المملكة ككل وفي مدنها خاصة، فالغالب أن المدينة المنورة تمر بمرحلة ديموجرافية تتصل بدرجة ما بالمرحلة التي تمر بها المملكة عامة .

وقد قدرت معدلات الزيادة السكانية في المملكة بين ١٩٥٢ ـ ١٩٦٢م بنحو ١٧ في الألف سنويا (م ٤٥ ص ٢٢٥)، ورغم الاتجاه الحالي الملحوظ نحو زيادة عدد المواليد وانخفاض معدلات الوفيات، وبالتالي ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية إلى نحو ٢٥ في الألف بين ٦٢ ـ ١٩٧٢م في المتوسط، إلا أنه حتى عهد قريب كانت السعودية عامة تمر بمرحلة ديموجرافية مختلفة الخصائص، تتميز بضعف معدلات الزيادة الطبيعية الناتجة عن ارتفاع معدلات الوفيات بأكثر منها عن انخفاض معدلات المواليد، حتى إن معدلات الوفيات كانت تقدر

بنحو ٢٣ في الألف قبل ١٩٦٢م، وهي نسبة عالية بالمقياس العلمي، بل حتى بالمقياس العربي المحلي، حيث لم تكن هذه النسبة تزيد عن ٢٠ في الألف إلا في اليمن بقسميه وموريتانيا والصومال، إلا أن الثابت أن السعودية قد تجاوزت هذه المرحلة بخصائصها (م ١٣ ص ١٧) .

ومع الافتقار شبه الكامل لأي معلومات عن معدلات المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية، فقد اعتمدت الدراسات الخاصة بهذه الزوايا الديموجرافية الهامة على سلسلة من النماذج التي أعدها المكتب الاقتصادي والاجتماعي لهيئة الأمم المتحدة (م ٧١ ، ٢٦)، وتبين منها اتجاه واضح نحو زيادة معدلات الزيادة الطبيعية نتيجة انخفاض معدلات الوفيات إلى نحو ١٥ في الألف خلال عقد السنين الأخير، وأيضا لارتفاع نسبة الخصوبة حيث قدر أن هناك ٢٣٠ ولادة حية/ ١٠٠٠ أنثى بين ١٥ ـ ٤٤ سنة، ويتوقع لهذه النسبة أن تزيد مع تضاعف عدد الإناث بنسبة ١٠٠٪ خلال عقد السنين بين ٦٧ ـ ١٩٧٧م، وقد أتيحت بعض البيانات الإضافية حول هذا الموضوع بواسطة الدراسة التي قامت بها منظمة الصحة العالمية World Health Organization [٩] بجهد مشترك مع السلطات السعودية، حيث أظهرت اتجاه معدل الوفيات الخام للانخفاض Crude - Death R. وكذلك وفيات الأطفال Infant Mortality R. ، واتجاه معدل المواليد للزيادة إلى نحو ٤٢ في الألف، خاصة مع زيادة الخصوبة بين الإناث الصغيرات بسبب التبكير في الزواج، كما ظهر من بعض الدراسات (بالعينة) أن نسبة الأطفال الذين هم دون الخامسة عشرة إلى نسبة الإناث في سن الخصوبة (١٥ ـ ٤٤ سنة) كبيرة إن لم تكن من أعلاها بين الدول العربية، كذلك تبين أن نسبة الأشخاص الذين هم فوق ٦٥ سنة إلى نسبة الأشخاص بين ١٥ ـ ٦٤ سنة منخفضة، وأن هناك نسبة كبيرة من الأرامل بين النساء اللواتي يزيد سنهن عن ٤٥ سنة، وهو ما يدل على ارتفاع معدل الوفاة بين كبار السن من ناحية ، واتجاه المجتمع السكاني نحو مرحلة شابة من ناحية ثانية، وبالنسبة للناحية الأولى تشير التقارير إلى اتجاه هذا المعدل للتناقص التدريجي، كما حدث بالنسبة لمعدل وفيات الأطفال، وهو ما يعني أيضا زيادة معدل الأعمار واتساع مدى الحياة (م ٢٧ ص ١٩٥) .

٢ ـ تركيب سكان المدينة حسب السن والنوع :

لقد أتيحت الأرقام الخاصة بتركيب سكان المدينة حسب السن والنوع بفضل مجموعة من

الدراسات الخاصة عنها في إطارخطة تنمية المنطقة الغربية (م ٢٦ ص٩٠)، وقد أجريت هذه الدراسة في عام ١٩٧١م، وهي أحدث الأرقام في هذا المجال، حيث لم تصدر بعد الجداول التفصيلية التي تخص هذه الناحية إحصاء ١٩٧٤م، وقد قدم إحصاء ٦٢ ـ ١٩٦٣م جدولا يتضمن تركيب سكان بعض مدن المملكة من حيث السن من بينها «المدينة المنورة»، وهكذا أصبح في الإمكان متابعة تغيرات هذا التركيب خلال هذه الفترة القصيرة فقط بين ٦٢ ـ ١٩٧١م .

ويلخص الجدول الآتي تركيب جملة سكان المدينة (٧١٩٩٨ نسمة) حسب النوع وفئات العمر تبعا لأرقام تعداد ٦٢/١٩٦٣م :

	فئات العمر					النوع	
	أقل من ١٠	١٠ ـ ٣٠	٣٠ ـ ٥٠	٥٠ +	جملة	ذكور	إناث
العدد نسمة	٢٥٥٧٣	٢٥٢٥٢	١٥١٧٤	٥٩٩٩	٧١٩٩٨	٣٧٤٤٠	٣٤٥٥٨
نسبة التوزيع ٪	٣٥٫٥٠	٣٥٫١٠	٢١٫١	٨٫٣٠	١٠٠	٥٢	٤٨

وتتشابه المدينة المنورة مع بقية المدن الرئيسية في المملكة ، والتي تناولها هذا التعداد (مكة ، جدة، الطائف) في توزيع سكانها حسب السن وإن كانت ـ ومعها هذه المدن أيضا ـ تختلف عن توزيع سكان المملكة ككل من هذه الزاوية في معظم الفئات، فبالنسبة للفئة أقل من ١٠ سنوات يلاحظ أن نسبة استيعابها على مستوى المملكة تصل إلى ٣٧٫٨٪، فهي تزيد عنها في «المدينة المنورة» (٣٥٫٥٠٪)، كما تزيد عنها في مجموعة المدن المذكورة التي تصل بها نسبة استيعاب هذه الفئة إلى ٣٥٫٧٠٪. أما في الفئة الوسطى الشابة (١٠ ـ ٣٠ سنة) فينعكس الوضع، حيث لا تزيد نسبة استيعاب هذه الفئة في المملكة ككل عن ٣٠٫٨، بينما هي تزيد عن ٣٥٪ في المدينة المنورة (٣٥٫١٠٪). وفي مجموعة المدن المذكورة أيضا (٣٥٫٧٠٪)، ثم تتشابه النسبة تماما ـ بعد ذلك ـ بين مجموعة المدن والمتوسط العام للمملكة بالنسبة للفئة

(٣٠ ـ ٥٠ سنة) حيث تبلغ ٢١ر٤٠٪، وإن كانت تنقص عنها قليلا في المدينة المنورة، حيث تبلغ ٢١ر١٠٪ ثم يظهر التباين مرة أخرى في فئة السنة العليا (٥٠ +)، حيث تصل نسبة استيعابها على مستوى المملكة إلى ١٠٪، بينما هي لا تتجاوز في المدينة المنورة ٨ر٣٠٪، وفي مجموعة المدن المذكورة ٧ر٣٠٪ من جملة سكانها .

وتعبر الأرقام المذكورة ـ غالبا ـ عن بداية تمايز تكوين السكان في مدن المملكة من ناحية السن عن ريفها وباديتها، ذلك التمايز الذي يتبدى في زيادة نسبة استيعاب فئات السن الشابة عامة في هذه المدن، بالمقارنة معها في المملكة ككل، وهي الفئات التي تمثل «قوة العمل» الحقيقية، انعكاسا لتدفق تيارات نزوح متفاوتة الامتلاء من الريف والبادية إلى هذه المدن، حيث إن هذه التيارات تتكون عادة من هذه الفئات، كما يتبدى التمايـز في تناقص نسبة استيعاب فئات السن الدنيا والعليا في هذه المدن بالقياس إليها في المتوسط العام للمملكة، لنفس السبب تقريبا السابق تحديده والمتصل بتكوين تيارات النزوح، وقد انعكس ذلك أيضا على نسبة النوع التي تظهر في صالح الذكور باعتبارهم يمثلون النسبة الغـالبة من هذه التيارات ، ورغم أن نسبة النوع لا تعد حتى الآن مختلـة فهي ما تزال في دائرة المراوحة العادية، إلا أنها تشير إلى احتمال هذه الدائرة التي لا يجب أن تزيد درجة مراوحتها الطبيعية عن ٥٪ .

وتظهر «المدينة المنورة» وكأنها ما تزال أقرب نسبيا إلى المتوسط العام للمملكة من هذه الزاوية بالمقارنة مع المدن الأخرى (خاصة جدة)، مما يدل على أن جاذبيتها لتيارات النزوح ما تزال أقل نسبيا من بقية المدن الرئيسية المذكورة، ربما لضيق فرص العمل والاستثمار بها، أو لتأخر وصول تيارات النزوح إليها بضع سنوات .

تغيرات تركيب سكان المدينة بين ١٩٦٢ ـ ١٩٧١م :

تقدم الدراسة التي تمت في ١٩٧١م (م ٢٧ ص ٩٦) فئات أكثر تفصيلا من حيث السن عما قدم في ١٩٦٣/٦٢م، كما أنها تتسق من حيث سعة الفئة مع التقسيم المتبع دوليا (فئات خمسية وعشرية)، وقد قدرت جملة سكان المدينة في هذه الدراسة بنحو ١٣٧ ألف نسمة، أي إنها قد نمت بنسبة عامة قدرها (١٧٤٪)، وهو ما يعني أنها قد حققت نسبة نمو سنوي حوالي ١٩ر٣٪ في المتوسط، وهي نسبة نمو ترجع لعاملي الهجرة والزيادة الطبيعية، وقد صحب هذه

الزيادة بأسبابها مجموعة من التغيرات المتصلة بتركيب سكان المدينة حسب السن ، ويوضح الجدول الآتي هذه التغيرات :

فئة العمر / المدينة	جدة	مكة	المدينة	الطائف	تبوك	ينبع
٠ ـ ٤	١٧٫٦٧	١٥٫٥٥	١٧٫٣٣	١٧٫٧٥	١٩٫٩٦	١٧٫٠٨
٥ ـ ١٤	٢٨٫٥٢	٣٠٫٥٩	٣١٫٨٨	٣١٫١٢	٢٥٫١٤	٢٩٫٧٩
جملة	٤٦٫١٩	٤٦٫١٤	٤٩٫٢١	٤٨٫٨٧	٤٥٫١٠	٤٦٫٨٧
١٥ ـ ٢٤	١٥٫٢٧	١٦٫١٧	١٥٫٠٩	١٥٫٨٠	١٧٫٠٦	١٥٫٦٦
٢٥ ـ ٤٤	٢٧٫٣٧	٢٣٫٦١	٢١٫٨٣	٢٥٫٣١	٢٩٫٤٥	٢٥٫٢٤
٤٥ ـ ٦٤	٨٫٨٣	١١٫١٣	٩٫٩٧	٧٫٨٢	٦٫٩٥	٩٫٥٢
٦٥ +	٢٫٣٥	٢٫٩٤	٣٫٨٩	٢٫١٩	١٫٤٥	٢٫٧١

وبدراسة الجدول وشكل (١٢)، يمكن تبين ما يلي :

١ ـ تتشابه مدن المنطقة الغربية بدرجة واضحة من حيث الشكل العام لأهراماتها السكانية، حيث يلاحظ أن فئات السن الدنيا (٠ ـ ١٤ سنة) تستوعب نسبة تتراوح بين ٤٠ ـ ٥٠٪ من جملة سكان كل مدينة منها، وهي نسبة استيعاب عالية تعكس مرحلة تتميز بالخصوبة العالية، وهي ما يعبر عنها بشباب المرحلة الديموجرافية، وهي تحقق بذلك ـ في نفس الوقت ـ التوقعات السابق الإشارة إليها عن احتمال تضاعف عدد ونسبة هذه الفئة إلى جملة سكان بعض المدن المذكورة، تبعا لانخفاض معدلات مواليد الأطفال وارتفاع الخصوبة العامة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يلاحظ أن فئات السن الوسطى (١٥ ـ ٤٤ سنة) تستوعب نسبة تتراوح بين ٣٦ ـ ٤٦٪ في هذه المدن، وهي أيضا نسبة استيعاب عالية تعبر عن سيادة طابع الشباب (الناتج عن الهجرة غالبا) بين هذه المدن ، وهي بدورها تشير مع ارتفاع نسبة

الزواجية العامة والتبكير في الزواج إلى احتمالات عالية بالنسبة لتجدد الأجيال وإذا أضيف إلى فئة السن هذه الفئة بين ١٤ ـ ٦٤ سنة (وهي ما تمثل نظريا قوة العمل المفترضة في مجتمع من المجتمعات بشكل عام) تصل إلى ما يتراوح بين ٤٥ ـ ٥٢٪ من جملة المجتمع السكاني لأي من هذه المدن، وهي ـ أيضا ـ نسبة عالية في مجال حساب قوة العمل (م ٥٣ ص ٢٠١)، غير أنها تنخفض في الحقيقة إلى أقل من النصف، باعتبار أن هذه النسبة تشمل الإناث والذكور معا، والثابت أن نسبة مساهمة الإناث في قوة العمل الخاصة بهذه المدن ضعيفة للغاية، كما أن الإقبال على التعليم وارتفاع مستواه يؤخر دخول نسبة هامة من افراد هذه المجتمعات المدنية إلى قوة العمل الفعلية خاصة الذكور منهم، أما بالنسبة لفئة العمر ٦٥ + فهي تعكس بضيقها وقلة نسبتها ارتفاع معدل الوفيات بين الشيوخ نسبيا في جميع هذه المدن .

٢ ـ لا تختلف صورة الهرم السكاني في المدينة المنورة عنها في بقية مدن المنطقة الغربية، وربما أيضا في بقية مدن المملكة، حيث يلاحظ اتساع قاعدة الهرم لفئات السن أقل من ١٥ سنة التي تستوعب بمفردها نسبة قدرها ٤٩٫٢١٪ ، أي نحو نصف مجتمع المدينة السكاني (١٣٧ ألف نسمة). ورغم صعوبة المقارنة بما كانت عليه الصورة في إحصاء ١٩٦٣/٦٢م لاختلاف سعة الفئة العمرية، إلا أنه يلاحظ أن فئة السن أقل من ١٠ سنوات في هذا الإحصاء كانت تستوعب نسبة قدرها ٣٥٫١٠٪ من جملة سكان المدينة آنذاك، والمرجح أن هذه الفئة قد شهدت نموا بدرجة ما ليست عالية نتيجة العوامل الديموجرافية السابق تحديدها .

٣ ـ تستوعب فئات السن بين ١٥ ـ ٤٤ سنة نحو ٣٦٫٩٢٪ من جملة سكان المدينة المنورة، فهي أقل مدن المنطقة الغربية تمثيلا لها، حيث تصل هذه النسبة في «تبوك» إلى أعلاها (٤٦٫٥١٪) من جملة سكانها، وقد يعني ذلك ـ ضمن ما يعنيه ـ أن المدينة المنورة تتلقى تيارات هجرة أقل امتلاء من غيرها من مدن المنطقة، حيث إن هذه التيارات تشتمل على عناصر من هذه الفئة العمرية بصفة أساسية، غير أن الثابت أن المدينة المنورة قد نمت بمعدلات عالية بين ٦٥ ـ ١٩٧٥م، مما يدل على تدفق تيارات هجرة أشد امتلاء مما شهدته الفترة السابقة لعام ١٩٦٥م، أو بمعنى أصح أن هذه التيارات بدأت ضعيفة نسبيا، ثم تزايدت معدلاتها بعد ذلك تدريجيا، ومرة ثانية يصعب مقارنة أرقام ١٩٦٧م بإحصاء ١٩٦٣/٦٢م، لاختلاف سعة الفئة كما سبقت الإشارة .

٤ ـ أما بالنسبة لفئات السن التي تشكل نظريا قوة العمل (١٥ ـ ٦٤ سنة) فتصل نسبة استيعابها في المدينة المنورة إلى ٤٦٫٨٩٪، فهي ـ مرة ثانية ـ أقل نسبة استيعاب بين مدن المنطقة الغربية، ولهذه الحقيقة آثارها بالنسبة لتكوين وفاعلية قوة العمل، ونسبتها إلى جملة السكان في المدينة المنورة كما سيأتي بيانه .

٥ ـ تصل نسبة استيعاب فئة السنة العليا ٦٥ + إلى أكبرها في المدينة المنورة بالقياس إلى مدن «المنطقة الغربية»، والمرجح أن ذلك لا يرجع إلى خصائص ديموجرافية معينة في تكوين مجتمعها السكاني، بل الغالب أن ارتفاع هذه النسبة بها إنما يرجع إلى الضعف النسبي في تأثير تيارات الهجرة بالنسبة لهرمها السكاني، وأنها ظلت محتفظة بالخصائص السائدة لتركيب المجتمعات السكانية في المملكة قبل البترول وما تبعه من ظاهرة الهجرة والنزوح السكاني فترة أطول من غيرها من مدن المنطقة الغربية .

٣ ـ تكوين العائلة (الأسرة) في المدينة المنورة :

تعد دراسة الأسرة من الزوايا السكانية الهامة، خاصة بالنسبة لمجتمع المدينة الحديثة (م ٣٨ ص ١٩٧)، وذلك لدلالاتها الاجتماعية والديموجرافية العديدة، وقد تبين من دراسة توزيع أنواع العائلات في المدينة المنورة (٢٧ ألف عائلة) أن الشكل السائد بها هو الأسرة النمطية المكونة من زوج وزوجة مع أطفال، حيث يستوعب هذا النمط نحو ٥٢٫٣٩٪ من جملة عائلات المدينة (م ٢٧ ص ٢٥)، وبمقارنة هذا الرقم بنسبة توزيع العائلات الممتدة Extended Families التقليدية في مجتمع المدينة المنورة (١٥٫٣١٪) يتبين الاتجاه الحديث نحو تناقص حجم العائلة، واتجاه أفرادها للاستقلال بأسرهم بعد الزواج غالبا، ويتركز نمط الأسرة الصغيرة في أحياء المدينة الحديثة وعماراتها العالية الجديدة المكونة من شقق صغيرة. لتلبية متطلبات هذا الاتجاه، بينما يتركز نمط العائلات الممتدة في الأحياء القديمة، حيث تستقل كل عائلة بدارها الواسعة في حياة مشتركة غالبا، حيث يسكنها أكثر من أسرة (زوج وزوجه وأبناء) دون تمايز، تربطهم جميعا روابط القرابة الوثيقة الدموية Blood-Kinship في سلسلة متواصلة من الآباء والأبناء والحفدة، ولذلك فإن نسبة التوزيع هذه بين الأسر الصغيرة والعائلات الممتدة لا تعبر عن العدد الفعلي لكل منها في مجتمع المدينة، فرغم أن نسبة

العائلات الممتدة أقل - كما سبقت الإشارة - من نسبة توزيع الأسر الصغيرة إلا أن الفارق العددي بينهما أقل مما تعكسه نسبة توزيع كل منهما في مجتمع المدينة .

وإلى جانب هذين النمطين الرئيسيين اللذين يستوعبان وحدهما نحو ٦٧٫٧٠٪ من جملة عائلات المدينة ، فإن هناك أنماطا أخرى من العائلات لها دلالتها من حيث تكوينها، فهناك نمط العائلة التي يعيش كبيرها بمفرده أو مع أشخاص من أقاربه ، وتمثل نحو (١٤٫٧٥٪) من جملة عائلات المدينة، وهو نمط ظهر منذ أقل من عقدين من السنين، وزادت نسبته - غالبا - مع ما طرأ على تكوين العائلات في المدينة من تغيرات نتيجة النزوح منها وإليها، حيث إن هناك تيارات نزوح من بعض سكان المدينة إلى خارجها بحثا عن فرص عمل واستثمار أعلى في مستواها مما توفره المدينة، وهو ما يفسر وجود بعض العائلات دون أبنائهم الذين نزحوا - مؤقتا أو دائما - إلى بعض مدن المملكة الأخرى، وفي نفس الوقت فإن تيارات النزوح إلى المدينة من سكان ريفها وباديتها قد أدت إلى إقامتهم مع من سبقهم أو مع بعض أرباب العائلات الذين أصبحوا يعيشون بمفردهم، وبالإضافة إلى هذا الاختلاط الناتج عن النزوح فإن هناك نمطا آخر لنفس السبب، وهو نمط العائلة المكونة من أشخاص تربطهم القرابة أو الزمالة أو علاقات العمل، حيث قد أدى ضيق فرص السكن في المدينة إلى إقامتهم معا، ويمثلون نسبة قدرها ٩٫٣١٪ من جملة عائلات المدينة، ويعبر هذا النمط عن عامل الهجرة والنزوح بمنتهى الوضوح، فهؤلاء هم النازحون دون شبهة، يتجمعون عند هوامش المدينة، وفي بعض عماراتها ودورها القديمة.

أما النسبة الباقية من عائلات المدينة (٨٫٣٤٪) فيمثلها نمط الزوج والزوجة دون أطفال، وهي تنقسم ما بين أسر لم يقدر لها أن تنجب رغم مضي فترة طويلة على الزواج ، وأسر حديثة التكوين لم تمر بعد الفترة الكافية للإنجاب، وأسر قد نزح أبناؤها إلى خارج المدينة المنورة، ويمكن إضافة الأخيرة إلى النمط الثاني من عائلات المدينة السابق الإشارة إليه، مع اختلاف واضح، حيث إن هذه الأخيرة تشمل الزوج وليس رب العائلة دون زوجته .

وكما هو متوقع فإن الذكور المتزوجين يمثلون أعلى نسبة بين أرباب العائلات في المدينة، وينقسم هؤلاء ما بين ذكور متزوجين في منازلهم الخاصة، وذكور متزوجين يعيشون في منازل مشتركة، وليس هنا بين المتزوجين من سكان المدينة في فئة عمر ١٥ - ٢٤ سنة إلا ما يقرب من

٥٠٪ يعيشون مستقلين ويرأسون عائلاتهم، وتزداد هذه النسبة مع ازدياد سن الزوجين، ثم تبدأ مرة أخرى في الانخفاض تدريجيا في فئات السن العليا (٦٥ + سنة) .

ومن ناحية ثانية فإن نسبة أرباب العائلات من النساء ضئيلة جدا في المدينة المنورة، إذ نادرا ما تسمى السيدة المتزوجة ربة عائلة، إلا إذا كان زوجها غائبا. كما أن غير المتزوجات نادرا ما يصبحن أرباب عائلات، وبصفة عامة لا يوجد أرباب عائلات من الإناث إلا من الأرامل والمطلقات، ويلاحظ أن عدد الأرامل من النساء أكثر من الرجال، لزيادة متوسط عمر المرأة عن الرجل من ناحية، ولفارق السن عند الزواج من ناحية ثانية، ويقدر أن نحو ٤٩٪ من النساء فوق ٤٥ سنة هن من الأرامل، بينما لا تزيد هذه النسبة بين الرجال من نفس فئة العمر عن ٨٪ لاتساع فرص الزواج أمامهم في هذه السن بالقياس إليها بين النساء .

وبدراسة مكان إقامة أرباب العائلات في المدينة المنورة قبل خمس سنوات من الدراسة (١٩٦٥/٦٤)، تبين أن ٨٣٫٩٪ منهم كانوا يقيمون في نفس المكان، أي في المدينة المنورة ، وأن نسبة منهم تقدر بنحو ٦٫٩٧٪ قد وفدت إليها من الريف، منهم ٢٫١٩٪ من ريف المدينة ذاتها، ونحو ٤٪ من ريف المملكة عامة، بالإضافة إلى ٠٫٧٨٪ من ريف «عسير وجيزان» خاصة ، كما أن نسبة من جملة عائلاتها تقدر بنحو ٢٫٠٣٪ قد قدموا إليها من أماكن أخرى في المملكة وأقاموا بها، أما بقية العائلات فتمثل تيارات الهجرة من خارج المملكة والتي اتجهت إلى المدينة المنورة، من بينها نسبة تقدر ٥٫٢٥٪ من الدول العربية المجاورة، ونحو ٢٫٨ من الدول الإسلامية .

وتتميز العائلات المهاجرة أو النازحة بأنها أقل عددا (٤٫٣٦ شخصا في المتوسط) من العائلات السعودية الأصل (٥٫٦٧ أشخاص في المتوسط)، كما تزيد بينهم نسبة العاملين إلى غير العاملين ، حيث إنهم يدخلون مباشرة في قوة العمل العامة بالمدينة طالما أتيحت لهم الفرصة، خاصة وأنهم إما أن يشغلوا وظائف استقدموا أساسا لشغلها، مثل وظائف الكفايات الخاصة، حيث يشغل غير السعوديين في المدينة المنورة نحو ٦٤٪ من جملة الوظائف الفنية عالية المستوى، وإما أن يتجهوا لشغل الوظائف التي تبتعد عنها العناصر السعودية، حيث يقدر أنهم يشغلون نحو ٧٥٪ من جملة العاملين في المهن اليدوية والإنشاء والتشييد والبناء في مختلف أنواع الخدمات، وتقل نسبتهم في الأعمال والوظائف الكتابية التي تقبل عليها العناصر

السعودية، حيث لا تزيد نسبتهم بها عن ٣٦٪ فقط، وتوضح هذه الأرقام عامة أهمية المهاجرين الأجانب بالنسبة لبعض الجوانب الهامة من اقتصاديات المدينة (للاستزادة انظر م ٣٧) .

د ـ توقعات النمو السكاني للمدينة وأحيائها:

أما بالنسبة لتوقعات النمو السكاني للمدينة المنورة وغيرها من مدن المنطقة الغربية حتى عام ١٩٩١م، أي بعد نحو عقدين من السنين، فقد قدرت بناء على معدلات النمو الحالية وعوامل أخرى متشابكة، أهمها إمكانيات النمو الاقتصادي بالنسبة لهذه المدن .

وفيا يلي جدول يلخص هذه التوقعات (بالألف نسمة) سنة ١٩٩١م بالقياس إلى حجمها ١٩٧١ م (شكل ٧) .

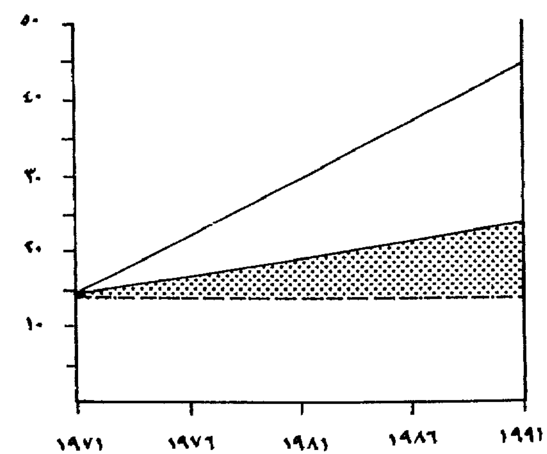
	مكة	جدة	المدينة	الطائف	ينبع	تبوك
١٩٧١..........	٢٥٠	٣٠٠	١٣٧	١٠٦	١٩	٤١
تقديرات دنيا ...	٥٥٠	٨٠٠	٢٥٠	١٧٥	٥٥	١٠٠
تقديرات عليا ...	٩٥٠	١٫٦٥٠	٤٥٠	٢٥٠	١٠٠	١٥٠

ويتضح من الأرقام أن هذه المجموعة من المدن ستنمو بمعدلات عالية، سواء بالنسبة للتقديرات الدنيا (بين ١٥٠ ـ ٢٠٠٪) أو التقديرات العليا (بين ٣٠٠ ـ ٤٠٠٪)، وبالنسبة للمدينة المنورة حسب هذه التقديرات يتوقع لها أن تصل إلى دائرة الربع مليون في ١٩٩١م كحد أدنى، أي إنها سوف تحقق معدل نمو سنوي قدره ٢٫٨٪، وكحد أعلى فإن نسبة النمو السنوي سوف تبلغ نحو ٢٣٪، وهي توقعات ومعدلات نمو عالية، تشير إلى ضرورة مواجهتها من زوايا مختلفة، تتصل بإنعاش النمو الاقتصادي للمدينة ومنطقتها، وتطوير قوة العمل بها، ووضع سياسة إسكان مناسبة، والبحث في شبكات النقل داخل المدينة وبينها وبين المدن الأخرى وبقية مناطق المملكة، إلى غير ذلك من الزوايا، وإلا فإن هذه التوقعات ـ حالة تحققها ـ سوف تشكل ضغطا من العسير مواجهته دون تخطيط، وعبئا سكانيا متراكما يجدر

شكل (٧)

توقعات تراكم السكان في المدينة المنورة

بين ١٩٧١ - ١٩٩١م



أعلى التقديرات

أدنى التقديرات

---- السكان في ١٩٧١م

تطويره نوعيا لصالح المدينة ومنطقتها ، خاصة وأن هذا النمو سوف يتم في نسبة هامة منه على حساب بادية المدينة (الرعي) وريفها (الزراعة)، وهما يمثلان الأساس الاقتصادي التقليدي لمنطقة المدينة كما سبقت الاشارة .

توقعات النمو حسب أحياء المدنة :

تتفاوت معدلات النمو المتوقعة (الدنيا والعليا) بين أحياء المدينة الحالية والمستحدثة، وذلك حسب إمكانيات كل منها الحالية والممكنة، وتبعا لأهداف تخطيط المدينة المعاصرة الرامية إلى إعادة توزيع السكان بين أحيائها وإقامة نوع من التوازن الوظيفي بينها، وتحقيق التوازن المنشود في توزيع الخدمات والمناطق العامة المفتوحة، ومراعاة ضرورات شبكة الشوارع الداخلية تبعا لمعدلات النمو الحالية في استخدام المركبات والوسائل الآلية . ويلخص جدول (٤) هذه التوقعات بين ١٩٧١ ـ ١٩٩١م موزعة بين أحيائها الحالية والمستحدثة .

وبدراسة الجدول المذكور وشكلي (١٠ ، ١١) يمكن تحديد ما يلي :

(+) ـ كما هو متوقع بالنسبة لنمو المدينة فى المستقبل، واحتياجات ذلك من مختلف لخدمات والتسهيلات الواجب تركزها في المنطقة الوسطى، فإن الكثافة السكانية العالية الحالية بها سوف تتجه للتناقص التدريجي، خاصة وأن نسبة هامة من سكانها سوف تضطر لإخلاء مساكنها القديمة الواسعة، والتى تقرر هدمها ضمن خطة خلخلة المنطقة الوسطى وتوسعة شوارعها، وبالأخص لأن التسهيلات المتوقعة بالنسبة للمواصلات سوف تحل مشكلة سكنى الهوامش، حيث ستصبح الحركة أكثر مرونة بين الهوامش والمنطقة الوسطى، وبين مناطق السكن ومراكز الأعمال العامة .

(+) ـ بالنسبة لبعض المناطق السكنية القريبة من المنطقة الوسطى مثل «قبا» فقد لوحظت كثافتها العالية التي ترجع لمعدلات نموها السكني السريعة في الوقت الحاضر ، فعلى طول طريق «قبا» المرصوف ارتفعت العمارات الإسمنتية العالية، مشكلة أفقا جديدا للمدينة، ومخفية وراءها مباشرة المساكن الوطيئة التقليدية، وإذا كانت الكثافة على طول الطريق هي نحو ٣٠٠ نسمة/ هكتار ، فإنها تنخفض بحدة إلى أقل من ٥٠ نسمة/هكتار خلف عماراته ، وتشير الأرقام في الجدول السابق إلى احتمال انخفاض جملة سكان «قبا والحرة الغربية» بنسبة

١٥,٢٩٪ بالنسبة لأدنى وأعلى التقديرات في ١٩٩١م، ولا ينطبق ذلك تماما إلا بالنسبةللحرة الغربية، التي سيتخفف بعض سكانها الحاليين من تزاحم منطقتهم وارتفاع كثافتها بسبب ضيق مساحة الأراضي الصالحة للبناء بها، ويتجهون إلى الهوامش والأحياء المستحدثة خاصة بعد حل مشكلة المواصلات الداخلية في المدينة .

(+) ـ بعد ذلك سيزيد الحجم السكاني ، ويرتفع كثافة بقية أحياء المدينة ولكن بنسب متفاوتة بالنسبة لأدنى وأعلى التوقعات معا، ويحتمل أن تحقق «سلطانة» أعلى معدلات النمو بين أحياء المدينة، فهي منطقة شديدة الجاذبية، قريبة من وادي العقيق بتنوعه الخلاب ، فضلا عن موقعها التسامي بالنسبة لكتلة المدينة القديمة، ولأن عدد سكان «سلطانة» الآن قليل للغاية فإن نسبة نموها تظهر مرتفعة للغاية ، وتأتي بعدها منطقة «سيد الشهداء» التي يحتمل أن يزيد حجمها بمقدار ٣ مرات تقريبا ، وذلك مع تنفيذ خطتها الرامية إلى إنشاء مجموعة من الأسواق المركزية بها، وتكثيف خدماتها، بحيث تصبح بمثابة ضاحية متكاملة مرتبطة مع المدينة القريبة بمواصلات جيدة، ثم تأتي بعدها «الحرة الشرقية» التي سيزيد حجمها بأكثر من مرتين مع رفع مسقط مبانيها الرأسي، واستغلال المساحات الصالحة للبناء بها .

والواقع أن ارتفاع جماة السكان بهذه الأحياء الثلاثة الأخيرة هو الذي يؤدي إلى احتمال زيادة حجم المدينة السكاني الكلي إلى نحو ربع مليون نسمة، سواء عن طريق انتقال نسبة من سكان «المنطقة الوسطى والحرة الغربية» إليها من ناحية، أو مع تيارات النزوح الداخلي والهجرة الخارجية الموجبة إلى المدينة المنورة من ناحية ثانية، غير أن الناحية الأولى ـ بالطبع ـ لن تؤدي إلا إلى إعادة توزيع سكان المدينة بين أحيائها، أما الناحية الثانية فهي التي ستؤدي إلى زيادة الحجم السكاني لها بالفعل .

(+) ـ الواقع أن أرقام الحد الأدنى لتوقعات النمو السكاني للمدينة إنما تتم داخل إطار أحيائها الحالية الخمسة، وبناء عليه فستختلف نسبة التوزيع السكاني بين هذه الأحياء عما هي عليه الآن، حيث ستصبح «الحرة الشرقية» أكبر مناطق المدينة سكانا، يليها «سيد الشهداء»، ثم «الحرة الغربية وقبا» ، ثم « سلطانة» ، وأخيرا «المنطقة الوسطى» . ويعبر ذلك عن تغيير أساسي في الصورة الحالية لتوزيع سكان المدينة بين أحيائها ، كما يعكس الاتجاه مزيدا من التخصص الوظيفي بينها .

أما أعلى التوقعات لحجم المدينة السكاني في عام ١٩٩١م وهو نحو ٤٥٠ ألف نسمة، فسيتم أساسا باستحداث ٣ أحياء جديدة شبه خالية من السكن والسكان حاليا، وهي «شمال أحد ، الجامعة ، أبيار على» (شكل١١) وهذه الثلاثة سوف تستوعب نحو ٢٠٠ ألف نسمة، أي نحو ٤٤٫٤٤٪ من جملة سكان المدينة حسب ذلك التوقع، وقد حسبت هذه الأرقام بناء على احتمال امتلاء تيارات النزوح والهجرة الخارجية الموجبة بأعلى نسبها إلى المدينة المنورة، تبعا لاستثمار طاقتها الاقتصادية إلى حدها الأقصى ، ولا شك أن صورة توزيع السكان بين أحياء المدينة ستنقلب - مرة أخرى - رأسا على عقب، حيث سيصبح «شمال أحد» أكبر أحيائها سكانا، باعتباره أصلح مناطق المدينة المستحدثة صلاحية للسكنى، ثم يأتى بعده حيا «الحرة الشرقية» و«الجامعة»، ثم «سيد الشهداء» و«الحرة الغربية» و«قبا»، «أبيار على» بنسب متفاوتة، ثم سلطانة فالمنطقة الوسطى. ولن يقتصر التفاوت بينها على نسبة التوزيع السكاني بين أحياء المدينة، بل سيمتد ليشمل أيضا وظائفها وتوزيع خدماتها ونمط مبانيها، كما سيأتي بيانه بشئ من التفصيل بالنسبة للأخيرة، نمط المباني بوجه خاص .

هـ - تيارات النزوح للمدينة المنورة ونتائجها :

أسفر البترول عن ظاهرة من أهم نتائجه العديدة، تلك هي استجابة البادية الفورية لتداعياته الاقتصادية، واستسلامها لها إن صح التعبير، وليس من شك أن حركة نزوح سكان البادية والريف إلى المراكز الحضرية تمثل حركة سكانية بارزة لها أبعادها وخصائصها، وهي تختلف تماما عن التحركات الرعوية القديمة (م ٣٦ ص ٧٩)، فالهجرة الآن لها نقطة انطلاق ونقطة انتهاء محددة أشبه بالخط المستقيم، أما البداوة القديمة فهي شبه دائرية من حيث عدم وجود نهاية محددة للحركة، فمكان الاستقرار هو في نفس الوقت نقطة حركة لمكان آخر، غير أنه ربما كان الأهم من شكل الحركة مضمونها ، فالبداوة تمثل كيانا اجتماعيا متكاملا له نظمه وخصائصه، ولم تكن تحركاتها السابقة تحمل أي تغيرات لمقومات هذا الكيان المادية وغير المادية معا، أما الهجرة الحالية للبدو فهي تعني التخلص بدرجة أو نهائيا من إطار البداوة، والدخول في كيان اجتماعي جديد له قوانينه وظروفه وقيمه وعلاقاته فصلا عن اقتصاده، وتحمل الهجرة الحالية معنى النزوح الفردي، ومن هنا فالتغير حتمي، سواء بالنسبة للمجتمع البدوي حيث يتناقص عدد أفراده مع ما يتداعى عن ذلك من نتائج، أو بالنسبة للمجتمع الحضري،

بما يضاف إلى كيانه من نوعيات مختلفة، وما يمثله من بوتقة لتفاعل المهاجرين، وبالنسبة للفرد ذاته وما يتعرض له خلال فترة التكيف (م ٤٩ ص ٥٠). والوقع أن البداوة بمعناها الاجتماعي قد لا تعني عدم الاستقرار بالضرورة، فالاستقرار لدى البدوي يتحقق من خلال الكيان الاجتماعي، فهو مستقر في كيان متحرك، وبمعنى آخر هناك في البداوة استقرار اجتماعي مصحوب بعدم استقرار جغرافي، فالاستقرار لدى البدوي لا يعنى استقرارا في المكان (جغرافيا)، بل هو استقرار في القبيلة أو العشيرة (اجتماعيا)، ومن هنا فإن ما يحدث في هجرة البدو الآن إلى مراكز الاستقرار الحضرية هو أن يتحول البدوي عن معنى الاستقرار القديم الراسخ في نفسه، ويستبدله بنوع آخر يتضمن استقراره في المكان والمجتمع الجديد معا، وأن يقيم علاقاته مع أفراد جدد ربما يمرون بمثل تجربته، أو مروا بها فعلا، أو لم يتعرضوا لمثل تجربته أصلا. وفترة الانتقال هذه أصعب الفترات، لأن البدوي عندما يهاجر يكون ـ غالبا ـ قد ألقى جميع أسلحته، تخلى عن قبيلته (الأمان الاجتماعي)، وفقد حيوانه (الأمان الاقتصادي)، وانضم أعزلا لمجتمع جديد، غير أنه لم يتخل بعد عن عقله ونفسه. (م ١٤ ص ٣٦) .

وتصل نسبة البداوة إلى أدناها بين سكان المراكز الحضرية الرئيسية في المملكة حيث يشكل البدو بضعة عشرات أو مئات من سكانها، يترحلون حول سكنها (جدول ٥)، وقد يسكنون بعض العشش الطينية عند هوامشها تمهيدا لاستقرارهم بها ودخولهم في نسيجها، وتصل نسبتهم إلى أعلاها في مدينة «بريدة» (٨٢ر٠٪) من جملة سكانها، وإلى أدناها في مدينتي «جدة ، وخميس مشيط» (٢ر٠٪) لكل مدينة، وهي تتراوح بين هاتين النسبتين الضئيلتين في بقية مدن المملكة ، وهي تبلغ ١٢ر٪ من جملة سكان المدينة المنورة، غير أن هذه الأرقام لا يجب أن تحجب الحقائق المتصلة بامتداد تأثير العلاقات البدوية إلى أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخل هذه المدن (م ٥٤ ص ١٥٣)، سواء من حيث توزع سكانها بين الأنشطة الاقتصادية المختلفة أو من حيث سلسلة العلاقات الاجتماعية العامة، كما لا يجب أن تخفى استمرار ظاهرة النزوح إلى هذه المدن ونتائج ذلك بالنسبة لمرافقها وإمكانياتها السكنية وخدماتها، وما يؤدي إليه ذلك من زيادة معدلات المقيمين الجدد (أقل من ٥ سنوات) بالنسبة إلى جيل النازحين الأقدم (أكثر من ٥ سنوات)، أو بالنسبة للسكان الأصليين ، فهذه الحقائق وغيرها هي التي تؤدي مباشرة إلى صميم مشكلة البداوة في المراكز الحضرية وهي

وغيرها التي يمكن أن نوضحها، وليست مجرد الدلالة الرقمية لعدد المترحلين بين سكان المدينة المستقرين .

ولم تكن «المدينة المنورة» ومنطقتها بعيدة عن كل هذه العوامل المؤثرات والظواهر، لقد شهدت حركة نزوح واضحة إليها منذ نهاية الخمسينيات بدرجة أدت إلى تغيرات أساسية في تكوين سكانها، تشترك في ذلك معظم مدن «المنطقة الغربية» بدرجات متفاوتة تبعا لأهمية كل منها وجاذبيتها. ويلخص الجدول الآتي تكوين أهم المدن «بالمنطقة الغربية» من حيث محال ميلاد سكانها. (النسبة المئوية لجملة السكان). (م ٢٧ ص ١٩٥) .

البيـان	جدة	مكة	المدينة	الطائف	تبوك	ينبع
مولودون بهـا	١١٫٧٨	٤١٫٤٤	٣٥٫٧٨	١٦٫٥٠	٧٫٦٥	٧٢٫٦٧
مولودون خارج القطاع الحضري	١١٫٢٥	٣٫٢٣	١٠٫٢٣	١٥٫٠٧	٧٫٩٧	٦٫٠٠
مولودون بالقطاع الريفي	٨٫٤٢	٨٫٥١	١٥٫٤٢	١٤٫٣٨	٢٣٫٢٩	٦٫٦٦
مولودون بمناطق المملكة	١٢٫٢٩	٤٫٦٦	٢٫٦٦	١٤٫١٦	٢٤٫١١	٢٫٠٠
مولودون خارج المملكة	٣٫٣٦	٢٫٣٥	٤٫١٥	٥٫٤٦	١١٫٢٣	١٫٣٤
عناصر أخـرى	٥٢٫٩٠	٣٩٫٨٠	٣١٫٧٦	٣٤٫٤٣	٢٥٫٧٥	١١٫٣٣

وبدراسة الجدول السابق يمكن تحديد ما يلي .

١ ـ يقصد بالعناصر الأخرى الأجانب غير السعوديين ، أما بقية العناصر فهـم من السعوديين على اختلاف محال ميلادهم، وتوضح هذه الأرقام أنه باستثناء «ينبع» فإن نسبة تتراوح بين ٢٥ ـ ٥٠٪ من سكان مدينة «جدة» هم من العناصر الأجنبية، ولا يفوقها من هذه الناحية سوى مدينة «الدمام»، ومعظمهم من العاملين في قطاع الخدمات الاجتماعية والمهنية فضلا عن الفنيين والخبراء في كافة القطاعات، وتمثل هذه العناصر أيضا نسبة هامة من سكان

مدينتي «مكة»، «والمدينة»، والغالب أن نسبة هامة منهم من المتخلفين عن مواسم الحج، ويمثلون عناصر تنتمي لمعظم الدول الإسلامية آسيوية وإفريقية، ويعملون ـ غالبا ـ كأيدي عاملة في قطاع التجارة والخدمات الشخصية .

ومن الأمور ذات الدلالة في هذا المجال ما يتصل بتغير تركيب سكان المدينة من حيث الجنسية نتيجة استمرار تدفق تيارات هجرة العناصر غير السعودية إليها، فحسب أرقام ١٩٧١م فإن نسبة العناصر السعودية «بالمدينة المنورة» تبلغ ٦٨,٢٤٪ من جملة سكانها (١٣٧ ألفا)، وهي تفوق بذلك «مكة» في نسبة العناصر السعودية بين سكانها، وحسب أدنى التقديرات السكانية في ١٩٩١م (٢٥٠ ألف نسمة) فالمتوقع أن تزيد نسبة العناصر غير السعودية إلى نحو ٤٥٪، وتقترب بذلك ـ من هذه الناحية ـ من المدن الرئيسية الأخرى بالمملكة خاصة «جدة ، الدمام ، الرياض» ولا شك أن لمثل هذا التغير ضروراته واحتياجاته أيضا، ضروراته التي تتصل برفع كفاية العناصر الوافدة، خاصة وأن نسبة كبيرة منهم ـ كما سبقت الإشارة ـ من المتخلفين عن مواسم الحج، أما بالنسبة للاحتياجات فيعد توفير المساكن أهمها، وهي مسألة ليست بيسيرة، تحتاج إلى توفير المساحات الصالحة للبناء، مع مراعاة ضرورة التوازن بين مناطق المدينة من حيث درجة النمو السكني ومعدلاته، ويسر الحركة اليومية بين مناطق السكنى ومراكز العمل، وما يتصل بذلك من توزيع الخدمات بأنواعها ومستوياتها إلى غير ذلك من النواحي الحيوية. (م ٦٣ ، م ٧٣) .

٢ ـ غير أن العناصر غير السعودية ـ كما توضح أرقام الجدول ـ ليست هي تيارات الهجرة الوحيدة إلى المدينة المنورة، وإذا كانت تمثل تيارات الهجرة الخارجية الموجبة إليها فإن هناك أيضا تيارات هجرة داخلية تتجه إليها من باديتها وريفها على حد سواء، ولذلك إذا كانت البداوة تمثل في المملكة ظاهرة تتجه للأفول فإن ذلك إنما يتم غالبا لحساب النمو الحضري بها، حيث تشير أنماط الهجرة الداخلية في المملكة إلى زيادة معدلات النزوح إلى المراكز الحضرية من قبل سكان الريف والبادية(١٠) والغالب أن تستمر هذه في اجتذاب المزيد منهم لأسباب تتصل بتدهور اقتصاديات المراعي من ناحية، ثم لجاذبية القطاعات الاقتصادية الأخرى الأكثر ربحا من ناحية ثانية، خاصة وأن ظهور هذه القطاعات الحديثة قد زامن وصول اقتصاد المراعي في مناطق المملكة إلى مرحلة سيئة من تاريخه، وبالأخص لأن هذا الاقتصاد

ظل مغلقا إلى الحد الذي لم يعرف فيه الفائض أو تراكم الثروة بالمعنى الاقتصادي للفائض والتراكم (م ١٤ ص ١٨)، كما أن قيامه على أساس المواجهة المباشرة مع ظروف طبيعية قاسية، تتمثل في الجفاف والملوحة ونقص موارد المياه، قد جعله اقتصادا مرتبكا يعسر التخطيط له في ظروفه التقليدية، ولذلك ففي أحواله هذه كان يأتي في أدنى القائمة من حيث متوسط دخله العام والفردي. (م ١٩ ص ١٦٠) .

والواقع أن هؤلاء النازحين من بادية المدينة المنورة وريفها يمثلون في الوقت الراهن نسبه هامة من سكانها تبلغ ٢٥٫٦٥٪، هذا عدا نسبة أخرى تقدر بنحو ٢٫٦٦٪ من النازحين إليها من ريف وبادية مناطق أخرى بالمملكة، وتوضح دراسة قوة العمل بالمدينة المنورة (م ٦٧ ص ٦١) ـ كما سيأتي بيانه بشيء من التفصيل ـ أن قطاع الخدمات بها يستوعب النسبة الكبرى من قوة العمل بها، شأنها في ذلك شأن معظم ـ إن لم يكن جميع ـ المدن الرئيسية في المملكة[11]، ويتكرر بها بعد ذلك نفس ترتيب بقية القطاعات الاقتصادية الأخرى من حيث نسبة استيعابها للأيدي العاملة ، حيث يأتي بعد قطاع الخدمات قطاعا «التشييد» و «التجارة بأنواعها»[12]، ثم بقية أوجه النشاط بنسب متفاوتة. وتشترك المدينة المنورة ـ مع غيرها ـ في ضعف الأساس الاقتصادي الإنتاجي اللازم لها، والقائم على أساس من مواردها المحلية وعلاقاتها الإقليمية واستثمارها لمزايا موقعها الديني الخاص، والمؤكد أن يؤدي استمرار النزوح إلى زيادة نسبة الأيدى العاملة من ذوي المهارات الواقعة في قاعدة هرم المهارات الوظيفية، ولتجنب مظاهر البطالة المقنعة وسلبيات الاستهلاك المتفاقمة يبدو ضروريا العمل على تنمية المهارات اللازمة لهذه الأيدي العاملة بحيث لا تستمر كمجرد أيدي عاملة، بل تسهم نوعيا في تطوير الإنتاج. (م ٥٤ ص ١٤٦).

٣ ـ لقد بدأت حركة النزوح أولا بشكل تلقائي أو كرد فعل أولي مباشر لاكتشاف البترول في صورة نزوح فردي أو جماعي إلى مراكز إنتاجه من البادية والريف تحت جاذبية الأجور المرتفعة وطرد البيئات القاسية، ولم يكن لهذه المرحلة أن تنتهي قبل أن يؤدي تراكم الموارد والثروة إلى امتداد آثارها إلى خارج مناطق الإنتاج ومراكزه، وبشكل تقريبي يمكن القول: إنه لم تكد تنتهي الخمسينيات حتى كانت ظواهر المرحلة الراهنة قد بدأت تتداخل مع المرحلة الأولى، وقد تبدى ذلك في مجموعة من التغيرات التي شملت المجتمع السعودي

بنتائجها، وقد تمثلت الأخيرة في اقتصادياته وقوة عمله Labour Force وتنظيماته الاجتماعية Social Organizations والسيولة الإقليمية Regional Mobility بين مناطقة (م ٧٠ ص ٢٢٤) وغير ذلك، وهي تمثل في مجموعها خصائص مرحلة غير محددة المعالم تماما، والغالب أن تستمر هذه المرحلة .. طالما ظل «البترول» (وتداعياته الاقتصادية) يحرك عملية النزوح هذه بشكل شبه كامل، والمرجح أن اجتيازها قد لا يتاح قبل أن تتغير أساسيات الهيكل الاقتصادي نحو تحقيق أكبر قدر من التنوع في قواعده كي يمكن التخلص نهائيا من مشاكل الاعتماد على مورد اقتصادي ليس دائما وإن بدا شديد الضخامة (م ٤١ ص ١٢) .

وبالنسبة لعملية النزوح فهي لم تعد مجرد حركة فردية تلقائية كما بدأت، فقد اتخذت أيضا صورا شتى مغايرة، لقد أدى نمو المدن وبزوغها إلى تقصير خطوط النزوح، كما وصلت مظاهر التحضر خلال قنوات عديدة إلى بادية المملكة وريفها، وأصبح التحضر بذلك محليا أيضا، قد لا يحتاج إلى النزوح وهجرة البادية، ويتم ذلك ضمن إطار عام من التنمية الاقتصادية والاجتماعية، تلك التي تخضع لخطة توزيع جغرافية إلى أماكن التجمعات السكانية المتناثرة، وتأتي مشروعات توطين البادية وتنمية الاقتصاد الرعوي الزراعي الصحراوي في مقدمة هذه العوامل جميعها. (م ١٩) .

ولا يعني استمرار حركة النزوح بصورتها الحالية زيادة العبء السكاني على موارد المدينة ومساكنها وخدماتها وما يتداعى عن ذلك من نتائج فحسب، بل إنه قد يؤدي أيضا إلى القضاء نهائيا على اقتصاد الرعي والزراعة بمنطقتها، بما تتضمنه حركة النزوح من تفريغ البادية من أفضل عناصرها السكانية العاملة من الشباب الذكور، وبذلك تتحول قوة العمل عن طبيعتها الإنتاجية ـ أيا كان مستواها ـ إلى مجالات أخرى ليست إنتاجية غالبا، بل هي تعتمد في الأساس على موارد اقتصادية وتمويلية من خارج منطقة المدينة ذاتها (البترول)، وليس انهيار الأساس الاقتصادي لمدينة ما ومنطقتها بالأمر الهين، خاصة إذا لم يحل محل الأساس القديم قواعد اقتصادية جديدة مدعمة بالعنصر البشري اللازم (م ٥٤ ص ١٤٩) .

ولا يمثل البعد الاقتصادي وحده لب المشكلة ، فإن لها أيضا أبعادها الاجتماعية، لقد نتج عن امتلاء تيارات النزوح بالذكور من الشباب أساسا سلسلة من النتائج الديموجرافية بالنسبة للمراكز المستقبلة لها والطاردة على حد سواء، إذ تشير معظم التقارير الخاصة ببعض

مدن المملكة التي كان نصيبها من الهجرة الموجبة كبيرا إلى اتجاه نسبة النوع بها للاختلال لصالح الذكور وفي مناطقها الأصلية لصالح الإناث[١٣]، (م ٤٩ ص ٢٢١). ولا شك أن لهذه الظاهرة نتائجها الاجتماعية السلبية بالنسبة لها جميعها، وإذا كان النازح عادة ما يراوح من ناحية الإقامة بين موطنه الأصلي ومقره الجديد وأنه قد يصحب أسرته ـ بعد فترة ـ إلى حيث طاب مقامه، إلا أن الثابت أن نسبة الخصوبة ومعدلات التوالد والإنجاب قد انخفضت بوضوح في البادية على وجه الخصوص، بحيث أصبحت النسبة الغالبة بين مجتمعاتها السكانية هي من الشيوخ والنساء، وضافت إلى حد بعيد قاعدة المجتمع من الأطفال وكذلك وسطه الخاص بالشباب من الذكور، مما يعني تدهور قوة العمل به مع عدم توقع تجديدها في المستقبل . (م ٧٠ ص ٢٢٩) .

وعلى الجانب الآخر .. يواجه النازحون عديدا من مستويات التكيف في أوطانهم الجديدة، تشمل التكيف المادي Physical Adjustment مع السكن والغذاء والملبس ورحلة العمل اليومية، والتكيف الاقتصادي Economic Adjustment مع نوع العمل ونظمه وممارساته، والتكيف الاجتماعي Social Adjustment مع العلاقات الجديدة مع الأفراد والمؤسسات والتكيف الفكري Idiological Adjustment مع الأفكار والثقافات والمعلومات. (م ٤٩ ص ٢٠٢). وتعد مرحلة التكيف هذه أصعب المراحل، بما تتضمنه من صراعات حادة بين القديم والمألوف من أنواع العلاقات، والجديد الطارىء الذي قد يحمل ـ بغض النظر عن الأجر ـ شكل الصدمة، حيث يواجه البدوي النازح بناء حضريا مركبا ومتقدما، بدرجة تؤدي إلى إدراكه مدى تفوق وسائل الإنتاج الحضرية كما يتزايد اقتناعه بجدواها فضلا عن متعتها (م ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٨) .

ولعل من أهم نتائج هذا الانسلاخ الدائم أو المؤقت هو فسخ الرابطة القديمة الوثيقة بين الإنسان وبيئته ، فأصبح لكل منهما إيكولوجيته الخاصة، ولم يعد الإنسان جزئية متسقة في إطار الايكولوجية العامة للبادية، غير أن جملة نتائج التغير ـ وإن بدت إيجابية ـ لا يجب أن تخفي ما تحت السطح في المدن الرئيسية خاصة، فالصراع ما يزال قائما مميزا مرحلة الانتقال ، خاصة وأن التغير طرأ سريعا وخلال جيل واحد، وبالأخص لأن معظم وسائل التحضير وعوامل التغير قد استوردت أدواتها المادية، وتخللت الكيان الاجتماعي للمدينة بدرجات متفاوتة

من الاتساق وعدمه، مما أدى إلى حالة تباين في معظم الأحيان بين الوضع الثقافي الحضاري العام للمدينة وأدوات ووسائل حياتها المادية. (م ٤٩ ص ١٥٦) .

وتشير بعض الدراسات الميدانية (م ١٦ ص ٤٢) إلى رضى البدوي النازح للعمل في وظائف معينة دون غيرها بغض النظر عن عامل الأجر، لأن العامل المؤثر في الاختيار يتمثل في تصوراتهم لطبيعة العمل وقيمته حسب قيمهم المرجعية Frame of References ، لذلك فإن اختيارهم الأول يتجه إلى قيادة السيارات فهي أشبه باستبدال وظيفة بأخرى، وبدت السيارة وكأن البداة كانوا ينتظرونها ليتغلبوا على مشكلاتهم المزمنة المتصلة بالمكان (الحركة) وبالزمان (الوقت)، ثم يؤثر الفرد منهم بعد ذلك أن يعمل حارسا فهذا استمرار لبعض وظائفه القديمة، خاصة من حيث حمل السلاح، ثم هو قد يعمل بعد ذلك في حفر الآبار فهو عمل محبب إلى نفسه مرض لها، ثم هو ينفر أشد النفور من أعمال البناء والتشييد وسائر الأعمال الأخرى المتصلة بمرافق واحتياجات الحياة الحضرية لأنها تتنافر مع مفهومه للعمل والمكانة الاجتماعية. (م ١٤ ص ١٣) .

و - قوة العمل[١٤] في المدينة المنورة :

تعد دراسة قوة العمل في مدينة ما من أهم جوانب دراستها السكانية والاقتصادية معا، فهي تعكس بوضوح مجموعة من الخصائص الديموجرافية المتصلة بتكوين هرمها السكاني والمرحلة الديموجرافية التي يمر بها مجتمعها ونسبة الإعالة والبطالة بين أفرادها، فضلا عن النواحي الاجتماعية المترابطة معها، مثل نسبة الإناث في قوة العمل العامة، وأوجه النشاط المختلفة التي يسهمن فيها إلى غير ذلك، كما أنها من الناحية الاقتصادية تعبر عن توزيع قوة العمل بين وجوه النشاط الاقتصادي ومستويات الدخول لكل منها، وتوزيع قوة العمل بين العمالة الفنية وغير الفنية ، ويترابط كل ذلك وغيره ليوضح جوانب شتى من اقتصاديات المدينة ودرجة صلابتها وقوتها الإقليمية (م ٦٠ ص ١٩٩) .

ومرة أخرى تفتقد الدراسة ميزة المقارنة بالمراحل السابقة، حيث لا توجد إحصائيات بالمرة عن قوة العمل قبل ١٩٦٥م، ولا يعني ذلك أنها اكتملت بعد ذلك، فهي بين ١٩٧٠/٦٥م مجرد أرقام مبثوثة هنا وهناك، تقديرية غالبا وغير متكاملة، وهي بعد ١٩٧٠م أكثر

انتظاما، غير أنها ما تزال تفتقر إلى تفصيلات كثيرة (مثل سن الدخول والخروج من قوة العمل، وتركيبها من حيث السن والنوع والنشاط وغير ذلك) . وهي ـ بعد ـ مجرد توزيع قوة العمل على الأنشطة الاقتصادية المختلفة . وتشير الشواهد ـ قبل البترول ـ إلى انقسام قوة العمل آنذاك إلى إطارات واسعة ـ دون تخصصات واضحة ـ تابعة للأنشطة الاقتصادية السائدة: الرعي والزراعة والتجارة، والمرجع أن سن الدخول إلى هذه الأنشطة في مستوياتها البسيطة يكون مبكرا، بالنظر لعدم احتياجها لتدريب طويل، فضلا عن قدرة الجميع على القيام به إناثا وذكورا في أي عمر، أو بالمساهمة في ناحية من نواحيه على الأقل. وفي إطار اقتصاد معيشي ضئيل الفائض تقل نسبة المتفرغين لأعمال أخرى غير متصلة بالعملية الإنتاجية مباشرة (كالتعليم مثلا)، ومن ثم فالغالب في مثل هذه المجتمعات أن تكون نسبة قوة العمل إلى جملة السكان عالية بالقياس إلى غيرها من مجتمعات الاقتصاد الصناعي مثلا (م ٥٤ ص ١٤٥)، خاصة وأن سن الخروج من قوة العمل ـ أيضا ـ مفتوح، أي لا يلزم خروج شخص ما من قوة العمل الرعوية أو الزراعية في سن معينة، والأرجح أن لا يحدث ذلك إلا بالمرض المستعصي أو بالوفاة حيث يعجز الاقتصاد المعيشي Subsistence Economy عن إعالة من لا يعمل حتى وإن بدا عملا تكافليا إلا أنه يعمل وحسب .

غير أن هذه الصورة قد تغيرت بدرجات متفاوتة بين عناصرها بعد البترول، فقد اتجهت نسبة متزايدة من فئات السن الدنيا (أقل من ١٥ سنة) نحو التعليم[١٥]، واستطاعت نسبة أخرى متصاعدة من إتمام تعليمها إلى مراحل أخرى قد تمتد إلى سنوات متأخرة من مرحلة الشباب (١٥ ـ ٢٥ سنة)[١٦] ، ويعبر ذلك عن نمو قدرة المجتمع على إعالة نسبة من أفراده حتى سن متأخرة، نتيجة تراكم مدخراته ، وفي نفس الوقت أصبح هناك سن محددة للخروج من قوة العمل الحكومية على وجه التحديد، إما بالتقاعد الاختياري أو القانوني، وقد يعني ذلك تناقص نسبة قوة العمل إلى جملة السكان، أو بمعنى أدق في القطاعات الاقتصادية الحديثة، سواء ما يتصل منها بالإنتاج أو الخدمات ، غير أنه يعني ـ أيضا ـ ارتقاء قوة العمل كيفا بدرجات حسب قدر تأثرها بعوامل التغير، ويعني الارتقاء الكيفي لقوة العمل تنوعها وزيادة درجة التخصص والتمايز بين أقسامها، ونمو الطلب على التخصصات الدقيقة في مجالات اقتصادية عديدة، ويسهم التعليم بالدور الأكبر في هذا المجال، حيث تتعدد المدارس وتتنوع وتعلو مستوياتها وتظهر الجامعات[١٧] لتلبية احتياجات المجتمع من مستوى مرتفع في شتى

المجالات. وقد يحتاج المجتمع في هذه المرحلة إلى استقدام ما ينقصه من العناصر البشرية عالية الكفاءة من الخارج، وإلى ابتعاث بعض أفضل عناصره للخارج للحصول على الدربة اللازمة .

وبالنسبة لتوزيع قوة العمل العامة على وجوه النشاط الاقتصادي فإن تغيرات أساسية قد حدثت بها ـ بعد البترول ـ كما وكيفا[١٨]، وتتمثل أهم هذه التغيرات على مستوى المملكة في تراجع قطاعي «الزراعة والرعي» عن المرتبة الأولى التي كانا يحتلانها معا حتى ١٩٧٠م باستيعابها نحو ٤٠,٤٪ من جملة قوة العمل بالمملكة في هذه السنة (١,١٠٤ مليون عامل) ، حيث لم يعودا يستوعبان سوى نحو ٢٨٪ من جملتها في ١٩٧٥م (١,٥٢٢٢ مليون عامل)، والمتوقع أن تقل إلى ١٦,٩٠٪ من جملتها في ١٩٨٠م (٢,٣٣١مليون عاملا) على حساب قطاع الرعي[١٩] بصفة أساسية ، وفي نفس الوقت فقد تقدمت جملة الأنشطة الحضرية (الخدمات ، التجارة، البناء والتشييد) لتحتل هذه المرتبة بنسبة متزايدة ، حتى ليكاد يتوقع أن تستوعب نحو ٨٣,١٪ من جملة قوة العمل في ١٩٨٠م (م ٢٤ جداول عديدة) ، وتتركز هذه الأنشطة الحضرية بالضرورة في المدن التي تزايد عددها وتضخم حجمها .

وتشير الدراسات الخاصة لبعض هذه المدن (م ٢٦ م ٢٧) إلى مجموعة من الخصائص المشتركة بينها فيما يتصل بتكوين قوة العمل، فالهجرة ـ بدرجات ـ تسهم بنسبة عالية من معدلات نموها، وتمتلئ تيارات الهجرة الذكور، مما يؤدي إلى تناقص نسبة الإناث إلى جملة سكان المدينة، ولأن معظم المهاجرين من الشباب، فهم يسهمون مباشرة في قوة العمل بكل مدينة، ورغم ذلك فإن نسبة قوة العمل إلى جملة السكان ما تزال أقل مما يجب، بسبب ضعف مشاركة الإناث فيها من ناحية، ولاستيعاب فئات السن الدنيا (أقل من ١٥ سنة) نسبة متزايدة مع ارتفاع معدلات المواليد من ناحية ثانية. وفي نفس الوقت يتكرر نمط توزيع قوة العمل على وجوه النشاط الاقتصادي المختلفة، حيث تستوعب الخدمات الاجتماعية والشخصية النسبة الكبرى من الأيدي العاملة، ويعني ذلك أن معظم هذه المدن هي في جوهرها مراكز للخدمات الحضرية بأكثر منها مدن الوظائف الحضرية، حيث لا تستند اقتصادياتها ـ إلا بدرجة محدودة ـ على مواردها وإمكانياتها الخاصة، وأن دخول الأفراد في قوة العمل بها لا يتجه مباشرة إلى النواحي الإنتاجية (الصناعة)، بل إلى وسائط الخدمات الحكومية وغيرها، تلك التي ترصد ميزانياتها الضخمة من خارج إمكانياتها المحلية ضمن الميزانية العامة للدولة.

ولا تختلف هذه الصورة في المدينة المنورة ومدن المنطقة الغربية عامة كثيرا عما سبقت الإشارة إليه. وفيما يلي تحليل لبعض عناصر قوة العمل بها:

١ ـ نسبة قوة العمل إلى جملة السكان:

تعد نسبة قوة العمل إلى جملة السكان ضئيلة في مدن المملكة، وربما لنفس الأسباب أيضا السابق الإشارة إليها بالنسبة للمملكة ككل، وتأتي «المدينة المنورة» في أدنى قائمة مدن المنطقة الغربية من هذه الناحية، حيث إن لها ـ ومكة أيضا ـ ظروفها الخاصة المتصلة بوظيفتيهما الدينية، ويوضح الجدول الآتي هذه النسبة إلى جملة السكان (بالألف نسمة في أهم مدن المنطقة الغربية سنة ١٩٧١م) .

البيـــان	جدة	مكة	المدينة	الطائف	ينبع	تبوك
جملة السكان.........	٣٦١	٣٠١	١٣٧	١٠٦	١٩	٤١
نسبة قوة العمل	٢٦٫٧٤	٢١٫٥٤	١٩٫٣٤	٢١٫٦٥	٢١٫٥٤	٣١٫٣٨

ويتضح من الأرقام أن هذه النسبة تصل إلى أعلاها في «تبوك» لأسباب ربما تعود في الغالب إلى وظيفتها العسكرية، يليها «جدة» التي تتميز بتعدد وظائفها وارتفاع طاقتها الاستثمارية وتركز المؤسسات الصناعية بها، وهي بعد ذلك تكاد تتساوى في نسبتها في (مكة ، الطائف ، ينبع) ، متقاربة في نفس الوقت معها في «المدينة المنورة»، والواقع أنهما «المدينة المنورة ومكة» بالذات تتشابه ظروفهما بحكم موسم الحج ، وما يقتضيه من خدمات، وما يتطلبه من تفرغ نسبة هامة من سكان المدينتين ـ حتى عهد قريب على الأقل ـ لتلبية النواحي العديدة المتصلة به، وما يزال الموسم يمثل المصدر الرئيسي للدخل بالنسبة لنسبة هامة من قوتهما العاملة. وتشير الدراسات الخاصة بالحج إلى أن نسبة لا تقل بحال عن ٩٠٪ من الحجاج إنما يقومون أيضا بزيارة «المدينة المنورة» سواء أكان ذلك قبل الحج أو بعده أو قبله وبعده معا (م ٦٧ ص ١١)، وتشير نفس الدراسة إلى قيام بعض سكان المدينة بتأجير مساكنهم خلال موسم الزيارة للقادمين إليها (م ٦٧ ص ٦٤) .

(... Some of the people of Medina live in relatively large modern houses. During the Hadjseason.. they rent these houses to high income pilgrims and move to small apartments ..).

هذا بالطبع غير أنواع الخدمات الأخرى المتمثلة في الفنادق والمطاعم وغير ذلك من متطلبات الإقامة، وبغض النظر عن هذه الأخيرة (الخدمات) التي تحتسب عادة ضمن قوة العمل، فإن كثيرا من الأسر تعتمد اعتمادا شبه كامل على مواردها من تأجير مساكنها بالطريقة المذكورة، وهذه لا تحتسب عادة ضمن قوة العمل، لأنها عملية تتم عامة ضمن إطار متوارث منظم من قديم، وإذا أضيف هذا السبب إلى جملة الأسباب العامة في مدن المملكة والمؤدية إلى نقص نسبة قوة العمل بها إلى جملة سكانها فربما يكون قد أمكن تفسير هذه الظاهرة بالنسبة للمدينتين بشكل خاص، غير أنه يتبقى للمدينة المنورة ـ بعد ذلك ـ بعض الأسباب الأخص بها أيضا، فهي حتى الآن لم تستثمر بالدرجة الكافية إمكانيات مواردها الخاصة ، فضلا عن معطيات الواقع الاقتصادي المعاصر في المملكة ككل، فإذا كانت «مكة» قد استفادت إلى حد كبير من موقع مدينة «جدة» بالقرب منها، حيث تتميز الأخيرة بتركز معظم المؤسسات الصناعية في المنطقة الغربية لها، وبإمكانيات مينائها باعتباره الميناء الأول في المملكة، إلى غير ذلك من المزايا التجارية، فإن «المدينة المنورة» ـ رغم مواصلاتها الجيدة ـ ما تزال محرومة من مزايا مماثلة، وبالتالي مما يتداعى بالضرورة عن هذه المزايا من نتائج اقتصادية مؤكدة، ولقد أدى ذلك بالضرورة إلى ضعف الطاقة الاستثمارية للمدينة إلى حد بعيد. ورغم أن «المدينة المنورة» تتلقى مثل غيرها من مدن المملكة تيارات نزوح ممتلئة من باديتها وريفها، تمثل في جملتها قوة عمل غير فنية، فإنها تتعرض في نفس الوقت لتيارات نزوح خارجة منها، تشتمل في جملتها على عناصر فنية لا تجد فرصتها في المدينة، وعادة ما يراوح النازحون إليها بين الإقامة بها ـ خاصة في مواسم الزيارة ـ وبين العودة إلى مواطنهم الأصلية في غير هذه المواسم، أما النازحون منها فهم غالبا ـ بحكم وظائفهم وأعمالهم ـ يغادرونها نهائيا (م ٦٧ ص ١٦١) .

والمرجح أن إنعاش قوة العمل في المدينة كما وكيفا إنما يتوقف على مجموعة من العوامل المتصلة بالمدينة ذاتها وبعوامل أخرى من خارجها، أما ما يتصل بمجموعة العوامل الأولى فتترابط مع زيادة طاقة المدينة الاستثمارية بالاستفادة من مزايا موقعها (المواصلات)، وتدعيم اقتصاديات موضعها (الزراعة والرعي)، وتشجيع إنشاء المصانع المعتمدة على موارد منطقتها

وخاصة الصناعات الزراعية والغذائية (البلح والفواكه). أما الثانية فتتصل باستكمال تجهيزات ميناء «ينبع» الذي يمكن أن يؤدي بالنسبة لها دورا قريبا من دور «جدة» بالنسبة «لمكة»، وإذا كانت المدينة المنورة تأتي في مقدمة مدن المملكة (تسبق حتى جدة والرياض) من حيث درجة مرونة اتصالاتها بغيرها من مدن المملكة عبر شبكة طرقها البرية (للاستزادة م ٣٢)، فإن إعادة إنشاء خط حديد الحجاز ـ الشام يعد من أهم إمكانيات موقعها ومزاياها التي تنتظر استثمارها خاصة إذا ما تناسق إنشاؤه مع مشروعات إنعاش ميناء ينبع، لتتكامل بذلك شبكة مواصلاتها البرية والحديدية والبحرية معا ، وسيكون لذلك بطبيعة الحال انعكاساته بالنسبة لوظيفتها التجارية، وفي تحويلها إلى وظيفة مرتبطة بمزايا موقعها الجغرافي، وليس مجرد وظيفة ممتدة على موارد مالية من خارج منطقتها المحلية .

والمرجح ـ أيضا ـ بعد ذلك أن تتوقف تيارات النزوح منها، وتضعف في نفس الوقت تيارات النزوح إليها من عناصر الأيدي العاملة غير الفنية، فالثابت أن انخفاض مستوى الأعمال عامة من أكبر دوافع النزوح من هذه العناصر إلى مدينة من المدن، حيث لا يحتاج النازح قبله إلى تعلم أو تدريب للدخول في نسيج قوة عملها، أما مع ارتفاع مستوى الأعمال والوظائف، فإن النازح غير المدرب غالبا ما يجد عديدا من الصعوبات للالتحاق بعمل مجزي الأجر، والمرجح أن يدفعه ذلك للتدريب مسبقا، مما يرفع مستوى العمالة آخر الأمر، ولا شك أن مثل هذه الديناميات تنطبق على «المدينة المنورة» كما تنطبق على غيرها. (م ٥٤)

٢ ـ توزيع قوة العمل على وجوه النشاط الاقتصادي :

سبقت الإشارة إلى ظاهرة تشابه توزيع قوة العمل على وجوه النشاط الاقتصادي بين مدن المملكة، ربما لتشابه الظروف الاقتصادية العامة التي تمر بها هذه المدن في الفترة الراهنة، وخاصة من ناحية اعتمادها جميعها في نموها الحالي على موارد مالية خارج إمكانيات كل منها الذاتية (البترول)، ولا شك أن لمثل هذه الحالة انعكاساتها على نوع الوظائف والأعمال المتاحة في هذه المدن، حيث إن هذه الموارد التمويلية الضخمة لم تجد بها الأوعية الاستثمارية المناسبة خاصة الصناعة، ولا الأيدي العاملة الكافية (كما وكيفا) واللازمة للمستويات الاستثمارية العالية، ومن ثم فقد توجه الاستثمار نحو قطاعات غير إنتاجية غالبا، مثل الخدمات وتجارة الاستهلاك والتشييد والبناء وغير ذلك، بل إن نسبة منها اتجهت نحو

المضاربات (خاصة في قطاع أراضي البناء وفي غيرها)، مما أدى إلى ظهور حالة تضخمية أودت بنسبة هامة من هذه الموارد التمويلية الهائلة بالفعل، وأصبحت هذه الموارد ـ في معظمها ـ تدور في دائرة لا نهائية من ارتفاع الأثمان وانخفاض القيمة الحقيقية لها، ولذلك تبلور اتجاه حديث نحو تشجيع قطاعات الإنتاج الفعلية لإيقاف دوران هذه الدائرة (خطة التنمية الثانية ١٩٧٥م وزارة التخطيط ص ١٧٥). ولا تقتصر آثار هذه الحالة على ما سبق تحديده، بل إن أخطرها يتبدى في تدمير القطاعات الإنتاجية الموجودة من قبل مثل الزراعة والرعي، حيث إن الربح الناتج عن مثل هذه القطاعات الإنتاجية أقل بما لا يقارن ـ بالطبع على المدى القصير ـ من الأرباح الناتجة عن القطاعات الاستهلاكية، وهكذا تدفقت تيارات نزوح الأيدى العاملة المنتجة في البادية والريف إلى المراكز الحضرية النامية والبازغة، لتعمل في وظائف غير إنتاجية غالبا، ولتدخل في نسيج متضخم من قوة عمل هذه المراكز الحضرية، لتشكل في مجموعها كتلة مستهلكة متنامية، ولذلك فقد وضعت الدولة ضمن برنامج خطة تنميتها الثانية مبدأ «تنويع قواعد الإنتاج» ضمن أهم أهدافها الاستراتيجية ، ويتضمن هذا المبدأ الحد من الاعتماد المطلق الحالي على الموارد البترولية من ناحية، وتشجيع القطاعات الاقتصادية الإنتاجية (الصناعة، الزراعة، الرعي) بشتى الطرق، فقد اتضح مع تزايد موارد البترول المالية بمعدلات يصعب متابعتها أن هذه الموارد وحدها يمكن أن تلغي الحاجة لقوة عمل أيا كانت بالمملكة، فهي كافية لإعالة جميع سكانها في مستوى اقتصادي مرتفع، غير أن البترول ـ مهما كان ـ يدخل في عداد الموارد الاقتصادية القابلة للنضوب، وإذا كانت موارده كافية لإعالة جميع السكان في الوقت الحاضر أو طوال فترة تدفقه فهي أيضا بلا شك كافية لإنشاء القواعد الاقتصادية الراسخة التي تضمن استمرار مجتمع الرفاهية الراهن في الحاضر والمستقبل معا .

وليست المدينة المنورة ببعيدة عن الصورة السابقة وتفصيلاتها ، فهى - مثل غيرها - تتعرض لنفس المؤثرات ، وتشهد قوة عمل نفس النتائج . وبدراسة جدول (٦) يمكن تحديد ما يلى :

ـ يستوعب قطاع «الخدمات» نسبة لا تقل عن ٤٠٪ من جملة قوة العمل في مدن المنطقة الغربية، وهي تتوزع ما بين الخدمات الاجتماعية والشخصية، وتصل النسبة في المدينة المنورة

إلى ٤٦٫٥٠٪ من جملة قوة العمل بها، وهي نسبة عالية تؤكد ما سبق تحديده بشأن ضعف الأساس الاقتصادي بها وفي غيرها من مدن المملكة أيضا، وإذا كان هناك عدد من المدن الراسخة في أوربا والولايات المتحدة (م ٥٩ ص ١٢٧) تتجه لتصبح من مدن الخدمات الحضرية عالية المستوى فليست الأسباب واحدة بينها وبين مدن المنطقة، ذلك أن الاتجاه الحالي بالنسبة لهذه المدن الراسخة إنما سبقته مراحل طويلة من النمو الاقتصادي التدريجي المعتمد على إمكانيات المدينة ومنطقتها أساسا بحيث تدخل مرحلتها الحالية (الخدمات) مدعمة بقواعد إنتاجية خاصة عالية الكفاءة، وتأتي الخدمات كتعبير عن الرفاهية وكمجال للاستثمار الاقتصادي بعد أن حققت المجالات الأخرى أقصى إمكانياتها، مستخدمة أرقى وسائل الإنتاج والتكنولوجيا المعاصرة فالاتجاه للخدمات ولمجتمع الخدمات بمثابة تتويج لمراحل طويلة سابقة من الإنتاج ضمن إطار صارم من استثمار الوقت والأيدي العاملة والموارد الممكنة والمحتملة، وليست الصورة هكذا في مدن المنطقة أو في غيرها من مدن المملكة، والاتجاه نحو الخدمات اقتصاديا إنما لكونه قطاعا سهلا مضمون الأرباح إلى حد كبير. وقد تصدت لهذا الاتجاه خطة التنمية الثانية في المملكة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠م، ويأتي في مقدمة بنود التصدي تدريب الأيدي العاملة ورفع كفايتها الفنية والإنتاجية، فلا شك أن من أهم أسباب اتجاه رأس المال لمثل هذه المشروعات غير الإنتاجية إنما يرجع إلى الافتقار للأيدي العاملة الفنية .

ـ تبعا لمعدلات الطلب الحالية على الأيدي العاملة تظهر «التجارة» بأنواعها ومستوياتها باعتبارها من أكثر أوجه النشاط الاقتصادي في المدينة جاذبية لأيديها العاملة، خاصة بعد أن لم يعد الازدهار التجاري مقصورا على موسم الحج والزيادة، بل امتد ليشمل العام بأكمله، وإن كان موسم الزيارة ما يزال يمثل ذروته، ومعظمها كما سبقت الإشارة لتجارة الاستهلاك والخدمات والمطاعم ومحلات بيع الغذاء، وتمثل التجارة عموما بالنسبة للمدينة المنورة أهم القطاعات التي يمكن أن تستوعب نسبة متزايدة من الأيدي العاملة، خاصة لو اتجهت نحو درجة أعلى من التنظيم، وتطورت وحداتها الصغيرة الحالية التي يديرها أصحابها بأنفسهم إلى مؤسسات تجارية متخصصة .

ـ لا تزيد نسبة ما يستوعبه قطاع «البناء والتشييد» من قوة العمل بالمدينة المنورة عن ٧٫٩٠٪، وتصل هذه النسبة في المملكة ككل إلى ٢٠٫٦٠٪ (١٩٧٥م)، ويتوقع لها أن

تصبح القطاع الأول من حيث درجة الاستيعاب على مستوى المملكة (٤٠ر٢٥٪) في ١٩٨٠م. وتشير التقارير إلى أن معظم العاملين في هذا القطاع هم من غير السعوديين (م ٢٦ ص ١٩٥)، حيث ينفر البدو النازحون من العمل به . والمرجح أن تزيد نسبة استيعاب القطاع من قوة العمل بالمدينة المنورة، نظرا لما ينتظر بعض أحيائها في المستقبل القريب من إزالة وهدم وما ينتظر بعضها الآخر من تشييد وبناء، وخاصة تلك التي ستستحدث برمتها في أبيار علي والجامعة وشمال أحد .

ـ لا يستوعب قطاع «الصناعة» سوى نسبة ضئيلة من قوة العمل بالمدينة، شأنها في ذلك شأن معظم مدن المملكة ولنفس الأسباب تقريبا، ومعظم وحداتها الصناعية (أو المعتبرة كذلك) هي ورش للحرفيين وأخرى لتوليد الكهرباء وغير ذلك، وتعد مشكلة الأيدي العاملة الفنية أهم ما يواجهها من مشكلات، والواقع أيضا أن الاحتمالات الخاصة بقيام صناعة ثقيلة أو خفيفة هي احتمالات محدودة في «المدينة المنورة»، حيث تأسر «جدة» ، الأكثر استعدادا بتجهيزاتها في هذا المجال معظم مشروعات الصناعة في المنطقة الغربية خاصة البتروكيماويات، كما أنها تأسر أولا بأول العمالة الفنية القادمة من الخارج باعتبارها أول ما تطأ أقدامهم من أراضي المملكة (من الغرب)، وهي في«المدينة المنورة» قد لا يمكنها أن تتجاوز في أحسن حالاتها بظروفها الراهنة بعض وحدات الصناعة المحلية المعتمدة على منتجات البيئة (تجفيف وتغليف البلح والفواكه) وغير ذلك من الصناعات اليدوية التقليدية التي يطلبها زوارها من الحجاج .

ـ يعد «التعليم» وظيفة من أهم وظائف «المدينة المنورة» على مستوى المملكة، بل إن للمستوى العالي من هذه الوظيفة (الجامعة الإسلامية) أهميته بالنسبة للعالم الإسلامي أيضا ، وهي وظيفة راسخة الجذور في بنائها منذ تبلور في مسجدها الشريف نواة أول جامعة إسلامية بعد هجرة الرسول إليها، والتي أصبحت بذلك بمثابة النموذج لما تكرر ظهوره في معظم المدن الإسلامية (القاهرة ، بغداد ، دمشق ، القيروان ، فاس ، وغيرها)، وحتى في أشد عهود المدينة المنورة تدهورا (أثناء الحكم التركي معظم القرون الثلاثة الأخيرة وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى) فقد كانت الزوايا ومدارس تعليم البنين والبنات والأربطة والأوقاف تتناثر في أزقتها وأحيائها ، ولقد تدعمت هذه الوظيفة في الوقت الحاضر باستكمالها لمستوياتها جميعا من المرحلة الأولية إلى الجامعة، فحسب إحصاء ١٩٧٥م تبلغ جملة مدارسها الابتدائية ٤٤ مدرسة، يصل عدد تلاميذها إلى ١٤٩٧٦، ويعمل بها ٧١٣ مدرسا. كما تصل جملة مدارس المرحلة المتوسطة

والثانوية بها ٣٠ مدرسة، وجملة تلاميذها ٦٠٥٦ تلميذا، وعدد معلميها ٣٩٣ معلما، هذا عدا المدارس الفنية من المستوى الثانوي، ويوجد منها في المدينة معهدان: الأول صناعي، وجملة طلابه ٢٣٧ طالبا ، والثاني تجاري، وجملة طلابه ٧٥ طالبا . وتبلغ جملة المعلمين في المعهدين ٥٦ معلما، من بينهم ٣١ معلما غير سعودي عدا العاملين في الإدارة والخدمات بجميع هذه المدارس. ويوجد بالمدينة معهدان للمعلمين تعرف بمراكز إعدادالمعلمين، وجملة طلابها ٤٨٢ طالبا، من بينهم ٨ من غير السعوديين، والباقي من المدينة ومنطقتها وأنحاء أخرى في المملكة (م ٣١، عدة جداول)

أما الجامعة الإسلامية فهي جامعة دينية تعد الدارس فيها منذ المرحلة الابتدائية ، وحسب أرقام ١٩٧٦م فقد بلغ عدد طلابها المسجلين في كلياتها الأربعة ٣٠٠٢ طالب، منهم ٢٢٧٦ طالبا غير سعودي، أي بنسبة ٧٦٪ تقريبا ينتمون إلى ٨٠ دولة، وقد تخرج منها ١٠٩٥ طالبا في ١٩٧٥م، منهم ٨٠٪ من غير السعوديين، ويزيد معدل الالتحاق بها بنسبة ٢٠٪ سنويا. (م ١٩ ص ٣٦) .

ـ وتشمل «الحرف الأخرى» مجموعة من الأعمال غير الواضحة وغير المبينة، بالإضافه إلى الزراعة (٦ر١٪) والرعي (٥ر٠٪)، وينتظر أن تنخفض نسبة الزراعة إلى ١٪ في ١٩٩١م، حيث تعاني من مشاكل عديدة تتصل بالمياه والتربة، فضلا عن انخفاض أربحيتها وزيادة تكاليفها بالقياس إلى القطاعات الأخرى، وبالفعل فإن إغراء تحويل أرباض المدينة وحدائقها وحقولها ـ تلك التي كانت أهم جمالياتها في الماضي ـ إلى أراضي بناء ذات أرباح عالية قد أدى إلى تناقص مساحتها الخضراء تدريجيا وبسرعة خلال عقد السنين الأخير، وحلت محلها العمارات العالية التي أصبحت أول ما يواجه الزائر بدلا من تجمعات النخيل التقليدية، ومع خطورة ما يواجه المدينة بفقدانها هذا القطاع الإنتاجي الهام من اقتصادياتها والذي يمدها بمعظم احتياجاتها الطازجة من الخضر والفاكهة، فإن لذلك أيضا انعكاساته بالنسبة لاختلال التوازن المنشود مورفولوجيا وسكانيا بين المباني والمساحات الخضراء، حيث إن الاكتساح الراهن للأخيرة سيؤدي بكتلتها المبنية للوصول مباشرة وهي مندمجة متلاصقة إلى الحرات والجبال المحيطة، ولذلك فقد أصبح من أهم ما يواجه خطة تطوير المدينة المعاصرة هو توفير المساحات الخضراء اللازمة لكتلة مبانيها (جماليا) ولسكانها (صحيا ونفسيا). (م ٧٨) .

وتتركز قوة العمل الزراعية في قرى المدينة التقليدية (قربان ، العوالي ، مشربية أم إبراهيم) لبعدها نسبيا عن التغيرات الجارية الآن في المدينة.

وقد اختفت الزراعة من قريتي «العيون» «قبا» أو كادت، وقد كانتا من أهم مواضع الزراعة بها، حيث امتد العمران إليهما وابتلعهما، وتبدو العمالة الزراعية وسط نسيج قوة العمل الحالية في المدينة كبقع خضراء متناثرة في أرضية من العاملين في الخدمات والتجارة وغيرها من الأعمال الحضرية .

٣ ـ توزيع قوة العمل والدخل بين أحياء المدينة :

كما تبين فإن نسبة قوة العمل إلى جملة سكان المدينة تبلغ ١٩٫٣٤٪، أي إنهم نحو ٢٦٣٢٥ عاملا (١٩٧١م)، وبذلك يكون متوسط الإعالة بها ١٧٫٥ نسمة لكل فرد من قوة العمل، ويتفاوت توزيع العاملين من سكان المدينة بين أحيائها ، مما يؤدي إلى حركة يومية بين أحياء السكن ومراكز العمل، فهناك أحياء تزيد بها فرص العمالة، ومن ثم فإن عدد العاملين به يزيد عن عدد العاملين من سكانه، وهناك ـ على العكس ـ أحياء تقل بها هذه الفرص، ومن ثم فإن عدد العاملين به يقل عن عدد العاملين من سكانه، وهكذا تتحدد خطوط الحركة اليومية للأيدي العاملة بين أحياء المدينة. ويلخص الجدول الآتي توزيع جملة عدد العاملين في الحي حسب فرص العمالة به، سواء أكانوا يسكنون نفس الحي أو يسكنون خارجه، بالمقارنة مع عدد العاملين به الذين يسكنون فيه أيضا. (١٩٧١م) .

البيـــان	المنطقة الوسطى	قبا والحرة الغربية	الحـرة الشرقية	سـيد الشهداء	سـلطانة	جملـة
عـدد العاملـين	١٣٣٨٣	٥٥٦٠	١١٠٩	٥٧٧٣	٥٠٠	٢٦٣٢٥
عدد العاملين من سكانه	٦٦١٤	١٢٣١٢	٤١٧٦	٢٨٢٩	٢٩٤	٢٦٣٢٥

وحسب أرقام الجدول وشكل (١٦) يمكن تبين أن «المنطقة الوسطى» تستحوذ على أكبر

عدد من العاملين (٨٤ر٥٠٪) بين جميع أحياء المدينة، بل إنها تحوز أكثر من نصف جملتهم جميعا، وهي بذلك تحقق أعلى ارتباط بينها من حيث الكثافة السكانية (٥٠٠ نسمة/هكتار) والعمالة، ورغم ذلك فإن العاملين من سكانها لا يزيدون عن نصف جملة العاملين بها، دليلا على زيادة فرص العمل بها من ناحية، واجتذابها للأيدى العاملة من أحياء المدينة الأخرى من ناحية ثانية. ويتشابه معها في هذه الحالة منطقتا «سيد الشهداء» و«سلطانة»، فبينما يعمل فى الأولى ٢١٫٩٣٪ من جملة قوة العمل بالمدينة، لا يسكن بها سوى أقل من ١٠٫٧٥٪ منهم، وتأتي «سلطانة» في مؤخرة أحياء المدينة من حيث عدد العاملين بها (١٫٩٠)، لا يسكن بها منهم سوى (١٫١٢٪)، دليلا أيضا على جاذبية المنطقتين للعمالة من خارجها، ولما كانت المنطقتان من أقل أحياء المدينة سكانا وكثافة، فالمرجح أن فرص العمل بها أكبر من إمكانيات السكن، ولذلك فإن خطة المدينة المعاصرة ترمي إلى تشجيع النمو السكني بها بوسائل شتى.

يتبقى «الحرة الغربية وقبا» و«الحرة الشرقية»، وتختلفان عن المجموعة السابقة في أن عدد العاملين الساكنين بها أكبر بكثير من عدد العاملين بها ويسكنون خارجها، فهما يمثلان الأحياء السكنية بمعنى الكلمة، تلك التي تتوجه النسبة الكبرى من سكانها إلى أعمالهم خارجها. وبالنسبة «للحرة الغربية وقبا» فهي عكس حالة «المنطقة الوسطى» بشكل شبه تام، فبينما لا تتجاوز نسبة عدد العاملين بها ٢١٫١٢٪ من جملة العمالة في المدينة، فإن نسبة الأيدي العاملة التي تسكنها تزيد عن ٤٦٫٧٧٪ من جملتها بالمدينة، دليلا على قلة فرص العمل بها. وتتكرر الصورة في «الحرة الشرقية» التي يسكنها نحو ١٥٫٨٥٪ من جملة العاملين بالمدينة، بينما لا تزيد نسبة العاملين بها عن ٤٫٢١٪ من جملتهم العامة .

ولا شك أن لمثل هذا التباين السابق تحديده نتائجه بالنسبة لتوزيع الدخول ومتوسطاتها بين أحياء المدينة تبعا لكثافتها وفرص العمل بكل منها، وكشأن معظم المدن - إن لم يكن جميعها - يتباين متوسط الدخول للفرد والأسرة بين مناطق المدينة ما بين عالية ومتوسطة ومنخفضة، وحسب أرقام المسح الاجتماعي الاقتصادي (١٩٧١م) فقد قدر أن الدخل الشهري لنحو ٥٧٪ من جملة قوة العمل هي أقل من ٤٠٠ ريال، وهو يتراوح بين ٤٠٠ - ٢٠٠٠ ريالا لنحو ٤١٪ منها، وهو بالنسبة للباقين ٢٪ أكثر من ٢٠٠٠ ريال شهريا. وتبعا للمؤشرات

يندمج السكان والمساكن تحت بند تخطيطي واحد تقريبا، وإن كان لكل منها ـ بالطبع ـ ديناميانه ومشكلاته الخاصة. (م ٧٨ ص ١٩) .

ويوضح الجدول الآتي توزيع مساكن المدينة بين أحيائها، ومتوسط التزاحم بها تبعا لجملة سكان كل منها (١٩٧١م) :

البيـــان	المنطقة الوسطى	الحـــرة الغربية وقبا	الحـــرة الشـرقية	ســـيد الشـهداء	ســلطانة
جملـة المساكن	٦٩٤٠	١٢٦٥٠	٤٢٥٠	٢٩٣٠	٣٠٠
التزاحـــم	٤٫٩٣	٥٫٠٧	٥٫١٣	٥٫٠٦	٥٫٠٧

وتبين الأرقام ضآلة الفارق من حيث متوسط التزاحم بين أحياء المدينة، فهي لا تتجاوز ٠٫٢٠ شخص/مسكن، أو بمعنى أوضح شخص واحد/٥ مساكن، بين أعلاها تزاحما وأدناها، والغالب أن هذا المتوسط يصل إلى أدناه في «المنطقة الوسطى» ـ رغم أنها أعلى أحياء المدينة كثافة ـ بسبب ارتفاع المسقط الرأسي لمبانيها الحديثة نسبيا ، وهو ما يعوض ضيق مساحتها الأفقية ، ويعود الاتجاه الحالي نحو الارتفاع بالمسقط الرأسى للمباني إلى ارتفاع أثمان أراضي البناء بها إلى أعلاها بالمقارنة مع غيرها من أحياء المدينة، وفي نفس الوقت فإن هذه المنطقة الوسطى تعد أكثر أجزاء المدينة جاذبية لزوارها الحجاج، حيث يفضل معظمهم الإقامة أقرب ما يمكن إلى المسجد النبوي، ولما كانت زيادة المساحة الأفقية للمنطقة غير ممكنة، فقد تبدى الحل في استغلال فضائها بالارتفاع بالمسقط الرأسي لمبانيها، وقد أتيحت لها الفرصة قبل غيرها مع إعادة تخطيط المدينة القديمة، وهدم نسبة هامة من مبانيها التاريخية الوطيئة ، وتوسعة شوارعها تلبية لمتطلبات حركة المرور الآلية، وقد حلت العمارات الإسمنتية العالية محل ما هدم معبرة عن متطلبات المرحلة المعاصرة من تاريخها .

أما ما يتصل بمتوسط التزاحم في بقية الأحياء فهي متقاربة عموما في الوقت الحاضر، غير أن المتوقع أن تتجه متوسطات التزاحم بها للتناقص التدريجي تبعا لمعدلات نموها الحـالية. وللتغيرات المتوقعة في توزيع سكان المدينة ـ بين أحيائها ـ كما سبق بيانه .

الحالية في الطلب على العمالة وارتفاع الأجور، فالمتوقع أن تزيد نسبة ذوي الدخول العليا والمتوسطة على حساب الدنيا، حيث يقدر أن تصل نسبة من يزيد دخلهم من قوة العمل عن ٢٠٠٠ ريال إلى ١٥٪ من جملتهم، وأن تصل نسبة من يتراوح دخلهم بين ٤٠٠ ـ ٢٠٠٠ ريال إلى ٦٦٪ من الأيدى العاملة، وأن تنخفض نسبة من يقل دخله عن ٤٠٠ ريال شهريا إلى ١٩٪، وذلك قبل عام ١٩٨٠م(٢٠) .

وبشكل عام فإن الحرتين «الشرقية والغربية» تمثلان أقل أحياء المدينة من حيث متوسط الدخل بين أفرادها، ورغم احتمال تغير هذه الحالة في المستقبل إلا أن المنطقتين عامة ما تزالان من أقل مناطق المدينة جاذبية للنشاط الاقتصادي الاستثماري خاصة في قطاع التشييد والبناء، وتزيد متوسطات الدخول تدريجيا في اتجاه المنطقة الوسطى، حيث التجارة والأعمال والدخول والأجور المرتفعة، وفرص العمل المتاحة بنسبة أعلى من غيرها، خاصة في موسم الزيارة الذي يمثل النقطة العليا ـ خلال السنة ـ التي تصل إليها متوسطات الدخول بالنسبة لقطاع هام من جملة قوة العمل بالمدينة .

ز ـ المساكن والتزاحم في المدينة :

قدرت جملة مساكن المدينة المنورة في ١٩٧١م بنحو ٢٧ ألف مسكن، وإذا كانت جملة سكانها في نفس السنة ١٣٧ ألف تسمة فإن متوسط التزاحم بها يكون ٥٫٠٧ سخصا/مسكن، ويتفاوت هذا المتوسط تفاوتا بينا بين أحيائها، وربما تكون الأرقام السابق تقديمها عن توزيع سكان المدينة بين أحيائها وتفاوت كثافاتها السكانية تبعا لذلك ولغيره من العوامل قد أوضحت ـ ولو بصورة تقريبية ـ هذه الحقيقة، غير أن التفاوت بين أحيائها لا يقتصر فقط على متوسط التزاحم، بل يظهر أيضا في نمط المساكن السائد في كل منها، وفي حالته وصلاحيته، وفي عمره المقدر تبعا لمادة بنائه. ولما كان المتوقع بالنسبة لسكان المدينة يتلخص في احتمالات نموهم بمعدلات عالية خلال عقدي السنين القادمين (١٩٧١ ـ ١٩٩١م)، وفي ضرورات إعادة توزيع سكان المدينة بين أحيائها تلبية لأهداف التخطيط ومتطلبات التطور، فلا شك أن مثل هذه التغيرات ستشمل أيضا مساكن المدينة بآثارها، سواء من حيث توفير المساحات الضرورية لها لمواجهة النمو السكاني، أو من حيث أنماطها وارتفاعاتها ومادة بنائها، وهكذا

١ ـ توزيع المساكن حسب أنماطها :

تتعدد أنماط المساكن في المدينة المنورة حاليا بدرجة تفوق ما كانت عليه في الماضي القريب إلى حد كبير، ويتم التغير في الوقت الحاضر بمعدلات يحتمل أن يختفي معها وجه المدينة القديم، أو تتوارى مساكنها التقليدية في الأحياء الخلفية أو خلف العمارات العالية، ويبدو أن التخطيط الحالي لمساكنها قد أهمل ذلك الجانب الحضاري الإنساني الذي يمنح المدينة قدرا من تميزها، فرغم أن الخطة الكاملة Master-Plan لتطوير المدينة قد وضعت على أساس أدنى التوقعات السكانية، فإن بعض زواياها قد خططت باعتبار أن احتمال أعلى التوقعات قائم، مثل الاحتياجات العامة للطرق ، وتوقيع المساحات اللازمة لإنشاء المساكن، وتحديد متطلبات النمو الاقتصادي الرئيسية، وقد أدى ذلك إلى إهمال بعض النواحي الجمالية المتصلة بصميم شخصية المدينة المعمارية .

وقد أسفر حصر مساكن المدينة حسب أنماطها وطرزها في أحيائها المختلفة عن إبراز عدد من الحقائق المتصلة بحالتها وجودتها، فضلا عن المستوى الاقتصادي لسكانها. ويوضح الجدول الآتي تصنيف مساكن المدينة في منتصف ١٩٧١م حسب هذه الأنماط

(م ٦٧ ص ١٦١)

البيـــــان	الفيـــلات	مساكن شعبية	شقـــق	عشش وأكواخ	جملـــة
العـــدد	٥٠٠	٢١٠٠٠	٣٠٠٠	٢٦٠٠	٢٧١٠٠
نسبة التوزيع ٪	١,٧٠	٧٦,٤٠	١١,٩	١٠,٠٠	١٠٠

وتوضح الأرقام أن النسبة الكبرى من مساكن المدينة الحالية هي تلك التي تندرج تحت «مساكن شعبية»، وهي نوع من المساكن تعرف محليا بين السكان «بالمساكن العربية»، وهي

ذات طراز خاص مغلق تقريبا، حيث تطل معظم نوافذه على حوش داخلي، ويشغل المسكن منها عادة مساحة كبيرة، فهو في الغالب يضم عدة أسر بينها وشائج دموية حميمة Extended Family ، ويخلو عادة - حتى عهد قريب على الأقل - من الكهرباء والمياه والمجاري. وتكون مجموعة المساكن من هذا الطراز وحدة جوار Neihgbour h ood-units ، تفصلها عن غيرها حارة أو عدة حارات ضيقة تعرف محليا بالأزقة. وتأتي «الشقق» بعد هذا الطراز من حيث نسبة استيعابها لسكان المدينة، وهي أحدث بكثير منه، مرتبطة ببناء العمارات وارتفاع المسقط الرأسي للمدينة، معبرة عن الاتجاه المعاصر نحو تفتت الأسر الممتدة، واستقلال الأجيال الجديدة بمساكنها الخاصة، وتنتشر بوضوح حول المنطقة الوسطى، وعند هوامش المدينة، وعلى طول محاورها وشوارعها الجديدة، ومع ارتفاع أثمان أراضي البناء إلى أرقام يصعب تتبعها[٢١]، فقد أصبح بناء العمارات يمثل الحل الأمثل لمواجهتها، فضلا عن كونها وجها من وجوه الاستثمار ذات المردود المرتفع، خاصة مع ارتفاع إيجار الشقق إلى أرقام يصعب تتبعها أيضا[٢٢]. وتأتي «العشش والأكواخ» وغيرها من مستواها Shanties and others بعد الشقق من حيث نسبة استيعابها لسكان المدينة، وهي تمثل أقل مساكنها صلاحية وأقصرها عمرا، ويدل اسمها على مادة بنائها، وتتوزع بصفة أساسية عند هوامش المدينة كمساكن لبدوها نصف المستقرين، وفي قرى المدينة القريبة (العوالي، قربان، مشربة أم إبراهيم وغيرها) كمساكن لزراعها المتمسكين بمساكنهم القديمة قرب زراعاتهم. أما الفيلات فهي تمثل ذلك الطراز من المباني الذي يجمع بين المحافظة على التقاليد الخاصة بالمسكن (المسكن المنفرد)، وبين التجديد البادي في الطراز ومادة البناء والمرافق الحديثة، وهي سكنى الصفوة من السكان، حيث ترتبط بأعلى الدخول من بينهم .

ولا شك أن الاحتياج الدائم لتسجيل أعمار المساكن أو لمدى تحملها تجعل من الضروري التوصل إلى تحديد دقيق لمدة استخدام مساكن المدينة الحالية بناء على دراسة ميدانية واسعة لتواريخ إنشائها ومادة بنائها، وتبعا للتصنيف الحالي لمساكن المدينة إلى : «فيلات ، شقق ، مساكن شعبية، أكواخ وعشش»، فإن الدراسة تشير إلى أن عمر «الفيلا» يزيد عن ٢٥ سنة، وكذلك الأمر بالنسبة للشقق (العمارات) ، وتقل المساكن الأخرى عن ذلك كثيرا، خاصة تلك التي لا تستخدم الحجر أو الإسمنت، وتقتصر مادة بنائها على الخشب والصفيح، وقد لا يزيد عمرها عن ٣ سنوات .

ولذلك فقد تضمن التخطيط الحديث للمدينة على عناصر عديدة من بينها أنماط المساكن، ومادة البناء ، والتوزيع الجغرافي لكل نمط منها، والاستيعاب السكاني لها. وبالنسبة لأنماط المساكن المقترحة ، فهي تتلخص في «الفيلات الكبيرة» Large Villas ، والفيلات النمطية Standard Villas ، والإسكان المتوسط Medium cost housing ، والإسكان الشعبي Low cost housing ، والشقق Apartments . فهذه هي الأنماط الخمسة المقترحة. ورغم احتمال تغير هذه الأنماط تبعا للضرورات الطارئة أو الملائمة للأغراض المختلفة لاستخدام الأرض، فإن جملة الأهداف المرجوة من إعادة البناء يجدر أن تظل واضحة، وإعادة توزيع كثافة السكان بين مناطقها من ناحية ثانية، والالتزام بقواعد وشروط التخطيط المدني السابق بيانها من ناحية ثالثة . ويلخص الجدول الآتي المساحة المطلوبة لكل نمط منها بالهكتار/١٠٠٠ نسمة من السكان، والكثافة المفروضة لكل مساحة منها (نسمة/هكتار) تبعا لأنماطها .

نمط السكنى	الفيلات الكبيرة	النمطية	الاسكان المتوسط	الشعبي	الشقق	جملة
المساحة/١٠٠٠ نسمة	٦٢٫٥٠	١٥٫٦٢	٦٫٢٥	٣٫٦٢	٢٫٠٠	٨٩٫٩٩
الكثافة / هكتار	١٦	٦٤	١٦٠	٢٧٠	٥٠٠	-

وبداية يجدر أن توضح خطة إعادة البناء في صيغة لا تقوم فقط على مبادئ استخدام الأرض وتوزيع الخدمات الضرورية وغير ذلك من أساسيات التخطيط ومتطلباته، وإنما أيضا على مستويات تتفق مع التجمعات السكانية والقيم المجتمعية المتأصلة، تلك التي تمنح المدينة شخصيتها المتميزة. (م ٤٦) .

والواقع أن إعادة بناء مساكن المدينة على أساس الفيلات Villas والشقق Apartments ليس عسيرا، فضلا عن كونه اقتصاديا، وذلك بالنظر إلى طول مدة بقائها التي تميزها عن المساكن الحالية من العشش والأكواخ Shanties ، وهي فضلا عن رثاثتها قصيرة العمر، لا تسمح بمد شبكات المرافقة (المياه ، المجاري، الكهرباء)، فضلا عن تعارض امتداداتها الراهنة

مع متطلبات المدينة الراهنة من الطرق بأنواعها، اللازمة لحركة المرور الميكانيكي بها. ومن الضروري عند اللزوم تحسين وإبدال برامج الإسكان هذه تبعا للظروف المتغيرة، فليست الخطة إطارا جامدا، خاصة وأن التطورات المتلاحقة في مجال البناء والتنسيد تعطي في كل يوم أنماطا جديدة، سواء من حيث الطرز أو مواد البناء أو طريقته، وذلك حتى يمكن تفادي أخطر ما يواجه خطة من الخطط، وهي أنها لم تعد صالحة .

ويقتضي إعادة بناء المناطق الفقيرة أن يتم ذلك بشكل تدريجي وعلى مستويات عديدة، وحسب ظروف كل منطقة على حدة وضروراتها الخاصة، خاصة وأن معظم هذه المناطق تعد تاريخية، قد رسخ مجتمعها المحلي خلال القرون، وتشكلت أحياؤها على نسق وحدات الجوار Neigh-bour hood Units المميزة لخطة المدينة في العصور الوسطى، وهو نسق يتميز بالعلاقات الحميمة بين سكانه، وبالترابط الوثيق بين السكن والحرف (م ٧٤ ص ٢١٦)، والغالب أن يؤدي تجاهل هذا النمط السكني والمجتمعي إلى نتائج عكسية يجدر تفاديها .

٢ ـ تخطيط النمو السكني للمدينة المنورة :

كما سبقت الإشارة يرتبط تخطيط النمو السكني في المدينة المنورة بتوقعات نموها السكاني من ناحية، وبضرورات تطورها المعاصر من ناحية ثانية، مع عدم تجاهل شخصية المدينة المتميزة من أي من الناحيتين، ويوضح شكل (١٧) خطة المدينة عام ١٩٩١م، متضمنة اتجاهات استخدامات الأرض بها، وضرورات المواصلات بأنواعها منها وإليها. وقد وضعت الخطة في حدود استيعاب الحجم السكاني المتوقع بين ١٩٧١ ـ ١٩٩١م ، داخل منطقة امتداد مندمجة غالبا مع كتلتها الحالية، غير أنه نظرا لمشكلات الموضع المتمثلة في الحرات والوديان المتداخلة مع الكتلة السكنية فإن المساحات اللازمة للتوسع تبعا للخطة تقع على مسافة أبعد إلى الشمال والغرب من المدينة .

وقد روعيت المبادىء الأساسية الآتية عند وضع هذه الخطة :

- العمل على اتجاه أقسام المدينة نحو درجة من التخصص الوظيفي، بحيث تبرز المنطقة الوسطى كمركز للتجارة والأعمال بمستوى أعلى مما هي عليه ، وتتجه الأقسام الهامشية لتستوعب المزيد من السكان، خاصة المهاجرين والنازحين، مع مراعاة أهمية شبكة الطرق

الداخلية والخارجية في مدينة يحتمل أن يصل حجمها إلى نحو نصف مليون خلال أقل من عقدين من السنين .

- مراعاة النتائج السكانية الناجمة عن تغيرات التركيب الاجتماعي في المدينة، واتجاه حجم الأسرة للتناقص، والميل المتزايد نحو استقلال كل فرد بمسكنه، فضلا عن نتائج عامل الهجرة الخارجية إليها، والنزوح الداخلي إليها لسكناها من الريف والبادية .

- اعتبارات توزيع مراكز الخدمات بأنواعها ومستوياتها في أقسام المدينة المختلفة .

- تطوير مساكنها من حيث الطرز ومادة البناء، حيث إن نسبة كبيرة من مساكنها الحالية غير ملائمة لمتطلبات الحياة العصرية واحتياجاتها خاصة المجاري والمياه والكهرباء .

- تطور أثمان أراضي البناء واتجاهها الحالي للارتفاع بمعدلات عالية للغاية، وخاصة في مناطق المدينة الجذابة للسكنى .

ويلخص الجدول الآتي (م ٦٧ ص ١٤٨) جملة المؤشرات الرقمية التي اعتبرت بمثابة أساس للخطة، والمتصلة بتغيرات المنطقة المبنية Builtup Area بين ١٩٧١ ـ ١٩٩١م تبعا لعناصر السكان والمساكن والتزاحم (عدد السكان والمساكن بالألف) .

البيـــان	١٩٧١	١٩٧٦	١٩٨١	١٩٩١م	
				أدنى	أعلى
السـكان	١٣٧	١٥٤	١٩٩	٢٥٠	٤٥٠
المسـاكن	٢٧	٣١	٤٤	٦٢	١١٢
التزاحـم	٥٫٠٧	٥٫ ـ	٤٫٥٥	٤٫٠٤	٤٫٠٤

وهكذا فإنه تبعا لأدنى التوقعات فإن عدد مساكن المدينة سيزيد في ١٩٩١م بنسبة ٢٢٨٪ عما هو موجود منها في ١٩٧١م (٢٧١٠٠ مسكنا)، تزيد إلى ٤١٣٪ بالنسبة لأعلى التوقعات، وفي نفس الوقت يتوقع أن يهبط التزاحم عن مستواه الحالي ٥٫٠٧ سخص/للمسكن (وهي ثاني أدنى نسبة بين مدن المنطقة الغربية) إلى نحو ٤ شخص/للمسكن .

وإنه لمن العسير التوصل إلى تقدير دقيق لعدد المساكن التي يجب إحلالها خلال الفترة بين ١٩٧١ ـ ١٩٩١م تدريجيا، وذلك بسبب الافتقار للأرقام والمعلومات الضرورية، وحسب أعلى التقديرات السكانية في ١٩٩١م فإن المساكن المطلوبة لهؤلاء السكان آنذاك تبلغ ١١٤٥٥٠ مسكنا، ولأغراض حساب متطلبات المساكن في المستقبل فقد قدر أن هناك نحو ١٨٩٠٠ مسكن ستظل قائمة حتى ١٩٩١م (استبعد من هذا التقدير تأثير ونتائج العملية الراهنة نحو إزالة عدد كبير من المساكن القديمة المجاورة للمسجد النبوي مباشرة)، وبذلك فإن جملة المساكن المطلوبة تبلغ ١٠٥٦٥٠ مسكنا. أما حسب أدنى التقديرات فإن جملة المساكن المطلوبة يبلغ ٦٣٤٠٠ مسكن، تقل إلى ٤٤٥٠٠ مسكن بعد حذف جملة المساكن المتوقع بقاؤها (١٨٩٠٠ مسكن)، أي إن الاحتياج للمساكن يظل قائما ولكن في حدود أدنى بكثير .

وتختلف هذه التوقعات بالنسبة لأحياء المدينة الراهنة، ويلخص الجدول الآتي هذه التوقعات (العليا والدنيا) موزعة على أحياء المدينة في ١٩٩١م مقارنة بها في ١٩٧١م :

البيان / الأحياء	التوقعات الدنيا			التوقعات العليا		
	عدد المساكن	المساكن المطلوبة	التزاحم	عدد المساكن	المساكن المطلوبة	التزاحم
المنطقة الوسطى	٨٤٠٠	١٤٦٠	٣٫٨٧	٨٤٠٠	١٤٦٠	٣٫٨٧
الحرة الغربية وقباء . .	١٣٢٧٠	٦٢٠	٤٫٠٩	١٣٢٧٠	٦٢٠	٤٫٠٩
الحرة الشرقية . . .	١٧٦٠٠	١٣٣٥٠	٤٫٠١	١٧٦٠٠	١٣٣٥٠	٤٫٠١

(تابع) **الجدول السابق :**

البيان / الأحياء	التوقعات الدنيا			التوقعات العليا		
	عدد المساكن	المساكن المطلوبة	التزاحم	عدد المساكن	المساكن المطلوبة	التزاحم
سيد الشهداء . . .	١٤٤٩٠	١١٥٦٠	٤ر٠٤	١٤٤٩٠	١١٥٦٠	٤ر٠٤
سلطانة	٨٠٩٠	٧٧٩٠	٤ر٣٦	٨٠٩٠	٧٧٩٠	٤ر٣٦
شمال أحد	-	-	-	١٩٨٠٠	١٩٨٠٠	٤ر٠٤
الجامعة	-	-	-	١٧٧٦٠	١٧٧٦٠	٣ر٨٩
أبيار علي. . . .	-	-	-	١٢٣٥٠	١٢٣٥٠	٤ر١٣
جملة. . .	٦١٨٥٠	٣٤٧٧٠	٤ر٠٤	١١١٧٦٠	٨٤٦٨٠	٤ر٠٣

وبدراسة الجدول يمكن تبين بعض الحقائق والمظاهر المتصلة بالنمو السكني لأحياء المدينة :

- لا تختلف معدلات النمو في المناطق السكنية الحالية (الأحياء الخمسة الأولى في الجدول) في التوقعات الدنيا عنها في التوقعات العليا، حيث إن النمو بها سيضبط تبعا لأهداف الخطة، وستتزايد جملة مساكنها العامة بنسبة قدرها ١٢٨٪ (٣٤٧٧٠ مسكنا) عن جملتها في ١٩٧١م (٢٧١٠٠ مسكن)، وتتفاوت هذه النسبة فيما بينها تفاوتا له دلالته، حيث إن النسبة الكبرى من المساكن المطلوبة سوف يتركز في أحياء «الحرة الشرقية، سيد الشهداء، سلطانة» وهي تلك الأحياء الهامشية القليلة الكثافة، والتي سيتم توجيه النمو السكني إليها، أما «المنطقة الوسطى، الحرة الغربية وقبا» فستكون زيادة مساكنها بنسبة محدودة، لارتفاع كثافتها السكانية الحالية من ناحية، ولاعتبارات خلخلة المنطقة الوسطى بواسطة

شبكة من الشوارع العريضة من ناحية ثانية، وقد أخذت مظاهر التخطيط الحديثة طريقها إلى المنطقة الوسطى، خاصة المجاورة للحرم النبوى مباشرة، ولن يمنع ذلك مظاهر التكدس حاليا بها بسبب جاذبيتها الدينية والتجارية، وإن كان سيحد من تراكماتها ويقلل من آثارها الراهنة .

- يتحقق أعلى التوقعات من حيث النمو السكني باستحداث ثلاثة مناطق سكنية جديدة «شمال أحد ، الجامعة، أبيار علي» ، وستستوعب هذه المناطق عددا من المساكن قدره ٤٩٩١٠ مساكن ، أي بنسبة قدرها ٤٤ر٦٦٪ من جملة مساكن المدينة في ١٩٩١م حسب أعلى التوقعات، وهي نسبة عالية تدل أهمية الاتجاه نحو هذه المناطق ليس لتلبية احتياجات التوقعات العليا فقط، بل أيضا لسد احتياجات أدنى التوقعات أيضا .

- تتجه نسبة التزاحم للتناقص حسب أدنى التوقعات وأعلاها معا، ولأن المناطق المستحدثة سوف تستوعب الزيادة السكانية المفترضة حسب أعلى التوقعات، وجملتها (٢٠٠ ألف نسمة) ، فليس هناك فارق يذكر في متوسط التزاحم بين التوقعات العليا والدنيا، والملاحظ أن المنطقة الوسطى ستظل خلال عقدي السنين القادمين من أقل أحياء المدينة تزاحما للأسباب السابق ذكرها، وسيشارك حي «الجامعة» المستحدث في هذه الخاصية، حيث المنتظر أن يكون هذا الحي الأخير منطقة فيلات سكنية عالية المستوى .

٣ ـ الهجرة والاحتياجات السكنية :

وعند وضع مثل هذه التقديرات لا بد من حساب عامل الهجرة إلى المدينة المنورة خاصة من العناصر غير السعودية، حيث يبدو الاحتياج للمساكن بالنسبة لها مرتفعا للغاية، ولما كانت هذه التيارات ستزداد امتلاء خلال عقدي السنين الآتيين ـ كما سبقت الإشارة ـ فإن تدبير المساكن اللازمة لمثل هذه الأعداد يبدو ضروريا، حيث إنها ستوفر نسبة هامة من قوة العمل التي يتطلبها التطور الاقتصادي المعاصر في المدينة المنورة، ويوضح الجدول الآتي هذه الاحتياجات التي تخص العناصر غير السعودية بين ١٩٧١ ـ ١٩٩١م :

البيـــــان	مســـاكن السعوديين	مساكن غير السعوديين	جملـــة
أعلـــى التقديرات أدنـــى التقـديرات	٧٣٥٥٠ ٥١١٥٠	٣٨٤٥٠ ١٠٨٥٠	١١٢٠٠٠ ٦٢٠٠٠

أي إن هذا الجدول تفصيل للاحتياجات العامة من المساكن السابق تحديدها، وتبدو أهميته في توضيح مدى الاحتياج للمساكن بالنسبة للعناصر غير السعودية المتوقع قدومها وإقامتهـا في المـدينة خلال الفترة المحددة، وهـي تصل إلى نحو ٣٤٫٣٣٪ بالنسبة لأعلى التوقعات ، وإلى ١٧٫٥٠٪ بالنسبة لأدناها، فإن وصول المـدينة إلى حجمهـا تبعـا لأعلى التوقعات إنما يعتمد بصفة أساسية على تيارات النازحين إليها من الخارج، وبذلك فالمتوقع أن تتركز هذه العناصر غير السعودية في الأحياء المستحدثة «شمال أحد ، أبيار علي ، الجامعة» خاصة في الأولين، ومع تنفيذ شبكة الشوارع المحيطة بالمدينة والمخترقة إياها فلن يكون ثمة صعوبة تعترض حركة الأيدي العاملة من مناطق سكنها هذه عند هوامش المدينة إلى مراكز أعمالها في المنطقة الوسطى أو غيرها من المناطق .

جـ ـ موسم الحج ونتائجه بالنسبة لسكان المدينة المنورة :

يمثل موسم «الحج» عاملا خاصة للغاية بالنسبة لتغيرات سكان المدن ذات المكانة الدينية، وتعني خصوصيته اقتصار نتائجه على مجموعة معينة من المدن من ناحية، وخلال فترة محددة أو أكثر من السنة من ناحية ثانية، وخلال هذه الفترة قد تتحول هذه المدن ـ من زوايا عديدة ـ إلى غير صورتها المعروفة بقية السنة، وتتوقف درجة التحول والتغير على أهمية المدينة الدينية وحجم حجاجها من جهة، وعلى أهمية موسم الحج والزيارة بالنسبة لسكانها من جهة أخرى، وبغض النظر ـ مؤقتا ـ عن الزاوية الاقتصادية لهذه الأهمية فإن التغيرات السكانية المؤقتة تعد من أهم النتائج المرتبطة بفترة الحج والزيارة، حيث يزيد حجم المدينة، ويختلط تركيب

سكانها بتركيب الوافدين عليها، وقد تتحول نسبة من سكانها عن أعمالهم الأصلية الى أخرى متصلة بخدمة الوافدين في مستويات شتى، كما قد تترك نسبة أخرى منازلها وشققها الواسعة إلى أخرى ضيقة في المدينة أو خارجها لكي يقيم بها الوافدون بدرجة تزاحم عالية غالبا، وتشتد حركة المرور في السوارع من المارة والآليات إلى غير ذلك من المظاهر السكانية الدالة على زيادة حجم المدينة السكاني .

أما من الزاوية الاقتصادية فإن وضوح آثارها وأهميتها تتباين من مدينة دينية لأخرى، حسب موقع الموسم من اقتصادياتها عامة، ودرجة انتشار نتائجه بين قطاعاتها السكانية المختلفة، ونسبة العاملين من سكانها في نواحي الخدمات المتصلة به، وحجم الإنفاق المرتبط بالزيارة داخل المدينة ذاتها وتوزيعه على مجالاتها إلى غير ذلك من العناصر. (م ٥٦) .

وبالنسبة «للمدينة المنورة» فإن فترة الحج المقررة إلى «مكة» هي ذاتها فترة زيارة «المدينة» باستثناء أيام الحج ذاتها التي قد تخلو أثناءها المدينة المنورة من زوارها الذين يكونون في «مكة المكرمة» وما حولها من أماكن تتصل بأداء شعائر الحج. والمعروف أن فترة الذروة في موسم الزيارة إلى المدينة المنورة قبل أيام الحج مباشرة وبعدها مباشرة, غير أن الواقع أن هناك مواسم زيارة أخرى خلال السنة مرتبطة بتواريخ معينة خلال السنة الهجرية، أو متصلة بتواريخ خاصة ذات أهمية معينة لجماعات من المسلمين، غير أنها لا تقارن من حيث عدد الزوار أو أهميتهم بالنسبة للمدينة بما يوضحه التشكل المذكور الخاص بموسم الحج إلى «المدينة المنورة». وعلى أي الأحوال فإن الارتباط بين «مكة، والمدينة» في معظم هذه الفترات يعد عاليا، إذ نادرا ما تتم زيارة إحداها دون الأخرى، اللهم إلاّ بالنسبة لسكان المملكة والمقيمين فيها، الذين قد يزورون مدينة دون الأخرى باعتبار أن لديهم من الفرص ما يسمح بزيارة أي من المدينتين أكثر من مرة. وقد أتاحت دراسة الحج عام ١٩٧٣م (م ٣٠) بعض المعلومات المتصلة بما يمكن تسميته بجغرافية الحج للمدينة المنورة، وفيما يلي أهم النتائج التي يمكن استخلاصها من أرقام هذه الدراسة

١ ـ بلغت جملة عدد الحجاج الذين زاروا المدينة المنورة نحو المليون في موسم حج ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣م)، ينقسمون إلى حجاج من خارج المملكة بنسبة ٦٦٫٤٠٪ (٦٣٦ ألف شخص) ، وحجاج سعوديين ١٧٫٤٧٪ (١٦٧ ألفا)، وحجاج من المقيمين داخل المملكة من

غير السعوديين ١٦٫١٧٪ (١٥٥ ألفا)، فتكون جملتهم على وجه التحديد ٩٥٨ ألف شخص. (م ٣٠ ص ٥) .

وتشير الدراسة إلى أن معظم القادمين للحج من الخارج (٩٩٪ منهم) قد قاموا بزيارة المدينة المنورة، وقد زارها قبل الحج نحو ٤٠٪ منهم، وقام بالزيارة بعده ٤٨٪ ، وأدت النسبة الباقية ١٢٪ الزيارة قبل الحج وبعده أيضا، وبالنسبة للحجاج السعوديين والمقيمين بالمملكة من غير السعوديين فإن زيارتهم للمدينة لا ترتبط مع موسم الحج فقط، حيث يحضر معظمهم إليها أكثر من مرة في غير أوقاته .

٢ ـ وقد اختلفت وسائل القدوم إلى المدينة من فئة إلى أخرى، وكذلك داخل الفئة الواحدة لاعتبارات شتى، فقد وصل معظم المقيمين بالمملكة (سعوديون وغيرهم) إلى المدينة عن طريق البر بوسائله المختلفة (السيارات الخصوصية والتاكسيات ٦١٪ ، الأتوبيسات واللواري وغيرها ٢٨٪)، أما النسبة الباقية فقد وصلت عن طريق الجو، أما القادمون من الخارج فقد وصل ٥٠٪ منهم إلى المدينة بالجو، وقدم نحو ٣٠٪ بطريق البر، أما النسبة الباقية ٢٠٪ فقد وصلت بطريق البحر، ولا شك أن اختلاف جهة القدوم وراء هذا التنوع في استخدام وسائل المواصلات لزيارة المدينة .

وتتيح مثل هذه الأرقام والبيانات إمكانية دراسة الطاقة الاستيعابية لوسائل النقل المختلفة من وإلى المدينة المنورة، وتطوير كل منها بحيث تناسب عدد الزوار الحالي والمحتمل، وتظهر في المدينة الحالية بعض الاختناقات المتصلة بمواصلات المدينة، لعل أهمها بالنسبة لها توفير المساحات اللازمة لوقوف السيارات التي قد يصل عددها إلى عشرات الألوف في ذروة الموسم، ولا يمكن أن تتناسب طاقة المدينة الحالية على استيعاب المزيد منها دون توفير التجهيزات المناسبة، ويجد زائر المدينة بعض المشقة عند زيارة أماكن معينة يود رؤيتها أثناء وجوده، إما لعدم وجود مواصلات كافية ومناسبة ومنتظمة، أو لارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيراً جداً خاصة في موسم الحج(٢٣)، وتحتاج كل هذه التفصيلات إلى تنظيم للفئات والأسعار، كما يجدر توسيع مداها بحيث تشمل المدينة ومنطقتها، تلك التي تزخر بكل ما هو محبب لنفس زائر المدينة، فضلا عما تمنحه إياه رموزها ومعانيها من دفقات معنوية تربطه بالمدينة، وترفع من احتمالات تكرار زيارته لها. وفي هذا المجال يمثل الخط الحديدي ـ المتوقف ـ والذي يربط المدينة

بالحجاز، وشمال المملكة وبالشام كله وتركيا (سكة حديد الحجاز ـ الشام)، والذي تمثل محطته النهائية في ميدان العنبرية الرئيسي دعوة لإعادة إحياء الخط الذي يمكن أن ييسر زيارة المدينة لجملة سكان المناطق الذكورة التي يمر بها، ليجوسوا خفافا في أنحائها دون آليات فضلا عن رخص المواصلات الحديدية عامة، وليس ما ذكر سوى نماذج محدودة لزوايا من موضوع المواصلات من وإلى داخل المدينة ذاتها، وهي وإن أبرزت المشاكل التي تواجهها فهي قد أوضحت ـ بدرجة ما ـ أيضا ما يمكن أن يحققه حل هذه المشاكل ومواجهتها تنظيميا من مزايا اقتصادية تعود للمدينة ذاتها، وتنعكس في راحة زوارها مجيئا وعودة .

٣ ـ وقد اتضح أيضا من الدراسة المذكورة أن الغالبية العظمى من الحجاج زوار المدينة (٨٥٪) قد سكنوا أثناء مدة إقامتهم بها في غرف قاموا باستئجارها في الفنادق أو من أصحاب المساكن في المدينة، وأن نسبة منهم تقدر بما بين ٣ ـ ٤٪ قد أقاموا في المخيمات، بينما توزع الباقون بين أنواع أخرى من المساكن، هي غالبا مساكن أصدقاء أو أقارب لهم من سكان المدينة ذاتها .

ويمكن القول بشكل عام: إن هناك مناطق معينة يفضلها الحاج الزائر عن غيرها، والمعروف أن المنطقة الوسطى من المدينة التي تحيط بالحرم النبوي أكثر اجتذابا من غيرها من المناطق لزوار المدينة، حيث يتركز بها وحدها ٥٥٪ من جملة الزائرين، وهي بالفعل منطقة الفنادق الرئيسية فضلا عن المساكن التي يخصصها أصحابها بأكملها لإقامة الزوار خلال موسم الزيارة، فضلا عما يحوطها من أجواء روحانية فياضة بحكم وجود المسجد الشريف بها، وإمكان قضاء الفروض في أوقاتها دون عناء، ويقل عدد الزوار تدريجيا في اتجاه هوامش المدينة، حتى لتخلو بعض أجزائها تماما من أي زوار حتى في ذروة موسم الزيارة. والمتوقع أن تختفي هذه الصورة من التركز تدريجيا مع زوال أسبابه، حين يصبح الوصول من هوامش المدينة إلى قلبها ميسورا في دقائق، مع إتمام شبكة الشوارع الداخلية العريضة التي تصل بينها، خاصة وأن هذه الشوارع ستصبح بمثابة المحاور الحديثة لنمو المدينة، واتساع خدماتها ومرافقها المتصلة بخدمة زوارها، خاصة من الفنادق والمطاعم وغيرها .

٤ ـ تراوحت مدة إقامة معظم زوار المدينة أثناء موسم الحج بين ٧ ـ ١٠ أيام وذلك بالنسبة للزيارة التي تسبق الحج أو تليه ، ولقد بلغ متوسط مدة الزيارة قبل

الحج (١٠ أيام) وبعده (٨ أيام) ، ويتضح من المجموع اليومي لعدد الحجاج القادمين إلى المدينة أثناء فترة الذروة قبل الحج وبعده، وقد فاق عددهم ٢٠٠ ألف حاج خلال أي يوم بين ٢٥ ذي القعدة و٢٥ ذي الحجة، وبلغ عددهم أقصاه (٢٧٦٢٧٥ شخصا) يوم ٢٠ ذي الحجة. والمعروف أن هذا الشهر هو موسم الزيارة الرئيسي للمدينة المنورة .

وقد أوضحت الدراسة أن إقامة الحجاج الآسيويين أطول من الحجاج الإفريقيين، وأن الأخيرين يبقون مدة أطول من الحجاج العرب، ومن جهة أخرى فإن حجاج البحر كانوا يميلون للإقامة مدة أطول من حجاج البر، وأن إقامة حجاج الجو هي أقصر مدة إقامة .

ولا شك أن مدة الزيارة وعدد مراتها خلال السنة وللفرد الواحد تتجه جميعها للزيادة في المدينة المنورة، شأنها في ذلك شأن عدد الزوار.

والثابت أن للمدينة تقاليدها الراسخة في استقبال زوارها وتهيئة الظروف المناسبة لهم خلال فترة إقامتهم، غير أن اتساع مدى الزيارة وحجم الزائرين قد يفرض على المدينة في المستقبل القريب مقياسا يختلف عما تتبعه فنادقها ومنازلها المعدة لاستقبال الزوار من إجراءات واستعدادات في الفترة الراهنة، فالواقع أن جاذبية المدينة للزوار متصاعدة بمعدلات كبيرة، خاصة مع شبكة مواصلاتها الجيدة بجميع مدن المملكة، ومع إنشاء مطارها الحديث لاستقبال زوارها من الخارج، ومع ما ينتظر ميناء «ينبع» من انتعاش قريب ، وهكذا فإن المدينة قد تستقبل خلال أقل من عقدين من السنين ما لا يقل عن ٢ مليون من الزوار سنويا من خارج المملكة، وقد تترابط زيارة نسبة هامة منهم مع زيارتهم «لمكة المكرمة» أثناء موسم الحج، غير أن المرجح أن تتزايد نسبة زوار المدينة في غير موسم الحج، وان تطول فترة إقامتهم بها، خاصة وأن ما يحيطها من ذكريات العهد الإسلامي الأول، ومن أريج ديني متميز متداخل في صميم شخصيتها وتركيبها، قد جعل لها مكانتها الخاصة في قلوب زوارها، فضلا عن رغبتهم في البقاء بها أطول فترة ممكنة. لكل هذ الأسباب الموضوعية والنفسية يبدو أن المدينـة تتهيأ للدخول في مرحلة تختلف عما سبقها ـ من حيث المقياس ـ بالنسبة لمدى الزيارة وجملة الزوار، وأن هذه المرحلة تتطلب الاستعداد لها مسبقا بما يناسبها من تجهيزات دون أن تفقد المدينة طابعها الخاص، ذلك أن الواضح ـ حتى الآن ـ أن مواجهة هذه الزيادة في حجم الزوار ومدة الزيارة تتم دون تنسيق وتبعا لمبادرات متفاوتة الكفاءة، غير أن إنعاش اقتصاديات المدينة

باستثمار مزاياها العميقة هذه، وما يمكن أن يمثله ذلك لسكانها ، قد يكون مبررا ـ ضمن مبررات أخرى ـ لمواجهة أكثر تنسيقا وتكاملا مما يجرى الآن .

٥ ـ ويقوم الحاج زائر المدينة بالإنفاق على مختلف الجوانب الحياتية أثناء فترة إقامته، بالإضافة إلى نفقات أخرى تتصل بالوصول إلى المدينة والعودة منها، وأخرى مما تدخل في باب النفقات غير المنظورة أو التي لا تدخل تحت بند واضح من بنود الإنفاق. ويبين الجدول الآتي معدلات الإنفاق (بالريال) للحجاج الوافدين من الخارج .

البيان	الطعام	السكن	التنقلات	واجبات العبادة	هدايا شخصية	جوانب أخرى
قبل الحج	٥٢	٧١	٨	١٣	٣٣١	٩٩
بعد الحج	٤٢	٥٦	٨	٥	٣٠٢	٥١

ولا توضح الدراسة ـ وهذا من عيوب بياناتها ـ حجم الوحدة التي تتحمل وهل هي أسرة (متوسط عدد أفرادها ؟) أم هي مجموعة محددة ؟ أم هى نفقات الفرد الواحد ؟ وما هي طول الفترة التي تحتاجها هذه النفقات ؟ والغالب أنها ـ تبعا للمعلومات الشخصية ـ تمثل نفقات الفرد الواحد لمدة أسبوع، علما بأن الأسعار قد ارتفعت بنسبة تتراوح بين ١٠٠ ـ ٢٠٠٪ بالنسبة لبنود الإنفاق هذه بين عام ١٩٧٣م حين أجريت هذه الدراسة والوقت الحاضر، على أية حال فإن الأرقام المذكورة تبين أهمية الزيارة بالنسبة لانتعاش سوق التجارة الداخلية في المدينة، حيث يمثل بند «هدايا شخصية» أهم وجوه الإنفاق خلالها، حيث يقبل الزوار على الشراء بركة وذكرى، وربما لإحساسهم بأن الأسعار أقل نسبيا في المدينة من غيرها، ثم إن لهذه الزيارة ـ خاصة مع الأعداد الكبيرة للزائرين ـ أهميتها أيضا بالنسبة للفنادق والمطاعم والمواصلات وغيرها من وجوه الإنفاق التي تأتي تحت «جوانب أخرى»، والغالب أن نفقات

واجبات العبادة أكبر مما هو مذكور، لأن الحاج الزائر قد يتحرج من ذكر هذه النفقات كاملة ولا يجد مبررا لإعلانها .

هذا وتحدد الدراسة ان جملة ما أنفقه الحجاج من خارج المملكة يزيد عن (٣٣١) مليون ريال، وأن أكثر من ثلثي هذا المبلغ أنفق في شراء الهدايا الشخصية، غير أن المعروف أنه مهما بلغت دقة وسائل استقصاء تفصيلات الإنفاق وجملته ـ والمرجح أنها أكبر مما ذكر بكثير ـ فالمؤكد أن ما ينتظر المدينة في المستقبل القريب من هذه الناحية هو بمقياس أكبر بكثير مما هو عليه الآن، ليس فقط لاحتمال زيادة مدى الزيارة ومدتها ومراتها، تلك التي تشير معدلاتها الحالية إلى استمرار زيادتها بنسبة متصاعدة، ولا شك أن ما يمثله ذلك بالنسبة لاقتصادياتها إنما يندرج تحت إطار الموارد الذاتية للمدينة، وهي تلك الموارد المرتبطة مع خصائصها كمدينة متميزة، وهي تختلف في نتائجها بالنسبة للمدينة عن تلك الموارد التي تصب في أسواقها ومدخراتها، من حيث كونها تمنح اقتصاديات المدينة رسوخها وصلابتها، وتمدها ببعض عوامل نموها واستمرارها .

جدول (١)

توزيع السكان بين مستقرين ورحل ، وعدد المسميات في مناطق المملكة الادارية (١٩٧٤)

البيان / المنطقة	جملة السكان نسمة	نسبة التوزيع ٪ رحل	مستقرون مدن رئيسية	مدن صغيرة وريف	عدد المسميات السكانية
الرياض	١,٢٧٢,٢٧٥ر١	٢٤,٠٩	٥٢,٤١	٢٣,٥٠	١٩٩٢
مكة المكرمة	١,٧٥٤,١٠٨ر١	١٣,٧١	٦٤,٥٨	٢١,٧١	٤٠٨٨
المنطقة الشرقية	٧٦٩,٦٤٨	١٠,٣٢	٤٣,١٧	٤٦,٥١	٦٦٧
عسير	٨٦١,٣٦١	٣٦,١٧	١١,٧٠	٥٢,١٣	٤٥٩٧
المدينة المنورة	٥١٩,٢٩٤	٤٥,٦٦	٣٨,١٦	١٦,١٨	١٧٤٢
جيزان	٤٠٣,١٠٦	٣,٩٦	٨,١٣	٨٧,٩١	٤٥٣٧
القصيم	٣١٦,٦٤٠	٣١,٩٦	٢٢,٠٨	٤٥,٩٦	٥٠٩
حائل	٢٥٩,٩٢٩	٥٤,٩١	١٥,٥٨	٢٩,٥١	٥٤٠
تبوك	١٩٣,٧٦٣	٤٥,٦١	٣٨,٦١	١٥,٧٨	٤٧٢
الباحة	١٨٥,٩٠٥	١٥,٥٥	-	٨٤,٤٥	١٢٩٦
نجران	١٤٧,٩٧٠	٣٨,١٣	٣٢,٠١	٢٩,٨٦	٢٤٢
الحدود الشمالية	١٢٨,٧٤٥	٦٦,٦٨	-	٣٣,١٤	١٣٠
الجوف	٦٥,٤٩٤	٤٧,٩٤	-	٥٢,٠٦	٨٥
القريات	٣١,٤٠٤	٤١,٣١	-	٥٨,٦٩	٩٨
بادية الحدود	٢١٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠	-	-	-
جملة	٧,٠١٢,٦٤٢	٢٦,٨٧	٣٨,١٥	٣٥,٩٨	٢٠٩٨٥

ـ الجدول من إعداد الباحث، مصدر الأرقام: تعداد١٩٧٤ لسكان ومساكن المملكة العربية السعودية .

(١) تشمل جملة السكان ٧٣ ألفا من السعوديين في الخارج (٠٤ر١٪) من جملة السكان .

(٢) المدن الرئيسية : هي التي يزيد حجمها عن ٣٠ ألف نسمة .

(٣) المدن الصغيرة: يقل حجمها وحدها (دون مسمياتها) عن ٣٠ ألف نسمة .

جدول (٢/أ) القرى والملكيات والمساحة المزروعة

البيان / المنطقة	الشرقية	الرياض وعفيف	القصيم	حائل	الشمالية	المدينة	مكة	عسير	الباحة	جيزان	نجران	بيشة ورانية	الجملة
عدد القرى	١١١	٣٧٤	٢٨٤	٢٤١	٩٥	٢٤٦	٢٤٢٣	١٣١٧	٩٦١	١٤٠٦	٧١	٢٥٨	٧٨٠٥
عدد الملكيات	١١٣٧٢	٩٦٦٨	٦٦٩٥	٦٦٤٥	٢٦٥٥	٧٨١٥	٣٧٠٠٠	٣١٣٠٢	١٩٥٣٤	٣٤٨٠٢	٢٣٨٩	١٠٩١٢	١٨٠٧٨٩
محاصيل مؤقتة	١١٥٩	١٩٨٦٠	١٧٣٠١	٢٤١٨	٧٩	١٤٩٤	٢٨٥٦٣	١١٦٩٥	٣٦٨٤	٣٨٧٣٠	٢٣٩٣	٦٣٦٩	٤٨٢٤٦
محاصيل دائمة	٥٨١٨	١٥٢٠٤	٣٧٤٥	٣٢٥١	٥١٩	١٣٣٨	٤٢٤٥	٢٠٩	٣٠٤	٣٦	٦٧٣	٧٣٦٨	٤٢٧٠٩
جملة	٦٩٧٧	٣٥٠٦٤	٢١٠٤٦	٥٦٦٩	٥٩٨	٢٨٣٢	٣٢٨٠٨	١١٩٠٤	٣٩٨٨	٣٨٧٦٦	٣٠٦٦	١٣٧٣٧	٥٢٤٧٥٥

المصدر : خطة التنمية الثانية ١٩٧٥ ـ ١٩٨٠م ـ ١٣٩٥ ـ ١٤٠٠هـ ص ١٨٢ .

جدول (٢/ب) توزيع الأراضي المزروعة حسب مصدر الري (المساحة بالدونم)

البيان / المنطقة	الأراضي المروية بالآبار			الأراضي المروية		جملة عامة
	عدد الآبار		جملة المساحة	بالعيون	بالأمطار	
	إرتوازية	عادية				
الشمالية	٤٦	٧٣٨٥	٨٣٧٦٨	٤٠٣١	١٦٨٨٣	١٠٤٦٨٢
المدينة	٣٣	٣٠٢١	٢٧٨١٧	١٢٦٢١	٤٣٨١	٤٤٨١٩
مكة	٣٠	٣٥٣	٤٢٩٠	٥٨٩٠	٢٤٩٢٩٠	٣٥٩٤٧٠
الطائف	٨٥	٧٥٤٤	٦٥٢٦١	٣٢٢	١٠٦٥٨٤	١٧٢١٦٧
القصيم	٣٩٥٨	٩٥٨	٣٠٩٥٩١	٧٨٧٠	٢١٧٤	٣١٩٦٣٥
الوسطى	٥٢٢	٦٧٨٧	٤٩٨٨٩٠	٥٠٩٨	١١١٤٠	٥١٥١٢٨
الجنوبية	-	٣٠٨٧٧	٢٧٢٤٨٩	١١٤٧	١٠٨٣٢٧	٣٨١٩٦٣

المصدر: شعبة الاحصاء والاقتصاد الزراعي بوزارة الزراعة (لم ترد أرقام المنطقة الشرقية).

(جدول ٣)

تصنيف التجمعات السكانية حسب الحجم (١٩٧٤)

المنطقة	جملة المسميات السكانية	تجمعات السكان أمارات وأمارات تابعة	تصنيف التجمعات السكانية (أمارات وأمارات تابعة)								
			٢٥ +	٢٠ ـ	١٥ـ	١٠ـ	٥ ـ	٢ر٥ ـ	١ ـ	٠ر٥ ـ	أقل من ٥٠٠ نسمة
الرياض	١٩٩٢	١١٢	٦	١	٤	٨	١٠	١٨	١٥	١٤	٣٥
مكة المكرمة	٤٠٨٨	٩٠	٢	٢	٣	١٤	١٦	٢٩	١٣	٤	٤
المنطقة الشرقية	٦٦٧	٣١	٣	٥	١	٢	٩	٣	٣	١	ـ
عسير	٤٥٩٧	٣٩	٧	٤	٦	٨	١٠	١	١	ـ	ـ
المدينة المنورة	١٧٤٢	٤٥	١	ـ	٥	٣	١٥	٩	٨	١	٢
جيزان	٤٥٣٧	٢٩	٤	٣	ـ	٦	٥	٦	٣	١	ـ
القصيم	٥٠٩	٨٢	١	ـ	ـ	٢	١٣	١١	٢٧	١٦	١١
حائل	٥٤٠	٢٠	١	١	٢	٥	٧	٣	ـ	ـ	ـ
تبوك	٤٦٢	٢٦	ـ	١	ـ	٢	٥	٧	٤	٥	٢
الباحة	١٢٩٦	١٦	٢	ـ	١	٥	٤	٢	١	١	ـ
نجران	٢٤٢	٢٦	ـ	ـ	ـ	١	٨	٧	٩	ـ	ـ
الحدود الشمالية	١٣٠	١٦	١	ـ	١	٣	٥	٣	١	١	١
الجوف	٨٥	١٢	ـ	ـ	ـ	١	٣	٢	٣	١	١
القريات	٩٨	١٧	ـ	ـ	ـ	١	ـ	٣	٢	٤	٧
جملة	٢٠٩٩٥	٥٦١	٢٨	١٧	٢٣	٦١	١١٠	١٠٤	٩٠	٤٩	٦٣

١ ـ الجدول من إعداد الباحث .

جدول (٤) توزيع السكان بين أحياء المدينة (١٩٧١م) وتوقعاتها الدنيا والعليا (١٩٩١م)

البيان / الأحياء	السكان ١٩٧١	التوقعات الدنيا		التوقعات العليا		نسبة التوزيع ٪	
		السكان	نسبة النمو٪	السكان	نسبة النمو٪	أدنى	أعلى
المنطقة الوسطى	٣٤٢٠٠	٣٢٤٥٠	(٥ر١٢)	٣٢٤٥٠	(٥ر١٢)	١٢ر٩٨	٧ر٢١
الحرة الغربية وقبا	٦٤١٥٠	٥٤٣٤٠	(١٥ر٢٩)	٥٤٣٤٠	(١٥ر٢٩)	٢١ر٧٤	١٢ر٠٨
الحرقة الشرقية	٢١٨٠٠	٧٠٥٢٠	٢٢٣	٧٥٢٠	٢٢٣	٢٨ر٢٢	١٥ر٦٧
سيد الشهداء	١٤٨٣٠	٥٨٦٠٠	٢٩٥	٥٨٦٠٠	٢٩٥	٢٣ر٥٥	١٣ر٠٢
سلطانة	١٥٢٠	٣٤٠٠٠	٢١٣٧	٣٤٠٠٠	٢١٣٧	١٣ر٦١	٧ر٥٦
شمال أحد	-	-	-	٨٠٠٠٠	١٠٠	-	١٧ر٧٨
الجامعة	-	-	-	٦٩٠٠٠	١٠٠	-	١٥ر٣٤
أبيار علي	-	-	-	٥١٠٠٠	١٠٠	-	١١ر٣٤
الجملة	١٣٦٥٠٠	٢٤٩٩١٠	١٨٣	٤٤٩٩١٠	٣٣٠	١٠٠ر٠٠	١٠٠ر٠٠

* الجدول من إعداد الباحث، ومصدر الأرقام (Medina Master Report)

جدول (٥) المدن الرئيسية في المملكة (٣٠ ألف+) ١٩٧٤م

البيان / المدينة	الحجم نسمة	نسبة التوزيع: مستقرون	نسبة التوزيع: رحل	البيان / المدينة	الحجم نسمة	نسبة التوزيع: مستقرون	نسبة التوزيع: رحل
الرياض	٦٦٦٨٤٠	٩٩ر٧٧	٠ر٢٣	بريدة	٦٩٩٤٠	٩٩ر١٨	٠ر٨٢
جدة	٥١٦١٠٤	٩٩ر٩٨	٠ر٠٢	المبرز	٥٤٣٢٥	٩٩ر٩٠	٠ر١٠
مكة	٣٦٦٨٠١	٩٩ر٧٨	٠ر٢٢	خميس مشيط	٤٩٥٨١	٩٩ر٩٨	٠ر٠٢
الطائف	٢٠٤٨٥٧	٩٩ر٥٧	٠ر٤٣	الخبر	٤٨٨١٧	٩٩ر٧٧	٠ر٢٣
المدينة	١٩٨١٨٦	٩٩ر٨٨	٠ر١٢	نجران	٤٧٥٠١	١٠٠ر٠٠	-
الدمام	١٢٧٨٤٤	٩٩ر٦٧	٠ر٣٣	حائل	٤٠٥٠٢	٩٩ر٣٧	٠ر٦٣
الهفوف	١٠١٢٧١	٩٩ر٦٧	٠ر٠٢	جيزان	٣٢٨١٢	١٠٠ر٠٠	-
تبوك	٧٤٨٢٥	٩٩ر٨٩	٠ر١١	أبها	٣٠١٥٠	٩٩ر٧٨	٠ر٢٢

ملحوظة:

(١) جملة سكان المدن الرئيسية ٢ر٦٧٥ر٣٠٩ نسمة، بنسبة ٣٨ر١٥٪ من جملة سكان المملكة .

(٢) الجدول من إعداد الباحث ، مصدر الأرقام: إحصاء السكان ١٩٧٤م .

جدول (٦)

توزيع قوة العمل في المدن الرئيسية بالمنطقة الغربية (النسبة مئوية)١٩٧١م

البيان / المدينة	الخدمات	التجارة	التشييد	النقل	الصناعة	التعليم	المرافق	حرف أخرى	جملة
جـدة	٤٢٫٩١	١٦٫٠٨	١٥٫٤٤	١١٫٥٩	٧٫٠١	٢٫٦٢	٢٫٠٠	٢٫٣٥	١٠٠
مكة المكرمة	٤٩٫٠٦	١٣٫١٠	١٢٫٤١	٨٫١٠	٢٫٤٧	٥٫١٦	١٫٢٧	٨٫٤٣	١٠
المدنية المنورة	٤٦٫٥٠	١٥٫٧٥	٧٫٩٠	٦٫٦٧	٢٫٨١	٧٫٨٧	٢٫٦٥	٩٫٨٥	١٠٠
الطـائف	٥٦٫٥٩	١١٫٨٥	٦٫٧٩	٧٫٨٥	١٫٥٩	٧٫١٠	١٫٦٨	٦٫٥٥	١٠٠
ينبع	٥١٫٨٤	٩٫٩١	٤٫٩٩	١٦٫٩٢	٩٫٤٥	١٫٠٠	٥٠ر	٥٫٣٩	١٠٠
تبـوك	٦٩٫٧٢	٥٫٠٠	١٥٫٢٧	٤٫٢٩	٠٫٥١	١٫٠٣	٠٫٣٤	٣٫٨٤	١٠٠

المصدر: جداول المسح الاجتماعي الاقتصادي للمنطقة الغربية (١٩٧١م).

الحواشي

(١) أجرى في شعبان ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م)، وتشير مقدمته إلى كونه تعدادا شاملا للسكان بالمملكة، وإلى إمكانية توافر البيانات (لم تصدر بعد) عن تركيب وخصائص السكان بها، وتحليل معدلات الإسهام الاقتصادي الإقليمي، وتكوين العمالة حسب الفئات المهنية والنشاط الاقتصادي، فضلا عن جداول الهجرة والتحضر وغير ذلك (م ٢٥ ص ٣) .

(٢) صدر قرار بتقسيم المملكة إلى مناطق إدارية في ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م (مرسوم رقم ١٢) ، وبه انقسمت إلى مناطق فأمارات على أساس العامل الجغرافي وعدد السكان وظروف البيئة ووسائل المواصلات (م ١٧ ص ٩٦) .

(٣) أبعاد الحجاز ٧٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب، ٢٥٠ ميلا من الشرق إلى الغرب في المتوسط (والحجاز سلسلة جبال السروات الممتدة من اليمن إلى الشام حاجزة بين نجد وتهامة. فما سال من المياه غربا ينصب فى تهامه، وما سال شرقا ينتهي في نجد، أما ما اشتملت على الجبال من مدن وقرى فهو حجازي). م٦ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩.

(٤) هناك تقدير آخر يصل بجملة المساحة المزروعة بها إلى ٤٤٨١٩ دونما (م٢٤ سنة ١٩٧٤م) .

(٥) مصدر أسماء القرى الواردة في هذه الدراسة الإحصاء العام للسكان (١٩٧٤)، وكتاب «إمكانية التنمية الزراعية في المملكة العربية السعودية»، تأليف حسن حمزة حجرة، ووزارة الزراعة والمياه، ثم المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية لعلي بن صالح السلوك الزهراني، والخريطة الطبوغرافية ١ : ٥٠٠ ألف (أ ب ـ ٣) وتقارير أخرى .

(٦) كان لمشروع إنعاش بادية الشمال أثره في تحسين الأحوال المعيشية في هذه القرى .

(٧) تعد فئة الحجم هذه أكثر تكرارا من غيرها، حيث يتجمع بها نحو ٣٤٪ من جملة عدد التجمعات السكانية بالمنطقة .

(٨) «مكة تهامية ـ أما المدينة والطائف فحجازيتان» عن «الأصمعيات» تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٥٥م .

(٩) نشرت في يوليو ١٩٦٣م (م ٤٥ ص ٢٢٤) .

(١٠) لقد كان نمو المدن السعودية سريعا ومفاجئا، فامتصت في فترة وجيزة من الزمن أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة الذين أقاموا بها واستوطنوها، والواقع أنه لم تعد بالبادية إلا أعداد قليلة جدا في المنطقة الشمالية (م ١٢ ص ٢٦) .

(١١) يستوعب قطاع الخدمات نسبة قدرها ١٢٫٤٪ من جملة قوة العمل بالمملكة في ١٩٧٥م (١٫٥٢٢ مليون عامل)، وهي تزيد عن ذلك كثيرا في مدنها ، حيث تصل في «الرياض» إلى (٤١٫٤٪) من جملة قوة العمل بها، وبريدة (٤٤٫٥٪)، حائل (٥٥٫٧٪) ، الخرج (٥٤٫٤٥٪)، الرس (٥٢٫٦٪)، القريات (٦٣٫٦٪)، عرعر (٥٢٫٨٪)، جدة (٤٢٫٩١٪)، مكة (٤٩٫٦٪)، الطائف (٥٦٫٥٩٪)، ينبع (٥١٫٨٤٪)، تبوك (٦٩٫٧٢٪). م ٢٦ تقارير عديدة .

(١٢) تستوعب التجارة بمستوياتها وأنواعها نسبة قدرها ١٣٫٩٪ من جملة قوة العمل بالمملكة، أما قطاع التشييد والبناء فيستوعب نسبة أعلى قدرها ٢٠٫٦٪ (١٩٧٥م) نفس المرجع السابق .

(١٣) تعد نسبة النوع مختلة لصالح الذكور في بعض المدن البترولية بالمملكة في حدود بين ٥ إلى ١٥٪ .

(١٤) المقصود بقوة العمل جملة الأفراد الذين يمكنهم المساهمة في إنتاج السلع والخدمات، سواء منهم الذين يساهمون فعلا في ذلك أو الذين يقدرون على أداء العمل ويرغبون فيه أو يبحثون عنه. (م١٣ ص ١٩) .

(١٥) ارتفع عدد المدارس الابتدائية في المملكة من ٨٤٢ إلى ١٨٤٢ بين ٦٠/٧٣م عدا ٥٨٧ مدرسة ابتدائية للبنات، كما تزايد عدد تلاميذها وتلميذاتها من نحو ١٢٣ ألفا إلى ٥١٤٧١٣ بين ٦٠/١٩٧٣م (م ٣١ جداول عديدة) .

(١٦) تزايد عدد المدارس فوق الابتدائية (المتوسطة والثانوية) من ١٣٠ إلى ١٢٥ مدرسه، كما ارتفع عدد تلاميذها من ١٨٦٤٩ إلى ١٢٦٠٥٠ خلال نفس الفترة، (م ٣١ جداول عديدة) .

(١٧) تبلغ عدد الجامعات في المملكة الآن (٥) جامعات ظهرت جميعها بعد ١٩٦٠م، بالإضافة إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .

(١٨) تعتمد دراسة قوة العمل على نتائج البحث الديموجرافي ١٩٦٦م، ونتائج تحليل مصلحة الإحصاءات العامة والبيانات والتي جمعتها الوزارات المختلفة لأعمالها الخاصة وتقرير خطة التنمية الثانية ١٩٧٥م، ومخطط المنطقة الغربية وأرقام المسح الاقتصادي الاجتماعي ١٩٧١م .

(١٩) بلغت جملة قوة العمل الرعوية في ١٩٧٠م نحو ١٣٤ ألف نسمة (١ر١٢٪) من جملة قوة العمل بالمملكة، تناقصت إلى نحو ١١٥ ألف نسمة (٥ر٧٪) من جملة قوة العمل، والمتوقع أن تقل في عام ١٩٧٠ إلى نحو ٩٩ ألف نسمة (٢ر٤٪) من جملة قوة العمال المتوقعة .

(٢٠) المرجح أن متوسطات الدخول قد تجاوزت هذه الأرقام بكثير صعودا منذ نهاية ١٩٧٣م .

(٢١) قد يصل ثمن المتر من أراضي البناء في المنطقة الوسطى إلى نحو ١٠ آلاف ريال سعودي .

(٢٢) قد يصل إيجار الشقة المتوسطة في المنطقة الوسطى إلى نحو ٥٠ ألف ريال سعودي سنويا .

(٢٣) قد تصل أجرة المواصلات لرحلة لا تزيد مسافتها عن بضعة كيلومترات خارج المدينة إلى عدة مئات من الريالات .

المصـــادر

المصادر العربيــة :

١ ـ أبوبكر متولي : «تخطيط المناطق وأهميته للمملكة العربية السعودية «مجلة الاقتصاد والإدارة، مركز البحوث والتنمية، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، العدد الأول، رجب ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

٢ ـ أحمد إبراهيم الشريف : «مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م .

٣ ـ جمال حمدان: «المدينة العربية»، من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٤م .

٤ ـ حسن حمزة حجرة: «إمكانية التنمية الزراعية في المملكة العربية السعودية»، وزارة الزراعة والمياه، الرياض ، بدون تاريخ .

٥ ـ حمد الجاسر : «بلاد ينبع ... لمحة تاريخية جغرافية»، الرياض، بدون تاريخ .

٦ ـ عبدالله محمد خميس : «المجاز بين اليمامة والحجاز»، من منشورات دار اليمامة (رقم ١٣)، الرياض، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م .

٧ ـ عبدالجليل الطاهر : «البدو والعشائر في البلاد العربية»، معهد الدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٥م .

٨ ـ عزة النص: «أحوال السكان في العالم العربي»، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٥٥م .

٩ ـ على بن صالح السلوك الزهراني: «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية»، منشورات دار اليمامة (رقم ١٥)، الرياض .

١٠ ـ عمر رضا كحالة: «جغرافية شبه جزيرة العرب»، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٤٥م .

١١ ـ محمد إبراهيم حسن: «سكان الوطن العربي»، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، الجزء الأول، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٦٥م .

١٢ ـ محمد أيوب: «هجرة البدو إلى المدن ـ وأثرها في الإنتاج الحيواني والزراعي بالمملكة العربية السعودية»، مجلة الرائد العربي ، نوفمبر ١٩٦٢م .

١٣ ـ محمد صبحي عبدالحكيم: «الموقف السكاني في الوطن العربي»، مجلة السرق الأوسط، مركز بحوث السرق الأوسط، جامعة عين شمس، العدد الثاني ١٩٧٥م .
١٤ ـ محيى الدين صابر: «التغير الحضارى وتنمية المجتمع في العالم العربي»، سرس الليان، ١٩٦٢م .
١٥ ـ مصطفى كمال العيوفي: «مصادر المياه الأرضية في البلاد العربيه»، مركز تنمية المجتمع في العالم العربي، سرس الليان، رقم ٢، ١٩٧٣م .
١٦ ـ مكي الجميل: «البدو والبداوة في البلاد العربية»، مركز تنمية المجتمع في العالم العربي، سرس الليان، ١٩٦٢م .

المطبوعـات والتقارير :

١٧ ـ الموسوعة الحديثة للمملكة العربية السعودية، الـدار العـربية للموسوعـات، القاهـرة، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م .
١٨ ـ الهيئة العامة للكتاب: (دائرة المعارف الإسلامية) ، القاهرة ـ بيروت ، جـ ٦ (بدون تاريخ) .
١٩ ـ الهيئـة المركزية للتخـطيط: «تقـرير الهيئـة المركزية للتخـطيط»، الـرياض، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .
٢٠ ـ مركز الأبحاث والتنمية الصناعية: «دليل الاستثمار الصناعي في المملكة العـربية السعودية»، جدة ، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .
٢١ ـ مؤسسة النقد العربي السعودي: «دائـرة الأبحـاث الاقتصـادية، التقـرير السنـوى (١٥ عددا)، بين ١٣٨١ ـ ١٣٩٥هـ، ١٩٦١ ـ ١٩٧٥م .
٢٢ ـ وزارة المالية والاقتصاد الوطني (مصلحة الإحصاءات العامة): «نتائج حصر المؤسسات لعام ١٣٩١هـ في المنطقة الغربية»، ١٣٩٣هـ .
٢٣ ـ وزارة المالية والاقتصاد الوطني: «النتائج العامة لحصر المؤسسات السامل في المدن الرئيسية بالمملكة العربية السعودية» ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .

٢٤ ـ وزارة المالية والاقتصاد الوطني: «الكتاب الإحصائي السنوي» (عشرة أعداد من ١٣٨٥ ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٦٥ ـ ١٩٧٤م .
٢٥ ـ وزارة المالية والاقتصاد الوطني «النتائج الأولية لتعداد السكان والمساكن للمملكة العربية السعودية» ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .
٢٦ ـ وزارة الداخلية (شئون البلديات) ـ الإدارة العامة لتخطيط المدن والمناطق : «مخطط المنطقة الغربية»، إعداد: روبرت ماتيو، جونسون مارشال وشركاهم ... استشاريون، ١٩٧١م .
٢٧ ـ وزارة الداخلية (شئون البلديات) «المسح الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة الغربية»، ١٩٧١م .
٢٨ ـ وزارة الداخلية (شئون البلديات) (روبرت مانيو، جونسون مارشال وشركاهم) «المنطقة المركزية بالمدينة المنورة» ١٩٧٤م .
٢٩ ـ وزارة الداخلية (شئون البلديات) (روبرت ماتيو، جونسون مارشال وشركاهم) ـ «شمال المدينة المنورة»، ١٩٧٤م .
٣٠ ـ وزارة الداخلية (شئون البلديات) «مسح حركة الحج في المدينة المنورة عام ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م، التقرير النهائي ، يوليو ١٩٧٤م .
٣١ ـ وزارة المعارف (مركز المعلومات الاحصائية والتوثيق التربوي) ـ شعبة المعلومات الإحصائية: «المفكرة الإحصائية»، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م .

المراجـــع الأجنبيـــة :

32 - Abolo, A. S, (A Geographical Study of Transportation in Saudi Arabia .. With Special Refrence to Road Transport , (Unpublished PH. D Thesis) Univ. of Durham , 1969
33 - Alexander, J.W (The Basic-Non Basic Concept of Urban Economic Function) in Readings in Urban Geography, ed. by Harold M. Mayer and Clyde F. Kohan , Univ. of Chicago Press, 1965.
34 - Arnold Toynbee (Cities on the Move), Oxford, 1970
35 - Asfour, E. Y (Saudi Arabia. Long Term Projections.of Supply and Demand for Agricultural Products Sections 111,3,IV,1 Appendix C.
36 - Awad N. (Settlement of Nomadic and Semi Nomadic Tribal Groups in

Middle East) Cairo, 1959.
37 — Bergel E. Egon (Urban Sociology), MC — Graw Hill Book Company York, 1955.
38 - Berger M (ed) (The Arab World) London, 1962
39 — (BNEC Comitte for East Trade), The Market for Household in Saudi Arabia (A Report Prepared by Industrial Export Survey for the BNEC Comitte.
40 - B.P Fitzgerald, T.A Evrson (Insid the City...) Concepts in Geography (3), Longman, London, 1972
41 - Biblap Dasgupta (The Changing Role of the Major International Oil Firms) Jour. of the MiddleEast, Middle East Research Center, Ain Shams Univ. vol. 2. 1875.
42 - Borch, K.H. (The Economics of Uncertainly) Princeton, 1968
43 - Breeze G. (Urbanisation in Nearly Developing Countries) U.S.A 1966.
44 - Chauncy D. Harris and, Edward L, (The Natur of Cities), in, Readings in Urban Geography), 1965, pp. 239 - 279
45 - Clarke J.I, W.B Fisher. (Population of the Middle East and North Africa), Univ. of London Press, 1972
46 - Colin Clark (Population Growth, Landuse) New York, 1968.
47 - David J. Burdan, (Ground Water Resources of Saudi Arabia

(المنظمة العربية التربية والعلوم والثقافة ، سلسلة الدراسات العلمية الموسعة ، رقم ٢ ، ١٩٧٣) .

49 - David K, Boulton, Kathleen G. Pickett (Migeration and Social Adjustment, Liverpool Univ. Press, 1974
50 - Eldan Rutter, (The Holy Cities of Arabia), London Putnam's, 1928
51 - Ernest W. Burgess (The Growth of the City) in, (The City, ed. Robert E. Pork, Chicago Univ. Press, 1952
52 - Finnie D. H, (Recruitment and Training of Labour in the Middle East Oil Industry) (M.E.J., vol. 12) 1959.
53 G. A. Harrison, A. J. Boyce (eds) (The Structure of Human Popoulation), Clarendon Press, Oxford, 1972
54 - Henry Rosehfeild (From Peasantry to Wage Labour and residual Peasnatry), (Peoples and Cultures of the Middle East), 1969, pp. 143-169.
55 - Holler J. E, (Population Growth and Social Change in the Middle East) Washington, 1964.

56 - Hourani A. H, (ed) (The Islamic City) Paper Deliverd at the meeting of the Near Eastern History Groups , Oxford, 1965
57 - Isard, W. (Location and Space Economy), London, 1968.
58 - James M. Beshers (Urban Social Structure) The Free Press, New York , 1969.
59 - J. John Palen (The Urban World), Mc-Graw Hill Book Company , New York , 1975.
60 - Kneedler G.M. (Functional Types of Cities) Public Management, XXVII (July, 1945) PP. 192 - 203.
61 - Leo. F. Schnore (The Urban Scene) The Free Press, New York , 1965.
62 - Leon Borden Blair (Western Windo in the Arab World) Univ. of Texas ress, 1970.
63 - Leonard Rissman (The Urban Process), New York , 1968.
64 — Lipsky, G (Saudi arabia, its People, its Cultures, New Haven, 1959.
65 - Louise E. Sweet, (People and Cultures in the Middle East, ed) , 2. vol., New York , 1969.
66 - Mallakh R. Economic diversification is Key to Progress) Emergant Nations, 2, PP. 54 - 60
67 - Mattews. R. and Marshall J. and Partners Consultants (... Medina... Master Plan Report ..) 1973.
68 - Paul R. Ebrlich (and Others) Human Ecology .. Problems and Solutions, San Francisco, 1973.
69 - Philip Ragan (Industrial Functions and Community rogress, Harvard Review (Novemeber - December) 1952.
70 — R. MC—Groger (Saudi Arabia Population and the Making of a Modern State), in, (Population of the Middle East and North Africa), ed. by (Fisher, Clarke). PP. 220 — 241.
71 - Ragheb, I, (Patterns of Urban Growth in the Middle East), U.N. Burea of Technical Assistence Operations, and Bureau of social Affaires and Government of U. S. A., Working Paper.8.
72 - R. N. Morris (Urban Sociology) London , 1968.
73 - R. P. Beckinsale and J.M. Housten (eds) Urbanisation and its Problems, Oxford, 1970
74 - Russle .J. Cox (Medivial Regions. Their Cities, Indian Univ. Press, 1972
75 - Stewart, C.T (The Size and Spacing of Cities) Geog. Rev, 1958, PP. 222 - 245.

76 — T. G MC — Gee, (The Urbanisation Procass in the Third Woorld) London, 1971

77 - Topographic Map of the Arabian Peninsula, Compiled by the U.S. Beological Survey, 1972. 1:4000

78 - U. Ratcliff Richard (Demand for Non-Residentail Space), Urban Land Economics, MC Graw Hill Book Company , New York , 1949

79 —UNESCO, (Cultural Patterns and Technical Change) Edited by (Margret Mead), Paris , 1953

80 - U.N., Demographic Yearbook, 1976.

81 - U. N. (The International Yearbook and Statesmen' Who's Who. London , 1960, - 1976.

82 —U.N. (Growth of the World's Urban and Rural Population), 1920 —2000, New York, 1969.

مدينة صفاقس العتيقة
نمط عمراني متناسق

دكتور محمود قدورة

مقدمـة :

ينكب العديد من البحاثة الجغرافيين في هذا العصر على دراسة المدن القديمة ومميزاتها، والدوافع في ذلك كثيرة :

- حبا في معرفة التراث المعماري القديم، وذلك بدراسته من كل الجوانب ولو كان متداعيا ومنهارا، وهى عودة الإنسان إلى أصالته، ورغبة منه في التعرف على حضاراته التي انقرضت .
- التعرف على الحالة الراهنة لأبنية التراث القديم، لتنميتها والمحافظة عليها من التدهور والتهديم .
- البحث على النمط العمراني المتبع في هذا التراث المتداعي، لدراسته وتطبيقه إن صلح في تشييد الأحياء العمرانية الجديدة .

وما ننوي القيام به في هذه الدراسة المتواضعة لمدينة صفاقس العتيقة يندرج في سياق النقطة الأخيرة، ألا وهو مدى قابلية النمط العمراني القديم للاستعمال والتطبيق في العصر الحاضر .

أولا : بعض الظواهر الجغرافية وتشكيل التركيب الداخلي للمدينة :

إن موقع مدينة صفاقس على ساحل البحر وعلى الطريق الرئيسية رقم وحّـد الرابطة بين شمال وجنوب البلاد التونسية، وجعل من هذه المدينة مصرا حيا منذ أكثر من عشرة قرون خلت ، فهي باتصال دائم وسهل مع المدن الأخرى كسوسة وتونس وقفصة وقابس، وتحتفظ بعلاقات تجارية عريقة يرجع الفضل فيها إلى مينائها المشهور وظهيرتها الثرية والمتكونة من غابات الزيتون والأشجار المثمرة. فاختيار مثل هذا الموقع الجغرافي ضمن لسكان المدينة، منذ نشأتها إلى اليوم عيشهم وازدهار صناعتهم وتجارتهم. ومما ساعد أكثر على إرساء قواعد المدينة، وضمن لها البقاء على مر السنين موضعها على ربوة صغيرة، يبلغ ارتفاعها ١٨ مترا، ويحدها شرقا البحر وغربا منطقة سهلية منبسطة تنحدر انحدارا بطيئا نحو البحر .

وقد انتصبت المدينة العتيقة على هذه الربوة العالية الطرفين والمنبسطة الجوانح، وكان لها بذلك موضع دفاعي وصحي في نفس الوقت :

* دفاعي ، إذ يتسنى لسكان المدينة رد هجوم الأعداء بأسهل ما يكون، سواء كانت من البحر أو من الأرض وذلك لوجودها في أعلى نقطة في المنطقة ، وعلى ساحل البحر أيضا .

* وصحي، إذ إن وجود انحدار هام نحو البحر ساعد على تطهير المدينة بصفة طبيعية، وذلك في مرحلة أولى، ثم بواسطة شبكة قنوات التطهير في مرحلة ثانية ، وعلى وجه التحديد في بداية هذا القرن .

وإن اتسعت رقعة مدينة صفاقس اليوم، واكتسح عمرانها الأراضي الفلاحية المجاورة(١) فالقلب الخافق لهذا المصر بقي المدينة العتيقة، أو «البلاد العربي» كما يسميها عامة الناس التي ما زالت محفوظة داخل سورها الأغلبي المنيع(٢)، ومصانة من حسن حظها وعلى العكس من مدينة تونس من أعمال الهدم والتخريب .

وإلى جانب الدور الأساسي الذي يلعبه العامل الجغرافي (الموقع والموضع) في بقاء المدينة إلى اليوم، فإن تشكيل التركيب الداخلي للمدينة الذي يختلف كثيرا عن الأنسجة العمرانية الحديثة يعد هو الآخر عنصرا فعالا وذا أهمية بالغة في استمرارية الحياة في المدينة .

فلو ألقينا نظرة فاحصة على نسيج المدينة الأوروبية أو الرومانية عامة لوجدنا أن هذا النسيج يتميز بأبنيته الشاهقة الضخمة ذات نوافذ خارجية عريضة كاشفة، وبأنهجه وشوارعه الطويلة والمستقيمة الزوايا، وبتركيب داخلي للمدينة موزع حول ساحة فسيحة استراتيجية (ساحة قصر البلدية Place de l'Hotel de Ville)، فهو بالمقارنة لأنسجة عمرانية أخرى نسيج «فضفاض ومفتوح» إن صح التعبير، غير متلاحم مع بعضه البعض، وهذا من شأنه أن يخلف تأثيرات اجتماعية ونفسية سيئة: كالتفرقة الاجتماعية والطبقية وعدم الطمأنينة، والتعب، وتشنج الأعصاب .. إلخ[٣]

وبالطرف المقابل نجد المدن العربية الإسلامية كمدينة فاس والجزائر ودمشق وتونس والقيروان وصفاقس، التي تختلف اختلافا كليا عن المدن الرومانية، وتمتاز خاصة بنسيجها العمراني الكثيف والدقيق الترابط، والذي يتجلى في عدة مظاهر تشكيلية فريدة من نوعها. من بين هذه المظاهر، واعتمادا على مدينة صفاقس العتيقة نذكر ما يلي :

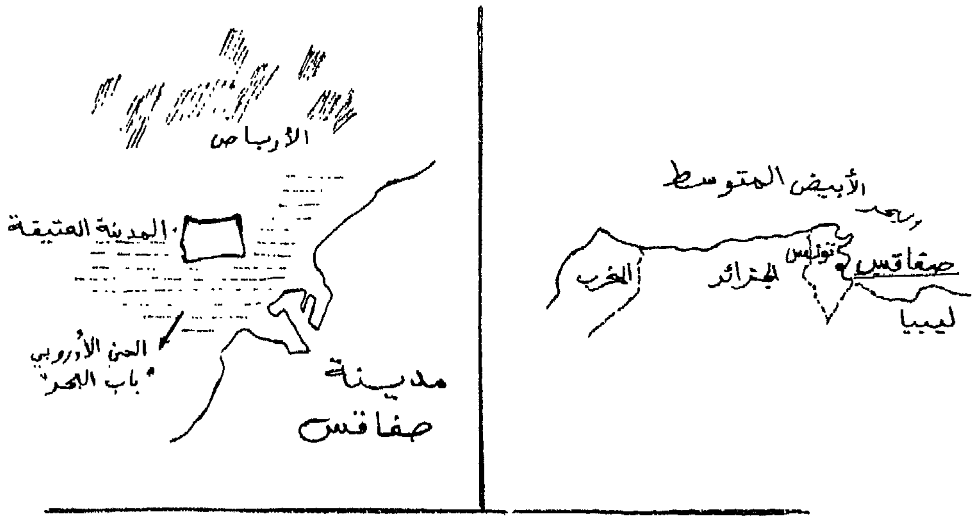
١ ـ خصائص البناءات ومدى انسجامها :

تقدر المساحة المبنية داخل مدينة صفاقس ب ١٨ هكتارا من مجموع ٢٤ هكتاراً، أي ما يساوي ٧٥٪ تقريبا، وهي نسبة مرتفعة جدا إذا قارناها بنسب المدن الغربية الحديثة، والتي لا تتجاوز الـ (٥٠ أو ٦٠) في المائة وكثافة البناءات هذه المقترنة بكثافة المتساكنين: ١١٠٠٠ ساكن حسب التعداد العام للسكان سنة ١٩٧٥ «أفقية متلاصقة» بعيدة كل البعد عن هندسة العمارات الحديثة التي هي «عمودية ومنفصلة» .

ويمتاز هذا التصميم لبناءات المدينة بحجمه المتواضع:

ـ طول البيت (أو الدار) لا يتجاوز ٢٠ مترا .
ـ وارتفاعه لا يتجاوز ١٠ أمتار، (أي بيت ذو طابق وقلّ ما يصل إلى طابقين) .

وباستعمال مواد بناء محلية كالحجارة والجير والتراب، وهي مواد متوفرة بكثرة في جهة صفاقس ، وتكسب البناء صلابة وقوة، وبانتصاب البناءات الواحدة حذو الأخرى بصفة تكاد تكون عفوية دون اكتراث لتسويتها أو توحيد أشكالها وارتفاعها، محدثة بذلك انسجاما طبيعيا وجميلا .



تشكيل التركيب الداخلي : أفقي متلاصق

1- منظر أمامي



2- منظر علوي



فبمثل هذا التركيب الشكلي للمدينة الذي ليس فيه مجال للأبنية الشاهقة، باستثناء المآذن وصومعات المساجد التي لا تخل بالمنظر العام للمدينة بل تزيده توازنا وانسجاما، تبقى بناءات المدينة خاضعة لنظر الإنسان، وينظر إليها دون عناء أو تكلف، عوض عن أن يخضع نظر الإنسان إليها لو كانت شاهقة وضخمة .

٢ ـ الأنهجة والطرقات :

تبدو لنا الأنهجة والطرقات في المدينة العتيقة فوضوية التنظيم، وغير صالحة لمرور السيارات. ولكن لو نظرنا إليها من ناحية التنظيم الوظائفي الأول لأدركنا أن أنهج المدينة هي غير ما يعتقده عامة الناس فهي:

أ ـ مرتبة ترتيبا تدريجيا من الزقاق الضيق الذي يفضي إلى المساكن؛ إلى النهج الذي يسلكه كل الناس في تنقلاتهم وأعمالهم ، ثم الى الساحة (كساحة الرماد أو ساحة النعمة) التي يتجمع فيها الناس والتي هي بمثابة سوق أسبوعية .

أما فيا يخص عرض الأنهج الذي يتراوح بين مترين وأربعة أمتار قلما يصل إلى ٥ أو ٦ أمتار والذي يحول دون مرور السيارات ، فالسبب في ذلك يعود إلى تخصيص المدينة للراجلين فقط، هذا مما يساعد في التحام أفراد المجتمع الواحد وإبقائهم باتصال دائم مع بعضهم حتى في الطريق. ويدعم كذلك وحدة النسيج العمراني للمدينة وتماسكه وتخصيص الأنهج للراجلين يفسر لنا أيضا سبب التواء هذه الأنهج وقلة المسالك المستقيمة فيها، فالغاية من ذلك هي أولا للترويح على الراجل الذي يريد أن ينتقل بين أحياء المدينة: الطريق الملتوية يقطعها الراجل بارتياح ودون أن يشعر بطولها، أما الطريق المستقيمة فهي مملة وتطول على قاطعها .

ب ـ للتهوية والحفاظ على رطوبة الطقس خصوصا في فصل الصيف، إذ لو كانت الطريق مستقيمة لذهبت رطوبة الطقس التي تنزل في الليل مع أول مجرى هواء صباحي .

٣ ـ البيوت وتنظيمها الداخلي :

إن التصميم الأفقي لبيوت المدينة ـ أو «الديار» كما يسميها أهل صفاقس ـ لا يشكل أي حاجز في استغلال أرض المدينة استغلالا محكما واقتصاديا كما يصعب تصوره لبعض

الباحثين. ولإدراك ما نقول نذكر هذه الأرقام الموضحة، والتي تخص كثافة البيوت في مدينة صفاقس الكبرى .

- كثافة البيوت فى نسيج عمراني نوع «فيلا مستقلة» ٢٠ بيتا فى الهكتار.
- كثافة البيوت فى نسيج عمراني نوع عمارات عمودية ٤٠ بيتا فى الهكتار .
- كثافة البيوت فى نسيج عمرانى نوع المدينة العتيقة ٧٠ بيتا فى الهكتار .

ويلاحظ الناظر لبيوت المدينة أنها منغلقة على نفسها، ولا تتمتع بتهوية كافية والحقيقة أن البيوت بتنظيمها الداخلي على عكس ما نعتقده في أول وهلة، إذا إن أفقية البناء ساعد على تخصيص فضاء داخلي بكل بيت غير مسقف، وهو ما يسمى بالصحن، يقوم بوظائف التهوية والإنارة والتشميس. أما انغلاق البيوت على نفسها، وقلة النوافذ التي تفتح على الطريق العام، فذلك من شأنه أن يكسب البيت حرمة وتسترا ويساعدان أهل البيت على القيام بوظائفهم دون أي حرج أو مراقبة خارجية .

إذن يتبين لنا من خلال ما تعرضنا له في دراسة التركيب الداخلي لمدينةصفاقس أن هذه المدينة تختلف كثيرا في تصميمها وتشييدها عن سائر المدن الحديثة، هذه المدن التي نراها اليوم في كل قطر من أقطار العالم وحتى في بلادنا العربية الإسلامية، محيطة بالمدن العتيقة، ومهددة إياها بالانقراض(٤) .

والسبب في هذا الاختلاف العمراني المتباين نحدده مبدئيا بأن مدينة صفاقس ـ كغيرها من المدن العربية الإسلامية ـ ليست نتيجة عمل فني بحت تحدده الأرقام وقواعد الفن المعماري الحديث (كتوحيد المقاييس، واستعمال العناصر المسبقة الصنع في البناء على سبيل المثال) بل هي أولا وأساسا نتيجة الأنشطة التي يتعاطاها أفراد المجتمع في شتى مجالات حياتهم اليومية ، بشقيها الخاص والعام، وبما فيها من عمل وسكن وثقافة وعبادة وتنقل على الأقدام وتجمع في الأسواق والساحات.

كل هذه الانشطة البشرية المستوحاة من الحضارة العربية الإسلامية ـ كما سنرى ذلك فيما بعد ـ هي التي تقرر التخطيط العام للمدينة، وتؤثر بصورة عميقة في تشكيل التركيب الداخلي فيها .

٢ ـ وظائف المدينة وتنظيمها :

ترتبط وظائف المدينة أساسا بمقومات الحضارة الإسلامية ومدى تطلع الإنسان المسلم لتلبية رغباته المادية والروحية في نفس الوقت. وقد حدد الكثير من الدراسين للمدينة الإسلامية هذه العلاقة بين المدينة والحضارة القائمة آنذاك، وعبروا عنها بقولهم :

«إن المدينة الإسلامية هي انعكاس نظام عقائدي واجتماعي وثقافي، لا ينحصر في حياة المجموعة فحسب، بل يتعداها ويؤثر في تخطيط المدينة نفسها» (بامات حيدر)[٥] .

يرتكز التخطيط العمراني الإسلامي على أربعة عناصر هامة :

- معطيات دفاعية .
- ضروريات الحياة الدينية .
- الأنشطة الاقتصادية: الصناعات التقليدية والتجارة .
- طريقة الحياة الاجتماعية .

وليس من الغريب أن تتواجد هذه العناصر الأربعة مع بعضها في تخطيط المدينة. (محمد الباهي)[٦] .

وتمثل مدينة صفاقس اليوم وبكل وضوح نموذجا للمدينة الإسلامية الأصيلة[٧] التي استمدت كل وظائفها الحضرية من الثقافة الإسلامية وتميزت بتنظيم مجالي يتماشى ومعطيات هذه الثقافة. وذلك يتضح مما يلي :

١ ـ إعطاء الأولوية للوظيفة الدينية والثقافية :

في مدينة صفاقس اليوم ٧ جوامع كبيرة،وما لا يقل عن عشرين مسجدا وزاوية. فيحصل لنا إن لم نأخذ بعين الاعتبار المساجد التي أزيلت على مر السنين معدل جامع ومسجدين لكل ألف وخمسة مائة ساكن من سكان المدينة العتيقة. وهذه نسبة هامة جدا ليس لها مثيل في الأحياء الأوروبية المجاورة. والمجال الديني في المدينة هو المجال الذي له أكثر سيطرة وتواجد من بين المجالات الأخرى، فالجامع الذي كان يعد المدرسة الأولى للمجتمع نراه موجودا في

كل الأحياء للمدينة ومتميزا بموقعه الاستراتيجي الذي تنفذ إليه كل المسالك والطرقات، وبساحة كبيرة تحيط به أو تجاوره. وأوضح مثل لذلك الجامع الكبير الذي يتوسط كل المدينة وتغطي مساحته قرابة ٢٠٠٠ متر مربع، (أي ما يعادل مساحة ٣٠ مسكنا تقريبا) .

وإن خصت الوظيفة الدينية والثقافية بكل هذه الاهمية في تخطيط المدينة فذلك طبيعي في المجتمع المسلم، إذ إن كل أفراد المجتمع يترددون على بيوت الله في كل يوم من أيام السنة وفي كل أوقات النهار لأداء فريضة الصلاة من ناحية وتلقي تعاليم دينهم الحنيف من ناحية أخرى، وأخيرا لفض مشاكلهم وكل أمور دنياهم، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو قانونية إلى غير ذلك .

فالجامع أو المسجد هو «المركز الأول للمجتمع»، يلتقي فيه أفراد المجتمع، ويتعبدون فيه ويدرسون فيه، ويقررون فيه أهم أعمالهم الحياتية (في الحرب والسلم وفي الداخل وفي الخارج) قبل الشروع في إنجازها وتنفيذها .

فبهذه الاعتبارات تتضح لنا الأولوية التي أسندت للوظيفة الدينية في مدينة صفاقس العتيقة .

٢ ـ تركيز الوظيفة الاقتصادية :

إن التنظيم الأول لهذه الوظيفة نجده متجسدا في الأسواق المختصة وفي بعض الساحات التي تقع كلها سواء حول الجامع الكبير، كأسواق الذهب والعطارين والربع... وهي أسواق «نظيفة» وفي مدخل أبواب المدينة، وخصوصا في مدخل الباب الشمالي (باب الجبلي)، سوق الحدادين والصباغين، وهي أسواق «وسخة»، ولهذا عمد أهل المدينة إلى إبعادها عن الجامع وجعلها قريبة من أهل البادية الذين يزورون المدينة من حين لآخر، ويتزودون بالكثير من هذه الأسواق .

ويمتد مجال الوظيفة الاقتصادية اليوم إلى أنهج كاملة تتعاطى التجار كنهج الجامع الكبير ونهج العدول ونهج المنجي سليم... وأخرى تتعاطى الصناعات التقليدية، وتوجد خصوصا بالأزقة (كصناعة الأحذية والخشب إلى غير ذلك ..) .

وما يجب ملاحظته هو أن المجال الاقتصادي مخطط بصفة تجعله على مقربة من الذين يشتغلون فيه، إذ هو يتوسط المدينة، ويقلل بذلك التنقلات اليومية من البيت إلى العمل، ومخصص للناس وحدهم دون أي مزاحم من نوع قاطرات أو سيارات . فسواء كنت في سوق قارة أو في سوق أسبوعية (مكانها الساحات) فعمليات البيع والسراء وكل المعاملات الافتصادية تتم في النهج على مرأى ومسمع من كل أحد... وهذا من سأنه أن يخلق جوا من الثقة والألفة بين الناس لا تجده في وسط المدن الأخرى، ويساعد على تطبيق قوانين التجارة والصناعة المعمول بها هناك دون اللجوء إلى المحتسبين والأمناء إلا في حالات نادرة .

٣ ـ الوظيفة السكنية واقترانها بتنظيم الحياة الجماعية :

لو حاولنا عبثا أن نجعل حدا لمجال الوظيفة السكنية في المدينة لصعب علينا كبيرا ذلك، إذ إن هذه الوظيفة مرتبطة بالمجالين السابقي الذكر كل الارتباط، وهذا يبين لنا جليا مدى تعدد الوظائف للمجال الواحد في المدينة .

فكما يقوم الطريق بدور اقتصادي (مكان للبيع والشراء) وبدور ترفيهي للأطفال (مكان للعب في آخر النهار) وطبعا بدوره كطريق لمرور الراجلين.

ففي الحي الواحد نجد مجالا دينيا (وهو المسجد أو الجامع)، ومجالا اقتصاديا (ويتمثل في حوانيت التجار ودكاكين الصناع التقليديين)، ومجالا سكنيا في الديار (أو البيوت). وهنا تكمن إحكام التنظيم الوظائفي للمدينة .

أما تنظيم الوظيفة السكنية وتصميم البيت حول صحن داخلي فهو يرتكز على أساسين اثنين:

ـ حرمة البيـت .
ـ وتوزيع المجالات حسب الأجناس .

وقد رأينا في الحديث عن الصحن كيف تحصل كل العائلة على حرمتها وإمكانية حفظ أسرارها بفضل الصحن، أما عن توزيع الأدوار والمجالات فنرى أن مجال المرأة هو البيت ومجال الرجل هو الجامع. فالمرأة في الداخل تحفظ بيتها وتربي أبناءها وأما الرجل ففي الخارج

بعمل ويكد، ويبقى الجامع مركزه الأساسي كامل النهار. ومثل هذا التوزيع للأدوار والمجالات بين الرجل والمرأة يساعد على توازن المجتمع، وإعطاء كل فرد في المجتمع إطارا عمرانيا يتماشى وجنسه للقيام بوظيفته على أحسن وجه .

إن تواجد هذه الوظائف الثلاث في المدينة :

- الوظيفة الدينية والثقافية .
- الوظيفة الاقتصادية .
- الوظيفة السكنية أو الاجتماعية .

وتنظيمها المجالي المتناسق والمتكامل بصفة تمكن القاطن فيها من أن يحقق كل رغباته وتطلعاته الروحية بسهولة وأقل التكاليف، أكسب المدينة العتيقة توازنا وانسجاما وظائفيا يفتقده التنظيم الحديث للأنسجة العمرانية الغربية(٨) .

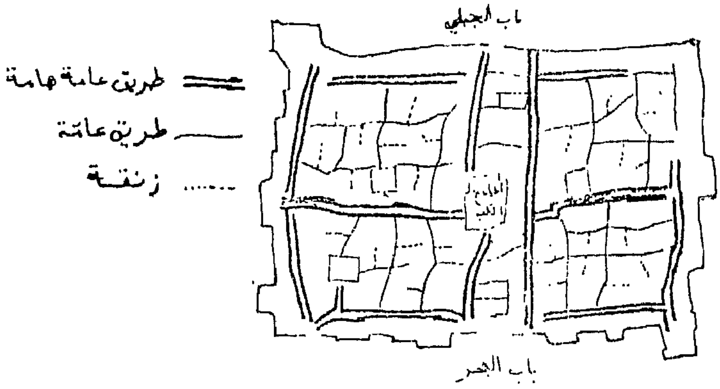
ونتساءل في نهاية هذا البحث عما أعطى النمط العمراني للمدينة العتيقة هذا الطابع الخاص، وما هي العوامل الأساسية التي اتخذت بعين الاعتبار في التخطيط العام للمدينة ؟

٣ ـ مقومات النمط العمراني :

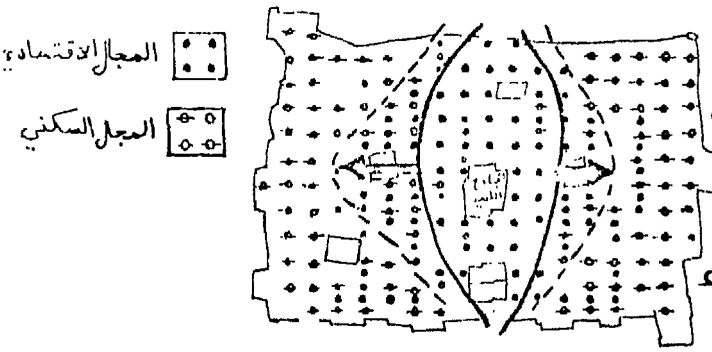
إن العوامل الأساسية التي انبثق عنها هذا النمط العمراني الخاص لمدينة صفاقس العتيقة عديدة، ويمكن حصرها في ثلاثة أقسام متفاوتة الأهمية :

١ ـ المقومات الحضارية .
٢ ـ المعطيات الطبيعية .
٣ ـ الإمكانيات التقنية .

ما من شك أن القسم الأول ـ النابع من الحضارة العربية الإسلامية ـ يفوق بكثير الأقسام الأخرى من ناحية الأهمية والتأثير. فكما توضحه الصورة النظرية في الصفحة التالية نلاحظ أن كامل عمران المدينة نوعية وتصميما مستمد من مقومات الحضارة الإسلامية .

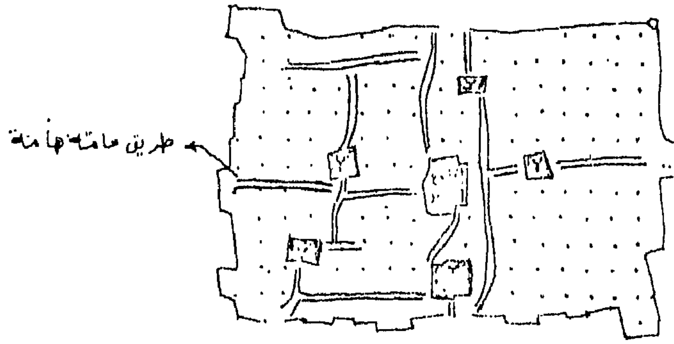


تدرج الأنهج والأزقة في المدينة



توسع المجال الاقتصادي على حساب المجال السكني

تعدد الوظائف للمجال الواحد.



مجال الوظيفة الدينية :

أهمية الموقع والطرقات الموصلة إليه.

فعلى مستوى التخطيط العام للمدينة نرى أن المساجد وما يتبعها من تجهيزات دينية هي التي تتوسط أحياء المدينة كمثل مصباح الكهرباء المضيء في سواد الليل. فالمساجد تنير هي الأخرى سبيل المجموعة في جميع مجالات حياتها، وفي ميدان العمران والسكن أيضا. فالمبادئ الحضارية الإسلامية التي يجسمها النمط العمراني للمدينة تؤخذ فعلا من المسجد ـ المدرسة أو مكان التلقي ـ قبل أن نخرج إلى ميدان التطبيق والمعاملات في الحياة اليومية للمجموعة .

أما عن مستوى تشكيل التركيب الداخلي للمدينة فالأمر أكثر دقة ووضوحا فمن بين مبادئ الحضارة الإسلامية مبدأ المساواة مثلا نجده متمثلا في أفقية البيوت و «عدم التطاول في البنيان» .

الثقـة تجسمها هي الأخرى الأنهج الضيقة والمساحات الصغيرة في المدينة، والتي يترتب عليها تلاحم أفراد المجموعة دون أي خوف أو حذر .

حرمة المرأة : ومن ذلك تصميم البيوت ذات الصحن الداخلي والذي تسعى فيه المرأة بكل حرية ، وكذلك قلة النوافذ الخارجية .

أما الهدف الذي يرمي إليه التنظيم العمراني في الحضارة الإسلامية فهو أولا وقبل كل شيء تكريم الإنسان وإعطاؤه كامل الحرية للتمتع بحياة المدينة وخدماتهـا . وينجلي هذا التكريم سواء في تنقلات السكان على الأقدام بدون مزاحمة السيارات وخطرها أو في المنظر العام للمدينة الداخلي بصفة تجعل الإنسان يسيطر على محيطه ولا العكس (عندما تكون البناءات شاهقة والمسافات الفاصلة بين الاحياء طويلة مرهقة) أو ببساطة الأحياء السكنية وعدم وجود تفرقة بينها (البيوت الفاخرة والتربة في الوسـط والبيوت الفقـيرة في اطـراف المدينة) ، وهو ما من شأنه أن يطمئن المتساكنين ، ويدعم بينهم روابط الألفـة والأخـوة والتعاون . فالهدف المرجو هو إذن ايجاد إطار عمراني يمكن الإنسان من العيش في مجتمع متحضر .

أما القسم الثانى من العوامل المؤثرة والمتمثل فى المعطيات الطبيعية ، فهو ـ وإن كان جد هام ـ أقل تأثيرا على النمط العمراني من القسم الأول . فمن المعطيات الطبيعية (الجغرافية في نفس الوقت) المؤثرة نذكر : رطوبة الهواء وشدّة الحرارة في فصل الصيف (معدل درجات

مقومات الحضارة العربية الإسلامية

- عناصر نسيج المدينة
- تصميم العناصر

عناصر نسيج المدينة	تصميم العناصر
١ ـ المساجد	موقع استراتيجي . بنـاء متميز بصومعتـه وفسحتـه وضخامـة حجمه .
٢ ـ الأسواق والأنهج التجارية والصناعية ...	منطقة وسطى في المدينة. مجال مخصص للراجلين وحدهم . أسواق مغطاة مع تخصيص ساحات كسوق أسبوعية .
٣ ـ المسـاكن	ارتباط مباشر مع الأحيك التجارية والصناعية بناءات أفقية ومضاءة من الداخل .
٤ ـ التجهيزات العامة أو الاجتماعية المشتركة	موزعة على كامل الأحيك المدينة كالحمامات والمساجد والمدارس) . مندمجة في: ـ البيوت كمجال اللعب للأطفال والحدائق. ـ المساجد كالمدارس ومجالس الرجال ـ الساحات كميدان للرياضة أو للاحتفالات الموسمية .

← تصـميم حسب مقاييس بشرية متوافقة

↓

← تعد الوظائف للمجال الواحـــد

↓

استغلال محكم لمجال المدينة مع إعطائه حركية ونشاط دائمين

الحرارة في أسهر الصيف ٣٥ درجة) ، وقلة كميات الأمطار (معدل ٢٠٠ مليمتر في السنة) . وانعكاسات هذه العوامل نراها متلا في : مقاومة حرارة الطقس ، إذ نجد التواءات الأنهج العامة وقلة عرضها ، وذلك محافظة على رطوبة الهواء في اليوم الحار كما ذكرنا آنفا ، وكذلك الأمر بالنسبة للصحن الداخلي بالمنازل ، وتصميم البناء بطريقة أفقية ... إلخ .

- ولتجنب النقص في الماء الصالح للشراب نظرا لقلة الأمطار بجهة صفافس ، بنى « ماجل » بكل منزل وهو خزان لمياه الأمطار التي تنزل على سطح البيوت .

وأما فيا يخص الإمكانيات التقنية لإيجاز هذا النمط العمرانى العربي الإسلامي فقد استخدم السكان الأوائل لمدينة صفاقس التراب والحجارة والجير ، وهى مواد متوفرة بكثرة بظهيرة المدينة ، وذات خصائص جيدة في البناء : كالصلابة وتحمل الحرارة خاصة . ولا يجوز لنا أن نقول : إن استخدام مواد البناء هذه تم حسب « تقنية بدائية » أو متأخرة ، لأن التقنية بمفهومها الصحيح هي استعمال العلم في تحقيق أغراض البرية لا غير ، بل حسب تقنية :

* متوافقة وحاجيات الإنسان المادية والروحية ، وهذا ما تعرضنا إليه في تطبيق مقومات الحضارة العربية الإسلامية .

* متوافقة وتفاعلات هذا الأخير مع بيئة الطبيعة، وهذا ما أشرنا إليه أيضا في الاعتبار بالمعطيات الطبيعية .

خاتمـــة

إن النمط العمراني لمدينة صفاقس العتيقة ليس عفويا بالمرة، أو «فوضويا» كما وصفه بعض الجغرافيين الغربيين، بل هو وليد عوامل حضارية وجغرافية وتقنية غير العوامل التي يعرفها العالم اليوم المؤثرة في سائر مدنه .

فبعد هذا الكشف السريع لخصائص العمران في مدينة صفاقس العتيقة، والعوامل الناتجة عنها، يتضح لنا مدى انسجام النمط العمراني وتناسقه في حياة المجتمع العربي الإسلامي ، بل وفي كل المجتمعات البشرية، إذ إن من ميزات هذا النمط هو تلبية وتحقيق تطلعات ورغبات الإنسان كإنسان في إطار عمراني متوافق، فلا يسمح في أية حالة من الأحوال أن تكبت رغبة من رغبات الإنسان (كالمشي على الأقدام بكل حرية) لاعتبارات تكنولوجية أو اقتصادية أو غيرها (كما هو سائد في المدن الأوربية الحديثة) .

ومما يؤكد هذا الرأي ما نراه اليوم من تشييد للمدن حسب النمط العمراني العربي الإسلامي، وذلك في بلدان إسلامية وغير إسلامية تذكرنا بمدننا العتيقة الأصيلة ..

الحـــواشي

(١) تمتد مدينة صفاقس وضواحيها على أكثر من ١١٠٠٠ هكتار وهي مساحة مدينة باريس داخل الأسوار ولكنها لا تعد إلا ٣٠٠ ألف ساكن، بينما تعد باريس ٣٫٥٠٠ ألف ساكن. وتحتفظ المدينة العتيقة بـ ٢٤ هكتارا فقط، وتعد ١١٠٠٠ ساكن سنة ١٩٧٥م .

(٢) بني سور مدينة صفاقس في عهد أبي إبراهيم الأغلب سنة ٢٤٥ هـ ـ ٨٩٥ م.

(٣) يمكن مراجعة :

Jane Jacobs, The Death and life of Great American Cities, Random House, 1961.

(٤) نشير في هذا الصدد إلى عمليات التجديد التي تكتسح شيئا فشيئا البناءات المتدهورة في المدينة العتيقه وتعوض بعمارات عمودية، كما حدث وما زال متواصلا في مدينة تونس العتيقة عندما أزيل سورها .

(٥) تعريف الأستاذ بامات حيدر (أستاذ بجامعة باريس ـ ٧) قدمه في نطاق محاضرة ألقاهـا بباريس (بالقصر الملكي) حول «المدينة الإسلامية» يوم ٢٩ حزيران ١٩٧٧م.

(٦) راجع مقال محمد الباهي

(Operation de Renovation et de Rehabilitation dans le Centre Historique de la ville de Tunis: LA MEDINA)

مقـال صـدر بـ :

Enciclopedia della Scienza e della Tecnica, Mandadori Milano 1975, pp. 221-232

(٧) تعتبر المدن الإسلامية بالمغرب العربي أكثر مدن العالم الإسلامي أصالة إذ بها شيدت من أولها إلى آخرها في العصر الإسلامي: كتونس والقيروان وصفاقس والجزائر وفاس... ولم تمر في نشأتها بعدة عصور مختلفة كمدينة دمشق مثلا عرف عمرانها عصرين مختلفين : الروماني والإسلامي .

(٨) يعتمد التنظيم الوظائفي في الأنسجة العمرانية الحديثة على ما يسمى بال: «ZONING»، أي فصل الوظائف وإعطاء وظيفة عمرانية واحدة لكل منطقة من مناطق المـدينة (منطقة السكن ـ منطقة الصناعـة ـ منطقة النزهة ..) .

اشكال التوسع الحضرى فى المغرب

دكتور محمد بلفقيه

مقدمـة :

إن بلدان العالم الإسلامي، كباقي بلدان العالم الأخرى، تشهد حاليا توسعا عمرانيا لم يسبق له مثيل، وكباقي البلدان المختلفة التي تنتسب إليها، وأصبحت اليوم كذلك هذه البلدان تتخبط في أزمة حضرية (وحضارية) خانقة، جعلت المجال الجغرافي داخل كل بلد يضطرب، إذ تفككت هياكله، وانهارت أسسه. ويبرز اليوم هذا الاضطراب في ظاهرتين اثنتين: أزمة الأرياف، و«انفجار المدن». وقبل أن يصيب البلدان الإسلامية ما أصابها من أثر التخلف والاستعمار كان للمدينة الإسلامية طابع خاص وتنظيم فريد من نوعه، ذلك أن الإسلام الذي يضبط الحياة الاجتماعية وينظمها، من شأنه أن يؤثر أثرا بليغا في تنظيم المدن .

وظل هذا التنظيم ساري المفعول، واضح المعالم، إلى أن تراجع المسلمـون وضعفـت شوكتهم، فغزاهم المستعمر، ثم عكف على استلابهم ماديا وفـكريا. وكان من الطبيعـي أن ينعكس هذا على الحياة في المدن الإسلامية التي فقدت أصالتها وشخصيتها. وحتى بعـد الاستقلال السياسي فإن مدننا لم تستطع بعد أن تسترجع تلك الأصالة وتلك الشخصية، لأننا ـ معشر المسلمين ـ أصبحنا ندور في فلك الغرب وحضارته دون أن نحاول استيعاب هذه الحضارة والتوفيق بين مكتسباتها المادية ومعتقداتنا الروحية .

فلا غرابة إذن إذا أصبحت المدينة «الإسلامية» تحذو حذو المدينة الغربية وتسعـى فى تقليدها، الشيء الذي يتسبب في خلق مستوطنات بشرية «مستهجنة»، ليس بوسعها إرضاء السكان أيا كانوا. فإذا صحت هذه النظرة (أو النظرية) العامة إلى المدن الإسلامية من حيث تطورها وتنظيمها، ماضيا وحاضرا، فثمة جانب أكاديمي من الموضوع يهمنا قبل غيره في هذا البحث، نلخصه في سؤالين :

١ ـ ما هي أشكال التوسع الحضري التي تعرفها المدن الإسلامية ؟
٢ ـ ما هي الآليات التي تتحكم في هذه الأشكال العمرانية ؟

لعل الرد على هذين السؤالين يسمح بتصنيف كل من هذه الآليات وتلك الأشكال، ثم وضعها في إطارها الجغرافي الخاص، حتى نتبين النموذج أو النماذج العمرانية التي يخضع لها تنظيم المجال داخل المدن الإسلامية.

ما من شك أن هناك العديد من الدراسات والبحوث التي اهتمت بهذا الجانب من طرف الجغرافيين وغيرهم، لكن هل وصلت هذه الدراسات مستوى النظريات وخصوصا منها تلك التي تنظر إلى العالم الإسلامي كوحدة بشرية ؟ هذا ما نشك فيه رغم جهلنا لما يكتب وينشر بعيدا عنا .

فهذه الاهتمامات هي التي كانت الدافع لنا على اختيار الكتابة في موضوع أشكال التوسع الحضري بالمدن الإسلامية، غير أنه ليس في نيتنا ولا في وسعنا معالجة المسألة بطريقة شاملة، تستوعب واقع المدينة الإسلامية أينما كانت، وذلك لسببين، هما: أولا: ضخامة الموضوع وتشعبه، الشيء الذي يفوق طاقة باحث منفرد لا تتوفر له المراجع الضرورية. ثانيا: ليس من المؤكد أن يكون للمدينة الإسلامية مفهوم واحد، بسبب تباين الظروف الجغرافية داخل العالم الإسلامي. وسوف يكون مؤتمرنا موفقا إذا استطاع الباحثون مناقشة هذا الموضوع، وإلقاء بعض الأضواء عليه حتى يواصل التحليل والتعمق من شاء في إطار تبادل المعلومات والأخذ برأي الزملاء .

فهذا البحث إذن مقصور جغرافيا على رقعة من العالم الإسلامي: المغرب الأقصى، وهو في الوقت نفسه مقصور كذلك على حالة معينة: مدينة الرباط ـ سلا ـ العاصمة الإدارية والسياسية للبلاد. غير أننا نعتقد أن الملاحظات التي سندلي بها يمكن تعميمها بصفة إجمالية على باقي المدن المغربية وخصوصا الكبرى منها .

مراحل التوسع الحضري وأشكاله بمدينتي الرباط وسلا: ثلاثة نماذج عمرانية متعاقبة

١ ـ ١: قبل الحماية: مدينتان توأمان ونموذج حضري إسلامي أصيل :

إلى مطلع القرن الحالي كانت الرباط وجارتها سلا، الموجودتان على ضفتي مصب نهر أبي

رقراق، تعيش كل واحدة منها في عزلة تكاد تكون تامة عن الأخرى . فبينا كانت الرباط تعيش منكمشة على نفسها، محتجبة وراء أسوارها الحمراء، كانت سلا تتميز بمهارة صناعها ونشاط تجارتها وصيت «زواياها»[١] وعلى الرغم من هذا التفاوت فإن كلا المدينتين نظمتا تنظيما متشابها .

أ ـ ١ ـ ١ : سكان من أصل حضري :

إن الموقع والموضع الحاليين لمدينتي الرباط وسلا ساعدا على ازدهار العمران منذ أزمنة غابرة، يمكن ردها إلى عهد الفينيقيين والرومان. لكن المستوطنات الأصلية لم يكتب لها البقاء فاختفت. ولم تعد الحياة العمرانية من جديد إلا مع القرن الحادي عشر الميلادي بالنسبة لسلا، والقرن الثاني عشر بالنسبة للرباط وإذا أخذت الأولى تجلب إليها السكان منذ ذلك الحين فإن الثانية ظلت عبارة عن رباط ينطلق منه المهاجرون في اتجاه بلاد الأندلس، إلى أن تم طرد المسلمين منها (١٤٩٢م). وبعد هذه النكبة لجأ العديد من مسلمي الأندلس إلى المدينتين اللتين ستعرفان عصرا ذهبيا، خصوصا بالنسبة لسلا التي دوى صيتها في أرجاء المعمورة بفضل قراصنتها الذين كانوا يجوبون المحيط الأطلسي طولا وعرضا. ومن المعلوم أن هؤلاء «المورسكوس» الوافدين على المدينتين كانوا أصحاب حضارة عالية، منهم الحرفيون الحاذقون والزراع المحنكون والتجار المهرة والعلماء الأجلاء. وبفضل هذا الإغناء السكاني أخذت المدينتان تزدهران، الشيء الذي جعلها تجذب السكان من المدن الأخرى والأرياف على السواء. وغداة الحماية كانت المدينتان تضمان سكانا عريقين مشبعين بالحياة الحضرية .

١ ـ ١ ـ ٢ ـ أنشطة متنوعة :

١ ـ ١ ـ ٢ ـ ١ ـ الحرف والصناعة التقليدية :

كان الحرفيون والصناع يشكلون فئة هامة من بين السكان المهنيين في المدينتين. ففي الوقت الذي اشتهرت فيه سلا بصنع القوارب والسروج والنعال والحصائر والأنسجة، اشتهرت الرباط بزرابيها وزليجها[٢] ومطرزاتها. بجانب هذه الأنشطة كذلك ازدهرت كل أصناف الحرف الأخرى من نجارة وحدادة وصباغة.. إلخ .

١ ـ ١ ـ ٢ ـ ٢ ـ نشاط زراعي هام :

ظل عدد كبير من سكان العدوتين يتعيش من الزراعة إلى غاية العشرينات، بحيث كانت المدينتان تتمنطقان بحزام أخضر، تباشر فيه فلاحة جد متنوعة، أساسهـا البقليات والكروم والبرتقال، مع الاهتمام بالأبقار الحلوب. وبالطبع كانت هذه «الضاحية البقلية» تلعب دورا حيويا في تزويد المدينتين بالخضر والفواكه الطرية يوميا، في وقت كانت تفتقد فيه وسائل المواصلات التي تستطيع ربط المدن بالأرياف الذائبة .

١ ـ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ النشاط التجاري: تفوق السلاويين :

في هذه الحقبة من التاريخ كان المغرب يمر بأزمات سياسية حادة، جعلت البلاد تنقسم إلى ما يسمى «ببلاد المخزن»، أي المناطق الخاضعة للسلطة المركزية و«بلاد السيبة» التي لا تخضع لها. وبالطبع لم تكن هذه الأوضاع لتساعد على ازدهار التجارة وانتشار التجار. فإذا صدق هذا تماما على مدينة الرباط، فإن سلا بفضل زواياها وحذق تجارها استطاعت أن تبسط نفوذها التجاري على الأرياف المجاورة لها كزمور والغرب. وهكذا كانت قوافل التجار والسلاويين تتنقل بكل سهولة وأمان بين القبائل، وتتردد على أسواقها الأسبوعية التي كانوا يعمرونها بمنتجات صناعتهم، والتي كانوا يقتنون منها ما هم في حاجة إليه من مواد أولية وغذائية كالصوف والشمع والحنطة والقطاني والأنعام. أما الرباط فكان تجارها لا يجرؤون إلا قليلا على التجول داخل قبائل زعير المجاورة لهم والتردد على أسواقها، لذا غالبا ما كانوا يستعينون ببعض اليهود الذين كانوا ينتقلون في البوادي بكامل الحرية .

١ ـ ١ ـ ٣ ـ تنظيم المجال الحضري :

بقي الأوربيون وإلى أجل غير بعيد ينظرون إلى مدننا العتيقة بشيء من التعجب، إذ يعتبرونها متاهة لا تصميم لها، أزقتها ضيقة وملتوية، دروبها كثيرة ومظلمة، بيوتها مغلقة لا نوافذ لها. لكن هذا التصور بالطبع تصور خاطىء تماما، فالمدينة الإسلامية الأصلية آية في الإبداع من حيث التنظيم العمراني. والدليل على ما نقول تلك التجارب الجارية اليوم في قلب بعض كبريات المدن الأوربية التي أخذت تحاكي مدننا بمنع دخول السيارات إليها، وترميم

لبنايات القديمة، والعناية بالآثار، وتنشيط دكاكين التجار حتى يفسح المجال للراجلين يتنقلون حرارا شاعرين بالسكينة والطمأنينة والسعادة .

لعل من أبرز مميزات التنظيم للمجال الحضري للمدينة الإسلامية الأصلية الفصل بين مختلف الوظائف التي يقوم بها هذا المجال، بمعنى أن التخصص كان يعد من القواعد العمرانية لأساسية، لذا نجد الأحياء السكنية دائما في معزل تام عن الأنشطة التي من شأنها أن تزعج لسكان وتقلق راحتهم ويجاور عادة هذه الأحياء المسجد الكبير الذي تقام فيه صلوات لجماعة، والمسجد يجاوره بدوره تجار السلع النفيسة من مجوهرات وحلي وأثواب رفيعة، بعد هؤلاء ستقر الصناع والحرفيون حسب تخصصهم في أزقة غالبا ما تسمى باسمهم. وتجدر الإشارة إلى ن الصناعات والحرف الملوثة والمزعجة كانت تقصى أبعد ما يمكن ، كما هو الحال بالنسبة صناعة الجلود والخزف مثلا. أما سوق الخضر والفواكه واللحوم فتقام في زقاق أو فسحة غالبا ا تحاذي أسوار المدينة، قريبة من إحدى أبوابها التي تقدم منها الدواب المحملة بالسلع. ولا فوتنا في النهاية أن نشير إلى أن هذا النظام خصص جانبا من المدينة إلى طائفة اليهود التي كانت تتوفر على كل المرافق الضرورية من كنيس وحمامات وأسواق .

١ ـ ٢ ـ عهد الحماية : المدينة المخضرمة :

١ ـ ٢ ـ ١ ـ طور الازدواج :

بمجرد عقد الحماية سنة ١٩١٢م، قررت الإقامة العامة، في شخص ليوطي، اتخاذ مدينة لرباط عاصمة إدارية وسياسية للبلاد عوض مدينة فاس وذلك لأسباب أمنية واضحة، وكذلك بمجرد دخول جيوش الاحتلال أصبح المدنيون الفرنسيون يتقاطرون على المدينتين وخاصة على لرباط نظرا لوظيفتها الجديدة. ومن أجل هذا قامت سلطات الحماية ببناء أحياء جديدة بجوار سوار المدينتين المغربيتين، فجهزتها أحسن تجهيز. فإذا كان الحي الأوربي بسلا سيظل متواضعا إلى غاية الاستقلال، فإن نظيره بالرباط قد عرف توسعا هاما ومتنوعا، يجعله يظهر بمظهر المدينة المتكاملة. وهكذا أصبحت المدينة الأوربية تتوفر على مركز يضم المصالح العمومية والإدارات الخاصة ودور السينما والمقاهي وعلى أحياء سكنية تنتشر بين الخضرة وتظللها لأغصان. وبالطبع لم يكن للمغاربة أن يستفيدوا من هذا التوسع الجديد، لا من حيث

السكنى ولا من حيث النشاط، فمكثوا منعزلين داخل الأسوار ، مشتغلين بتجارتهم وحرفهم التى أخذت الأوضاع الاقتصادية الجديدة، التي ظهرت مع الاستعمار، تهددهم.

١ ـ ٢ ـ ٢ ـ طـور الاضطـراب:

في المغرب، كما في سائر البلدان المستعمرة الأخرى، كان للاحتلال الأجنبي وقع كبير في حياة البلاد، انعكست آثاره السيئة على المدن التي تعرضت إلى اضطراب عمراني خطير.

١ ـ ٢ ـ ٢ ـ ١ ـ أسباب الاضطراب:

يمكن رد الأزمة التي عانت منها المدن المغربية آنذاك إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

* بوادر الهجرة الريفية :

على الرغم من الأوضاع السياسية المضطربة قبل الحماية لم تكن المدن منعزلة تماما عن الأرياف، وسبق أن رأينا هذا، أي إن المدن كانت تستقبل بعض السكان الجدد سواء من الحواضر الأخرى أو الأرياف المجاورة والبعيدة، لكن هذه الهجرة التي لا نعرف عنها إلا القليل لم تكن تأتي إلا بأعداد قليلة من السكان الذين استطاعوا الاندماج بكل سهولة في محيطهم الحضري الجديد . وهذه الأوضاع ستنقلب تماما بعد تنظيم الحماية وتطبيق سياسة التعمير في الأرياف .

ـ اقتطاع مليون هكتار لفائدة المعمرين:

من الأمور الكبرى التي شغلت بال الحماية منذ البداية قضية التعمير في الأرياف، لذا عملت الإقامة العامة، مستعملة في ذلك شتى الوسائل، على سلب المواطنين أجود الأراضي التي بلغ مجموع مساحتها ما يزيد على مليون هكتار. وهذا العنصر وحده كفيل بتحريك الأعداد الهائلة من السكان، لا في اتجاه مناطق أخرى تعرضت لنفس القمع والظلم، بل في اتجاه المدن التي شاع أنها توفر الشغل وتضمن العيش بفضل الورش العديدة التي فتحها المستعمرون. ومنذ ذلك العهد وهذا السراب الكاذب يستهوي سكان الأرياف ويغويهم، خصوصا بعد تعدد وسائل المواصلات وتعزيزها .

- دور المواصلات:

بعد ما استتب الأمر للغزاة، بعد معارك طويلة وبطولية (حرب الريف، مقاومة قبائل الأطلس).. شرعت سلطات الحماية في بناء شبكة للمواصلات، تمكنها من جهة مراقبة السكان، ومن جهة أخرى استغلال خيرات البلاد (مناجم، منتجات فلاحية..) وكان لإقامة هذه الشبكة أثر في تقريب الأرياف من المدن، وتقوية تيار الهجرة إليها.

- تزايد سكان البلاد :

من الأسباب التي لعبت كذلك دورا هاما وغير مباشر في احتدام الهجرة زيادة ملحوظة في عدد السكان بفضل بعض التجهيزاتَ الصحية التي أقامتها السلطة والتي استطاعت التغلب على الأوبئة. ومن المعلوم أن هذه ظاهرة عرفتها كل البلدان التي استعمرت.

- بالإضافة إلى هذه العوامل الرئيسية التي تفسر انطلاق الهجرة من الأرياف هناك عوامل عارضة كان لها دورها كذلك، ومنها على سبيل المثال الجفاف الذي كان ينزل بالأرياف من حين لآخر، والذي كان يدفع بالعديد من السكان إلى التوجه إلى المدن. ومنها كذلك الحرب العالمية الثانية التي زادت من حدة الهجرة خاصة إلى المدن الساحلية.

* السياسة العمرانية في عهد الحماية :

حينما نتحدث عن الهجرة، خصوصا إذا كانت ذات أهمية، فهناك سؤال لا بد من طرحه: أين كان هؤلاء المهاجرون يقطنون ؟ في أول الأمر كان الوافدون يعتصمون بالمدينه القديمة (المدينة الإسلامية)، لكن سرعان ما أخذت هذه تضيق بهم، الشيء الذي جعلهم، خصوصا إذا كانوا غير ميسورينَ، يلجأون إلى الأحياء الفقيرة والدور المتدهورة وحتى الفناء التي كانت أيامها تأوي القوافل والمسافرين.

وكانت السلطات بالطبع على علم بهذا غير أنها لم تحرك ساكنا، وذلك لسببين: سبب أمني، وسبب مالي. أما السبب الأمني فيعني أن السلطة كانت تفضل أن يبقى السكان المغاربة مجمعين داخل الأسوار حتى تتمكن من مراقبتهم وضرب الحصار عليهم في حالة الاضطرابات. أما السبب المالي فيفسره سلم الأسبقيات الذي وضعته الحماية في وقت لم تكن

تتوفر فيه على الرساميل الكافية للقيام بمشاريع متنوعة في نفس الوقت. لذلك انصرف اهتمامها بالدرجة الأولى إلى المشاريع الإنمائية من مصانع وموانئ ومطارات وطرق وسكك حديدية... أما مسألة الإسكان، فلم تحظ بعناية كبرى، وحتى إذا ما حصل ذلك فكانت الأسبقية للأوربيين الذين أنشئت من أجلهم مصلحة خاصة تدعى «المكتب الشريف للسكنى» .

وستبقى السلطة على هذا الموقف إلى أن تصبح منسكلة إسكان المغاربة قابلة للانفجار متخذة أبعادا سياسية لن تحمد عقباها. آنذاك بادرت الحماية في بعض المدن ، منها الرباط، إلى القيام بإنجازات عمرانية جد متواضعة ، لا تفي بحاجيات السكان المتزايدة. وبهذا التصور أخذت أول أشكال السكن الهزيل تظهر على هوامش المدنية المغربية .

* أزمة المدن الاقتصادية :

من المعلوم أن الاستعمار بأساليبه الإنتاجية ومناهجه الاقتصادية كان قادرا على تفكيك وتحطيم البنية الاقتصادية التقليدية للبلدان المستعمرة، بحيث غمر الأسواق بمنتجات صناعته، وفرض التداول النقدي ، فسيطر على المبادلات، وألحق ضررا كبيرا بالصناع وأصحاب الحرف في المدن والأرياف على السواء. وهكذا فقدت المدينة المغربية دعامتها الاقتصادية، فلم تعد تلعب الدور الاقتصادي الهام الذي كان لها من قبل.

١ ـ ٢ ـ ٢ ـ ٢: أشكال التوسع الحضري :

* ظهور «مدن الخشب» (١٩٣٠ ـ ١٩٤٥) :

لما تزايد عدد المهاجرين، وأصبحت النواة الأصلية للمدينتين غير قادرة على استيعابهم، أخذ الوافدون يشيدون خارج الأسوار، بعيدا عن المدينة الأوربية، بيوتا بفضلات المصانع العصرية من خشب وتنك وقصدير. ولما انتشرت هذه المخشبات بكثرة قررت السلطة جمعها في أماكن خاصة أطلق عليها اسم «دواوير»(٣). وهكذا ظهر بالرباط دوار الدباغ في الناحية الجنوبية الغربية ، ودوار الدوم في الجهة الجنوبية الشرقية، كما ظهر بسلا الدوار الجديد وتبريكت .

* **محاولة الحد من المخشبات: بعض المنجزات العمرانية :**

بعدما وضعت الحرب العالمية أوزارها، وأخذت الحركة الوطنية تنشط شيئا فشيئا، شعرت سلطات الحماية بضرورة تعديل موقفها إزاء مشكلة توفير السكنى للمواطنين المغاربة، لذا قامت منذ سنة ١٩٤٩م بإعادة تنظيم المصالح المكلفة بقطاع السكنى ، ووضع تشريع جديد، وتوفير احتياطي هام من الأراضي. إلا أن سياسية محاربة مدن الخشب لم تتضح إلا في الخمسينيات (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢م)، حيث قامت الدولة بتشييد دور لذوي الدخل المتواضع على هوامش هذه الأحياء الفقيرة حتى لا تزيد رقعتها. وهكذا ظهر حي يعقوب المنصور بجوار دوار الدباغ، وحي اليوسفية بجوار دوار الدوم. كما ظهرت بعض البنايات بسلا محاذاة تبريكت وعلى مقربة منها فوق هضبة بسطانة. لكن هذه المنجزات لم تستطع تحقيق الهدف، غير أنها تركت بصماتها على بنية المدينة التي أصبحت تتسم بطابع شعبي واضح .

١ ـ ٣ ـ الانفجار العمراني بعد الاستقلال وأشكال التوسع: المدينة المتخلفة :

لم يكن عدد سكان المدينتين التوأمين غداة الحماية (١٩١٢م) يتجاوز ٤٠٫٠٠٠ نسمة، وظل تزايد السكان متواضعا إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، إذ بلغ مجموع السكان خلال سنة ١٩٣٦م ٨٤٫٠٠٠ شخص تقريبا، وبعد الاستقلال بين الإحصاء الذي أجري سنة ١٩٦٠م أن عدد السكان أصبح يتجاوز ٣٠٠٫٠٠٠. وبعد عقد واحد من الزمن (إحصاء ١٩٧١م) ارتقى العدد إلى ما يزيد عن نصف المليون. أما اليوم فيقدر العدد بما لا يقل عن ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة. والمدينتان ستصبحان مليونين سنة ١٩٨٢م، ومهما تكن الظروف.

ويكفي أن نستخلص من هذه الإحصائيات أن عدد السكان يتضاعف كل اثنتي عشرة سنة لنلمس الضغط الديمغرافي الذي أصبح يطبع المدينتين، ولنتصور جسامة المشاكل التي ستظهر، ومن جملتها تلك التي تتعلق بالعمران والسكنى. وهذه المشاكل المتعددة والمعقدة التي برزت دفعة واحدة لم تقابل منذ البداية بالرد السريع والعناية اللازمة، فظل أمرها يتعاظم ويتفاحش إلى يومنا هذا. صحيح أنه منذ الاستقلال كانت بعض المحاولات للحد من المشكلة، لكن هذه المحاولات لم تكن تنطلق من سياسة عمرانيه واضحة الأهداف تندرج في سياسة إنمائية شاملة، بل على العكس من ذلك جاءت نتيجة للارتجال والحلول الجزئية أو

المؤقتة. وأمام عجز السلطات عن حل المشاكل أخذ السكان بما لديهم من وسائل يبحثون عن حلول . فلا غرابة إذن إذا تميزت هذه الفترة بتنوع كبير في أشكال التوسع الحضري .

١ ـ ٣ ـ ١ ـ التوسع الباطني :

لما أصبحت الحاجيات السكنية تتزايد، وأثمان الأرض ترتفع، أخذ أصحاب البقع الفارغة داخل المدينة، وما أكثرها، يضاربون بها إما ببيعها عارية أو بعد بنائها. وبالطبع لم تكن هذه البقع التي تتخلل النسيج الحضري قادرة على إرضاء كل الطلبات التي تتزايد يوما بعد يوم . لذا أصبحنا نرى أصحاب المنازل الأرضية في بعض الأحياء يهدمون هذه المنازل ويعوضونها بالعمارات .

١ ـ ٣ ـ ١ ـ ١ ـ ملء النسيج الحضري[٤]:

إن المساحات الفارغة التي توجد داخل المدينتين ليست في واقع الأمر ملكا للخواص وحدهم، بل نسبة كبيرة منها ترجع إلى الدولة وبعض المصالح التابعة لها كمصلحة «الأملاك المخزنية»[٥] والبلدية والأحباس (الأوقاف)، ولقد استعمل جزء من هذا الاحتياطي لإنجاز عدة مشاريع عمرانية في العدوتين في أحياء مختلفة كيعقوب المنصور أو حي الأحباس بالرباط أو بسطانة وتبريكت بسلا. أما الأراضي التي كانت في حوزة الخواص فقد استعمل قسم كبير منها لمد الأحياء الرفيعة كحي السويسي بالرباط .

١ ـ ٣ ـ ١ ـ ٢ ـ التوسع العمودي :

عندما بلغت أزمة السكنى ذروتها في السبعينات، بحيث أصبحت الأسرة الواحدة تخصص ما بين ٣٠ و ٤٠٪ من دخلها الشهري لتسديد نفقة الكراء، قررت المصالح البلدية بالمدينتين، تخفيفا لوطأة الأزمة، السماح بتشييد العمارات في بعض أحياء الفيلات كأحياء الرمل بسلا والليمون وأكدال بالرباط مثلا. وهكذا طرأ على وجه المدينتين تغيير كبير من حيث المشهد الحضري والمضمون الاجتماعي وأوجه النشاط[٦]

١ ـ ٣ ـ ٢ ـ التوسع الهامشي :

إن التوسع الباطني رغم أهميته لا يحل مشكلة السكنى إلا بالنسبة لبعض الذين لهم دخل مرتفع ، يسمح لهم بشراء منزل أو استئجاره، لذا أصبحت أغلبية الأسر تبتعد عن المدينة خارج الدائرة الحضرية، وفي مواضع متضرسة، حيث لا تبسط البلدية نفوذها، لتستقر في عشوائية تامة وظروف يرثى لها.[٧]

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأحياء الفقيرة غالبا ما تستقر على أراضي تابعة إما لمصلحة الأملاك المخزنية أو لنظارة الأحباس أو للجماعات القروية المجاورة للمدينتين. وهؤلاء عادة يغضون الطرف ، ولا يطالبون المستقرين بأي أداء ما دام من الممكن ترحيلهم متى دعت الضرورة إلى ذلك . أما إذا كانت القطعة في ملك شخص أو مجموعة من الأشخاص فالمستفيد آنذاك يؤدي ما يسمى «حق الزنة»[٨]، وهي أداءات شهرية تختلف قيمتها حسب الموقع ومساحة الرقعة المستعملة .

١ ـ ٣ ـ ٢ ـ ١: انتشار مدن الخشب:

علمنا أن المخشبات ظهرت في مدينتينا قبل الاستقلال غداة الحرب العالمية التانية، لكنها ستزيد خصوصا في الخمسينات، لتتفاحش مع الاستقلال، وفي سلا أكثر من الرباط، لأن الرباط لكونها عاصمة البلاد كانت محط عناية ومراقبة من لدن المسئولين. رد على ذلك تفاوت الامكانات المالية والتقنية التي تتوافر لدى كل من بلديتي المدينتين، لذا كان انتسار المخشبات في سلا يفوق بكثير انتشارها في جارتها .

١ ـ ٣ ـ ٢ ـ ٢ : السكن «المتستر» :

من بين الذين لم تسمح لهم كذلك وسائلهم المادية بالحصول على سكن لائق بالمدينة، توجد طبقة من السكان تستطيع، بعد تضحيات كبيرة، أن تطمح إلى ما هو أحسن بقليل من البيوت الخشبية، لذا أخذ البعض منهم يعوض تدريجيا الخشب والقصدير بالآجر، بحيث أصبحت أجزاء بأكملها من مدن الخشب تتبدل .

فلما انتشرت عادة استعمال مواد البناء العادية كالخرسانة والإسمنت والآجر وجد

أصحاب الأراضي الهامشية أنفسهم أمام أوضاع جديدة وخطيرة، جعلت المصالح البلدية تقرر توسيع رقعة الدائرة الحضرية. غير أن هذا القرار لم يمنع الخواص الذين يملكون أراضي خارج الدائرة الحضرية من القيام بتجزئة الأرض وعرضها للبيع، حتى ولو أنها لا تتوفر على التجهيزات الأولية اللازمة. وسمحت هذه التجزئات العقارية لأصحابها بتحقيق أرباح باهظة وفي ظرف وجيز جدا، الشيء الذي شجع كل من كان يتماطل أو يشك أو يتخوف من العملية نظرا لعدم شرعيتها .

أما السلطات، نظرا لاعتبارات اجتماعية وسياسية، ونظرا كذلك لعدم توفرها على الوسائل الكافية، فستبقى مكتوفة الأيدي، عاجزة عن مجابهة المضاربين والقضاء على هذه الأحياء المتسترة، لذا أخذت تستسلم للأمر الواقع، وتمد هذه الأحياء تدريجيا بالماء والكهرباء، وتمنحها بعض التجهيزات الجماعية كالمستوصفات والمدارس. ولا شك أن موقفا متخاذلا مثل هذا من شأنه أن يزيد الطين بلة، ويشجع أكثر فأكثر على انتشار الأحياء غير المشروعة. ولعل من أحسن النماذج لهذه الأحياء دوار المعاضيد ودوار الحاجة بالرباط ثم القرية ودوار الشيخ المفضل بسلا .

إن انتشار السكن الهزيل وعجز السلطات على الحد منه لدليل قاطع على فشل السياسة الإسكانية للدولة التي كانت في واقع الأمر قد قررت عدم إعطاء الأهمية لهذا القطاع خلال الخطتين الثلاثية (١٩٦٥ ـ ١٩٦٨م)، والخمسية التي تلتها (١٩٦٨ ـ ١٩٧٢م). فلا غرابة إذن إذا حصل ما حصل .

١ ـ ٣ ـ ٢ ـ ٣ ـ جاء في باب السكنى والتعمير من الخطة الخمسية (١٩٧٢ ـ ١٩٧٧م): «إن تدخل الدولة سيقتصر أساسا على إعداد الأراضي الصالحة للبناء، وتجهيزها تجهيزا تاما، لعرضها للبيع»[٩] .

* **بالنسبة للطبقات المتواضعة: «أحياء تجهز بالتدريج» :**

بالنسبة للأسر التي يتراوح دخلها الشهري بين ١٧٥ و ٣٥٠ درهما[١٠] قررت الدولة اتباع خطة تسمح بتوفير السكن في مدة ٥ سنوات، بتوزيع قطع أرضية تتراوح مساحتها بين ٨٠ و ١٠٠ متر مربع، ولا تتوفر إلا على تجهيزات جزئية عبارة عن حجرة واحدة ومطبخ صغير،

وذلك مقابل أداء أولي بقيمة ١٥٠٠ درهم عند تسليم المنزل، و ٦٠ أداء شهريا، بقيمة ٥٠ درهما لكل أداء. وباستطاعة المستفيد كذلك طلب قرض يتراوح، حسب دخله بين ٣٥٠٠ و ٧٠٠٠ درهم يسدده في مدة عشرين سنة قصد إتمام بناء المنزل. وهكذا ظهر صنف جديد من الأحياء على هامش المدينتين، كحي الفتح بجوار يعقوب المنصور بالرباط مثلا.

* **بالنسبة للطبقات المتوسطة: قروض للسكنى:**

أما بالنسبة للذين يزيد دخلهم الشهري على ٣٥٠ درهما فإن الدولة تقوم بواسطة «الصندوق الوطني لشراء الأراضي وتجهيزها» بإعداد القطع الأرضية وتوزيعها على السكان مقابل ثمن الكلفة. وشجعت السلطات المستفيدين على تأسيس وداديات تساهم في دراسة الملفات التقنية، وتختار المقاولات لإنجاز المشاريع، وتسهل عملية الاقتراض من صناديق البنك الشعبي والقرض العقاري والفندقي لمواجهة مصاريف البناء. وبهذه الطريقة تم تشييد حي السلام بسلا (٦٠٫٠٠٠ نسمة)، ويجرى الاستعداد حاليا للمشروع في بناء حي مقابل بالرباط على مساحة ٤٥٠ هكتار (حي الرياض).

منذ ظهور الأزمة السكنية وما نجم عنها من فوضى، والمراقبة أشد صرامة في الرباط منها في سلا، وذلك للأسباب التي بيناها فيما سبق. وبما أن الأزمة لا تزال قائمة فمن المتوقع أن تتحمل سلا عبء أختها، وأن تذهب ضحية للأوضاع التي تعاني منها بسبب جاذبيتها ودورها الجامعي والإداري.

١ ـ ٣ ـ ٢ ـ ٤ التوسع «بالأنصاب»: سلا منامة للرباط:

سبق أن تحدثنا عن الأزمة الاقتصادية التي أصابت المدينتين في أعقاب الحماية بسبب أسلوب الإنتاج الرأسمالي الذي أصبح يسود، وسبق أن ذكرنا كذلك أن الضربة كانت قاضية خصوصا بالنسبة لمدينة سلا التي لم تستفد إلا قليلا جدا من بعض المشاريع الصناعية المتواضعة. أما الرباط، فسمحت الإدارة فيها بنوع من الرواج، بفضل أجور المستخدمين، ووجود جالية أجنبية هامة ذات مستوى عيش رفيع. وسيظل هذا التفاوت قائما حتى بعد الاستقلال ولربما تفاحش اليوم، لذا فإن المهاجر القادم إلى الرباط ـ سلا أصبح أكثر فأكثر يشتغل (إن أمكن ذلك) في الرباط ويسكن سلا. وبينت إحدى الدراسات التي أجريت سنة

١٩٧١م أن مدينة سلا لا توفر إلا ١٠٪ من مجموع فرص العمل بالنسبة للمدينتين. هكذا سيؤدي الفصل الجغرافي بين مقر العمل والسكنى إلى ترقص سكاني هام بين العدوتين. وللتعرف على هذه الظاهرة وتكميمها قمنا سنة ١٩٧٦م بتعداد للعابرين لنهر أبي رقراق في اتجاه مدينة الرباط، وذلك ما بين الساعتين السادسة والنصف والتاسعة صباحا، وخلال هذا الظرف الوجيز بلغ عدد المتنقلين ٣٠٫٠٠٠ جلهم لأسباب تتعلق بالشغل . فبعد أن كانت مدينة سلا تحرز قصب السبق وتتفوق على جارتها أصبحت اليوم خاضعة لها تدور في فلكها الإداري والاقتصادي دون أن تحصل لها الفائدة من هذا . لذا يحق لنا أن نعتبر هذه الظاهرة من أسوأ نماذج الإدماج العمراني .

١ ـ ٣ ـ ٢ ـ ٥ ـ تمدين الأرياف المحاذية: الضواحي :

إذا كانت أزمة السكنى التي باتت الرباط ـ سلا مسرحا لها قد جعلت الكثير من الناس يسكنون الأحياء الهزيلة الهامشية أو يتقاطرون على مدينة سلا، فإن منهم من حاول التغلب على المشكلة بالابتعاد أكثر عن المدينة، واللجوء إلى المراكز الموجودة عند أطراف المدينة أو الأرياف المحيطة بها.

* الضواحـــي :

على مقربة من المدينتين، على هوامش دائرة لا يتعدى شعاعها ٣٠ كيلومترا، تتناثر ستة تجمعات سكنية متفاوتة من حيث أهميتها ووظائفها. ومن بين هذه المستوطنات ما أصبح يتأثر وبسرعة بما يحدث في المدينتين المجاورتين، خصوصا في مجال الإسكان، إذ أخذ السكان من حضر ومهاجرين يتقاطرون على هذه المراكز بحثا عن ظروف سكنية ملائمة، إما من حيث التكاليف (بالنسبة للمعوزين)، أو من حيث الراحة (بالنسبة للميسورين).

فعلى الرغم من حداثة هذه التطورات فإن بعضا من هذه الضواحي قد ارتقى إلى مستوى المدينة الصغيرة، كما هو الشأن بالنسبة لتمارة الموجودة على بعد ٥٨ كم فقط جنوب غرب مدينة الرباط . فإذا لم تكن تمارة غداة الاستقلال إلا مجرد قرية متواضعة ترابط بها حامية عسكرية داخل قصبة قديمة، فإن عدد سكانها اليوم يتجاوز قطعا ١٢٫٠٠٠ نسمة، منهم

من يشتغل في المكان عينه داخل معامل حديثة، ومنهم من يشتغل بالرباط خصوصا في الإدارة(١١) .

* تطور السكن الريفي :

إن تهافت السكان على هذه الضواحي سرعان ما خلق ظروفا شبيهة بتلك التي تتخبط فيها المدينة، لذا أصبحت الهجرة تتجه نحو دواوير القبائل المجاورة كقبائل لوداية والحوزية بجوار الرباط، وقبيلتي أجصين وعامر بجوار سلا. وهكذا فإن هذه الأرياف تعرف اليوم بعض أشكال التوسع العمراني العشوائي، ويسكن هذه البيوت الهزيلة أسر فقيرة استوطنت المنطقة بحثا عن عمل . فإذا كان البعض منهم قد ساعده الحظ فحصل على وظيفة بسيطة في الإدارة أو على عمل عند الخواص أو في مقالع الحجر التي تزود المدينتين، فإن جلهم عاطل يشكو الفقر المدقع ، ويئن تحت وطأة الحرمان .

١ ـ ٣ ـ ٢ ـ ٦ ـ تمدين الشواطئ : مصطافات تتحول إلى منامات :

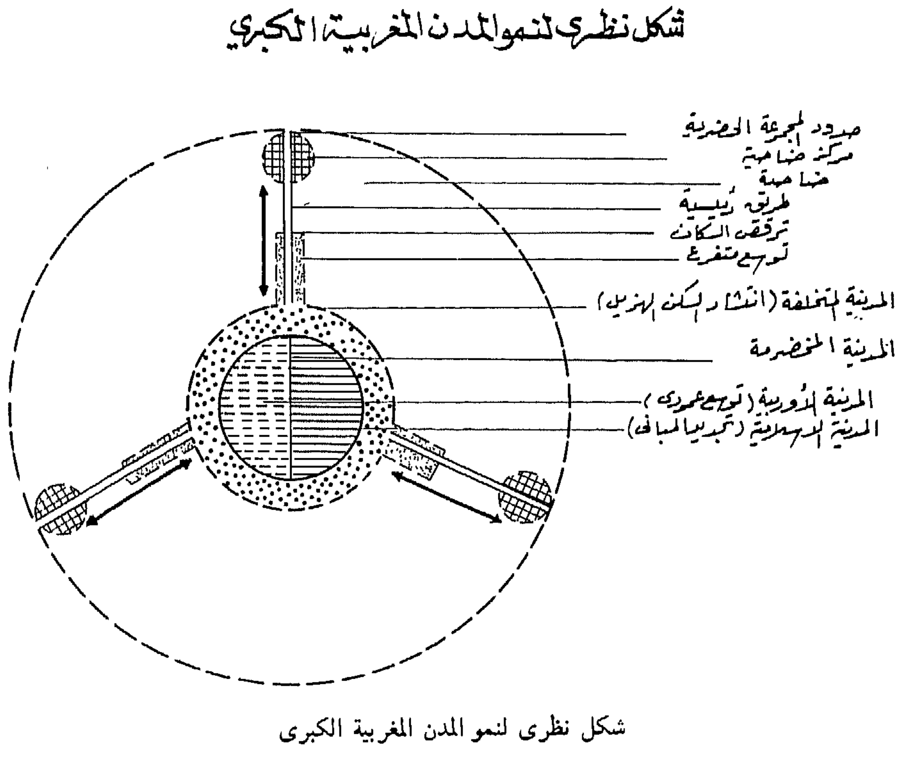
يعد الاستقلال بالنسبة للبلدان المستعمرة نقطة تحول هامة، انقلبت بعدها كل الأوضاع وخاصة الأوضاع الاجتماعية التي طبعها سلوك جديد ينسلخ عن العادات والتقاليد. ومن نتائج هذا التطور الاجتماعية أن أصبح المغاربة يتهافتون خلال الصيف على الشواطئ والمصطافات التي كانت الجالية الأجنبية قد شيدتها خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية. وتتوفر ضواحي الرباط ـ سلا على عديد كبير من الشواطئ الرملية والمصطافات الجميلة. فبعد الاستقلال أخذ أصحاب الحضر، موظفين وتجارا، يشترون البيوت من الأجانب أو يبنونها بأنفسهم قصد قضاء عطلة الصيف قرب البحر بعيدا عن حرارة المدينة وضجيجها. وهكذا وفي ظرف بضع سنوات تم بناء شريط ساحلي مترامي الأطراف، أصبحت تتردد عليه الأفواج الكبيرة من سكان العدوتين .

ولما بلغت أزمة السكنى ذروتها بحيث أصبح من الصعوبة بمكان إن لم نقل من باب المستحيل الحصول على مسكن داخل المدينة، أخذت بعض العائلات الثرية من مغاربة وأجانب تجنح إلى الاستقرار بهذه المصطافات، وجعلها إقامة دائمة، مع الاستمرار في العمل بالمدينة والتنقل يوميا عدة مرات .

مجموعة حضرية في طور التكوين :

لعل من أبرز مميزات التوسع الحضري التي عرفتها الرباط ـ سلا ظاهرة الإدماج التي تمخض عنها ظهور مجموعة حضرية (Agglomezation) متكاملة، لها مركز قيادي (الرباط)، وتجمعات تابعة متفاوتة الأهمية (سلا ، تمارة ..) ، ومجال نفوذ جغرافي تتسع رقعته وتتوطد علاقاته بالمدينة يوما بعد يوم (الضاحية). ويعتبر ظهور المجموعات الحضرية من الأحداث الجديدة في جغرافية العمران بالمغرب، إذ طالما بقي التوسع محصورا في رقعة معينة وإطار واضح .

وفي الأخير لا بد من الإشارة إلى أن كل هذه الأشكال للتوسع الحضري التي عرضناها بسرعة نجد ما يقابل البعض منها في أوروبا، غير أن الفرق بين الحالتين يكمن في الظرف الزمني الذي تحققت فيه هذه الأشكال، فإذا كان هذا الظرف في أوربا قد استغرق منذ الثورة الصناعية ، فهو لم يزد عن ربع قرن فقط بالنسبة للمغرب . (انظر شكل ١) .



شكل نظرى لنمو المدن المغربية الكبرى

آليات التوسع الحضـري :

بعد أن عرضنا مراحل النمو الحضري، ووصفنا الأشكال التوسعية التي رافقته، يبقى أن نتعرف على العوامل التى ساهمت في هذا التوسع، وفي الحيوية التي تميز بها، لنبرز بعد ذلك العناصر المتعددة التي أصبحت تتحكم في تطور المدينة وتوجهه .

٢ ـ ١ ـ عوامل التوسع الحضري :

٢ ـ ١ ـ ١ ـ الانفجار الديمغرافي :

٢ ـ ١ ـ ١ ـ ١ ـ الزيادة الطبيعية :

إذا كانت نسبة الولادات في المغرب تعد من أهم النسب المسجلة في العالم (٥٪)، فهي لا تزال منخفضة نسبيا في حالة مدينتنا، بحيث لا تتعدى ٢ر٦٪، أي إن تضاعف السكان لا يحدث إلا بعد ٢٥ سنة بدلا من ١٢ لو كانت النسبة فى المستوى الذي يسجل على الصعيد الوطني. وترد هذه الظاهرة الديمغرافية إلى تحسين نسبي في ميدان الصحة من جهة ، وإلى المستوى الثقافي المتفوق لسكان المدينتين بالمقارنة مع باقي البلاد.

٢ ـ ١ ـ ١ ـ ٢ ـ الهجـرات :

بما أن نسبة الولادات على ما رأينا فهذا يعني بالطبع أن النمو الديمغرافي الذي عرفته مجموعتنا الحضرية يرجع بالدرجة الأولى إلى الهجرة (٧ر٣٪)، وخاصة هجرة الأرياف التي أصبحت غير قادرة على تلبية حاجيات السكان، لا من حيث العمل أو التعليم أو الظروف الاجتماعية. وأزمة الأرياف هذه هي التي جعلت الأعداد الهائلة من السكان تقصد المدن الساحلية، ومن بينها الرباط ـ سـلا .

إن تضافر الزيادة الطبيعية والهجرات هو المسئول عن النمو السريع الذي طبع المجموعة الحضرية في العقود الأخيرة، وتقدر نسبة الزيادة حاليا بـ ٦ر٣٪ سنويا، أي إن عدد السكان يتضاعف كل ١٢ سنة، فإذا كانت الزيادة السنوية قد بلغت ١٨٫٠٠٠ نسمة سنة ١٩٦٠م فقد وصلت سنة ١٩٧٢م إلى ٣٠٫٠٠٠ لترتقي إلى ٦٠٫٠٠٠ سنة ١٩٨٢م.

٢ ـ١ ـ ٢ ـ وظيفة المدينة : عاصمة إدارية ومدينة جامعية :

اتخذ المغرب المستقل من مدينة الرباط، مقر الحماية في عهد الاستعمار، عاصمة له ومقر أول جامعة لطلابه، فكان طبيعيا إذن أن يتوافد على المدينة عدد من المواطنين قصد الشغل والتعليم، فإذا ظل عدد الطلاب لا يزيد إلا ببطء فإن عدد الموظفين عرف بالعكس نموا مطردا، خصوصا بالنسبة للمراكز المتوسطة والصغرى، حتى أصبحت الإدارة تظهر بمظهر المؤسسة الخيرية. ولقد اتضح من خلال بحث أجري سنة ١٩٧١م أن الإدارة توفر ٤٠٪ من العمل داخل المدينتين (٤٤٫٠٠٠ من أصل ١١٠٫٠٠٠)، ومن المعلوم، كما هو الشأن بالنسبة لكل البلدان المتخلفة، أن شخصا قد يحصل على أي عمل بالمدينة يساعد بطريقة أو أخرى على استقطاب أشخاص آخرين من الريف. ومن المعلوم كذلك أن عائدات هؤلاء الموظفين، مهما تكن قيمتها، تعمل على ازدهار قطاع التجارة والخدمات الهامشية التي تصبح بدورها عاملا جادا من عوامل تفاحش الهجرة .

٢ ـ ١ ـ ٣ ـ سياسة القروض للسكنى :

لما تفاحشت أزمة السكنى، وأصبحت تتخذ أبعادا خطيرة، بحيث تبين أن ما يزيد على ثلث مجموع السكان يعيش في ظروف لا تطاق (١٩٧٠م)، بدأت الدولة تسعى للتخفيف من حدة المشكل بمنح البعض قروضا متوسطة الأمد، (راجع الفقرة ١ ـ ٣ ـ و ٢ ـ ٣)، يشرف عليها البنك الشعبي بالنسبة لذوي الدخل البسيط والمتوسط، والقرض العقاري والفندقي بالنسبة لذوي الدخل العالي. فبالرغم من تواضع الاعتمادات التي خصصت لهاتين المؤسستين، بالنظر إلى العجز الهائل في ميدان السكنى، فإن القروض التي وزعت منذ سنة ١٩٦٣م سمحت بتلبية رغبات فئة لا بأس بها من السكان، وبالتالي بالزيادة في الرقعة الحضرية وتغيير وجه المدينتين .

٢ ـ ١ ـ ٤ ـ العوامل السياسية: الاهتمام بالموظفين والعسكريين :

لم يستطع المغرب المستقل، رغم ما يزيد على عشرين سنة من الاستقلال، إرساء قواعد ديمقراطية حقة، وتأسيس بنية اقتصادية صحيحة، الشيء الذي جعل البلاد تتخبط في أزمة دائمة، ففكر بعض الوصوليين للإطاحة بالحكم . والمحاولتان الانقلابيتان اللتان عرفهما المغرب

(١٩٧٠ و ١٩٧١م) هما اللتان جعلتا الحكم يسعى لتوسيع قاعدته السياسية، وتمتين أسسه عن طريق الاعتناء بالضباط والموظفين المتوسطين من حيث السكنى والأجور. وهكذا تم منذ بضع سنوات تأسيس مصلحة خاصة (مكتب السكنى العسكرية) قامت بإنجاز عدة مشاريع في كل من الرباط وسلا لفائدة الضباط وضباط الصف . بجانب هذا اهتم المسئولون كذلك بمساعدة موظفي العدوتين للحصول على سكنى، إما على شكل قطع أرضية، أو شقق يدفعون ثمنها بواسطة القروض التي تحدثنا عنها في الفقرة السالفة .

٢ ـ ١ ـ ٥ ـ ظهور قطاع صناعي في الضواحي :

قرر أول مقيم عام للحماية الفرنسية بالمغرب فصل شئون السياسة والإدارة عن أمور المال والاقتصاد، فجعل من الدار البيضاء العاصمة الاقتصادية، ومن الرباط العاصمة الإدارية. وأدى هذا الفصل، بمساعدة عوامل أخرى من أهمها فقر الأرياف المحيطة بالرباط ـ سلا، وتقهقر الميناء بسبب الإرسابات، ومنافسة المدن الساحلية الأخرى (القنيطرة شمالا، وفضالة جنوبا)، إلى ضعف القطاع الصناعي بالعاصمة الجديدة .

وبقيت الأوضاع هكذا طيلة عهد الحماية وحتى بعد الاستقلال إلى غاية السبعينات، بحيث أخذت بعض الصناعات الخفيفة تستقر في ضواحي المدينتين، نظرا لقلة الأراضي وارتفاع أثمانها داخل الدائرة الحضرية. وهكذا أصبح مركز تمارة وبوقنادل يستقبلان عدة مصانع، تهتم بالنسيج والبناء بالدرجة الأولى. وهذا القطاع الصناعي الحديث المرتبط بالرساميل الأجنبية هو المسئول عن النمو المفاجئ والمطرد للضواحي التي سبق أن تحدثنا عنها.

٢ ـ ١ ـ ٦ ـ دور النقل الجماعي : توسيع الأحياء الهامشية وتشجيع السكن الجماعي :

استجابة للتوسع الكبير الذي عرفته المدينتان ، وتمشيا مع انتشار الأحياء في الهوامش والضواحي، وجدت «الوكالة المستقلة للنقل الحضري» نفسها مجبرة على مسايرة هذه التطورات بخلق خطوط جديدة، تقدم للأحياء الجديدة خدماتها، وتسهل الربط بينها وبين باقي أجزاء المدينة .

وهكذا شهدت سنوات ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ م ارتفاعا في عدد خطوط الشبكة بنسبة ٨٠٪[١٢]. ثم لما أصبح سكان الضواحي يتكاثرون قررت الوكالة مد خطوطها إليها بالتدريج حتى تربطها بالمدينة. ولا شك أن هذا العامل سيلعب دورا حاسما في امتداد العمران، وتوسيع الرقعة الحضرية إن عاجلا أم آجلا .

٢ ـ ٢ ـ العوامل التي توجه التوسع الحضري :

٢ ـ ٢ ـ ١ ـ ١ ـ عوامل قانونية :

عدم توفر المجموعة الحضرية على تصميم حضري مصادق عليه :

من الطبيعي ومن اللازم أن تتوفر كل مدينة على خطة عمرانية، يلخصها ويترجمها تصميم حضري مصادق عليه من لدن كل الأطراف المعنية. وهذا التصميم هو الذي يحدد اتجاهات التوسع كما وكيفا. أما إذا لم يتوفر عن التصميم فالارتجال يصبح قاعدة ، والعشوائية سلوكا، والفوضى نتيجة حتمية. وهذا ما هو حال الآن بالذات لا في العاصمة وحدها بل في جميع المدن المغربية. فمنذ الاستقلال ١٩٥٦م وضعت التصاميم تلو التصاميم، منها ما هو شامل ، ومنها ما هو جزئي، دون أن يكتب حتى الآن ولو لواحد منها الحصول على الصفة القانونية. ويعزى هذا النقص إلى عدم تنسيق سياسة السكنى والتعمير بين مختلف المصالح المعنية من جهة وعدم اهتمام السلطة المركزية بهذه المشاكل من جهة أخرى.[١٣].

٢ ـ ٢ ـ ١ ـ ٢ ـ القانون العقاري للأراضي المحيطة بالمدينة:

من العوامل التي لها أثر في توجيه التوسع داخل المجموعة الحضرية الوضعية القانونية للأراضي المحيطة بالمدينتين. فبجانب الملكيات الخاصة هناك أراضي جماعية في حيازة القبائل ، وأراضي الأحباس، وأراضي «الجيش»[١٤]. وهذه الأراضي على اختلاف وضعيتها غير قابلة مبدئيا للتفويت، لذا فهي تشكل عقبة بالنسبة لتوسع المدينتين، خصوصا جنوب غرب الرباط، حيث يمتد «جيش لوداية». فإذا كان من اليسير حل مشاكل أراضي الأحباس باللجوء إلى عدد من الحلول كالمعاوضة مثلا، فإن أراضي الجماعات والجيش يصعب الاقتطاع منها بسبب معارضة السكان الشديدة. فلما قررت وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني بناء حي جديد

(حي الرياض) فوق أرض قبيلة لوداية، على مساحة ٤٥٠ هكتارا، احتج السكان، وأعربوا عن عدم قبولهم للمشروع، لكن الوزارة لم تتراجع عن موقفها. وأراضي الأحباس التي تمتد على مساحات هامة في وادي أبي رقراق، هي التي ساعدت على الحد من انتشار المخشبات والسكن الهزيل. فهذه الأراضي نقمة ونعمة في نفس الوقت: فهي نقمة لأنها تعرقل التوسع وتساهم بالتالي في ارتفاع الأثمان. ونعمة لأنها تفوت بعض الفرص على أشكال التوسع العشوائي. فعلى المسئولين والمخططين إذن أن يبحثوا عن أحسن الطرق لاستعمالها استعمالا نافعا.

٢ ـ ٢ ـ ٢ ـ العامل الاقتصادي: دخل الأسر:

تتميز البنية الاقتصادية للمجتمع بمدينتي الرباط وسلا بتفاوت كبير بين طبقات السكان من جهة، وقلة موارد الفئات المتواضعة من جهة أخرى. فلقد أظهرت بعض الدراسات (١٩٧١م) أن ٥ر٦٪ فقط من السكان المهنيين كانوا يسيطرون على مراكز القيادة بمختلف القطاعات، وكانوا يستحوذون على ٥٠ ٪ من مجموع العاملين كلهم. فهؤلاء بالطبع لم يتضررون بأزمة السكنى، ولم يعانوا منها، بل بالعكس ربما منهم من ساعد على خلقها والاستفادة منها عن طريق المضاربة، كما سنبين ذلك فيما بعد.

وبجانب هذه الزمرة المحظوظة يمكن التعرف على «طبقة متوسطة»، وهي التي تتراوح مداخيلها بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ درهم شهريا. وكانت هذه الطبقة تشكل ٤٥ ٪ من مجموع السكان العاملين. أما الباقي، أي ما يقرب من نصف المشتغلين (٤٨٪) فلم يكن دخلهم يتجاوز ٢٠٠ درهم، مع العلم أن منهم من يتعرض للبطالة من حين لآخر.

فهذه البيانات البسيطة كفيلة وحدها بأن تقنعنا بعدم قدرة سكان العدوتين على حل مشكلة السكنى حلا مرضيا ونهائيا. فلا غرابة إذن، والحالة هذه، أن تنتشر مدن الخشب، وتتعدد الأحياء المتسترة، وأن تتدهور الأحياء القديمة، وأن تطفح المدينة على الضواحي. لذا نعتقد أن العامل الاقتصادي من أهم وأقوى العوامل المسئولة على نوعية التوسع الحضري في مدننا كما في باقي مدن العالم المتخلف.

٢ ـ ٢ ـ ٣ ـ العوامل الاجتماعية : تفاوت اجتماعي صارخ :

عندما حصلت البلدان المستعمرة على استقلالها أخذت الأوضاع الاجتماعية تتطور بشكل سريع جدا جعل الحكام الجدد، من مدنيين وعسكريين، يشكلون طبقة شغلها الشاغل جمع المال والتفاخر به، في حين ظل السواد الأعظم من المواطنين يعيش في حرمان تام. والمغرب لم يخرج عن هذه القاعدة، لكن الحكم شعر بعد هزتين عنيفتين بضرورة التقليل من هوة الفوارق بين طبقات السكان، لذا عكف، كما سبق أن ذكرنا، على خلق فئة اجتماعية «متوسطة» تكون سندا له وفاصلا بينه وبين الطبقات الكادحة. وسياسة الإسكان والقروض التى نهجتها الدولة ليست في الحقيقة إلا إحدى الوسائل لتحقيق هذه الغاية.

فكان طبيعيا أن تنعكس هذه الأوضاع الاجتماعية المستحدثة على مورفولوجية المدنية ونسيجها. فالأسر الثرية لا تستقر إلا في الأحياء الراقية، موقعها جميل، وموضعها مناسب، وبيوتها براقة، وحدائقها غناء، وشوارعها واسعة، وأرصفتها نظيفة. أما المعوزون والمغلوب على أمرهم فمأواهم الأحياء الهامشية، تتراكم بيوتها وتلتصق بالمنحدرات «في الصيف محروقة في الشتاء مغروقة»، نهارها غبار وعرق، وليلها ظلام وخوف(١٥). بقي الآخرون «أي المتوسطون»، فهؤلاء يسكنون «الأحياء الشعبية»، وهي أحياء مكتظة بالسكان وكثيرة الحركة، تتوفر على بعض التجهيزات كالكهرباء والماء والمدرسة والمستوصف، ولكنها في حاجة ماسة إلى مرافق حيوية أخرى كالحدائق العمومية والملاعب الرياضية والأندية المختلفة.

وخلاصة القول: إن التفاوت الاجتماعي تسبب ولا يزال في تفكك المدينة اقتصاديا واجتماعيا، ليجعل منها مجتمعا متعدد العناصر، لكل منها أوضاع خاصة ونمط متميز من العيش .

٢ ـ ٢ ـ ٤ ـ الدور السلبي للمجالس البلدية السابقة :

منذ حل أول برلمان سنة ١٩٦٥م وحالة الاستثناء مستمرة إلى أن نظمت انتخابات عامة على الصعيدين الوطني والمحلي سنة ١٩٧٦م. وخلال هذه الفترة الطويلة، وفي غياب أي تنظيم ديمقراطي، لم تضطلع المجالس البلدية المعنية بمسئولياتها، ولم تقم بواجبها، وما أكثرها، فتركت الأوضاع تتأزم والمشاكل تتراكم. فهي لم تحاول رسم سياسة اقتصادية، ووضع خطة عمرانية

حتى يرتفع مستوى السكان وتتحسن ظروف عيشهم، لكنها برعت في تنظيم الحفلات وإحياء السهرات، وتفانت في خدمة أصحاب الرساميل والمناصب العليا الذين أصبحوا يضاربون بالعقار ويشيدون العمارات. فلا عجب إذن إذا غلب طابع العشوائية على التوسع الحضري، وفقدت المدينتان التوأمان ما كان لهما من جمال وسحر سلبا عقول كل الزائرين في الماضي .

٢ ـ ٢ ـ ٥ ـ المضاربة : معضلة المدن :

إن الأوضاع السائدة في المدن المغربية جعلت الأرض في نهاية الأمر «متاعا» نادرا، ترتفع أثمانه وتتزايد يوما بعد يوم. وهذه لا محالة ظروف تشجع المضاربة والمضاربين. ولم تنحصر هذه المضاربة في دائرة أصحاب الرساميل ورجال الأعمال، بل سرعان ما شملت التجار المحتكرين والموظفين المرتشين والعسكريين الطامعين، وهكذا ظهر سلوك اجتماعي جديد كان له أسوأ الانعكاسات على باقي أفراد المجتمع، إذ إن المضاربة شاعت حتى بين الفئات المتواضعة في الأحياء المحرومة .

آليات خاصة بالبلدان المتخلفة :

إن جل الآليات التي حاولنا أن نفسر بها أشكال التوسع الحضري بمدينتي الرباط وسلا، والتي نجدها تعمل اليوم بنفس الشكل تقريبا في باقي المدن المغربية، خصوصا الكبرى منها، هي آليات منبثقة بالدرجة الأولى عن التخلف الشامل الذي نعيشه اليوم. حقا هناك بعض الآليات كالمضاربة مثلا أو النقل الجماعي التي لها دور في توسع المدن خارج البلدان المتخلفة، لكنها تلعب دورا متفاوتا جدا في كلتا الحالتين .

خاتمـة عامـة :

إن البلدان المتخلفة والمتقدمة على السواء، وإن اختلفت فيهـا الأوضـاع والأسبـاب والأساليب، تعاني حاليا من أزمة حادة داخل المدن. واستأثرت هذه الأزمة باهتمام كل من المسئولين والتقنيين والباحثين، خاصة في البلدان المتقدمة التي عرفت المشاكل مبكرا. والحلول العديدة التي ابتكرت منذ ما يزيد على نصف قرن لم تستطع حتى الآن أن تجعل من المدينة مقرا يلبي كل الطلبات، وبيئة يرضى عنها الجميع، لأن هذه الحلول غالبا ما اتخذت طابعا تقنيا يقتصر على رقعة المدينة وحدها. وأظهرت التجارب أنه من الضرورة بمكان أن يتم تخطيط المدن في إطار شامل ، يضم المدينة وما حولها، مع الأخذ بعين الاعتبار العلاقات القائمة مع باقي المناطق في شتى الميادين. وهذا ما أصبح يسمى «بتنظيم المجال».

فعلى الرغم من التقدم الحاصل بفضل هذه الرؤية الجديدة، فإن الحل مرة أخرى جاء حلا تقنيا، لأنه يبقى بعيدا كل البعد عن المشاكل الجوهرية للإنسان الذي نظم من أجله المستوطنات. فإذا كنا لا ننكر أن الطريقة الجديدة تولي اهتماما بالغا وعناية كبرى بالجوانب الاقتصادية ومشاكل الشغل والإسكان، فإننا نشك في حلها للمشاكل كلها حلا شاملا، ما دام لم يكن هناك اهتمام مواز بالفرد والمجتمع. ولعل هذه مسألة أكثر تعقيدا وأصعب حلا، لن يتأتى التغلب عليها إلا بتطبيق تعاليم الإسلام الذي نظم الدين والدنيا .

ولربما هناك من سيستغرب أو يتعجب في ربط مشاكل المدن بالدين، فلا غرابة ولا عجب في الأمر. فهل تذكر المستغرب والمتعجب أن الاسلام دين العلم والعمل، دين الحرية والاستقامة ؟ فالعالم يضمن عيشه، والحر يحترم غيره، والمستقيم يصلح مجتمعه. فلو كان الإسلام الحق سيرة الأفراد والمجتمعات لما حصلت الفضائح العقارية التي نسمع عنها في نيويورك أو باريس أو الدار البيضاء، ولما اشتعلت نار المضاربة التي حطمت المدن ، ولما أضحى الفرد غريبا بين ملايين البشر وضجيج الشوارع .

الحواشي

الزاوية مؤسسة ذات طابع ديني، غالبا ما ترجع نشأتها إلى شيخ ذاع صيته واشتهرت طريقته ، فأصبح يحج إليها الزوار طلبا للعلم أو تيمنا بالولي الصالح. وبعد موت المؤسس أصبح أولاده وأتباعه يسهرون على الزاوية ويرعونها، خصوصا باستقبالهم للزوار الذين يفدون وهم محملون بالهدايا. ولعل هذه الزوايا من أكبر البدع التى عرفها الدين في هذا الجزء من العالم الإسلامي. ومن المعلوم أيضا أن الزوايا لعبت في حقب مختلفة من تاريخ المغرب دورا سياسيا هاما .

الزليج قطع من الفخار مطلية، باهتة الألوان، تزين بها الجدران .

وهى التسمية المستعملة في البوادي التي ينتمي إليها المهاجرون للدلالة على التجمعات السكنية. وهذه التجمعات غالبا ما كانت عبارة عن خيام تقام على شكل دائري .

من المعلوم أن النسيج الحضري استعارة تستعمل لإبراز التفاوت في توزيع الرقع المبنية داخل المدينة. ويتضح النسيج الحضري من خلال التصميم الذي يبين الرقع المشغولة من جهة والرقع الفارغة من جهة أخرى .

نسبة إلى المخزن، ويقصد به في المغرب الدولة .

تشيد حاليا بالمدينة «الأوربية» بالرباط ناطحة سحاب تتألف من ١٨ طابقا .

إن القارئ يفهم ولا شك أن هذه الأحياء لا تتوفر على التجهيزات الضرورية كالإسالة المائية والتيار الكهربائى والمجارير إلخ ..

تحريف لكلمة «زينة» .

الخطة الخمسية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧م، ص ٢٩ .

الدولار الأمريكي يساوى ٥ دراهم تقريبا .

تبين لنا من خلال بحث قمنا به سنة ١٩٧٠م أن نسبة هؤلاء بلغت ١٥٪ من مجموع سكان المركز .

عن تقرير الوكالة (يوليو ١٩٧٦م) .

والدليل على هذا أن شئون السكنى والتعمير ظلت إلى زمن غير بعيد مجرد مصلحة لوزارة الداخلية .

هى أراضي كانت السلطات، منذ عهد السعديين (القرن ١٦م) إلى منتصف القرن الماضي، تمنحها لبعض القبائل قصد الانتقاع فقط مقابل خدمة عسكرية إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

ليس هذا التعبير من باب المبالغة الأدبية، فبعد مغيب الشمس عن هذه الأحياء يصبح التجول في الأزقة والدروب ضربا من المغامرة والتهور .

حركة الحج من دول العالم الإسلامى

دكتور احمد على اسماعيل

على الرغم من الدور الخطير الذي يلعبه الدين في حياة البشر، وعلى الرغم من أن جغرافية الأديان ليست فرعا بالغ الحداثة بين العلوم الجغرافية، إلا أن نصيب هذه الدراسات قليل للغاية في كتابات الجغرافيين، وأقل من القليل في المناهج الدراسية للجغرافية على أي مستوى .

وتعنى معظم الدراسات القليلة التي تعرض لجغرافية الأديان بدراسة التوزيع العددي أو النسبي لأتباع دين ما، أو لتوزيع أتباع العقائد عامة. ولكن الدراسة الجغرافية للإسلام تتضمن بعض الأبعاد التي قد لا تتوفر في ديانات أخرى، ومن ذلك دراسة حركة الحجاج المسلمين من أقطار العالم الإسلامي، وانسياب هذه الحركة في اتجاه مكة المكرمة، والأثر الذي تحدثه هذه الحركة السنوية سواء في الأراضي المقدسة أو في المواطن التي يفد منها المسلمون .

ولعل دراسة حركة الحج من أقطار العالم الإسلامي تفيد في فهم بعض الأمور، أو تساعد على توضيح الصورة الجغرافية لأحوال المسلمين، وما يتعرضون له من ظروف اقتصادية وسياسية في أوطانهم، كما أنها قد تمثل زاوية جديدة في تحديد مفهوم العالم الإسلامي. وكانت بعض رحلات الحج التي سجلها رحالة من المسلمين في قرون سابقة ذات أثر بالغ في فهم كثير من الجوانب الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، ومن ذلك رحلات ابن جبير وغيره[1] .

وإذا كانت الجغرافية التاريخية للإسلام قد اهتمت في معظم الأحوال بدراسة مهد الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وطرق انتشار الإسلام، والهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم الهجرة الثانية إلى المدينة، والغزوات وحروب الردة، ثم دراسة الدولة الإسلامية في توسعها ثم انكماشها[2]، فإن ذلك يتطلب أيضا دراسة جغرافية الحج من وجهة النظر التاريخية، لما يمكن أن يلقيه ذلك من أضواء كثيرة على كل الموضوعات السابقة، وكذلك على أحوال المسلمين ومواطنهم في مختلف العصور. ولكن مثل هذه الدراسة تتطلب جهد كثير من الباحثين في الجغرافية والتاريخ والاجتماع والاقتصاد. على أن دراسة حركة الحج المعاصرة قد تكون مفتاحا لدراسة الماضي ومقدمة لها .

هذا ويمكن دراسة السلسلة الزمنية للحج خلال نصف القرن الأخير بقدر معقول من الثقة، وذلك لأن البيانات العامة عن أعداد الحجاج تنشر بانتظام منذ قيام المملكة العربية السعودية وتوحيد شبه الجزيرة العربية . ويوضح الجدول رقم (١) تطور أعداد الحجاج منذ عام ١٣٤٥ هـ حتى عام ١٣٩٧ هـ، أي أكثر قليلا من نصف القرن .

ومن استعراض الأرقام، ومحاولة التعرف على العوامل المختلفة التي أثرت في تباين أعداد الحجاج خلال هذه الفترة، يمكن معرفة الاتجاهات المحتملة لأعداد الحجاج في المستقبل، وأهم المتغيرات المؤثرة في ذلك، ثم دراسة التيارات الرئيسية لحركة الحج بعد ذلك .

أولا : العوامل المؤثرة في حركة الحج :

١ ـ المناخ :

أدى التطور المستمر والهائل في حركة النقل والمواصلات إلى اختصار الفترة التي تتطلبها رحلة الحج من أي قطر إسلامي إلى الأراضي المقدسة، وبالتالي فإن الفترة التي يقضيها الحاج بعيدا عن موطنه لم تعد طويلة كما كانت في الماضي، ومع ذلك فإن هذه الفترة تتراوح الآن بين بضعة أيام وعدة شهور حسب وسيلة السفر، والجدول الزمني لذلك. ولما كان الحج يرتبط بالتقويم الهجري، فإن هذا يعني إمكانية حدوثه في أي فصل مناخي. وتتم شعائر الحج كلها في منطقة صحراوية المناخ، ويزيد من الإحساس بأثر المناخ المباشر، وبخاصة الحرارة، أن الشعائر تتم في أرض مكشوفة، وأن الحاج يتخفف من ملابسه في حال إحرامه، مما يجعله أكثر تأثراً بالمدى الحراري اليومي، وليس بالموسم أو الفصل المناخي فقط كما أن الخيام هي الصورة الرئيسية للسكن خلال فترة أداء الشعائر الرئيسية للحج .

ويلاحظ أن السنة الهجرية (القمرية) تنقص أحد عشر يوما عن السنة الشمسية (الميلادية)، ونتيجة لذلك فإن أي شهر قمري يتنقل خلال مختلف الفصول المناخية كل ٣٢٫٥ عاما تقريبا، وهذا يعني أن موسم الحج إذا حدث خلال الصيف الحار في إحدى السنوات، فإنه يحل في فصل الشتاء البارد بعد حوالي ١٦ عاما[٣]. فإذا قسمنا الفترة من ١٣٥٠ ـ ١٣٩٧ إلى ثلاثة أقسام تضم كل منها ١٦ عاما للمقارنة بين أعداد الحجاج وتأثر ذلك بوقوع وقفة عرفات في مختلف شهور السنة الشمسية، فإن ذلك يساعد في تحليل أثر المناخ في حركة

لحج. (انظر الأشكال ١ ـ ٣). ويمكن بصفة عامة أن نستنتج من الجدول رقم (١) ومن لأشكال سابقة الذكر ما يلي :

١ ـ إن ىمة اتجاها عاما لتزايد أعداد الحجاج، بمعنى أن السلسلة الزمنية الكاملة لحركة لحج خلال أكثر من نصف قرن تتجه عامة إلى الزيادة، ومع ذلك فإنه يظهر أمر التذبذب في بعض الفترات والأعوام مما يعرف إحصائيا بالفروق الدورية Cyclicel Variation ولكن هذه لفروق الدورية ليست متكررة بفوارق زمنية ثابتة، وهذا في حد ذاته يجعل ربط السلسلة الزمنية للحج بالعنصر المناخي أمرا غير مؤكد.[٤]

٢ ـ ربما تؤدي دراسة بيانات السنوات الساذة ـ ارتفاعا وانخفاضا في الأعداد ـ إلى نفس النتيجة السابقة، فقد كان عام ١٣٩٤ هـ هو أكثر الأعوام التي تدفق فيها الحجاج من خارج المملكة العربية السعودية خلال السلسلة الزمنية كلها، وكانت وقفة عرفات في ذلك العام خلال شهر ديسمبر، ويأتي بعده من حيث الترتيب التنازلي لأعداد الحجاج أعوام ١٣٩٥ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٦ هـ، وكانت وقفة عرفات خلال تلك الأعوام تحدث في ديسمبر أو نوفمبر. وفي عام ١٣٩٢هـ كانت وقفة عرفات خلال شهر يناير، ومعنى هذا أن هذه الأعوام القياسية في ارتفاع أعداد الحجاج قد اقترنت فيها وقفة عرفات بأشهر النستاء، ولكن العام القياسي في انخفاض أعداد الحجاج خلال السلسلة الزمنية، وهو عام ١٣٥٩هـ والأعوام التي تليه من حيث الانخفاض في أعداد الحجاج وهي أعوام ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ىم ١٣٥٨، قد اقترنت وقفة عرفات فيها جميعا بأشهر الشتاء أيضا، وهي يناير وديسمبر.

٣ ـ ليس ىمة مبرر قوي لرابطة حتمية بين المناخ وأعداد الحجاج، ففي خلال الفترة ١٣٦٦ إلى ١٣٨١هـ، ومقارنتها بالفترة ١٣٨٢ ـ ١٣٩٧ يظهر التباين واضحا. ففي الفترة الأولى تزداد أعداد الحجاج حين تقترن وقفة عرفات بأشهر الصيف الحارة (يونية ومايو)، وذلك في أعوام ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٧٩ هـ. بينا تكون أقل أعداد قدمت للحج هي التي حدثت حين اقترنت وقفة عرفات بأشهر اعتدال درجة الحرارة (أكتوبر وسبتمبر) في الأعوام من ١٣٦٦ ـ ١٣٧٠هـ. أما في الفترة الثانية (١٣٨٢ ـ ١٣٩٧هـ) فقد حدث العكس تماما، وظهر اتجاه واضح لارتفاع أعداد الحجاج حين تقترن وقفة عرفات بأشهر الشتاء أو اعتدال الحرارة، ويتضح ذلك من مقارنة أعداد الحجاج في الأعوام من ١٣٨٢ ـ ١٣٨٧هـ ، وهي التي حدثت

فيها وقفة عرفات بين شهري مارس ومايو، وكانت أعداد الحجاج أقل كثيرا منها في الأعوام بين ١٣٨٨ ـ ١٣٩٧هـ، وهي التي اقترنت فيها وقفة عرفات بالشهور بين نوفمبر وفبراير.

٤ ـ يتضح من دراسة أعداد الحجاج في خلال الفترة ١٣٤٦ ـ ١٣٩٧هـ (٥٢ عاما) أن جملة الحجاج بلغت ١١،٥٦٠،٤٨٧ حاجا، أي بمتوسط سنوي ٢٢٢،٣١٧ حاجا. ولكن مراجعة أعداد الحجاج في كل عام على حدة توضح أن هذا المتوسط الذي يصل إلى حوالي ربع المليون لم يبدأ في الظهور إلا منذ عام ١٣٧٤هـ، بل إن متوسطات أعداد الحجاج لم تصل إلى مائة ألف حاج سنويا قبل عام ١٣٦٩هـ. ومعنى ذلك أن المتوسط العام للفترة كلها تأثر بارتفاع أعداد الحجاج خلال العقدين الأخيرين والسنوات السبع الأخيرة على نحو خاص، وهي التي ارتفعت فيها أعداد الحجاج عن نصف مليون حاج سنويا، وبقمة قاربت المليون في عام ١٣٩٤هـ. وقد أثر ارتفاع أعداد الحجاج خلال هذه الفترة المحدودة على المتوسط العام. ومن الجدير بالذكر أن هذا الارتفاع في أعداد الحجاج في الأعوام الأخيرة، اقترن بحدوث الحج في موسم انخفاض درجة الحرارة، ولا نستطيع مع ذلك أن نؤكد الارتباط بين انخفاض الحرارة وارتفاع أعداد الحجاج، لأن المتغيرات الأخرى التي حدثت خلال الأعوام الأخيرة لم يتح لها أن تختبر حين كان الحج يأتي في موسم ارتفاع درجة الحرارة، وربما يمكن حين يحدث ذلك أن تربط بين المناخ وأعداد الحجاج بقدر أكبر من الثقة.

٢ ـ أمن الطريق :

يعتبر أمن الطريق أحد العوامل الهامة المؤثرة في أعداد الحجاج الذين يفدون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ويرتبط بمفهوم أمن الطريق أن يكون وصول الحجاج من بلادهم إلى المناطق المقدسة وعودتهم منها إلى ديارهم أمرا سهلا. ولكن عندما تضطرب الأحوال في جزء من الطريق تقل أعداد الوافدين من الحجاج عبر هذا الطريق، ويدخل في ذلك أخطار الحروب سواء كانت محلية أو عالمية. ويمكن أن نلاحظ ذلك بإعادة النظر في جدول أعداد الحجاج (الجدول رقم ١)، فأقل موسم حج خلال الفترة هو الذي حدث في عام ١٣٥٩هـ (يناير ١٩٤٠م)، وكانت الحرب العالمية الثانية قد شبت قبل موسم الحج بعدة أشهر. ولما كانت أقطار المسلمين في ذلك الوقت خاضعة في معظمها للاستعمار الأوربي، فقد كانت هذه الأقطار أطرافا مرغمة في هذه الحرب التي تنازعت فيها قوات المحور والحلفاء، وأكثر من ذلك فإن

بعض أجزاء العالم الإسلامي، خاصة في شمال إفريقية، قد شهدت بعض المعارك الحاسمة لهذه الحرب، وتأثر أمن الطريق بين هذه الأقطار والبلاد المقدسة، مما أدى الى قلة أعداد الحجاج حتى انتهت الحرب، فعاودت الأعداد ارتفاعها من جديد، ثم حدث ارتفاع ملموس في أعداد الحجاج ابتداء من عام ١٣٦٨هـ ، حين هدأت الأحوال .

ويلاحظ أن فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٧م) شهدت نفس الظاهرة، وكانت تركيا طرفا في هذه الحرب. ولما كانت البلاد المقدسة وأجزاء أخرى غيرها من مواطن المسلمين في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا لا تزال خاضعة لتركيا ـ ولو من الناحية الاسمية ـ فقد تأثر أمن الطريق بالحرب العالمية الأولى، وقد دارت بعض معارك هذه الحرب حول قناة السويس، وأصبحت المواصلات إلى الحجاز مهددة تماما، وقد ضاعف من ذلك حدوث ما يعرف «بالثورة العربية» التي قام بها شريف مكة، مما حدا ببعض الحكومات ومنها الحكومة المصرية إلى الإعلان بأن الطريق إلى الحج غير آمن، وقد صدرت فتوى في مصر في عامي ١٩١٤، ١٩١٥م تجيز تأجيل الحج استنادا إلى عدم أمن الطريق.(٥)

وفي عام ١٩٢٥م كانت الحرب لا تزال دائرة في الحجاز بين جيش الشريف حسين وجيش الملك عبدالعزيز آل سعود، وعلى الرغم من استيلاء عبدالعزيز على الموانئ الحجازية التي تقع إلى الشمال من جده وإلى الجنوب منها، وإعلانه فتح البلاد للحج، إلا أن أعداد الحجاج كانت منخفضة جدا، لأن جدة ، وهي ميناء مكة الرئيسي، كانت محاصرة، وكانت بقايا مقاومة الشريف حسين لا تزال متحصنة بها، بل إنه كان قد منع الحجاج النجديين من الحج قبل ذلك.(٦) وكان الملك عبدالعزيز قد وجه نداء إلى المسلمين يعلنهم فيه: «أن النظام قد ساد في البلد المطهرة، واستتب الأمن فيها، وأنه يرحب بحجاج بيت الله الحرام من المسلمين كافة في موسم هذه السنة (١٣٤٤هـ)، وأنه يتكفل بتأمين راحتهم، والمحافظة على جميع حقوقهم، وتسهيل سفرهم إلى مكة المكرمة من أحد الموانئ الثلاثة: رابغ ، والليث، والقنفذة»(٧). وذلك قبل أن يستولي على جدة .

ويظهر أثر الحروب المحلية بدرجة واضحة إذا نظرنا إلى مراحل الصراع العربي الإسرائيلي، وخاصة بالنسبة لحروب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧، ١٩٧٣م، وكذلك الحال بالنسبة للحروب المحلية في بقية أجزاء العالم الإسلامي، مثل الحرب الهندية الباكستانية (١٩٧١م)، أو الحرب

الأهلية في نيجيريا (١٩٦٧ ـ ١٩٧٠م)، أو الحرب الأهلية في لبنان. ولكن لا بد من التفرقة بين الحروب المحلية التي تؤثر في بقعة محدودة، وتلك التي يتأثر بوقوعها قطر كبير أو يهدد أمن الطريق لأقطار أخرى يكون الوصول منها إلى الأراضي المقدسة عبر أرض متأثرة بالحرب. ومن ذلك أن الحرب العربية الإسرائيلية أدت إلى إغلاق قناة السويس أكثر من مرة، مما قلل من أعداد الحجاج من دول شمال إفريقيا التي كانت تأتي أعداد كبيرة منها بطريق البحر عبر قناة السويس، بينما لم تؤثر الحرب المحلية في اليمن مثلا إلا في أعداد الحجاج من اليمن فقط.

وثمة أمر آخر يرتبط بأثر الحرب وتهديد أمن الطريق، وهو أن خطر الحرب يؤدي إلى رد فعل عكسي عادة، يتمثل في زيادة أعداد الحجاج في أعقاب الحروب مباشرة، ويمكن تتبع ذلك بالنسبة للحروب سابقة الذكر، وخاصة بالنسبة للحروب العربية الإسرائيلية. (انظر الشكل رقم ٤ من أعداد الحجاج في كل من مصر وسورية والأردن وتأثرها بالحروب العربية الإسرائيلية في جولات عام ١٩٦٧ و ١٩٧٣م ثم رد الفعل عقب كل حرب).

٣ ـ العوامل الاقتصادية :

الحج فريضة مشروطة بالاستطاعة، وتمثل التكلفة المادية عنصرا حاسما في الاستطاعة، وعلى الرغم من أن فقراء المسلمين هم الذين يشكلون السواد الأعظم من الحجاج كل عام، مما يعني أن توفير تكلفة الحج يستغرق منهم وقتا وجهدا طويلا، ربما يستغرق معظم عمرهم، فإن مجرد تحقيق أمنيتهم يعني الاستطاعة. ولما كانت معظم أوطان المسلمين تدخل في نطاق الدول النامية، التي يتحكم في اقتصادياتها محصول نقدي رئيسي، وخاصة بالنسبة للدول التي يعتمد اقتصادها على الزراعة، ويتحكم هذا المحصول في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكان تلك الأقطار، ويمثل مصدر الدخل الرئيسي لهم، فإن وفرة إنتاج المحصول، وسعره في السوق العالمي، كثيرا ما ينعكس على حركة الحج من تلك الأقطار.[٨] ومن أمثلة تلك المحاصيل كل من القطن في مصر والسودان، والمطاط في ماليزيا وإندونيسيا، والفول السوداني في شمال نيجيريا. ولكن لا تزال ثمة حاجة إلى دراسات مفصلة لتطور أعداد الحجاج من تلك الدول، وربط ذلك بالمتغيرات الاقتصادية والمحصولية.

وثمة فئة أخرى من الدول الإسلامية أصبح البترول يشكل مصدر الدخل الرئيسي لها، وارتفعت المستويات الاقتصادية لسكانها، سواء أولئك الذين يعملون في القطاع الحكومي أو في التجارة وغيرها من المهن الحرة، ومن الطبيعي أن تتأثر أعداد الحجاج من هذه الدول بحدوث الطفرة في اقتصادها القومي وانعكاس ذلك على دخول الأفراد، ومن هذه الدول كل من ليبيا والجزائر والكويت وإيران وغيرها .

ويلاحظ أن حدوث أزمات في الاقتصاد الدولي تؤثر أيضا في أعداد الحجاج، لأن ذلك يرتبط كثيرا بالتضخم النقدي وانهيار قيمة العملة، كما حدث في فترة الكساد العالمي في الثلاثينات، والتي كانت بمثابة مقدمة للحرب العالمية الثانية. ولهذا انخفضت أعداد الحجاج في الفترة بين أعوام ١٣٤٩ ـ ١٣٦٤ هـ (١٩٣١ ـ ١٩٤٥م)، وهي تضم أعوام فترة الكساد العالمي والحرب العالمية الثانية معا. وقد شهدت الفترة التالية لها ابتداء من موسم حج ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) ارتفاعا واضحا في أعداد الحجاج، لانتهاء الحرب وظروف أزمة الثلاثينات وعودة الأوضاع إلى طبيعتها إلى حد كبير .

٤ ـ عوامل أخرى :

هذه العوامل متنوعة، فمنها ما يرتبط بالأحوال السياسية، ومنها ما يرتبط بالأحوال الصحية، والعوامل الأخيرة كثيرا ما ترتبط بالحج نظرا لأنه يمثل تجمعا كبيرا من مختلف أقطار العالم، ويعيش الحجاج في ظروف سكنية مؤقتة، وقد يحمل بعضهم معه عدوى بعض الأمراض، وقد يحمل آخرون أطعمة فاسدة، أو يستخدمون مصادر مياه غير نقية، أو ما إلى ذلك من أسباب انتشار الأمراض بسرعة في مثل ظروف هذا التجمع المؤقت. وكانت الكوليرا هي أكثر الأمراض المؤثرة في الحجاج منذ وقت مبكر، خاصة وأنها مرض متوطن أو شبه متوطن في بعض الأقطار التي يفد منها الحجاج، مثل شبه القارة الهندية. وإذا كانت وسائل الانتقال الحديثة قد أدت إلى سرعة وصول الحجاج من مواطنهم، فإن أي تقصير في اتباع الإجراءات الصحية المتعارف عليها دوليا قد يؤدي إلى نتائج مؤسفة .

وقد أدى ظهور وباء الكوليرا في مكة في عام ١٨٦٥م (١٢٨١هـ)، ثم انتشارها عن طريق الحجاج في عودتهم إلى أقطارهم، ثم في بقية أجزاء العالم، إلى أن عقد المؤتمر الصحي الدولي

الثالث في إسطمبول في عام ١٨٦٦م، ونوقش فيه استخدام العزل الصحي للحجاج وللسـ
التي يشك في وجود حالات كوليرا عليها.(٩)

وعندما استخدمت الطائرات في نقل الحجاج زادت أخطار انتقال العدوى في حالة الو
وعلى الرغم من العناية الكبيرة التي تبذلها الحكومة السعودية، سواء بالنسبة لإجراء
الدخول والتفتيش على البطاقات الصحية، أو بالنسبة لوجود عدد كبير من مراكز الإسعا
والمستشفيات في كل من مكة المكرمة ومنى وعرفة، وكذلك وجود عدد من البعثات الطبية للد
الإسلامية، فإن ذلك لم يمنع من ظهور الكوليرا أكثر من مرة خلال العقد الأخير، وإن كـ
حصر الوباء بسرعة كأن يمنع تفاقم الخطر في كل مرة، ولكن بالنظر إلى ارتباط تلك الأخـ
بموسم الحج أثناء وجود الحجاج فعلا في الأراضي المقدسة، إلى جانب التشدد من جانب الحكـ
السعودية والحكومات الإسلامية الأخرى في عمليات تطعيم الحجاج قبل السفر وعزلهم
عودتهم، فإن أثر العوامل الصحية لم يعد كبيرا في حركة الحج اليوم .

أما أهم ما يلاحظ بالنسبة للعوامل السياسية، فهو اختفاء الحجاج الذين يعيشون في د
شيوعية من قوائم الحجاج، وفي الماضي كانت تفد أعداد كبيرة من الحجاج الروس والصينيـ
وقد استقر بعض هؤلاء في السعودية، ولا تزال كثير من الأسماء تحمل أعلاما روسية أو صينـ
ولكن عدم اعتراف المملكة العربية السعودية بأنظمة الحكم في الدول الشيوعية، وعدم السـ
لرعايا هذه الدول، أدى إلى غياب كثير من مواطني هذه الدول من قوائم الحجاج. وعلى حـ
تظهر الصين الوطنية في القوائم فإن الصين الشعبية لا تظهر بها برغم وجود أقلية مسلمة ؛
ولكن يلاحظ أن يوغوسلافيا تظهر بانتظام في القوائم .

وأحيانا تؤثر العلاقات السياسية بين السعودية وبين إحدى الدول الإسلامية في زيـ
أعداد الحجاج أو خفضها، كما حدث حين طبقت مصر نظام القرعة، وإن كان ذلك قد فـ
بالعامل الاقتصادي للتقليل من التحويلات النقدية إلى خارج البلاد .

ثانيـا : تيارات الحج الرئيسية :

يتضح من الجدول رقم (٢) أن الأقاليم الجغرافية الرئيسية التي تسهم في حركة الحج هـ
الدول العربية، ثم دول آسيا غير العربية، تليها دول إفريقيا غير العربية على الترتيب أ

بقية قارات العالم ، وتشمل القارة الأوربية والأمريكتين وأستراليا وبقية جزر العالم، فتأتي في المرتبة الأخيرة، ولا تشكل سوى نسبة قليلة للغاية في حركة الحج .

وخلال العقد الأخير (١٣٨٧ ـ ١٣٩٦هـ) أسهم العالم العربي بحوالي نصف عدد الحجاج (٤٩٪ كمتوسط سنوى)، وأسهمت الدول الآسيوية ـ غير العربية ـ بحوالي (الخُمسين) من أعداد الحجاج (٣٨٫٤ ٪ كمتوسط سنوي)، على حين أسهمت الدول الإفريقية غير العربية بنسبة ١٢ ٪ من الحجاج سنويا، ولم تسهم بقية أجزاء العالم بأكثر من ٦ ٪ من متوسط الحجاج سنويا .

وقبل الدخول في تفصيلات كل تيار من هذه التيارات، فإن لنا أن نتساءل: إلى أي حد تعكس هذه النسب العامة توزيع المسلمين على هذه الأقاليم الجغرافية ؟ ومن الطبيعي أن نجد تضاربا بين الأرقام التي تمثل أعداد المسلمين أو نسبهم إلى سكان مختلف الأقطار، وتختلف هذه الأعداد أو النسب من مصدر لآخر، ولذلك فإن الأمانة تقتضي القول بأن هذه الأرقام تقريبية ، فبعض الباحثين يقدر أن جملة عدد المسلمين تتراوح بين ٥٠٠ ـ ٦٠٠ مليون نسمة، وإن كان ثمة من يرى أن عددهم يصل إلى ٧٠٠ مليون مسلم يمثلون ١٥ ٪ من جملة سكان العالم.(١٠)

أما من حيث توزيع المسلمين فإن القارة الآسيوية تحتل المرتبة الأولى من حيث الأرقام المطلقة، حيث يقدر عدد المسلمين بها بما يتراوح بين ٤٥٠ ـ ٥٥٠ مليون مسلم، وإن كانت نسبتهم إلى جملة سكان القارة العملاقة لا تتجاوز ٢٠ ٪. وتأتي القارة الإفريقية في المرتبة الثانية من حيث العدد، حيث يقدر البعض أن يهاجر حوالي ١١٥ مليون مسلم وهي بذلك أعلى في نسبة المسلمين بين سكانها من آسيا، لأن نسبتهم إلى جملة سكان إفريقيا هي ٣٣ ٪. أما أوربا فليس بها سوى ١٥ ـ ٢٠ مليونا من المسلمين، وبنسبة لا تتجاوز ٣٫٣ ٪ من جملة سكانها(١١).

ولكن توجد تقديرات أخرى تحدد أعداد المسلمين بما لا يتجاوز ٥٣٠ مليون مسلم منهم ٤٠٠ مليون في آسيا، و ١٢٣ مليونا في إفريقيا، وستة ملايين في أوربا، وثلاثة أرباع المليون في الأمريكتين وأستراليا.(١٢) وثمة تقديرات ثالثة تجعل أعداد المسلمين في العالم ٤٧١ مليونا:

منهم ٣٣١ مليونا في آسيا، و ١١٤ مليونا في إفريقيا، و٢٤ مليونا في أوربا، ومليونان في بقية أجزاء العالم الأخرى.(١٣) ولعل التقديرات الأولى أفضل مع بعض التعديلات ، فنرى أن في آسيا ٥٥٠ مليونا من المسلمين، وفي إفريقيا ١٣٠ مليونا منهم، وفي أوربا ٢٤ مليونا، ومليونان في بقية قارات العالم، وبذلك تكون جملة أعداد المسلمين ٧٠٦ ملايين نسمة، منهم ١١٦ مليونا من العرب، بنسبة ١٦٫٤٪ من جملة المسلمين، وأما المسلمون غير العرب فعددهم ٥٩٠ مليونا، منهم ٥١٩ مليونا في آسيا، أي إن العرب الآسيويين لا يشكلون سوى ٥٫٦٪ من مسلمي آسيا. وفي إفريقيا تبلغ جملة المسلمين من غير العرب ٤٥ مليون نسمة، أي ٣٤٫٦ ٪ من جملة الإفريقيين المسلمين، على حين يشكل المسلمون العرب في إفريقيا ٦٥٫٤ ٪ من مسلمي إفريقيا .

١ ـ حجاج الدول العربية :

بلغ عدد الحجاج العرب خلال عشرة الأعوام (١٣٨٧ ـ ١٣٩٦هـ) ما جملته ٢٫٨٤٠٫٨٥٢ حاجا، منهم ١٫٥٥٨٫٩٥٨ من الدول العربية الآسيوية، في مقابل ١٫٢٨١٫٨٩٤ حاجا من الدول العربية الإفريقية، بنسب ٥٤٫٩ ٪ و ٤٥٫١ ٪ على الترتيب. وتتضح نسبة إسهام آسيا العربية بدرجة أكبر إذا أدركنا أن العالم العربي الآسيوي لا يضم سوى ٢٧ ٪ من العرب المسلمين في مقابل ٧٣ ٪ من المسلمين العرب في إفريقيا (٨٥ مليون مسلم في إفريقيا العربية في مقابل ٣١ مليون مسلم في آسيا العربية). ولعل القرب المكاني بين الأقطار العربية الآسيوية وبين المملكة العربية السعودية من العوامل الرئيسية في زيادة نصيب القسم الآسيوي من العالم العربي، كما أن لذلك أثره في قلة تكلفة النقل وإمكان الانتقال إلى جانب الطرق الجوية والبحرية، بالطرق البرية أيضا، وهو ما لا يتوفر للدول العربية الإفريقية منذ اغتصاب فلسطين في عام ١٩٤٨م .

ولعل السبب الرئيسي في ارتفاع نسبة القسم الآسيوي من العالم العربي يرجع إلى كل من اليمن والعراق على نحو خاص، وذلك لأن النسبة التي تسهم بها الجمهورية العربية اليمنية تصل إلى ١٠٫٦ ٪ من جملة الحجاج من دول العالم كلها، وتصل إلى ٢١٫٦٪ من جملة الحجاج العرب، (أو ٣٩٫٣٪ من جملة الحجاج من الدول العربية الآسيوية) . وبمعنى آخر كانت اليمن الشمالية تسهم وحدها بحوالي خمس الحجاج العرب أو (خمسي) الحجاج العرب

الآسيويين. أما العراق فهي تحتل المركز الثالث بين دول العالم العربي المرسلة للحجاج، فقد أسهمت بما نسبته ٤٫٩ ٪ من أجمالي الحجاج عامة، أو ١٠ ٪ من جملة الحجاج العرب، (١٨٫٣ ٪ من الحجاج العرب الآسيويين). ولعل في هذا ما يؤكد أهمية القرب المكاني في تزايد أعداد الحجاج. وعلى سبيل المثال فقد وفد من اليمن الشمالية بطريق البر ٧٦٫٥ ٪ من جملة حجاجها في عام ١٣٩٤هـ، وارتفعت نسبتهم إلى ٧٨٫٣ ٪ في عام ١٣٩٥ هـ، أما العراق فكانت نسبة حجاجها الذين وفدوا بطريق البر في عام ١٣٩٤هـ هي ٩٧٫١٪، وفي عام ١٣٩٥هـ بلغت نسبتهم ٩٠٫٨ ٪ من جملة الحجاج العراقيين.(١٤)

ومما يؤكد فعالية عنصر القرب، وتفضيل استخدام الطريق البري ، أن تجد أن معظم الحجاج الوافدين من الكويت يفضلون استخدام الطرق البرية، على الرغم من المستوى الاقتصادي المرتفع للسكان، مما قد يوحي بتفضيل استخدام النقل الجوي الذي يعتبر أعلى تكلفة ولكنه أسرع، وتزيد نسبة حجاج الكويت الذين يستخدمون الطرق البرية عن ٩٠ ٪ من جملة حجاج الكويت(١٥) .

ولعل المقارنة بين وسائل قدوم الحجاج في كل من الأردن وسورية توضح أثر عامل القرب النسبي، فبينما الأردن جار مباشر للمملكة العربية السعودية، فإن سورية لا بد من المرور منها بالأردن للدخول برا إلى المملكة العربية السعودية، ولهذا ترتفع نسبة حجاج البر من الأردن بالقياس إلى سورية، وعلى العكس من ذلك يكون النقل الجوي أقل أهمية لحجاج الأردن منه لحجاج سورية. وفي عامي ١٣٩٤، ١٣٩٥هـ كان بين ١٠ ـ ١١٪ من حجاج الأردن يستخدمون الطائرات في رحلة الحج، ويستخدم الباقون الطريق البري. أما في سورية فكانت نسبة استخدام الطائرات في عام ١٣٩٤ هي ٤٦٫٧ ٪ في مقابل ٥٣٫٣ ٪ للطرق البرية. وفي عام ١٣٩٥هـ انخفضت نسبة حجاج الطائرات من سورية إلى ٣٨٫٨ ٪ في مقابل ٦١٫٢ ٪ يستخدمون الطرق البرية، ومع هذا تبقى النسب مختلفة عن الأردن .

ويلاحظ أن أهم المراكز التي تستقبل حجاج البر في المملكة العربية السعودية هي كل من جيزان ونجران بالنسبة لحجاج اليمن، وحالة عمار بالنسبة لحجاج الأردن وسورية ولبنان (وتركيا)، والخفجي لحجاج الكويت والعراق (وإيران وباكستان وأفغانستان)، وسلوى بالنسبة لحجاج قطر وعمان والإمارات .

أما الحجاج من الدول العربية الإفريقية فإن مصر تتصدر المركز الأول، وهي تحتل المركز الثاني بالنسبة للحجاج العرب مسبوقة باليمن الشمالية . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن من بعض أسباب ارتفاع أعداد الحجاج من اليمن الشمالية أن الحج يعتبر لحجاج اليمن موسما للعمل وليس للعبادة فحسب ، كما أنهم معفون من كثير من الرسوم التي يدفعها من سواهم من الحجاج، حيث يعاملون معاملة رعايا الدولة الأفضل بالرعاية في المملكة العربية السعودية، ويحتاج سوق العمل والتجارة في السعودية إلى كثير من جهودهم. ومن ناحية أخرى فقد أدى تطبيق نظام القرعة في مصر إلى السماح لعدد يحدد كل عام بأداء فريضة الحج، ولكن هذا العدد أقل من الراغبين في الحج فعلا في مصر، وهذا الأمر لا وجود له في معظم الدول الإسلامية. ومع هذا فقد أسهمت مصر خلال العقد الأخير بنسبة ٥ر٤ ٪ من جملة حجاج العالم، أو ١ر١١ ٪ من جملة الحجاج العرب، وأكثر من ربع حجاج الجناح الإفريقي من العالم العربي (٤ر٢٧ ٪) .

وكان لأحوال الحرب العربية الإسرائيلية أثر واضح في انخفاض أعداد الحجاج المصريين، ويتضح ذلك بالنسبة للفترة من موسم ١٣٨٦ حتى ١٣٩٠هـ (١٩٦٧ ـ ١٩٧١م) . ولكن العوامل السياسية بين مصر والسعودية كان لها أثر في ذلك أيضا . ومن الأمور الهامة أن إغلاق قناة السويس عقب حرب ١٩٦٧م، وما صاحبه من توقف استخدام ميناء السويس، قد أدى إلى انقطاع الطريق البحري أمام الحجاج المصريين إلى ما بعد حرب ١٩٧٣م، وإن كانت إعادة قناة السويس للملاحة وتطهير خليج السويس من الألغام عام ١٩٧٥م قد أدى إلى زيادة أثر النقل البحري للحجاج المصريين مرة أخرى، وكان موسم حج ١٣٨٧هـ هو آخر موسم استخدم فيه الحجاج المصريون الطريق البحري قبل حرب ١٩٦٧م، وفي ذلك العام بلغت نسبة حجاج البحر المصريين ٨ر٤١ ٪ في مقابل ٣ر٥٤ ٪ استخدموا النقل الجوي[16]، ولم تعد للنقل البحري أهمية في نقل الحجاج المصريين مرة أخرى إلا ابتداء من موسم حج ١٣٩٤هـ حين وفد ٦ر٣٩ ٪ بطريق البحر، في مقابل ٣ر٥٦ ٪ استخدموا الطائرات، وفي عام ١٣٩٥ ارتفعت نسبة حجاج البحر المصريين إلى ٣ر٥٨ ٪ ، في مقابل ٨ر٣٦ ٪ استخدموا الطائرات[17]

وتأتي السودان في المركز الثاني بين الدول العربية الإفريقية، وهي تحتل المركز الثالث

بالنسبة للدول العربية جميعا، وقد أسهمت بنسبة ٤ر٧ ٪ من جملة الحجاج عامة، وبنسبة ٩ر٧ ٪ من العرب ككل، أو ٤ر٢١ ٪ من العرب الأفارقة. ولعله يبدو من المتناقضات أن نجد أن ميناء السودان الرئيسي «بورسودان» يكاد أن يواجه ميناء جدة عبر البحر الأحمر، وهو أقرب الموانئ العربية إلى جدة بلا شك، ولكن تفسير ذلك ليس صعبا، لأن بورسودان ميناء مقطوع عن بقية المحور السوداني في محوريه الأساسيين النيلي والرعوي. وفي الفترة بين أعوام ١٣٨٧ ـ ١٣٩٥هـ لم يحدث أن قلت نسبة الحجاج السودانيين القادمين إلى السعودية بواسطة الطائرات عن ٢ر٥٦ ٪ (في عام ١٣٩٤هـ)، وفي بعض الأعوام كانت النسبة ترتفع إلى ٧٥ ٪ كما حدث أن قلت نسبة الحجاج السودانيين القادمين إلى السعودية بواسطة الطائرات عن ٢ر٥٦ ٪ (في عام ١٣٩٤هـ)، وفي بعض الأعوام كانت النسبة ترتفع إلى ٨٥ ٪ كما حدث في عام ١٣٩٠هـ . وربما يكون الأمر في تفضيل النقل الجوي في رحلة الحج من السودان يستند ـ إلى جانب عنصر الوقت والمشقة ـ إلى عامل ارتفاع تكلفة النقل البري إلى بورسودان، ثم من الأخيرة بحرا إلى جدة .

وتأتي ليبيا في المرتبة الثالثة بين الدول العربية الإفريقية بنسبة ٨ر٣ ٪ من جملة الحجاج العامة، و ٩ر٧ ٪ من الحجاج العرب، أو ٦ر١٧ ٪ من العرب الإفريقيين، وهي بذلك تزيد قليلا على نسب الجزائر (٨ر٣٪ و ٨ر٧٪ و ٢ر١٧ ٪ على الترتيب). وتشترك الدولتان في أن النقل الجوي هو الوسيلة الوحيدة عمليا التي يفد بواسطتها الحجاج في العقد الأخير، كما تشترك الدولتان في أن ارتفاع مستوى الدخول فيهما بتأثير العائدات البترولية قد أدى إلى زيادة أعداد الحجاج فيهما بنسب مرتفعة، ويصدق ذلك على ليبيا على وجه الخصوص بالنظر إلى قلة سكانها بالقياس إلى الجزائر .

وتسهم الدول الثمانية سابقة الذكر بنسبة ٤ر٨٢٪ من جملة الحجاج العرب، (أو ٨ر٣٩٪ من جملة الحجاج من دول العالم المختلفة)، بينما تسهم بقية الدول العربية بالنسبة الباقية، وهي ٦ر١٧ ٪ من الحجاج العرب، وهي كلها من الأقطار الصغيرة من حيث عدد السكان الإجمالي، فيما عدا المغرب وتونس، وهما تأتيان في المرتبتين التاسعة والحادية عشرة بين الأقطار العربية، وتتوسطهما الكويت في المرتبة العاشرة .

والملاحظة الأخيرة بالنسبة للحجاج من العالم العربي متعلقة بالنوع، ففي كل الدول

العربية يزيد عدد الذكور ونسبتهم عن الإناث بانتظام، فيما عدا لبنان حيث يوجد العكس وبانتظام أيضا منذ عام ١٣٨٧ حتى عام ١٣٩٢هـ . وكانت نسبة الإناث إلى جملة الحجاج من لبنان تصل أحيانا إلى ٥٥٫٨ ٪ (في عام ١٣٩٠هـ)، وفي عام ١٣٩٢هـ انخفضت نسبة الإناث ولكنها ظلت أعلى من نسبة الذكور (٥١٫٨ ٪ للإناث). أما في عام ١٣٩٣هـ فقد انخفضت نسبة الإناث عن الذكور (٤٨٫٢ ٪ للإناث، ولكنها عاودت الارتفاع إلى ٥١ ٪ في عام ١٣٩٤هـ، ثم انخفضت بحدة في عام ١٣٩٥ إلى ٣٩٫٩ ٪. وربما تحتاج الجوانب الديموجرافية للحجاج إلى دراسة أكثر تفصيلا فيما بعد .

٢ ـ الحجاج الآسيويون (غير العرب) :

إذا كان عدد المسلمين في دول آسيا غير العربية يزيد عن ٥٠٠ مليون مسلم، فإن هذا العدد قسمة بين دول الأغلبيات الإسلامية، وهي تضم بعض الدول العملاقة مثل إندونيسيا والباكستان. وأما القسم الثاني فيضم الدول التي يشكل المسلمون أقلية بين سكانها، وقد تكون هذه الأقلية مغلوبة على أمرها، وتلاقي كثيرا من المشكلات، ومن تلك الدول الأخيرة كل من الهند والفلبين. ولكن يمكن هنا أيضا أن تذكر الأقليات الإسلامية في الدول الشيوعية وبخاصة الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية(١٨) .

ويظهر من الجدول رقم (٣) أن أولى دول آسيا الإسلامية ـ غير العربية ـ من حيث الأعداد خلال عشرة الأعوام (١٣٨٧ ـ ١٣٩٦هـ) هي تركيا، وعلى الرغم من أن تركيا تحتل المركز الرابع بين دول الأغلبيات الإسلامية في آسيا ـ وتسبقها في ذلك كل من إندونيسيا والباكستان وبنجلاديش ـ وعلى الرغم من أن تركيا دولة علمانية منذ قيام حركة كمال أتاتورك، فإن تركيا تحتل المركز الأول بين دول العالم المرسلة للحجاج، وتتفوق بذلك على اليمن الشمالية. ولعل هذا يوضح أن الدين أقوى من أي قرار سياسي، ومن عامل البعد الجغرافي أيضا. وتسهم تركيا بنسبة ١٠٫٩ ٪ من حجاج العالم خلال العقد الأخير، أو ٢٨٫٣ ٪ من حجاج دول آسيا غير العربية. والنسبة الكبرى من الحجاج الأتراك يأتون بالطريق البري، ثم بطريق الجو، أما النقل البحري فلا يشكل أية نسبة في نقل الحجاج الأتراك .

أما المركز الثاني بين الدول الآسيوية غير العربية فتشغله الباكستان، ويلاحظ أنه حتى

موسم حج ١٣٩١هـ كانت الباكستان لا تزال تضم الإقليم الشرقي الذي انفصل بعد ذلك مكونا دولة بنجلاديش، وعلى ذلك فإن بيانات وأرقام باكستان حتى عام ١٣٩١هـ تضم الباكستان بحدودها السابقة على انفصال بنجلاديش. ومن الغريب أن انفصال الأخيرة لم يصحبه انخفاض عدد حجاج باكستان، بل على العكس حدثت زيادة في أعداد حجاجها في عام ١٣٩٢هـ . وعلى حين يشكل حجاج باكستان ٢٠٫٣ ٪ من حجاج آسيا غير العربية، أو ٧٫٨ ٪ من جملة حجاج العالم عامة، فإن بنجلاديش لم تسهم بأكثر من ١٫٥ ٪ من حجاج آسيا غير العربية خلال خمسة الأعوام بين ١٣٩٢ ـ ١٣٩٦هـ، وبذلك تحتل بنجلاديش المركز الثامن بين دول آسيا غير العربية .

ومن الفروق الهامة بين باكستان وبنجلاديش ما يتصل بوسائل قدوم الحجاج، فحجاج باكستان يفدون إلى الحج بالطرق البرية والبحرية والجوية بنسب متقاربة، على حين تشكل الطائرات وسيلة النقل الوحيدة ـ تقريبا ـ من بنجلاديش، وربما كان هذا أحد أسباب قلة الحجاج منها بالنظر إلى انخفاض مستويات دخول الأفراد بها، وارتفاع تكلفة النقل بالطائرات نسبيا .

ويمثل الحجاج الإيرانيون المرتبة الثالثة بالنسبة لدول آسيا غير العربية، حيث يشكل الإيرانيون ١٨٫١ ٪ من جملة حجاج الأقطار الآسيوية غير العربية، وهم يشكلون ٧ ٪ من جملة حجاج العالم، ويفد معظم حجاج إيران بالطائرات، إلى جانب نسبة قليلة (في حدود ٥ ٪ تقريبا) يفدون بطريق البر ، أما البحر فلا يشكل طريقا يسلكه الإيرانيون للحج .

وتأتي إندونيسيا في المرتبة الرابعة بين دول آسيا غير العربية، بنسبة ١٣٫٣ ٪ من حجاج الأقطار الآسيوية غير العربية، وبنسبة ٥٫١ ٪ من جملة الحجاج عامة، وهنا تنبغي الإشارة إلى أن إندونيسيا هي أكبر الدول الإسلامية من حيث عدد السكان، ويبلغ المسلمون بها ثلاثة أمثال المسلمين في تركيا، ومع هذا فهي لا تحتل مركزا يتناسب مع عدد المسلمين بها فيما يتعلق بعدد الحجاج، وربما يكون ذلك راجعا إلى وقوعها على أطراف العالم الإسلامي، وارتفاع تكلفة رحلة الحج. ولعل ما يؤكد ذلك أنه حتى وقت قريب جدا كان معظم حجاج إندونيسيا يفدون بالطريق البحري، وكان هذا يقتضي منهم ثلاثة أشهر تقريبا حتى يعودوا إلى وطنهم مما يتطلب تكلفة مرتفعة، وقد أخذت نسبة حجاج البحر الأندونيسيين في الانخفاض من ٩٥٫٣ ٪ في عام

١٣٨٧هـ إلى ٧١٫٣ ٪ في عام ١٣٩٢هـ، ثم حدث انخفاض حاد إلى ٤١٫١ ٪ في عام ١٣٩٣هـ، وإلى ٢٢٫٦ ٪ في عام ١٣٩٤هـ، وإلى ١٧٫٧ ٪ في عام ١٣٩٥هـ . ولعل ذلك يرجع إلى ارتفاع تكلفة إقامة الحجاج الإندونيسيين في خارج بلادهم، مما أدى إلى أنهم أصبحوا يفضلون الطائرات ضمانا لسرعة العودة إلى بلادهم، مما يعني في النهاية خفضا في التكلفة لرحلة الحج .

وتمثل الهند خامسة الدول الآسيوية غير العربية إرسالا للحجاج، وهي تسهم بنسبة ٨ ٪ من حجاج آسيا غير العربية، أو ٣ ٪ من جملة الحجاج عامة، وهذا أمر طبيعي حيث إن الهند تضم أكبر أقلية إسلامية، وهذه الأقلية الهندية المسلمة أكبر عددا من مسلمي تركيا أو إيران أو مصر . أما وسيلة النقل الرئيسية لحجاج الهند فهي السفن التي تنقل في المتوسط ٨٥ ٪ من جملة الحجاج الهنود .

وتحتل كل من ماليزيا وأفغانستان المركزين السابع والثامن على الترتيب في دول آسيا الإسلامية غير العربية، وبنسب ٤٫٥ ٪ و ٤٫١ ٪ من حجاج آسيا غير العربية على التوالي، أو بنسب ١٫٧ ٪ و ١٫٦ ٪ من جملة الحجاج عامة . ولعل أكبر ما يستوقف النظر في حجاج هاتين الدولتين تناقض التركيب النوعي للحجاج منهما، فعلى حين يكون عدد الإناث ونسبتهن إلى جملة الحجاج في ماليزيا أكبر من الذكور بانتظام في الفترة ١٣٨٧ ـ ١٣٩٥هـ (بما يذكرنا بحالة حجاج لبنان)، حيث لم تنخفض نسبة الإناث عن ٥٠٫٧ ٪ (في عام ١٣٩١هـ)، وكانت تصل أحيانا إلى ٥٥٫٣ ٪ (في عام ١٣٩٤). أما حجاج أفغانستان فإن الذكور يشكلون الأغلبية بينهم بصورة حادة، ولا مثيل لها في أية دولة إسلامية أخرى. ففي خلال الفترة المذكورة كانت أقل نسبة للذكور بين حجاج أفغانستان هي ٨٦٫٧ ٪ (في عام ١٣٩٤هـ)، بحيث يبدو كأن الحج من أفغانستان للذكور فقط دون الإناث. أما من حيث وسيلة القدوم فإن البحر يشكل واسطة النقل الرئيسية لحجاج ماليزيا، بينما يؤدي الموقع القاري في حالة أفغانستان إلى انقسام حجاجها بين وسائل النقل الجوي والبري معا .

وتحتل المركز التاسع بين دول آسيا غير العربية دولة يندر ذكر الأقلية الإسلامية بها، وهي تايلند، التي تعتبر تقليديا من معاقل البوذية [١٩] .

وتتراوح نسبة المسلمين بين سكانها بين ٤٪ ـ ١٠٪، ومع ذلك فقد أسهمت تايلند بنسبة ١ر١٪ من حجاج آسيا غير العربية، أو٤ر.٪ من جملة الحجاج عامة في السنوات ١٣٨٧ ـ ١٣٩٦هـ. وكان متوسط عدد الحجاج السنوي منها أكثر من ٢٥٠٠ حاج في العام خلال الفترة المذكورة .

ثم تحتل الفلبين المركز العاشر بين دول آسيا غير العربية، وبنسبة ٦٪ من جملة حجاجها، أو حوالي ٢٪ من جملة الحجاج عامة خلال العقد الأخير، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن المدى كبير جدا بين أعداد حجاج الفلبين في الأعوام المختلفة. ولا شك في أن ذلك يرتبط بوضع الأقلية المسلمة في الفلبين وحالة الحرب في مواطنهم، ورغم أن المتوسط السنوي لعدد الحجاج من الفلبين في الفترة ١٣٨٧ ـ ١٣٩٦هـ هو ١٢٧٥ حاجا ، إلا أن العدد ارتفع في حده الأقصى إلى ٤٠٧٢ حاجا (عام ١٣٨٧هـ) وهبط إلى سبعة حجاج فقط في عام آخر (١٣٩٢هـ) .

ومن الدول الأخرى في آسيا غير العربية التي يفد منها الحجاج بلا استمرارية واضحة كل من الصين الوطنية وسري لانكا وكمبوديا ونيبال وفيتنام الجنوبية، ففي بعض الأحيان قد يفد من إحدى هذه الدول عدة مئات، وفي أحيان أخرى لا يظهر لتلك الدول أثر في قائمة الدول المرسلة للحجاج .

ومن الدول الآسيوية الصغيرة التي تظهر بانتظام في إحصائيات الحج بين دول آسيا غير العربية جمهورية سنغافورة، وفي المتوسط يفد من سنغافورة سنويا ٦٠٠ حاج، وكان أكبر عدد وفد منها خلال العقد الأخير هو الذي جاء في عام ١٣٩٣ (١٠٦٩ حاج) ، وأدنى عدد هو الذي وفد في عام ١٣٨٧هـ (١٥٨ حاجا)، وامتداد أثر الحج إلى هذه المناطق من جنوب شرقي آسيا يوضح أثر العناصر الملاوية في نشر الإسلام .

٣ ـ الحجاج الإفريقيون (غير العرب) :

ثمة تفصيلات عن كثير من أقطار إفريقيا غير العربية، وذلك لأن عدد الدول الإفريقية المرسلة للحجاج أكبر من الدول الآسيوية المرسلة لهم، ولكن أقطار إفريقيا غير العربية تكاد

أن تتساوى مجتمعة مع اليمن الشمالية وحدها في عدد الحجاج، وباستثناء نيجيريا فإن دول إفريقيا غير العربية تسهم بحصص متواضعة في حركة الحج .

أما نيجيريا فهي عملاق إفريقيا السكاني من ناحية، وأكبر أقطار إفريقيا السوداء في أعداد المسلمين بين سكانها. ويقدر ما تسهم به نيجيريا في حركة الحج العامة بنسبة ٧ر٤٪ من جملة الحجاج المسلمين، وترتفع نسبة نيجيريا في أقطار إفريقيا الإسلامية غير العربية إلى ١ر٦٢٪، على حين تشترك بقية الأقطار الإفريقية في النسبة الباقية من أعداد الحجاج الإفريقيين. وعلى حين بلغ المتوسط السنوي لحجاج نيجيريا ٤٢٩٤٨ حاجا (في الفترتين ١٣٨٧ ـ ١٣٩٦هـ)، فإن المتوسط السنوي لبقية الأقطار الإفريقية غير العربية في الفترة ذاتها هو ٢٦١٨٤ حاجا. ومعنى هذا أن أرقام الحج من نيجيريا تجعلها عملاقا وسط عدد من الأقطار الإفريقية ذات الأرقام المتواضعة. ويكفي للتدليل على ذلك أن المركز الثاني في الدول الإفريقية غير العربية تحتله جمهورية تشاد بنسبة لا تزيد عن ٥٪ من جملة حجاج العالم، أو ٤ر٤٪ من جملة حجاج إفريقيا غير العربية، وبمتوسط سنوي لعدد الحجاج هو ٣٠٥٣ حاجا تشاديا. وتتقارب مع تشاد كل من النيجر والسنغال في المركزين الثالث والرابع بنسبة ٤٪ تقريبا من حجاج الدول الإفريقية غير العربية، وبمتوسط سنوي لعدد الحجاج هو ٢٨٠٠ و ٢٧٥٠ حاجا على التوالي.

وعلى الرغم من أن الأرقام الخاصة بوسائل قدوم الحجاج الإفريقيين لا تظهر فيها الوسيلة البرية، حيث إن الاتصال البري مقطوع، وإن النقل الجوي يشكل النسبة الكبرى كوسيلة انتقال (بنسبة ٦٧٪ ـ ٨٠٪ خلال العقد الأخير)، وتكون النسبة الباقية للطريق البحري، على الرغم من ذلك فإن نسبة كبيرة من الحجاج الإفريقيين يقطعون في الواقع جزءا من رحلة الحج بالطرق البرية، ويحدث ذلك في كثير من أقطار غرب إفريقية عبر تشاد والسودان، ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة، وعادة ما يسجل أولئك على أنهم من حجاج البحر، رغم أنهم يقطعون جزءا من الطريق بالسيارات وأحيانا على الأقدام[٢٠] .

والواقع أن أعداد الحجاج الإفريقيين الدين يقطعون السودان الغربي ثم سودان وادي النيل عبر الطرق البرية، قد أخذوا يتناقصون كثيرا منذ منتصف القرن العشرين، ويقترن ذلك بأمرين: هما ظهور الوحدات السياسية المستقلة في هذه المنطقة وما صحب ذلك من طلب

تأشيرات الدخول والرسوم، ثم التطور الذي حدث في النقل الجوي. وكان لبعض المتشكلات السياسية في أقاليم الحدود بعض الأثر في تزايد أهمية النقل الجوي، وعلى سبيل المثال فقد أغلقت الحدود بين تشاد والسودان رسميا لمدة ثلاثة أعوام ، ابتداء من عام ١٩٦٤م، وإن كان ذلك لم يحل دون دخول بعض حجاج غرب إفريقية إلى السودان خلسة لإكمال رحلتهم إلى الحج، بل إنه يقدر حين أعيد فتح الحدود رسميا في عام ١٩٦٨/١٩٦٧م وجد بعض حجاج غرب إفريقية أن دخول السودان بطريق غير مشروع قد يكون مناسبا لهم بدرجة أكبر ليتجنبوا دفع رسوم المرور. وحين أعيد إغلاق الحدود مرة أخرى في عام ١٩٧١م أمام الحجاج بصفة خاصة في هذه المرة بسبب انتشار الكوليرا في غرب إفريقية، فإن القادمين بالطرق البرية من غرب إفريقية تجنبوا مراكز الحراسة القوية لقوات الشرطة السودانية مثل نيالا، واتبعوا طرقا أخرى إما إلى الجنوب من نيالا أو إلى الشمال منها، وتجنبوا السير في الطرق المعبدة(٢١) .

وتقدر بعض المصادر أن رحلة الحج من بعض أجزاء غرب إفريقية كانت تستغرق أحيانا عشرة أعوام، وكان بعض المهاجرين إلى الحج لا يعودون إلى أقطارهم ويستقرون فى السودان، وكثير من أولئك الذين بقوا في السودان يطلق عليهم اسم «الفلاتا»، لأن نسبة كبيرة منهم تنتمي إلى جماعة الفولاني في غرب إفريقية، ولكن يوجد منهم أيضا من ينتمي إلى الهوسا أو التكرور، ومواطن الجماعة الأخيرة في السنغال في أقصى غرب إفريقيا(٢٢) .

ورغم بعض الدراسات التي أجريت عن الحج من غرب إفريقيا إلا أن الحاجة لا تزال ماسة إلى دراسات أكثر تفصيلا .

٤ ـ حجاج القارات الأخرى :

تضم هذه الفئة حجاج كل من الدول الأوربية والأمريكية وبقية دول العالم التي لا يفد منها حجاج يشكلون نسبة عالية أو بانتظام. ويشكل أولئك جميعا أقل من ١٪ من جملة الحجاج سنويا خلال الفترة ١٣٩٦/١٣٨٧هـ ويكون حجاج الدول الأوربية نسبة كبيرة من هؤلاء الحجاج (٥٧٪ من جملة الحجاج عامة خلال الفترة المذكورة). وكان ترتيب هذه الدول الأوربية كما يلي :

الدولـــة	متوسط عدد الحجاج السنوي	٪ من حجاج أوربـــا
يوغســلافيا	١٥١٧	٤٥٫٣
بريطـــانيا	٩٥٢	٢٨٫٥
فرنســـا	٤٧٩	١٤٫٣
اليونـــان	٢٣٥	٧٫-
إســبانيا	٦٣	١٫٩
البرتغـــال	٣٣	١٫ -
دول أخـــرى	٦٦	٢
متوســط أوربـــا	٣٣٤٥	١٠٠

وقد يبدو غريبا أن تتصدر يوغسلافيا قائمة دول أوربا، كما يبدو غريبا غياب ألبانيا من القائمة، وكلا الدولتين ليس للدين في فلسفة الحكم فيها نصيب. أما بريطانيا فلعل بعض رعاياها من دول الكمنولث من حاملي جوازات السفر البريطانية هم الذين يفدون للحج منها أساسا، وأما فرنسا فإن نسبة كبيرة من أبناء شمال إفريقيا يعملون بها واستقروا فيها ويحملون جنسيتها حاليا، وربما يكون أولئك هم الذين يأتون للحج .

أما الدول الأمريكية فإن المتوسط السنوي للحجاج منها لا يزيد عن ١٢٧ حاجا، ويأتي من بقية دول العالم التي لم تدخل في أي قسم جغرافي سابق ما متوسطه ٥٢٨ حاجا في السنة، ويشكل أولئك جميعا (٦٥٥ حاجا في المتوسط)، فلا تزيد نسبته كثيرا عن ١٫٪ من جملة الحجاج سنويا .

خاتمـــة :

إن الدراسات الجغرافية الخاصة بالحج في الإسلام تحتاج إلى إسهام كثير من الجغرافيين. وقد اتضح من خلال بعض العوامل المؤثرة في حركة الحج أن عوامل القرب الجغرافي، وأمن الطريق ، وسهولة الاتصال بريا مع شبه الجزيرة العربية، وحالة العلاقات السياسية والأحوال الاقتصادية والصحية، تكون لها جميعا آثار واضحة على حركة الحـج من مختلف الأقطـار الإسلامية، بينما لم يتضح تماما أثر المناخ في حركة الحج .

وأظهرت الدراسة أهمية العالم العربي في حركة الحج السنوية، وعلى نحو خاص القسم الآسيوى من العالم العربي، الذي يسهم بنسبة كبيرة في حركة الحج السنوية، لا تتناسب مع عدد المسلمين في الأقطار العربية الآسيوية، ثم تأتي بقية الدول الآسيوية غير العربية في المرتبة الثانية، وتليها الدول الإفريقية غير العربية، وأخيرا تأتي الدول السنوية، ومع ذلك فإن المسلمين من دول العالم جميعا يشتركون في حركة الحج وإن كان انتظامهم في هذه الحركة سنويا يتم بدرجات متفاوتة .

وفي الدراسة إشارات إلى وسائل قدوم الحجاج من كثير من الدول، والتركيب النوعي للحجاج في الدول التي تمثل خروجا على القاعدة العامة، وهي التوازن بين كل من الذكور والإناث، ومع ذلك فإن الحاجة لا تزال ماسة إلى دراسات أخرى أكثر تفصيلا في الجوانب المختلفة من جغرافية الحج .

جدول رقم (١) : حركة الحج العامة
الحجاج الوافدون خلال الفترة ١٣٤٥ ـ ١٣٩٧هـ

السنة	جملة الحجاج	السنة	جملة الحجاج	السنة	جملة الحجاج
١٣٤٥	٩٠٦٦٢	١٣٦٣	٣٧٨٥٧	١٣٨١	٢١٦٤٥٥
١٣٤٦	٩٦٢١٢	١٣٦٤	٣٧٦٣٠	١٣٨٢	٢٩٩٠٣٨
١٣٤٧	٩٠٧٦٤	١٣٦٥	٦١٢٨٦	١٣٨٣	٢٦٦٥٥٥
١٣٤٨	٨١٦٦٦	١٣٦٦	٥٥٢٢٤	١٣٨٤	٢٨٣٣١٩
١٣٤٩	٣٩٠٤٥	١٣٦٧	٧٥٦١٤	١٣٨٥	٢٩٤١١٨
١٣٥٠	٢٩٠٦٥	١٣٦٨	٩٩٠٦٩	١٣٨٦	٣١٦٢٢٦
١٣٥١	٢٠١٨١	١٣٦٩	١٠٧٦٥٢	١٣٨٧	٣١٨٥٠٧
١٣٥٢	٢٥٢٩١	١٣٧٠	١٠٠٥٨٧	١٣٨٨	٢٧٤٧٨٤
١٣٥٣	٣٣٨٩٨	١٣٧١	١٤٨٥١٥	١٣٨٩	٤٠٦٢٩٥
١٣٥٤	٣٣٨٣٠	١٣٧٢	١٤٩٨٤١	١٣٩٠	٤٣١٢٧٠
١٣٥٥	٤٩٥١٧	١٣٧٣	١٩٤٠٧٢	١٣٩١	٤٧٩٣٣٩
١٣٥٦	٧٦٢٢٤	١٣٧٤	٢٣٢٩٧١	١٣٩٢	٦٤٥١٨٢
١٣٥٧	٥٩٥٧٧	١٣٧٥	٢٢٠٧٢٢	١٣٦٣	٦٠٧٧٥٥
١٣٥٨	٣٢١٥٢	١٣٧٦	٢١٥٥٧٥	١٣٩٤	٩١٨٧٧٧
١٣٥٩	٩٠٢٤	١٣٧٧	٢٠٩١٩٧	١٣٩٥	٨٩٤٥٧٣
١٣٦٠	٢٣٨٦٣	١٣٧٨	٢٠٧١٧١	١٣٩٦	٧١٩٠٤٠
١٣٦١	٢٤٧٤٣	١٣٧٩	٢٥٣٣٦٩	١٣٩٧	٧٣٩٣١٩
١٣٦٢	٦٢٥٩٠	١٣٨٠	٢٨٥٩٤٨		

المصدر : إحصائية الحجاج لوكالة وزارة الداخلية السعودية، سنوات متعددة .

جدول رقم (٢) : الحجاج حسب الأقاليم الجغرافية المرسِلَة والنسب المئوية من إجمالي الحجاج في الأعوام ١٣٨٧/١٣٩٦هـ

السنه	الحجاج العرب		الإفريقيون غير العرب		الآسيويون غير العرب		بقية حجاج العالم	
	العدد	٪ من الجملة	العدد	٪ من الجملة	العدد	٪ من الجملة	العدد	٪ من الجملة
١٣٨٧	١٤٤١٢٠	٤٥ر٣	٢٩٢٠٢	٩ر٢	١٤٢٢٢٠	٤٤ر٧	٢٦٦٥	٠ر٨
١٣٨٨	١٨٩٨٣٦	٥٠ر٦	٣٤٧٣٠	٩ر٣	١٤٧٣٥٦	٣٩ر٣	٢٨٣٣	٠ر٨
١٣٨٩	٢٠٥٠٧٦	٥٠ر٤	٤٥٧٧١	١١ر٣	١٥١٨٩٧	٣٧ر٤	٣٨١٢	٠ر٩
١٣٩٠	٢١٠٣٩٧	٤٨ر٨	٥٦٠٠٠	١٣ر٠	١٦١٠٤٥	٣٧ر٣	٣٨٢٨	٠ر٩
١٣٩١	٢٦١٩٦٦	٥٤ر٧	٦٩٦٣٦	١٤ر٥	١٤١٦٠٧	٢٩ر٥	٦١٣٠	١ر٣
١٣٩٢	٣٢٣٧٠٢	٥٠ر٢	٧٨٩٤٦	١٢ر٢	٢٤٠٢٣٥	٣٧ر٢	٢٣٠٩	٠ر٤
١٣٩٣	٢٨٦٥٤٣	٤٧ر٢	٧١٦٥٥	١١ر٨	٢٤٤٤٠٤	٤٠ر٢	٥١٥٣	٠ر٨
١٣٩٤	٤٧١٥٠٥	٥١ر٣	٩١٤٠٩	٩ر٩	٣٥١٦٧٠	٣٨ر٣	٤٢٨٧	٠ر٥
١٣٩٥	٤١٠٩٦٤	٤٥ر٩	١١٩٥٩٦	١٣ر٤	٣٥٨٤٣٣	٤٠ر٠	٥٦٠٧	٠ر٧
١٣٩٦	٣٣٦٧٤٣	٤٦ر٨	٩٤٣٨٠	١٣ر١	٢٨٤٥٦٢	٣٩ر٦	٣٣٥٥	٠ر٥
المتوسط السنوي	٢٨٤٠٨٥	٤٩	٦٩١٣٢	١٢ر٠	٢٢٢٣٤٣	٣٨ر٤	٣٩٩٨	٠ر٦

الجدول من إعداد وحساب الباحث .

جدول رقم (٣)
الأعداد السنوية لحجاج الدول العربية في الفترة ١٣٨٧ ـ ١٣٩٦هـ

القطر	أعداد الحجاج السنوية									
	١٣٨٧	١٣٨٨	١٣٨٩	١٣٩٠	١٣٩١	١٣٩٢	١٣٩٣	١٣٩٤	١٣٩٥	١٣٩٦
الأردن	٤٤٤٩	٥١٧٩	٦٦٧٩	١٠٩٠٩	١٥٩٣٣	٢٥٨١٩	١٢٨٥١	١٩٣٩١	١٧٣٣١	٢٣٤٢٧
العراق	١٩٤٧٥	٢٤٨٥٧	٢٤٩٥٢	١٩٤٨٢	١٧٦٢٨	٢٤٩٨١	٣٥٥٦٧	٥٨٩٨٣	١٠٣٦٨	٤٩٧٠٣
الكويت	٨٧٨٣	٦٦٨٤	٦٩٣٥	٨٥٧٢	٨٣٧٠	٨٥٩٤	٦٥١٤	٥٢٣٠	٨٨٠٨	٤٩٠٨
اليمن الشمالية	٣١٤٨٩	٥١٥٧٧	٥٤٦٥٨	٥٠٢٦٩	٦٠٣٥٨	٦٠٢٥٠	٥٤٠٨٢	٧٥٥٥٧	١١٣٨٩٩	٦١١١٠
سورية	١٤٥٢١	١٢٨١٤	٢٢٣٨٣	٤٢٣٣٩	٢٧٠٤٥	٣١٧٧٧	١٠٤٤٨	٣١٥٨٣	٣١٢٠٩	٢٤٤٦
فلسطين	٧٨٠	٥٣٦	٤٩٦	٨٣٨	٩٩١	١٥٥٦	١١٣٥	٢٥٩٦	١٤٤٥	٦٥٦
لبنان	٣٥٦٣	٣٩٠١	٤٥٧٠	٦٧١٢	٦٤٠٤	٦٧١٥	٥٣٥٥	٩٥٢٠	١٢٠٨	١٠٦٩
اليمن الجنوبية	١٥٦٩	٧٨٦٥	١٠٣١٠	٧١٠٣	٩٣٢٠	٢٠٤٦	٢٤٩٦	٣٣٨٩	٥٥٠٨	٧٧٩٢
اتحاد الإمارات العربية	٩٠٤	٦٩٩	٩٦٠	١٤٠٧	١٠٥٥	١٤٣٥	١٤٣٤	٣٤٢٢	٣٨٥٧	٤١٩٦
البحرين	٢٤٥٢	١٩٧٤	١٩٤٠	٢٤١٨	٢٢٨٧	٢٢٦٥	٢٠٦٥	٣٠٢٢	١٩٢٨	١٩٨٩
قطر	٢١٩٥	١٦٩٠	١١٣١	١٣٩٢	١٢١٦	١٣٤٦	١٠٠٨	٩٦٢	٩٧٤	٨٤٧
عمان	٢٠٦٥	١٦١٧	١٨٢٦	١٥٦٩	٢٢٦٢	٣٥١٨	٣٣٨٤	٣٤٠٣	٣٣٧٧	٢٢٥١
جملة آسيا العربية	٩٢٢٤٥	١١٩٣٩٣	١٣٦٧٩٠	١٥٢٥١٠	١٥٢٧٧٩	١٦٩٥٠٢	١٣٦٣٣٠	٢١٧١٠٣	١٩٩٩١٢	١٨٢٣٩٤
الجزائر	٤٣٦٣	٣٠٥٣	٨٥٣٧	٣٩٣٦	٨٨٩٤	٢٥٨٦٤	٢٢٩٤٥	٤٩٠٢٥	٥٥٠١٠	٣٤٨٥١
السودان	١٨٠٣٥	٢١٦٤٩	٢٠٤٩٥	١٤٨٦٥	٢٩٠٠٤	٢٩٥٠٦	٣٣٢٢٢	٤٢٠٨٤	٢٤٢٠٩	٤١٦٥٢
المغرب	٨٢٠٨	٩٤٤٩	١٠٩٤٣	١٠٦٤٠	١٥٤٦٣	٢٢٤٢٥	١٤٩٢٣	٢٦٦٣٢	١٦١٧٦	١٥٠٤٤
تونس	١٠١٥	١٣٤٩	٢٠١٦	٤٢٠٧	٧٥٠٠	١٠١٢٦	٨١٦٨	١٠٧٨٥	٧٦٨٣	٧٥٣٨
ليبيا	١٠٤٤٤	١٦٥٦٥	١٣٥٤٧	١١٨٣٥	١٦٨٦١	٢٣٧٧٤	٣٠٧٠٥	٣٠٧١٥	٥٢٧١٨	١٨٠٥٧
مصر	٧١٣٤	١٢٤١٣	١٠٨٧٥	١١٤٩٠	٢٩١٧١	٣٩٦٠٦	٣٦٤٥٢	٨٩٧١٧	٥١٢٣٠	٢٨٠٤٥
موريتانيا	٤٧٧	٤٤٨	٤١٦	٧٢٤	٧٩٢	٨٦٧	٩٥٦	١٦٧٧	٩١٤	١٦٥٤
الصومال	٢١٩٩	١٥١٧	١٤٥٧	١٩٠	١٥٠٢	٢٠٣٢	٢٨٤٢	٣٧٦٧	٣١١٢	٧٥٠٨
جملة إفريقيا العربية	٥١٨٧٥	٧٠٤٤٣	٦٨٢٨٦	٥٧٨٨٧	١٠٩١٨٧	١٥٤٢٠٠	١٥٠٢١٣	٢٥٤٤٠٢	٢١١٠٥٢	١٥٤٣٤٩
الدول العربية	١٤٤١٢٠	١٨٩٨٣٦	٢٠٥٠٧٦	٢١٠٣٩٧	٢٦١٩٦٦	٣٢٣٧٠٢	٢٨٦٥٤٣	٤٧١٥٠٥	٤١٠٩٦٤	٣٣٦٧٤٣

الجدول من إعداد وحساب الباحث .

جدول رقم (٤)
حجاج آسيا غير العربية في الفترة ١٣٨٧/١٣٩٦هـ

القطر	أعـداد الحجـاج في سـنوات									
	١٣٨٧	١٣٨٨	١٣٨٩	١٣٩٠	١٣٩١	١٣٩٢	١٣٩٣	١٣٩٤	١٣٩٥	١٣٩٦
اتحاد ماليزيا	٦٢٣٦	٦٥٩١	٨٣٥٣	١٠٣٦١	١٠٦٥٠	١٠٣٩٥	١٢٩٨٣	١٥٣٦٦	١٥٧٣٥	٣٣٧٣
أفغانسـتان	٥٨٤١	٨٧٤٤	٩١٦٥	١٣٦٦٣	١٠٧٤٤	١٧٤٤٧	٦٢٢٠	٦٢٩٩	٥٨٠٠	٨٣٠٨
الصين الوطنية	٦	٨	٨	١١	١١	١٨	-	-	-	١٠٠
الفلبيـن	٤٠٧٢	٢٨٢٣	١٧٦٥	١٥٠	٢٢١	٧	٦٣٧	١٥٦٤	١١٥٤	٣٥٧
الهـند	١٥٨٢٦	١٦١٥٤	١٦٠٥٧	١٦٤٧٠	٦٦٦٥٧	١٨٣٠٦	١٩٨٧٩	٢١٨٧٤	١٨٨٦٣	١٧٥١٠
إندونيسـيا	١٧٥٦٩	١٧٠٦٢	١٠٦١٥	١٤٦٣٣	٢٢٧٥٣	٢٢٦٥٩	٤٠٦٨٨	٦٨٨٧٢	٥٥٦١٧	٢٥٦٢٤
إيـران	٢٢٩٠٣	١٣٦٤٢	١٥١٣٦	٤٨٣٦٧	٣٠٢٩٩	٤٥٢٩٨	٥٧٢٣٠	٥٧٣١٤	٧٤٠٩٥	٣٩٢٩٦
باكسـتان	٢٥٠٥٢	٢٧٤٠٢	٢٨٥٣٥	٣٨٢٥٦	٢٣٣٢٤	٨٩٣٧٣	٦٠٦٨٨	٦٦٥٣٤	٤٥٠٢٧	٤٨٣٢٧
بنجلاديـش						٦٥٩٥	٥١٨٧	٢٩٢١	٣٥٨٠	٣٤٩٠
سـريلانكا	٤٦٢	٤٥٠	٤٧٢	١٥٢	٤٠	٦٧	-	-	-	١٢٦
سنغافورة	١٥٨	٢٥٥	٣٩١	٤٠٤	٣٧٠	٧٦١	١٠٦٩	٩٥٤	١١٥٢	٤٣٤
كمبوديا	٨٠	٨٠	٨٠	١	٤	١	-	-	-	-
تركـيا	٤١٩٩٨	٥١٠٥٥	٥٦٥٧٨	١٣٢٦٩	٢٣٩٢٢	٢٧٢٣٥	٣٦٢٥٨	١٠٦٠٤٥	١٣٦١١٥	١٣٧٢٦١
تايلـند	١٥٣٨	٢٣٩٩	٤٢٦٣	٤٩٨١	٢٤٤٨	٢٠٥٧	٣١٠٧	٣٤٥٦	٦٥٤	١٩٢
نيبـال	٥٢	٧٩	٩٤	-	١	-	-	-	-	-
فيتنام الجنوبية	٣٤	١٩٤	١	٧٩	٢٧	١٢	-	-	-	-
دول آسيوية أخـرى	٣٩٣	٤١٨	٤٢٨	٢٥٦	١١٦	٤	٤٧٨	٤٧٧	٢١٠	١٣٤
جملة آسيا	١٤٢٢٢٠	١٤٧٣٥٦	١٥١٨٩٧	١٦١٠٤٥	١٤١٦٠٧	٢٤٠٢٣٥	٢٤٤٤٠٤	٣٥١٦٧٦	٣٥٨٤٣٣	٢٨٤٥٦٢

جدول رقم (٥)
حجاج إفريقيا غير العربية موزعون حسب الأقطار
في السنوات ١٣٨٧/١٣٩٦هـ

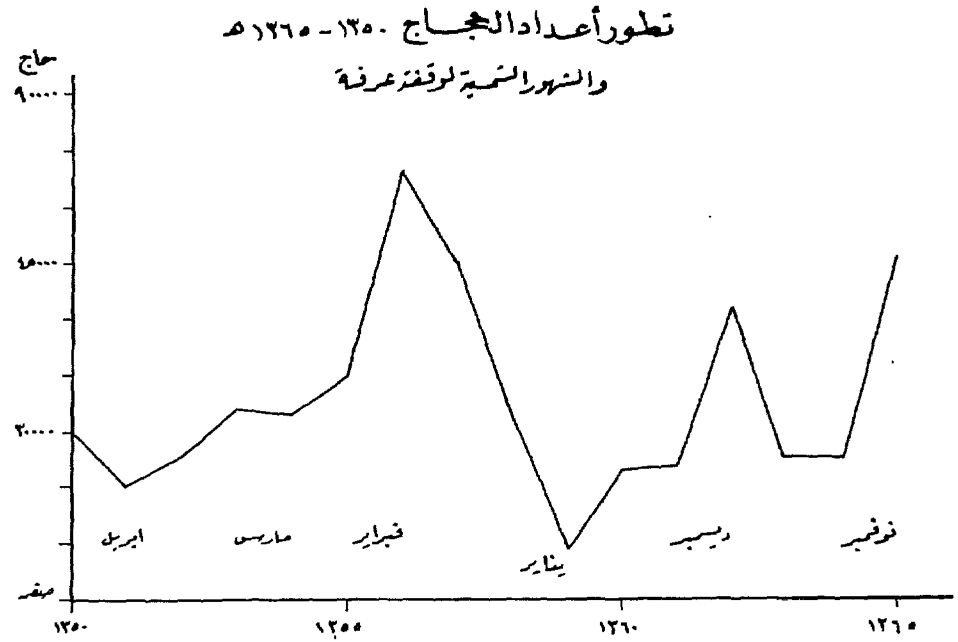
القطر	أعداد الحجاج حسب السنوات									
	١٣٨٧	١٣٨٨	١٣٨٩	١٣٩٠	١٣٩١	١٣٩٢	١٣٩٣	١٣٩٤	١٣٩٥	١٣٩٦
إتيوبيا	٢٣٢٩	١٨٤٠	٢٣٤٩	٢٩٥٥	٢٣١٧	٢٨٤٣	٣٦٥٩	٤٥٧٣	١٨٨٩	٢٢٤٦
النيجر	٢٨٦٣	٢٠٥٨	٢٨١٠	١٨٢٧	٣٢٠٦	٣٩٧٨	٢٤٥٤	٧٠٣٠	٦٨٥	١٣٥٩
السنغال	٢٠١١	٢٠٧٦	٢٠٩٧	٢٤٢٢	٢٥٦٩	٢٧١٩	٣٢٣٣	٣٤٠٣	٢٨٣٢	٤١٤٨
الكميرون	٦٣١	١٢٦٣	١٢٤٤	٨٠٨	٩١٦	١٧٥١	٢٢٤٥	٤٤٢٢	١٠٠٥	٧٧٩
تنزانيا	٥٧٩	٣٩٢	٣٠٩	٣٣١	٥٤٤	١٣١٢	٩٦١	٦٤٥	٥٨٠	٥٩١
توجو	٦٢	٥٠	٩٤	١١١	١٤٠	٦٦١	١٨٥	-	-	٩٥
تشاد	٢٢٧٣	٣٠٦٥	٤٢٧١	٢٠٣٤	٤٨٠٦	٤٠٠٢	٢٧٩٨	٤٩٢١	٩٦٥	١٣٩٢
إفريقيا الوسطى	١٦٣	١٢٩	٢٦٢	١٥١	٢٢٩	٣٥٩	٢٧٧	٣٢٣	٣٩٠	٣٦١
جامبيا	٢٧٦	٢٨٥	٣٧٩	٣٩٣	٣٨٩	٣١٦	٣٧٩	٥٩٧	٥٩٠	٦٦٧
داهومي	١٦٤	٢١٤	٣٥٦	٤٦٨	٤٧٥	٤٧٩	٣٥١	٥٢٧	٤١٩	٥٤٥
سيراليون	٩٤	١٨٨	٢٨٤	٣٥٣	٣٩١	١٣٣	٥١٩	٥٠٤	٣٧٧	٣١٩
ساحل العاج	٦١٤	٥٩٧	٦٨٣	٥٦٧	٩٩٧	٩٣٠	١٠٢٦	١١٦٥	١٧٧١	٩١٦
غانا	٢٤٨	٢٩٥	٥١٨	٤٠٢	٤٤٣	٨٦٠	١١٣٥	١١٠٥	٢٧٠٣	٣١٠٧
غينيا	٢٥٧٣	١٦١٦	١٧٨٦	٢٦٣٠	٢١٦٨	١٨١٠	٢٨٠٢	٩٨٨	٩٨٦	١٣٣٤
فولتا العليا	٢٥٩	١١٨٤	٦٣٠	٥٤٠	٨٦٩	١١١٧	١٣١١	١٥٧٦	١٥٤٠	١٨٠٩
كينيا	٣٥٥	٣٢٦	٣٣٣	٤٦٧	٥٠٠	٧٣٤	٨٦٥	٥٣١	٥٩٨	٦٩١
ليبيريا	٣٣	٤٨	١٢٦	٨٥	٦٠	٣٩	٥٨	١٧٧	٦١	٩٨
مالي	٩١٦	١٠١٠	٩٩٨	١١٢٣	١٢٢٦	١٥٦٩	١٧٢٩	٢٦٢٨	٢٧١٩	٢٠٧٢
مورنبوس	٤٠	٤٥	٥٩	١١١	١٣١	٢٠٥	٢٩٤	٣	٢٠٤	٣١٥
نيجيريا	١٠٧٩٠	١٦١٧٧	٢٤١٨٥	٣٥١٨٧	٤٤٠٦١	٤٨٩٨١	٣٨٨٦٩	٥١٧٦٤	٩٢٥٩٣	٦٦٨٧٣
أوغندا	٣٤٨	٤٠٠	٤٠٨	٩٤٠	٧٦٠	٨٥٦	٢٧٧٤	٣٠٠٧	٣٠٣١	٢٤٩١
جنوب إفريقيا	١٥٨٠	١٢٣٣	١٤٢٦	١٩٥١	٢٢٨٥	٢٩٥٩	٢٨٤٠	٢٠١٥	١٨١٥	١٢٦٥
بقية دول إفريقيا	١٨١	١٢٩	١٨٤	١٧٤	١٤١	٨٣٣	٧١٩	٢٩٠	٦٩٢	٣٧٧
جملة إفريقيا	٢٩٢٠٢	٣٤٦٩٠	٤٥٧٧١	٥٦٠٠٠	٦٩٣٦٦	٧٨٩٤٦	٧١٦٥٥	٦١٤٠٩	١١٩٥٩٦	٩٤٣٨٠

الجدول من إعداد وحساب الباحث .

جدول رقم (٦)
حجاج أوربا والعالم الجديد
موزعون حسب الأقطار الهامة والقارات من ١٣٨٧/١٣٩٦هـ

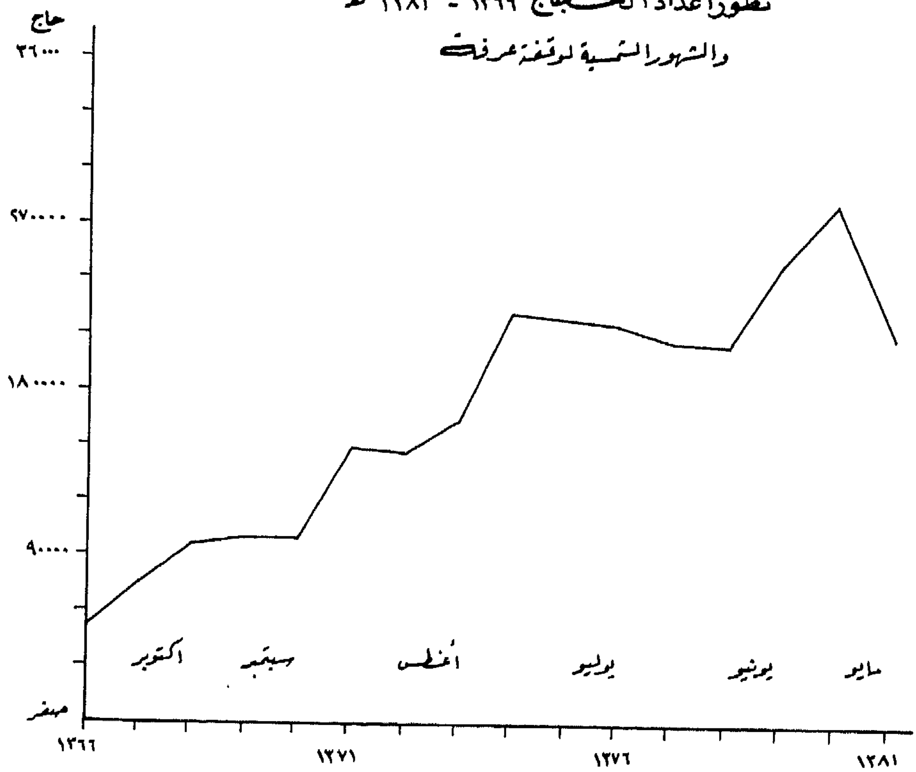
القطر أو القارة	أعداد الحجاج في السنوات									
	١٣٨٧	١٣٨٨	١٣٨٩	١٣٩٠	١٣٩١	١٣٩٢	١٣٩٣	١٣٩٤	١٣٩٥	١٣٩٦
إسبانيا	-	-	-	٥	١٠٦	١٢٣	٢٠٠	١٩٦	١	٤
البرتغال	٢٩	٤١	٥١	٩٧	٥٦	٦١	-	-	-	-
بريطانيا	٧٥٩	٥٧٣	٦٩٦	٧٨٦	٨٣٤	١٠٥٣	١٦٢٨	١٢٥٤	١١٨٧	٧٥٧
فرنسا	٣٠٢	٣٤٦	٣٤١	٣٧٢	٥١٤	٤٩٧	٥٠٢	٥٥٦	٧٩٥	٥٦٣
اليونان	٨٥	١٨٣	١٤٧	٢٢٣	٢٣٥	٢٨٦	٣٩٠	١٧٥	٤٨٧	١٤٤
يوغسلافيا	١٣١٧	١٥٥٤	١٥١٧	٢٢١١	٢٧٣٤	١٨	٢٠٧٧	١٨٤٥	١٠٤٨	٨٥٥
دول أوربية أخرى	٧٧	٤٢	٣٨	٢٧	٣٧	٢٥	١٨٤	١٠٠	٧٨	٤٨
جملة أوربا	٢٥٦٩	٢٧٣٩	٢٧٩٠	٣٧٠٣	٤٥١٦	٢٠٦٣	٤٩٨١	٤١٢٦	٣٥٩٦	٢٣٧١
حجاج الأمريكتين	٣٢	٩٢	٥٢	٨٤	١٣٧	١٦٠	٩٩	١٣٦	٣٥٤	١٠٢
حجاج دول أخرى	٦٤	٢	٩٧٠	٤١	١٤٧٧	٨٦	٧٣	٢٥	١٦٥٧	٨٨٢
جملة أوربا والعالم الجديد	٢٦٦٥	٢٨٣٣	٣٨١٢	٣٨٢٨	٦١٣٠	٢٣٠٩	٥١٥٣	٤٢٨٧	٥٦٠٧	٣٣٥٥

الجدول من إعداد وحساب الباحث .

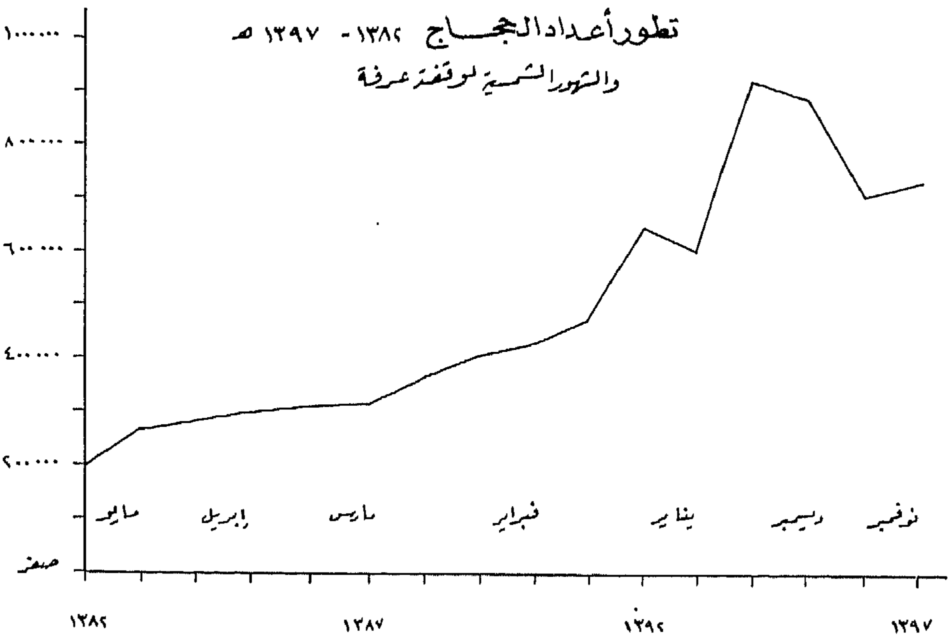

تطور أعداد الحجاج ١٢٥٠ - ١٢٦٥ هـ
والشهور الشمسية لوقفة عرفة
حاج
٩٠٠٠٠
٦٠٠٠٠
٣٠٠٠٠
صفر
ابريل
مارس
فبراير
يناير
ديسمبر
نوفمبر
١٢٥٠
١٢٥٥
١٢٦٠
١٢٦٥

شكل (١)

تطور أعداد الحجاج ١٣٦٦ - ١٣٨١ هـ
والشهور الشمسية لوقفة عرفات

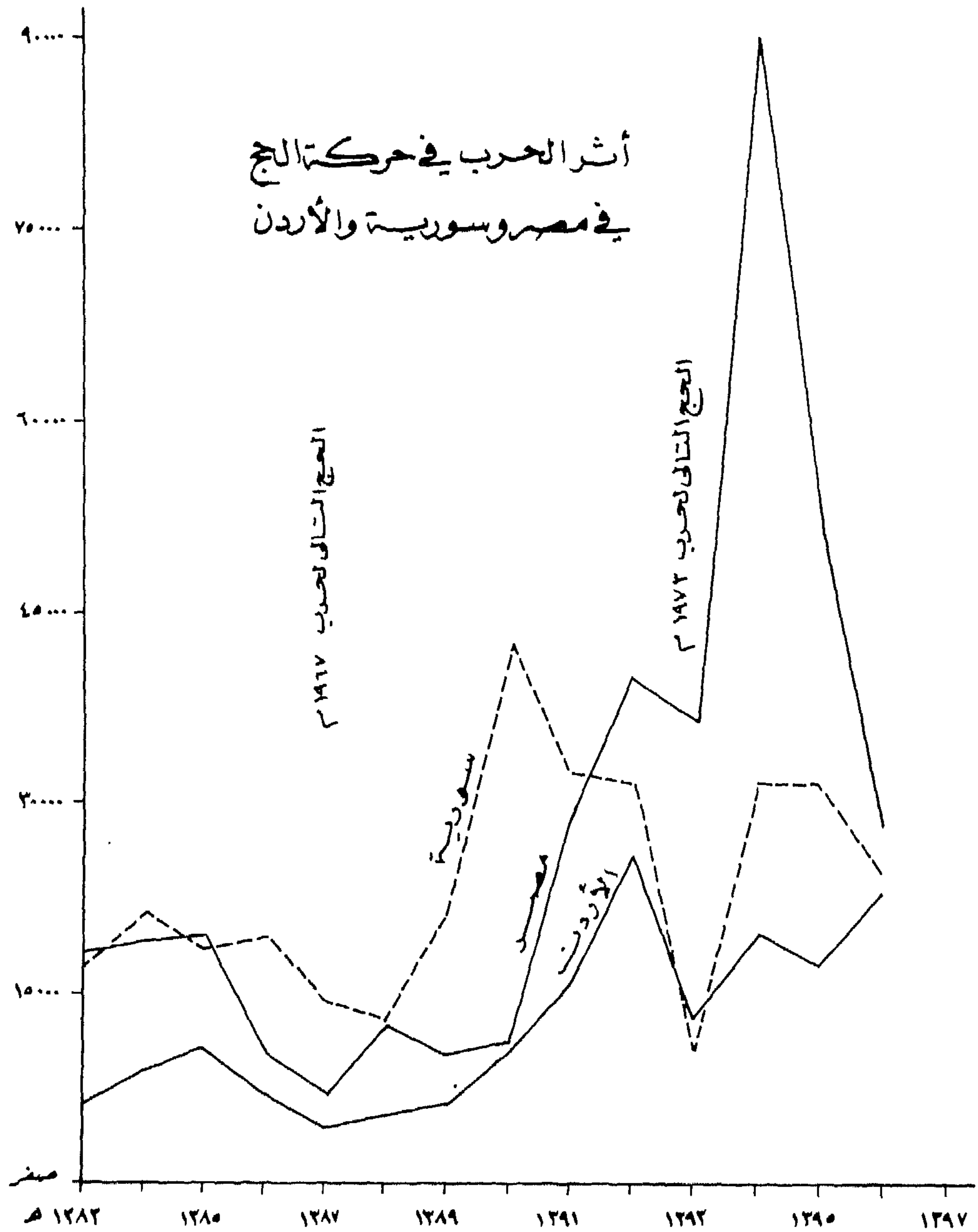


شكل (٢)

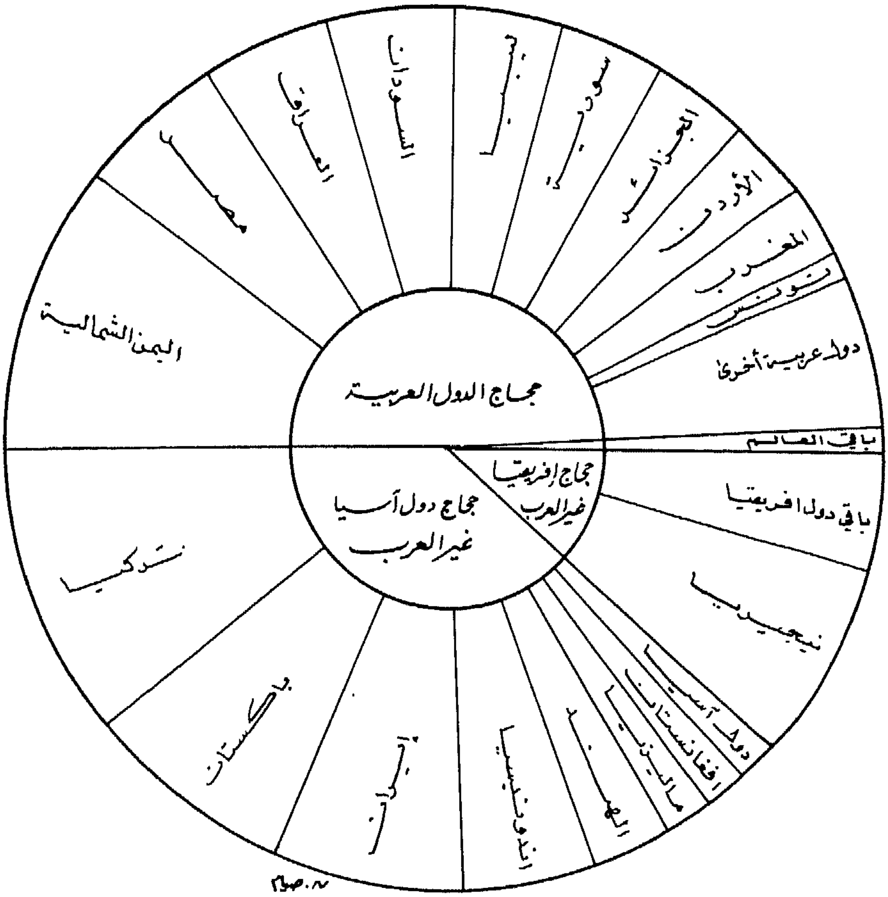


تطور أعداد الحجاج ١٣٨٢ - ١٣٩٧ هـ
والشهور الشمسية لوقفة عرفة
١٠٠٠٠٠٠
٨٠٠٠٠٠
٦٠٠٠٠٠
٤٠٠٠٠٠
٢٠٠٠٠٠
صفر
مايو
ابريل
مارس
فبراير
يناير
ديسمبر
نوفمبر
١٣٨٢
١٣٨٧
١٣٩٢
١٣٩٧

شكل (٣)


أثر الحرب في حركة الحج
في مصر وسورية والأردن
٩٠٠٠٠
٧٥٠٠٠
٦٠٠٠٠
٤٥٠٠٠
٣٠٠٠٠
١٥٠٠٠
صفر
الحج التالي لحرب ١٩٦٧ م
الحج التالي لحرب ١٩٧٣ م
سورية
مصر
الأردن
١٣٨٣ هـ
١٣٨٥
١٣٨٧
١٣٨٩
١٣٩١
١٣٩٣
١٣٩٥
١٣٩٧

شكل (٤)



حركة الحج من دول العالم وأقاليمه

متوسط الفترة من ١٣٨٧ - ١٣٩٦ هـ

شكل (٥)

الحواشي

(١) نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافيا، ترجمة فتحي عثمان، دار القلم، القاهرة، ص.ص ٢٨ ـ ٣٠ .

(٢) عبدالعزيز كامل، جغرافية الإسلام في عصر النبوة، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ص.ص ٦ ـ ٩ .

(٣) يلاحظ أن معدل الأحد عسر يوما ليس ثابتا تماما، ففي بعض السنوات يكون الفارق عشرة أيام فقط، بينما في أعوام أخرى قد يكون الفارق ١٢ يوما، كما أن كل ١٠٠ سنة هجرية تساوى ٩٧ سنة ميلادية تقريبا، انظر في ذلك :

فريمان جرنفيل، التقويمان الهجري والميلادي، ترجمة حسام محيى الدين الألوسي، مطبعة الجمهورية، (بغداد)، ١٩٧٠، ص ٨. وانظر للمقارنة السريعة بين بداية السنوات الهجرية الملحق الخاص بذلك في أطلس التاريخ الإسلامي. ولتفصيلات بدايات النسهور انظر: محمد مختار باشا، التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية، المطبعة الميرية ، بولاق، ١٣١١هـ .

4 - Spiegel, Murray R., Theory and Problems of Statistics, Schaum's Outline Series, Mc Grew-Hill, New York 1961, pp. 283- 285.

5 - Duguet, T., Le Pelerinage de la Mecque au Point de Vue Religieux, Social et Sanitaire, Rieder, Paris, 1932, p. 227.

6 - Aramco, Aramco Handbook, Oil and the Middle East, Dhahran, 1968, p. 64.

(٧) صلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، مكتبة الحياة، بيروت، الجزء الثاني، ص ٣٥٦ .

8 - Planhol, X. De, The World of Islam Cornell University Press, New York, 1959, pp. 70-72.

(٩) حين استخدمت السفن البخارية في نقل الحجاج من مصر والهند إلى جدة لأول مرة في عام ١٨٥٨م أصبحت المسافات أقرب، مما يقوي من احتمالات نقل العدوى بين الركاب في فترة حضانة المرض وقبل ظهور أعراضه، بل ويمكن أن ينقل الركاب ذلك المرض إلى بقية الحجاج عقب وصولهم، أو في أوطانهم حين يعودون إليها، ولذلك بدأ تطبيق نظام العزل الصحي لمدة عشرة أيام للسفن التي يشك في وجود حالات كوليرا عليها، وخمسة أيام لغيرها. وفي عام ١٨٥٩م أصبح من الضروري وجود طبيب على كل سفينة تحمل حجاجا .

(١٠) جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٢ .

(١١) المصدر السابق، صص ١٦ ـ ١٨ .

(١٢) محمود طه أبو العلا، جغرافية العالم الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٥٤ .

13 - Britannica Book of the Year 1972, Encyclopaedia Britannica, the Univ. of Chicago, 1972, p. 613.

- Vincent Monteil, Essai Sur L'Islam en U.R.S.S. sept, 1952., Britannica Book of the year 1972, p.613. 613.

(١٤) كانت أعداد الحجاج حسب وسائل القدوم في العامين المذكورين لكل من اليمن الشمالية والعراق على النحو التالي :

السنة	اليمن الشمالية				العراق			
	الجملة	برا	بحرا	جوا	الجملة	برا	بحرا	جوا
١٣٩٤	٧٥٥٥٧	٥٧٨٢٧	١٠٣٨٥	٧٣٤٥	٥٨٩٨٣	٥٧٢٧٩	-	١٧٠٤
١٣٩٥	١١٣٨٩٩	٨٩٢٠٦	١٢٩٧٦	١١٧١٧	١٠٣٦٨	٩٤٢٤	-	٩٤٤

(١٥) في عام ١٣٩٤هـ وفد بطريق البر ٤٧٥٧ حاجا من الكويت من جملة عدد الحجاج الكويتيين البالغة ٥٢٧٠ حاجا، وفي عام ١٣٩٥ كانت الأرقام ٨٠٤٧ من ٨٨٠٨ حاجا على الترتيب .
انظر لمراجعة الأرقام أعلاه إحصائية الحجاج لوزارة الداخلية السعودية في الأعوام المذكورة .

(١٦) النسبة الباقية وهي ٩ر٣٪ سجلوا في الإحصاءات السعودية على أنهم مصريون قدموا بطريق البر، وهؤلاء عادة من المصريين الذين يعملون خارج مصر وخاصة في السعودية وما حولها، ويفدون إلى الحج من خارج مصر، ولكن تسجيل الجنسية من واقع جوازات السفر لا يدل على بلد القدوم .

(١٧) النسب القليلة الباقية تنطبق عليها الملحوظة السابقة أعلاه، والنسب محسوبة من واقع الأرقام المطلقة كما جاءت في نشرات وزارة الداخلية السعودية عن إحصاءات الحج في الأعوام المذكورة .

(١٨) يقدر أن عدد المسلمين في الدول الآسيوية التي يشكل المسلمون أغلبية سكانية بها بحوالي ١٨٣ مليون نسمة، يمثلون ٩ر٣٥٪ من جملة المسلمين في القارة الآسيوية، أما بالنسبة لأعداد المسلمين في كل من الصين والاتحاد السوفيتي فهي متفاوتة كثيرا من مصدر لآخر، ولكن أعدادهم في الصين الشعبية تتراوح بين ١٢ مليونا في بعض المصادر و٥٠ مليونا في مصادر أخرى ، إلى جانب المصادر التي تضع رقما وسطا بين ذلك. أما المسلمون في روسيا فتتراوح أعدادهم بين ٢٠ ـ ٣٠ مليونا حسب المصدر. انظر في ذلك المصادر الآتية :
ـ عبدالرحمن زكي، المسلمون في العالم اليوم، جـ ٤ آسيا الإسلامية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ص ٩٧ ـ ٩٩. تقويم العالم الإسلامي، جمعية الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ص ٢٦ ـ ٣٣، انظر أيضا :

19 - Anderson, J. N. D., ed., The World's Religions, Eerdman, Grand Rapids, 1963, p. 129.

20 - Parrinder, Geoffrey, Religion in Africa, Penguin 1969, p. 218.

21 - Birks, J. S., Overland Pilgrimage in the Savanna Lands of Africa, in Kosinski L. A. and R. M. Prothero, eds. People on the Move, Methuen, London, 1975, pp. 304-306.

(٢٢) محمد محمود الصياد ومحمد عبدالغني سعودي، السودان، دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، ص ص ٢٤٩ ـ ٢٥٥ .

اعداد ومواطن الحجاج المسلمين
بين الماضى والحاضر

دكتور عيسى موسى الشاعر

المقدمـة :

الحج لغة هو القصد، واصطلاحا هو رحلة إلى مكان مقدس للحصول على بركة إلهية. والحج في اصطلاح المسلمين هو شد الرحال إلى مكة لأداء مناسك معينة في زمن معين من كل سنة قمرية. إذ إن الحج شرعا هو قصد بيت الله الحرام للقيام بنسك الحج من النية، والطواف حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والحلق، والمبيت بمنى، ورمي الجمرات، وغير ذلك مما هو من سنن الحج، وذلك في شهر ذي الحجة من كل عام .

والحج ظاهرة قديمة جدا عند الأمم، كان وما زال الغرض الأساسي منه أمراً دينياً رغم جميع الفوائد الدنيوية التي قد تتحقق فيه. ولقد كان للمصريين القدماء واليونان واليابانيين والهنود واليهود والنصارى وحتى العرب قبل الإسلام أماكن مقدسة يحجون إليها منذ زمن بعيد . والواقع فإن جذب المكان المقدس لأعداد كبيرة من الناس يفدون من بلاد مختلفة يجعل الحج ليس فقط موضوعا دينيا يمكن طرقه ، وإنما مجالها أيضا للدراسات الجغرافية، سيا وأن التنظيم والتوزيع المكانيين يقعان في صلب الجغرافيا .

وعليه تهتم هذه الدراسة بتحليل أعداد الحجاج المسلمين ومواطنهم الأصلية التي يفدون منها إلى مكة المكرمة، وذلك عبر التاريخ الإسلامي إلى وقتنا الحاضر . وعلى الرغم من وجود العديد من المؤلفات عن الحج في الإسلام إلا أن الأبحاث الجغرافية عن هذا الموضوع تعتبر قليلة، وربما كان ذلك عائدا إلى قلة وبعثرة المعلومات والبيانات اللازمة، بالإضافة إلى حداثة اهتمام علم الجغرافية بحركة السكان الناجمة عن الدوافع الدينية.

وتقسم هذه الدراسة إلى قسمين: يبحث الأول فيها أعداد الحجاج ومواطنهم الأصلية قبل الحرب العالمية الثانية، بينما يشرح القسم الثاني هذه الأعداد والمواطن منذ الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٧٦م .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة لم تأخذ بالاعتبار الحجاج الذين يفدون إلى مكة

من داخل المملكة العربية السعودية، ذلك أنه حتى وقت قريب لم يكن بالإمكان تقدير هؤلاء الحجاج وتسجيل أعدادهم في الإحصائيات الرسمية. كما ترجى الإشارة أيضا إلى أن جميع السنين المقدمة في الصفحات التالية تتبع التقويم الجريجوري «الميلادي»، إلا إذا أشير إلى غير ذلك. والله أسأل أن أكون قد وفقت في بحثي هذا، وهو ولي التوفيق.

الحجاج المسلمون قبل الحرب العالمية الثانية :

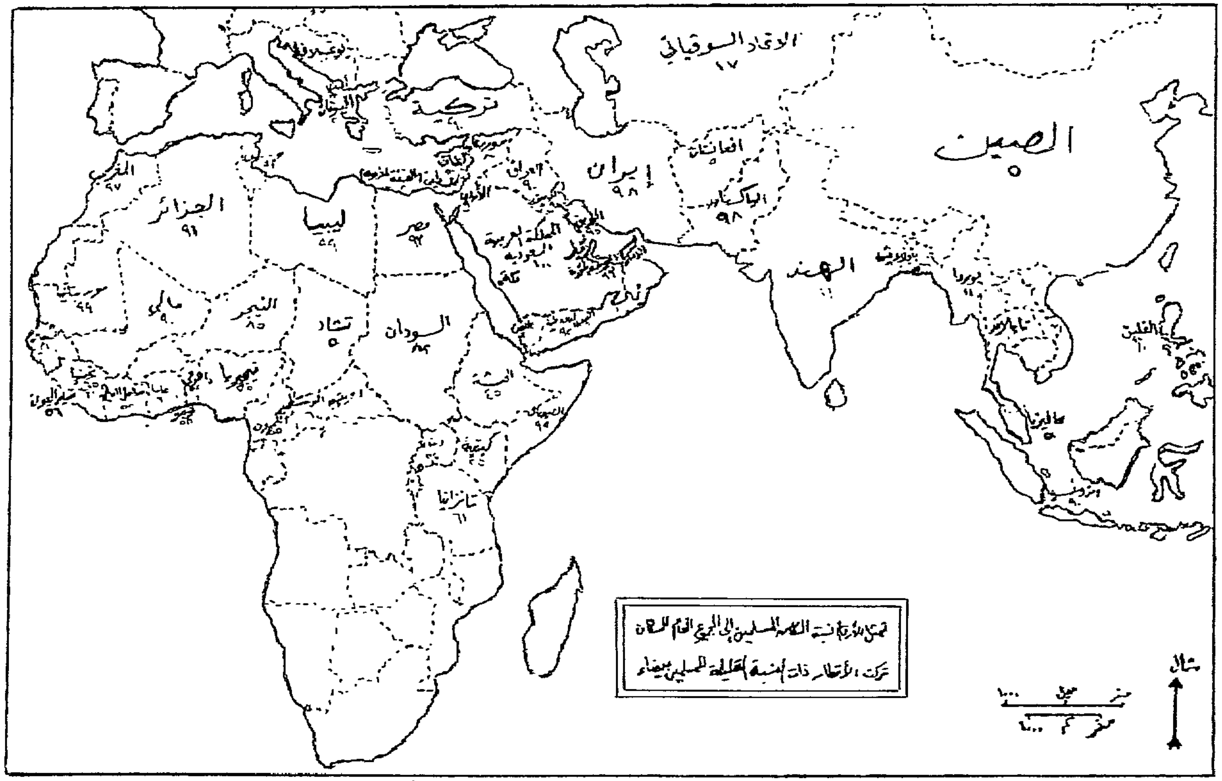
نبعت جذور الحج الإسلامي من حج ما قبل الإسلام، وعاش هذا النمط الذي يعتبر اليوم جزءا من حضارة الإسلام طوال الأربعة عشر قرنا الماضية. والواقع فإن جميع دول العالم الإسلامي قد ساهمت في أعداد الحجاج المسلمين (شكل ١)، تلك الأعداد التي كانت تتناقص في فترات الحروب أو الاضطرابات السياسية، بينما تتزايد في فترات السلم وعهود الحكومات المستقرة . وفيما يلي سيتم تحليل أعداد الحجاج ومناطق وفودهم في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية .

أعداد الحجاج :

تعتبر معلوماتنا عن أعداد الحجاج عبر العصور معلومات محدودة، إذ إنه لا الحجاج ولا الرحالة الأوائل أو الكتاب قد حفظوا سجلات دقيقة عن أعداد الحجاج قبل القرن العشرين، ذلك أنه لم يكن على الحجاج أن يدفعوا أية ضرائب ولا امتلاك جوازات سفر . وبناء على ذلك لم يشعر حكام مكة بضرورة إحصاء الحجاج ولا كتابة أسمائهم .

وعلى أية حال فإن معلومات متفرقة عن الحجاج في القرون السالفة قد عثر عليها في كتابات بعض الرحالة المسلمين والرحالة الغربيين، إذ إن بعض المؤرخين ذكروا أنه في حجة وداع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام (١٠ هـ الموافق ٦٣٢م) بلغ عدد الحجاج الذين قدموا من المدينة حوالي ٩٠٫٠٠٠ حاج ، في حين أورد كتاب آخرون رقم ١١٤٫٠٠٠ حاج لحجة الوداع. ومما لا شك فيه أن عددا آخر من الحجاج قد التقى بحجاج أهل المدينة في طريقهم إلى مكة، مما أدى إلى بلوغ المجموع العام ١٤٠٫٠٠٠ حاج[١] .

ومن المعتقد أن عدد الحجاج قد ازداد في عصور الإسلام المتتابعة بسبب اعتناق الكثير



شكل (١) - العالم الإسلامي (نسبة المسلمين لمجموع السكان)
المرجع: إحصائية الحجاج لعام ١٩٧٢م

من الناس للدين الإسلامي، ولكن العدد من الدول الواقعة شمال شبه الجزيرة العربية لا بد أن انخفض أثناء غزو الصليبيين لساحل شرق البحر الأبيض المتوسط وبصورة مشابهة فإنه من المرجح أن انخفاضا آخر لعدد الحجاج قد سببه غزو المغول للعراق وفارس وسوريا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض السنين قد شهدت أعدادا كبيرة من الحجاج، فعلى سبيل المثال كان موسم حج ١٢٧٩م موسما كبيرا، قدر عدد المصريين فيه فقط بأربعين ألفا، بالإضافة إلى عدد مشابه من العراقيين والسوريين. وفي عام ١٣٢٤م بلغ عدد حجاج زنوج إفريقيا من جنوب الصحراء الكبرى حوالى ١٥,٠٠٠ حاج(٢)، كما شهد عام ١٥٠٣م أعدادا هائلة من الحجاج دعت إلى استغراب دي فارثيا De Varthema الايطالي الذي كتب عن ضخامة جمهور الحجاج من الحبشة والهند وبلاد فارس ومصر وسوريا. ولقد قدر دي فارثيا حجاج القافلة السورية وحدها بحوالي ٥٠,٠٠٠ حاج، وكان مما قاله أنه لم ير في حياته قط جمهوراً من الناس متجمعا في نقطة واحدة أكثر مما رآه خلال العشرين يوما التي قضاها في مكة(٣).

وبشكل عام ازداد حجم الحجاج المسلمين خلال معظم العهد العثماني منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، ويعزى ذلك إلى التوسع العثماني الذي نجم عنه دخول المزيد من الناس في الإسلام، وذلك على الرغم من تعرض قوافل الحجاج للعديد من هجمات البدو. والواقع فقد عنى السلاطين العثمانيون كثيرا بتحصين قلاع كل من العقبة ومويلح والوجه الواقعة غرب وشمال غرب شبه الجزيرة العربية(٤)، ولكن ذلك لم يكن ليمنع الانحدار العام الذي حصل لعدد الحجاج منذ أوائل القرن التاسع عشر.

لقد بدأ انخفاض عدد الحجاج منذ بداية القرن التاسع عشر، فقد قدر Ali Bey في تلك الفترة أن القافلة المصرية احتوت فقط على ٥٠٠٠ جمل، و ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ حصان. وبالاستناد إلى إحصائية Ali Bey فإن المجموع الكلي للحجاج كان عبارة عن ٨٠,٠٠٠ رجل، و ٢٠٠٠ امرأة، و ١,٠٠٠ طفل(٥).

هذا ولقد كتب Burckhardt أيضا عن انخفاض عدد الحجاج، فوصف في عام ١٨٢٩م كيف أن الوقت قد ولى عندما كان الحجاج من جميع بقاع العالم الإسلامي يأتون بأعداد كبيرة لزيارة الأماكن المقدسة للحج الإسلامي(٦). وربما كانت أسباب هذا الانخفاض تعود

إلى زيادة النفقات، وقلة الوعي الديني، وصعوبة المواصلات، بالإضافة إلى الظروف السياسية غير المشجعة. وهذا يؤيد الفكرة القائلة بتناسب أعداد الحجاج تناسبا عكسيا مع فترات الحروب والحكومات غير المستقرة أثناء الحكم التركي. واستمر عدد الحجاج باتجاه عام نحو الانحدار، إذ وصل عدد الذين سافروا مع القافلة السورية ٤٠٫٠٠٠ حاج في القرن السابع عشر، انخفضوا إلى ٤٫٠٠٠ ـ ٥٫٠٠٠ حاج في عام ١٨١٤م، وإلى أقل من ١٫٠٠٠ حاج في عام ١٨٥٣.

ولقد أثر الانحدار العام أيضا على القافلة المصرية التي حجت عام ١٨٨٠م ١٫١٠٣ حاج فقط[٧]. وفيما يتعلق بالمجموع الكلي للمسلمين الذين أدوا الحج فقد انخفض عددهم من ٨٣٫٠٠٠ حاج في عام ١٨٠٧م، إلى ٧٠٫٠٠٠ حاج في ١٨٨٢م، بينما لم يؤد الحج في عام ١٨٨٤م سوى ٥٠٫٠٠٠ حاج فقط (جدول ١) . والواقع كان سبب هذه الانخفاضات في أعداد الحجاج هو الاضطرابات السياسية التي تبعت الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢م .

وعلى الرغم من الانحدار المفاجئ لعدد الحجاج في عام ١٩١١م، إلا أنه يمكن اعتبار السنين ١٩٠٩ و ١٩١٠ و ١٩١٢م بمجموعها كذروة لأعداد الحجاج في أوائل القرن العشرين. جدول (١). فقد بلغ المجموع الكلي للحجاج في عام ١٩١٠م نحو ٣١٠٫٠٠٠ حاج .

ويمكن تفسير هذه الزيادة في السنين التي تلت ١٩٠٩م إلى أثر تشغيل الخط الحديدي الحجازي، ولكن بعد بضع سنين فقط وقعت الحرب العالمية الأولى التى أدت إلى انخفاض جديد، إذ إن الحجاج في عام ١٩١٧ بلغوا ٦٠٫٠٠٠ حاج فقط. (جدول ١). أما في العشرينات من القرن العشرين فلوحظ زيادة نسبية طفيفة في الأعداد السنوية للحجاج، مع أن مراجع عديدة لا تتفق حول إحصائيات هذه الفترة بالذات. ويبدو أن أعلى رقم للحجاج، والبالغ ٢٥٠٫٠٠٠ حاج بما فيه الرجال والنساء والأطفال، قد قدمه E. Rutter في نهاية العشرينات من القرن العشرين[٨] .

لقد كان الهبوط في عدد الحجاج هبوطا كبيرا في الثلاثينات وأوائل الأربعينات من هذا القرن. (جدول ١). فقد وصل مكة عام ١٩٣٣م نحو ٢٠٫٠٠٠ حاج، في حين بلغ الحجاج

جدول (١)

أعداد الحجاج لبعض السنين المختارة

(١٨٠٧ ـ ١٩٤٥م)

السنة	المجموع	النسبه المنويه للزياده أو النقصان
١٨٠٧	٨٣٫٠٠٠	-
١٨٨٢	٧٠٫٠٠٠	- ١٥٫٧
١٨٨٤	٥١٫٠٠٠	- ٢٧٫١
١٩٠٩	٣٠٠٫٠٠٠	+ ٤٨٨٫٢
١٩١٠	٣١٠٫٠٠٠	+ ٣٫٣
١٩١١	١١٧٫٠٠٠	- ٦٢٫٣
١٩١٢	٣٠٠٫٠٠٠	+ ١٥٦٫٤
١٩١٧	٦٠٫٠٠٠	- ٨٠٫٠
١٩٢٨	٦٩٫٢١٢	+ ١٥٫٤
١٩٣٣	٢٠٫١٨١	- ٧٠٫٨
١٩٤١(يناير)	٩٫٠٢٤	- ٥٥٫٣
١٩٤٣	٦٢٫٥٩٠	+ ٥٩٣٫٦
١٩٤٤	٣٧٫٨٥٧	- ٣٩٫٥
١٩٤٥	٣٧٫٦٣٠	- ٠٫٦

المصدر: للسنين ١٨٠٧ ـ ١٩١٧م

D. Long, The Hajj Today: A survey of the Contemporary Pligrimage to Makkah (unpuplished Ph. D. dissertation, Department of Political scince, George Washington University, 1973), P. 210.

للسنين ١٩٢٨ ـ ١٩٤٥:

المملكة العربية السعودية، وزارة الداخلية، إحصائية الحجاج لعام ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، جدة، دار الأصفهاني، ١٩٧٦م، صفحة ٢٦. (النسبة المئوية من صنع المؤلف).

٩٫٠٠٠ في عام ١٩٤١م (يناير). ويرجح أن تكون الأسباب الرئيسية المسؤولة عن هذه الانخفاضات هي الأزمة المالية العالمية الكبرى في أوائل الثلاثينات، بالإضافة إلى الاضطرابات السياسية التي سببتها الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من ازدياد عدد الحجاج قليلا قبل أن تضع الحرب أوزارها (٦٢٫٠٠٠ حاج في عام ١٩٤٣م) فقد انخفض العدد ثانية إلى حوالى ٣٧٫٠٠٠ حاج في عام ١٩٤٤ و ١٩٤٥م بسبب القلق السياسي الحاصل في بعض البلدان العربية وخاصة الأردن وسوريا ولبنان. (جدول ١). والواقع فقد انخفضت نسبة الحجاج في عام١٩٤١م إلى ٩٠٫٦٪ بالمقارنة مع عام ١٩٢٨م. وإذا ما اعتبرنا عدد الحجاج المنخفض في عام ١٩٤١م تكون الزيادة ٥٩٣٪ لعام ١٩٤٣م، و٣١٧٪ لعام ١٩٤٥م .

لقد تم استخدام الحجاج الإندونيسيين هنا كمثال لتوضيح أثر الظروف السياسية والصحية والاقتصادية على أعداد الحجاج، ويستند التحليل أدناه على دراسة مفصلة قام بها J. Vredenbergt على حجم الحجاج الإندونيسيين منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الثانية(٩) .

كان عدد الحجاج الإندونيسيين كبيرا في عام ١٨٨٠م بسبب ما يعرف بالحج الأكبر. (جدول ٢)(١٠). ولكن في عام ١٨٨١م هبط عدد الحجاج إلى أكثر من ٥٠٪ بسبب انتشار وباء الكوليرا في الحجاز. كما لوحظ هبوط آخر في عدد الحجاج عام ١٨٨٧م بسبب أسعار الأرز الرخيصة ومحصول القهوة الرديء. وبالمقابل فقد حدثت زيادة في أعداد الحجاج عام ١٨٩٠م، حيث عزي ذلك إلى المحاصيل الجيدة للمزروعات الإندونيسية، يضاف إلى ذلك أنه في عام ١٨٩٠م زار عدد كبير من شيوخ مكة ووكلائهم إندونيسيا ليحثوا السكان على تأدية الحج، كما قام وكلاء شركات النقل البحرية بمثل هذا التشجيع أيضا. ويرى Vredenbergt أن زيادة كبيرة في عدد الحجاج قد حصلت في عام ١٨٩٦م، ولكن الخوف من مرض الطاعون سبب انخفاضا في الأعداد في السنين القليلة التي تلت .

أما نمو عدد الحجاج في عام ١٩١١م فقد عزي إلى الحج الأكبر، ولقد استمر نمو حجم الحجاج حتى الحرب العالمية الأولى، وكان لاشتراك تركيا في تلك الحرب الأثر الكبير في جعل رحلة الحج مستحيلة تقريبا. وفي تلك الأثناء أوقفت شركات النقل البحرية جميع رحلاتها إلى جدة .

جدول (٢) أعداد الحجاج الإندونيسيين لبعض السنين المختارة (١٨٨٠ ـ ١٩٤٠م)

السنة	عدد الحجاج الإندونيسيين	المجموع العام للحجاج	النسبة المئوية للحجاج الإندونيسيين	السنة	عدد الحجاج الإندونيسيين	المجموع العام للحجاج	النسبة المئوية للحجاج الإندونيسيين
١٨٨٠	٩٫٥٤٢	٥٩٫٦٥٩	١٦٫٠	١٩٢٠	١٤٫٨٠٥	٥٩٫٣٧٠	٢٤٫٩
١٨٨١	٤٫٦٠٥	٣٧٫٧٨٥	١٢٫٢	١٩٢١	٢٨٫٧٩٥	٦٠٫٧٨٦	٤٧٫٤
١٨٨٧	٢٫٤٢٦	٤٢٫١٨٥	٥٫٨	١٩٢٤	٣٩٫٨٠٠	٩١٫٧٨٦	٤٣٫٤
١٨٩٠	٥٫٤١٩	٣٩٫١٨٦	١٣٫٨	١٩٢٥	٧٤	-	-
١٨٩٦	١١٫٧٨٨	٦٢٫٧٢٦	١٨٫٨	١٩٢٧	٥٢٫٤١٢	١٢٣٫٠٥٢	٤٢٫٦
١٨٩٨	٧٫٨٩٥	٣٨٫٢٤٧	٢٠٫٦	١٩٣١	١٧٫٠٥٢	٤٠٫١٠٥	٤٢٫٥
١٩١١	٢٤٫٠٢٥	٨٣٫٢٤٧	٢٨٫٧	١٩٣٢	٤٫٣٨٥	٢٩٫٠٦٥	١٥٫١
١٩١٤	٢٨٫٤٢٧	٥٦٫٨٥٥	٥٠٫٠	١٩٣٨	١٠٫٣٢٧	٦٧٫٢٢٤	١٥٫٤
١٩١٥	-	-	-	١٩٤٠	٦٫٥٨٦	٣١٫٦١٠	٢٠٫٨

المصدر : J. Verdenbregt, (The Haddj,) Bijdragen Tot, De Tal -, Land- En Volken Kunde Vol. 118, 1962, pp. 91 - 154, reference on 148 - 149.

هذا وقد سجل عدد حجاج إندونيسيا زيادة ملحوظة في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١م عندما صمم الكثير من الناس التعويض عن السنين الفائتة التى كان الحج فيها غير ممكن بسبب الحرب العالمية الأولى، أما الزيادة الكبيرة التي شوهدت في عام ١٩٢٤م فيمكن تفسيرها بالأجور الرخيصة للسفن، وبالجهود الدعائية التي بذلها وكلاء شركات النقل البحري. وفي عام ١٩٢٥م ضم السعوديون جده والحجاز لحكمهم بعد عدة معارك، كان من آثارها ندرة الحجاج القادمين بحرا لذلك العام .

ثم أخذ الحجاج الإندونيسيين بالازدياد السريع حتى سجل رقما قياسيا في عام ١٩٢٧م، لا سيا بسبب الظروف الاقتصادية الملائمة في ذلك البلد، وخاصة في المقاطعات المنتجة للمطاط ويعتبر الأمن الذي لوحظ تحت الحكم السعودي سببا آخر للطفرة في عام ١٩٢٧م. وبقي ازدياد عدد حجاج إندونيسيا مطردا حتى عام ١٩٣١م عندما حلت الأزمة الاقتصادية العالمية، والتي أثرت في إندونيسيا على ما يبدو تأثيرا كبيرا. وعلاوة على هذه الأزمة الاقتصادية كان هنالك جهود دعائية ضد أداء الحج وراءها أحزاب وطنية إندونيسية. وما إن حل عام ١٩٣٨م حتى حصل انتعاش بسيط في عدد الحجاج الإندونيسيين بعد الهدوء النسبي للأزمة الاقتصادية، ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية وقف حاجزا أمام هذا الانتعاش، يضاف إلى ذلك أنه في عام ١٩٤٠م قلصت شركات النقل البحري رحلاتها إلى جدة، وعليه لم يتمكن العديد من الإندونيسيين من أداء الحج .

وفيما يتعلق بنسبة الحجاج الإندونيسيين إلى المجموع العام للحجاج الخارجيين (من خارج شبه الجزيرة العربية) فقد كانت عالية حتى قبل عام ١٩١١م، وخاصة في عامي ١٨٨٠ و ١٨٩٨م. ومنذ عام ١٩١١م كان هنالك زيادة كبيرة لنسبة الحجاج الإندونيسيين، وقد سجلت هذه النسبة رقما قياسيا عام ١٩١٤م عندما كان نصف حجاج الخارج من إندونيسيا. وقد استمرت هذه النسبة العالية للحجاج الإندونيسيين حتى عام ١٩٣١م، عندما بدأت بالانخفاض على أثر الأزمة المالية الكبرى. وبعد خفة حدة هذه الأزمة حصل تحسن طفيف على نسبة الحجاج الإندونيسيين الذين كانوا ٢٠٫٨٪ فقط مع بداية الحرب العالمية الثانية .

المواطن الأصلية لوفود الحجاج :

تعتبر الظروف السياسية وطرق المواصلات أهم العوامل التي تحدد أعداد الحجاج من المناطق المختلفة للعالم الإسلامي. وعلى الرغم من قدوم أعداد كبيرة من الحجاج من مناطق نائية كإندونيسيا وجزر الهند الشرقية وجنوب الصحراء الإفريقية الكبرى، فإن الحجم الأعظم من الحجاج كان من دول شرق أوسطية كمصر وسوريا واليمن وتركيا وإيران (فارس). ولقد أوضح Keane في تقديره التقريبي لأعداد الحجاج حسب جنسياتهم في آخر القرن التاسع عشر أن حوالي ٧٥٪ من الحجاج كانوا من أصل آسيوي، في حين أن نسبة الحجاج الإفريقيين وصلت فقط إلى ٢٥٪ (جدول ٣).

ولقد قدم محمد الكردي بعض الإحصائيات لسنة ١٨٩٨م (جدول ٤)، ولكنه يعرض فقد أعداد الحجاج في تلك السنة لبعض المناطق المختارة. وعلى أية حال يرى الكردي أن المجموع العام للحجاج عام ١٨٩٨م كان حوالي ٢٠٠,٠٠٠ حاج.

ابتدأ عمل الخط الحديدي الحجازي عام ١٩٠٩م، والواقع لقد نجم عن ربط هذا الخط لمدينتي دمشق والمدينة المنورة زيادة في عدد الحجاج المسلمين الوافدين إلى مكة، ففي عام ١٩٠٩م استخدم ١٥,٠٠٠ حاج هذا الخط، وفي عام ١٩١١م سافر عليه حوالي ٢٩,٠٠٠ حاج(١١).

وتجدر الإشارة إلى أن معظم الحجاج سافروا بواسطة الخط الحديدي الحجازي كانوا سوريين وأتراكاً وروساً، كما استخدمه أيضا بعض الحجاج القادمين من العراق وفارس وأفغانستان. ولكن السفر بواسطة هذا الخط لم يعد ممكنا بعد أن نسفه الكولونيل لورنس وأعوانه من العرب في نهاية الحرب العالمية الأولى.

إن تحليلا عاما لمناطق وفود الحجاج يُري كيف أن الآسيويين استمروا يكونون الحجم الأكبر من الحجاج، ولكن نسبة الحجاج الإفريقيين ازدادت من ٢٥٪ في أواخر القرن التاسع عشر إلى حوالي ٣٦٪ في أواخر العشرينات من القرن العشرين. ويستند ذلك على مقال كتبه Eldon Rutter عن الحج الإسلامي، وتم نشره في عام ١٩٢٩م، وقد بين Rutter في جدوله

جدول (٣)
حجم الحجاج حسب مواطن وفودهم في أواخر القرن التاسع عشر

الموطـــن	النسبة المئوية
هـنود	٢٠
عرب (شبه الجزيرة العربية)	١٥
شـــمال إفريقيـا	١٥
زنوج (وسـط إفريقيـا)	١٠
فارســيين (إيـران)	١٠
أتـــراك	٦
ســوريـون	٦
جزر جنوب شرق آسيا	٥
تار ترز (منغوليا وأواسط آسيا)	٥
بـــدو	٣
مواطن أخرى (الصين، غرب إفريقيا وروسيا)	٥

المصـدر:

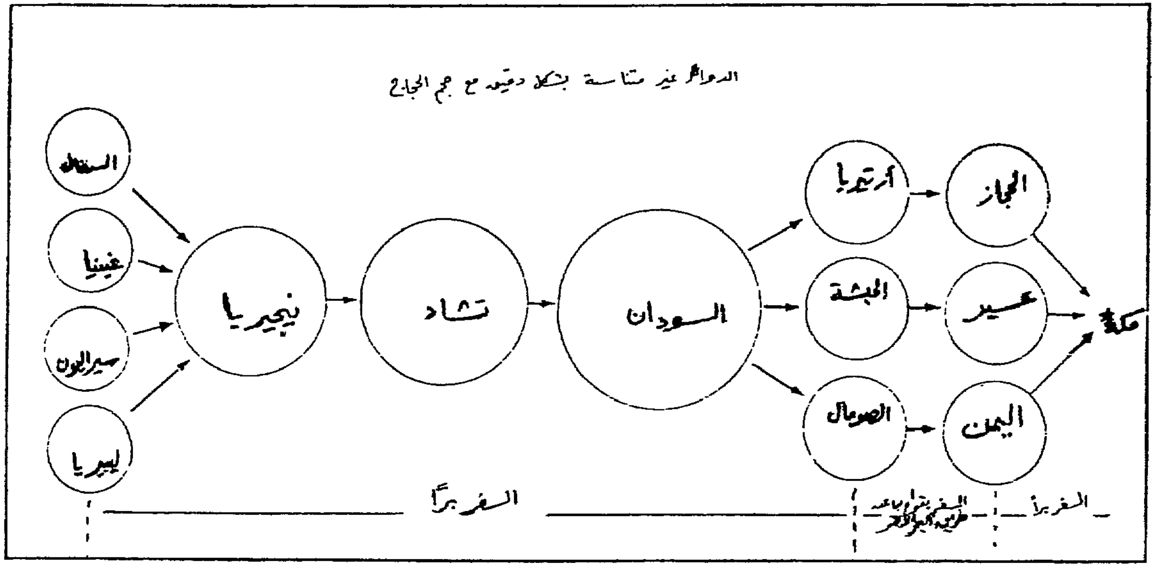
J. Keane, Six Months in the Hijas (London, Ward and Downey, 1887), P. 69.

جدول (٤)
أعداد الحجاج لبعض المناطق في سنة ١٨٩٨م

حجاج المناطق	الأعداد	النسبة المئوية
العثمانيون (عن طريق بورسعيد والإسكندرية)	٨٫٣٥٢	٥٥٫٥
مصريون	٤٫٥٤١	٣٠٫٢
إيرانيون	١٫١١٣	٧٫٤
إفريقيون وسودانيون (رافقوا التركة العثمانية)	٢٤٠	١٫٦
روس (عن طريق الإسكندرية)	٢٠٩	١٫٤
من البصرة (في العراق) إلى السويس عن . . . . . طريق قناة السويس	١٩٠	١٫٢
من البصرة إلى السويس برا	١٥٣	١٫٠
مغاربة (مراكش)	١٤١	٠٫٩
بوسنة وهرسك (؟)	٨٦	٠٫٦
جزائريون	٢٧	٠٫٢

المرجع :

محمد الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، مكة: مكتبة النهضة، ١٣٥٨هـ، ١٨٦(النسب المئوية من صنع المؤلف) .



شكل (٢) : تدفق حجاج غرب ووسط إفريقيا في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين

الوحيد في المقال أن وسط إفريقيا والسودان والملايو وبورنيو وسيليبس وشبه الجزيرة العربية والهند ومصر كانت هي المناطق الرئيسية التي وفد منها الحجاج إلى مكة (جدول ٥) .

بلغ عدد الحجاج الذين وفدوا من وسط إفريقيا والسودان حوالي ٤٠٫٠٠٠ حاج في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين (٢٢٫١٪ ، ويعتبر ذلك استثناء للقاعدة التي ترى في ذلك الحين بأن الدول البعيدة التي يسير منها الحجاج مسافات طويلة وشاقة كانت ترسل أقل عدد من الحجاج. أما الطريق إلى مكة فكان بالنسبة لحجاج السنغال وغينيا وسيراليون وليبيريا هو طريق شرقي يمر من نيجيريا (شكل ٢). وقد مر الألوف منهم من مدينة كانو بشمال نيجيريا، وإلى الشرق من هذه المدينة كان عدد الحجاج يزداد باطراد. وكان الحجاج بعد وصولهم تشاد يكملون رحلتهم شرقا حتى يصلوا النيل أو أحد روافده، وبعد ذلك كانوا يمرون من السودان وأرتيريا أو الحبشة والصومال حتى يصلوا ساحل البحر الأحمر. ومن هناك كان الحجاج يركبون الدهو - وهو مركب شراعي مألوف في شواطئ الجزيرة العربية وشرق إفريقيا - حتى يصلوا الحجاز أو عسير أو اليمن حيث يعتمد ذلك على اتجاه الرياح . ومن الجدير بالإشارة إلى أن الكثيرين من حجاج غرب إفريقيا كانوا يعزمون على رحلة الحج لأسباب تتعلق باضطهاد الأوربيين لهم، أو المجاعات التي تحصل في بلادهم، إلى جانب الدوافع الدينية .

يبدو أن Rutter كان يوافق على الفكرة القائلة بأن الذي يحدد عدد الحجاج من دولة ما هو صعوبة أو سهولة شبكة المواصلات، وهذا يبين لماذا جاء حوالي ٣٠٫٠٠٠ حاج (١٦٫٦٪) من الملايو وبورنيو وسيلبيس في أواخر العشرينات من القرن العشرين، حيث إن السبب هو وقوعهم على الطريق الرئيسي لخطوط الملاحة البحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا. أما حجاج شبه الجزيرة العربية فبلغ مجموعهم ٣٠٫٠٠٠ حاج (١٦٫٦٪) في أواخر العقد الثاني من القرن الحالي. ويمكن تفسير هذه النسبة المرتفعة بالمسافة القصيرة التي كان على الحاج من شبه الجزيرة العربية أن يقطعها عند سفره إلى مكة. أما الهند والتي كان عدد سكانها في تلك الفترة حوالي ٧٠ مليون نسمة فلم ترسل أكثر من ٢٥٫٠٠٠ حاج (جدول ٥). ويمكن تفسير هذا الرقم المنخفض نسبيا خاصة بالفقر المدقع لمعظم سكان الهند .

وفيما يتعلق بمصر فقد كانت الدولة الأولى التي قدم منها الحجاج بالنسبة لعدد السكان، فعلى الرغم من أن عدد سكانها كان في آخر العشرينات ١٣ مليونا فقط إلا أنه وصل منها

جدول (٥)

أعداد الحجاج حسب مواطن وفودهم في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين

حجاج المناطق	العدد	النسبة المئوية
وسط إفريقيا والسودان	٤٠٫٠٠٠	٢٢٫١
الملايو، بورنيو وسيليبس	٣٠٫٠٠٠	١٦٫٦
شبه الجزيرة العربية	٣٠٫٠٠٠	١٦٫٦
الهند	٢٥٫٠٠٠	١٣٫٨
مصر	١٥٫٠٠٠	٨٫٣
مراكش والجزائر وليبيا	١٠٫٠٠٠	٥٫٥
سوريا وتركيا والبلقان	١٠٫٠٠٠	٥٫٥
الصين (ومناطق مجاورة)	١٠٫٠٠٠	٥٫٥
أفغانستان وبلوخستان	٦٫٠٠٠	٣٫٣
كردستان وبخارى وأواسط آسيا	٥٫٠٠٠	٢٫٨
المجموع		١٠٠٫٠
مجموع الرجال	١٨١٫٠٠٠	
المجموع التقريبي للنساء والأطفال	٦٩٫٠٠٠	
المجموع التقريبي العام	٢٥٠٫٠٠٠	

المصدر :

E. Rutter (The Muslim Pilgrimage,) Geographical Journal 74 (3), 1929, p. 273.

(النسب من صنع المؤلف) .

١٥٫٠٠٠ حاج (جدول ٥). ويمكن تفسير هذه النسبة المرتفعة بسهولة المواصلات مع قصر المسافة بين مصر والحجاز، حيث يستطيع المصري أداء فريضة الحج والعودة إلى بلده في خلال أسبوعين فقط .

أما الدول الثانوية الموفدة للحجاج فكانت تتضمن مراكش والجزائر وليبيا (نسبتهم ٥٫٥٪ في آخر العشرينات)، ثم سوريا وتركيا واليابان (نسبتهم ٥٫٥٪)، والصين (نسبتها ٥٫٥٪ أيضا). والواقع لم يأت من أفغانستان وبلوخستان وكردستان وبخارى وأواسط آسيا سوى نسب بسيطة من الحجاج (جدول ٥). ولقد استمرت هذه الصورة العامة للمناطق التي وفد منها الحجاج حتى نشوب الحرب العالمية الثانية، حيث بدأت أعداد الحجاج ومناطق وفودهم تتخذ نمطا جديدا يتم توضيحه في القسم التالي .

الحجاج المسلمون منذ الحرب العالمية الثانية :

شهدت أعداد الحجاج والدول التي يفدون منها لأداء فريضة الحج بعد الحرب العالمية الثانية تغييرات كبيرة تسترعي اهتمام الباحثين، فقد سجلت أعداد الحجاج طفرات مذهلة لم يسبق لها مثيل طيلة التاريخ الإسلامي، كما ظهرت دول رئيسية يفد منها الحجاج بينما تقهقرت دول أخرى. وفيما يلي سيتم توضيح هذه الصورة الجديدة لأعداد ومواطن وفود الحجاج المسلمين .

أعداد الحجاج :

تعتبر الزيادات الحاصلة في أعداد الحجاج منذ الحرب العالمية الثانية مظهرا من مظاهر التغييرات الرئيسية التي طرأت على نمط الحج مؤخرا، ولكن مع ذلك توجد بعض السنين ذات الأعداد القليلة نسبيا كما هو الحال في منتصف الخمسينيات وأوائل الستينات. ويمكن تفسير هذه الانخفاضات في أعداد الحجاج بحرب السويس التي وقعت عام ١٩٥٦م، وبعدم الاستقرار السياسي في بعض الدول العربية بشكل عام. وعلى أية حال فإن مجموع الحجاج كان في عام ١٩٥٥م أربعة أضعاف المجموع في عام ١٩٤٦م، بينما كان مجموعهم عام ١٩٦٩م ستة أضعاف مجموع الحجاج عام ١٩٤٦م، بينما كان مجموعهم ١٩٦٩م ستة أضعاف مجموع الحجاج عام ١٩٤٦م (جدول ٦). وعلى رأي Russel King فإن حوالي ١٫٠٪ من عدد سكان

جدول (٦)

أعداد الحجاج لبعض السنين المختارة

١٩٤٦ - ١٩٧٦

السنوات	الأعداد	نسبة الزيادة أو النقصان
١٩٤٦	٦١,٢٨٦	-
١٩٥٥	٢٣٢,٩٧١	+ ٢٨٠,١٪
١٩٥٧	٢١٥,٥٧٥	- ٧,٥
١٩٥٩	٢٠٧,١٧١	- ٣,٩
١٩٦٣	١٩٩,٠٣٨	- ٣,٩
١٩٦٩	٣٧٤,٧٨٤	+ ٨٨,٣
١٩٧٠	٤٠٦,٢٩٥	+ ٨,٤
١٩٧٣	٦٤٥,١٨٢	+ ٥٨,٨
١٩٧٤ (يناير)	٦٠٧,٧٥٥	- ٥,٨
١٩٧٤ (ديسمبر)	٩١٨,٧٧٧	+ ٥١,٢
١٩٧٥	٨٩٤,٥٧٣	- ٢,٦
١٩٧٦	٧١٩,٠٤٠	- ١٩,٦

المصدر:

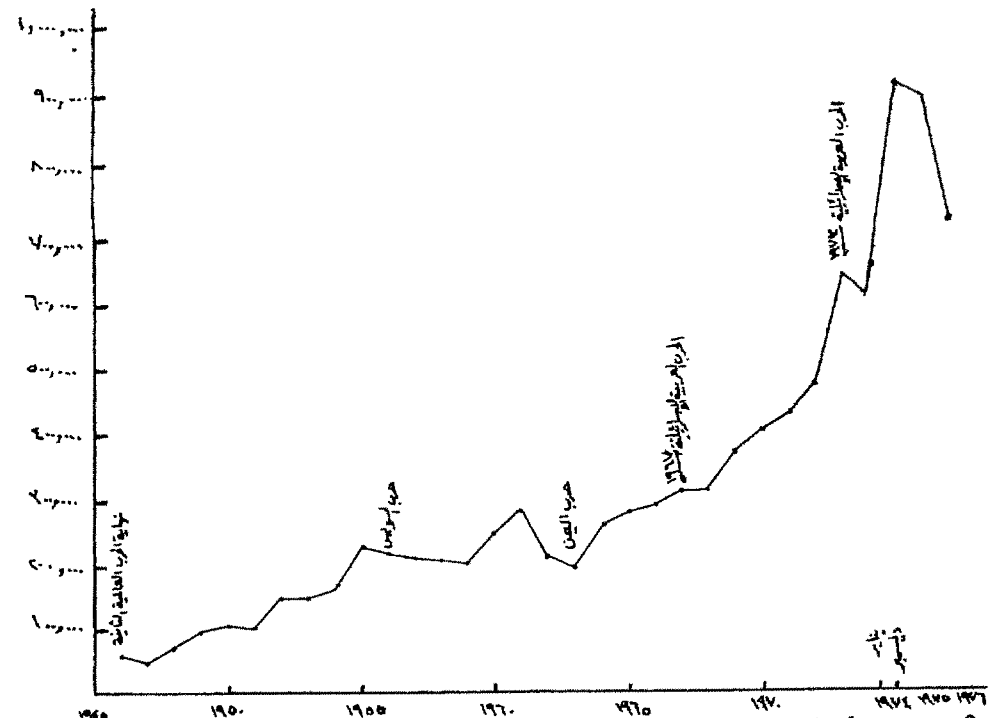
المملكة العربية السعودية، وزارة الداخلية، إحصائية الحجاج، جدة: دار الأصفهاني، ١٩٧١م. ونشرات أعوام ١٩٧٢، ١٩٧٣، ١٩٧٤م، ١٩٧٥، ١٩٧٦م. (النسب المئوية من صنع المؤلف).

المسلمين في العالم يكون في مكة في موسم الحج، رغم أن هذه النسبة قد تصل إلى ٢٥٪ في بعض القرى المصرية.[١٢]

لقد تحسنت الظروف الاقتصادية المتعلقة بأداء الحج في السنين الأخيرة، فالدخل الفردي العالي وخاصة في دول الشرق الأوسط البترولية، بالإضافة إلى طرق المواصلات السريعة والسهلة، كل ذلك مكن المزيد من المسلمين من السفر لمكة لأداء فريضة الحج . والواقع يستطيع حجاج كل من الهند والصين وإنجلترا وصول جدة بعد سبع أو ٨ ساعات من مغادرتهم، في حين يكفي لحجاج مصر والعراق وسوريا فقط ساعتين أو ثلاث ساعات . لقد كانت الدول العربية التالية، وهي اليمن ومصر وسوريا والسودان، أكبر الدول التي وفد منها الحجاج في أوائل الخمسينات، إذ بلغ مجموع حجاجها عام ١٩٥٤م مثلا ٢٧٫٨٦٦ و ٢٠٫٧٥٥ و٧٫٧٤٨ و ٦٫٠١٥ على الترتيب[١٣] . وبالمقابل فقد كانت الباكستان وتركيا وإندونيسيا والهند أكبر الدول الآسيوية وغير العربية التي وفد منها الحجاج لنفس عام ١٩٥٤م، فقد بلغ الحجاج من هذه الدول على الترتيب ١٩٫٣٥٢ و١١٫٧٠٨ و ١٠٫٢٣٤ و ٧٫٨٩٤ حاجا[١٤] .

وبشكل عام استمر حجم الحجاج بالزيادة المطردة بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٧٦م، مع انخفاضات بسيطة في بعض السنين سببتها الحروب والاضطرابات السياسية. لقد بلغ عدد الحجاج ٢٣٢٫٩٧١ حاجا عام ١٩٥٥م، بنسبة زيادة قدرها ٢٨٠٫١٪ بالمقارنة مع عام ١٩٤٦م. ولكن عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٩م شهدا نقصانا طفيفا في عدذ الحجاج نتيجة لآثار حرب السويس عام ١٩٥٦م ، وثورة العراق لعام ١٩٥٨م (جدول ٦). أما انخفاض المجموع العام للحجاج في عام ١٩٦٣م إلى ١٩٩٫٧٨٤، فكان نتيجة للحرب الأهلية في اليمن. وبعد عام ١٩٦٣م استمرت أعداد الحجاج بالازدياد، لا سيما نتيجة لتحسن الأوضاع المالية لمعظم دول الشرق الأوسط خاصة البترولية من ناحية ولازدياد الحماس الديني الذي تلا الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧م من ناحية أخرى. وفي عام ١٩٦٩م كانت نسبة زيادة الحجاج بالمقارنة مع عام ١٩٦٣م تعادل ٨٨٪ .

واستمرت زيادة عدد الحجاج بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٣م، ولكن في موسم يناير عام ١٩٧٤م انخفض العدد قليلا بسبب النزاع العربي الإسرائيلي أواخر عام ١٩٧٣م، في حين سجل عدد الحجاج في موسم ديسمبر عام ١٩٧٤م رقما قياسيا بلغ ٩١٨٫٧٧٧ حاجا بعد هدوء



شكل(٢)- نمو أعداد الحجاج في السنين ١٩٤٦-١٩٧٦م - المرجع: إحصائية الحجاج عام ١٩٧٦م

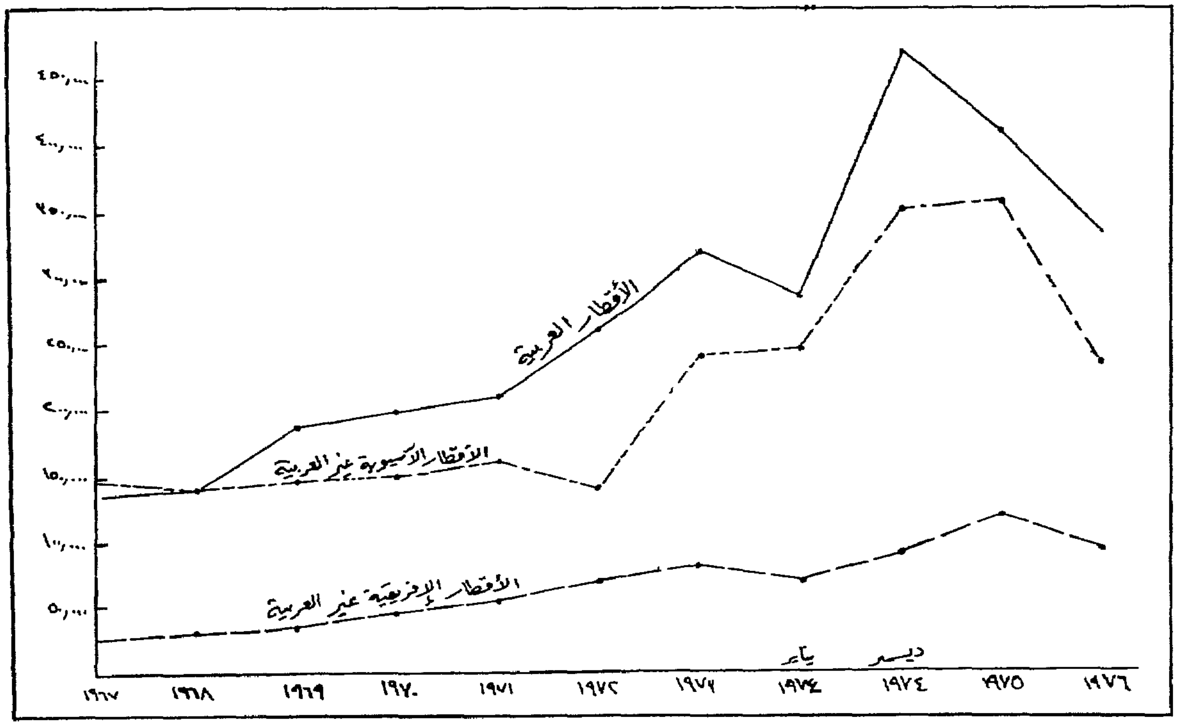
منطقة الشرق الأوسط السياسي. وعليه فإن موسم ديسمبر من عام ١٩٧٤م يعتبر من الناحية الرقمية أعلى مواسم الحج عبر التاريخ الإسلامي (شكل ٣)، ففي ذلك الموسم استقبل مطار جدة الدولي في المملكة العربية السعودية حجاجا بمعدل ١٢٠ طائـرة في اليوم ولمدة ثلاثـة أسابيع.[١٥]

وفي عام ١٩٧٥م حدث هبوط طفيف في أعداد الحجاج، بلغت نسبته ٦ر٢٪، ولكن تبع ذلك هبوط كبير بلغت نسبته حوالي ٢٠٪ في عام ١٩٧٦م. ويمكن تفسير هذا الهبوط الرئيسي بعاملين رئيسين: أولهما: أن عددا من الأقطار كمصر والباكستان والهند وبنجلاديش فرضت قيود سفر على العدد المسموح به للذهاب إلى الحج، وذلك من أجل توفير العملات الصعبة في تلك البلاد. ثانيهما: أن قصص نشوب الحريق في خيام الحجاج خلال موسم ١٩٧٥م خلق جوا من الرعب بين الناس الذين عزموا على الحج، جعل كثيرا منهم يلغون رحلاتهم المقررة لعام ١٩٧٦م .

المواطن الأصلية لوفود الحجاج :

يمكن اعتبار الأقطار العربية والأقطار الآسيوية غير العربية والأقطار الإفـريقية غـير العربية بمثابة المناطق الكبرى الرئيسية التي يفد منها الحجاج إلى مكة كل عام. وعلى وجه الخصوص فإن غالبية الحجاج تأتي هذه الأيام من الأقطار العربية. ففي موسـم ديسمبـر ١٩٧٤م بلغ عدد الحجاج من البلاد العربية ٤٠٥ر٤٧١ حجاج، أي ما يعادل أكثر من ٥٠٪ من المجموع العام لتلك السنة (٧٧٧ر٩١٨) من جميع الأقطار[١٦] والواقع كان موسم ديسمبر ١٩٧٤م هو بمثابة القمة للبلاد العربية، في حين لوحظت قمم أعداد البلاد الآسيوية غير العربية والإفريقية غير العربية في موسم حج ١٩٧٥م (شكل ٤) .

لقد كانت الدول الخمس الأولى التي أرسلت أكبر عدد من الحجاج في موسم ١٩٧٦م هي: تركيا، ونيجيريا، واليمن، والعراق، وباكستان، في حين كانت الدول الخمس الثانية لنفس العام هي: السودان، وإيران، والجزائر، ومصر، وإندونيسيا (جدول ٧). وإذا ما أضفنا ليبيا[١٧] فإن الدول العشرة السابقة، باستثناء العراق والسودان، تعتبر أيضا أكبر الدول التي وفد منها حجاج عام ١٩٧٥م (شكل ٥). وبشكل عام فإن نمو حجم الحجاج في السبعينات من القرن



شكل (٤)-١ الحج الإسلامي حسب مناطق الوفود الكبرى — المرجع : إحصائية الحج للأعوام ١٩٦٧-١٩٧٦م

العشرين يعتبر واحداً من أهم مميزات الحج الإسلامي في الفترة المعاصرة. والواقع أنه إذا ما تتبعنا عدد الحجاج من جميع الدول العشرة الأولى الآنفة الذكر لجميع السنين لوجدنا أن أعلى الأرقام سجلت فعلا في السبعينات من هذا القرن .

لقد سبقت الإشارة إلى أن الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي في الدول التي يفد منها الحجاج، يكونان سببا في نمو مطرد في أعداد الحجاج، وبالعكس فإن الظروف الاقتصادية غير الملائمة، والمشاكل السياسية في الدول الموفدة للحجاج، تكون هي المسؤولة عن الهبوط في عدد الحجاج من تلك الدول. فعلى سبيل المثال انخفض عدد الحجاج القادمين من لبنان التي مزقتها الحرب إلى أكثر من ستة آلاف حاج خلال أوائل السبعينات إلى مجرد ألف حاج في عام ١٩٧٦م. وبالمقابل فإن الاستقرار السياسي والاقتصادي المشاهد مثلا في الإمارات العربية المتحدة أدى إلى نمو مطرد لأعداد الحجاج، حيث ارتفعت من حوالي ألف حاج في عام ١٩٧٢م إلى أكثر من أربعة آلاف حاج في عام ١٩٧٦م .

والواقع فإن حالات الزيادات المفاجئة بل والزيادات الكبيرة ليست نادرة، فمصر مثلا قدم منها ١١٫٠٠٠ حاج عام ١٩٧٠م، وارتفع هذا الرقم بنسبة ١٦٠٪ عندما وصلت ٢٩٫١٧١ حاجا في عام ١٩٧٢م .

وارتفع عدد المصريين الذين تقدموا لأداء فريضة الحج إلى ٨٩٫٦١٧ في عام ١٩٧٤م، ولكن الرقم انخفض إلى ٢٨٫٠٤٥ حاجا فقط عام ١٩٧٦م بسبب قيود السفر التي فرضتها الحكومة المصرية لتوفير العملات الصعبة. وكذلك فقد تذبذبت أعداد الحجاج السودانيين مؤخرا، لاسيما بسبب عدم الهدوء السياسي الداخلي، بما في ذلك المحاولات العديدة التي كان من نتائجها فرض قيود سفر على السودانيين، فمثلا انخفض عدد حجاج السودان من ٢٠٫٤٩٥ عام ١٩٧٠م إلى ١٤٫٨٦٥ عام ١٩٧١م، بنقصان بلغت نسبة ٢١٪. وبعد أن ارتفع عدد الحجاج السودانيين إلى ٤٢٫٠٨٤ في عام ١٩٧٤م هبط إلى ٢٤٫٢٠٩ في عام ١٩٧٥م، ثم ارتفع ثانية إلى ٤١٫٦٥٢ حاجا عام ١٩٧٦م .

تتضح حالات الارتفاعات المفاجئة والزيادات السريعة في كل من تركيا وإيران والجزائر. فبالرغم من الانحدار المفاجئ من ٥٦٫٥٧٨ في عام ١٩٧٠م إلى ١٣٫٢٦٩ حاجا في عام

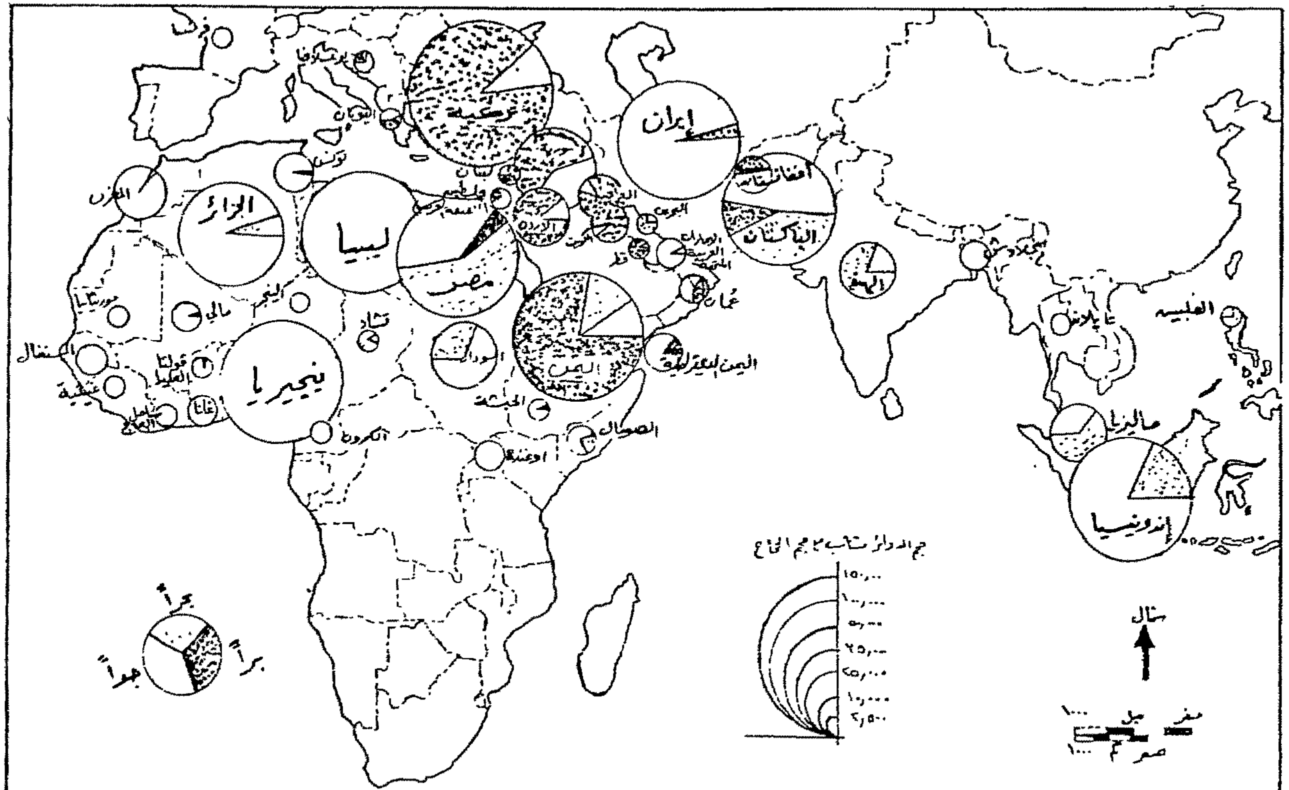
جدول (٧)
أعداد الحجاج حسب الدول العشر الأولى
لعام ١٩٧٦م

الأقطار	الأعداد	النسبة المئوية
تركيا	١٣٧٫٢٩١	١٩٫١
نيجيريا	٦٦٫٨٧٣	٩٫٣
اليمن	٦١٫١١٠	٨٫٥
العراق	٤٤٫٧٠٣	٦٫٩
الباكستان	٤٨٫٣٢٧	٦٫٧
السودان	٤١٫٦٥٢	٥٫٨
إيران	٣٩٫٢٩٦	٥٫٥
الجزائر	٣٤٫٨٥١	٤٫٨
مصر	٢٨٫٠٤٥	٣٫٩
إندونيسيا	٢٥٫٦٢٤	٣٫٦
أخرى	١٨٦٫٢٦٨	٢٥٫٩
المجموع العام . . .	٧١٩٫٠٤٠	١٠٠

المصدر:

المملكة العربية السعودية، وزارة الداخلية، إحصائية الحجاج لعام ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، جدة: دار الأصفهاني، ١٩٧٦، ص ١٦.

(النسب المئوية من صنع المؤلف) .



شكل (٥) - موسم حج ١٩٧٥م حسب الدول الرئيسية الموفدة للحجاج ووسائل قدومهم

المرجع : إحصائية الحج لعام ١٩٧٥م

١٩٧١م، استمرت إحصائيات الحجاج الأتراك بالازدياد، ثم ضرب عدد الحجاج الأتراك رقماً قياسياً في عام ١٩٧٦م عندما جاء إلى مكة ١٣٧,٢٩١ حاجاً تركياً. وربما كان هنالك علاقة بين السنين التي انخفض فيها عدد الحجاج الأتراك وبين إشراف الحكومة وتحديدها لعدد المسموح لهم بالسفر للحج .

أما بالنسبة للحجاج الإيرانيين فقد ارتفع عددهم من ١٥,١٣٢ حاجاً عام ١٩٧٠م إلى ٤٨,٣٦٧ عام ١٩٧١م، أي بنسبة زيادة قدرها ٢٢٠٪. ولكن انخفض عددهم عام ١٩٧٢م إلى ٣٠,٢٩٩ حاجاً أي بنقصان بلغت نسبته ٣٧٪ بالنسبة لعام ١٩٧١م. ولكن الرقم القياسي للحجاج الإيرانيين شوهد في عام ١٩٧٥م عندما بلغوا ٧٤,٠٩٥ حاجاً. أما حجاج الجزائر فقد تذبذب عددهم بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٦م بسبب الخلافات على الحدود بين الجزائر ومراكش. فقد بلغ عدد الحجاج الذين قدموا من الجزائر ٨,٥٣٧ عام ١٩٧٠م، و ٣,٩٣٦ عام ١٩٧١ م ، و ٤٩,٠٢٥ عام ١٩٧٤ م ، و ٥٥,٠١٠ عام ١٩٧٥م ، و ٣٤,٨٥١ حاج عام ١٩٧٦م .

هذا وتهتم معظم الدول الإفريقية بشكل كبير بما يخلفه ازدياد عدد الحجاج من مؤثرات مالية على الاقتصاد الوطني وخاصة فيما يتعلق بالعملات الصعبة، فمثلاً قيدت دولة غانا عدد المسافرين إلى مكة بقصد الحج، وكنتيجة لهذا التغيير حدثت مشاكل زحام من حجاج غانا لتأمين مقاعد على الطائرات المحدودة التي سمح لها بنقل الحجاج.(١٨) والواقع أنه في موسم حج ١٩٧٤م سمح فقط لثماني طائرات بنقل حجاج غانا الذين بلغوا ١١,٠٠٠ حاج، أما عام ١٩٧٦م فبلغ حجاج غانا فقط ٣,١٠٧ حجاج .

خاتمـــة :

إن مراجعة عامة للمواطن الأصلية التي يفد منها الحجاج تقود إلى الاستنتاج بأن الدول العربية وخاصة اليمن ومصر والعراق وسوريا والسودان وليبيا والجزائر كانت الدول التي وفد منها أكبر عدد من الحجاج في السنين الأخيرة، في حين كانت تركيا والباكستان وإيران ونيجيريا وإندونيسيا والهند أهم الدول غير العربية التي أرسلت أعدادا كبيرة من الحجاج إلى مكة. وعلى أية حال فإن حجم الحجاج فقط لا يمكن أن يكشف عن أي الدول من العالم الإسلامي تعتبر ملتزمة بالتقاليد الدينية أكثر من غيرها .

كما اتضح أيضا من الصفحات السابقة أن عدد الحجاج من الدول العربية والإسلامية في ازدياد مستمر، فقد بلغ مجموع الحجاج العام ٧١٩٫٠٤٠ حاجا عام ١٩٧٦م. ومن المتوقع أنه في عام ١٩٩١م سيصل عدد الحجاج غير السعوديين ١٫٢٠٠٫٠٠٠، في حين يتوقع أن يبلغ الحجاج السعوديون حوالي ٩٢٠٫٠٠٠[١٩]. وعليه فربما يصل عدد الحجاج من جميع الأقطار إلى أكثر من ثلاثة ملايين عام ٢٠٠٠[٢٠] والواقع أنه بالرغم من وجود طرق عديدة إحصائية يمكن استخدامها للتنبؤ عن أعداد الحجاج في السنوات المقبلة فإن تقدير عدد الحجاج في المستقبل لا يمكن أن يكون أكيداً ما لم يؤخذ بالاعتبار جميع الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد الموفدة للحجاج .

وهناك قضية تجدر الإشارة إليها وهي المتعلقة بالتفريق بين الحجاج الأجانب والمحليين. والواقع فإن تقدير الحجاج المحليين كان دائما مهمة صعبة، وسبب ذلك أنه لا السعوديون ولا الأجانب العاملون في السعودية عليهم أن يسجلوا أسماءهم لدى الدوائر الحكومية السعودية، أو الحصول على إذن حتى يسمح لهم بأداء فريضة الحج. وعلى الرغم من ذلك فإن السلطات السعودية أخذت مؤخرا تفرق بين الحجاج السعوديين ، والحجاج غير السعوديين العاملين في المملكة العربية السعودية، والحجاج القادمين من الخارج. ففي موسم حج ١٩٧٦م مثلا بلغ عدد الحجاج من داخل السعودية ٧٣٧٫٣٩٢ حاجا[٢١]. وكان من أصل هذا الرقم ٤٣٥٫٠٨٩ حاجا غير سعودي ويعمل أو يعيش في السعودية. فإذا ما أضفنا هذا الرقم الأخير إلى الرقم

الذي يمثل الحجاج غير السعوديين الذين وفدوا من الخارج (٧١٩،٠٤٠) عام ١٩٧٦م يكون المجموع العام للحجاج غير السعوديين لتلك السنة ١،١٥٤،١٢٩ حاجا .

والقضية الأخرى الجديرة بالإشارة تتعلق بالتمييز بين السنين الهجرية والميلادية أثناء إيراد إحصائيات الحج . لقد كان الفرق بين هذين التقويمين يشكل غالبا أخطاء كثيرة وقع بها كبار الباحثين، أورد على سبيل المثال الجغرافي Russel King عندما أورد بعض إحصائيات عام ١٩٦٨م، ولما كانت السنة الهجرية تعادل ٣٥٤ يوما فقط فإن موسمي حج يمكن أن يقعا خلال سنة ميلادية واحدة، فمثلا وقع موسما حج في عام ١٩٧٤م في كل من شهري يناير وديسمبر .

وأخيرا كان أداء الحج قديما صعبا رغم قلة عدد الحجاج، وذلك بسبب قلة التسهيلات المتاحة في السنين الماضية، ثم أصبح الحج أكثر سهولة منذ أوائل الستينات من هذا القرن تقريبا، حيث كثرت المشاريع التي من شأنها تسهيل تنقل الحجاج وإقامتهم. ولكن أداء الحج في بضع السنين الأخيرة أخذ يصعب ثانية بسبب الأعداد الهائلة التي تفد لأداء فريضة الحج من الأقطار العربية والإسلامية. والواقع فإن المملكة العربية السعودية تتحمل عبئا كبيرا من أجل تسهيل حركة الحجاج وأدائهم لشعائر الحج، فهي تنفق أموالا طائلة على مشاريع الحج ، ويعتبر إسكان منى الذي سيكلف سبعة بلايين ريال سعودي مثالا واحدا عنها[٢٢]. وتتضمن مشاريع الحج هذه إنشاء مطارات وطرق جديدة، بالإضافة إلى توسعة المسجد الحرام ، وبناء مراكز سكنية عديدة. فإذا ما تمت هذه المشاريع عندها يصبح أداء الحج سهلا، وبالتالي تزداد أعداد وفود الحجاج .

ooo

الحواشي

(١) محمد الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، مكة، مكتبة النهضة، ١٣٨٥هـ، ص ١٨٥ .

2 - R. King, «The Pilgrimage to Mecca: Some Geographical and Historical Aspects» ,Erdkunde, 26, 1972, p. 65.

3 - P. Lunde, «The Lure of Mecca», Aramco World Magazine, November- December 1974, p. 19.

(٤) أحمد السباعي، تاريخ مكة، ١٣٢٧هـ، ص ١٤٧ .

5 - Ali Bey, Travels in Morocco, Tripoli, Cyprus, Egypt, Arabia, Syria and Turkey, 1803-1807. Philadelphia: Carey, 1816, p. 27.

6 - J. Burckhardt, Traveles in Arabia, Vol. 2, London: Golborn and Bently, 1829, p. 1.

7 - R. King, Op. cit., p. 66.

8 - E. Rutter, «The Muslim Pilgrimage», Geographical Journal, 74 (3), 1929, p. 273

9 - J. Vredenbergt, «Ther Haddj», Bijdragen Tot De Teat-, Land-, En Volkenkunde, Vol. 118, 1962, pp. 91-154.

(١٠) يعرف الحج بالحج الأكبر عندما يصادف الوقوف على جبل عرفات يوم الجمعة وهذا لا أصل له في الشرع .

11 - R. King , op. cit., p. 67.

12 - R. King, «The Pilgrimage to Mecca: Some Geographical & historical Aspects», Erdkunde, 26, 1972, pp. 67-68.

(١٣) محمد الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، طبعة أولى، مكة: مكتبة النهضة، ١٣٨٥هـ، ص ١٩٠ .

(١٤) المصدر نفسه.

15 - Aramco World Magazine,Nov-Dec. 1974, p. 44.

(١٦) المملكة العربية السعودية. وزارة الداخلية، إحصائية الحجاج، جدة: دار الأصفهاني، ١٩٧١م. ونشرات الأعوام ١٩٧٢، ١٩٧٣، ١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٧٦م .

(١٧) بلغ عدد حجاج ليبيا عام ١٩٧٥م نحو ٥٢٫٧٢٠ حاجا .

18 - Impact- International Fortinighty, 5: 19, London 10-23 October, 1975, p.2.

19 - D. Long, «The Hajj: A Survey of the COntemporary Pilgrimage to Makkah, unpublished Ph. D. dissertation Department of Political Science, George Washington University, 1973, p. 202.

(٢٠) يتفق ذلك مع الرقم الذي اقترحه D. Long في المرجع السابق، ص ١٠٢ .

(٢١) المملكة العربية السعودية، وزارة الداخلية، إحصائية الحجاج لعام ١٩٧٦م، جدة: دار الأصفهاني، ١٩٧٦م، ص ٢٩ .

(٢٢) حصل المؤلف على هذا الرقم بعد المقابلة التي تمت مع صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبدالعزيز، أمير منطقة مكة ورئيس لجنة الحج العليا، ومع سيادة المهندس عبدالعزيز غندورة مدير عام مشروع منى، وذلك في جدة بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٧٥م .

المراجع العربية والأجنبية

أولا: الكتب

1 - Bey, A. Travels in Morocco, Tripoli, Cyprus, Egypt, Arabia Syria snd Turkey, 1803-1807. Philadelphia: Carey, 1916.

2 - Burckbardt, J. Travels in Syria and the Holy Land. 3 Vols. London : Murray, 1822.

3 - Keane, J. Six Months in the Hijaz. London: & Downey, 1887.

٤ ـ محمد الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة، ١٣٨٥هـ .

٥ ـ أحمد السباعي، تاريخ مكة، الناشر والمكان غير مذكورين، ١٣٢٧هـ .

ثانيا: المقالات

1 - King, R. «The Pilgrimage to Mecca: Some Geographical and Historical Aspects». Erdkunde, 26 (1972), 61-73.

2 - Rutter, E, «The Muslim Pilgrimage». Geographical Journal, 74, 3 (1929), 271-273.

3 - Vredenbergt, J. «The Haddj,» Bijdragen Tot de Taal-, Land- En Volkenkunde, Vol. 118, 1962, pp. 91-154.

ثالثا: مراجع أخرى

1 - D. Long The Hajj,: A survey of the Contemporary Pilgrimage to Makkah. (unpuplished Ph. D. Dissertation, Department of Political Sciences, George Washington University), 1973.

2 - Aramco World Magazine, November- December 1974.

3 - Impact : International Fortnightly , 5, 19 (October 1975).

٤ ـ المملكة العربية السعودية، وزارة الداخلية، إحصائية الحجاج، جدة: دار الأصفهاني (١٩٧١ ـ ١٩٧٦م) .

٥ ـ مقابلة مع صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة ورئيس لجنة الحج العليا في ٢٤ ديسمبر ١٩٧٥م .

٧ ـ مقابلات مع السيد سامي عنقاوي مدير مركز الحج للأبحاث بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة (١٩٧٥ ـ ١٩٧٧م)

الحج دراسة فى حركة السكان

دكتور السيد خالد المطري

الحج صورة من صور الحركة السكانية :

تعتبر الهجرة عنصرا من عناصر حركة السكان وانتقالهم، فالسكان ليسوا كتلة ثابتة جامدة غير متحركة، وإنما هم في حركة دائمة تتم بطريقتين: الأولى طبيعية عن طريق المواليد والوفيات، والثانية غير طبيعية عن طريق الهجرة. وإذا كانت المواليد والوفيات تعمل على توزيع السكان فإن الهجرة تؤدي إلى إعادة هذا التوزيع[١] .

وللهجرة صور مختلفة، فقد تكون دولية أو داخلية، جماعية أو فردية، اختيارية أو إجبارية، دائمة أو مؤقتة، موسمية أو يومية. فما موقع الحج من هذه الصور جميعها ؟

الواقع أن الحج صورة من صور حركة السكان وانتقالهم من مكان إلى آخر، ولا يقتصر الحج على صورة واحدة من صور الحركة، بل قد يشملها جميعا. فهو حركة دولية تنقل أفواج الحجاج من محل إقامتهم المعتاد عبر الحدود السياسية لدولهم إلى داخل المملكة العربية السعودية، وهو حركة داخلية أيضا تنقل السكان من أبناء المملكة العربية السعودية والمقيمين فيها من رعايا الدول الأخرى من محل اقامتهم المعتاد فى قرى ومدن المملكة إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج استكمالا للركن الخامس من أركان الإسلام، ويتم الحج بطريقتين: فردية ينتقل فيها الحاج بمفرده إلى الأراضي المقدسة، أو جماعية تشمله مع غيره من الحجيج في أفواج وجماعات تنتقل بمحض اختيارها الحر المباشر دون إجبار أو قسر. وتكون الحركة إلى الحج موسمية تتم في موسم معين بين أوائل ذي القعدة وأواخر ذي الحجة من كل عام تقريبا، وإن كانت حركة بعض الحجاج تتحول إلى حركة دائمة حينما يستقر هذا البعض في الأراضي المقدسة لا يعودون منها إلى بلادهم، إما بحثا عن عمل، أو قضاء للبقية الباقية من حياتهم بجوار المشاعر المقدسة والحرمين الشريفين، خاصة من جانب كبار السن من الحجيج. وتتشبه الحركة الموسمية إلى الحج في هذه الحالة الحركة الموسمية إلى العمل التي يقوم بها المزارعون من بعض الدول للعمل في الأراضي الزراعية في الدول الأخرى أثناء موسم الحصاد، ثم يعودون عقب انتهاء هذا الموسم إلى بلادهم مرة أخرى، مع اختلاف في هدف كل من الحركتين . وبذا يكون الحج صورة من صور الحركة المؤقتة ، تستغرق شهرا أو شهرين أو نحوهما، يعود بعدهما الحجاج إلى محال إقامتهم المعتاد .

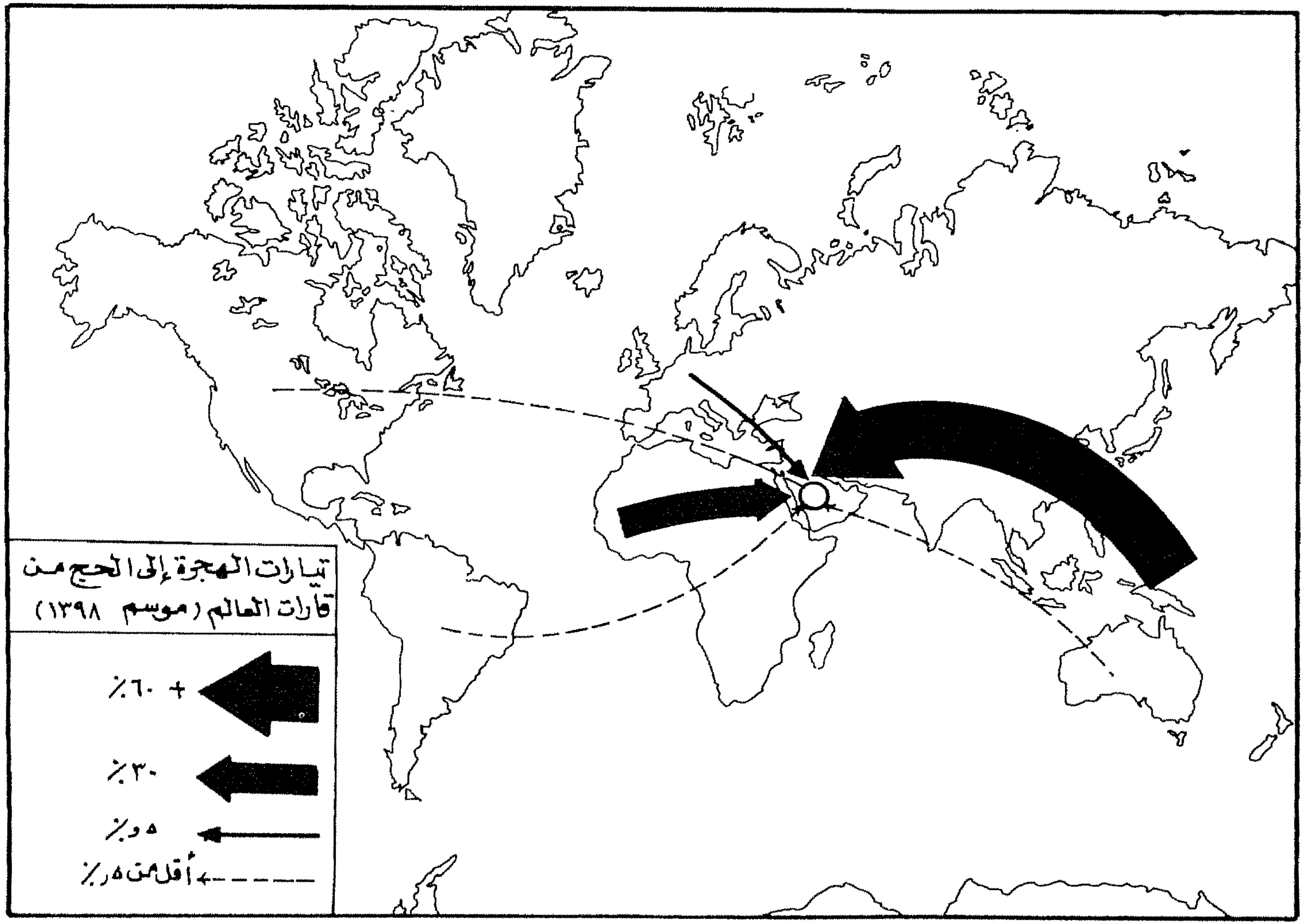
دوافع الحركة إلى الحج وتركيبها :

وإذا كان الحج على ذلك صورة من صور حركة السكان وانتقالهم من مكان إلى آخر، فإنه يختلف عن الحركة السكانية العادية في دوافعه وفي تركيبه النوعي والعمري، بحيث يمكن القول: إنه حركة من نوع خاص لم تتناولها الدراسات السكانية من قبل، ذلك أن دوافع الحج ومسبباته تختلف اختلافا جذريا عن دوافع الحركة السكانية المعروفة: فهي ليست دوافع سياسية (كتغير الحدود السياسية بين الدول أو تبادلها للسكان بناء على اتفاقيات دولية، أو للاضطهاد السياسي أو الديني، أو الحروب)، كما أنها ليست دوافع اقتصادية (مثل الرغبة في تحسين المستوى الاقتصادي للأفراد)، بل هي دوافع دينية روحية بحتة لا مادية ، إذ يلعب عامل الجذب الديني دورا أساسيا ووحيدا في اجتذاب أفواج الحجاج المسلمين من كافة بقاع العالم إلى البقاع المقدسة ليقيموا نسكهم وليستكملوا دينهم .

كذلك فإن التركيب النوعي لأفواج الحجيج لا يكون من الذكور وحدهم، كما هو حال الحركات السكانية الدولية التي شهدتها جهات كثيرة من العالم منذ بداية القرن التاسع عشر، بل يشمل النوعين معا الذكور والإناث بنسب متقاربة. كذلك فإن التركيب العمري لأفواج الحجيج لا يكون من الشباب وفئات السن المتوسطة القادرة على العمل والإنتاج، كما هو حال الحركات السكانية العادية، بل يضم فئات سنية متفاوتة، تشمل الشباب متوسطي السن والشيوخ والكهول وبعض العجزة غير القادرين على الحركة والانتقال الذين يودون لو انتهت بهم رحلة الحياة في الأراضي المقدسة .

تسجيل الحركة إلى الحج :

يتم تسجيل الحركة إلى الحج بطريقتين: مباشرة، وغير مباشرة حسب نوعها. فالحركة الدولية إلى الحج يتم تسجيلها بطريق مباشر، وذلك بتسجيل أعداد الحجاج القادمين من خارج المملكة العربية السعودية في الموانىء البحرية والجوية وفي المداخل البرية للمملكة من واقع جوازات السفر بمعرفة مصلحة الجوازات والجنسية بوزارة الداخلية. كما تعتمد هذه الطريقة المباشرة على عدد تأشيرات الدخول. إلى المملكة للحج والتي تعطى للأجانب من سفارات المملكة في الدول المختلفة. وبذا يمكن التمييز بسهولة بين القادمين للحج والقادمين للعمل والإقامة، وكلها هجرات للأجانب .


تيارات الهجرة إلى الحج من
قارات العالم (موسم ١٣٩٨)
٦٠٪ +
٣٠٪
٥ و٪
أقل من ٥ ر٪

شكل رقم (١)

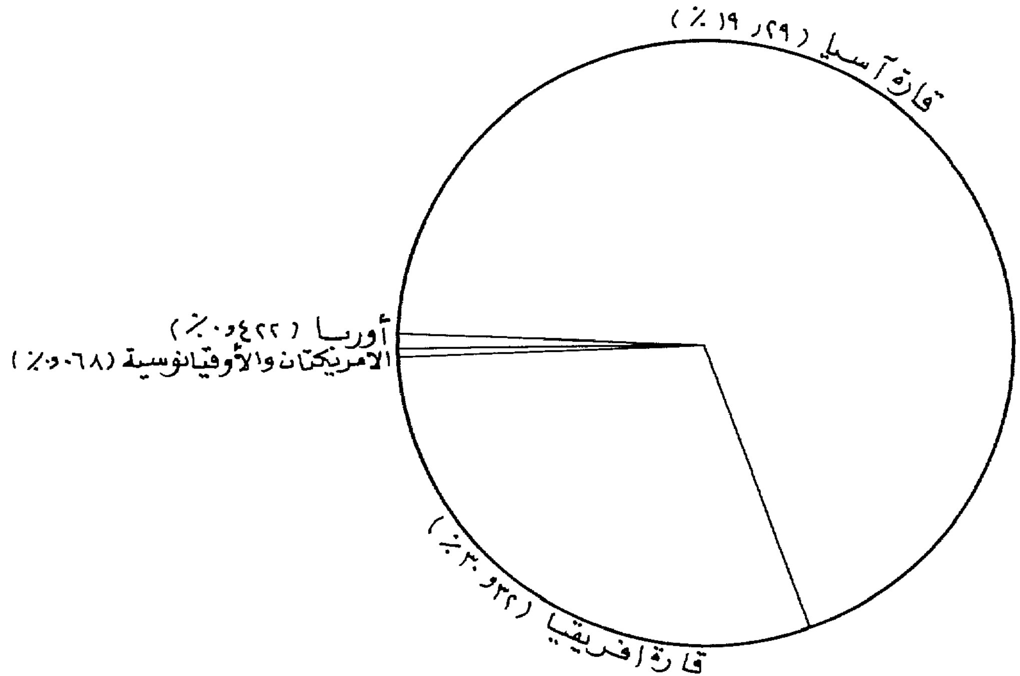
أما الحركة الداخلية إلى الحج أي انتقال المواطنين والمقيمين من قرى ومدن المملكة إلى الأراضي المقدسة، فتتم بطريقة غير مباشرة، وذلك بتسجيل جميع الحجاج الذين يدخلون مكة المكرمة من مداخلها المتعددة في فترة الحج واستبعاد الحجاج القادمين من خارج المملكة من مجموعهم، ليكون الباقي هم مجموع الحجاج من داخل المملكة. وتتم هذه العملية بطريقة متطورة بواسطة الأجهزة الحديثة التي تستخدمها السلطات في المملكة لأداء هذا الفرض .

وسنتناول موضوع الحركة إلى الحج من جوانب متعددة، منها: موقف قارات العالم ودوله من المشاركة في هذه الظاهرة الدينية العالمية المتكررة بانتظام، مع بيان دور الدول الإسلامية والدول غير الإسلامية في هذه الظاهرة، ودور العالم العربي في المساهمة فيها باعتباره الموطن الذي نشأ فيه الإسلام، وانتشر منه إلى بقاع العالم الإسلامي المختلفة، ونسبة إرسال الدول للحجيج بالقياس إلى عدد سكانها المسلمين، وأخيرا مستقبل الحركة إلى الحج في العشرين عاما القادمة على ضوء تطوره في الخمسين عاما الماضية. وستكون أرقام الحجاج الدوليين في موسم ١٣٩٨هـ محورا لهذه الدراسة .

مدى مشاركة قارات العالم في الحركة إلى الحج :

إن نظرة إلى الجدول رقم (١) والشكلين رقمي (١) ، (٢) توضح أن قارة آسيا تشارك بالقدر الأكبر في حركة الحج الموسمية بين قارات العالم قاطبة، إذ تبلغ نسبة من ترسلهم إلى الحج ٢٩ر٦٩٪ (أو٢٩٤ر٥٧٥ حاجا). ويتفق هذا تماما مع كون آسيا قارة الإسلام الكبرى في العالم، إذ تضم أكثر من ٤٠٠ مليون مسلم من بين ٦٥٠ مليون مسلم في العالم بنسبة ٧٤٪ تقريبا. كما يتفق هذا أيضا مع وقوع البقاع المقدسة فيها، وكونها أقرب القارات نسبيا إليها، مما يجعل عوامل المسافة والزمن والتكلفة تلعب دورا هاما في تسهيل انتقال الحجاج منها إلى هذه المشاعر.

وتأتي قارة إفريقيا في المرتبة الثانية بعد آسيا من حيث مشاركتها في الحركة إلى الحج كل عام، إذ تشارك بنسبة ٢٢ر٣٠٪ (أو٨٥٦ر٢٥٠ حاجا) من مجموع من أرسلتهم قارات العالم إلى حج هذا العام. ويتفق ذلك أيضا مع كون إفريقيا القارة البكر للإسلام التي ينتشر بين سكانها بخطى سريعة، تدك معاقل الظلام والجاهلية المتمثلة في الديانات الوضعية، والتي تضم أكثر من ٢٥٠ مليون مسلم أو نحو ٥ر٣٠٪ من إجمالي المسلمين في قارات العالم أجمع .



شكل رقم (٢)

توزيع نسب الحجاج حسب القارات (موسم ١٣٩٨)

جدول رقم (١)

عدد ونسب القادمين للحج من قارات العالم المختلفة

موسم ١٣٩٨ هـ

القارة	عدد الحجاج [٢]	٪ (من إجمالي الحجاج) [٣]
آسيا	٥٧٥٫٢٩٤	٦٩٫٢٩٠
إفريقيا	٢٥٠٫٨٥٦	٣٠٫٢٢٠
أوربا	٣٫٥٠٨	٠٠٫٤٢٢
أمريكا الشمالية	٤٤٠	٠٠٫٠٥٣
أمريكا الجنوبية	٧٧	٠٠٫٠٠٩
أستراليا	٢٩	٠٠٫٠٠٣
غير مبينة	٣٢	٠٠٫٠٠٣
الجملة	٨٣٠٫٢٣٦	١٠٠٫٠٠٠

وإذا كانت قارتا آسيا وإفريقيا أرض الإسلام التي تشمل الأغلبية الساحقة من المسلمين في العالم أجمع (٩٧٫٥٪ من أجمالي مسلمي العالم)، فليس غريبا إذن أن تشارك القارتان في الحركة إلى الحج بالأغلبية الساحقة (٩٩٫٥١٪، أو ٨٢٦٫١٥٠ حاجا) من جملة من ترسلهم قارات العالم إلى الحج كل عام .

أما باقي قارات العالم فلا تشارك في الحركة إلى الحج إلا بقدر زهيد، لا يتجاوز ٠٫٤٩٪ من إجمالي الحجاج، ويتفق ذلك مع انخفاض نسبة المسلمين في هذه القارات بالقياس إلى إجمالي مسلمي العالم (٢٫٥٪) . وهنا تأتي قارة أوربا في المقدمة، تليها قارة أمريكا الشمالية، فأمريكا الجنوبية، فأستراليا.

والظاهرة الجديرة بالتسجيل هنا أن قارات العالم أجمع قد شاركت في حركة حج هذا العام بإرسال أفراد من سكانها المسلمين وإن اختلفت أعدادهم، مما يؤكد أن الإسلام ظاهرة عالمية لا تخلو منها قارة من القارات مهما بعدت المسافات أو طال زمن الرحلة إلى الحج .

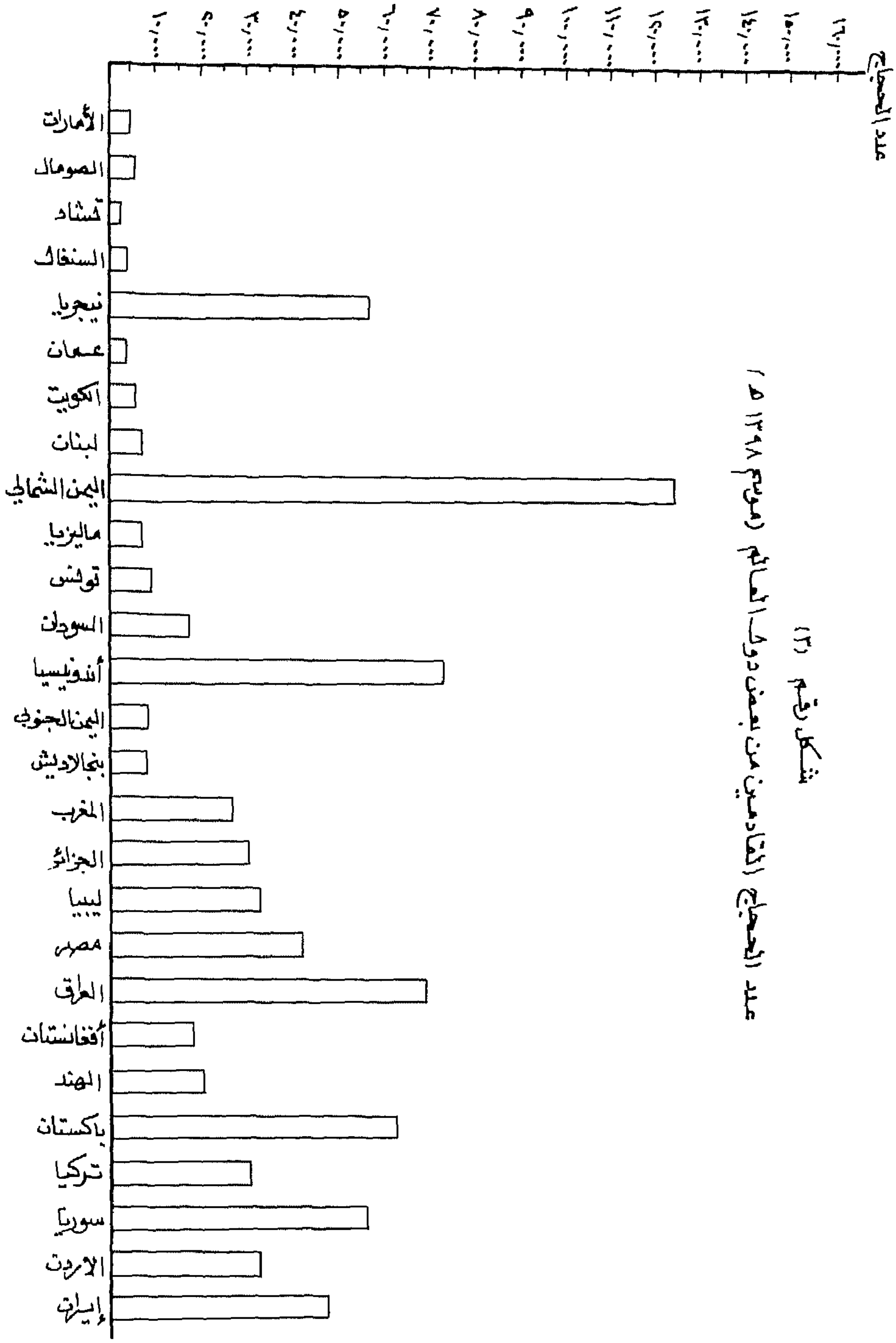
دول إرســال الحجاج :

إذا ألقينا نظرة على الجدول رقم (٢) والشكل رقم (٣) اللذين يبينان موقف دول العالم من إرسال الحجاج ومدى مشاركتهم في موسم هذا العام، لاتضحت لنا الحقيقتان التاليتان :

الأولـى :

إن الغالبية العظمى من موجة إرسال الحجاج هذا العام قدمت من خمس عشرة دولة فقط من مختلف أنحاء العالم (الإسلامي وغير الإسلامي)، أرسلت كل منها أكثر من عشرة آلاف حاج بنسبة أكثر من ١٪ من إجمالي الحجاج. وهذه الدول هي بالترتيب: اليمن الشمالي ـ إندونيسيا ـ العراق ـ الباكستان ـ نيجيريا ـ سوريا ـ إيران ـ مصر ـ ليبيا ـ الأردن ـ تركيا ـ الجزائر ـ المغرب ـ الهند ـ السودان. وقد بلغ مجموع القادمين من هذه الدول ٧١٨ر٤٠٢ حاجا، أو بنسبة ٨٦ر٥٣٪ من مجموع القادمين للحج هذا العام. وهنا نلاحظ أن نيجيريا والهند تشغلان المركزين الخامس والرابع عشر على التوالي من حيث إرسال الحجاج، بالرغم من أنهما دولتان غير إسلاميتين، بل إن نيجيريا هي أولى دول إفريقيا إرسالا للحجاج، وتفوق كثيرا من الدول الإسلامية كثيرة السكان (مثل مصر وتركيا وإيران والسودان والجزائر والمغرب) في هذا الصدد، مما يؤكد قوة التيار الديني الإسلامي في هذه الدولة غير الإسلامية .

أما الدول الأخرى التي شاركت في ارسال الحجاج هذا العام، وعددها ١٠٣ دولة فلم ترسل الا ١٣ر٤٧٪ أو ١١١ر٨٣٤ حاجا من مجموع الحجاج القادمين من دول العالم كله. مما يبين بجلاء أن ضخامة تيار الحركة الى الحج يتوقف كل عام على عدد القادمين من مجموعة محدودة من الدول بصرف النظر عن ديانتها الرسمية.



شكل رقم (٦)
عدد الحجاج القادمين من بعض دول العالم (موسم ١٣٩٨ هـ)

جدول رقم (٢)

عدد ونسب الحجاج القادمين من الدول المختلفة

(موسم ١٣٩٨هـ)

مسلسل	الدولة	الحجاج: العدد	الحجاج: (٪ من كل الحجاج)	مسلسل	الدولة	الحجاج: العدد	الحجاج: (٪ من كل الحجاج)
	أ ـ آسيا:						
١	اليمن الشمالي	١٢٣٨٢٥	١٤ر٩١	١٦	الامارات العربية	٥١٨٣	٠ر٦٢
٢	إندونيسيا	٧٢٥٢٧	٨ر٧٣	١٧	عمان	٣٩٤٤	٠ر٤٥
٣	العراق	٦٨٦٥٠	٨ر٢٦	١٨	البحرين	٢٢١٧	٠ر٢٦
٤	باكستان	٦١٩٢٤	٧ر٤٥	١٩	فلسطين	١٩٩٢	٠ر٢٣
٥	سوريا	٥٦١٣٨	٦ر٧٦	٢٠	قطر	١١٨٢	٠ر١٤
٦	إيران	٤٨٢٦٨	٥ر٨١	٢١	سنغافورة	١١٧٥	٠ر١٤
٧	الأردن	٣١٨١١	٣ر٩٤	٢٢	الفلبين	٩٩٧	٠ر١٢
٨	تركيا	٢٩٩٦٩	٣ر٠٠	٢٣	سريلانكا	٩٧٦	٠ر١١
٩	الهند	٢٠٢٣٢	٢ر٤٣	٢٤	تايلاند	٤٢١	٠ر٠٥
١٠	أفغانستان	٨٢٤١	٠ر٩٩	٢٥	بروني	٤٢٠	٠ر٠٥
١١	بنجدلايش	٧٩٩٠	٠ر٩٦	٢٦	الصين الوطنية	٣٠	٠ر٠٠
١٢	اليمن الجنوبي	٧٧٢١	٠ر٩٢	٢٧	نيبال	٢٦	٠ر٠٠
١٣	ماليزيا	٦٧٥٦	٠ر٨١	٢٨	روسيا	٢٥	٠ر٠٠
١٤	لبنان	٦٦٤٨	٠ر٨١	٢٩	اليابان	٢٤	٠ر٠٠
١٥	الكويت	٥٩١٨	٠ر٧١	٣٠	جزر مالديف	٢٢	٠ر٠٠

مسلسل	الدولة	الحجاج: العدد	الحجاج: (% من كل الحجاج)
٢١	كوريا الجنوبية	١٥	٠ر٠٠
٢٢	كمبوديا	١٢	٠ر٠٠
٣٣	بورما	٨	٠ر٠٠
٣٤	هونج كونج	٧	٠ر٠٠
	المجموع	٥٧٥٢٩٤	٦٩ر٢٩

ب ـ إفريقيا :

مسلسل	الدولة	الحجاج: العدد	الحجاج: (% من كل الحجاج)
١	نيجيريا	٥٦٨٤٢	٦ر٨٥
٢	مصر	٤١٨٢٨	٥ر٠٤
٣	ليبيا	٣٢٩١٥	٣ر٩٧
٤	الجزائر	٢٩٨٩٩	٣ر٦٠
٥	المغرب	٢٦١٦٦	٣ر١٥
٦	السودان	١٧٤٠٨	٢ر١٠
٧	تونس	٨٩٧١	١ر٠٨
٨	الصومال	٥٤١٩	٠ر٦٥
٩	النيجر	٤٥٠١	٠ر٥٤
١٠	السنغال	٣٩٣٩	٠ر٤٧
١١	تشاد	٣٢٥٩	٠ر٤٠
١٢	أوغندا	٢٨٨٩	٠ر٣٥
١٣	مالي	٢٧٦٥	٠ر٣٥
١٤	غينيا	٢٠٩٨	٠ر٢٥
١٥	فولتا العليا	١٥٨٨	٠ر١٩
١٦	الكمرون	١٤١٤	٠ر١٧
١٧	ساحل العاج	١٢٦٨	٠ر١٥
١٨	غانا	١٢٢٨	٠ر١٥
١٩	تنزانيا	٨٠٠	٠ر١٠
٢٠	كينيا	٧٤٧	٠ر٠٩
٢١	جنوب إفريقيا	٥٩٦	٠ر٠٧
٢٢	موريتانيا	٥٧٢	٠ر٠٧
٢٣	داهومي (بنين)	٥٥٠	٠ر٠٧
٢٤	جيبوتي	٥١١	٠ر٠٦
٢٥	جامبيا	٤٦٦	٠ر٠٦
٢٦	موريسيوس	٤٥٦	٠ر٠٥
٢٧	وسط إفريقيا	٤٣٧	٠ر٠٥
٢٨	توجو	٤١٧	٠ر٠٥
٢٩	أثيوبيا	٣٤٦	٠ر٠٤
٣٠	سيراليون	١٩١	٠ر٠٢
٣١	زائير	١٦٨	٠ر٠٢
٣٢	جزر القمر	٧٦	٠ر٠١
٣٣	فيجي	٤٢	٠ر٠٠
٣٤	الكونغو برازافيل	٢٥	٠ر٠٠
٣٥	ملاجاش	١٢	٠ر٠٠
٣٦	زامبيا	٩	٠ر٠٠
٣٧	ليبيريا	٧	٠ر٠٠
٣٨	جنوب شرق إفريقيا	٧	٠ر٠٠
٣٩	بتسوانا لاند	٦	٠ر٠٠

مسلسل	الدولة	الحجاج: العدد	الحجاج: (٪ من كل الحجاج)
٤٠	روانـدا	٥	٠ر٠٠
٤١	بورنـدي	٤	٠ر٠٠
٤٢	مـلاوي	٤	٠ر٠٠
٤٣	جـابون	٣	٠ر٠٠
٤٤	روديسيا	١	٠ر٠٠
	المجموع	٢٥٠٨٥٦	٣٠ر٢٢
	جـ ـ أوربـا		
١	بريطانيا	١٦٥٢	٠ر٢٠
٢	يوغسلافيا	٩٥٣	٠ر١٢
٣	فرنسا	٤٩٢	٠ر٠٦
٤	اليونان	٣١٤	٠ر٠٤
٥	هولندا	٤٩	٠ر٠٠
٦	رومانيا	١٥	٠ر٠٠
٧	ألمانيا	٨	٠ر٠٠
٨	البرتغال	٤	٠ر٠٠
٩	بلغاريا	٣	٠ر٠٠
١٠	إيطاليا	٣	٠ر٠٠
١١	قبرص	٣	٠ر٠٠
١٢	سويسرا	٢	٠ر٠٠
١٣	السويد	٢	٠ر٠٠
١٤	الدانمرك	٢	٠ر٠٠
١٥	بلجيكا	٢	٠ر٠٠
١٦	أيرلندا	٢	٠ر٠٠
١٧	إسبانيا	٢	٠ر٠٠
	المجموع	٣٥٠٨	٠٠ر٤٢

مسلسل	الدولة	الحجاج: العدد	الحجاج: (٪ من كل الحجاج)
	د ـ أمريكا الشمالية:		
١	الولايات المتحدة	٣٨٨	٠ر٠٠
٢	كندا	٥٢	٠ر٠٥
	المجموع	٤٤٠	٠ر٠٥
	هـ ـ أمريكا الجنوبية		
١	ترنداد	٦٩	٠ر٠٠
٢	فنزويلا	٤	٠ر٠٠
٣	بربادوس	٢	٠ر٠٠
٤	البرازيل	١	٠ر٠٠
٥	بنما	١	٠ر٠٠
	المجموع	٧٧	٠٠ر٠٠٩
	و ـ أستراليا:		
١	أستراليا	٢٩	٠ر٠٠
	جهات غير مبينة	٣٢	٠ر٠٠
	المجموع العام	٨٣٠ر٢٣٦	١٠٠ر٠٠

الثانيـة :

إن تيار الحركة إلى الحج يشمل هذا العام ٣٤ دولة من قارة آسـيا، بنسبة ٢٩٫٦٦٪ من مجموع الدول التي شاركت في هذا التيار، في مقدمتها اليمن الشمالي، بينما يشمل ٤٤ دولة من قارة إفريقيا ، بنسبة ٣٧٫٢٩٪ من مجموع الدول، في مقدمتها نيجيريا، و١٧ دولة من قارة أوربا، بنسبة ١٤٫٤٠٪ ، في مقدمتها بريطانيا، ودولتان من قارة أمريكا الشمالية، بنسبة ١٫٧٠٪ ، في مقدمتها الولايات المتحدة، و٥ دول من قارة أمريكا الجنوبية، بنسبة ٤٫٢٤٪ ، في مقدمتها ترنداد، ودولة أسـتراليا من القارة الاسترالية .

ويشير هذا إلى اتساع نطاق الدول التي يضمها هذا التيار في إفريقيا، تليها آسيا، فأوربا ، فالأمريكتان. وتشكل دول قارتي آسيا وإفريقيا ٦٦٫٩٥٪ من مجموع الدول التي شاركت في إرسال الحجاج هذا العام كما ينبيء ذلك باحتمالات اتساع هذا التيار في المستقبل ليشمل دولا أخرى من قارات العالم المختلفة نتيجة لسرعة انتشار الدين الإسلامي وزحفه المستمر، خصوصا بين سكان الدول التي لا زالت تعيش في ظلام الديانات الوضعية .

حجاج الدول الاسلامية والدول غير الإسلامية :

يشكل الحجاج القادمون من الدول الإسلامية الأغلبية الساحقة من مجموع الحجاج الذين أرسلتهم دول العالم المختلفة لحج هذا العام (شكل رقم ٤). فقد بلغ نصيب الدول الإسلامية ٨٧٫٠٧٪ (أو ٧٢٢٩٣٥ حاجا)، في حين بلغ نصيب الدول غير الإسلامية ١٢٫٩٣٪ (أو ١٠٧٣٠١ حاجا)، وهو أمر طبيعي يتفق مع تركز الأغلبية العظمى من المسلمين في دول العالم الإسلامي .

جدول رقم (٣)

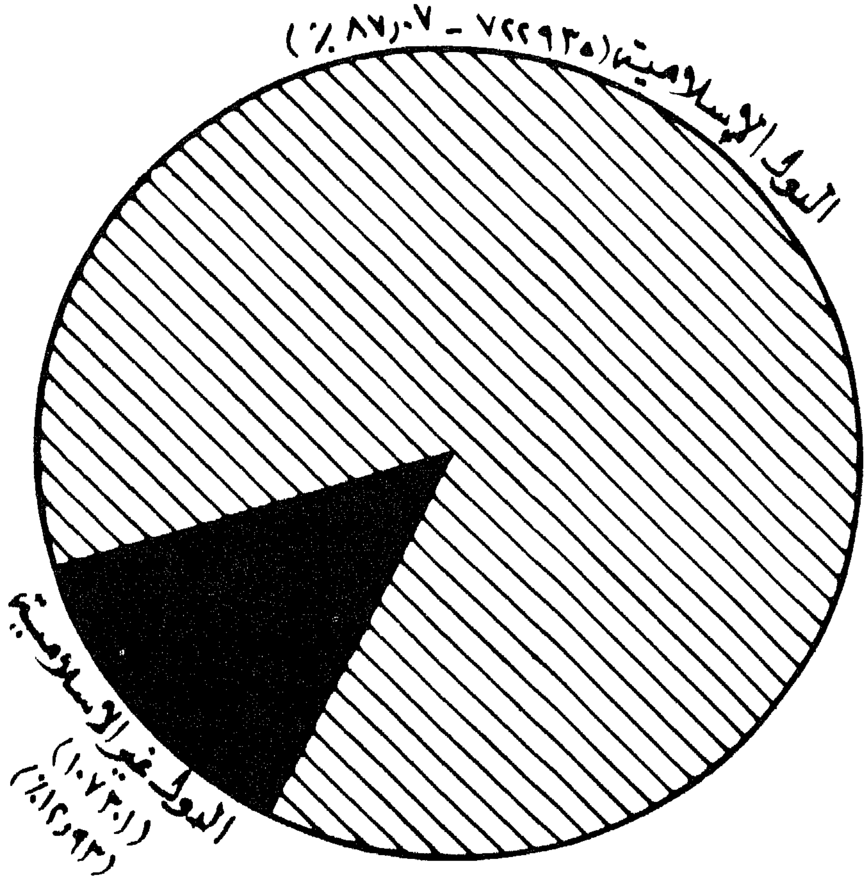
مقارنة بين عدد ونسب الحجاج من الدول الاسلامية
والدول غير الإسلامية (موسم ١٣٩٨هـ)

الـــدول	عدد الحجاج	٪ (من إجمالي الحجاج)
الإســــلامية	٧٢٢٩٣٥	٨٧٫٠٧
غير الإسلامية	١٠٧٣٠١	١٢٫٩٣
المجمـوع	٨٣٠٢٣٦	١٠٠٫٠٠

وإذا قارنا الدول الإسلامية بعضها بالبعض الآخر من حيث عدد من أرسلتهم من الحجاج في موسم هذا العام (شكل رقم ٥)، أمكننا تقسيم هذه الدول إلى ثلاثة مجموعات على أساس نسبة إرسال كل دولة إلى إجمالي حجاج الدول الإسلامية، وذلك على النحو التالي :

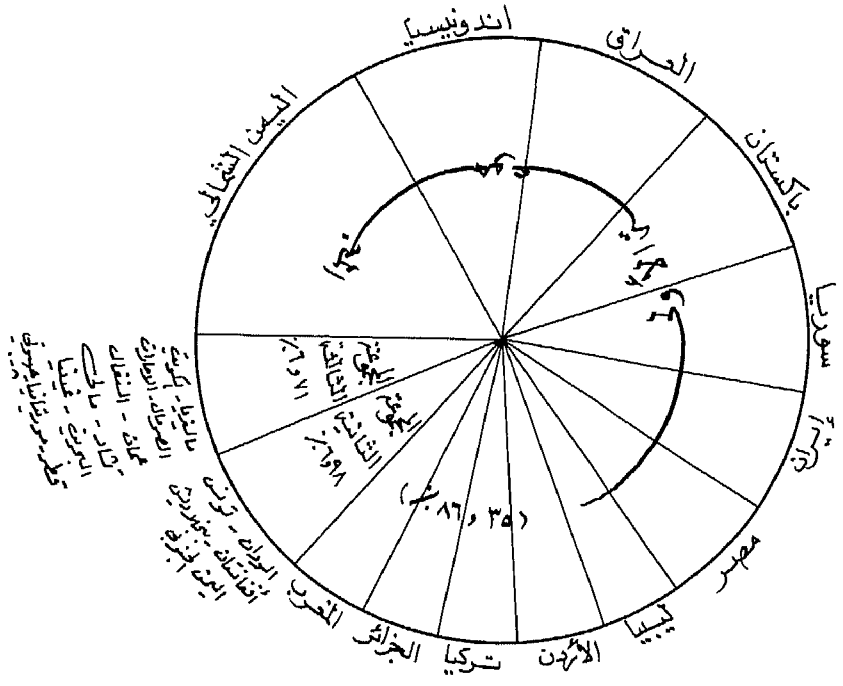
أ ـ المجموعة الأولى: وتشمل ١٢ دولة، شاركت كل منها بأكثر من ٣٪ من إجمالي حجاج الدول الإسلامية، وهي بالترتيب: اليمن الشمالي ـ إندونيسيا ـ العراق ـ باكستان ـ سوريا ـ إيران ـ مصر ـ ليبيا ـ الأردن ـ تركيا ـ الجزائر ـ المغرب . وتبلغ نسبة من أرسلتهم هذه المجموعة ٨٦٫٣١٪ (أو ٦٢٣٫٩٢٠ حاجا) من مجموع حجاج الدول الإسلامية. ويلاحظ هنا ارتفاع نسبة إرسال اليمن الشمالي للحجاج، بينما ينخفض هذا التيار من كل من تركيا والجزائر والمغرب التي تأتي في مؤخرة هذه المجموعة من الدول الإسلامية.

ب ـ المجموعة الثانية: وتضم خمس دول فقط، يشكل تيار الحركة القادم من كل منها بين ١ ـ ٣٪ من إجمالي حجاج الدول الإسلامية ، وهي بالترتيب: السودان ـ تونس ـ أفغانستان



شكل رقم (٤)

توزيع الحجاج على الدول الإسلامية والدول غير الإسلامية



شكل رقم (٥)
نسب الحجاج القادمين من الدول الاسلامية

ـ بنجلادش ـ اليمن الجنوبي. وتبلغ نسبة من أرسلتهم هذه المجموعة ٦٫٧١٪ (أو ٣٤٫٣٣١ حاجا) من إجمالي تيار الحج هذا العام.

جـ ـ المجموعة الثالثة: وتسمل ١٣ دولة، ساهمت كل منها بنسبة أقل من ١٪ من إجمالي حجاج الدول الإسلامية. وهذه الدول بالترتيب هي: ماليزيا ـ الكويت ـ الصومال ـ الأمارات العربية ـ عمان ـ السنغال ـ تشاد ـ مالي ـ البحرين ـ غينيا ـ قطر ـ موريتانيا ـ جيبوتي. وقد بلغت نسبة من أرسلتهم هذه المجموعة ٦٫٩٨٪ (أو ٤٨٫٢٦٤ حاجا) من إجمالي حجاج الدول الإسلامية.

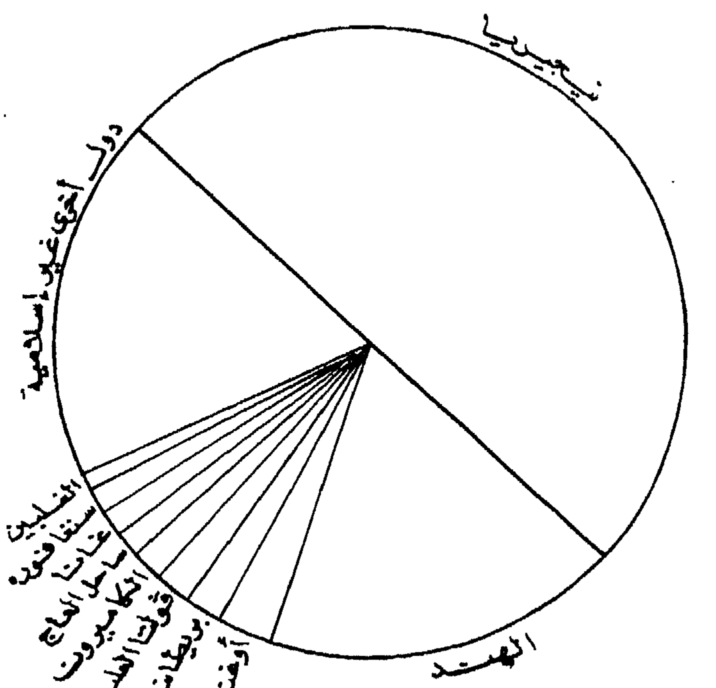
وإذا كان انخفاض تيار الحركة إلى الحج من جيبوتي وقطر والبحرين والإمارات والكويت وموريتانيا يفسره انخفاض عدد سكانها بالنسبة إلى عدد سكان باقي الدول الإسلامية، فإن انخفاض هذا التيار من كل من مالي وتساد والسنغال وغينيا والنيجر لا يتفق وارتفاع عدد سكانها.

جدول رقم (٤)

عدد ونسب الحجاج القادمين من الدول الإسلامية

المجموعة الأولى	عدد الحجاج	%من حجاج الدول الإسلامية	ترتيب	المجموعة الثانية	عدد الحجاج	%من حجاج الدول الإسلامية	ترتيب	المجموعة الثالثة	عدد الحجاج	%من حجاج الدول الإسلامية	ترتيب
اليمن الشمالي	١٢٣٨٢٥	١٧٫١٣	١	السودان	١٧٤٠٨	٢٫٤١	١	ماليزيا	٦٧٥٦	٠٫٩٣	١
إندونيسيا	٧٢٥٢٧	١٠٫٠٣	٢	تونس	٨٩٧١	١٫٢٤	٢	الكويت	٥٩١٨	٠٫٨٣	٢
العراق	٦٨٦٥٠	٩٫٤٩	٣	أفغانستان	٨٢٤١	١٫١٤	٣	الصومال	٥٤١٩	٠٫٧٥	٣
باكستان	٦١٩٢٤	٨٫٥٧	٤	بنجلاديش	٧٩٩٠	١٫١١	٤	الأمارات	٥١٨٣	٠٫٧٢	٤
سوريا	٥٦١٣٨	٧٫٧٧	٥	اليمن الجنوبي	٧٧٢١	١٫٠٨	٥	عمان	٣٩٤٤	٠٫٥٥	٥
إيران	٤٨٢٦٨	٦٫٦٧	٦					السنغال	٣٩٣٩	٠٫٥٥	٦
مصر	٤١٨٢٨	٥٫٧٩	٧	الجملة	٣٤٣٣١	٦٫٩٨		تشاد	٣٢٥٩	٠٫٤٥	٧
ليبيا	٣٢٩١٥	٤٫٥٥	٨					مالي	٢٧٦٥	٠٫٣٩	٨
الأردن	٣١٨١١	٤٫٤٠	٩					البحرين	٢٢١٧	٠٫٣١	٩
تركيا	٢٩٩٦٩	٤٫١٥	١٠					غينيا	٢٠٩٨	٠٫٢٩	١٠
الجزائر	٢٩٨٩٩	٤٫١٤	١١					قطر	١١٨٢	٠٫١٦	١١
المغرب	٢٦١٦٦	٣٫٦٢	١٢					موريتانيا	٥٧٢	٠٫٠٨	١٢
								جيبوتي	٥١١	٠٫٠٧	١٣
الجملة	٦٢٣٩٢٠	٨٦٫٣١						الجملة	٤٨٢٦٤	٦٫٧١	

أما إذا نظرنا إلى تيار الحج القادم من الدول غير الإسلامية هذا العام (جدول رقم ٥ وشكل رقم ٦) فإننا نلاحظ أن هذا التيار يبلغ أقصاه من نيجيريا التي أرسلت ٤٩٫٨٥٪ (أو ٥٦٨٤٢ حاجا) من إجمالي حجاج الدول غير الإسلامية، تليها الهند التي شاركت بنسبة ١٧٫٧٥٪ (أو ٢٠٢٣٢ حاجا)، وتلي هاتين الدولتين بالترتيب دول: أوغندا ـ بريطانيا ـ فولتا العليا ـ الكمرون ـ ساحل العاج ـ غانا ـ سنغافورة، (وقد شاركت كل منها بنسبة ١٪ أو أكثر من إجمالي حجاج الدول غير الإسلامية) ثم الفلبين. ويشكل تيار الحج القادم من الدول العشر المذكورة حوالي ٨٣٫١١٪ من إجمالي عدد القادمين من الدول غير الإسلامية. أما الدول غير الإسلامية الأخرى، وعددها ٧٨ دولة، فقد شاركت بأعداد بسيطة من الحجاج لا تتجاوز المئات، وتشكل في مجموعها ١٦٫٨٩٪ من إجمالي حجاج الدول غير الإسلامية .



شكل رقم (٦)
نسب الحجاج القادمين من الدول غير الإسلامية

جدول رقم (٥)

عدد ونسب الحجاج القادمين من الدول غير الإسلامية

دول ساركت بأعداد كبيرة				دول ساركت بأعداد بسيطة			
الدولة	عدد الحجاج	٪من الدول الإسلامية	ترتيب	الدولة	عدد الحجاج	٪من الدول الإسلامية	ترتيب
نيجيريا	٥٦٨٤٢	٤٩٫٨٥	١	سيريلانكا	٩٧٦	٠٫٨٧	١
الهند	٢٠٢٣٢	١٧٫٧٥	٢	يوغسلافيا	٩٥٣	٠٫٨٥	٢
أوغندا	٢٨٨٩	٢٫٥٤	٣	تنزانيا	٨٠٠	٠٫٧١	٣
بريطانيا	١٦٥٢	١٫٤٧	٤	كينيا	٧٤٧	٠٫٦٦	٤
فولتا العليا	١٥٨٨	١٫٤٠	٥	داهومي/بنين	٥٥٠	٠٫٤٩	٥
الكمرون	١٤١٤	١٫٢٥	٦	فرنسا	٤٩٢	٠٫٤٥	٦
ساحل العاج	١٢٦٨	١٫١٢	٧	وسط إفريقيا	٤٣٧	٠٫٣٩	٧
غانا	١٢٢٨	١٫٠٩	٨	الولايات المتحدة	٣٨٨	٠٫٣٥	٨
سنغافورة	١١٧٥	١٫٠٤	٩	أيوبيا	٣٤٦	٠٫٣٢	٩
الفلبين	٩٩٧	٠٫٨٨	١٠	اليونان	٣١٤	٠٫٢٨	١٠
الجملة	٨٩٢٨٥	٨٣٫١١		الجملة	٦٠٠٣	٥٫٥١	

ومما تجدر الإشارة إليه ظهور تيار الحركة إلى الحج من دول عرفت بتعصبها الديني، وقاست لفترة من تاريخها من الحروب والحركات الدينية البروتستانية منها والكاثوليكية وغيرها، ومن أمثلة هذه الدول بريطانيا التي تأتي في المركز الرابع بين الدول غير الإسلامية التي أرسلت حجاجا إلى بيت الله الحرام هذا العام، وقد شاركت بنسبة ١٫٤٧٪ (أو ١٦٥٢ حاجا) من إجمالي حجاج الدول غير الإسلامية. ومن أمثلتها أيضا فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية واليونان التي شاركت بنسب: ٠٫٤٥٪ - ٠٫٣٥٪ - ٠٫٢٨٪ من أجمالي حجاج الدول غير الإسلامية على التوالي .

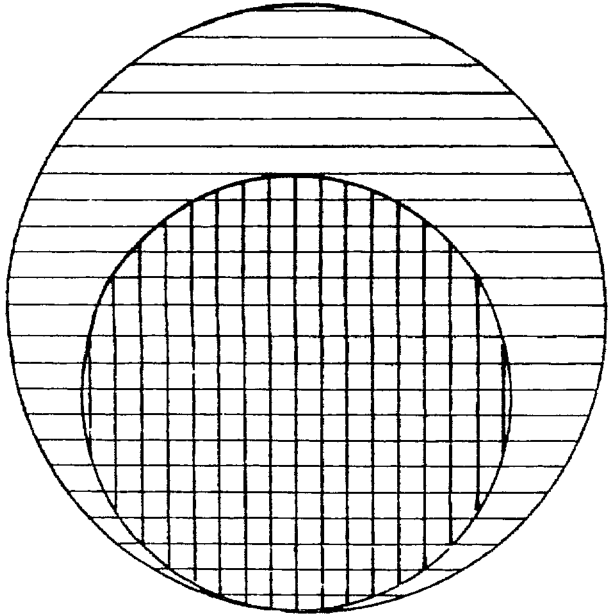
يضاف إلى هذا ازدياد عدد القادمين للحج هذا العام من دول عرفت بتطرفها واتجاهها إلى الشيوعية، أو من دول لا دينية، ومن أمثلتها يوغسلافيا التي أرسلت ٩٥٣ حاجا، (بنسبة ٨٥ر٠٪) من أجمالي حجاج الدول غير الإسلامية. وإن كان يلاحظ هنا أن دولة شيوعية مثل ألبانيا أغلب سكانها من المسلمين لا تظهر في خريطة الحركة إلى الحج، ولم ترسل حاجا واحدا هذا العام، في الوقت الذي أرسلت فيه روسيا زعيمة العالم الشيوعي ٢٥ حاجا من سكان دول اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

وخلاصة القول في هذا المجال أن الناظر إلى خريطة تيارات الهجرة إلى حج هذا العام يلاحظ اتساع نطاق العالم الذي يرسل بحجاجه إلى بيت الله الحرام. ففي أقصى الشرق يجد اليابان وكوريا الجنوبية وهونج كونج، وفي أقصى الغرب يجد الولايات المتحدة وكندا وكولومبيا وفنزويلا، وفي أقصى الشمال يجد السويد وألمانيا والدانمرك، وفي أقصى الجنوب يجد استراليا ودول جنوب شرقي آسيا وجنوب إفريقيا. ولذلك يمكن القول بأن تيارات الحركة إلى الحج تشمل العالم كله دانيه وقاصيه، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، الرأسمالي منه والشيوعي. والحيادي، تصب كلها في مركز الأرض وقطب الإسلام، في بيت الله الحرام بمكة المكرمة، حيث يجتمع الحجيج من أكثر من ١١٨ دولة من دول العالم .

مشاركة الدول العربية في ظاهرة الحركة إلى الحج :

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة موقف الدول العربية من المشاركة في موسم الحج، المبين في الجدول رقم (٦) والشكل رقم (٧)، تبين لنا أن تيار الحركة إلى الحج القادم من الدول العربية يشكل أكثر من نصف إجمالي عدد القادمين من أنحاء العالم المختلفة. فالدول العربية تساهم بنسبة ٥٧٫٦٨٪ (أو ٤٧٨٩١٨ حاجا) من إجمالي عدد حجاج هذا العام، بينما يقدر تيار الحركة إلى الحج القادم من الدول الأخرى خارج نطاق العالم العربي بنحو ٤٢٫٣٢٪ (أو ٣٥١٫٣١٨ حاجا). ويشير هذا إلى أن العالم العربي الذي كان الموطن الأول للإسلام منذ نشأته لا زال سكانه يشغلون المقدمة بالنسبة لزيارة بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج .

فإذا قارنا تيار الحركة إلى الحج القادم من الدول العربية الإسلامية بتياره القادم من الدول الإسلامية غير العربي، وجدنا أن الأول يشكل ٥٦٫٧٧٪ (أو حوالي ٢٧٨ر٤٧٠ حاجا)



شكل رقم (٧)

نسب حجاج الدول العربية والدول غير العربية (موسم ١٣٩ هـ)

من إجمالي حجاج هذا الموسم، بينما يسكل الناني حوالي ٤٣٫٢٣٪ (أو ٢٦٥٫٩٠٠ حاجا) من إجمالي عدد الحجاج. ويؤكد ذلك مرة أخرى أن الحجاج العرب يسكلون أغلبية الحجاج، كما يؤكد أن الدول العربية الإسلامية تمل قلب العالم الإسلامي ومحور جاذبيته .

جدول رقم (٦)

عدد ونسب الحجاج القادمين من الدول العربية[٤] والدول غير العربيـة (موسم ١٣٩٨هـ)

الـــدول	عدد الحجاج	٪ من إجمالي الحجـاج
العربيـــــة	٤٧٨٫٩١٨	٥٧٫٦٨
غير العربيـــة	٣٥١٫٣١٨	٤٢٫٣٢

عدد حجاج كل دولة قياساً إلى عدد سكانها المسلمين :

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى محاولة الربط بين عدد الحجاج الذين ترسلهم كل دولة وعدد سكانها المسلمين، لاتضحت لنا مجموعة من الحقائق المنيرة للانتباه، يمكن استخلاصها من الجدول رقم (٧) ومن النسكل رقم (٨)، تختلف تماما عن الأولويات التي سبقت دراستها. ويمكن تلخيص هذه الحقائق في ثلاث :

الأولـــى :

أن هناك مجموعة من الدول يرتفع فيها عدد الحجاج القادمين هذا العام بالقياس إلى إجمالي عدد المسلمين فيها، وتسمل ١٥ دولة، هي بالترتيب: الإمارات العربية المتحدة (وترسل ٢٥ حاجا من كل ألف مسلم بها، أو ٢٥٠ حاجا من كل عسرةآلاف مسلم) ـ اليمن النسمالي

(٢٢٫٧ حاجا/الألف) ـ ليبيا (١٧٫٣ حاجا/الألف) ـ الأردن (١٤٫٥ حاجا/الألف) ـ قطر (١٣٫٨ حاجا/الألف) ـ البحرين (١٠٫٣ حاجا/الألف) ـ سوريا (١٠٫٢ حاجا/الألف) ـ العراق (٧٫٥ حاجا/الألف) ـ الكويت (٦٫٩ حاجا/الألف) ـ اليمن الجنوبي (٦٫٢ حاجا/الألف) ـ عمان (٥٫٦ حاجا/الألف) ـ لبنان (٤٫٧ حاجا/الألف) ـ جيبوتي (٤٫١ حاجا/الألف) ـ بروني (٣٫٨ حاجا/الألف) ـ أوغندا (٢٫٢ حاجا/الألف).

والملاحظ أن معظم هذه الدول ـ إن لم يكن جلها ـ من الأقطار قليلة السكان، والتي لا يتجاوز عدد المسلمين بها في أغلب الأحوال المليون نسمة، بل إن عددا كبيرا منها يقل عدد المسلمين فيه عن الخمسمائة ألف مسلم، كما يلاحظ أن غالبيتها من الدول المنتجة للبترول.

ومن هنا نستطيع تفسير ارتفاع عدد الحجاج القادمين من هذه الدول بزيادة دخل الفرد فيها، أو بارتفاع نسبة المسلمين فيها إلى إجمالي عدد السكان، أو بهما معا.

الثانية :

وهناك مجموعة من الدول الإسلامية التي تتميز بارتفاع عدد السكان المسلمين فيها بالقياس إلى إجمالي عدد السكان إلى جانب ارتفاع عدد سكانها بصفة عامة، ومع ذلك فإن هذه المجموعة من الدول لم تشارك في تيار الحركة إلى الحج هذا العام إلا بعدد ضئيل جدا لا يتفق إطلاقا وارتفاع عدد المسلمين فيها. وتشمل هذه المجموعة ٢٩ دولة، من أمثلتها : مصر (٣٦ مليون مسلم)، وقد أرسلت ١٫٣ حاجا من كل ألف مسلم بها، ويأتي ترتيبها الثامن والعشرون بين الدول التي شاركت في حج هذا العام ـ باكستان (٥٩٫٨٠٠٫٠٠٠ مسلم، ١٫٠ حاجا/الألف، وترتيبها ٣٣) ـ النيجر (٣٫٤٠٠٫٠٠٠ مسلم، حاجا واحدا/الألف، وترتيبها ٣٢) ـ تشاد (٢٫٠٣٠٫٠٠٠ مسلم ١٫٦ حاجا/الألف، والترتيب ٢١) ـ بنجلادش (٥٤٫٨٠٠٫٠٠٠ مسلم، ١٫٥ حاجا/الألف، والترتيب ٢٣) ـ إيران (٣٠ مليون مسلم، ١٫٦ حاجا/الألف، والترتيب ٢٢) ـ إندونيسيا (١١٢٫٨٠٠٫٠٠٠ مسلم، ٠٫٧ حاجا/الألف، والترتيب ٣٩) ـ أفغانستان (١٧٫٨٠٠٫٠٠٠ مسلم، ٠٫٥ مسلم/الألف، والترتيب ٤١) ـ الجزائر (١٣٫٠٥٠٫٠٠٠ مسلم، ٠٫٢ حاجا/الألف، والترتيب ٤٤) ـ تركيا (٣٥٫٩٠٠٫٠٠٠ مسلم ٠٫٨ حاجا/الألف، والترتيب ٣٧) ـ ماليزيا (٧٫٦٠٠٫٠٠٠ مسلم، ٠٫٩ حاجا/الألف والترتيب ٣٤) ـ غينيا (٢٫٨٨٨٫٠٠٠ مسلم، ٠٫٧ حاجا/الألف، والترتيب ٣٨) ومالي (٢٫٩٦٨٫٠٠٠ مسلم، ٠٫٩/الألف، والترتيب ٣٦).

جدول رقم (٧)

عدد الحجاج القادمين من بعض الدول مقارنا بعدد المسلمين فيها[٥]

موسم ١٣٩٨ هـ

الدولة	عدد السكان المسلمين (٦)	عدد الحجاج القادمين منها	في الألف الى اجمالى المسلمين[٧]	ترتيب	الدولة	عدد السكان المسلمين	عدد الحجاج القادمين منها	في الألف الى إجمالى المسلمين	ترتيب
الإمارات	٢٠٨٠٠٠	٥١٨٣	٢٥ر٠	١	بنجلادش	٥٤٨٠٠٠٠٠	٧٩٩١	١ر٥	٢٣
اليمن الشمالي	٥٤٥٠٠٠٠	١٢٣٨٢٥	٢٢ر٧	٢	السودان	١٢٤٠٠٠٠٠	١٧٤٠٨	١ر٤	٢٤
ليبيا	١٩٠٠٠٠٠	٣٢٩١٥	١٧ر٣	٣	سنغافورة	٨٢٠٠٠٠	١١٧٥	١ر٤	٢٥
الأردن	٢٢٠٠٠٠٠	٣١٨١١	١٤ر٥	٤	نيجيريا	٣٨٧٤٠٠٠٠	٥٦٨٤٢	١ر٢	٢٦
قطر	٨٦٠٠٠	٢٢٨٢	١٣ر٨	٥	السنغال	٣٢٠٠٠٠٠	٣٩٣٩	١ر٢	٢٧
البحرين	٢١٥٦٥٠	٢٢١٧	١٠ر٣	٦	مصر	٣٦٠٠٠٠٠٠	٤١٨٢٨	١ر٢	٢٨
سوريا	٥٥٠٠٠٠٠	٥٦١٣٨	١٠ر٢	٧	غانا	١١٠٠٠٠٠	١٢٢٤	١ر١	٢٩
العراق	٩٣٠٠٠٠٠	٦٨٦٥٠	٧ر٤	٨	فولتا العليا	١٥٠٠٠٠٠	١٥٥٨	١ر٠	٣٠
الكويت	٨٦٢٢٠٠	٥٩١٨	٦ر٩	٩	سريلانكا	٩٢٧٤٣٠	٩٧٦	١ر٠	٣١

الدولة	عدد السكان المسلمين (٦)	عدد الحجاج القادمين منها	في الألف الى اجمالي المسلمين (٧)	ترتيب	الدولة	عدد السكان المسلمين	عدد الحجاج القادمين منها	في الألف الى إجمالي المسلمين	ترتيب
اليمن الجنوبية	١٢٥٠٠٠٠	٧٧٢١	٦ر٢	١٠	انيجر	٣٤٠٠٠٠٠	٤٥٠١	١ر٠	٣٢
عمان	٧٠٠٠٠٠	٣٩٤٤	٥ر٦	١١	باكستان	٥٨٨٠٠٠٠٠	٦١٩٢٤	١ر٠	٣٣
لبنان	١٤٠٠٠٠٠	٦٦٤٨	٤ر٧	١٢	ماليزيا	٧٦٠٠٠٠٠	٦٧٥٦	٠ر٩	٣٤
جيبوتي	١٢٥٠٠٠	٥١١	٤ر١	١٣	ساحل العاج	١٤٤٠٠٠٠	١٢٦٨	٠ر٩	٣٥
بروني	١١١٦٥٠	٤٢٠	٣ر٨	١٤	مالي	٢٩٦٨٠٠٠	٢٧٦٥	٠ر٩	٣٦
أوغندا	١٣٤٠٠٠٠	٢٨٨٩	٢ر٢	١٥	تركيا	٣٥٩٠٠٠٠٠	٢٩٩٦٩	٠ر٨	٣٧
تونس	٤٩٠٠٠٠٠	٨٩٧١	١ر٨	١٦	غينيا	٢٨٨٨٠٠٠	٢٠٩٨	٠ر٧	٣٨
المغرب	١٦١٠٠٠٠٠	٢٦١٦٦	١ر٧	١٧	إندونيسيا	١١٢٨٠٠٠٠٠	٧٢٥٢٧	٠ر٧	٣٩
الصومال	٣٠٧٠٠٠٠	٥٤١٩	١ر٧	١٨	موريتانيا	١١٨٠٠٠٠	٥٧٢	٠ر٥	٤٠
غمبيا	٢٨٠٠٠٠	٤٦٦	١ر٧	١٩	أفغانستان	١٧٨٠٠٠٠٠	٨٢٤١	٠ر٥	٤١
اليونان	١٩٠٠٠٠	٣١٤	١ر٦	٢٠	يوغسلافيا	٢٦٤٠٠٠٠	٩٥٣	٠ر٤	٤٢
تشاد	٢٠٣٠٠٠٠	٣٢٥٩	١ر٦	٢١	جزر القمر	١٨٠٠٠٠	٧٦	٠ر٤	٤٣
إيران	٣٠٠٠٠٠٠٠	٤٨٢٦٨	١ر٦	٢٢	الجزائر	١٣٠٥٠٠٠٠	٢٨٩٩	٠ر٢	٤٤

شكل رقم (٨)

عدد الحجاج القادمين من بعض الدول بالنسبة لكل ألف مسلم من سكانها



وتفسر قلة مساركة هذه الدول في تيار الحج هذا العام بمجموعة من الأسباب، منهـا: انخفاض دخل الفرد، وعدم قدرة الكثير من سكانها على تحمل نفقات الحج، ومنها بعد المسافة نسبيا بينها وبين المساعر المقدسة، إلى جانب القيود التي تضعها بعض هذه الدول على سفر مسلميها للحج كتحديد العدد أو القرعة أو غيرها .

الثالـثة :

وهناك مجموعة نالثة من الدول التي تتميز بقلة عدد المسلمين فيها بالقياس إلى إجمالي عدد سكانها، ومع ذلك فقد ساركت في تيار الحركة إلى الحج هذا العام بنسبة طيبة، قد تجاوز تلك النسبة التي شاركت بها بعض دول المجموعة الإسلامية السابقة، ومثال هذه الدول: اليونان (١٩٠٠٠٠ مسلم، ١٫٦ حاج/الألف، والترتيب العسرين) ـ سنغافورة (٨٢٠٠٠٠ مسلـم، ١٫٤ حاج في الألف، والتـرتيب ٢٥) ـ يوغسـلافيا (٢٫٦٤٠٠٠٠ مسلـم، ٠٫٤ حاج/الألف، والترتيب ٤٢) ـ نيجيريا (٣٨٫٧٤٠٠٠٠ مسلم، ١٫٢حاج/الألف، والترتيب ٢٦) ـ وفولتـا العليا (١٫٥٠٠٠٠٠ مسلـم، ٠٫٢ حاج/الألف، والتـرتيب ٣٠) ـ غانـا (١٫١٠٠٠٠٠ مسلم، ١٫١ حاج/الألف، والترتيب ٢٩) ـ ساحل العاج (١٫٤٤٠٠٠٠ مسلم، ٠٫٩ حاج/الألف، الترتيب ٣٥) ـ سيريلانكا (٩٢٧٫٤٣٠ مسلم، ١٫٠ حاج/الألف، والترتيب ٣١) .

وتفسر ارتفاع نسبة مشاركة هذه الدول في تيار الحركة إلى الحج هدا العام بمجموعة من الأسباب، منها: غزوة الإسلام لقلاع الجاهلية في هذه الدول وقوة المد الإسلامـي فيهـا. والملاحظ أن بعض هذه الدول توجد في أوربا الجنوبية، وبعضها يوجد في إفريقيا الغربية على وجه الخصوص .

تطور الحركة إلى الحج في الخمسين عاما الماضية :

بلغ عدد الحجاج الذين أرسلتهم دول العالم المختلفة لأداء فريضة الحج هذا العام رقما يقارب المليون حاج. وهنا يجيء السؤال: هل يتزايد تيار الحركة إلى الحج بصورة مطردة متوالية، أم أنه يتزايد حينا وينقص حينا آخر ؟ وإذا كان الاتجاه العام هو اطراد التزايد فإلى متى يستمر هذا التزايد، وإلى أي حد ؟ .

إن مراجعة أرقام الحجاج طوال الخمسين عاما الماضية (١٣٤٩ ـ ١٣٩٨هـ) توضح مجموعة من الحقائق يمكن استخلاصها من الجدول رقم (٨)، والشكل رقم (٩) على النحو التالي:

١ ـ تتميز هجرة الحجيج بالتذبذب الواضح من سنة إلى أخرى، فقد ظلت أرقام الحجاج غير مستقرة طوال ١٥ سنة من ١٣٤٩ إلى ١٣٦٤هـ، تتأرجح بين الزيادة تارة والنقص تارة أخرى. ولم تظهر هذه الأرقام ارتفاعا عاما عن سنة الأساس[٨] ١٣٤٩هـ الا ابتداء من عام ١٣٦٥هـ حيث واصلت أعداد الحجاج الارتفاع المستمر دون نقصان بعدها .

٢ ـ لم تتضاعف أعداد الحجاج عن سنة الأساس طوال ١٨ سنة من ١٣٤٩ إلى ١٣٦٧هـ، إذ ظلت أعدادهم في هذه المدة الزمنية أقل من ١٠٠٪ (٩٣٫٦٪) مما كانت عليه من قبل. لكنها تضاعفت بعد عام ١٣٦٧هـ بصورة سريعة، تأرجحت من ضعفين إلى ٢٢٫٥ ضعفا خلال العشرين سنة (من ١٣٦٨ ـ ١٣٩٨هـ) .

٣ ـ حدثت أقل تيارات الحركة إلى الحج بعد عشر سنوات من سنة الأساس في عام ١٣٥٩هـ، حيث وصل عدد الحجاج في ذلك الموسم إلى ٩٠٢٤ حاجا فقط، بنقص قدره ٧٦٫٩٪ عن سنة ١٣٤٩هـ. بينما حدثت أعلى تيارات الحركة إلى الحج في عام ١٣٩٤هـ، حيث بلغ عدد الحجاج ٩١٨٫٧٧٧ حاجا من خارج المملكة، أي أكثر من ٢٢٫٥٣ ضعفا عن عددهم في عام ١٣٤٩هـ .

٤ ـ يمكن القول بوجود فترات دورية من النقص في أعداد الحجاج تتراوح من ٣ إلى ٥ سنوات، تعقبها فترات زيادة في أعدادهم، مما يسير إلى وجود دورية في ظاهرة الحركة إلى الحج. ومن أمثلة ذلك فترة التناقص (٥ سنوات) من سنة ١٣٥٠ ـ ١٣٥٤هـ، والتي أعقبتها فترة زيادة (٣ سنوات) من ١٣٥٥ إلى ١٣٥٧هـ، وفترة التناقص (٥ سنوات) من ١٣٥٨ ـ ١٣٦٤هـ ـ باستثناء سنة ١٣٦٢هـ التي تلتها فترة زيادة استمرت ١٣ سنة من ١٣٨٢ إلى ١٣٩٤هـ عدا سنة ١٣٩٣هـ، وفترة النقص (٣ سنوات) من ١٣٩٥ ـ ١٣٩٧هـ التي تلتها فترة الزيادة الحديثة التي تبدأ مع عام ١٣٩٨هـ .

جدول رقم (٨)

تطور عدد الحجاج القادمين في الخمسين سنة[٩]
من سنة ١٣٤٩ ـ ١٣٩٨هـ)

سنة القدوم	عدد الحجاج	الزيادة/النقص (من سنة الأساس) العدد	٪	سنة القدوم	عدد الحجاج	الزيادة/النقص (من سنة الأساس) العدد	٪
١٣٤٥	٩٠٦٦٢	+ ٥١٦١٧	١٣٢٫٢	١٣٧٢	١٤٩٨٤١	+ ١١٠٧٩٦	٢٨٣٫٧
١٣٤٦	٩٦٢١٢	+ ٥٧١٦٧	١٤٦٫٤	١٣٧٣	١٦٤٠٧٢	+ ١٢٥٠٢٧	٣٢٠٫٢
١٣٤٧	٩٠٧٦٤	+ ٥١٧١٩	١٣٢٫٥	١٣٧٤	٢٣٢٩٧١	+ ١٩٣٩٢٦	٤٩٦٫٦
١٣٤٨	٨١٦٦٦	+ ٤٢٦٢١	١٠٩٫٢	١٣٧٥	٢٢٠٧٢٢	+ ١٨١٦٧٧	٤٦٥٫٣
١٣٤٩	٣٩٠٤٥	٠٠		١٣٧٦	٢١٥٥٧٥	+ ١٧٦٥٣٠	٤٥٢٫١
١٣٥٠	٢٩٠٦٥	- ٩٩٨٠	٢٥٫٦	١٣٧٧	٢٠٩١٩٧	+ ١٧٠١٥٢	٤٣٥٫٧
١٣٥١	٢٠١٨١	- ١٨٩٦٤	٤٨٫٦	١٣٧٨	٢٠٧١٧١	+ ١٦٨١٢٦	٤٣٠٫٦
١٣٥٢	٢٥٢٩١	-١٣٧٥٤	٣٥٫٢	١٣٧٩	٢٥٣٣٦٩	+ ٢١٤٣٢٤	٥٤٨٫٧
١٣٥٣	٣٣٨٩٨	- ٥١٤٧	١٣٫٢	١٣٨٠	٢٨٥٩٤٨	+ ٢٤٦٩٠٣	٦٣٢٫٣
١٣٥٤	٣٣٨٣٠	- ٥٢١٥	١٣٫٣	١٣٨١	٢١٦٤٥٥	+ ١٧٧٤١٠	٤٥٤٫٣
١٣٥٥	٤٩٥١٧	+ ١٠٤٧٢	٢٦٫٨	١٣٨٢	١٩٩٠٣٨	+ ١٥٩٩٩٣	٤٠٩٫٧
١٣٥٦	٧٦٢٢٤	+ ٣٧١٧٩	٩٥٫٢	١٣٨٣	٢٦٦٥٥٥	+ ٢٢٧٥١٠	٥٨٢٫٧
١٣٥٧	٥٩٥٧٧	+ ٢٠٥٣٢	٥٢٫٥	١٣٨٤	٢٨٣٣١٩	+ ٢٤٤٢٧٤	٦٢٥٫٦
١٣٥٨	٣٢١٥٣	- ٦٨٩٣	١٧٫٤	١٣٨٥	٢٩٤١١٨	+ ٢٥٥٠١٣	٦٥٣٫٠
١٣٥٩	٩٠٢٤	- ٣٠٠٢١	٧٦٫٩	١٣٨٦	٣١٦٢٢٦	+ ٢٧٧١٨١	٧٠٩٫٩
١٣٦٠	٢٣٨٦٣	- ١٥١٨٢	٣٨٫٩	١٣٨٧	٣١٨٥٠٧	+ ٢٧٩٤٦٢	٧١٥٫٧

سنة القدوم	عدد الحجاج	الزيادة/النقص (من سنة الأساس)		سنة القدوم	عدد الحجاج	الزيادة/النقص (من سنة الأساس)	
		العدد	٪			العدد	٪
١٣٦١	٢٤٧٤٣	- ١٤٣٠٢	٣٦٫٦	١٣٨٨	٣٧٤٧٨٤	+ ٣٣٥٧٣٩	٨٦٠٫٤
١٣٦٢	٦٢٥٩٠	+ ٢٣٥٤٥	٦٠٫٣	١٣٨٩	٤٠٦٢٩٥	+ ٣٦٧٧٢٥	٩٤٠٫٥
١٣٦٣	٣٧٨٥٧	- ١١٨٨	٣٫٤	١٣٩٠	٤٣١٢٧٠	+ ٣٩٢٢٢٥	١٠٠٤٫٥
١٣٦٤	٣٧٦٣٠	- ١٤١٥	٣٫٦	١٣٩١	٤٧٩٣٣٩	+ ٤٤٠٢٩٤	١١٢٧٫٧
١٣٦٥	٦١٢٨٦	+ ٢٢٢٤١	٥٦٫٩	١٣٩٢	٦٤٥١٨٢	+ ٦٠٦١٣٧	١٥٥٢٫٤
١٣٦٦	٥٥٢٤٤	+ ١٦١٩٩	٤١٫٥	١٣٩٣	٦٠٧٧٥٥	+ ٥٦٨٧١	١٤٥٦٫٥



شكل رقم (٩)
تطور عدد الحجاج في الخمسين عاماً الماضية
(١٣٤٩ - ١٣٩٨ هـ)

٥ ـ كذلك يمكن القول بأن لوقوع موسم الحج في شهور الصيف أو الشتاء أثر واضح على أعداد الحجاج، مما يؤكد الدورية السابق ذكرها. ودليل ذلك وجود قمم عددية للحجاج هي السنوات التي يقع موسم الحج فيها في شهري ديسمبر ويناير، تتلوها وتسبقها سنوات انخفاض تتراوح من ٢٠ ـ ٢٢ سنة (وهي الفترة اللازمة تقريبا لحدوث الدورية في فصول السنة). ومن أمثلة ذلك قمة سنة ١٣٩٤هـ (٢٢٫٥ ضعف سنة الأساس) التي حدث موسم الحج فيها في هذين الشهرين، فقد أعقبتها ٤ سنوات أقل منها عددا بسبب الانتقال من الشتاء إلى الصيف، وسبقتها ٢٠ سنة (من ١٣٧٥ ـ ١٣٩٤هـ) من الانخفاض كذلك بسبب الانتقال من الشتاء إلى الصيف. كذلك قمة سنة ١٣٧٤هـ (٥ أضعاف سنة الأساس)، والتي أعقبتها ٤ سنوات من الانخفاض بسبب الانتقال من الشتاء إلى الصيف، وسبقتها ١٧ سنة من الانخفاض بسبب الأنتقال من الشتاء إلى الصيف. وقمة سنة ١٣٥٦هـ (حوالي ضعف سنة الأساس)، وقد أعقبتها ١١ سنة من الانخفاض بسبب التحول من الشتاء إلى الصيف، وسبقتها ٧ سنوات من الانخفاض بسبب الانتقال من الشتاء إلى الصيف كذلك .

ولا شك أن وقوع بيت الله الحرام وأماكن المشاعر بين المدارين في المنطقة الحارة من العالم، وانتشار الأراضي الصحراوية الحارة، وقلة الأمطار، وهبوب رياح السموم الجافة الحارة مع قلة الرطوبة، يؤدي إلى التأثير في قدرة الحجاج على بذل المجهود، ولذا تتكاثر أعدادهم في مواسم الشتاء، حيث تنخفض درجة الحرارة ، وتعتدل نسبة الرطوبة، وتزداد المقدرة على بذل المزيد من الجهد في الانتقال بين المشاعر المقدسة .

٦ ـ يبلغ متوسط معدل الزيادة السنوية في أعداد الحجاج خلال فترة الخمسين سنة السابقة (١٣٤٩ ـ ١٣٩٨هـ) حوالي ٥ر٤٠٪، وهي نسبة مرتفعة جدا تتسبب في تضاعف عدد الحجاج بمعدلات سريعة جدا .

فإذا كان الأمر كذلك فما هي العوامل التي أدت إلى هذا التطور الهائل في أعداد الحجاج ؟

لا شك أن العوامل الرئيسية في هذه الزيادة السريعة والهائلة ـ إلى جانب انتشار الإسلام بين أعداد جديدة كل عام ـ ترجع إلى تلك التحسينات العديدة والمتنوعة التي أدخلتها حكومة

المملكة العربية السعودية وتدخلها كل عام باستمرار، بقصد تسهيل انتقال وإقامة الحجاج في المشاعر المقدسة، وتوفير كافة الخدمات الضرورية لجعل الرحلة إلى الحج أكثر سهولة ويسرا. ويشمل ذلك التحسينات في طرق المواصلات، وإنشاء شبكة هائلة من الطرق والكباري والأنفاق تربط المشاعر المقدسة بعضها بالبعض الآخر، مع توفير مياه الشرب والمساكن وتنظيم حركة المرور، وتوفير المواد الغذائية للحجاج. وبصفة عامة تجنيد كافة أجهزة الدولة بمستوياتها المختلفة للمشاركة في رعاية الحجيج وخدمتهم.

كما ترجع هذه العوامل إلى التطورات في السرعة التي أدخلت في السنوات الأخيرة على وسائل الانتقال المختلفة الجوية والبحرية والبرية، الأمر الذي ساعد على انتقال أعداد كبيرة من الحجاج ـ دون مشقة وفي فترة زمنية قياسية ـ من بلادهم التي كانت تعتمد ـ في فترة ما ـ نائية بعيدة عن الأراضي المقدسة. فقد أدت التطورات الكبيرة التي شهدها النقل الجوي بالطائرات في السنوات الأخيرة إلى تقدمه وسائل النقل الأخرى، إذ بلغ عدد من نقلوا جوا إلى المملكة ٥٠٥٨٠٨[١٠] حاجا في عام١٣٩٨هـ، بنسبة ٦٠٫٩٪ من جملة حجاج هذا العام كما أدت التحسينات في الطرق البرية والسيارات إلى تقدم النقل البري للنقل البحري، فقد بلغ عدد من قدموا برا إلى المملكة هذا الموسم ٢٥٥٦٣٧ حاجا، بنسبة ٣٠٫٨٪ من جملة القادمين معظمهم من الدول المتاخمة للمملكة العربية السعودية، في حين احتل النقل البحري المركز الأخير بعدد ٦٨٧٩١ حاجا، بنسبة ٨٫٣٪ فقط هذا في حين بلغت نسبة من نقلتهم هذه الوسائل الثلاث في موسم حج ١٣٨٥هـ : ٣٠٪ ـ ٣٤٫٩٠٪ ـ ٣٥٫١٠٪[١١] على التوالي. وهنا يمكن ملاحظة تأثير عاملي الزمن والمسافة في ازدياد أعداد تيارات الهجرة إلى الحج.

ويضاف إلى هذه العوامل عدم وضع قيود معينة (مالية ـ إدارية أو غيرها) على دخول حجاج دول معينة (كاليمنيين الشماليين) إلى المملكة لأداء فريضة الحج.[١٢]. وقد انعكس هذا في ازدياد أعداد حجاج اليمن الشمالية هذا العام بصورة بارزة.

مستقبل الحركة إلى الحج :

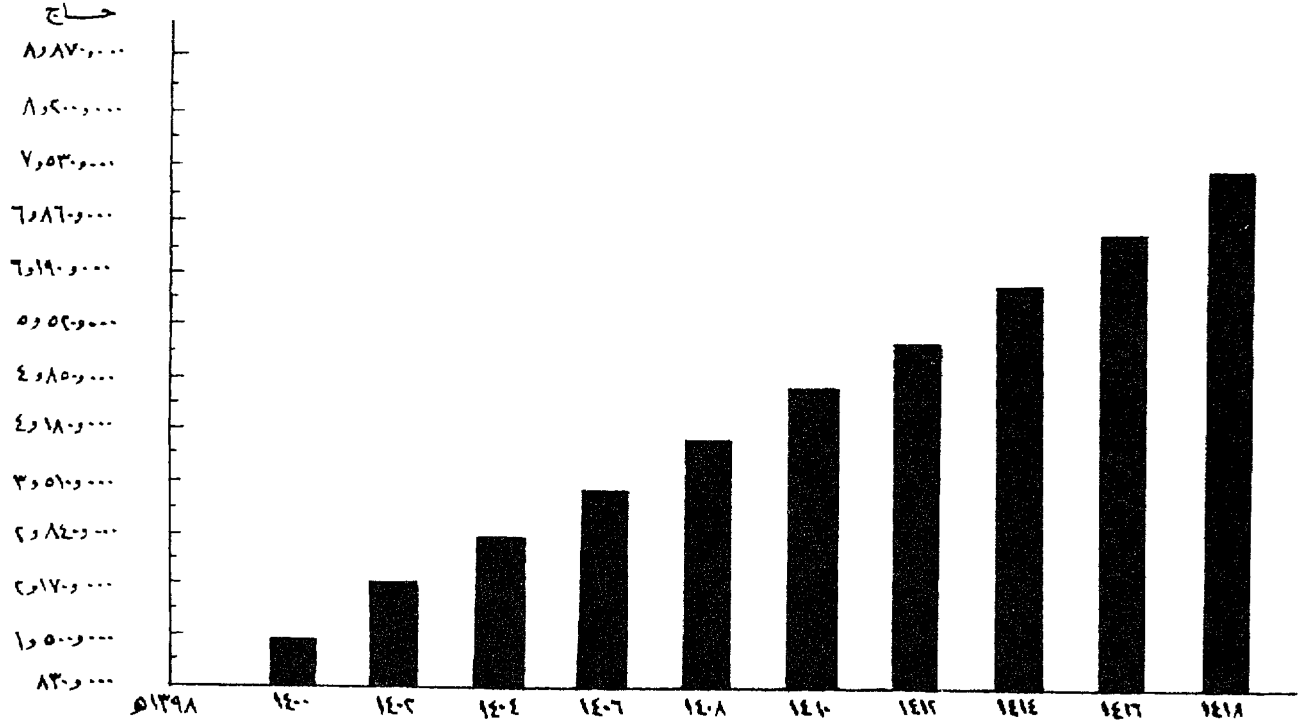
والآن، وبعد هذا التحليل لموسم حج هذا العام والأعوام السابقة، ما هو مستقبل الحج في الأعوام المقبلة ؟

من واقع العرض السابق يمكن التركيز على النقاط التالية :

أولا: انخفاض نسبة الحجاج القادمين من الدول الإسلامية الكبرى (كتركيا وباكستان وإندونيسيا ومصر وبنجلادش وغيرها) بالقياس إلى عدد سكانها المسلمين وإلى من ترسلهم الدول الأخرى الإسلامية وغير الإسلامية. فقد اتضح أن هذه الدول لا ترسل إلا أقل من حاج واحد من بين كل ألف مسلم بها، بسبب القيود والعقبات المختلفة السابق الإشارة إليها، والتي تحول بين مسلمي هذه الدول وبين المشاركة بنسب عالية في تيار الحركة إلى الحج. فإذا تذكرنا ما سبق أن أوضحناه من أن ضخامة تيار الحركة إلى الحج يتوقف على عدد القادمين من مجموعة محدودة من الدول الإسلامية لأمكننا القول ـ بدون أدنى شك ـ إن إزالة مثل هذه القيود والعقبات مستقبلا يؤدي إلى ارتفاع نسبة مشاركة هذه الدول في الحركة إلى الحج، وبالتالي زيادة أعداد الحجيج بصورة هائلة، خاصة وأن هذه الدول تضم نحو ٣٨٠ مليون مسلم (أو حوالي ٦٥٪) من إجمالي عدد المسلمين في العالم كله .

فإذا افترضنا رقما متوسطا لإرسال الحجاج من هذه الدول، وهو (١٠) حجاج من بين كل ألف مسلم بها، لأمكن القول بأن عدد الحجاج القادمين من هذه الدول سيزيد على ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ حاج بعد عشرين سنة، يضاف إليهم الحجاج القادمون من الدول الإسلامية الأخرى وغير الإسلامية، ليصل العدد إلى نحو ٤٫٥ مليون حاج، أو نحو ستة أضعاف عدد الحجاج في هذا الموسم .

ثانيا: ارتفاع متوسط الزيادة السنوية للحجاج في الخمسين عاما الماضية، حيث تبلغ ٤٠٫٥٪ تقريبا. فإذا افترضنا استمرار هذا المعدل خلال السنوات العشرين المقبلة ـ رغم الدلائل التي تشير إلى زيادة المعدل عن هذا الحد كثيرا في السنوات العشر الأخيرة ـ لأمكننا القول بأن عدد الحجاج بعد عشرين سنة سيصل إلى نحو تسعة أضعاف عدد حجاج هذا الموسم، أي حوالي ٧٫٥ مليون حاج، كما يبين ذلك الجدول رقم (٩) والشكل رقم (١٠) .



شكل رقم (١٠)

تطور عدد الحجاج في العشرين عاماً القادمة (١٣٩٨ - ١٤١٨هـ)

جدول رقم (٩)

تطور عدد الحجاج في العشرين عاما القادمة[١٣]

(١٣٩٨ ـ ١٤١٨ هـ)

السنة	عدد الحجاج	السنة	عدد الحجاج
١٤٠٠	١٫٤٩٤٫٠٠٠	١٤١٠	٤٫٨١٤٫٠٠٠
١٤٠٢	٢٫١٥٨٫٠٠٠	١٤١٢	٥٫٤٧٨٫٠٠٠
١٤٠٤	٢٫٨٢٢٫٠٠٠	١٤١٤	٦٫١٤٢٫٠٠٠
١٤٠٦	٣٫٤٨٦٫٠٠٠	١٤١٦	٦٫٨٠٦٫٠٠٠
١٤٠٨	٤٫١٥٠٫٠٠٠	١٤١٨	٧٫٤٧٠٫٠٠٠

فإذا أخذنا بمتوسط الافتراضين السابقين أمكننا القول بأن عدد الحجاج سيصل إلى نحو ٦ مليون.حاج من خارج المملكة في العشرين عاما القادمة، يضاف إليهم أعداد الحجاج من داخل المملكة .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن ظاهرة الحركة إلى الحج ستشهد خلال الأعوام العشرين القادمة تزايدا هائلا في أعداد الحجاج، تفوق بكثير ما حدث في الأعوام الخمسين الماضية، الأمر الذي يتطلب من السلطات المشرفة على الحج أن تضع ـ من الآن ـ الاستعدادات اللازمة لمواجهة هذه الأعداد الهائلة من الحجاج. مع تمنياتنا لها بالتوفيق .

الحــواشي

(١) محمد صبحي عبدالحكيم، ومحمد السيد غلاب: «السكان ـ ديموجرافيا وجغرافيا»، القاهرة، ١٩٧٤م ص ١١٧ .

(٢) وكالة وزارة الداخلية السعودية للجوازات والأحوال المدنية «إحصائية الحجاج القادمين من خارج المملكة لعام ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، مكة، ١٣٩٨/١٢/٧هـ .

(٣) النسب من حساب الباحث .

(٤) الجدول من إعداد الباحث .

(٥) الجدول من حساب الباحث .

(٦) Encyclopedia Americana, New York, 1976, Different Volumes.

(٧) النسب والترتيب من حساب الباحث .

(٨) اتخذت سنة ١٣٤٩هـ سنة للأساس لسببين: الأول أنها تمثل رقما متوسطا تقريبا بالنسبة للسنوات السابقة واللاحقة لها، والثاني أنها بداية الخمسين سنة التي حسبت في الجدول.

(٩) الجدول من إعداد الباحث اعتمادا على بيانات حج ١٣٩٨هـ الصادرة من وكالة وزارة الداخلية السعودية للجوازات والأحوال المدنية، أما الزيادة في عدد ونسب الحجاج فمن حساب الباحث .

(١٠) جريدة الجزيرة، السعودية، الثلاثاء ١٣٩٨/١٢/١٤هـ، ص ٥ .

(١١) مجلة الفيصل، العدد ١٨، ذي الحجة ١٣٩٨هـ، ص ٢٩ .

(١٢) حديث خاص أجراه الباحث أثناء موسم حج ١٣٩٨هـ مع بعض الحجاج اليمنيين في منى يوم السبت ١٣٩٨/١٢/١١هـ .

(١٣) الجدول من إعداد الباحث .

المراجع

١ ـ دولت صادق، ومحمد عبدالرحمن الشرنوبي: «الأسس الديموغرافية لجغرافية السكان»، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ .

٢ ـ صلاح الدين الشامي، وزين عبدالمقصود: «جغرافية العالم الإسلامي»، الاسكندرية، ١٩٧٤، ص ص ٢٢٥ ـ ٢٣٦ .

٣ ـ محمد صبحي عبدالحكيم، ومحمد السيد غلاب: «السكان ـ ديموجرافيا وجغرافيا»، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١١٧ .

٤ ـ محمد عبدالغني سعودي: «إفريقيا»، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٨١ .

٥ ـ Encyclopedia Americana, New York, 1976, Different Volumes. United Nations, Demographic Year Book.

مكة المكرمة دراسة فى جغرافية المدن

دكتور سمير الدسوقى عبدالعزيز

لا تقتصر وظيفة المدن على تقديم الخدمات الاقتصادية وغيرها لسكانها أو لسكان المناطق المحيطة فقط، فهناك مدن ذات طابع روحي تقوم على الوظيفة الدينية[١]. فلقد كان الدين عاملا هاما في نشأة كثير من المدن، ولا يزال أيضا من عوامل تطورها ونموها. فالسومريون أقاموا مدنهم للعبادة أساسا، وفي مصر واليونان سميت المدن بأسماء الآلهة: (بوصير ـ بويسطة ـ أثينا)، وما كان يتأتى لمدينة طنطا ذلك الحجم الكبير لولا العامل الديني.

وفي العصور الوسطى (لعب الدين دورا كبيرا في نشأة كثير من المدن الأوربية) التي ظهرت كمراكز إشعاع ونشر المسيحية، بل إن الذي حفظ لأوربا مدنها خلال تلك العصور وأعاد بناءها بعدها هي الكنيسة .

وكان الإسلام بنّاء للمدن أيضا، فالمسجد أول ما يقام في المدينة الإسلامية الجديدة (الفسطاط ـ العسكر ـ القطائع ...إلخ)، وتحول اسم يثرب بعد الإسلام إلى المدينة.

وفي العصر الحديث يمكن أن نلمس الأثر المدني للدين أيضا، ففي أمريكا الجنوبية، وفي الأصقاع الشبه قطبية، أقيمت المساكن حول الكنائس ، حيث يتردد عليها أصحابها مرة كل أسبوع، (مدن الآحاد Villes des Dimanches) .

وهكذا في كل العصور كانت فترات النشاط المدني هي الانتفاض الديني، وعلى العكس كانت المناطق التي تأخرت كثيرا في حياة المدن هي التي تأخرت في التطور الديني كالبربر القدماء والجرمان واليابان[٢] .

ومكة المكرمة مدينة دينية وتجارية منذ أقدم العصور، فقد حظيت بأول بيت وضع للناس، وهي على الطريق الرئيسي بين اليمن والشام، مما أكسبها خصائص ومميزات لا تنافسها فيها مدينة أخرى في شبه جزيرة العرب، لذلك نزلت مكة قبائل عديدة استقرت حول البيت الحرام الذي تفجر إلى جواره بئر زمزم كمورد دائم للشرب في وادي مقفر غير ذي زرع .

ولقد عوض البيت العتيق مكة هذا النقص في الموارد الاقتصادية، فأصبحت مركزا هاما

للحياة الدينية والتجارية والثقافية في شبه الجزيرة والعالم الإسلامي فيما بعد، ونعم سكانها بالأمن والحياة المستقرة .

ولمكة أسماء كثيرة، منها: بكة، والباسة، وأم القرى، وصلاح، وأم الرحم، والحاطمة. ويقال: إن بكة موضع البيت، ومكة هي الحرم كله(٣). وهي أم القرى لأن كل ما حولها أتباع لها، وقد أعلن أحد العلماء أن مكة مركز اليابسة في الكرة الأرضية، وذلك في تحقيق استعان فيه بالحاسب الإلكتروني وبمعادلات وعمليات رياضية معقدة، أعد على أساسها خريطة جديدة للكرة الأرضية(٤) .

وفى الكتب اليونانية سميت «مكوربا»، وهو اسم مشتق من كلمة «مكورابا»، بمعنى مقدس أو محرم(٥) ويرجع تاريخ عمارتها إلى عهد إبراهيم وابنه إسماعيل سنة ١٨٩٢ ق. م. وفيها ولد النبي محمد، وفيها بعث وظهرت دعوة الإسلام.

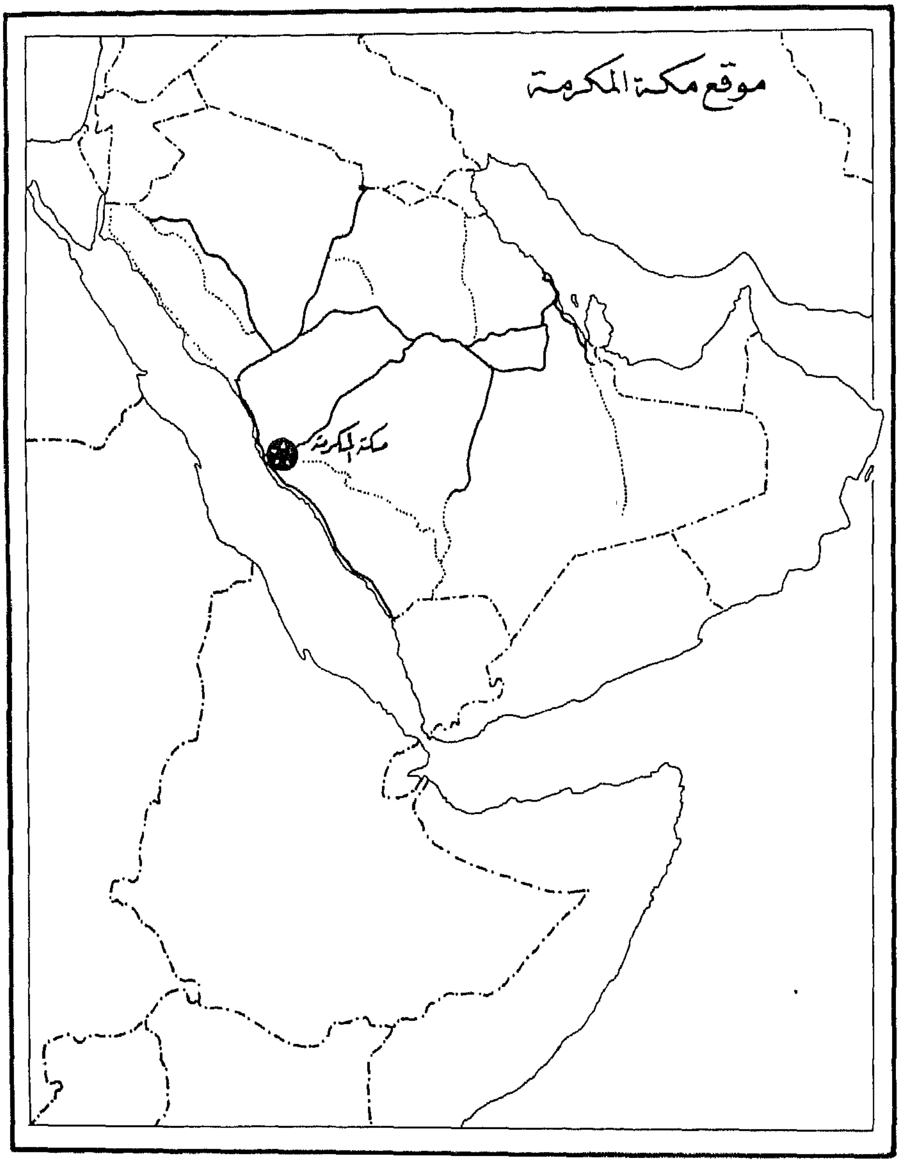
الموقع والموضع:

١ ـ موقع مكة :

تقع مكة المكرمة (في منطقة تحيط بها التلال القاحلة الجرداء(٦)) على دائرة العرض ٢١/٢٥° شمالاً، وخط طول ٣٩/٤٩° شرقا، وهي عاصمة الأمارة التي تعرف باسمها في غرب المملكة العربية السعودية. وترتفع مكة عن سطح البحر بحوالي ٣٦٠ مترا، كما تبعد عن ميناء جدة على ساحل البحر الأحمر بنحو ٧٣ كم.

وعلى هذا تقع مكة ضمن سهل تهامة الساحلي (السواحل الغربية لشبه جزيرة العرب) الممتد على طول ساحل البحر الأحمر من أقصى شماله عند خليج العقبة إلى نهايته الجنوبية عند باب المندب .

ويحد سهل تهامة من الشرق جبال الحجاز التي تبدأ على شكل هضبة في الشمال، تأخذ في التقطع والارتفاع بالاتجاه جنوبا. وهذه الجبال تتكون من صخور ما قبل الكمبري التي كثيرا ما تغطيها الطفوح البركانية حيث تعرف بالحرات(٧) .


موقع مكة المكرمة
مكة المكرمة

ويتميز سهل تهامة بشدة حرارته وركود ريحه وبأرضه الرملية الحصوية والملحية، ولكنها لا تخلو من بعض المواضع الصالحة للزراعة، وهي تلك المواضع التي غطتها إرسابات رملية وطينية جرفتها الأودية إلى الساحل.

وسهل تهامة ضيق في معظمه لاقتراب الجبال من البحر ، ولكنه يأخذ شكلا حوضيا وسهليا، ويتوغل نحو الداخل لأكثر من ٧٠ كيلومتراً في منطقة مكة ليدخلها في نطاقه .

وبذلك أصبحت مكة بساحلها على البحر الأحمر بوابة لوسط شبه الجزيرة ومدخلا طبيعيا إليه، هذا بالإضافة إلى أن مكة في موضع تصل المسافة فيه بين الخليج العربي والبحر الأحمر إلى أدناها. وكان لهذا الموقع أهمية كبرى لحياة قريش التجارية، فاستطاعت أن تتصل بسهولة بداخل شبه الجزيرة من ناحية، وبموانئ ساحل الخليج العربي من ناحية أخرى. ولقد زاد من أهمية هذا الاتصال ما كانت تعانيه مكة (ومدن الحجاز الأخرى) من عدم قدرتها على إعالة سكانها أو الوافدين إليها للحج والتجارة، ولكنها بفضل موقعها أمكنها الحصول على كميات إضافية من الطعام مقابل الخدمات التي تقدمها للقوافل المارة .

ولم يكن من حائل بري يعوق اتصال منطقة مكة بإيران في الشمال الشرقي، أو بالشام في الشمال الغربي، فصحراء النفود تتدرج إلى الشمال في رفق وسهولة، كما أن الطريق الساحلي إلى اليمن سهل ومنبسط إلى حد كبير. وكانت أهم الطرق التجارية التي سلكتها القوافل في شبه الجزيرة وتمر بمكة هي:

١ ـ الطريق الممتد على طول خط الاستقرار الموازي لجبال السراة بين اليمن والشام ويمر هذا الطريق بكل من نجران ـ الطائف ـ مكة ـ المدينة ـ مدائن صالح ـ تبوك. ثم إلى الشام.

٢ ـ طريق يمتد من مكة نحو الشمال الشرقي متابعا موارد المياه في وادي الرمة إلى رأس الخليج العربي[٨] .

ولهذا كان لموقع مكة أهمية تجارية كبرى بين مناطق الاستقرار المحيطة: فارس والروم شمالا، واليمن وما وراءها من أرض الحبشة جنوبا[٩] وكانت المنطقة حلقة اتصال بين

الحضارات الشمالية والجنوبية، ولم تكن في عزلة جغرافية كالتي عاشت فيها كثير من مناطق الاستقرار الكبرى في آسيا الموسمية.

وجاءت شبكة الطرق والمواصلات المدنية مؤكدة لهذا المعنى، فمن أهم الطرق البرية بالمملكة العربية السعودية طريقان، كلاهما يمر بمكة المكرمة:

١ ـ طريق الدمام ـ جدة: وطوله ١٥٠٠ كم مارا بالرياض ـ الطائف ـ مكة. وهو في مقدمة الطرق الرئيسية بالمملكة، سواء من ناحية الهيكل العام أو من الناحية الوظيفية. وأهمية هذا الطريق تعود إلى أنه يربط بين منطقة الخليج العربي وموانئ البحر الأحمر، هذا بالإضافة إلى أنه يربط المناطق الثلاث بالمملكة (الشرقية والوسطى والغربية) بعضها البعض.

ثم إن الطريق يصل بين أهم موانئ المملكة (الدمام ـ جدة) ومراكز العمران الداخلية، وعن طريقة يتم نقل الواردات إلى الداخل، كما أنه يساعد في توزيع فائض الإنتاج الزراعي ـ خاصة الخضر والفاكهة ـ بين المناطق، ويعمل في خدمة الحجاج أيضا.

٢ ـ طريق تبوك ـ أبها: وطوله ٢٠٨٣ كم، ويربط بين الحدود الشمالية والجنوبية للمملكة العربية السعودية، ويعد من أعظم الطرق البرية في البلاد العربية جميعا. ويمر الطريق بعدد من أكبر مراكز العمران في المملكة، وأهمها: تبوك ـ المدينة ـ جدة ـ مكة ـ الطائف ـ أبها ـ نجران ـ جيزان. وقد ساعد هذا الطريق على اتصال السعودية بالدول الواقعة إلى الشمال منها حتى أوربا عبر الأردن وسوريا وتركيا، ويؤدي خدمات كبيرة في نقل المسافرين للحج والزيارة في الدول المجاورة. كما أنه خلال فترة إغلاق قناة السويس (٦٧ ـ ١٩٧٥م) كان بمثابة الشريان الذي تم عن طريقه نقل معظم واردات البلاد التي كانت تفرغ في ميناء بيروت، ثم تشحن إلى المملكة بواسطة سيارات خاصة(١٠).

وبالإضافة إلى هذين الطريقين الرئيسين يربط بين مكة والمناطق المحيطة شبكة من الطرق، تزيد من أهمية موقعها إلى حد كبير، ولعل أهم هذه الطرق الطريق الذي يصل بين مكة وجدة، ميناء الحج الرئيسي على البحر الأحمر.

والطريق بين مكة وجدة يتبع طريق الحج القديم، فيبدأ من جدة مخترقا التلال الرملية

الجافة وبعض الأراضي الخصبة في وادي فاطمة. وبعد الشميسي يمر الطريق تحت سفح سلسلة جبال الحجاز الرئيسية عبر وادي شريف الرملي أحد روافد وادي فاطمة ـ حيث يقوم شاهدان يشيران إلى بداية منطقة الحرم والتي يحرم دخولها على غير المسلمين. ثم يتابع الطريق سيره إلى أن يدخل مكة من ناحيتها الغربية. والطريق من طرق الدرجة الأولى ، وطوله نحو ٧٣ كم .

وعند «الشاهدان» يخرج طريق فرعي ـ طريق الخواجات ـ ليدور حول مكة من الجنوب إلى أن يتصل بطريق مكة ـ الطائف خارج منطقة الحج في منى وعرفات. ويتبع الأجانب هذا الطريق عند اتجاههم إلى مدينة الطائف .

ويربط بين مكة والطائف طريقان: الأول: الطريق الشمالي الذي يتبع وادي فاطمة ثم وادي اليمانية، وقد هجر هذا الطريق منذ عام ١٩٦٥م عندما بدأ تشغيل الطريق الثاني .

أما الطريق الآخر فيبدأ من شرق مكة مخترقا منطقتي منى وعرفات، ثم يصعد منطقة الجبال بين مكة والطائف في طريق كثير الانحناءات ، يتعرض للانقطاع عند سقوط الأمطار الغزيرة فوق «منطقة الهدا» التي ترتفع نحو ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب مدينة الطائف، فتسقط كتل من الصخر على الطريق، وتتوقف الحركة عليه. وقد يستمر التوقف أحيانا لعدة أيام حتى تتم إزالة الصخور وإصلاح الطريق وتأمينه للمسافرين. ويبلغ طول الطريق نحو ٨٧ كم، منها ١٧ كم في المنطقة الجبلية .

والطريق الثاني ـ وهو المستخدم حاليا ـ لا تتوقف الحركة عليه وخاصة في موسم الحج أو في فصل الصيف، وهو مزود بوسائل الإرشاد ونقط الإسعاف، ومع ذلك فالحوادث الخطيرة كثيرة، مما دفع الحكومة لأن تعهد إلى إحدى الشركات مهمة رصف الطريق الأول وإعادة تشغيله. وقد أوشكت الشركة على الانتهاء من عملها، وينتظر أن يبدأ التشغيل قريبا. والطريق طوله نحو ١٤٥ كم، ويساعد في تخفيف الضغط على الطريق المستخدم حاليا، كما أنه يمر في مناطق زراعية خصبة توفر لمدينتي مكة وجدة جزءا من احتياجاتهما من الخضر أو الفاكهة .

كما يربط بين مكة والمدينة طريق مرصوف طوله حوالي ٤٨٥ كم (٣٣٥ كم في خط مستقيم)، ويتبع الطريق من مكة وادي فاطمة إلى أن يلتقي بالطريق الموصل بين المدينة وجدة عند بدر

تقريبا، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي مخترقا الجبال ليدخل المدينة من ناحيتها الجنوبية الغربية. وظل يطلق على هذا الطريق لفترة طويلة اسم «الدرب السلطاني»(١١) .

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الطرق التي تربط بين مكة والقرى المحيطة بها في كل من وادي فاطمة أو منطقة خليص الزراعية الخصبة، وكذلك تلك التي تربط بين مكة وجعرانة، أو بين مكة ومنطقة شعائر الحج في منى وعرفات والمزدلفة. والطرق الأخيرة متسعة وفسيحة، أزيلت بعض التلال التي كانت تقف عقبة في طريقها خلال السنوات الأخيرة، وقد يصل عرض بعضها فقط لأكثر من مائة متر. ومنذ عام ١٩٧٢م بلغ عدد الطرق الموصلة بين مكة ومنطقة شعائر الحج خمس طرق مزودة بكباري علوية لتسهيل حركة الحجاج وتنقلاتهم.

وعلى هذا يمكن أن نقول بأن مكة المكرمة ذات موقع هام في غرب شبه جزيرة العرب، فهي في ملتقى طرق المواصلات بين الشمال والجنوب، وفي منطقة تبلغ المسافة فيها بين شرق الجزيرة وغربها أقل قدر لها، مما جعل منها مدخلا لوسطها، كما أن توافر مصادر المياه هيأ الاستقرار لسكانها منذ آلاف السنين.

٢ ـ موضع مكـة :

تتحدد مواضع المدن الدينية في العالم غالبا بأحداث أو رؤى ومعتقدات، أو بموضع قبر كان يرى الناس في صاحبه الخير والصلاح، أي إن مواضع هذه المدن لا تخضع للمنطق الجغرافي. ولقد تحدد موضع مكة حيث الحجر الأسود في بطن وادي إبراهيم الذي ينحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. وفي شرق وادي إبراهيم يرتفع جبل قعيقعان، وإلى الغرب منه جبل أبي قبيس. ويطلق على الجبلين «الأخشبان» حيث لا ينمو عليهما من النبت إلا القليل، كما أن سفوحهما جرداء تتناثر فيهما المغارات التي تتفاوت عمقا واتساعا، ويأوي إليها البدو خلال الشتاء .

وعند حضيض أبي قبيس ترتفع ربوة صغيرة هي الصفاء تقابلها في الجنوب الشرقي ربوة أخرى هي المروة . وفي منتصف الطريق بينهما تهبط الأرض في بطن الوادي .

وإلى جنوب جبل قعيقعان وغرب أبي قبيص يرتفع جبل عمر، وكان اسمه العاقر في الجاهلية. ويطلق على الجزء الشمالي من قعيقعان «جبل الهندي»، لسكنى الهنود فيه .

هده هي الجبال الرئيسية المشرفة على مكة. ولكن إذا رجعنا إلى الخريطة الكنتورية نوجدنا جبالا أخرى كبيرة أقل حجما وأهمية، وبعضها أجزاء من الكتل الرئيسية الثلاث أو امتدادات لها. وقد أدى توزيع الكتل الجبلية حول مكة بهذا الشكل إلى تحديد مداخلها تحديدا دقيقا، قصرها على ثلاثة ، هي:

١ ـ المدخل الغربي: بين جبلي قعيقعان وعمر، وهو الموصل إلى جدة، ويعتبر أهم مداخل المدينة.

٢ ـ المدخل الجنوبي: في مسفلة مكة، ويسمى طريق اليمن .

٣ ـ المدخل الشمالي: من المعلاة ، ويوصل إلى منى وعرفات والطائف .

وتؤدي هذه المداخل ـ أو الطرق ـ الثلاث إلى بطن مكة، وبينها اتصالات حول جبل قعيقعان. فهناك طريق يتفرع من الطريق الغربي، ويتجه شمالا مارا بالحجون إلى وادي فاطمة إلى الظهران، حيث يلتقي بطريق آخر يتفرع من الطريق الشمالي ويتصل طريق الحجون بطريق الشمال في معلاة مكة بطريق كدا شمال جبل الهندي .

وتمتد مكة المكرمة من الشرق إلى الغرب لمسافة ستة كيلو ونصف الكيلو، ومن الشمال إلى الجنوب لمسافة سبعة كيلو ونصف الكيلو، ويبلغ إجمالي مسطح المدينة شاملا الأراضي المستخدمة للإسكان والخدمات والمرافق العامة والجبال المأهولة بالسكان ـ عام ١٩٧٤ ـ نحو ١٦٥١ هكتارا .

أما أبعاد المنطقة الحرام فغير محددة بمسافة معينة في كل اتجاه، فهي تتخذ شكل المعين أو الشكل غير قائم الزوايا الذي يبدأ من مسافة ٤٠ كم من الشميسي ـ على طريق جدة ـ ومسافة ١٩كم من التناعيم ـ على طريق نجد ـ ، ونفس المسافة تقريبا على طريق اليمن. هذا بينما تبدأ المنطقة الحرام في عرفات على بعد نحو ٩ كم فقط في اتجاه الشرق في وادي النعمان، وفي المنطقة الأخيرة يقع مسجد نمرة .

وهكذا يمكن القول بأن مكة المكرمة تقوم في بعض الوديان المحاطة بعدد من المرتفعات والتلال التي زحف عليها العمران بدورها في كثير من أجزائها. ويعتبر وادي إبراهيم الذي يضم قلب المدينة ،ويحتل وسطه المسجد الحرام (ويضم بدوره الكعبة المشرفة، وبئر زمزم، ومقام

إبراهيم، ومنطقة السعي بين الصفا والمروة) أهم الوديان جميعا، وتبدأ منابعه من جبل النار (١٥٠ مترا فوق سطح البحر) ومجموعة المرتفعات الشمالية الشرقية لمكة بالقرب من جعرانة (٢٠ كم من مكة)، حيث تتجمع الروافد من الجبال المحيطة كجبل النور (٥٦٠ متر) وجبل تعبة (٨٧٢ متر) ما بين منى ومجرى الوادي الرئيسي. هذا بالإضافة إلى روافد أخرى تأتي من الجبال المحيطة بمنطقة المعابد، مثل جبل المسكين ما بين المعابدة والروضة والملاوي، ويزيد ارتفاعه على ٤٧٠ مترا .

وبمواصلة السير مع وادي إبراهيم نحو المصب نجد أنه يسمى بالخريق، وهي منطقة تحيط بها المرتفعات من الشرق والغرب. وتسمى المرتفعات الغربية بالحجون (وإلى جنوبها جبل المدافع). أما الشرقية فأكثر ارتفاعا وتقطعها الشعاب، مثل شعب عامر الذي يلتقي مع وادي إبراهيم في منطقة الفزة، وشعب علي الذي يلتقي معه في منطقة سوق الليل. وفي الفزة يقع جبل فعيقعان وجبل النقاء ثم جبل هندي غرب الشامية، وجبل عمر الذي شق عبره طريق ليصل بين منطقتي الشبيكة والحفائر .

وإلى الشرق من الوادي ـ والحرم ـ يقع جبل أبي قبيس الذي يطل على شعب علي من الشمال. أما إلى الغرب والجنوب منه فهناك جبل خندقة الذي يفصل بين منطقتي أجياد والعزيزية، وفي الأول تقع جبال السبع بنات والمصافي وريع بخشي وسلاسل، ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين ٤٢٠ ـ ٥٩٢م. وعلى جبال سلاسل تقوم قلعة أثرية قديمة شيدها الأتراك لتطل على الحرم من ناحيته الجنوبية .

وفي شمال غرب الحرم ـ منطقة حارة الباب ـ تقوم عدة جبال، أهمها جبل الكعبة (٤٦٧م)، وريع الرسان (٤٥٣ م)، وهما من الجبال المأهولة بالسكان نظرا لقربها من الحرم وقلب المدينة التجاري .

وبعد أن يترك الوادي منطقة الحرم يخترق مسفلة مكة، حيث ينتهي في آخرها. والمسفلة تعتبر أكثر جهات مكة انخفاضا، ولهذا تكثر فيها الآبار، مما ساعد على كثرة البساتين التي يمتلكها بعض كبار التجار، ويجد فيها سكان مكة متنفسا لهم .

وبالإضافة إلى وادي إبراهيم هناك أودية أخرى عديدة، أهمها وادي العشر الذي تكون

من تجمع بعض الروافد المنحدرة من مرتفعات شمال مكة، ويتجه في امتداده صوب الغرب حيث طريق مكة ـ جدة وأحياء السهداء والزاهر والنزهة. ويغذي وادي العنبر أودية فرعية، منها وادي الرحا ووادي الرصيفة ووادي دبرة، ولكن أهمها وادي البحر الذي يسمى بهذا الاسم نظرا لاتساعه وغزارة المياه التي يجلبها، حيث ينبع من مجموعة جبلية يتراوح ارتفاع قممها ما بين ٧٠٠ ـ ٩٦٠م في شمال التنميسي .

أما وادي الرصيفة فيمتد من العتيبة إلى جرول فالتنضباوي، حيث يصل إلى شارع منصور ـ أحد شوارع مكة الرئيسية ـ ، ثم يلتقي مع وادي إبراهيم مع نهاية المسفلة في منطقة الرصيفة التي استمدت اسمها من اسم الوادي. وفي وادي الرصيفة يقع بتر طوى، ويحيط به جبل أبي لهب وجبل ربع الكحل .

ومن جبال مكة ذات الأهمية الخاصة لدى المسلمين جبل النور (٦٣٤ م) في الشمال الغربي، وجبل عرفات، وجبل الرحمة في الشرق (٣٤٠ م)، ثم جبل ثور في الجنوب .

وجبل النور يقع فيه غار حراء، وقد أنشئ في قمته خزان لتجميع مياه الأمطار، ويصل إليه طريق معبد. أما جبل عرفات فتصعد إليه جموع المسلمين في يوم عرفه باسمه. وفي جبل ثور يقع غار الهجرة النبوية .

ومعظم جبال منطقة مكة مأهولة بالسكان، وخاصة القريبة من الحرم. أما ما يقع منها في منطقة شعائر الحج في منى وعرفات فتقتصر الحياة فيها على موسم الحج فقط، كما يتردد عليها الزوار في مواسم العمرة .

وكان لموضع مكة في منطقة سهلية منبسطة ـ او حوض مغلق ـ تحيط به الجبال ذات الشعاب، بحيث تكاد تغلقه من كل الجهات إلا في مخارجه الثلاث، بالإضافة إلى حرمتها الدينية، أن أصبح المستقرون في هذا المكان أو العابرون له في غنى عن بناء أسوار الحماية، حيث يمكن للقافلة أن تتحصن في الشعاب بواسطة حراسها .

ومكة في هذا الأمر تنفرد بهذه الخاصية عن كل محطات القوافل ومدن التجارة على طول الطريق بين الشام واليمن، والتي تتخذ من الحصون والأسوار دروعا واقية من هجمات المغيرين. أما في مكة فليست هناك أسوار حماية .

وبما ساعد هذا الموضع على اكتساب منزلة رفيعة مميزة تفجر عين زمزم في وسطه، والتي تستمد منها القوافل حاجتها من المياه. والمعروف أنه حيثما وجدت المياه الدائمة الوفيرة في منطقة صحراوية مثل مكة تحولت إلى مدن تعمل في التجارة وخدمة القوافل هذا بالإضافة إلى اكتساب مكة حرمة خاصة نظرا لوجود الكعبة المشرفة بها .

وعلى هذا لم تكن قريش والقبائل الأخرى التي استقرت بمكة في حاجة إلى تخطيطها على أساس دفاعي، كما لم يكن هناك ما يدعو إلى بناء حصون أو أسوار ـ أبواب ـ ضخمة تتحكم في الوافدين إليها أو الصادرين عنها . ومن هنا كان لتخطيط مكة طابع خاص، يعتمد على قداسة البيت والمركز الديني المرموق، بالإضافة إلى طبيعة الموضع .

وعند هذا الحد يمكن أن نكون تصورا عريضا لموقع وموضع مكة، فهي المنطقة التي يتقابل فيها سهل تهامة الساحلي مع مجموعة الجبال والتلال الجرانيتية الظاهرة من مجموعة القاعدة الجيولوجية والتي زحف إليها العمران في كثير من أجزائها. ويفصل بين التلال مجموعة من الأودية، أهمها وادي إبراهيم الذي يضم قلب المدينة التجاري والمنطقة السكنية الرئيسية وفي مركزها المسجد الحرام .

كما يقع هنا أيضا المنزل الذي ولد فيه النبي وعيادات الأطباء والمستشفى الرئيسي للمدينة وجبانة المعلاه والبريد والبرق .. إلخ. وكانت مكة فيما مضى ملتقى القوافل المتجهة إلى الشام واليمن، يفد إليها التجار والحجاج من كل مكان في العالم الإسلامي. وفي الوقت الحاضر تأتي مكة في ملتقى أهم طرق السعودية التي تربط بينها وبين مختلف أنحاء البلاد وخاصة مداخلها الشمالية والجنوبية، حيث تصل جموع كبيرة من الحجاج عن طريق السيارات لأداء فريضة الحج أو العمرة .

مناخ مكـة :

نظرا لموقع مكة الداخلي في نطاق الإقليم الجاف ـ الصحاري المدارية وشبه المدارية ـ فقد تميزت بالسماء الصافية، وعظم تأثير ضوء الشمس في رفع درجات الحرارة. فمتوسط درجة الحرارة السنوي لا يقل عن $27\frac{1}{2}$°م. والجدول التالي يبين درجات الحرارة العظمى والصغرى خلال شهور السنة بمنطقة مكة :

الشهر	متوسط درجة الحرارة العظمى	متوسط درجة الحرارة الصغرى	المتوسط
ينايـــــر	٢٩٫٦	١٧٫٢	٢٣٫٤
فبرايـــــر	٣٠٫٧	١٨٫٣	٢٤٫١
مـــــارس	٣١٫ -	١٩٫١	٢٥٫ -
أبريــــل	٣٣٫٨	٢١٫٣	٢٧٫٥
مايـــو	٣٤٫٢	٢٣٫٢	٢٨٫٧
يونيـــو	٣٥٫٨	٢٣٫١	٢٩٫٤
يولــيو	٣٧٫٦	٢٤٫٢	٣٠٫٩
أغسطــس	٣٦٫٢	٢٥٫٤	٣٠٫٣
ســبتمبر	٣٤٫٧	٢٥٫١	٢٩٫٩
أكتوبـــر	٣٤٫٨	٢٠٫٨	٢٧٫٨
نوفمــبر	٣٢٫٢	٢٠٫٧	٢٦٫٤
ديسـمبر	٢٩٫٩	١٨٫٧	٢٤٫ -
	٣٣٫٤	٢١٫٥	٢٧٫٥

ومن الجدول يتضح أن متوسط درجات الحرارة خلال شهور الصيف (مايو - أغسطس) مرتفع، ويصل إلى نحو ٣٠°م، ثم يأخذ في الانخفاض حتى يصل في شهور الشتاء إلى ٢٤½ م. ويلاحظ أن أكثر شهور السنة حرارة هو شهر يوليو (٣٠٫٩°م)، وأقلها حرارة شهر يناير (٢٣٫٤°م). ولعل ارتفاع درجة الحرارة في مكة طوال معظم شهور السنة يعود إلى إحاطتها بالجبال التي تمنع عنها المؤثرات البحرية. وكان لذلك أثره على الفروق الحرارية بين الصيف والشتاء، حيث تصل إلى نحو ٦°م فقط.

ومن دراسة الجدول أيضا نلاحظ عدم وجود تغيرات موسمية واضحة في درجات الحرارة

وخاصة درجات الحرارة العظمى، وهذا هو طابع الجهات المدارية الجافة بوجه عام. أما المدى الحراري فهو غير واضح أيضا بين الشهور، ولكنه أكثر وضوحا بين الليل والنهار، حيث يبلغ أكثر من عشر درجات. وسبب ذلك بطبيعة الحال يعود إلى الجفاف والبعد عن المؤثرات البحرية .

أما من حيث الأمطار على منطقة مكة فإنه على الرغم من قربها من البحر الأحمر والذي لا يبعد عنها أكثر من ٧٣ كم، إلا أنه نظرا للخصائص المناخية التي تميزه، ووجود الجبال كحاجز بينها وبينه، فإن أهميته كمصدر للأمطار محدود للغاية، بينما المصادر الحقيقية تقع فوق البحر المتوسط. ولذلك فإن الأمطار هنا تخضع في سقوطها لنظام هذا البحر، أي إنها تسقط خلال الشتاء. أما الفترة الواقعة بين شهري يونيو وأكتوبر فإنها فترة جافة عديمة الأمطار. والتباين في كمية المطر الساقطة خلال الشهور أكثر وضوحا كلما قلت كمية الأمطار السنوية. ويمكن أن نرجع ضآلة كمية الأمطار أيضا إلى الانخفاض النسبي الذي يميز الجبال المحيطة بالمنطقة، سواء في اتجاه الهضبة الداخلية أو في اتجاه البحر بوجه عام .

ومعظم مياه الأمطار تنصرف عبر الأودية، خاصة وادي إبراهيم، مما ينتج عنه أحيانا بعض السيول المدمرة، آخرها تلك التي حدثت في شتاء عام ١٩٧٤م وشهدها الباحث، وتسببت في وقوع خسائر جسيمة في الأرواح والأموال. وتبذل الجهود لمواجهة مثل هذه السيول المفاجئة والمدمرة باقامة عدد من مصارف الامطار خاصة في منطقتي الحرم والمسفلة أكثر جهات مكة انخفاضا .

والرياح التجارية الشمالية هي الرياح السائدة خاصة في الشتاء، وتتراوح سرعتها في هذا الفصل بين ٤٠-٦٠ كم/ساعة، ويزيد من حدة تأثيرها صفاء السماء وقت الهبوب، وكذلك اختلاف اتجاهاتها بصورة فجائية بسبب عامل التضاريس المحلية، مما يسبب أضرارا بالغة للزراعات القليلة بالمنطقة، وبخاصة زراعات الخضر والفاكهة وأشجار النخيل نتيجة لجفافها وإثارتها للغبار المتراكم فوق التلال المحيطة بالمنطقة .

وفي فصل الصيف تهب على منطقة مكة نوع من الرياح المحلية تعرف برياح السموم، تشبه في خصائصها رياح الخماسين في مصر إلى حد كبير، حيث تؤدي إلى رفع درجة الحرارة بشكل واضح، ولكنها في نفس الوقت تساعد على نضج ثمار النخيل .

مصادر المياه في مكة :

وهي من أهم مشكلات مكة باعتبارها مدينة حج في بيئة جافة، ومع ذلك تشهد طوفانا بشريا في موسم معين من السنة. ولما كان نمو المدن يتأثر كثيرا بمقدار ما يمكن تدبيره من مياه لاستخدامات السكان المتعددة، والتي تتمثل أساسا في الاستخدامات الشخصية، ثم في النواحي الاقتصادية ـ وأهمها الصناعة ـ فإنه بالنسبة لمكة نجد أن الاستخدامات الأولى تمتص النسبة الكبرى من مواردها المائية، بالإضافة إلى بعض الزراعات الصغيرة. فهي مدينة لا تضم سوى بعض الصناعات الخفيفة أو اليدوية التي لا تستهلك من الماء إلا القليل، ثم تأتي بعدها الأغراض الأخرى .

وتواجه مكة المكرمة مشكلة مياه متجددة مرتبطة بنموها السكني والسكاني، خاصة وأنه قد صاحب ذلك تعدد ونمو في وظائفها ، وذلك بسبب اعتمادها القديم والدائم على مجموعة معينة من الآبار، ومن مستوى ماء باطني ثابت قليل العمق غالبا. وتحصل مكة على المياه من مصدرين :

١ ـ مصادر تملكها الدولة (إدارة عين زبيدة والعزيزية) .

٢ ـ مصادر خاصة يمتلكها الأفراد ممثلة في عدد من الآبار داخل مكة أو بالقرب منها .

ومعظم استهلاك مكة من الماء تحصل عليه من المصادر الأولى (عين زبيدة والعزيزية)، وتسحب المدينة نحو ٢١٦٠٠م^3 من المياه يوميا، أو ما يعادل ٨ مليون متر مكعب في السنة حسب البيان التالي :

المصدر	نوعه	متوسط الكمية يوميا بالمتر المكعب	الوادي	ملاحظات
عين زبيدة	نبع	٣٥٠٠	النعمان	تنقل المياه إلى مكة بواسطة فناة من الحجارة مغلفة بالبلاط في بعض اجزائها
عين العزيزية	نبع	٣٦٠٠	فاطمة	تستهلك الزراعة المحلية كمية مماثلة لاستهلاك المدينة من هذين المصدرين
عين صلاح	نبع	٢٠٠٠	فاطمة	
عين مودي	نبع	٥٠٠٠	فاطمة	
عين القشاشية	بئر	٦٥٠٠	فاطمة	تعمل عليه مضختان
بئر العابدية	بئر	٢٠٠٠	النعمان	تعمل عليه مضخة واحدة

وجميع هذه المصادر تبعد عن مكة مسافة تتراوح بين ٢٢ - ٢٨ كم . وباستثناء عين زبيدة التي تنقل مياهها عن طريق قنوات مغطاة أنشأها الأتراك، فإن مياه العيون أو الآبار الأخرى تنقل إلى مكة بواسطة سيارات أعدت لهذا الغرض .

أما مصادر المياه الخاصة فيبلغ عددها ٢٠٦ آبار، تزود المدينة بمصدر إضافي للمياه يعتمد عليه نحو ١٥٪ من سكانها. وبالرغم من عدم معرفة كمية المياه التي تتدفق من هذه الآبار على وجه الدقة ـ لعدم وجود بيانات ـ إلا أنها لا تقل بحال عن مليونين من الأمتار المكعبة سنويا. والجدول التالي يوضح مواقع الآبار الخاصة في مكة :

الموقع	عدد الآبار	الموقع	عدد الآبار
المسفلة	٣٤	المعابدة	٢٩
جرول	٧٣	شارع المنصور	٢٣
أجياد	٢٠	النزهة وأم الدرج	١٥
الشهداء	١٢	جملة	٢٠٦

ويستفاد من بيانات مصلحة عين زبيدة والعزيزية والدراسة الميدانية أن متوسط استهلاك الفرد من المياه يوميا يقدر بنحو ٦٨ لترا، وهو معدل منخفض حتى إذا ما قورن بمعدلات الاستهلاك الفردي في البلدان ذات المستوى الصحي المقبول، وهو لا يقل عن ٩٠ لترا في اليوم للشرب والطبخ والاستحمام وغسل الأواني وفي دورات المياه .

وهذا الاستهلاك الفردي المنخفض ظاهرة تدعو إلى القلق خاصة من ناحية الصحة العامة في مدينة تشهد تزايدا سكانيا مستمرا وحركة عمران واسعة، كما يفد إليها أعداد هائلة من الحجاج والمعتمرين من مختلف البلاد والجنسيات .

ويتم توزيع المياه على سكان مكة بعدة طرق :

١ ـ التوصيلات المباشرة بواسطة شبكة أنابيب المياه، وهي تزود ما يقرب من ٥٣٪ من السكان بحاجاتهم من المياه .

٢ ـ سيارات نقل الماء (الوايتات)، وتقوم بنقل المياه لنحو ١٥٪ من سكان المدينة .

٣ ـ مراكز التوزيع للجمهور مباشرة أو عن طريق السقايين، ويحصل على المياه بهذه الطريقة باقي السكان (٣٢٪) .

ويختلف سعر الماء في مكة حسب طريقة التوزيع :

أ ـ فهو يبلغ نصف ريال/م^{٣} من الماء الذي ينقل بواسطة شبكة الأنابيب للمشتركين .

ب ـ ثلاثة ريالات/م^{٣} ينقل عن طريق الوايتات .

جـ ـ خمسة ريالات/م^3 من الماء يتم ضخه من الآبار الخاصة .

د ـ أما المياه التي توزع من مراكز أو نقاط التوزيع فلا تتقاضى إدارة عين زبيدة ثمنا لها .

وتهدف المشروعات (الجاري تنفيذها حاليا) إلى تعميم نقل المياه عن طريق المواسير، والقضاء على ظاهرة السقايين بوجه خاص ، منعا للتلوث، والحفاظ على الصحة العامة . وقد بدأت شركة متخصصة في مد مواسير المياه إلى المنازل، وإنشاء عدد من الخزانات الضخمة على أطراف المدينة. وبدأت أيضا دراسات جادة للوصول إلى مصادر أخرى ثابتة للمياه لسد احتياجات المدينة مستقبلا. ويبدو أن هناك اتجاها إلى زيادة طاقة محطة تحلية مياه البحر في جدة لإمداد مكة باحتياجاتها، أو إنشاء محطة أخرى تخصص لمدينة مكة وحدها. كما تجري دراسة للمياه الجوفية حول مكة .

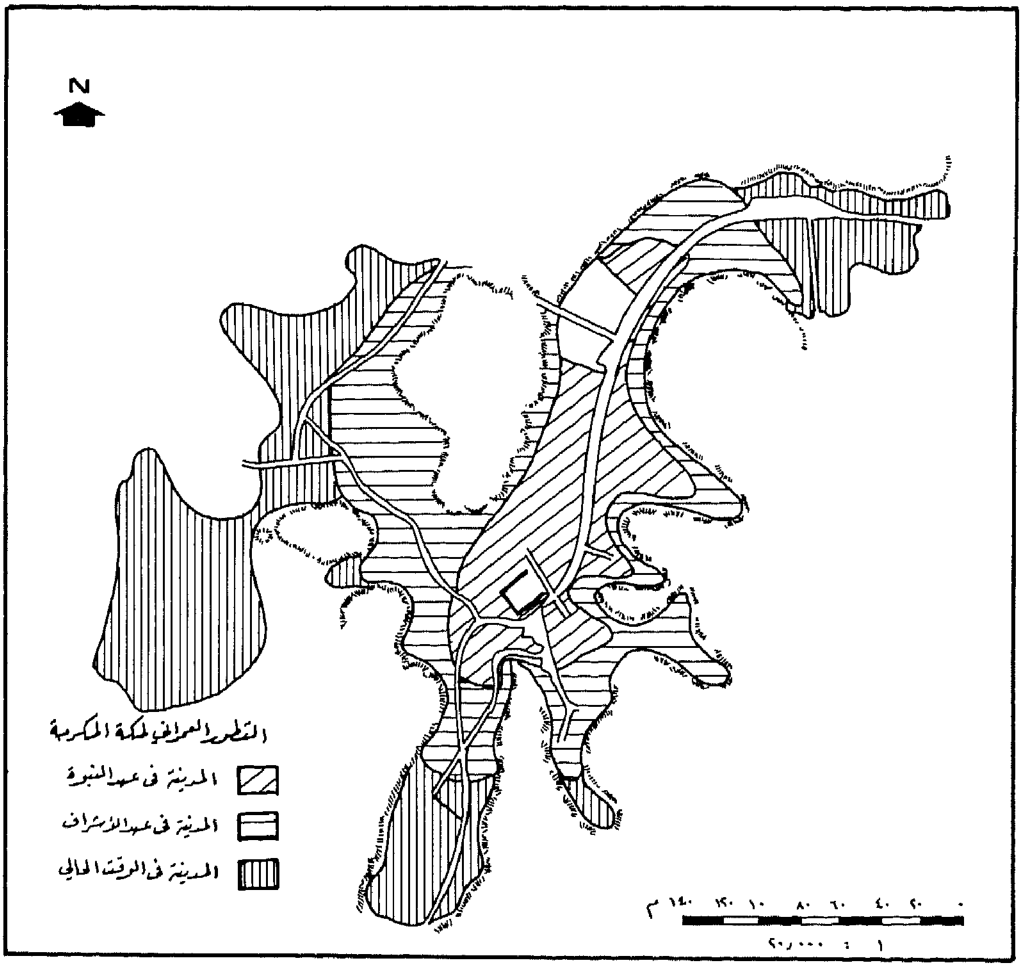
نمو المدينة وتطورها :

مكة المكرمة من أهم مدن السعودية وأقدمها سكنا، وهي ثالثة مدن المملكة من حيث السكان (٣٣٦٨٠١ نسمة حسب تعداد عام ١٩٧٤م) بعد كل من الرياض وجده .

فمنذ أسكن إبراهيم أهله في هذه المنطقة والناس يتوافدون عليها، خاصة بعد بناء الكعبة، وتفجر بئر زمزم إلى جوارها .

وكان العرب وغيرهم يتوافدون على مكة للحج والتجارة، مما ساعد على زيادة عدد السكان واتساع مساحتها كثيرا تبعا لذلك، وظهور أحياء عديدة في مختلف العصور .

وقد عني الجغرافيون العرب بوصف مكة على عهد النبي، فذكروا أن الحرم كان مركز الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، شأنها في ذلك شأن مدن العصور الوسطى التي كانت الكاتدرائية أو الكنيسة في وسطها وإلى جانبها أسواق المدينة المركزية ومساكن الحرفيين ومحلاتهم[١٢] . فكان يحيط بالكعبة منازل قريش مقسمة على أساس النسب، فكان شعب بني هاشم مثلا في شمال شرق الحرم،وبهذا كان أقرب إلى المعلاة، وكانت المساكن تبنى على سفوح المرتفعات المشرفة على الوادي وشعابها. ويقول القرطبي في كتابه «الإعلام»: «إن مكة كان مبدؤها المعلاة، ومنتهاها من جهة المسفلة لصق مجرى العيون، ونهايتها الشبيكة من جهة جدة،


N
التطور العمراني لمكة المكرمة
المدينة في عهد النبوة
المدينة في عهد الأشراف
المدينة في الوقت الحالي
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠ ١٢٠ ١٤٠ م
١ : ٢٠٫٠٠٠

وعرضها وجه جبل يقال له ـ في عهده ـ جبل جزل، وقد سماه الأزرقي الجبل الأحمر» كما ذكر القرطبي بأن مكة لم تكن مسورة»[١٣] .

وعلى نحو ما ذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك: «يبلغ طول مكة من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين، ومن أجياد إلى ظهر قيقعان نحو ١½ ميل، والمسجد الحرام وسط مكة، والكعبة في وسط المسجد، وبهذا فقد أحاطت مكة بالبيت الحرام، وترتفع الجبال على جانبي الوادي، وتحيط به بحيث تحدد مداخله، ولذا لا تشاهد أبنية مكة للقادم عليها إلا وهو على أبوابها».

وقد تركز السكان حول الكعبة، فمعظم من سكن مكة قديما عاش بالقرب منها حتى يسهل الاتصال بالحجاج أو الوافدين إلى المدينة، وكذلك حتى يكون قريبا من بئر زمزم مصدر المياه الوحيد تقريبا في ذلك الوقت .

ولكن ما لبث أن تضخم حجم المدينة، وزاد اتساع رقعتها كثيرا، نظرا للزيادة السكانية الهائلة والمستمرة، وكذا لاهتمام الدولة بإعادة تخطيط مكة وشق الطرق الحديثة وخاصة الموصلة منها إلى الحرم أو منطقة مشاعر الحج، وما لبثت أحياء جديدة أن ظهرت في اتجاه كل من جدة والطائف .

والكعبة أول ما شيد في مكة المكرمة، ثم ما لبثت القبائل أن توافدت عليها للإقامة أو التجارة، واتخذت كل منها مكانا حول الكعبة وبالقرب من بئر زمزم، وعمرت مساحة محدودة من جبل هندي والقشاشية والمسعى وأجياد والسد والمصافي حتى المسيال وجزء من المسفلة صغير . أما الأحياء الأخرى البعيدة عن الحرم فقد تأخر تعميرها أو سكناها نظرا لصعوبة شق الطرق إليها لبعدها عن بئر زمزم.

وعندما حاول الناس البناء بجوار الكعبة خط لهم ابن كلاب خطا حولها عليهم ان يبنوا دونه، وأمر أن تكون هناك طرق بين هذه البيوت تؤدي إلى ساحة الحرم، كما أمرهم كذلك ألا ترتفع مساكنهم عن الكعبة لتظل مشرفة . وكانت حدود مكة في القرن الثاني الهجري كما يلي:

من جهة الشرق: القشاشية، وشعب علي، وشعب عامر، والمعلاة حتى حدود المعابدة الحالية.

ومن الشمال: الشامية والفلق وجبل هندي .

وفي الغرب : حارة الباب وجزء ضئيل من المسفلة ، وجبل عمر .

وفي الجنوب : حي أجياد بكامله .

ولم يطرأ على هذه الحدود تغيير يذكر في عهد الأمويين أو العباسيين، إلا أنه في عهد الأمويين شيدت أسوار (أبواب) لمكة في المعلاة والشبيكة والمسفلة .

وفي عهد العثمانيين لقيت مكة عناية فائقة، فمدت إليها المياه العذبة من اماكن بعيدة كعين زبيدة مثلا. وكذلك عني بالمسجد الحرام وبني بناية إسلامية، وتم تزيينه بالنقوش التي لا تزال ظاهرة حتى اليوم في البناء الداخلي للمسجد .

وفي عهد الأشراف ظهرت أحياء جديدة في مكة، لعل من أهمها جرول والزاهر، وتزايدت مساحة كل من المسفلة والمعابدة .

وفي ظل حكم السعوديين ساعد اكتشاف البترول في المملكة وتدفقه بكميات ضخمة على ظهور أحياء جديدة اخرى أكثر اتساعا ورفاهية، وامتدت المدينة على الطرق المؤدية إلى كل من جدة والطائف. ويقدر أن مكة المكرمة قد تضاعفت مساحتها خلال نصف القرن الأخير، كما تم وضع تخطيط لها أعده مكتب تخطيط المدن بالمملكة. وقد اتسعت المدينة بذلك إلى مشارف منى، وضمت منطقة الحوض (العزيزية) والعدل والخانسة والزهراء ... إلخ .

ويرى الباحث أن نمو المدينة خلال الفترة الأخيرة وخاصة منذ بداية الخمسينات من القرن الحالي وتطور العمران بها يعود إلى الأسباب الآتية:

١ ـ العامل الافتصادي

٢ ـ العامل الديني والثقافي

٣ ـ توافر الأمن والاستقرار بالمملكة .

أولا : العامل الاقتصادي :

كانت على طريق التجارة بين الشام واليمن(١٤) مدينة مكة المكرمة منذ بداية تعميرها محطة، وقد استدعى ذلك ضرورة توفير الأماكن المناسبة لسكنى التجار وإقامتهم، وعلى هذا

فقد نشطت حركة العمران بالمدينة منذ نشأتها. وفي الوقت الحاضر ازدحمت مكة المكرمة بمئات المحال التجارية وتوكيلات الشركات العالمية وفروع البنوك المختلفة. هذا بالإضافة إلى قيام بعض الصناعات الخفيفة التي تخدم الوظيفة الدينية للمدينة. كما أدى ارتفاع دخل الفرد في المملكة، وزيادة قدرته الشرائية وإقباله الشديد على استخدام كل أجهزة العصر التي توفر له الرفاهية والتقدم إلى اتساع رقعة المدينة واتجاه السكان إلى البناء خارجها. ويتخذ نمط التخطيط في الضواحي الجديدة شكل الفيلات التي تحيط بها الحدائق الواسعة .

ثانيا: العامل الديني والثقافي :

ويعتبر من أهم عوامل نمو المدينة وتطورها، وذلك نظرا للزيادة المضطردة في أعداد حجاج البيت والمعتمرين إليه كل عام، مما استلزم ضرورة إقامة الفنادق والمساكن لإيوائهم، وشق الطرق المرصوفة والواسعة إلى منطقة الحج في منى وعرفات أو إلى جبل النور وغيره من المعالم الإسلامية بمكة. وفي سبيل تحقيق ذلك قامت الحكومة السعودية بنزع ملكية مساحات هائلة من الأراضي، وهدم آلاف المساكن التي كانت تعيق التخطيط الحديث للمدينة، وتعويض أصحابها عنها بمبالغ ضخمة حتى يمكنهم إنشاء مساكن أخرى في مناطق التعمير الجديدة على أطراف المدينة، والتي زودتها الحكومة بمختلف الخدمات التعليمية والصحية وغيرها، وشقت إليها الطرق المرصوفة .

ولما كان موسم الحج يعتبر من مصادر الدخل الهامة لسكان المدينة فقد اهتم المطوفون والتجار بصفة خاصة بإنشاء عمارات حديثة خصصت لسكنى الحجاج خلال موسم الحج فقط، بينما تظل شبه مغلقة بقية شهور السنة . وفي هذا نلاحظ الارتباط الوثيق بين الدين والأعمال التجارية، وهو يشبه ما حدث في أوائل العصور الوسطى في أوربا عندما كانت الهيئات التجارية تحاكي المنظمات الدينية في تنظيم قواعدها التجارية، والتي كانت قائمة على أسس ديرية، وكانت تقتضي ذات الانقطاع الشديد ولكن ابتغاء للربح المادي. وكان من المهام الرئيسية لفرسان المعبد (Knights temple) أن يؤدوا عمل وكلاء النقل ورجال المصارف .

أما عن أثر العامل الثقافي في نمو المدينة فلقد كان للنهضة التعليمية التي شملت المملكة، والاهتمام المتزايد بإنشاء المدارس والجامعات، أثره الكبير في اتساع رقعة مكة، لما استلزمه ذلك من إقامة مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية، ثم إنشاء جامعة الملك عبدالعزيز (كليتا التربية

والشريعة) في منطقة الحوض، وتخصيص مساحات كبيرة لمنشآتها المختلفة. وكذلك إنشاء معهد المعلمين بالقرب من الجامعة. وقد تبع ذلك بطبيعة الحال إقامة مساكن للطلبة، مما كان له أثره في ازدهار المدينة عامة ومنطقتي الحوض والعزيزية خاصة .

ثالثا: توافر الأمن والاستقرار :

ولا شك أن هذا العامل له أثر كبير في نمو مدينة مكة وتطور العمران بها، وخاصة منذ تولي السعوديون حكم البلاد. فلم تكن سيطرة السابقين لهم لتمتد إلا على مساحات قليلة حول مراكز الاستقرار في البلاد. ولذلك فقد اتجه السكان بعد أن اطمئنوا إلى حكامهم وعلى أموالهم إلى التوسع في البناء على أطراف المدينة وعلى طول الطرق المؤدية إليها. وكان للحكومة جهد وافر في هذا المضمار بمساهمتها في توفير المساكن لغير القادرين أو إنشاء مساكن للذين أزيلت مساكنهم لشق الطرق الجديدة وإتمام مشاريع توسعة الحرم الشريف .

ومن خريطة اتجاهات النمو العمراني للمدينة نستطيع أن نلمح تأثير المظاهر الطبوغرافية المحلية على شخصيتها. فقد اتخذت رقعة البناء الأساسية من الوديان والشعاب مستقرا لها، نظرا لسهولة البناء وشق طرق المواصلات، وكذلك للقرب من مصدر المياه الرئيسي (بئر زمزم) فى وادى إبراهيم، ثم اتجه البناء بعد ذلك إلى التلال المحيطة بالحرم طلبا للحرارة المعتدلة والأمن، بالإضافة إلى القرب من الحرم - مصدر الرزق لمعظم سكان المدينة - وفى الفترة الأخيرة اتجه التعمير نحو الأراضي السهلية في أم الدود والحوض بسبب توافر أجهزة التكييف وانخفاض اسعار الكهرباء واستقرار الأمن. وهكذا نزلت المدينة هابطة من الكنتورات العالية إلى الكنتورات المنخفضة، أو من المناطق التلية إلى المناطق السهلية .

اتجاهات النمـو :

تتجه مكة المكرمة في توسعها العمراني على محورين رئيسيين: أول: ويتبع الطريق إلى مدينة جدة، حيث ظهرت عدة أحياء جديدة، أهمها الزاهر والزهراء والنزهة. وتشكل مساحات هذه الأحياء حاليا نحو ثلث مساحة مكة بأكملها، رغم أنه لم يبدأ تعميرها إلا منذ منتصف القرن الحالي تقريبا .

الثاني: ويتبع الطريق إلى الطائف ممثلا في أحياء النسّه والعزيزية والفيلية. وتسكل هذه الأحياء أيضا مساحة كبيرة من المدينة .

ومن أسباب اتجاه نمو المدينة على المحور الأول أنه المدخل الرئيسي لها من ناحية القرب، حيث ميناء مكة الهام ـ جدة ـ على البحر الأحمر، والذي يصل عن طريقه حجاج البحر الذين يمثلون غالبية الحجاج. كذلك فإن ميناء جدة من أهم موانىء المملكة، وتصل عن طريقه معظم البضائع الواردة إليها. وجدة أيضا متنفس طبيعي لسكان مكة، وإليها يتجهون في أسفارهم إلى خارج المملكة، وكذلك لزيارة الأطباء وقضاء كثير من متطلباتهم .

وكان من أسباب اتجاه نمو المدينة على هذا المحور أيضا توافر مياه الآبار والعيون بالمنطقة، وخصوبة التربة في الوذيان والسعاب الموجودة بها .

أما اتجاه نمو مكة على المحور الثاني فهو على الطريق إلى منطقة سعائر الحج، بالإضافة إلى استواء السطح بها... ووجود بعض المزارع والبساتين بالمنطقة، كذلك فإن اختيار موقع كليتي التربية والشريعة ىم معهد المعلمين في هذه المنطقة كان له أتر كبير في جذب العمران إليها، وما تبع ذلك من تعبيد للطريق أو إنساء خدمات ، تم تواتر أصحاب المحال التجارية إليها وإنساء بعض المستشفيات بالمنطقة ومصنع للثلج وكثير من المقاهي والمتنزهات. هدا بالإضافة إلى أن مدينة الطائف هي مصيف لسكان مكة وللحكومة كذلك، مما زاد في أهمية الطريق إليها، وبالتالي شهد حركة عمرانية واسعة خاصة في السنوات الأخيرة، حيث تمثل حاليا ما يقرب من ثلث مساحة مكة بأكملها .

وهكذا فإننا نستطيع القول بأن أكثر من نصف مساحة المدينة هي بنت نصف القرن الأخير من نموها .

مورفولوجية مكـة :

ظهرت مكة المكرمة مع بناء البيت، وارتبط تاريخها بتاريخه. كما أن تخطيط المدينة منذ أنشائها له طابع خاص، يعتمد على قداسة البيت والمركز الديني المرموق لأهل الحرم في شبه الجزيرة. ولا شك أن البيت الذي تجسدت فيه الوظيفة الدينية للمدينة كان بمثابة النواة التي

تضبط اتجاهات نمو المدينة وامتدادات شوارعها، ويظهر أثرها واضحا في تركيب المدينة خلال مراحل تطورها المختلفة. وليس هناك أي موضع يمكن أن ينافس هذه النواة من حيث قوة جاذبيتها وسيطرتها على أي تخطيط يمكن أن يوضع للمدينة حاليا أو مستقبلا .

وتتمثل أهمية ملامح تركيب مكة فيما يلي :

١ ـ الكتلة السكنية للمدينة: تبدو مندمجة أقرب إلى الشكل الدائري الذي يتوسطه الحرم، تفصل بينها الحارات الضيقة والأزقة المتعرجة، ولا تترك بينها وبين الحرم سوى رقعة صغيرة من الأرض تعرف حاليا بالمكاف . وقد حرص الناس فيما مضى على أن تكون أبنيتهم في شكل دائري حتى لا تشبه بناء الكعبة المربعة، وأن تكون تلك الأبنية أقل ارتفاعا من الكعبة، فكانت المنازل بمثابة السور الذي يحيط بالبيت. ولم يكن للحارات من وظيفة سوى تيسير حركة المشاة، والوصل بين أحياء المدينة التي كان يمثل كل منها قسما مستقلا تقريبا، شأنه شأن المدينة ككل. ولما كانت صلتها بالخارج قد تحددت مع وظيفتها الدينية وتداعياتها، فقد كانت الرغبة في إبراز أهمية قلبها الديني وراء تركيبها العمراني، حيث يظهر المسجد الحرام محاطا بسلسلة من الحلقات غير المنتظمة التي تكتنف القلب وتحميه، على حين تجعل الوصول إليه أقرب منالا عن طريق حارات ملتوية، وتشكل محيطها مع بروزات موضعها ـ وإن اتخذ عامة ـ شكلا مستديرا شأن مدينة العصور الوسطى عامة(١٥) .

والمنازل تصطف بحيث تؤلف إطارا لوحدة سكنية مغلقة لا تعلو عن طابقين أو ثلاثة غالبا، تستمد مادة بنائها من التربة والصخور المحلية، فهي من الأحجار المسقوفة بجذوع النخيل، تتوزع داخلها الأسواق، متخذة أشكالها القديمة ذاتها، ومتبعة نمط معاملاتها الموروثة .

٢ ـ في مكة أسواق عديدة، منها اثنتان للحيوان ـ إبل وماعز وضأن ـ في المعابدة وجرول، واثنتان للخضر والفاكهة في النقا وجرول. أما أسواق الأقمشة والملبوسات والأدوات الكهربائية وغيرها ففي المنطقة المحيطة بالحرم مباشرة في أحياء النقا والقرارة والفزة وأجياد. وأسواق الحيوان أقدمها، وكانت فيما مضى خارج المدينة قبل زحف العمران إلى المناطق الجديدة، ويباع فيها أيضا ما يجلب إلى مكة من منتجات البادية من صوف ووبر .

٣ ـ جبانة المعلاة ـ مقبرة مكة الوحيدة ـ تنقسم إلى قسمين بينهما شارع رئيسي، وكل من القسمين مسور. وفي القسم الأقرب إلى الحرم مظلة للعزاء وإدارة لخدمة الموتى .

٤ ـ الجزء القديم من المدينة يتميز بعدم الانتظام، وفوق كل هذا ليس هناك تنسيق أو تخطيط معين للطرق أو المباني التي احتشدت معا في فوضى، واختلطت بغير انتظام، وأصبحت الفراغات بينها أزقة المشاة والعربات، وارتفعت كثافة السكان. وهناك إحساس باستمرار الازدحام والاضطراب(١٦)، كما لم تكن هناك حاجة إلى مراعاة مطالب مد أنابيب المياه أو المجاري أو الكهرباء. وكان من مظاهر الاتساق مع خصائص الموضع مراعاة خطوط الكنتورية بدلا من محاولة تهذيبها، أي كأن هناك نوعا من التخطيط العضوي، وهو ذلك التخطيط الذي لا يبدأ باستهداف غرض محدد سلفا، بل ينتقل من حاجة إلى حاجة ومن فرصة إلى فرصة في سلسلة متصلة من الملاءمة مع ظروف الموضع. لقد كانت «وحدة الجوار» السمة الرئيسية في تركيب المدينة الداخلي، وظلت الكعبة قلبها الخافق، بينما انقسمت كتلتها إلى أحياء شبه مكتفية بذاتها، وانقسمت الأحياء إلى أحواش. وكان بالمدينة عدد من المدارس وعدد أكبر من مكاتب الصبيان ومكاتب القراءة، بالإضافة إلى عدة مكاتب لتعليم البنات. أما الأربطة والزوايا فكثيرة، وظلت بعض المكتبات عامرة، ومن أشهرها مكتبة الحرم .

٥ ـ يتضح من شكل الشوارع في الأحياء القديمة أن وظيفة الشارع فيما مضى تختلف عنها في عصرنا الحالي، فكانت دروب السير على الأقدام في الداخل هي التي يسلكها السكان يوميا، ولذا فلم تكن هناك ما يمكن تسميته «شبكة طرق لحركة المرور»، لعدم وجود حركة مرور دائبة من ناحية، ولأن الشارع كان ضيقا تلبية لوظيفة محددة ، وهي تنقلات السائرين على أقدامهم من ناحية أخرى، ولم تكن الشوارع ضيقة وفي حالات كثيرة غير منتظمة فحسب، بل كانت تكثر بها المنحنيات الحادة والسدات، وكان من شأن ذلك أن يحد من قوة الريح، ويقل شدة التعرض لخطر الغرق بالفيضان(١٧). لقد كانت الكتلة السكنية المتجمعة ـ بما فيها من مساكن وحوانيت ومبان للحرفيين ـ هي التي تحدد امتدادات الشوارع، وكان من شأن اتجاه المساكن نحو الالتفاف حول النواة، أن يعيق ظهور ونمو نسق الوحدات السكنية، وكانت الجبال هي الحد الذي يحدد في الأصل التكوين المادي للمدينة .

٦ ـ يتميز التركيب الحالي لمدينة مكة المكرمة بأنه أكثر تعقيدا وأقل ثباتا مما كانت عليه في

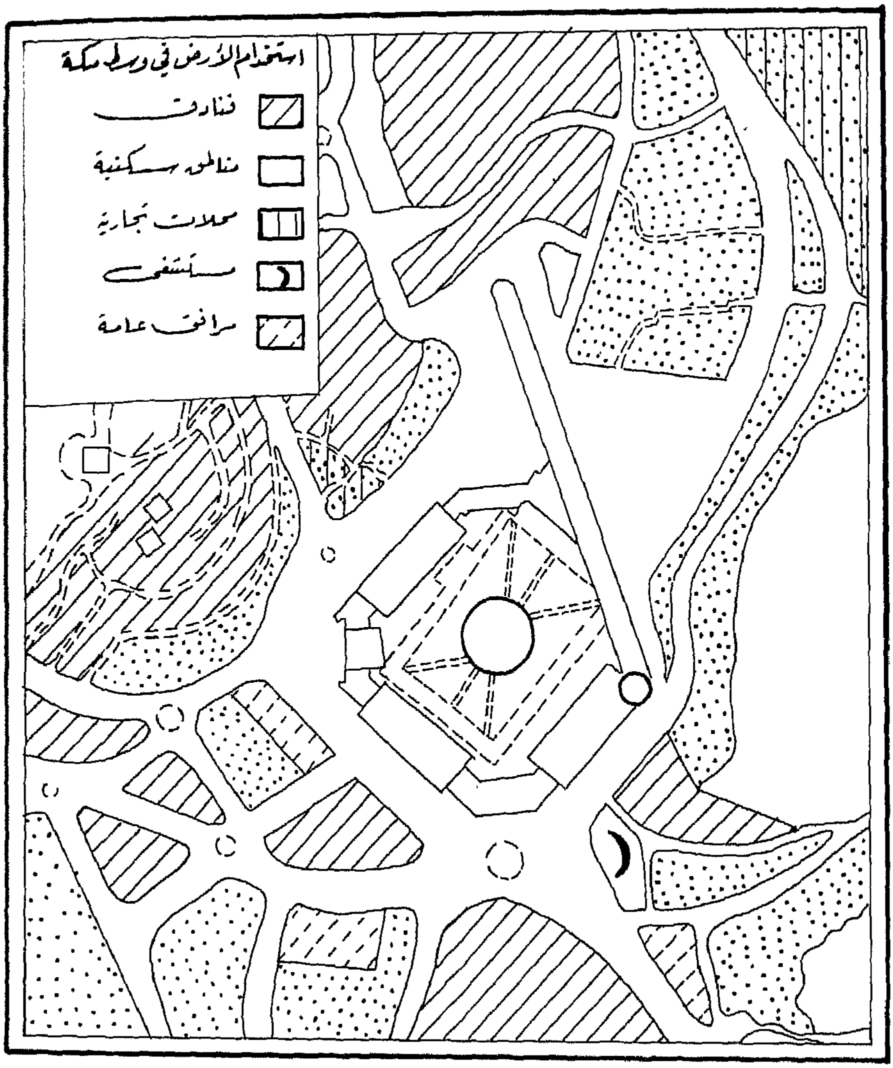
الماضي القريب، وذلك نتيجة لمجموعة من العوامل سبق الإشارة إليها من قبل. وقد حققت هذه العوامل نجاحا ملحوظا في توظيف اليد العاملة في نواحي نشاط أكثر تنوعا، كما ساهمت وسائل المواصلات الحديثة في عملية نقل حضاري عميقة الأثر، كما ساعد تكوين المدينة القابل للامتداد على اتساع مساحتها كثيرا، بحيث تستطيع تلبية واستيعاب الحاجات المتغيرة. وكان من جراء نشوء وظائف اقتصادية ومهام اجتماعية جديدة ظهور التخصص بدرجة أوضح في وظائف مبانيها، كما أنها قد أدخلت على هذه المباني من ضروب التميز ما أكسبها ـ معماريا ـ أشكالا تعبر عن تباينها ومرحلة نموها .

لقد امتدت كتلة المدينة السكنية مع محاور مواصلاتها المدينة إلى جدة والطائف ، وأصبحت هذه المحاور بمثابة إطار يحدد اتجاهات نموها وشكلها المورفولوجي في المستقبل .

٧ ـ مع نمو المدينة المتزايد والمستمر نجد أنها قد أنقسمت إلى مناطق سكنية تحيط بالحرم، وممتدة في الفترة الأخيرة مع شوارعها الجديدة، ونامية بمعدل سريع نحو المواضع الفسيحة على الطرق المؤدية إلى الطائف أو جدة. وتظهر المنطقة التجارية مرتبطة بوسط المدينة، وهي المنطقة المحيطة بالحرم، مع امتدادات أقل كثافة على طول الشوارع الحديثة، وهو ما يؤكد وظيفة القلب في هذه المدينة المقدسة، باعتباره يمثل النبض اليومي لجملة وظائفها، كما تظل المقبرة التاريخية في موقعها إلى الشمال من الحرم، وتبدو بقية وظائف المدينة الحديثة كمركز للخدمات الإدارية والفعلية موزعة على أبعاد متفاوتة من القلب متناثرة على طول محاور نموها الرئيسية .

٨ ـ رغم مظاهر النمو الحديثة في تركيب مكة ووظائفها. إلا أنها ما تزال لم تتجاوز كثيرا خصائص موضعها الطبيعية، كما أنها ما تزال أقرب للاندماج بنواتها، ويظهر وادي إبراهيم كخط طبيعي يحدد موضعها، كما أن الجبال المحيطة تمثل حدودها. ويظهر التداخل بين مورفولوجية المدينة وطبوغرافيتها في تلك الامتدادات السكنية فوق التلال المتداخلة في منطقة مكة كرؤوس من جبالها. والواقع أن أهم مظاهر التغير الحديثة في مكة المكرمة قد بدت في اتجاهين: يتصل الأول بالتركيب، والثاني بالوظائف(١٨). وقد بدأت هذه التغيرات تخضع حديثا لنوع من التخطيط لم تتضح أبعاده النهائية بعد .

٩ ـ يلاحظ أن جوهر التغيرات في تركيب المدينة المعاصر هو اتجاهها لكي تتحول إلى مدينة الشوارع التجارية، مع التمسك بالقلب الديني الذي ضبط نموها في الماضي والحاضر من


استخدام الأرض في وسط مكة
فنادق
مناطق سكنية
محلات تجارية
مستشفى
مرافق عامة

ناحية ، وسبكة النسوارع التجارية العريضة من ناحية ثانية. وهناك من الدلائل التي ترجح هذا التصور أهمها ما يتصل بعملية خلخلة المنطقة الوسطى ، وخطة إنشاء شبكة النسوارع التجارية العريضة. كما تسمل أيضا المرافق العامة وتجميل المدينة .

أ ـ خلخلة المنطقة الوسطى: وهي المنطقة التي تضم ما تبقى من المدينة القديمة وبؤرة التجارة المركزية وإحياء السكن الداخلية حول الحرم، ولقد أزيلت الكثير من معالم مكة القديمة، كما أضيفت أجزاء منها إلى المسجد، ودخلت في مساحاته خاصة بعد التوسعة السعودية الأخيرة، وأجزاء أخرى استخدمت في شق شوارع جديدة أو في توسيع أخرى قائمة .

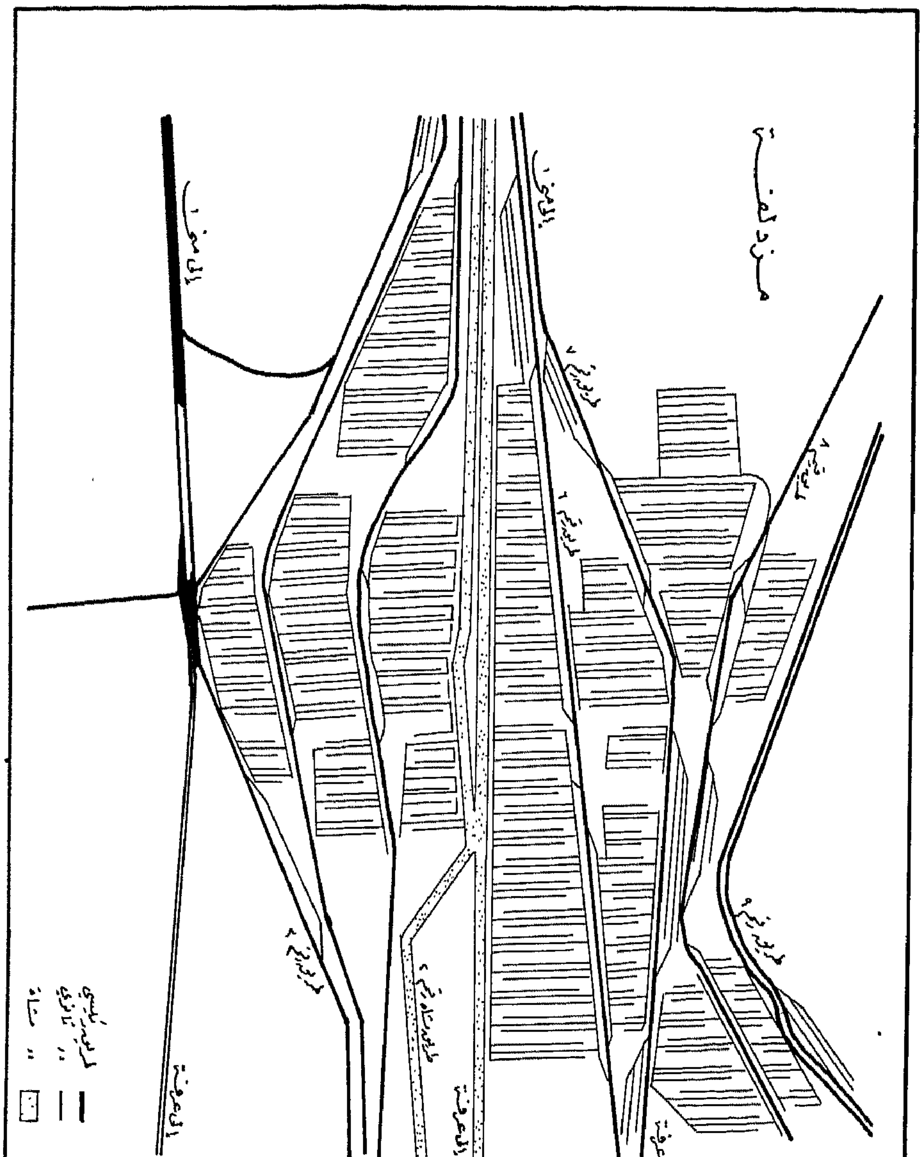
ولما كانت المنطقة الوسطى تضم نسبة كبيرة من خدمات المدينة، وأكثر من ثلث سكانها، وعددا كبيرا من المساجد الأثرية والمباني القديمة، فإن الاتجاه إلى إزالتها قد يؤدي إلى الإخلال بالتوازن المورفولوجي في تكوين المدينـة، والقائـم على أساس التفاف مباني المدينة حول الحرم .

لقد تجلت محاولات خلخلة المنطقة الوسطى في تهيئة مجموعة من أهم النسوارع، تنتهي جميعا إلى الحرم، ونقل معظم مراكز الخدمات الموجودة بها إلى هوامشها .

ب ـ تجنح التصميات الحديثة للميادين والنسوارع نحو الاتساع والانبسـاط، متميزة بالمساحات المفتوحة والميادين المستديرة، وما يتفرع منهـا من شوارع وطـرق عريضة، تشق اتجاهاتها وسط تراكمات سكنية قديمة .

جـ ـ اتجه التخطيط الجديد لمكة إلى إحاطتها بالطرق العريضة المرصوفة Ring Roads ، وهذه قد حددت شكلها مورفولوجيا، وأصبحت بمثابة محاور للنمو العمراني حاليا وفي المستقبل، وهي تصب غالبا في الطرق الخارجية التي تربطها بأنحاء الدولة .

د ـ لقد صحب امتداد المدينة الأفقي ارتفاع واضح في مسقطها الرأسي، وظهـرت الأحياء الجديدة كإطارات تحيط بنواة وأجزاء مهدمة واطئة. وعدد طوابق المنازل لا يتجاوز أربع طوابق في المنطقة الوسطى، ويتجه إلى التزايد ليصل إلى ما بين ٦ ـ ٨ طوابق على طول محاور السكن والطرق الحديثة، ثم يهبط إلى ما بين دور



ودورين في هوامش المدينة. وهناك مجموعة من العوامل تراعى في هذا المجال، منها الضوابط الخاصة بوصول المياه إلى الأدوار العليا، وكذلك وظائف المباني وتوزيع مواقف السيارات في المنطقة المحيطة بالحرم. ولكن مما لاشك فيه أن ارتفاع المباني سيكون ضروريا خاصة بالنسبة لمواجهة تزايد عدد زوار المدينة الذي وصل متوسطه في السنين الأخيرة إلى نحو مليون زائر.

هذا ويستخدم في البناء الأحجار التي يمكن الحصول عليها من المرتفعات المحيطة بمكة، وكذلك الرمال والزلط من الجهات المحيطة بها. وبدأ منذ سنوات قليلة استخدام المساكن سابقة التجهيز في البناء، مما يوفر جهدا ووقتا كبيرا، كما أنها اقتصادية في استخدام الأيدي العاملة عن الطريقة التقليدية في البناء.

١٠ ـ لعل الشكل الحاضر لشبكة الطرق والشوارع في مكة هو أبرز ما طرأ على تكوينها القديم من مظاهر التحديث والتخطيط. لقد أنشئت طرق تصل بين معظم مناطقها السكنية، ومدت الشوارع التي تفتت القلب المندمج، وتمنحه شرايين أفضل، وهيئت الميادين، ومهدت الأزقة وعبدت، وامتدت ضمن خطة مسبقة لتصل إلى أحياء السكن الحديثة، ولم تكن هذه التغيرات وغيرها مما هو مكمل لها إلا انعكاسا لتغير وظائف الطرق والشوارع، وتعبيرا عن دخول المدينة ككل مرحلة جديدة من حياتها.

ويعد الشارع العريض من أهم رموز المدينة التجارية(١٩)، ويمثل الحقيقة الرئيسية فيها، وليس من الميسور دائما وضع تصميم للمدينة طبقا لطراز معين، بيد أنه مع تخطيط بضعة شوارع جديدة عريضة كان يتسنى ـ عامة ـ إعادة تحديد طابع المدينة، لقد اتيح في التخطيط الجديد استخدام الخطوط المستقيمة، ووحدات للمباني ذات مسقط رأسي مرتفع، منتظمة الشكل متماثلة المساحة عموما، إلا حينما كان انحراف اتجاه الشوارع سببا في جعل أشكال الوحدات متعددة الأضلاع والزوايا، لقد أصبحت الشوارع العريضة تمثل الإطار الأفقي للمباني الرئيسية التي تحدد معالم مكة، وضحي بالكثير من خصائص المدينة القديمة من أجل أغراض حركة المرور والتجارة، وأصبح الشارع هو وحدة التخطيط وليست منطقة الجوار أو الحي ووسعت وشقت عدة شوارع. وقد تم الانتهاء من توسعة الحرم، وذلك بإزالة جميع المباني التي كانت تتصل بالمسجد أو قريبة منه.

المرافـق العامة :

وتعد المرافق العامة من أهم مظاهر التغير في التركيب المعاصر للمدينة، فهي تحظى باهتمام كبير، يتمثل في اعتمادات مالية ضخمة بهدف متابعة معدلات نمو عمران المدينة من ناحية، وتحقيق مستوى عال من أداء هذه المرافق من ناحية ثانية. ورغم ذلك فهي عامة تواجه عددا من المشكلات، ويشمل مصطلح المرافق العامة «المياه والمجاري ، وتصريف مياه السيول، والكهرباء».

وقد سبق دراسة موضوع المياه عند دراسة موضع مكة، ولذلك سنركز هنا على دراسة المرفقين الآخرين :

أ ـ المجاري وتصريف مياه السيول :

قطع تنفيذ شبكة المجاري المدنية في مكة شوطا كبيرا، ويسير العمل نحو إنجاز الخطوط الفرعية والتوصيلات المنزلية .

وليس من شك في أهمية مشروع المجاري الحديثة بالنسبة لرفع المستوى الصحي وحماية المباني والمنشآت العامة والمحافظة على سلامة أساساتها فضلا عن المظهر الحضاري للمدينة .

وبالنسبة لتصريف مياه السيول فهي تشبه تماما عملية تصريف المجاري إلا أنها لا تحتاج إلى عملية تنقية، بل تجمع في أنابيب تسير فيها المياه بالانحدار الطبيعي إلى خارج مكة، أو تحويل مجاري السيول إلى مناطق بعيدة عنها. ويدخل ذلك أيضا ضمن مشروعات المحافظة على الصحة العامة، حيث إن عدم تصريف السيول يجعلها تتجمع في الأجزاء الوطيئة مسببة وجود مستنقعات تصبح مباءات لتوالد البعوض، فضلا عن إعاقتها للمرور والمواصلات، حيث يتسبب عنها تكاثر الأوحال، خصوصا في الطرق الترابية والمنافذ الضيقة فضلا عما تسببه من أضرار لأساسات المباني .

ب ـ الكهـرباء :

تتركز مسئولية توزيع القوة الكهربائية في مكة في الشركة السعودية الوطنية للقوى الكهربائية، وهي شركة خاصة (الجفالي)، تأسست عام ١٣٧١ هـ .

وتأتي القوة الكهربية من محطة واحدة على طريق التناعيم خارج حدود منطقة الحرم، ويتم تزويد منى من هذه المحطة أيضا ، والتي تبلغ طاقتها الإنتاجية ٣٩ مليون واط ، وتعمل المحطة على الديزل . ويستفاد من الإحصاءات أن :

٧٢٪ من مساكن مكة ومرافقها المختلفة تحصل على الكهرباء من الشركة مباشرة بواسطة عدادات المشتركين .

١٪ من المساكن تحصل على الكهرباء من أجهزة خاصة لتوليد الكهرباء ، ومعظمها يقع في أطراف المدينة .

٣٧٪ من المساكن لا تحصل على الطاقة الكهربائية ، وتتركز بصفة خاصة في ضواحي مكة والجبال المحيطة بها .

أسعار الأرض في مكة :

لما كانت مكة في منطقة جبلية تخترقها عدة أودية ضيقة ، فقد كان لهذا تأثيره الكبير على أسعار الأرض بها، فالطلب على الأرض يزداد باستمرار نظرا لنمو المدينة من جهة، وازدياد أعداد السكان من جهة أخرى عاما بعد عام ، سواء المقيمون بها أو الوافدون إليها في موسم الحج . وهذا يتطلب مزيدا من الأراضي ـ المحدودة أصلا ـ سواء بالتوسع الأفقي أو الرأسي .

ومن دراسة ميدانية قام بها الباحث تبين أن هناك عدة عوامل تتحكم في تباين واختلاف أسعار الأراضي في مكة المكرمة هي :

١ ـ **البعد عن الحرم** : يتناسب سعر الأرض تناسبا طرديا مع زيادة القرب من الحرم، فالمعلوم أن مكة قامت أصلا لتكون مدينة دينية حول المسجد الحرام، لذلك فإن السكان وكذلك الحجاج الذين يقدمون إلى مكة يختارون أقرب منطقة من الحرم، مما أدى إلى رفع أسعار الأراضي في المناطق المحيطة به . لذلك نجدها تمثل رأس القائمة في سعر الأرض في مكة، حيث يتراوح سعر المتر المربع ما بين ٨ ـ ١٢ ألف ريال . وهذه أسعار مرتفعة جدا ليس لها مثيل في أي منطقة أخرى . ولا عزاء إذا ما ارتفعت الأسعار إلى أكثر من هذا .

٢ ـ **الأسواق التجارية** : وهو عامل مكمل أحيانا للعامل الأول، حيث تتركز معظم

الأسواق التجارية في مكة حول الحرم، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الأرض للفرص الكبيرة في بناء محلات تجارية عليها وتأجيرها، كما هو الحال في منطقة الغزة حيث يتراوح سعر المتر بين ٤ ـ ٦ آلاف ريال . إلى جانب وجود بعض الأسواق في أحياء أخرى مثل أجياد والشبيكة والسوق الصغير ، مما يضفي عليها أهمية وإقبالا يرفع من أسعار الأراضي القائمة عليها أو المحيطة بها .

٣ ـ **الموقع والواجهات على الشارع الرئيسي** : مما لا شك فيه أن الأراضي التي لها واجهة أو أكثر على شارع رئيسي تكون أسعارها أكبر من تلك التي ليس لها واجهة على الشارع الرئيسي. ويلاحظ ذلك من خريطة أسعار الأرض، حيث نجد أن الأراضي الواقعة على الشارع أعلى في أسعارها بكثير من تلك الأراضي الداخلية .

٤ ـ **توفير الخدمات العامة** : مثل الكهرباء والماء والمواصلات ... ففي أطراف المدينة يتجلى أثر هذا العامل واضحا، كما أن المواصلات بصفة خاصة لها تأثير بالغ . فالمناطق الجبلية يصل سعر المتر المربع فيها إلى أدنى حد له (من ١٠ ـ ١٠٠ ريال) على الرغم من قربها من الحرم ، ولكن صعوبة الوصول إليها، وقلة ورود الماء لها، وصعوبة إقامة المساكن فيها، أدى إلى انخفاض سعرها بهذا الشكل . وهنا يمكن ربط هذا العامل بعامل آخر جديد وهو طبيعة السطح، فالمناطق المستوية أعلى سعرا من المناطق العالية المتضرسة .

وثمة جانب آخر هو أن تحسين الطرق أدى إلى ارتفاع في أسعار الأرض، فشق الطرق وتزفيتها وإقامة خزانات المياه يعملان على رفع السعر على جانبي الطريق . وإذا نظرنا إلى خريطة أسعار الأرض في مكة نجدها تتفق إلى حد كبير مع العوامل السابق ذكرها . وتتراوح أسعار الأرض ما بين ١٠ ريال إلى ١٢ ألف ريال للمتر المربع . ويمثل الرقم الأول (١٠ ريال) المناطق التي تحتل أعالي الجبال البعيدة عن مركز المدينة، بينما يمثل الرقم الثاني المناطق المجاورة للحرم مباشرة ، حيث تتوافر العوامل المختلفة من قرب للحرم ، وقرب للأسواق التجارية ، ووجود الشوارع الرئيسية التي تشبه الشرايين الكبيرة التي تسير عليها مواصلات المدينة وتوفر الخدمات العامة الأخرى .

ويمكن التدليل على ذلك من أن سعر المتر في الشامية (أقرب الأحياء إلى الحرم) يصل إلى

سبعة آلاف ريال ، ولكنه ينخفض في المناطق الداخلية في الفلق والقرارة إلى ثلاثة آلاف ريال . كما أن من عوامل ارتفاع السعر في الشامية وكذلك المناطق الأخرى المحيطة بالحرم تركز العمائر السكنية الكبيرة التي تستخدم في معظمها لسكنى الحجاج .

كما أنه في كل من الغزة والشبيكة يصل السعر من خمسة إلى ستة آلاف ريال للمتر المربع، ولكنه ينخفض بالبعد عن الحرم .

أما القشاشية وسوق الليل فإن سعر المتر فيهما مرتفع جدا نظرا للقرب الشديد من الحرم، ولوجود الأسواق التجارية بها أو بالقرب منها .

وفي شعب علي يصل سعر المتر في الأجزاء المتاخمة للشارع الرئيسي إلى ٣ آلاف ريال ، ولكن السعر ينخفض كلما تراجعنا نحو الداخل ، حيث يصل إلى ألف ريال فقط .

أما في حي أجياد جنوب الحرم فترتفع أسعار الأرض (بين ٤ ـ ٦ آلاف ريال)، وهي منطقة واسعة تمتاز بأنها منطقة سكنية إلى جانب أنها منطقة فنادق ومنطقة تجارية أيضا .

هذا بالنسبة للمناطق المحيطة بالحرم، أما إذا استعرضنا بقية أحياء مكة فإننا نلحظ تناقصا مستمرا في سعر المتر ، فيما عدا المناطق التي توافرت لها بعض العوامل وأكسبتها أهمية ما، فارتفعت أسعار الأرض بها .

ففي حي المسفلة يبلغ متوسط سعر المتر ١٥٠٠ ريال، ولكنه في بعض المناطق القريبة من الحرم أو التي تقع على شارع رئيسي يبلغ سعر المتر أكثر من ٣٥٠٠ ريال ، بينما قد يقل السعر عن ألف ريال في المناطق الداخلية من الحي أو تلك التي تتميز بوعورتها وعدم توافر الخدمات العامة بها ، وفيما يلي متوسط أسعار الأرض في بعض أحياء مكة :

شعب عامر	٢٠٠٠ ريال	المسلاوي	١٠٠٠ ريال
الفلق	٢٥٠٠ ريال	الخانسة	٧٠٠ ريال
القرارة	٣٠٠٠ ريال	العدل	٥٠٠ ريال
السليمانية والحلقة القديمة	٢٠٠٠ ريال	الروضة والششنة	٤٠٠٠ ريال
الجميزة	١٥٠٠ ريال	الجعفرية	١٥٠٠ ريال

ويعتبر الجزء الأوسط من المعابدة منطقة تجارية وسوقا رئيسية هامة للأحياء المجاورة مثل الملاوي والخانسة والروضة والعدل، ولذلك فإن سعر المتر بها لا يقل عن ٢٥٠٠ ريال .

أما الروضة والششتة فإن ارتفاع سعر المتر يعود إلى أنها من مناطق السكنى المفضلة والحديثة التعمير، والتي يقبل عليها تجار المدينة وأثرياؤها، بالإضافة إلى قربها من منطقة شعائر الحج، وتفضيل الحجاج الإيرانيين الإقامة بها، وارتفاع قيمة الإيجارات .

أما الأحياء الواقعة إلى الغرب والشمال الغربي من الحرم، والتي تضم كلا من الحجون والعتيبة والأبياري وجرول والتسير والزهراء والنزهة وشارع منصور، فإننا نلاحظ بصورة واضحة انخفاض قيمة الأرض عن تلك الأحياء الواقعة إلى الشرق أو الشمال الشرقي من مكة، بالرغم من تساوي المسافة عن الحرم، ووجود الأسواق والخدمات بنفس النسبة تقريبا .

ويمكن تعليل ذلك بوقوع الأحياء الأولى قريبة من المشاعر المقدسة مثل منى والمزدلفة، وذلك بعكس الأحياء الأخرى التي تقع في الجانب الآخر، وعلى كل فإنه في لقاء مع رئيس لجنة التقديرات التابعة لأمانة العاصمة أجاب بأن أعالي مكة خير من أسافلها حسبما ورد في بعض الأحاديث (على حد قوله)، ولذلك فالناس يقتدون بما وصلهم من أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

في حي العزيزية نلاحظ إقبالا شديدا على البناء وشراء الأراضي، ويرجع ذلك إلى رصف الطرق، ووضع تخطيط جيد للمنطقة، وتوافر الخدمات بها، وخاصة بعد إنشاء خزان للمياه يكفي احتياجات الحى، هذا بالإضافة إلى قيام جامعة الملك عبدالعزيز فى المنطقة وكذلك معهد المعلمين، ووجود بعض المستشفيات الخاصة. ويقدر سعر المتر حاليا في حي العزيزية بنحو ٣٠٠٠ ريال، ولم يكن يتجاوز ٥٠ ريالا منذ ست سنوات فقط .

عدد الطوابق: يلاحظ بأن عدد الطوابق ينحدر تدريجيا من قلب المدينة إلى الأطراف، فعدد الطوابق يصل إلى عشرة أدوار أحيانا في وسط المدينة بالقرب من الحرم، حيث الاستخدام الكثيف للأرض وسعرها المرتفع ، وينخفض إلى دور أو دورين في الأحياء البعيدة عنه حيث الكثافة السكانية المنخفضة وسعر الأرض القليل نسبيا .

استخدام الأرض في مكة المكرمة :

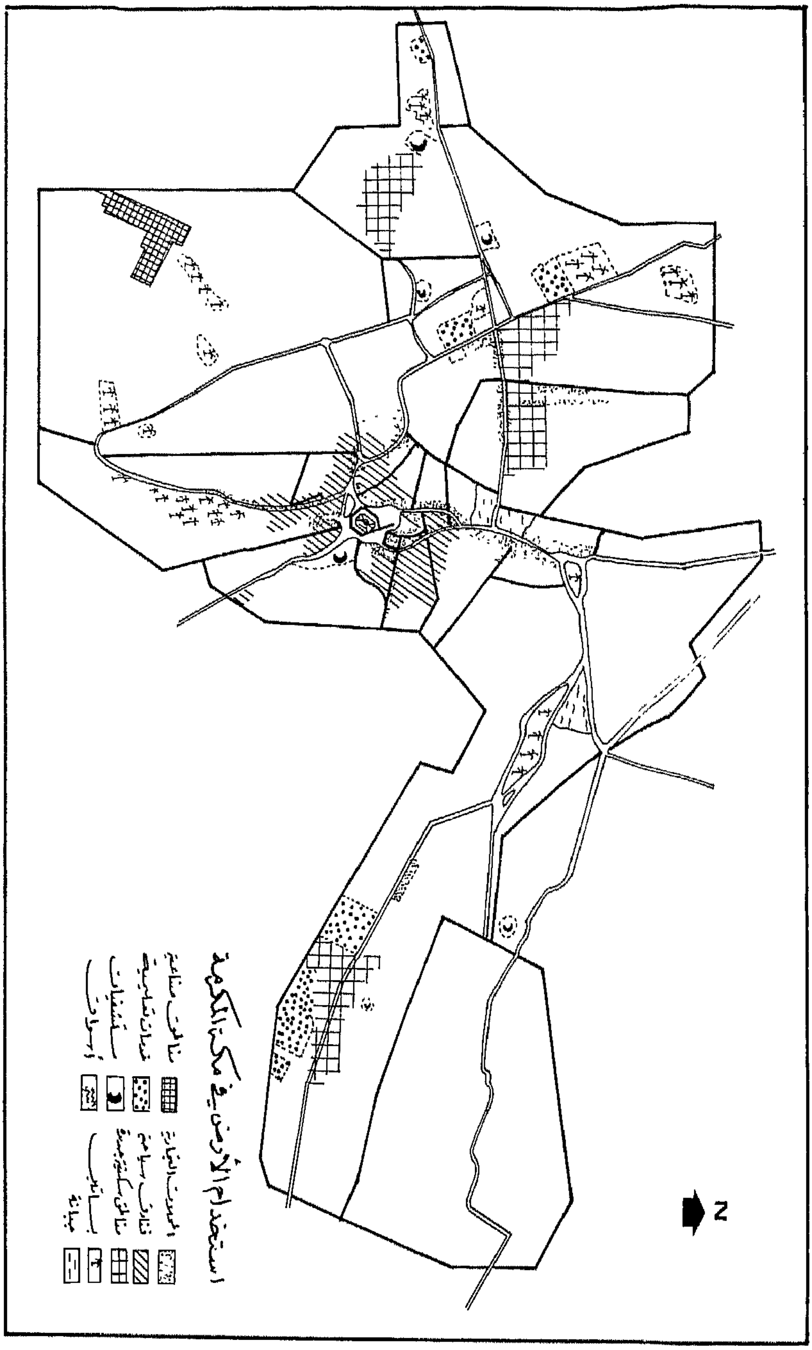
ونعني هنا استخدام الأرض في إقامة المساكن أو مراكز الخدمات العامة (تعليم ـ أمن ـ مواصلات ـ صناعة ـ زراعة ـ محلات تجارية ـ أماكن عبادة.. إلخ) .

ومن دراسة استخدام الأرض في مكة المكرمة يتبين لنا أنه قد طرأ عليها كثير من التغيرات، خاصة بعد امتداد كتلتها السكنية مع محاور مواصلاتها الحديثة، وتضخم عدد سكانها، وزيادة الاهتمام بالتعليم والمرافق العامة وخدمة زوار البيت الحرام .

وتنقسم مكة المكرمة إلى مناطق سكنية Residential Areas تحيط بنواتها القديمة (الحرم الشريف)، وممتدة مع شوارعها الجديدة المرصوفة نحو أحيائها الحديثة التعمير، وهو ما يؤكد وظيفة القلب في هذه المدينة، باعتباره يمثل النبض اليومي لجملة وظائفها الرئيسية. التجارية، والدينية، والسكنية، وتظل مقبرتها التاريخية المعلاة) في موقعها إلى الشمال من الحرم... وتبدو بقية وظائفها الحديثة كمركز للخدمات الإدارية والتعليمية موزعة على أبعاد متفاوتة من القلب متناثرة على طول محاور نموها الحديثة .

وتستوعب المنطقة الوسطى لمكة نحو ثلث سكان المدينة، كما أن مساكنهم والمرافق التابعة لها تحتل نحو ٧٠٪ من المساحة المبنية Builtup Area الحالية. وبالنسبة للسكن فإن نحو ٤٠٪ من جملة وحداته تحتاج لتغييرات أساسية، وهناك فرصة لنقلها إلى المساحات الفضاء في الشرق والشمال والغرب من المنطقة الوسطى وعلى طول امتدادات محاور نمو المدينة .

والمعروف أن الأصل في وظيفة المركز العمراني غالبا هو السكن، ولكن بتطور وسائل الحياة تنقسم هذه الوظيفة الأصلية وظائف أخرى، تتعلق بالتخصص الحرفي مثل التجارة والصناعة والحرف الأخرى، وكذلك بالخدمات الإدارية والتعليمية والثقافية والدينية وغيرها... ومن هنا تقوم مع المساكن محلات لممارسة هذه الوظائف الجديدة التي طرأت على المدينة أو القرية ... ومدينة مكة نشأت في موقع ممتاز من الناحية التجارية، كما أنها أيضا قامت في موقع مقدس وهام ... وبعد استقرار الأمن بالبلاد بدأت مساكن المدينة تنساح في مناطق جديدة، مما أدى إلى اتساع رقعتها كثيرا، وانتشرت الخدمات والأسواق والمساجد وغيرها في هذه الجهات. يضاف إلى ذلك أن أجهزة التخطيط بدأت تشق الشوارع في المباني المتوسطة والقديمة باتساع


استخدام الأرض في مكة المكرمة
المنطقة التجارية
فنادق سياحية
مناطق سكنية
بساتين
جبانة
مناطق صناعية
خدمات تعليمية
مستشفيات
أسواق
N

واضح، وبدأت تضع مخططا جديدا أيضا يتلاءم مع تطورات المستقبل. ومعنى ذلك أن الأحياء القديمة المحيطة بالحرم بدأت تحدث فيها عمليات تغير واضحة من شق شوارع جديدة واسعة إلى إقامة محلات جديدة وغير ذلك .

ويمكن أن نصف استخدام الأرض في مكة كما يلي :

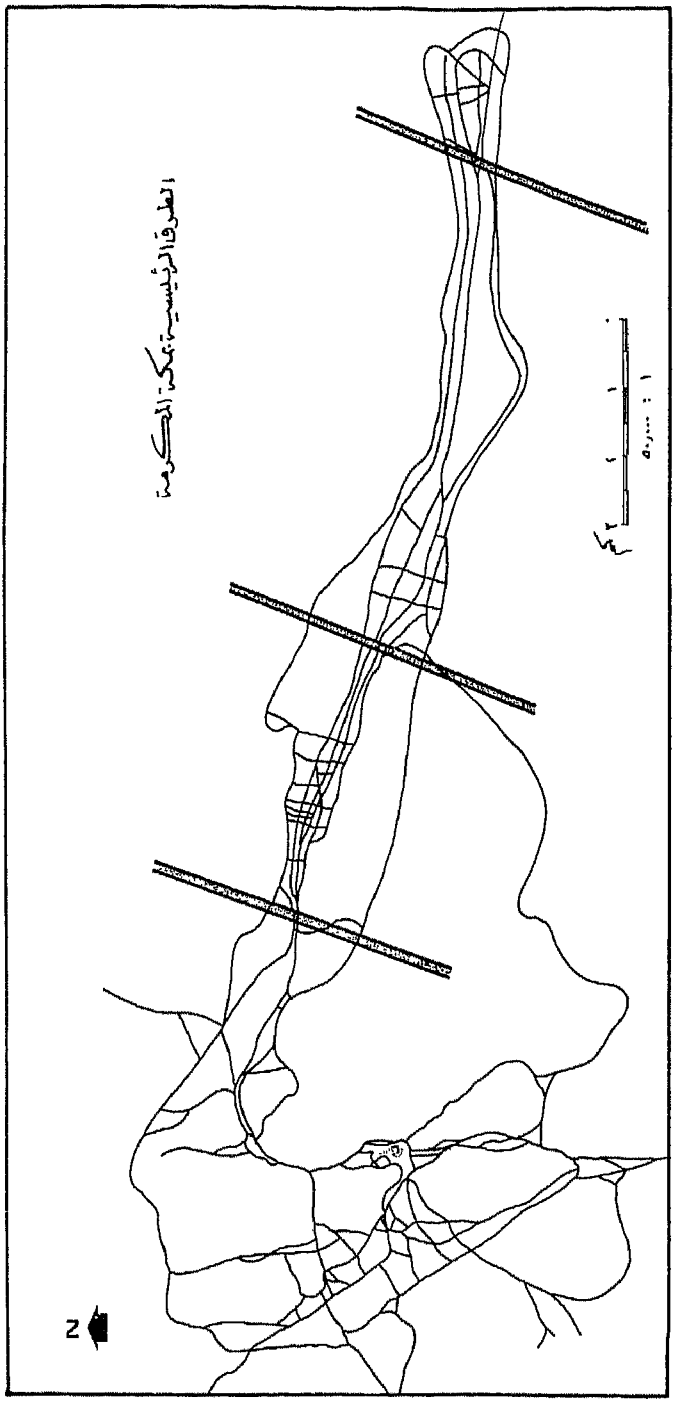
أولا: **المساكن** : وتؤلف القسم الأعظم من المدينة القديمة وجزءا كبيرا من المدينة الحديثة، وهناك توسع في الوقت الحالي في عمليات البناء في الشرق والغرب والشمال نتيجة للظروف الطبيعية والتجارية التي أشرنا إليها فيما سبق، ولكن يلاحظ أن المباني الحديثة تسير وفق مخطط عمران وسعته البلدية، وتسير على هداه الأجهزة المختصة وكذلك الأهالي، والمساكن إما أن تكون طينية قديمة أو مسلحا وهي ملك لأصحابها، وحوالي ٥٠٪ منها بالإيجار نتيجة لتزايد عدد العاملين في الدوائر الحكومية والقادمين من خارج مكة .

ثانيا: **أماكن التجارة**: وتتركز في المنطقة الوسطى القريبة من الحرم، أي في المنطقة التي تصل بين المباني القديمة (النواة) وبين المباني المتوسطة، وتتركز في شارع الغزة أساسا .

وتشمل التجارة هنا محلات الأجهزة الكهربائية والملبوسات والبقالة والسجاجيد وغيرها، كذلك يوجد أسواق للحيوانات والدواجن ومحلات بيع اللحوم في وسط المدينة. ولا يقتصر وجود المحلات التجارية على هذه المنطقة، وإنما توجد مبعثرة في أماكن أخرى كذلك، ولكنها تتركز في هذه المنطقة الوسطى من المدينة .

ثالثا: **مناطق الصناعة** : ويطلق عليها المنطقة الصناعية، ولكنها ليست صناعية بالمعنى المعروف، إذ إنها لا تعدو أن تكون مجموعة من الورش لتصليح السيارات وعمليات اللحام. كذلك توجد بعض محلات النجارة، وتقع هذه في الجهة الغربية من مكة .

رابعا: **المباني الإدارية**: وتنتشر في مختلف أنحاء المدينة، ولكنها تتركز في المباني المتوسطة. كما أن هناك بعض الإدارات (مثل إدارة تعليم البنات) التي توجد في الأحياء الجديدة، يضاف إلى ذلك أن الكثير من قطع الأراضي في المناطق الجديدة قد حجزت للأغراض الإدارية. ومن الملاحظ أن مكة المكرمة باعتبار أنها عاصمة للأمارة يوجد بها فروع لكافة الدوائر الحكومية فيما عدا وزارة الخارجية .


الطرق الرئيسية بمكة المكرمة

خامسا: المباني التعليمية: يوجد في مكة مدارس عديدة، تشمل كافة مستويات التعليم العام الابتدائي والمتوسط والثانوي، ويلتحق بها البنون والبنات، وكذلك يوجد بها كليتا التربية والشريعة التابعتان لجامعة الملك عبدالعزيز، ولكل منها قسم للبنات .

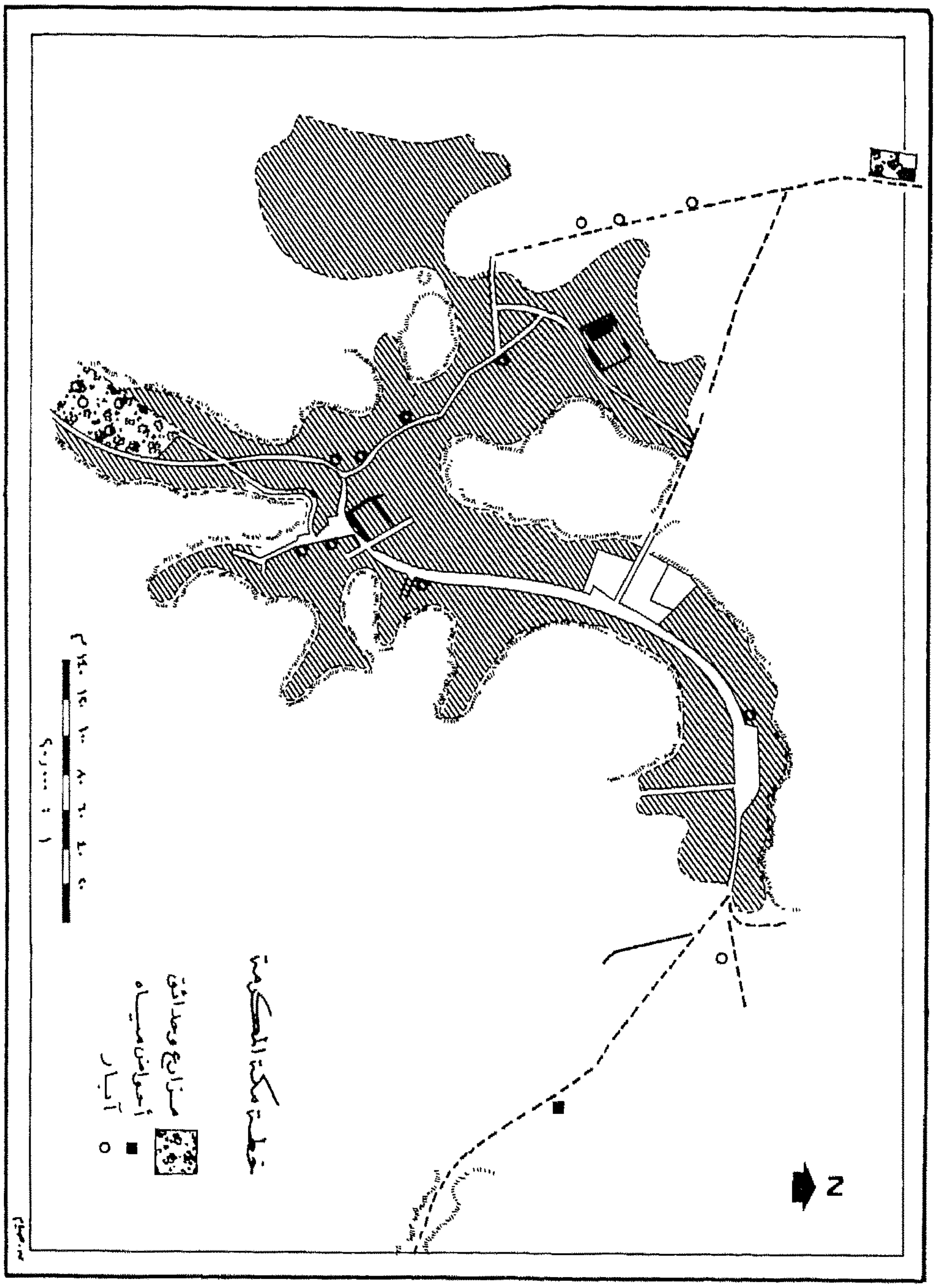
سادسا: المباني الخاصة بالخدمة الصحية: يوجد بمكة مستشفيان رئيسيان وثلاث مستوصفات ومنطقة تشرف على الشئون الصحية بالأمارة. وأهم المستشفيات مستشفى أجياد بالقرب من الحرم، هذا بالاضافة إلى مستشفى للطوارئ وعدد من المستشفيات الخاصة .

سابعا: المباني الدينية : تنتشر المساجد في كافة أحياء المدينة، ولكن الحرم هو أهم المباني الدينية جميعا، وتقام فيه صلاة العيد. كما يوجد بالمدينة مركز لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمساجد جميعا مبنية بالطوب أو الحجر ومسقوفة بالمسلح أو الأخشاب وبها مراوح لتجديد الهواء .

ثامنا : المقابر: توجد بمكة مقبرة واحدة هي مقبرة المعلاة، وإن كانت مقسمة إلى جزئين بينهما شارع مرصوف وكلاهما حوله سور .

تاسعا : الترفيه والرياضة : وتقتصر على نادي الوحدة في غرب مكة ومتنزه كبير (متنزه البلدية) وبعض الكازينوهات والمقاهي في منطقة الحوض، ويشمل المخطط الجديد مساحات مخصصة للحدائق والمتنزهات .

عاشرا: الطرق : وأهمها الطريقان الرئيسيان إلى جدة ـ الطائف، تم تاتي بعد ذلك الطرق الرئيسية داخل مكة ، وأهمها: شارع الفزة (الذي يبدأ من الحرم إلى مركز البريد)، وشارع المنصور، وشارع الجفاير وتتصل هذه الطرق الرئيسية بالطرق الأخرى الفرعية، مكونة شبكة داخل المدينة. وتجري الآن عمليات شق الشوارع وفق المخطط المقترح الجديد، كما أن طريق مكة ـ منطقة شعائر الحج أصبح من طرق الدرجة الأولى المرصوفة، مما سيكون له أتر كبير على التطور العمراني لمدينة مكة ، حيت إنه يساعد على تنشيط الحركة بين مكة والطائف على نطاق واسع، هذا بالاضافة إلى الطريق الدائري حول مكة الذي يربط بين أحيائها في سهولة ويسر .


خطة مكة المكرمة
مزارع وحدائق
أحواض مياه
آبار
N

حادي عشر: المزارع : وهي عبارة عن بقع متفرقة على أطراف مكة ملك للأفراد ، يتخذون منها متنزهات خاصة، يزرعونها بالنخيل والخضروات والفاكهة .

ثاني عشر: أراضي فضاء: توجد أراضي فضاء بجوار مكة من الناحيتين الشرقية والغربية بصفة خاصة وكذلك داخل المدينة، وهي أراضي مقسمة ومخططة، وتتم فيها حركة توسع المباني على نطاق واسع في الوقت الراهن .

ثالث عشر: الفنادق : هناك عدة فنادق من الدرجة الأولى بمدينة مكة بالقرب من الحرم، بالإضافة إلى عدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية معظمها قريب من الحرم أيضا .

مخطط مكة الجديد :

أعد مخطط جديد لمدينة مكة قامت بتصميمه الشركات الاستشارية مع مهندسي البلدية، وقد أقر هذا المخطط من جانب مكتب تخطيط المدن، ويشمل كافة الخطط التي طورت، وتشمل منطقة واسعة من الأراضي في الغرب والشرق .

ومن التغيرات الهامة في هذا المخطط إزالة جزء كبير من المنطقة القديمة والوسطى، وشق طرق حديثة ومتنزهات بدلا منها، وإقامة ميادين رئيسية لتسهيل حركة السكان والحجاج. وبدون شك فإن عملية التنفيذ سوف تستغرق وقتا من الزمن، ولكن تنفيذ المخطط سوف تنعكس آثاره على التوسع العمراني نتيجة للنشاط الاقتصادي الذي سوف يزداد بشكل واضح .

وظائف المدينة :

مهما اتسعت المدينة وازداد حجمها وتعقد تركيبها السكاني والعمراني فإنها تظل ـ رغم ذلك ـ تمثل وحدة مركبة من مجموعة من الوظائف[٢٠]، فالنواة القديمة للمدينة هي الأصل وهي مركزها العصبي المتمثل في شوارعها التجارية وأسواقها الرئيسية، ومع التجارة وازدهارها المستمر طال يوم العمل بالمدينة، وخاصة بعد إدخال الكهرباء، وأعربت الوظيفة التجارية عن نفسها عن طريق مضاعفة أنوار الشوارع ونوافذ عرض السلع. ومع التجارة أو قبلها أو بعدها تمثل الوظيفة الإدارية للمدينة ملمحا من أهم ملامحها المورفولوجية، فالإدارة وظيفة للمدينة، تعني

مباني ومؤسسات ومكاتب وعاملين، وهي كذلك نشاط اقتصادي يتخذ شكل الخدمات له تداعياته، وبذلك فإن التجارة والإدارة وما يتبعهما من ظهور الخدمات والصناعة تمثل الوظائف الرئيسية المؤثرة في شكل المدينة وتركيبها، فضلا عن كونها تمثل نبض المركز اليومية في المدينة وأساس سيولتها الإقليمية Regional Mobility التي تجعل من المدينة ومنطقتها إقليم حركة، وتحقق السيولة الإقليمية الفعالة في تجانس الإقليم والتقريب حضاريا بين المدينة وريفها وباديتها.(٢١)

ويسود في الوقت الحاضر تحليل التركيب الوظيفي للمدينة إلى الوظائف الأولية، وهي تمثل أصل قيام المدينة ومبرر ظهورها، وهي بالنسبة لمكة تتمثل في الوظيفتين الدينية والتجارية، ثم الوظائف التالية التي نشأت بعد ذلك كتداعيات ضرورية مرتبطة بالوظائف الأولية بدرجات شتى، وتتمثل هنا في الإدارة والخدمات بأنواعها. وفيما يـــلي تحليل لأهم وظائف مكة المكرمة «الدينية، التجارية، الخدمات» .

أ ـ الوظيفة الدينية :

وهي لم تمنح المدينة مركزا مدنيا عالميا فحسب، بل حفظتها أيضا مذكورة مسهورة. وتعد الكعبة المشرفة نواة هذه المدينة وقلبها، فمع نبض حركة الحج إليها والمترددين عليها استمرت مكة تؤدي وظيفتها هذه منذ رفعت قواعد البيت. لقد تغيرت عمارة الكعبة واتسعت ، وتأثرت بمجالاتها الحديثة واتجاهات نموها، فالتف حولها عمران مكة يكتنفها ويحميها، واتجهت إليها شوارعها وحاراتها، وتداخلت معها أحياؤها. فالحرم شكل تكوين مكة، فهو أهم مكوناتها تأثيرا ووجودا، ولم يقتصر دور الحرم تاريخيا على مدرسته الدينية والثقافية وما تمثله ، بل هو بلا شك نموذج انتشر في العالم الإسلامي فيما بعد. وتتضح أهمية الوظيفة الدينية للمدينة المقدسة من زيادة الاهتمام بها، وتخصيص إحدى الوزارات للاهتمام بوظيفتها ـ ووزارة الحج والأوقاف ـ ، وكذلك في الاهتمام بشق الطرق إلى الحرم والمساجد الأخرى في مكة المكرمة التي أصبحت نويات أحيائها، وأحيانا شارعا من شوارعها، وهي تشغل من الأحياء قلبها ـ تكرار الصورة المدنية ككل ـ ومن الشوارع رؤوسها ومن الميادين وسطهـا، وهـي معالـم الأحياء وأسماء الشوارع ، إليها تتجه الطرق، وحسب مواضعها توضع خطط المباني وتنظيم المداخل، فهي

نوايات تخطيطية ليس من اليسير تجاوزها، وتظهر حولها الأسواق، وتتحدد أثمان الأراضي وهي عن بعد تمثل خط أفق المدينة .

وهناك نحو سبعة مساجد كبيرة في مكة، عدا عدد آخر أكبر بكثير من المساجد الصغيرة والزوايا .

كما يؤكد الأهمية الدينية للمدينة أيضا الزيادة المستمرة في عدد الحجاج القادمين إليها، والذي بلغ في عام ١٣٥٥هـ نحو٤٩٥١٧ حاجا ارتفع إلى ٣١٦٢٢٦ حاجا عام ١٣٦٠هـ، ثم إلى ١٠٠٥٧٨ حاجا عام ١٣٧٠هـ، ٢٩٤١١٨ حاجا عام ١٣٨٥هـ ونحو ٦٤٥١٨٢ حاجا عام ١٣٩٢هـ . ويقدر بأن عددهم قد بلغ نحو مليون حاج في العام الماضي ١٩٧٧م، وذلك فإن تخطيط مكة لا بد أن يراعى فيه محاولة الوصول إلى تحقيق المدينة لوظيفتها بكفاءة عالية، وأن يستوعب الحرم أكبر عدد ممكن من المصلين. وزيادة الاهتمام بتوسعة مساحات وتهيئة أماكن لوقوف السيارات، فضلا عن دورات المياه ومناهل لمياه الشرب. ولا شك أن تهيئة الفنادق المناسبة والمنازل الكافية من أساسيات توفير الراحة لمئات الألوف من الزوار. وهكذا تتداعى عن الوظيفة الدينية مجموعة أخرى من المهام التي لا يجدر إغفالها عند التخطيط لمستقبل مكة .

ويمكن القول بأن أكثر من نصف سكان مكة يعيشون على الوظيفة الدينية للمدينة، سواء المشتغلون منهم بتلك الوظيفة مباشرة مثل المطوفين أو خدمة المسجد والعاملين بجمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بالوظائف الأخرى المترتبة عليها .

ب ـ الوظيفة التجارية :

من أقدم وظائف مكة المكرمة، وهي قد تراوحت خلال الزمن ما بين تجارة ذات مدى إقليمي محدود يشمل نجداً والحجاز، إلى المشاركة في حركة التجارة العالمية إبان ازدهار طريق التجارة القديم بين الشام واليمن. وفي العصور الحديثة عادت إليها وظيفتها التجارية الإقليمية المحدودة، وهي الآن ـ ومنذ نحو ربع قرن ـ قد تهيأت لتصبح سوقا لشتى البضائع العالية، ومن شوارعها ومحلاتها يمكن شراء مجموعات متنوعة من سلع أرقى الدول الصناعية المعاصرة .

وتستوعب هذه الوظيفة ـ ما بين تجارة جملة وتجزئة ووساطة ووكالات ـ نسبة هامة من سكان مكة العاملين. فقد تبين للباحث أن مجموع المؤسسات التجارية والمتصلة بها (النقل والتخزين ـ العقارات وخدمات الأعمال ـ المؤسسات المالية والعقارية) قد بلغ ٣٤٨٢ مؤسسة ، بنسبة ٧٤٪ من جملة عدد المؤسسات بمكة. وبالنسبة لعدد العاملين فإن نسبة العاملين في التجارة تصل إلى نحو ٧٢٫٣٪ من مجموع العاملين بها، وإذا ما أضيف إليها العاملون في الأنشطة المتصلة بها والسابق ذكرها، فإنها ترتفع إلى نحو ٧٧٪ كما يتضح موقف تجارة التجزئة الهام، فهي وحدها تستوعب نحو ٤٧٪ من جملة العاملين في الأنشطة الاقتصادية بمكة (١٠٩٨٦ عاملا) .

والمؤسسات المستقلة ــ مركزها الرئيسي مكة وليس لها فروع خارجها ـ هي السائدة. وهذا يتفق مع سيادة تجارة التجزئة على كافة أنواع التجارة الأخرى، كما يؤكد الدور التجاري المحدود للمدينة. ولكنها من ناحية أخرى أشد جاذبية لإنشاء فروع المؤسسات التجارية لأسباب تتصل بوظيفتها الدينية، وهذا هو السبب في نقص عدد مؤسسات تجارة الجملة وقلة عدد العاملين بها بالنسبة لتجارة التجزئة. فمدينة مكة إذن تتبع تجاريا مراكز أخرى في الدولة مثل جدة والرياض والدمام، فهي سوق استهلاكية أكثر منها توزيعية أو إنتاجية .

ولا شك أن لهذه الحقيقة انعكاساتها بالنسبة لأشكال الأسواق في مكة وتركيبها، فهي تتخذ من حيث الشكل والتوزيع نمطين أساسيين: الأول : هو السوق بشكله التقليدي القديم في حارات النواة القديمة وأزقتها، والبواكي التقليدية والمناضد المرصوصة أمام الدكاكين الصغيرة مع العرض المزدحم للسلع. ومن الأمثلة سوق الليل ومحال الأحياء القديمة حول المسجد الحرام .

أما النمط الثاني للأسواق فيتمثل في محلات الشوارع التجارية الحديثة، سواء في المناطق التي أعيد تخطيطها في وسط مكة أو في مناطق التعمير الحديثة بالمدينة. وهي أكثر تخصصا وتنظيما . ويمكن ملاحظة ذلك من طريقة عرض السلع بالفترينات أو بالداخل، وكذلك من الإضاءة الكهربائية والإعلانات في محاور الفزة والقرارة وأجياد وغيرها من الشوارع الحديثة الواسعة. وكان من شأن ذلك أيضا الاتجاه نحو بسط نطاق السوق على امتداد خطوط الحركة

بدلا من توفير مواقع محلية للأسواق، أو تتخذ إحدى العمائر كسوق ضخم مثل عمارة عبدالله الفيصل في الغزة .

وإلى جانب هذين النمطين يطرح التخطيط الحديث للمدينة نمطا ثالثا يتمثل في إقامة سوق مركزية مجمعة، يقترح لها مكان المباني القديمة التي تزال في سوق الليل والقرارة. وكذلك يتضمن التخطيط إنشاء عدد من الأسواق الصغيرة في أحياء المدينة المختلفة .

ولقد ارتبط بالوظيفتين الدينية والتجارية للمدينة مجموعة من الخدمات والوظائف أهمها ما يلي :

١ ـ الطوافة : وهي من أهم مهن السكان بمكة المكرمة باعتبارها مدينة حج، ويعمل بهذه المهنة ويستفيد منها أكثر من نصف السكان. وقد نشأت مهنة الطوافة في عهد المماليك الشراكسة في عام ٧٨٥ هـ، والذين كانوا يجهلون اللغة العربية، ومن ثم كانوا بحاجة إلى من يلقنهم الأدعية ويدلهم على مشاعر الحج. وقد استشهد السباعي على ذلك عندما أورد قصة حج السلطان المملوكي قايتباي في عام ٨٨٤هـ، حيث تقدم القاضي إبراهيم بن ظهيرة لتطويفه. ولم يذكر المؤرخين مطوفا في مكة قبل القاضي .

ويشترط على من يمتهن الطوافة أن يكون آباؤه وأجداده قد مارسوها قبله، وأن تتوافر فيه الأمانة والمعرفة التامة بأمور الدين . والمطوف مسئول عن راحة الحجاج التابعين له، ويوفر لهم المسكن المناسب، ويقوم على تطويفهم وتعريفهم بمناسك الحج أو العمرة، كما يقوم على إجراءات تصعيد الحجاج إلى المشاعر المقدسة في منى وعرفات والمزدلفة، وإنهاء إجراءات سفرهم إلى بلادهم. ويكون المطوف مسئولا أمام الجهات الرسمية في حالة تخلف الحاج أو وقوع أية أضرار تلحق به. ومقابل ذلك يعطى للمطوف مبلغا من المال تقرره الهيئة المسئولة عن شئون المطوفين .

وحتى وقت قريب كانت كل مجموعة من المطوفين مسئولة تماما عن حجاج بلدان إسلامية معينة، ولكن هذا النظام ألغي وأصبح الحاج حرا في اختيار مطوفه، عدا حجاج الشيعة الذين لا يحق لهم النزول إلا عند مطوفيهم الذين لا يزيد عددهم عن عشرة .

وعدد المطوفين حوالي ٩٠٠ مطوف ومطوفة، ويتركز معظمهم في الأحياء القريبة من الحرم، مثل أجياد والقشاشية والمصافي والفلق والشامية. ويواجه المطوفون بعدة مشاكل، أهمها عدم توافر السكن المناسب للحجاج باعدادهم المتزايدة بالقرب من الحرم، ومما اضطرهم في السنوات الأخيرة إلى استئجار مساكن في ضواحي المدينة وأطرافها. كذلك يعانون من مشكلة توفير وسائل المواصلات وارتفاع أسعارها، ومشكلة توفير المياه للحجاج في منى وعرفات .

ومن الطريف أن الشخص الذي يقوم بالطوافة يختلف الاسم الذي يطلق عليه من جنس إلى آخر، فالعرب يطلقون عليه اسم «مطوف»، والهنود يطلقون عليه اسم «معلم»، أما الأتراك فيدعونه «بالدليل»، بينما يطلق عليه الإندونيسيون لقب «شيخ» .

٢ ـ البنوك : كان الصرافون يقومون باستبدال العملات للحجاج، بالإضافة إلى بعض أعمال البنوك في نطاق محدود. ولكنه في عام ١٩٤٥م أنشئ فرع للبنك الأهلي التجاري بمكة يؤدي جميع الأعمال المصرفية والاقتصادية للتجار والمترددين على المدينة. وفي سنة ١٩٥٢م أنشئ فرع مؤسسة النقد السعودية ليقوم بأعمال البنك المركزي (وهي مؤسسة حكومية للأعمال المصرفية)، ويقوم بأعمال البنوك من تمويل للمشروعات، أو قبول للودائع ، وصرف الشيكات، وفتح الحسابات الجارية... إلخ. وفي سنة ١٩٥٧م أنشئ فرع بنك الرياض بمكة، ليقوم بالأعمال المصرفية المعتادة. وتقوم جميع البنوك بالمدينة في الحي التجاري بالقرب من الحرم الشريف .

٣ ـ الفنادق : ولا تخفى أهميتها بالنسبة لمدينة مكة المكرمة. وكان أول فندق حديث بها هو فندق بنك مصر (الكعكي حاليا) في حي أجياد بالقرب من الحرم، وكان يعمل في موسم الحج فقط ، ولكنه الآن يعمل طوال العام. وفي الفترة الأخيرة أنشئت فنادق أخرى من الدرجة الأولى، مثل فندق الحرم أو فندق مكة، ثم فندق شهرا ومنذ عام تقريبا بدأ تشغيل فندق مكة أنترناشيونال المجهز بكل أسباب الراحة والرفاهية، وتعقد فيه المؤتمرات أيضا . هذا عدا عدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية موزعة على شوارع مكة الرئيسية وخاصة شارع الغزة وشارع المسفلة .

٤ ـ شركات نقل الحجاج : تأسست في عام ١٩٣٤م، ويبلغ عددها الآن ثلاث هي الشركة العربية، وشركة المغربي، وشركة التوفيق. وتعمل في نقل حجاج البيت الحرام إلى منطقة شعائر

الحج، أو إلى المدينة المنورة بأجور محددة من قبل الجهات الرسمية. وسيارات الشركات الثلاث في حالة جيدة .

جـ ـ الوظيفة الثقافية :

تبذل الدولة ممثلة في وزارة المعارف جهودا واسعة لنشر التعليم بأنواعه، فهناك ٦٤ مدرسة نهارية، و ٢١ مدرسة ليلية تضم ٨٣٠ فصلا. ويهدف التعليم هنا إلى فهم الإسلام ونشر تعاليمه وتطوير المجتمع في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها .

والمدارس الابتدائية منتشرة في جميع أحياء مكة، أما المدارس المتوسطة فهي تتركز في أحياء جرول والقرارة والششنة والمعابدة والمسفلة والشبيكة وشعب علي والنزهة. وفي مكة أيضا ثلاث مدارس ثانوية ، هي: الفلاح الثانوية (مدرسة أهلية)، ومكة الثانوية (في حي الزاهر)، والعزيزية الثانوية (في حي العزيزية).

كما تهتم وزارة المعارف السعودية بمكافحة الأمية وتعليم الكبار، وتدعم هذا النوع من التعليم فنيا وماليا وإداريا، لذلك أنشأت العديد من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية الليلية لكي يستطيع الكبار مواصلة تعليمهم فيها . وتعنى الدولة أيضا بالمعوقين ذهنيا أو جسمانيا، وتعمل على رعايتهم من خلال معهد النور بمكة .

ونظرا للعادات والتقاليد التي تتميز بها السعودية فقد أنشئت إدارة خاصة بتعليم البنات تتبع وزارة المعارف لتشرف على تعليم البنات. وفي مكة ٥٦ مدرسة ابتدائية، وسبع مدارس متوسطة، ومدرستان ثانويتان لتعليم البنات، تضم ٧٣٣ فصلا (٢٥٣٤٧ تلميذة) .

وفي مكة كليتان من كليات جامعة الملك عبدالعزيز، هما كليتا الشريعة والتربية، ولكل منهما قسم للبنات. وتضم كل كلية نحو ٦٠٠ طالب وطالبة، وتقدم الجامعة مساعدات مالية للطلاب تتراوح ما بين ٣٠٠ ـ ٥٢٥ ريال لكل طالب شهريا تشجيعا لهم على مواصلة الدراسة. ويعمل بالجامعة عدد كبير من الأساتذة في مختلف التخصصات. بالقرب من الجامعة معهد للمعلمين في منطقة الحوض، يلتحق به الحاصلون على شهادة الدراسة الثانوية، ومدة الدراسة بالمعهد عامان، يتخرج بعدها الطالب معلما بالمدارس الابتدائية .

وفي مكة عدة مكتبات، أهمها مكتبة الحرم، وهي المكتبة الرئيسية بالمدينة (دار الكتب بالقاهرة)، وقد أنشئت في سنة ١٢٥٧هـ في عهد السلطان العثماني عبدالحميد. وتتبع المكتبة الرئاسة العامة للإشراف الديني، وتضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب بمختلف اللغات، من بينها ٢٠٠٠ مخطوط نادر، وكذلك مجلدات للصحف السعودية وغيرها. ويتردد على المكتبة للاستعارة أو الاطلاع أعداد تتزايد كل يوم، معظمهم (حوالي ٨٠٪ منهم) من طلبة كليتي التربية والشريعة .

د ـ الوظيفة الإدارية :

تنقسم المملكة العربية السعودية إداريا إلى خمسة مناطق هي :

١ ـ المنطقة الشمالية .
٢ ـ المنطقة الجنوبية .
٣ ـ المنطقة الشرقية .
٤ ـ المنطقة الغربية .
٥ ـ المنطقة الوسطى .

وكل من هذه المناطق الخمس تنقسم بدورها إلى أمارات رئيسية فأمارات تابعة. وأمارة مكة المكرمة تتبع المنطقة الغربية التي تضمها وأمارة المدينة المنورة. ويتبع أمارة مكة مجموعة من الأمارات التابعة. وقد بلغ عدد سكان مدينة مكة في نفس الإحصاء ٣٣٦٨٠١ نسمة فيكون نحو ٢٠٪ من مجموع سكان الأمارة .

وتضم مكة عددا من الخدمات الإدارية على رأسها الأمارة التي تقع في شارع الروضة، وتمثل السلطة المشرفة على المصالح الحكومية بالمدينة وملحقاتها، وبها رئاسة البلدية التي تقع في حي الزاهر وهي من أقدم بلديات الدولة، وتقوم بالإشراف على الخدمات العامة كالكهرباء والمياه والمجاري وتنفيذ المشروعات ومراقبة الطرق والترخيص المباني والإشراف على الأسواق والشوارع وتتبعها المطافئ ويمثل المجلس الإداري سلطة هامة داخل مكة. ويتألف من أعضاء يمثلون جميع إدارات المدينة فيها. ومن إداراتها أيضا دائرة الجوازات والجنسية، ومركز إحصاء

النفوس، والأوقاف والمحكمة الشرعية ... وتشمل المحكمة المستعجلة وكتابة العدل ومأمورية لبيت المال وإدارة شئون الموتى . وأقامت الأمارة مركزا للخدمة الاجتماعية بمكة لدراسة المشكلات الاجتماعية التي تواجه سكان المدينة. وقد ساهم المركز في إقامة عدد من المؤسسات الاجتماعية ودور للعجزة والأندية الرياضية ومؤسسات للتدريب على صناعات ومهن مختلفة، كما يشرف المركز على دار للتربية الاجتماعية التي تضم مدرسة للأيتام، ويصرف المركز مساعدات مالية للمستحقين .

ويشرف على الأمن في مكة ستة مخافر للشرطة تتوزع في مناطقها المختلفة. والمرجح أن يتزايد عدد المراكز الإدارية الحكومية بالمدينة تبعا لإمكانيات نموها العالية ولاحتمالات تنمية منطقتها التابعة في المستقبل .

ولا شك أن وضع مكة كمركز إداري يتطلب تركيزا شديدا في الخدمات عالية المستوى، فهو يفرض توزيعا عادلا للخدمات حتى يتحقق الأداء بفاعلية خلال هذه المنطقة الواسعة المبعثرة السكان والسكن. وهذا يتطلب تيسير سبل الوصول من وإلى أنحاء الأمارة إلى عاصمتها، وهو هدف اتجهت برامج إنشاء الطرق إلى تحقيقه من خلال خطة لتنمية مناطق الريف والبادية في السعودية. وذلك عن طريق ربط أجزاء الدولة الواسعة بشبكة جيدة من الطرق .

هـ ـ الوظيفة الصناعية :

ولا تمثل سوى جزء ضئيل من التركيب الوظيفي للمدينة، ومعظم الصناعات هنا صناعات استهلاكية ليس لها أية دلالة إقليمية كبيرة .

ولما كانت صناعات المدن تتحدد تبعا لعدة عوامل، منها تركيب سكان المدينة ووظائف المدينة ثم إمكانيات المدينة ومنطقتها، وهي تهدف إلى سد احتياجات سكان المدينة والإقليم التابع الذي تستمد منه المادة الخام في أغلب الأحيان . فمن الطبيعي أن تمثل صناعات السوق الاستهلاكية (الملابس ـ المشروبات ـ الطباعة ـ المواد الغذائية ـ الأثاث ـ البلاستيك ... الخ) المادة الأولى في قائمة الصناعات بمكة مع التأكيد على ضآلة نصيبها من

جملة النشاط الاقتصادي العام وذلك بالمقارنة مع التجارة خاصة من ناحية عدد المؤسسات أو عدد المشتغلين بها .

والصناعات الاستهلاكية المشار إليها يمكن اعتبارها أيضا ضمن صناعة الخدمات Services Industries ، حيث يمثل التسويق جزءا هاما من اقتصادياتها، كما أنها تتم في السوق أو بالقرب منه، وتمثل حاجة مشتركة لجملة السكان. ومن المتوقع أن يتزايد عدد المؤسسات الصناعية الاستهلاكية بالمدينة تبعا لتزايد دخول الأفراد وارتفاع مستوى معيشتهم .

وتمثل مؤسسات المواد الغذائية والمشروبات والتبغ أكبر عدد من المؤسسات الصناعية في مكة (١٨٢ مؤسسة ـ ٥٨٠ عاملا)، يليها المؤسسات العاملة في المنسوجات والملابس الجاهزة والجلود (١٤٢ مؤسسة ـ ٢٨٧ عاملا)، ثم مؤسسات الأثاث (٤٣ مؤسسة ـ ١٠٢ عاملا)، والطباعة والنشر (١٦ مؤسسة ـ ٣٨ عاملا)، ثم صناعات البلاستيك (مصنع واحد ـ ٢٣ عاملا) .

ويلاحظ أن صناعة الطباعة والنشر بمكة جاءت لارتباطها بوظيفة المدينة كعاصمة إدارية وكمركز تجاري وبؤرة للخدمات التعليمية والثقافية، وما يتطلبه ذلك من طبع للإعلانات والفواتير والأغلفة والمنشورات والكراسات وغير ذلك. كما أن من الصناعات الاستهلاكية ما ظهر كضرورة لأحوال المناخ بالمنطقة أو كضرورة للعمل على راحة الحجاج مثل صناعة الثلج التي أنشئت وأنشئ لها مصنع كبير على الطريق إلى منى. وهكذا فإننا نجد أن بعض الصناعات بمكة قد ظهرت كتداعيات لوظائف المدينة الأخرى المتعددة، وهذا بدون شك مفيد من الناحية الاقتصادية. وهذه الصناعات ترتبط في نموها بنمو وظائف المدينة كما وكيفا .

أما مصنع البلاستيك بمكة المكرمة فهو مصنع صغير أنشئ في عام ١٩٧٢م في منطقة التناعيم وينتج الأكياس البلاستيك والأكواب وجراكل المياه... إلخ وإنتاجه لا يكفي احتياجات المدينة المتزايدة، وهناك مشروع لانشاء مصنع آخر .

والجدير بالذكر هنا أن معظمها يطلق عليه اسم «مصنع» في مكة ليس إلا دكاكين صغيرة موزعة في أنحائها، ولا يزيد عدد العمال في أي منها ـ غالبا ـ عن خمسة أفراد. وهذا يجعلنا

نؤكد مرة أخرى بأن الصناعة في مكة لا تمثل إلا ظلا باهتا في اقتصادياتها، ولا تستخدم من الأيدي العاملة إلا عددا ضئيلا .

سكان مكة المكرمة :

كان سكان مكة في بدء ظهورها يعملون في خدمة القوافل وزوار البيت، وكان عددهم ضئيلا تبعا لإمكانيات الموضع المحدودة. وعندما جاهر الرسول بدعوته وهاجر وأصحابه إلى المدينة المنورة، انخفض عدد سكان مكة بشدة، كذلك انخفض عددهم مرة أخرى بسبب خروج معظمهم للجهاد ونشر الدعوة .

وقد مرت مكة بعد ذلك بعدة ظروف، جعلت سكانها يتأرجحون بين الزيادة والنقصان، إلا أن عددهم بلغ حوالي مائة ألف نسمة في عام ١٩٥٠م، يتوزعون على أحيائها القديمة المحيطة بالحرم مثل أجياد والقرارة والشبيكة والمسفلة وغيرها. ثم ارتفع عددهم بمعدلات سريعة بعد ذلك ، نتيجة لاهتمام الدولة بالمدينة المقدسة باعتبارها مدينة حج وعاصمة لأهم أماراتها، والتوسع السكني بالمدينة، مما ساعد على ظهور أحياء جديدة مثل العزيزية والنزهة، بالإضافة إلى توافر الخدمات والمرافق الحيوية بالمدينة .

وقد أجرى أول تعداد للسكان في السعودية في عام ١٩٧٤م (١٣٩٤هـ)، وكان الغرض منه وضع حد للتقديرات المختلفة عن عدد السكان، والاستفادة منه في خطط التنمية في شتى المجالات .

وقد أوضحت البيانات الأولية التي نشرت عن هذا التعداد أن سكان السعودية بلغ ٧٠١٢٦٤٢ نسمة[٢٢]. إلا أن نتائج التعداد التفصيلية لم يعلق منها سوى بيانات توزيع السكان على المدن الرئيسية والأمارات والمناطق، أما النتائج التفصيلية الأخرى عن التركيب العمري والنوعي والاقتصادي والتعليمي وغيرها فلم تعلن حتى الآن على الرغم من مرور أربع سنوات على إجرائه، الأمر الذي يخشى معه أن يحل به ما حدث لحصر السكان عام ١٩٦٢م .

ومن تعداد ١٩٧٤م يتبين أن عدد سكان مكة قد بلغوا ٣٦٦٨٠١ نسمة، وبذلك فهي

ثالثة مدن السعودية من حيث عدد السكان بعد كل من الرياض (٦٦٦٨٤٠ نسمة) وجدة (٥١٦١٠٤ نسمة)، ولكنها تسبق الطائف من حيث عدد السكان (٢٠٤٨٠٧ نسمة) والمدينة (١٩٨١٨٦ نسمة) .

وكانت مكة المكرمة وحتى وقت قريب أكبر مدن السعودية من حيث عدد السكان، إلا أن اتخاذ مدينة الرياض عاصمة للمملكة ، وازدهار ميناء جدة تبعا لازدياد النشاط العمراني والاقتصادي في المملكة، بالإضافة إلى أنها مقر البعثات الدبلوماسية، دفع بالمدينتين (الرياض وجدة) إلى المركز الأول والثاني بين مدن السعودية من حيث عدد السكان.

ومع هذا فقد شهدت منطقة مكة زيادة سكانية ضخمة لم تشهدها منطقة أخرى في السعودية، مما جعلها إقليم النقل السكاني بالمملكة. ويعود ذلك إلى الموقع الجغرافي المميز، والمركز الديني المرموق الذي يتفرد به، بالإضافة إلى برامج التنمية ومشاريع التعمير بالمنطقة .

وحتى منتصف الثلاثينات لم تكن هناك مدن بالمفهوم الحقيقي لمعنى حضر سوى أربع مدن حجازية هي : مكة، والمدينة، والطائف، وما عدا ذلك فيعد في حكم البلدان Towns أو القرى Villages . ولكنه كان لاكتشاف بترول المنطقة الشرقية أثر في ارتفاع معدلات النمو السكاني في السعودية عامة، والمنطقة الشرقية بوجه خاص، مما أدى إلى ظهور مدن الزيت - الدمام، والخبر، والظهران ، وأبقيق ، والخفجي - وتحول أعداد كبيرة من البدو الرحل إلى سكان مستقرين .

وفي أوائل الخمسينات لم تكن هناك سوى مدينة واحدة في المملكة التي تجاوز عدد سكانها مائة ألف نسمة هي مكة المكرمة، أما الرياض وجدة فلم يكن عدد السكان في أيهما يتجاوز الثمانين ألفا من السكان .

وقد قدر عدد سكان المدن السعودية في عام ١٩٦٢م بحوالي ٩٦٩١٣٤ نسمة، وفي عام ١٩٧٤م بلغ عددهم ٢٦٦٤٢٢٠ نسمة، أي عدد سكان المدن بالمملكة ازداد خلال ١٢ سنة ١٦٩٥٠٨٦ نسمة، وكانت نسبة التغير خلال الفترة (١٧٥٪) وبزيادة سنوية قدرها ١٤٫٥٪. وقد سجلت كل من الرياض والطائف والدمام وجدة أعلى نسبة (٢٠٫٨ - ٢٤٫٥٪) ، ثم

المدينة (٦ر١٤٪)، وتبوك (٦ر١٦٪)، ومكة (٩ر١٠٪)، ونجران (٦ر٩٪) ، وبريدة (٣ر٨٪)، وأبها (٦٪). اما كل من الهفوف وجيزان وحائل وعنيزة فقد سجلت كل منها أقل من ٤٪ .

وعلى هذا فإنه حسب إحصاء ١٩٧٤م فإن السعودية لا تضم سوى مدينتين نصف مليونية، هما الرياض وجدة، كما أن المدن التي يزيد عدد سكان كل منها على ٢٠٠ ألف نسمة تتركز في غرب المملكة، وتطل على البحر الأحمر أو بالقرب منه فيما عدا الرياض .

وحسب إحصاء ١٩٧٤م أيضا فإن السعودية تضم أكبر عدد من البدو في العالم، وأعلى نسبة منهم أيضا بالقياس إلى جملة السكان. فعددهم يصل إلى ١٨٨٣٩٨٧، بنسبة ٢٦،٨٪ من جملة السكان. ولكن توجد عدة مشروعات لتوطين البدو في السعودية، يمكن أن تؤدي إلى تقليل أعدادهم ونسبتهم تدريجيا، كما يلاحظ أن حياتهم بدأت تتحول بالفعل. فوسائلهم في الحصول على المياه أدركها تغير كبير وبعضهم يستخدم سيارات نقل المياه في جلب مياه الشرب اللازمة لقطعانه من الآبار، ويستخدم السيارات في الحصول على حاجته من الأخشاب بدلا من استخدام الإبل في ذلك أو نقل قطعانه إلى موارد المياه[٢٣] .

ورغم أن التوزيع النوعي للسكان غير معروف إلا أن النسبة النوعية بين الذكور والإناث تتراوح بين ١١٠ ـ ١٣٠ في كل من الرياض وجدة ومكة والمدينة والطائف، حيث تزيد نسبة الذكور على نسبة الإناث فيها جميعا . وهذا يرجع إلى تدفق المهاجرين إلى هذه المدن سواء من داخل السعودية أو خارجها. وكانت نسبة توزيع السكان حسب فئات العمر في مكة كما يلي عام ١٩٧٤م مقارنة بالنسبة العامة في المملكة .

	أقل من ١٠ سنة	من ١٠ ـ ٢٩	من ٣٠ ـ ٤٠	أكثر من ٥٠ سنة
مكـــة	٣٥،٥	٣٨	١٩،٥	٧
المملكـــة	٣٧،٨	٣٠،٥	٢١،٤	١٠

ويرجع ارتفاع نسبة الفئتين الأولى والثانية عن معدل السعودية إلى أن منطقة مكة المكرمة بما تشهد من مشاريع عمرانية ضخمة، وتوسع في إنشاء المعاهد والكليات، تعد من مراكز جذب الشباب للعمل أو التعلم .

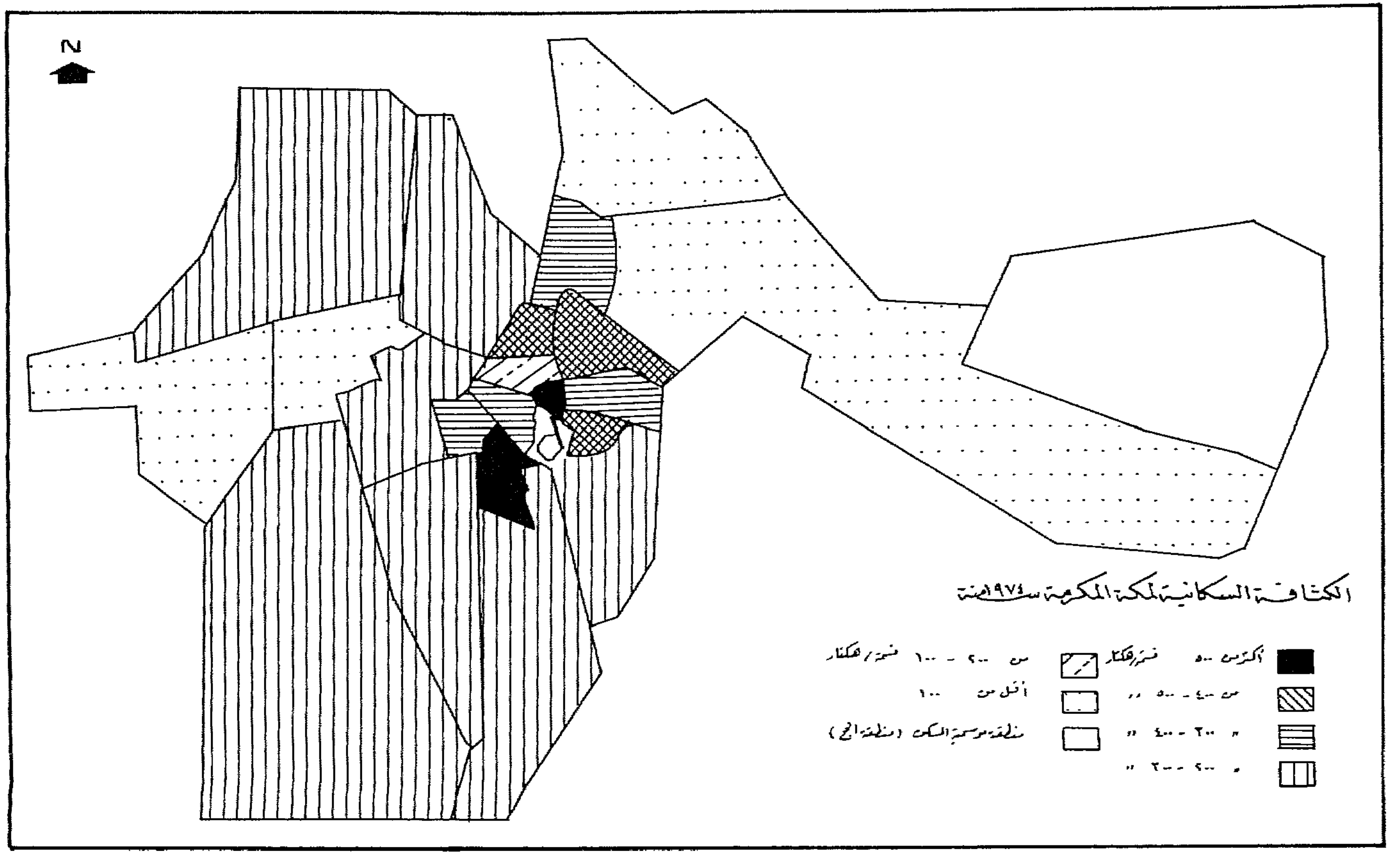
وقد بلغ معدل نمو السكان السنوي في المملكة في منتصف الستينات (١٩٦٥م) نحو ٢ر٧٪، وعلى هذا قدر عدد السكان سنة ١٩٦٥م بحوالي ٥٣٦٢٢٨٦ نسمة. ولكن معدل النمو ارتفع في أوائل السبعينات إلى ٢ر٩٪، وارتفع تبعا لذلك عدد السكان عام ١٩٧٠م إلى ٦١٩٩١٧٦ نسمة، وأصبح معدل النمو السنوي في منتصف السبعينات ٣٪، ولذلك ينتظر أن يرتفع عددهم إلى نحو ٨ مليون نسمة في عام ١٩٨٠م .

والسبب في هذه الزيادة المطردة للسكان يعود إلى انتهاء عصر المجاعات والأوبئة، وظهور البترول عام ١٩٣٨، ثم دخول البلاد في مرحلة من التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية. كما أن البلاد لم تشهد خلال هذه الفترة هجرة واسعة للخارج، وذلك لتوافر كثير من العوامل المشجعة على الاستقرار والبقاء، كما أنه بالنسبة للمنطقة الغربية بالذات، فكان للرخاء الاقتصادي والنشاط العمراني الكبير بها، وقيام كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة فيها، جعلها عرضة لزيادة غير طبيعية كبيرة .

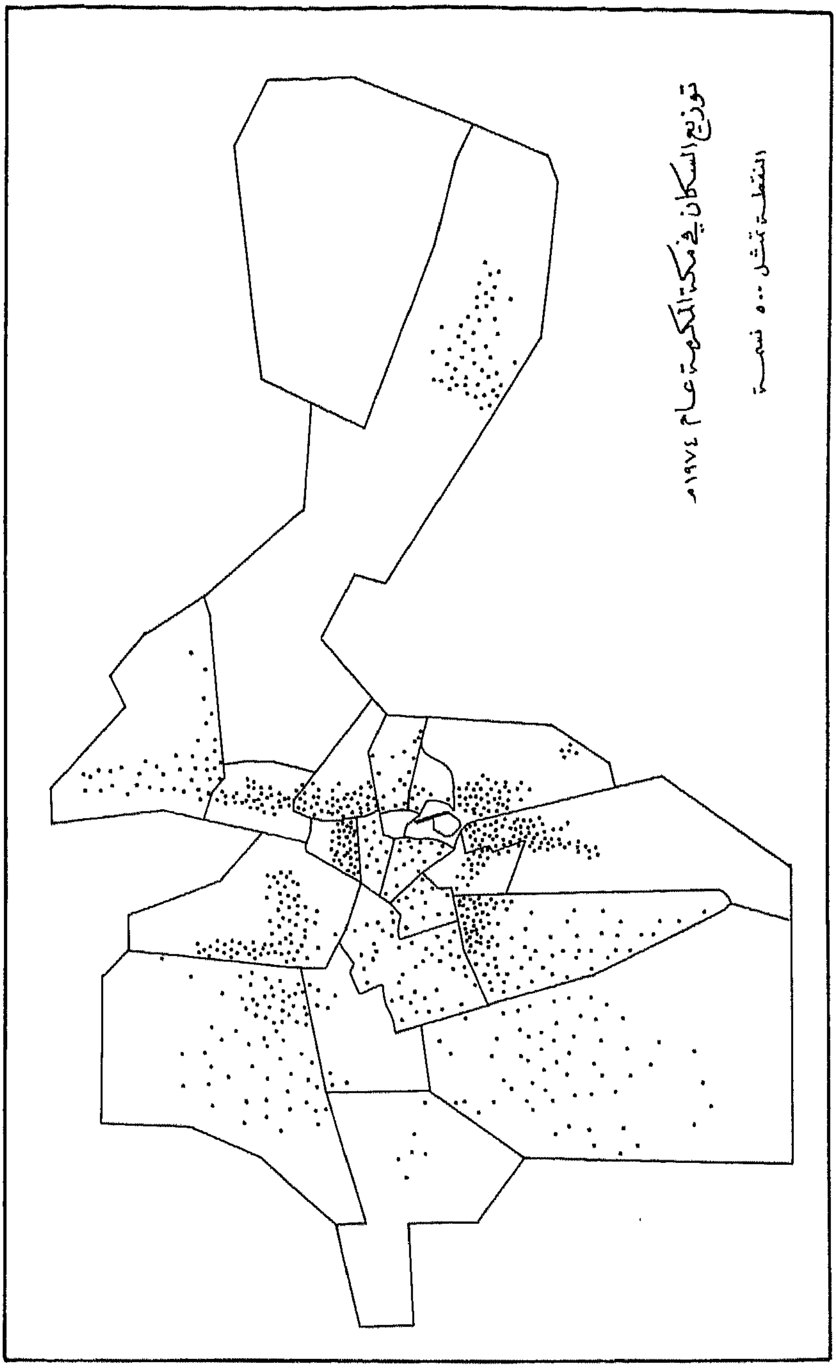
وتختلف نسب توزيع السكان بين مستقرين ورحل إلى حد كبير بين مكة وجملة الأمارة، فبينما تصل نسبة السكان المستقرين في مكة إلى نحو ٩٩٫٧٪ (٣٦٦٠١٢ نسمة)، فإن نسبة المستقرين في جملة الأمارة تبلغ ٨٦٫٢٪ (١٥١٣٦٣٤ نسمة). أما الرحل فإن عددهم في قلة ٧٨٩ نسمة (٣٪)، وفي جملة الأمارة ٢٤٠٤٧٤ نسمة (١٣٫٨٪) متوزعون على عدد من المدن الصغيرة والقرى ومحلات الرحل .

وحسب تعداد ١٩٧٤م فإن عدد الأسر في مكة يبلغ ٦٧٩٤٧ أسرة، ومتوسط عدد أفراد الأسرة الواحدة ٥٫٤ فردا. ونسبة غير السعوديين بمكة نحو ٢٦٫٦٪ من جملة عدد السكان بها. وتشهد المدينة زيادة سكانية هائلة في موسم الحج يقدر بثلاثة أضعاف عدد سكانها الأصليين .

ومن خلال الدراسة الميدانية (١٩٧٥/٧٤م) أمكن للباحث تقدير عدد السكان والكثافة العامة في كل حي :


N
الكثافة السكانية لمكة المكرمة سنة ١٩٧٤م
أكثر من ٥٠٠ نسمة/هكتار
من ٤٠٠ - ٥٠٠ "
" ٣٠٠ - ٤٠٠ "
" ٢٠٠ - ٣٠٠ "
من ١٠٠ - ٢٠٠ نسمة/هكتار
أقل من ١٠٠
منطقة موسمية السكن (منطقة الحج)

الحي	المساحه (بالهكتار)	عدد السكان (بالألف)	الكثافة (نسمة/هكتار)
المعابدة	١٨٦	١٧٫٦	٩٤٫٦
الفيصلية	٩٦٢	٢٤٫٤	٢٥٫٤
الجميزة	٤٥	١٥٫٨	٣٥١٫١
شعب عامر	٤٦	٢٧٫ -	٤٥٦٫٥
السليمانية	٤٥	١٤٫٨	٤٢٢٫٩
سوق الليل	٢٥	٧٫٨	٣١٢٫ -
القشاشية	٨	٣٫٣	٤١٢٫٥
النقا	٣١	٥٫٢	١٦٧٫٧
جرول	٩٦	٢٠٫ -	٢٠٨٫٣
التنضباوي	٢٣٠	٤٦٫ -	٢٠٠٫ -
الهنداوية	١٢٧	٢٥٫٨	٢٠٣٫١
القرارة	٦	٥٫٥	٩١٦٫٧
الشامية	٢٦	٨٫٢	٣١٥٫٤
أجياد	١٠٥	٢٢٫٥	٢١٤٫٣
المسفلة	٢١١	٤٣٫ -	٢٠٣٫٨
العتيبية	١٢٤	٣١٫٢	٢٥١٫٦
السبيكة	١٦	١٠٫٢	٦٠٠٫ -
حارة الباب	٢١	٦٫٧	٣١٩٫ -
الزهراء	١٠٦	٤٫ -	٣٧٫٧
النزهة	١١٠	٢٫٨	٢٥٫٥
الزاهر	١٣٥	٣١٫ -	٢٢٩٫٥
جملة	٢٦٥١	٣٣٦٫٨	١٣٨٫٤


توزيع السكان في مكة المكرمة عام ١٩٧٤م
النقطة تمثل ٥٠٠ نسمة

ومن الجدول السابق يتضح أن أكبر عدد للسكان يتركز في أحياء التنضباوي (٤٦ ألف نسمة)، والمسفلة (٤٣ ألف نسمة)، والعتيبية (٣١٫٢ ألف نسمة)، والزاهر (٣١ الف نسمة)، والهنداوية (٢٥٫٨ ألف نسمة). أما أقل عدد للسكان ففي النزهة (٢٨٠٠ نسمة)، والقساسية (٣٣٠٠ نسمة)، والزهراء (٤٠٠٠ نسمة)، والنقا (٥٢٠٠ نسمة)، والقرارة (٥٥٠٠ نسمة) .

ومن الجدول أيضا يلاحظ بأن أعلى كثافة سكانية تقع في أحياء القرارة (٩١٦٫٧ نسمة/هكتار)، والشبيكة (٦٠٠ نسمة/هكتار)، وشعب عامر (٤٥٦٫٥ نسمة/هكتار)، والسليمانية (٤٢٢٫٩ نسمة/هكتار)، والقشاشية (٤١٢٫٥ نسمة/هكتار). أما أقل كثافة للسكان ففي أحياء الفيصلية (٢٥٫٤ نسمة/هكتار)، والزهراء (٣٧٫٧)، والمعابدة (٩٤٫٦).

وعلى هذا فإنه على الرغم من أن القرارة ليست أكبر الأحياء من حيث عدد السكان، إلا أنها أعلاها من حيث الكثافة السكانية (٩١٦٫٧ نسمة/هكتار)، وذلك يرجع إلى أن القرارة أصغر أحياء مكة مساحة (٦ هكتار فقط)، وأقربها إلى الحرم في نفس الوقت. على حين أن حي التنضباوي أكبر أحياء مكة المكرمة من حيث عدد السكان (٤٦ ألف نسمة) ليس كذلك من حيث الكثافة، إذ يأتي ترتيبه السادس عشر (٢٠٠ نسمة/هكتار)، والسبب في ذلك يعود إلى اتساع مساحته (٢٣٠ هكتار)، بالإضافة إلى أنه يضم عددا من الجبال والتلال، وبعده عن الحرم قلب المدينة وقوامها .

إقليم مكة المكرمة :

تميل كل مدينة كبيرة إلى تنظيم إقليمها الذي تقوم بينها وبينه علاقات مشتركة. وهناك معايير عديدة يمكن الاعتماد عليها في تحديد إقليم المدينة، يتمثل بعضها في تسهيلات النقل، وفي كثافة وحركة السكان ، والمدى الذي تصل إليه خدماتها التعليمية والصحية والترفيهية والثقافية وغيرها.[٢٤]

ولا شك أن مكة المكرمة تسيطر سيطرة تامة على إقليمها، وتقوم بينها وبينه علاقات مشتركة واسعة، فإليها يأتى أبناء المناطق المحيطة للعمل والتعلم، وإليها أيضا يأتى المزارعون في الوديان القريبة لتسويق منتجاتهم، وشراء ما يلزمهم من أسواق المدينة، أو للتردد على المصالح الحكومية وعيادات الأطباء .

ولكننا هنا إزاء مدينة لها شأن كبير، ليس في المملكة العربية السعودية فحسب، بل في العالم كله عامة، والعالم الإسلامي والعربي بصفة خاصة نظرا لوضعها الديني كمدينة حج الإسلام . ولذلك فإننا نقصر الدراسة هنا على تحديد الإقليم الديني للمدينة اعتمادا على الإحصاء الخاص بالحجاج حسب جنسياتهم عام ١٣٩٢هـ.

فمن واقع الإحصاء المذكور بلغ عدد الحجاج ٦٤٥١٨٢ حاجا، منهم ٢٨٣٧٠١ من البلاد العربية. والجدول التالي يبين عدد حجاج كل دولة عربية عام ١٣٩٢هـ .

اسم الدولة	عدد الحجاج	اسم الدولة	عدد الحجاج
الأردن	١٢٨٥١	لبنان	٥٣٥٥
الجزائر	٢٢٩٤٥	ليبيا	٣٠٧٠٥
السودان	٣٣٢٢٢	مصر	٣٦٤٥٢
العراق	٣٥٥٦٧	الجنوب العربي	٢٤٩٦
الكويت	٦٥١٤	أبوظبي	٨٠٦
المغرب	١٤٩٢٣	البحرين	٢٠٥٦
اليمن	٥٤٠٨٢	دبي	٢٨٥
تونس	٨١٦٨	عمان	٣٣٨٤
سوريا	١٠٤٤٨	قطر	١٠٠٨
فلسطين	١١٣٥	أمارات أخرى	٣٤٣
موريتانيا	٩٥٦	مجموع حجاج البلاد العربية	٢٨٣٧٠١

ومن الجدول يتبين بأن أكبر عدد يأتي من اليمن (٥٤٠٨٢ حاجا)، ثم مصر (٣٦٤٥٢ حاجا)، والعراق (٣٥٥٦٧ حاجا)، يليهم السودان (٣٣٢٢٢ حاجا)، ثم ليبيا (٣٠٧٠٥حاجا). ولكن إذا عرفنا بأن السعودية تعمل على تشجيع اليمنيين على الحج والعمل فيها، وتعفيهم من رسوم الدخول إلى المملكة، فإن هذا يضع مصر في المركز الأول من حيث عدد الحجاج إلى مكة المكرمة .

أما أقل عدد من الحجاج ـ بالنسبة للدول العربية ـ فيأتي من دبي (٢٨٥ حاجا)، وأبو ظبى (٨٠٦ حاجا). ويمثل حجاج الدول العربية ـ قلب العالم الإسلامي ـ ٤٣٫٩٪ من مجموع عدد الحجاج سنة ١٣٩٢هـ (١٩٧٤م) .

والجدول التالي يبين أعداد حجاج أهم دول العالم سنة ١٣٩٢هـ فيما عدا الدول العربية .

الدولة	عدد الحجاج	الدولة	عدد الحجاج
اتحاد ماليزيا	١٢٩٨٣	إثيوبيا	٣٦٥٩
أفغانستان	٦٢٢٠	السنغال	٣٢٣٣
الهند	١٩٨٧٩	النيجر	٢٤٥٤
إندونيسيا	٤٠٦٦٨	الصومال	٢٨٤٢
إيران	٥٧٢٣٠	الكامرون	٢٢٤٥
باكستان	٦٥٨٦٦	تشاد	٢٧٩٨
تركيا	٣٦٢٥٨	غينيا	٢٨٠٢
دول أسيوية أخرى	٥٢٩١	نيجيريا	٣٨٨٦٩
مجموع حجاج آسيا	٢٤٤٤٠٤	أوغندا	٢٧٧٤
بريطانيا	١٦٢٨	جنوب إفريقيا	٢٨٤٠
فرنسا	٥٠٢	دول إفريقية أخرى	٩٩٨١
اليونان	٣٩٠	مجموع حجاج إفريقيا	٧٤٤٩٧
إسبانيا	٢٠٠	الدول الأمريكية	٩٩
مجموع حجاج أوربا	٤٩٨٠	مجموع الحجاج	٣٦١٤٨١

ومن الجدول السابق يتضح أن عدد الحجاج من خارج الدول العربية قد بلغ ٣٦١٤٨١ يمثلون ٥٢٫١٪ من المجموع العام للحجاج في عام ١٣٩٢هـ، وقد أتى معظمهم من الآسيوية (٢٤٤٤٠٤ حاجا، يمثلون ٦٧٫٦٪ من مجموع الحجاج خارج الدول العربية، من المجموع العام للحجاج)، يليهم حجاج إفريقيا (٧٤٤٩٧ حاجا يمثلون ٢٠٫٦٪ موع الحجاج خارج الدول العربية، ١١٫٥٪ من المجموع العام للحجاج) . هذا بينما حجاج دول أوربا وأمريكا نسبة ضئيلة، ولا يزيد عددهم على ٥٠٧٩ حاجا .

ومن بين دول آسيا فإن الباكستان هي أكبر الدول إرسالا للحجاج (٦٥٨٦٦ حاجا)، بل أول دول العالم في هذا الشأن، يليها إيران (٥٧٢٣٠ حاجا) التي تحتل المركز الثاني بين ل آسيا ودول العالم أيضا، ثم تأتي كل من تركيا والهند في المركزين الثالث والرابع على لترتيب .

أما دول إفريقيا فإن نيجيريا أول الدول من حيث عدد الحجاج (٣٨٨٦٩ حاجاً)، يليها كل من إثيوبيا (٣٦٥٩ حاجا)، والسنغال (٣٢٣٣ حاجا) .

وعلى هذا فإنه يتبين لنا بأن إقليم مكة الديني يضم البلاد العربية جميعا والدول الآسيوية المحيطة بها، حيث يأتي منها كل عام ما يزيد على ٩٥٪ من عدد المترددين على المدينة لتأدية فريضة الحج أو التجارة، ويبقى منهم بالمدينة كل عام أعداد لا يستهان بها، وخاصة من الحجاج اليمنيين الذين تصرح لهم السلطات السعودية بالعمل في أراضيها .

خاتمــة :

مما سبق يتضح لنا مدى الأهمية الدينية لمكة المكرمة، المدينة التي يفد إليها في موسم الحج من كل عام أكثر من ستمائة ألف نسمة بخلاف أعداد كبيرة أيضا من المعتمرين على مدار السنة يقدرهم البعض بما يقرب من ربع مليون نسمة، يأتون إلى المدينة من مختلف أنحاء العالم .

وهذا دون شك ألقى مسئولية كبيرة وعبئا ضخما على كاهل القائمين بالأمر في المملكة العربية السعودية، مسئولية إعاشة الأعداد الهائلة من البشر، وتهيئة سبل الإقامة والراحة لهم، وعبء انتقالاتهم من مكان إلى آخر داخل المملكة . ولذلك خصصت وزارة للحج والأوقاف، كما أنشىء جهاز يتولى كل ما يتعلق من مشروعات خاصة بتوسعة الحرمين (الرئاسة العامة لتوسعة الحرمين الشريفين). وعلى الرغم من أن هناك بعض المراحل لتوسعة الحرم قد تمت بالفعل، إلا أنه من المؤكد أن مشروعات التوسعة لن تنتهي، فهي تستأنف مرحلة بعد أخرى مع تزايد أعداد المسلمين والأفواج الهائلة من الحجاج. فعند آخر توسعة تمت بالمسجد الحرام في زمن الخليفة المقتدر بالله ظلت مساحة المسجد كما هي بدون زيادة أكثر من ألف عام، واستمر البناء حوله حتى اتصلت به المنازل ، لدرجة أن المباني الخاصة قد فصلت ما بين المسعى وبين المسجد نفسه، حتى أصبح المسعى عبارة عن طريق ضيقة، تقوم على جانبيهـا المحـلات والمنازل، وكانت مساحة المسجد لا تتعدى ٢٩ ألف متر مربع. ولكنـه في عام ١٩٥٥م – ١٣٧٥هـ) بدىء في التمهيد لأعمال توسعة المسجد، وتحويل الطريق ومجرى السيل في وقت واحد، فتم هدم جميع المباني اللازمة في المرحلة الأولى، ثم حفرت أساسات الجدار الخارجي للتوسعة في القسم الأكبر من منطقة المسعى، وفي أجياد من جانب المسعى إلى ما يقابل باب أم هانىء. ولكي تتحقق التوسعة كان لا بد من ضم المسعى إلى المسجد ، وإلغاء الطريق الذي يخترق المسعى وتحويله إلى ما وراء الصفا خارج حدود الحرم .

ولقد بلغ طول المسعى من الداخل ما بين الصفا والمروة ٣٩٥مترا، ومن الخارج ٤٠٠ م ، وعرضه ٢٠ م، وارتفاع طابقه الأول ١٣ م. أما الطابق الثاني للمسعى الذي خصص للصلاة

تابع للمسجد، فبلغ ارتفاعه ٩ م. وأما المبنى القديم فقد أبقي عليه كأثر من الآثار القديمة، وتم تنميق القديم والجديد من جميع الجهات تقريبا .

وتبلغ مساحة الحرم بعد انتهاء أعمال التوسعة حوالي ١٩٠ ألف متر مربع، ويتسع حاليا لأكثر من ٦٠٠ ألف مصل . ومن المشاريع المتممة للتوسعة إنشاء مكتبة خاصة للحرم الشريف تسمى مكتبة مكة المكرمة، أختير لها المكان المقابل لباب الملك عبدالعزيز .

وتحت الدراسة الآن عدة مشاريع ، أهمها مشروع توسعة المطاف بحيث تعادل مساحته ضعفي المساحة الحالية، ومشروع تكييف المطاف، ومشروع توسعة زمزم مع تكييف منطقة البئر وتبريد مياهه .

وعلى الرغم من ضخامة المشاريع الجاري تنفيذها أو المقترحة، فإن الباحث يرى بعض الاقتراحات التي يمكن إجمالها فيما يلي :

١ ـ فيما يختص بالحرم نقترح عمل توسعة جديدة له بما يعادل نصف مساحته الحالية على الأقل لمواجهة الأعداد المتزايدة من الحجاج أو المعتمرين، خاصة وأن هناك مساحات من الأراضي المجاورة التي يمكن استخدامها في التوسعة المقترحة. كما نرى ضرورة توسعة الشوارع المحيطة بالحرم والتى تشهد في موسم الحج ازدحاما كبيرا بسبب عرقلة حركة المرور بالمنطقة، ويمكن هنا إنشاء بعض الشوارع العلوية مما يحقق سيولة الحركة بالمنطقة .

٢ ـ فيما يختص بمدينة مكة المكرمة نقترح سرعة الانتهاء من إتمام مشاريع الصرف الصحي بالمدينة، وتوصيل مياه الشرب إلى المنازل عن طريق المواسير بدلا من استخدام الوايتات أو السقايين، وهذا يساعد على الحد من انتشار الأمراض والأوبئة خاصة في موسم الحج، حيث يأتي، إلى المدينة حجاج من مختلف الجنسيات والبيئات .

كذلك نقترح إعداد تخطيط جديد للمدينة ككل ، يتمشى مع متطلبات المدينة الحديثة، ويحافظ على آثارها الإسلامية القديمة وطابعها المميز في نفس الوقت .

ونقترح أيضا ضرورة البحث عن مصادر جديدة للمياه لمواجهة احتياجات السكان المتزايدة ومشاريع التعمير .

كذلك يجب الاهتمام بإنشاء الفنادق والمساكن ، سواء على أطراف المدينة أو في منى لاستيعاب أكبر عدد من الحجاج، والتقليل قدر الإمكان من استخدام الخيام منعا للحرائق والأمراض .

الحواشي

(1) Beaujeu-Garnier, J. and Chabot, G. (1971) Urban Geography, London, p, 168.

(٢) جمال حمدان، (١٩٧٢)، جغرافية المدن، القاهرة، ص ١٧٥ .

(٣) الأزرقي (١٩٦٥)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الجزء الأول، مطبعة دار الثقافة بمكة، ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢ .

(٤) حسين كمال الدين (١٩٧٧)، موقع مكة من الكرة الأرضية، جريدة الأهرام القاهرة ـ العدد الصادر بتاريخ ١٩٧٧/٢/٤ .

(5) Encyclopedia Britannica (1965), Printed in the U. S. A., p. 30.

(6) Moore, W. G. (1971), (The penguin Encyclopedia of Places, England, p. 471.

(7) Fisher, W. B. (1971), (The Middle East), London, o.443.

(8) Kammerer, A. (1929), (La Mer Rouge), Le Caire, p.47.

(9) Semple, E.C. (1911), (Influences of Geographic Enviroment), London, p.p. 404-406.

(١٠) محمد الرويثي، (١٩٧٧) ، الإنتاج الغذائي في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير غير منشوره قدمت لجامعة القاهرة، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(١١) عبدالعزيز كامل (١٩٦٨/٦٧)، جغرافية الإسلام في عصر النبوة، مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ص ١٢٩ .

(12) Feeman, T.W. (1968), (Geography and Planning), London, p.19.

(١٣) أحمد السباعي (١٣٨٢هـ)، تاريخ مكة، الطبعة الثانية، مكة، ص ١٠٢ .

(١٤) نعيم زكي فهمي، (١٩٧٣)، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ١١٥ ـ ١٨٨ .

(15) Robert, E. Dickinson (1965), "The Growth of the Historic city", in "Readings in Urban Geography", Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. Kohn, The Univ. of Chicago Press, Chicago, PP. 69-84.

(16) Lowry, J.H., (1975), "World City Growth", London, PP. 24-26.

(١٧) جمال حمدان، (بدون تاريخ)، أنماط من البيئات، القاهرة، ص ٨٨ .

(18) Chauncy, D. Harris and Wdward, E. Ullman, (1965), (The Nature of Cities), in, (Reading in Urban Geography), Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. Kohn The Univ. of Chicago Press Chicago, pp. 227/298.

(19) Berry, B.J.L. (1963), (Commercial Structure and Commercial Blight), Chicago, p. 37.

(20) Ernest, W. Burges, (1925), (The Growth of the City) in (The City), ed. Robert, E. Park,

(21) Robert, E. Dickinson (1947), (City Region and Regionalism), London, p. 96.

(٢٢) المملكة العربية السعودية، مصلحة الاحصاء العامة (١٣٩٦هـ)، التعداد العام للسكان لعام ١٣٩٤هـ، البيانات الأولية، مطابع المنطقة الوسطى، الرياض، ص ٣ .

(٢٣) أحمد علي إسماعيل، (١٩٧٦)، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية، القاهرة، ص ١٤٨ .

(٢٤) محمد محمد سطيحه، (١٩٧١)، خرائط التوزيعات الجغرافية، القاهرة، ص ص ٧٥ ـ ٧٦ .

مراجع البحث

أولا : المراجع والمصادر العربية :

١ ـ احمد السباعي (١٣٨٢)، تاريخ مكة ، مكـة .

٢ ـ احمد على اسماعيل (١٩٧٦)، اسس علم السكان، القاهرة .

٣ ـ الأزرقي (١٩٦٥)، أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار، الجزء الأول، م دار الثقافة ، مكـة .

٤ ـ المملكة العربية السعودية ـ مصلحة الاحصاءات العامة (١٣٩٦هـ)، التعداد العـام للسكان لعام ١٣٩٤هـ ، الرياض .

٥ ـ جمال حمدان (١٩٧٢)، جغرافية المدن، القاهرة .

٦ ـ ــ (بدون تاريخ)، أنماط من البيئات ، القاهرة .

٧ ـ حسين كمال الدين (١٩٧٧)، موقع مكة من الكرة الأرضية ، الأهرام، القاهرة .

٨ ـ عبدالعزيز كامل (١٩٦٨)، جغرافية الاسلام في عهد النبوة، مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية، القاهرة .

٩ ـ محمد الرويشي (١٩٧٧)، الانتاج الغذائي في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية الاداب/ جامعة القاهرة، القاهرة .

١٠ ـ محمد محمد سطيحة (١٩٧١) ، خرائط التوزيعات الجغرافية، القاهرة .

١١ ـ نعيم زكي فهمي (١٩٧٣)، طرق التجارة القديمة بين الشرق والغرب القاهرة.

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 - Encyclopedia Britannica, (1965), Printed in the U.S.A.

2 - Berry B.J.L. (1963), " Comercial Structure and Commercial blight", Chiago.

3 - Beaueu- Garnier, J. and Chabot, G. (1971), " Urban Geography", London.

4 - Chauncy, D. Harris and Edward, L. Ullman, (1965), " The nature of Cities in, " Readings in Urban Geography" Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. Kohn, The Univ. of Chicago Press, Chicago

5 - Ernest , W. Burgess, (1925), " The growth of cinty", Chicago.

6 - Fisher, W.B., (1971), " The Middle Esst", London.

7 - Freemn, T.W., (1968), " Geography and Planning", Lonodon.

8 - Kammerer, A., (1929), " La mer Rouge"Le Caire.

9 - Lowry, J.H. (1975), " World City Growth", London.

10 - Moore, W.G. (1971), " The Penguin Encyclopedia of Places", England.

11 - Robert, E. Dickinson, (1947), "city Region and Regionalism", London.

12 - --------------------, (1965), " The growth of the Historic City", in," Readings in Urban Geography",Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde,F. Khon, The Univ. of Chicago Press, Chicago.

13 - Semple, E. C. (1911), " Influences of Geographic environment", London.

الإسقاط المكى للعالم

دكتور حسين كمال الدين

مقدمـة :

هذا النوع من إسقاط الخرائط هو نوع جديد من جميع الوجوه، ولا يرتبط بنوع ما من أنواع الإسقاطات الأخرى للخرائط المعروفة بين علماء المساحة أو الجغرافية. والغرض من كتابة هذا البحث هو شرح هذا الإسقاط الجديد بطريقة سهلة ومبسطة لعامة الناس، حتى يستأنسوا بمعرفة موقع مكة المكرمة من القارات المستقرة على سطح الكرة الأرضية، دون الدخول في التفاصيل العلمية .

والمقصود عموما من إسقاط الخرائط هو كيفية تمثيل السطح الكروي للأرض على الخرائط المستوية السطح. ولقد أصبح من البديهي الآن أن الأرض جسم كروي، وعلى ذلك فإننا إذا أخذنا في الاعتبار مساحة كبيرة جدا من هذا السطح، فإن تأثير كروية سطح الأرض يظهر فيه تماما، بينما كان هذا التأثير يختفي عنا في المساحات المحددة منه. ومن هنا نشأ التفكير في دراسة علم إسقاط الخرائط المساحية والجغرافية.

ولما كان من الواجب على الخريطة أن تمثل سطح الأرض كأنها صورة منها، إذن أصبح من الضروري أن يكون بين الأصل والصورة تشابه تام في كل شيء، بمعنى أن الشكل المسقط يكون مشابها للأصل، وأن مساحته تكون متكافئة بنسبة مقياس الرسم، وأن الاتجاهات بين أجزائه تكون صحيحة مثلما كانت على سطح الأرض. وهذا يعبر عنه في علم إسقاط الخرائط بالمحافظة على التشابه والتكافؤ والانحرافات .

ولقد وجد أن المحافظة على هذه الواجبات الثلاثة مجتمعة من المحال ما دامت الخريطة مستوية، ولذلك روعيت الأغراض المطلوب صنع الخريطة من أجلها عند اختيار عملية الإسقاط المناسبة. فمثلا الخرائط المستعملة في البحرية والطيران، أهم أغراضها المحافظة على الاتجاهات بين الأماكن، والخرائط التعليمية مثل خرائط الجغرافية يفضل فيها وجود التشابه، والخرائط الزراعية يراعى فيها التكافؤ، وهكذا ... ولقد وجد أنه من الممكن الاحتفاظ بواحدة من هذه الخواص الثلاث المذكورة سابقا، أو باثنتين منها فقط، أما الثلاث معاً فلا .

وفي الحالات العامة يمكننا دون حدوث أي خطأ محسوس اعتبار أن الأرض كروية السطح تماما، وإذا أردنا الدقة أكثر من ذلك فهي شبه كروية مفلطحة القطبين ، والفرق بين طول القطر الاستوائي والقطر القطبي حوالى (٤٢) كيلومترا، وهذا الفرق صغير جدا إذا قورن بقطر الكرة الأرضية المتوسط وقدره (١٢٧٠٠٠) كيلومتر.

ونظرا لكروية سطح الأرض فان أية نقطة من سطحها لا تتميز عن غيرها من النقط السطحية بدليل ما، ولذلك لجأنا إلى تصور وجود خطوط وهمية مرسومة على سطح الكرة الأرضية بنظام متعامد خاص، يرتبط بنقطتين ثابتتين، هما القطب الأرضي الشمالي، والقطب الأرضي الجنوبي .

وإذا تصورنا أن الكرة الأرضية تدور حول نفسها دورة منتظمة، فإن ذلك يستوجب فرض محور ثابت داخل هذه الكرة ينسب إليه هذا الدوران، وأن تقابل طرفي هذا المحور مع سطح الكرة الأرضية يحدد هاتين النقطتين الثابتتين : القطب الشمالي، والقطب الجنوبي.

وإذا فرضنا أن كلا من هذين القطبين هو نقطة أساس، فإن الكرة الأرضية تنقسم إلى نصفين متكافئين، وأن الخط الدائري المشترك بين هذين النصفين يسمى خط الاستواء ، وهو دائرة عظمى من الدوائر الأرضية[١]. ثم تقسم هذه الدائرة إلى (٣٦٠) درجة، وكل درجة تقسم إلى (٦٠) دقيقة، وكل دقيقة تقسم إلى (٦٠) ثانية. وإذا أوصلنا بين نقطة تقسيم دائرة الاستواء وبين القطبين الأرضيين فإننا نحصل على أنصاف دوائر عظمى متعامدة على دائرة الاستواء، وتسمى هذه الدوائر بخطوط الزوال[٢]. ومن الممكن ترقيم هذه الدوائر حتى نميزها بترقيمها عن بعضها البعض، ولقد اعتبر خط الصفر هو خط الزوال المار بمرصد جرينتش في إنجلترا، ثم استمر الترقيم شرقا وغربا بالنسبة إلى هذا الخط من صفر إلى ١٨٠ درجة .

وإذا أخذنا أيا من خطوط الطول نجد أنها أنصاف دوائر عظمى، وأن خط الاستواء يقسمها إلى نصفين متساويين، كل قسم منها يحصر زاوية قدرها (٩٠) درجة عند مركز الكرة الأرضية. وتسمى بأرباع الدوائر العظمى، ويبدأ تقسيم هذه الأرباع من عند دائرة الاستواء بالمقدار (صفر) درجة، ثم ينتهي عند القطب الأرضي بالمقدار (٩٠) درجة شمالا وجنوبا .

---

(١) الدائرة العظمى: هي التي يمر مستواها بمركز الكرة الأرضية، أي إنها تقسم الكرة إلى نصفين متساويين.

(٢) خطوط الزوال: هي خطوط الطول في الاصطلاح الجغرافي .

وإذا رسمنا من عند نقط تقسيم هذه الأرباع مستويات عمودية على محور دوران الأرض ـ أي إنها تكون موازية لمستوى دائرة الاستواء ـ فإن هذه المستويات تقابل سطح الكرة الأرضية في دائرة متوازية مع بعضها ومع دائرة الاستواء، ولكنها ليست دوائر عظمى. وتسمى هذه الدوائر بالمتوازيات ـ أو دوائر خطوط العرض الأرضية ـ ويكون خط الاستواء هو خط العرض صفر، والقطب هو خط العرض (٩٠) درجة شمالا أو جنوبا. كما يسمى خط الطول المار بجرينتش بخط الأساس لخطوط الطول. ويلاحظ أن أقطار دوائر خطوط العرض تقل كلما ابتعدنا عن دائرة الاستواء الأرضي حتى تصل إلى الصفر عند القطبين .

لو تصورنا وجود خطوط الطول وخطوط العرض السابق ذكرها على سطح الكرة الأرضية فإننا عند ذلك نستطيع أن نرسم حدود القارات والبحار والأنهار والدول عليها، وأن نعين كل بلد من البلاد أو مكان من الأمكنة بخطي الطول والعرض المارين بها. ولو أن هذه الخطوط وهمية إلا أننا نستطيع بطريق الرصد الفلكي أن نعين مقاديرها في أي موضع من سطح الكرة الأرضية بالدقائق أو الثواني أو حتى بأجزاء الثواني حسب المطلوب. ومن ذلك نجد أنه يمكننا الربط الكامل بين الحدود بأي شكل منها وبين خطوط الطول والعرض الأرضية .

ولقد سبق أن ذكرنا آن سطح الأرض كروي، وبذلك تكون هذه الخطوط أيضا أقواسا من دوائر وليست خطوطا مستقيمة، بينما الخرائط المطلوب الرسم عليها هي أوراق مستوية، وهنا يتدخل علم إسقاط الخرائط .

ومن هذا نعلم أن علم إسقاط الخرائط هو الواسطة في عملية النقل من السطح الكروي للأرض إلى السطح المستوي للخريطة .

أولا : تطبيقات لبعض الإسقاطات المستعملة :

ذكرنا في المقدمة أنه من الواجب عند رسم الخريطة المساحية أن نراعي ثلاث أساسيات، وهي :

١ ـ التشابه التام بين الشكل في الطبيعة والشكل الذي نمثله به على الخريطة .

٢ ـ المكافأة في المساحة السطحية بين كل موجود في الطبيعة، وبين كل مرسوم يناظر على الخريطة مع اعتبار الرسم المذكور على الخريطة .

٣ ـ المحافظة على الاتجاهات بين جميع الأماكن على سطح الأرض، وبين نظائرها المرسومة على الخريطة .

وهذه الأساسيات الثلاث تجعلنا نستطيع دراسة سطح الأرض دراسة تفصيلية صحيحة من الخريطة، فنستطيع تقدير المسافات طولا وعرضا، ومعرفة الارتفاعات، وحساب المسطحات وقياس الاتجاهات، وتصور الأشكال للأنهار والبحيرات والمحيطات والقارات تماما كما نراها وهي في الطبيعة .

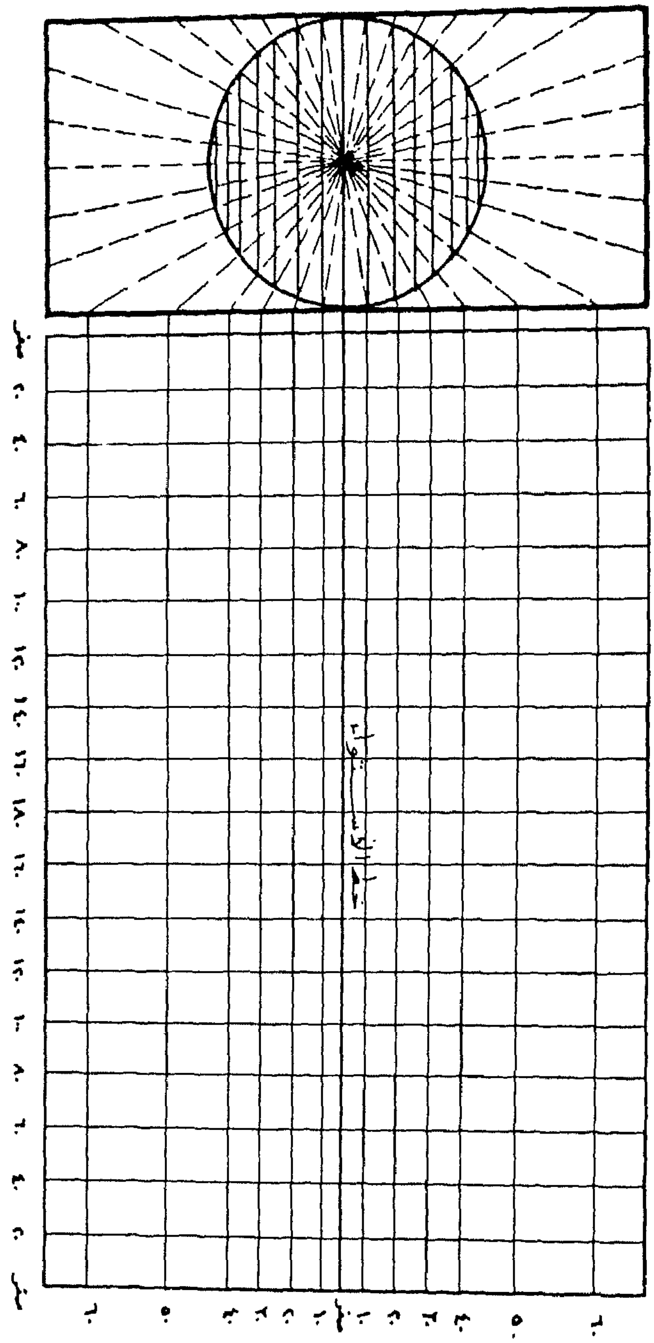
ولكن من سوء الحظ وجدنا أن هذه الأساسيات الثلاث لا نستطيع أن نجمع بينها على خريطة مستوية واحدة لمساحة كبيرة من سطح الكرة الأرضية، ولذلك أصبح من اللازم أن نختار واحدة من هذه الأساسيات الثلاث. ونلتزم بها عند رسم الخريطة، ونتهاون بعض الشيء في الأساسيتين الأخريين. وأصبح هذا التمييز يرتبط بالغرض المقصود من أجله عمل هذه الخرائط، كما سبق ذكره مختصرا في المقدمة .

ولذلك تعددت أيضا الطرق المستعملة في إسقاط الخرائط ورسمها على الورق، لكي تتمشى مع الأهداف المرغوب فيها .

والخطوة التالية بعد ذلك هو أن نفرد المسطح الكروي، ونحوله إلى سطح مستوي. ولا يتم ذلك إلا بإحدى طريقتين، كلاهما أسوأ من الأخرى، وهو إما أن ندع الأحرف الخارجية لهذا السطح تتمزق لكي تتسع فيما بينها، وإما أن نجعل الجزء الداخلي من هذا السطح يتمزق بمقادير مختلفة حتى يضيق ويسمح بتحول السطح الكروي إلى سطح مستو، ولما كان كل من هذين الحلين غير مقبول لذلك كان من الواجب البحث عن حل ثالث .

والحل الجديد هو اختيار جسم آخر يكون واسطة انتقال بين سطح الكرة الأرضية وبين الخريطة المساحية، بحيث تنقل أولا التفاصيل من السطح الكروي إلى سطح هذا الجسم الجديد، ثم بعد ذلك نفرد سطح هذا الجسم، ونحوله إلى مستوى الخريطة.

ومن هذا نلاحظ أن الأجسام التي تقوم بعمل الوسيط يجب أن تكون الأسطح الخاصة بها قابلة للفرد أو النشر، وأن تصلح كذلك لاستيفاء بعض الشروط الأساسية الثلاثة السابق بيانها .



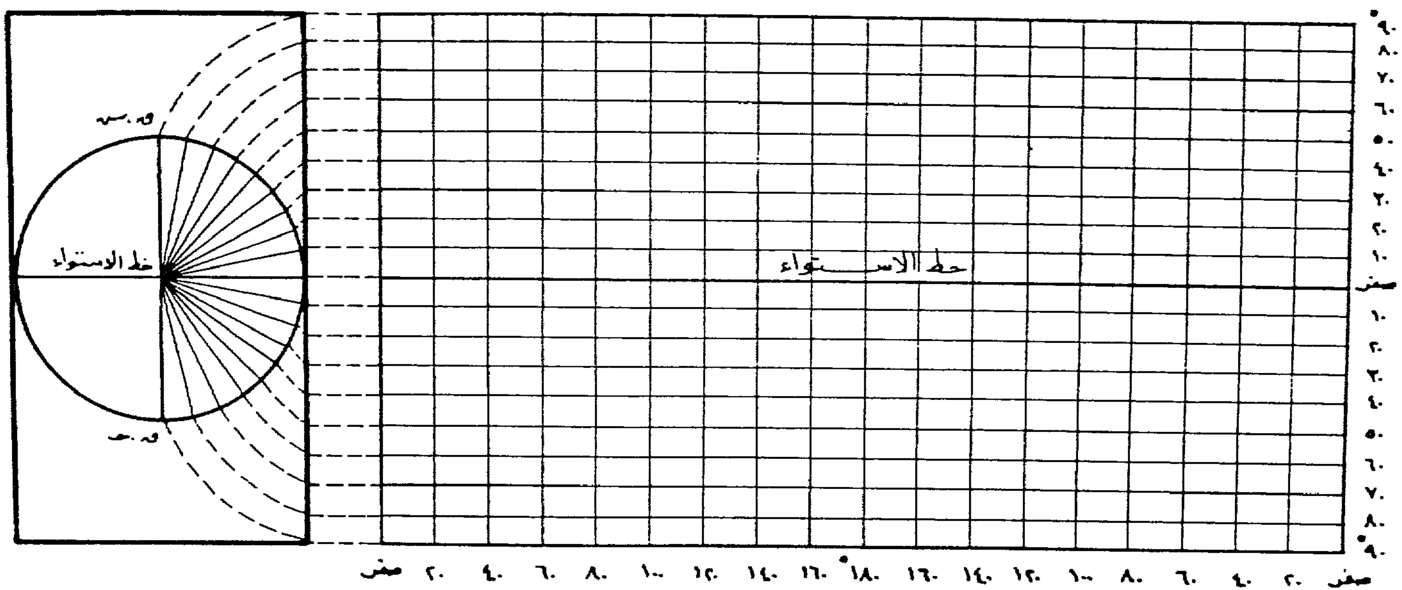
شكل ١٠

ولقد وجد أن أصلح الأجسام الهندسية التي تؤدي هذا العمل هي الأسطوانة والمخروط، ولذلك نجد أن معظم الإسقاطات المشهورة للخرائط الجغرافية مشتقة من هذين الجسمين. وسوف نوضح بعض هذه الطرق المشهورة بضرب بعض الأمثلة عليها .

١ ـ فيما يتعلق بالأسطوانة :

لقد استعملت طريقتان مشهورتان في هذه الحالة، وهما طريقة الإسقاط الإشعاعي، وطريقة الإسقاط المتساوي. وفي هاتين الطريقتين تظهر خطوط الطول متوازية مع بعضها، وكذلك تظهر خطوط العرض متوازية مع بعضها، بينما يتعامد كل منهما مع الآخر تماما. لذلك نتصور وضع الكرة الأرضية بداخل أسطوانة عظيمة، كما هو مبين في الشكل رقم (١)، وبحيث يكون محور الكرة منطبقا مع محور الأسطوانة، وأن تمس الكرة الأرضية هذه الأسطوانة تماما على طول دائرة الاستواء .

بعد ذلك نفصل بين الطريقتين بعض الشيء، ففي حالة الإسقاط الإشعاعي نتصور امتداد خطوط مستقيمة تشع من مركز الكرة الأرضية، وتصل إلى سطحها عند تقابل خطوط الطول والعرض مع بعضها، ثم تستمر في السير على استقامتها حتى تصل إلى سطح الأسطوانة المذكورة . ومعنى ذلك أننا نقلنا فقط تقاطع خطوط الطول والعرض الأرضية من سطح الكرة إلى سطح الأسطوانة. وإذا فردنا بعد ذلك سطح الأسطوانة نجد أن خط الاستواء يحتفظ بطوله الحقيقي، أي إن القياسات التي تؤخذ عليه من الخريطة تكون أطوالها صحيحة، أما باقي خطوط العرض الشمالية والجنوبية فإن أطوالها تزداد عن حقيقتها، وكلما ابتعدنا عن خط الاستواء كبرت هذه الزيادة، ولكنها تظل محتفظة بخاصية الموازاة بينها وبين بعضها البعض. وأما خطوط الطول فإنها تكون متعامدة مع خط الاستواء، وتحتفظ بالمسافات المتساوية بينها كما هي عند هذا الخط، بينما تفقد خاصية تقابلها عند القطبين الأرضيين، وتصبح متوازية تماما. ونلاحظ في هذا الإسقاط أن المسافات بين خطوط العرض لا تكون متساوية، بل تزداد كلما اتجهنا شمالا أو جنوبا بالنسبة إلى خط الاستواء. كما أنه لا يتيسر إسقاط المناطق القريبة من القطب لأنها تحتاج إلى أبعاد كبيرة جدا، وأن نقطة القطب نفسها يكون مسقطها في ما لا نهاية. ونلاحظ من ذلك كله أن منطقة الإسقاط الحقيقي هي المنطقة القريبة من خط الاستواء. بينما سائر الأجزاء الأخرى يحدث بها تضخم، يزداد أثره كلما بعدنا عن خط الاستواء.

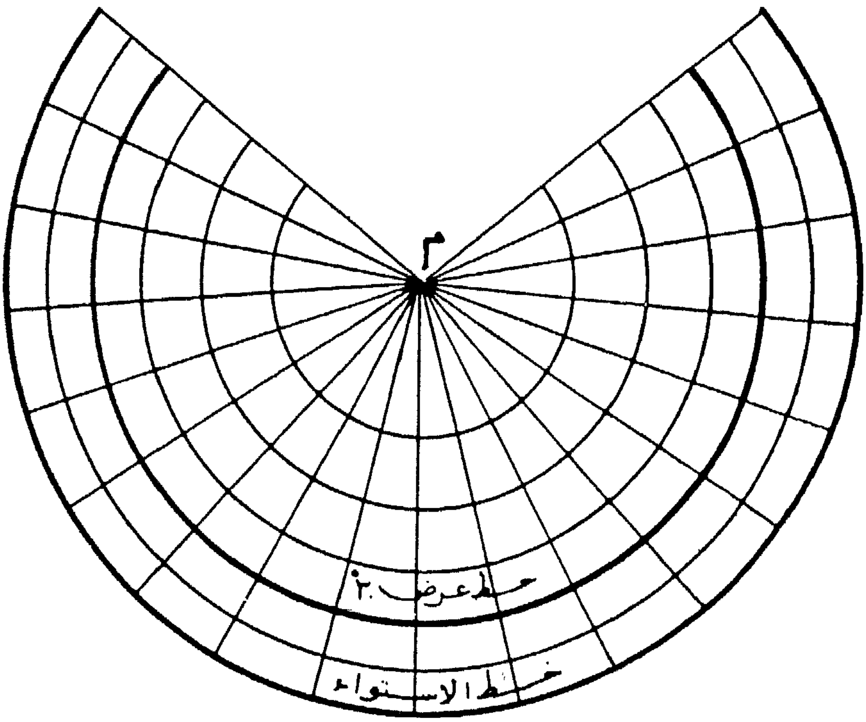

خط الاستواء
خط الاستواء
٩٠ ٨٠ ٧٠ ٦٠ ٥٠ ٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ صفر ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠
صفر ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ ١٢٠ ١٤٠ ١٦٠ ١٨٠ ١٦٠ ١٤٠ ١٢٠ ١٠٠ ٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ صفر

شكل ـ ٢ ـ

ويستعمل هذا النوع في رسم الخرائط والمصورات الايضاحية للعالم لأغـراض الدراسـات الجغرافية والتعليم.

أما في الحالة الثانية، وهي حالة الإسقاط المتساوي، فهناك بعض الشبه مع الطريقة الأولى، وهي أننا نتصور وضع الكرة الأرضية بداخل أسطوانة عظيمة تمس سطحها عند دائرة خط الاستواء كما سبق تماما، وكذلك نرسم الخطوط المشعة من مركز الكرة إلى سطحها عند تقابل خطوط الطول والعرض مع بعضها. وبعد ذلك يقف امتـداد خطـوط الإشعـاع على استقامتها، ولكنها تسير في شكل أقواس حتى تصل إلى سطح الأسطوانة، كما في الشكل رقم (٢) . وتكون المسافات بين هذه الأقواس وبعضها مساوية تماما للمسافات بين خطوط العرض المقاسة على سطح الكرة الأرضية. وفي هذه الحالة نجد أن خطوط الطول تظل كما هي في الحالة السابقة متوازية مع بعضها، وعمودية على خط الاستواء الأرضي، وتفصل بينها نفس المسافات السابقة كذلك. ولكن بالنسبة إلى خطوط العرض فإن المسافات التى تفصل بينها تكون هي نفس المسافات التي كانت تفصل بينها على سطح الكرة الأرضية، ومعنى ذلك أن يكون ارتفاع الأسطوانة مساويا في الطول لنصف محيط الكرة الأرضية تماما، وأن جميع سطح الكرة الأرضية يمكن تصويره على سطح هذه الأسطوانة حتى نقطتي القطبين. وعلى ذلك فإنه من الممكن بيان سطح الكرة الأرضية جميعه على خريطة واحدة، أو عدة خرائط متصلة. أما في حالة الإسقاط الإشعاعي فإنه يتعذر ذلك، حيث إن المناطق القطبية لا يسهل بيان بعضها على أسطوانة الإسقاط، كما يستحيل بيان بعضها الآخر.

والإسقاط الأسطواني عموما يصلح للأعمال الدراسية، حيث إنه يحافظ على الاتجاهات بقدر الإمكان، وبذلك يكون التشابه فيه قريبا من الحقيقة، ولو أن الخريطة الواحدة تحتفظ بمقاييس رسم متعددة تزداد مقاديرها كلما ازدادت مقادير خطوط العرض .



شكل «٢»

٢ ـ الإسقاط المخروطي :

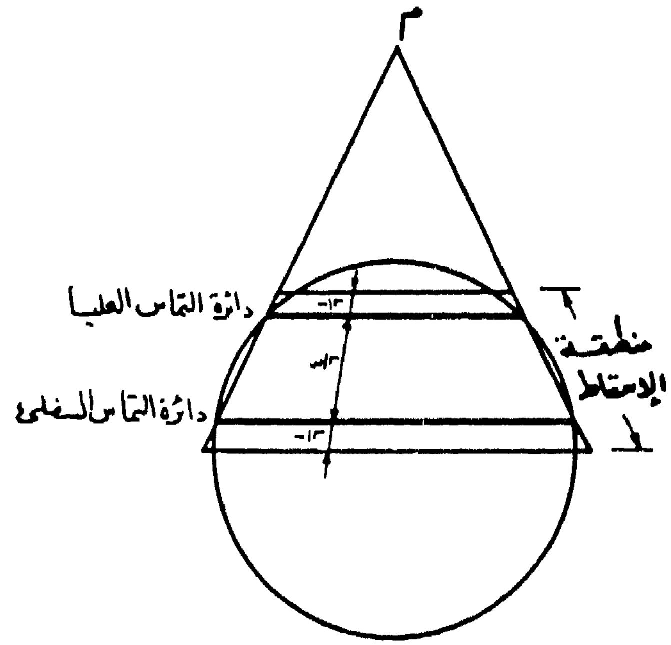
هو النوع الثاني من الإسقاطات المختارة لتمثيل سطح الكرة الأرضية على الخرائط المساحية. وفي هذه الحالة يستعمل المخروط بدلا من الأسطوانة، وله عدة طرق تناسب كل واحدة منها غرضا من الأغراض التي تهمنا أكثر من غيرها عند رسم هذه الخرائط .

والإسقاط المخروطي من أشهر الإسقاطات وأكثرها استعمالا، والسبب في ذلك يرجع إلى أن خطوط الطول على سطح الكرة الأرضية تتجه جميعها نحو القطب، حيث تتجمع في نقطة واحدة. وذلك هو الحال أيضا في الشكل المخروطي، حيث تتجه الرواسم جميعها نحو قمة المخروط .

وفي هذه الحالة تتصور وضع مخروط كبير فوق الكرة الأرضية، بحيث ينطبق محور المخروط مع محور الأرض، وعندئذ تكون قمة المخروط في وضع رأسي فوق القطب الأرضي تماما. ويمكن أن يمس هذا المخروط سطح الكرة الأرضية على امتداد أي دائرة من دوائر خطوط العرض الأرضية، حسب الغرض المطلوب. وهي في الشكل السابق تمس الكرة عند خط عرض ٣٠ درجة، وتكون زاوية رأس المخروط في هذه الحالة ٦٠ درجة، وتمثل النقطة «م» رأس المخروط، كما تمثل النقطة «ق» القطب الأرضي .

وفي هذه الحالة نستعمل طريقة الإسقاط الإشعاعي من مركز الكرة إلى نقط تقاطع خطوط الطول والعرض مع بعضها على سطح الأرض، ثم نمدها على استقامتها حتى تقابل سطح المخروط. وفي هذا الإسقاط نجد أن خطوط الطول تتجه جميعها نحو النقطة «م»، بينما خطوط العرض تتخذ هذه النقطة مركزا لها، انظر الشكل رقم (٣)

كما نلاحظ أيضا أن المنطقة التي يكون عندها التماس بين الكرة الأرضية والمخروط هي أكثر المناطق احتفاظا بصحة التمثيل، أي إن الإسقاط عندها يكون متكافئا ومتشابها مع حقيقته على سطح الأرض، بينما في سائر الأجزاء الأخرى يحدث تشويه، يزداد مقداره كلما بعدنا شمالا أو جنوبا عن منطقة التماس المذكورة. وخطوط الطول بعد الإسقاط ونشر المخروط تكون خطوطا مستقيمة، تشع جميعها من قمة المخروط «م»، بينما تكون خطوط العرض أقواسا متحدة في المركز، والفترات بينها غير متساوية،



شكل "٤"

الإسقاط المخروطي المطابق :

هذا النوع من الإسقاطات المخروطية التي تعتمد على المخروط كواسطة للنقل من الكرة الأرضية إلى الخريطة المساحية، وفي هذه الحالة نجد أن المخروط يقطع جزءا من سطح الكرة الأرضية، أي إنه توجد دائرتان للتماس بين كل من المخروط والكرة، وفي هذه الحالة نجد أن منطقة التطابق بين سطح الكرة الأرضية وبين سطح المخروط تكون أكبر اتساعا من الحالة السابقة، انظر الشكل رقم (٤) .

الإسقاط المتعدد المخروطات :

وفي هذه الحالة من الإسقاط نتصور عددا كثيرا من المخروطات تغلف الكرة الأرضية، وكل مخروط منها يمس هذه الكرة على دائرة من دوائر خطوط العرض، وتكون الإسقاطات على كل مخروط من هذه المخروطات في منطقة التماس الخاصة به .

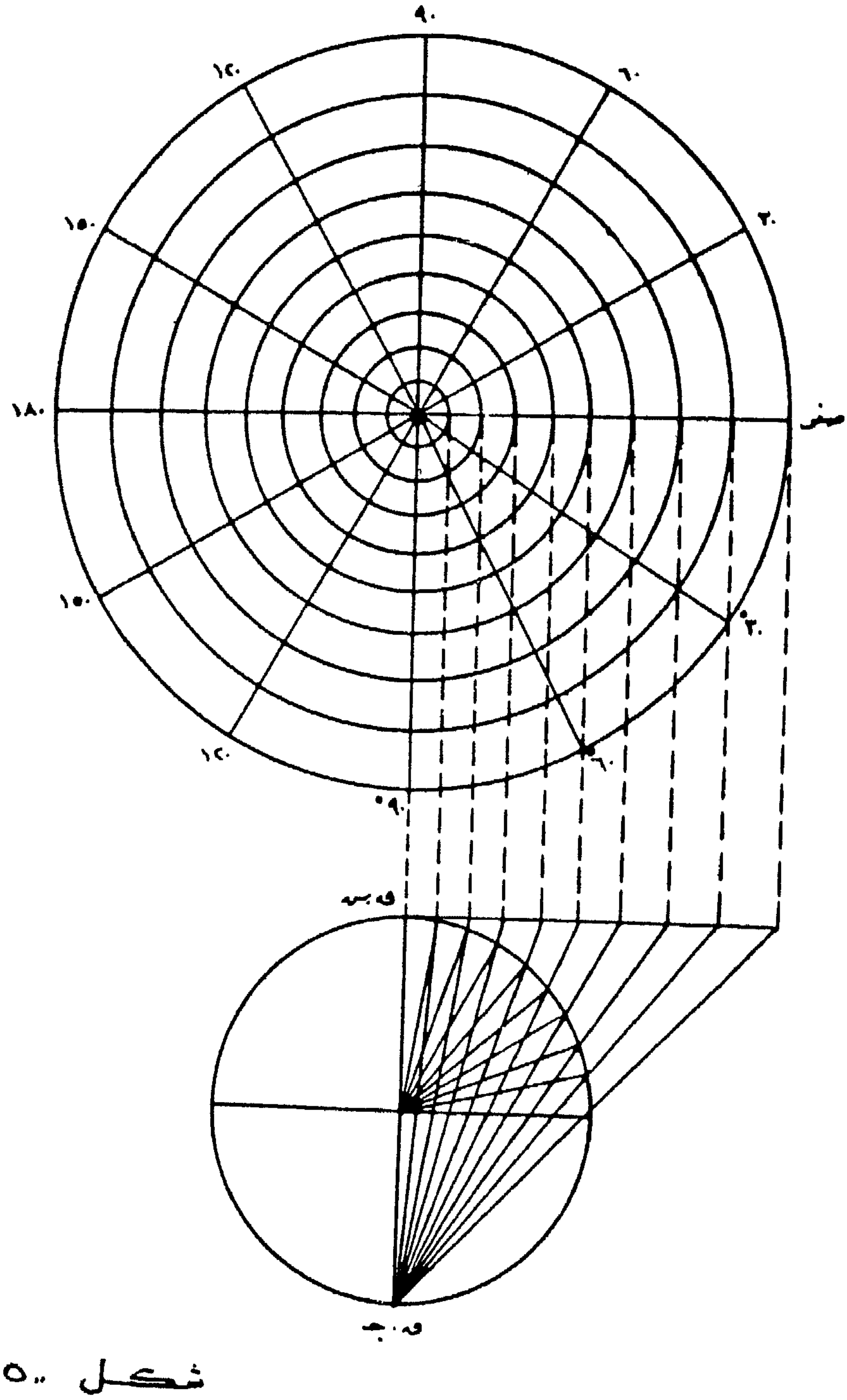
٣ ـ الإسقاط القطبي :

في هذه الحالة يكون الإسقاط من سطح الكرة الأرضية إلى خريطة الإسقاط مباشرة، كما أنه من الممكن اعتبار هذا النوع حالة خاصة من حالات الإسقاط المخروطي السابق بيانها، عندما يمس سطح المخروط نقطة القطب، وتكون زاوية رأس المخروط في هذه الحالة (١٨٠) درجة، أي إن سطح المخروط يصبح مستويا .

وعند استعمال الإسقاط القطبي لا تتسع الخريطة المساحية لأكثر من نصف الكرة الأرضية، إما نصفها الشمالي أو نصفها الجنوبي. وعند الإسقاط القطبي لنصف الكرة الشمالي تكون نقطة الإسقاط هي نقطة القطب الجنوبي، ويكون مستوى الإسقاط عند القطب الشمالي عموديا على محور الأرض، انظر الشكل رقم (٥) .

وفي هذا الإسقاط تظهر خطوط الطول خطوطا مستقيمة، تشع جميعها من نقطة القطب، بينما تكون خطوط العرض دوائر كاملة متوازية متحدة المركز، ومركزها عند القطب الأرضي .

ذكرنا فيما سبق نماذج من الإسقاطات المشهورة على سبيل التمثيل والبيان لا الشرح



شكل "٥"

العام، حتى نستطيع أن نكون فكرة عن موضوع الإسقاطات ونقل الحدود من سطح الكرة الأرضية إلى الخرائط الجغرافية والمساحية. وفي الباب القادم نتحدث عن النوع الجديد من الإسقاط المقصود في هذا البحث، ألا وهو الإسقاط المكي للعالم .

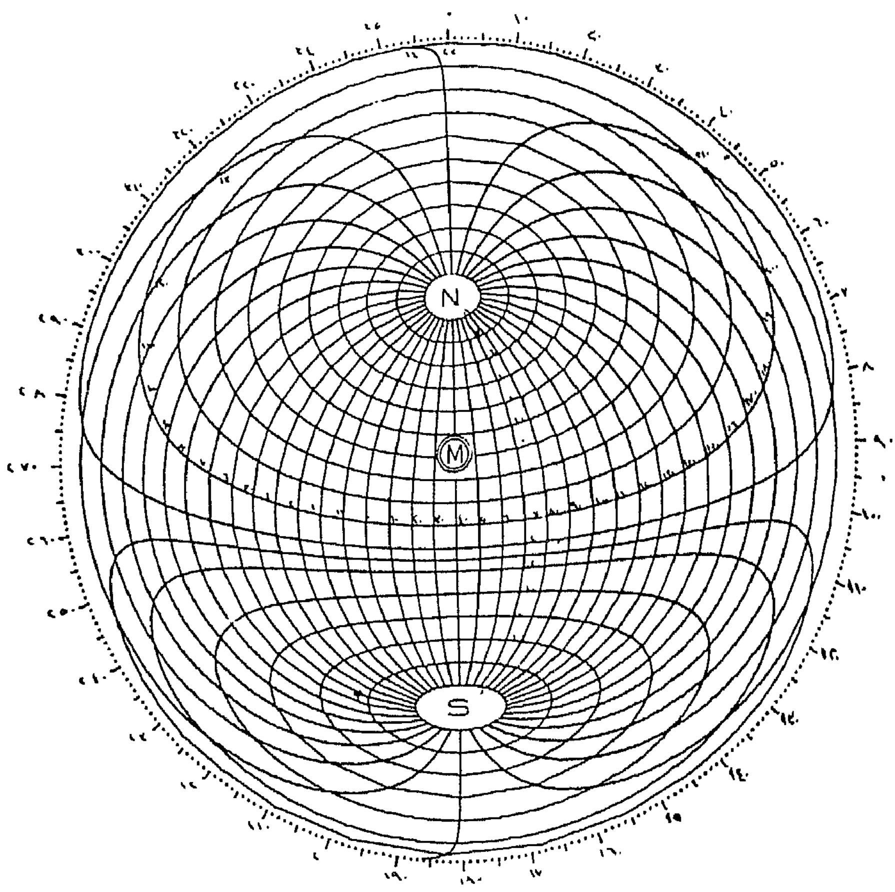
ثانيا : الإسقاط المكي للعالم :

علمنا من المقدمة ما هو المقصود بلفظ الإسقاط في الخرائط المساحية، كما علمنا كذلك من الباب الأول كيفية تطبيق بعض الإسقاطات المستعملة حاليا في أغراض تمثيل سطح الكرة الأرضية على خرائط مستوية. وفي هذا الباب الثاني سوف نتحدث ببعض التفصيل عن الإسقاط المكي شرحا عاما نتجنب فيه المعادلات الرياضية، ونكتفي بالبيان الكلامي .

لقد ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن الإسقاط المكي للعالم هو نوع جديد من جميع الوجوه، والذي دفعنا إلى ذلك العمل هو البحث عن خرائط مرسومة بطريقة خاصة، تساعد على معرفة اتجاه القبلة للصلاة من أي مكان على سطح الكرة الأرضية. ومن هذه الخرائط يتبين مقدار الانحراف الدائري بين أي مكان وبين مدينة مكة المكرمة، ثم بعد ذلك بالاستعانة بالإبرة المغناطيسية، ومقدار زاوية الانحراف المعلومة، نعرف في أي اتجاه نصلي. وعلى ذلك كان الهدف المقصود من رسم هذه الخرائط الجديدة للممالك والدول والقارات هو المحافظة على الاتجاه الصحيح بين أي بلد على سطح الأرض وبين مكة المكرمة. ومعنى ذلك أن إسقاط هذه الخرائط من سطح الكرة الأرضية إلى مستوى الخريطة يجب أن يحافظ أولا وقبل كل شي على الاتجاهات الصحيحة التي تربط بين مكة المكرمة وبين أي محل على سطح الأرض. ولقد جعلنا هذه الخرائط تحافظ كذلك على المسافات الصحيحة بين مكة المكرمة وبين جميع البلدان.

بما أن الأرض كرة منتظمة، إذن من الممكن الربط بين أي مكانين على سطحها بعدد كثير من الأقواس، ولكن الاتجاه الصحيح الوحيد بين هذين المكانين هو أقصر هذه الأقواس طولا، أي إن الاتجاه الصحيح للصلاة في أي مدينة على سطح الأرض هو أقصر قوس يربط بينها وبين مكة المكرمة. وهذا القوس يكون عادة جزءاً من الدائرة العظمى التي تمر بكل من هذه المدينة ومدينة مكة المكرمة. والدائرة العظمى هي الدائرة التي يمر مستواها بمركز الكرة الأرضية .

ولعمل هذا الإسقاط المكي تصورنا وجود سطح مستو يمس الكرة الأرضية عند مدينة مكة



شكل رقم (٦)

N = القطب الأرضى الشمالى S = القطب الأرضى الجنوبى

M = مدينة مكة المكرمـــة

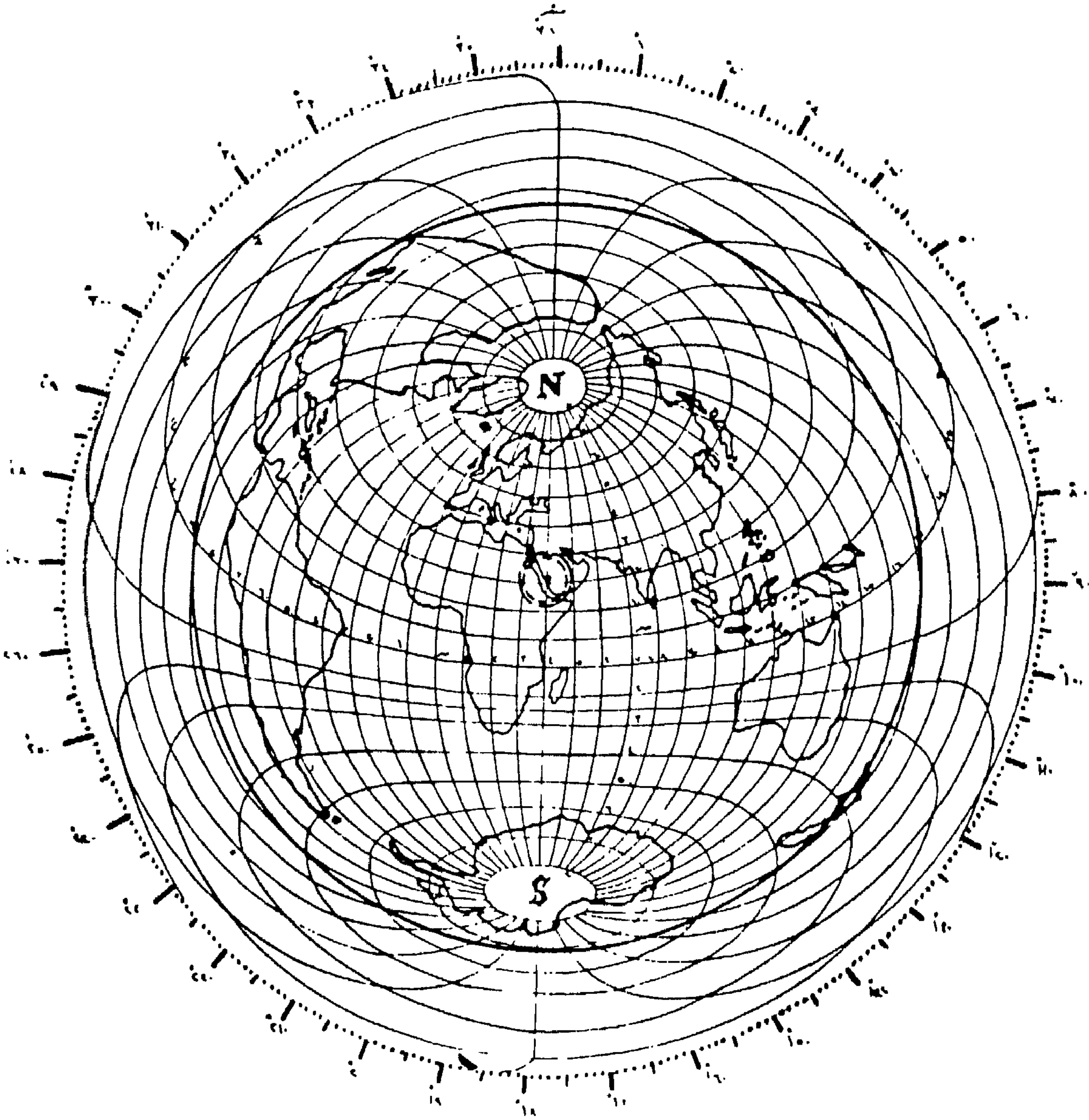
المكرمة، وحددنا على هذا المستوى موقع مكة المكرمة، واعتبرناه نقطة الأصل، كما حددنا كذلك اتجاه الشمال - أي خط الزوال المار بمكة المكرمة - ثم حسبنا الانحرافات الدائرية بين مكة المكرمة من جهة، وبين جميع تقاطعات خطوط الطول والعرض الأرضية من جهة أخرى. وكذلك حسبنا المسافات بين مكة المكرمة وبين جميع هذه الأماكن السابقة .

ومن هذه المعلومات المحسوبة أمكن رسم تقاطعات خطوط الطول والعرض الأرضية على خريطة الإسقاط، محتفظين بالاتجاهات الصحيحة لجميع النقط، وملتزمين بمقياس رسم واحد لجميع المسافات. ومن توصيل نقط التقاطع المذكورة أمكن الحصول على خطوط الطول والعرض الأرضية في إسقاط خاص جديد منسوب إلى مدينة مكة المكرمة، انظر الشكل رقم (٦) .

ومن الواضح أنه يمكن بيان حدود القارات الأرضية والممالك والدول بعد رسم خطوط الطول والعرض، حيث إنها ترتبط بها ارتباطا ثابتا على سطح الكرة الأرضية. وعند ما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبع على خريطة الإسقاط وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي إن مكة المكرمة تعتبر مركزا وسطا للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية، انظر الشكل رقم (٧) وكذلك إذا أخذنا في الاعتبار القارات الثلاث أوروبا وآسيا وإفريقيا التي تمثل العالم القديم عند ظهور الرسالة الإسلامية. نجدها كذلك تكاد تحيط بمدينة مكة المكرمة، انظر الدائرة الصغيرة في الشكل السابق .

وهذه الخريطة للعالم تحتفظ بخاصتين من خصائص الإسقاط، هما: المسافات، والاتجاهات الصحيحة بالنسبة إلى مكة المكرمة. كما يظهر على الدائرة الخارجية للرسم الانحرافات الدائرية لجميع الأماكن الأرضية منسوبة إلى مكة المكرمة، أما المسافات فيمكن قياسها مباشرة على هذه الخريطة .

ومما يجدر ذكره هنا أن هذا الإسقاط الذي يعطي مكة المكرمة مركزا خاصا بين جميع أماكن العالم من الواجب أن يخلد ذكره بعمل أطلس جديد مفصل لجميع الممالك والدول والقارات على سطح الأرض منسوبة إلى مدينة مكة المكرمة. وهذا العمل الجليل نرجو أن يظهر قريبا إلى



مكة المكرمة في الاسقاط المساحي المكي هي مركز العالم

شكل رقم (٧)

عالم الوجود، وأن تتعاون المملكة العربية السعودية على عمله وإنتاجه، حيث إنها أولى الدول الإسلامية بنسبة هذا الأطلس الجديد إليها، وأقترح أن يسمى بـ «الأطلس المكي للعالم» .

وسوف يحتوي هذا الأطلس على نظام جديد عند رسم خرائطه، نعلم منه اتجاهات القبلة للصلاة في جميع بقاع الأرض بسهولة تامة، ومن غير أية مشقة. ونسأل الله تعالى دوام التوفيق، وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان، والتوجيه الدائم إلى عمل الخير، والحمد لله رب العالمين .

النسيج الحضرى التونسى

دكتور حافظ ستهم

من المعلوم أن ظاهرة التحضر L'urbanisation بلغت في الجمهورية التونسية درجة مرتفعة بالنسبة لبلد ما زالت نسبة التصنيع فيه محدودة، وتشغل فيه الزراعة أكثر من نصف السكان. وزيادة على ذلك فإن السكان الحضريين في نمو مستمر وسريع. فإذا اعتبرنا أن السكان الحضريين يضمون كل سكان التجمعات السكنية التي تفوق ٢٠٠٠ ساكن فإن نسبة التحضر ارتفعت من ٣٠٪ من جملة سكان البلاد سنة ١٩٣٦ إلى ٣٥٪ سنة ١٩٤٦، إلى ٤١٪ سنة ١٩٥٦، إلى ٤٧٪ سنة ١٩٦٦، إلى ٥٠٪ سنة ١٩٧٥، أي إن نصف التونسيين من الحضر(١) .

لكن التوزع الجغرافي للحضر في القطر التونسي يتصف بتباين شديد بين الواجهة الساحلية الشرقية المكتظة بالسكان والممتازة بنسبة عالية من التحضر، إذ إن ثلاثة أرباع السكان الحضريين يرتكزون في المنطقة الساحلية الشرقية على عرض ١٠ كم ، وبين المناطق الداخلية الغربية التي تحتوي على أراض شاسعة وكثافات سكانية منخفضة ومدن قليلة ومتوسطة الحجم أو صغيرة، وتمتاز بهيمنة الزراعة ونمط العيش الريفي .

ويشكل هذا التباين الإقليمي بين تونس الساحلية وتونس الداخلية ظاهرة قديمة، لكن حدتها تزايدت في عهد الحماية الفرنسية، واستمرت بعد الاستقلال، وذلك رغم الرغبة الواضحة عند المخططين التونسيين في الحد من هذا التباين. ويرجع التمركز الساحلي لأغلب المدن التونسية إلى أهمية التجارة البحرية المتوسطة، والصلات بين القطر التونسي والعالم الخارجي عبر التاريخ. لكن الأمور لم تكن دائما على هذا المنوال وخاصة بعد الفتح العربي الإسلامي لإفريقيا .

١ ـ النظام الحضري التونسي قبل الحماية :

كانت الحياة الحضرية في العهد البونيقي والروماني تعتمد على الموانئ والمدن الساحلية. ويقال: إن أول مدن إفريقيا كانت كلها ساحلية، وأسسها الفينيقيون، وتمثل مدينة قرطاج رمز الحضارة الإفريقية البونيقية والرومانية . ويرجع الدور الأساسي لقرطاج والمدن الساحلية إلى أهمية العوامل السياسية في نشأة ونمو المدن، وكذلك إلى التجارة الخارجية المتوسطة في ذلك العهد بين الضفة الإفريقية للبحر الأبيض المتوسط والضفتين الآسيوية والأوروبية .

لكن فتح المسلمين لإفريقيا وتأسيس مدينة القيروان والدولة القيروانية شكل تحـولا أساسيا للنظام الحضري التونسي المتمركز في القسم الشمالي الشرقي حتى قرطاج والوطن القبلي وإقليم بنزرت ، فانتقل الهيكل الأساسي للنظام الحضري التونسي إلى الوسط التونسي في منطقة داخلية بعيدة عن البحر، تعتمد على مسالك تجارية داخلية، تربطها بالمغرب الأوسط والمغرب الأقصى وبإفريقيا السوداء عبر الصحراء، وبالمشرق عن طريق طرابلس البري. وقد ساعد هذا النظام الحضري على ازدهار القيروان والمدن التابعة لها مثل صبرا والمنصورية، وكذلك المدن الصحراوية التي أطلق عليها تعبير «موانئ الصحراء»، مثل مدن الجريداي توزر ونفطة وكذلك غدامس(٢) في أقصى الجنوب التونسي وغيرها. وتعتمد أيضا على مسالك تجارية تربطها بموانئ الساحل، مثل المهدية وسوسة. وهذا يدل على أن التجارة البحرية استمرت إلى جانب التجارة القارية، وكانت تشكل عنصرا أساسيا للعلاقـات مع المشرق الإسلامـي، وخاصة في العهد الفاطمي والزبيرى .

ثم تسبب التدهور الاقتصادي والسياسي الذي بلغ أوجه في القرن الحادي عشر الميلادي والقرون التالية له، وساعد العرب البدو بني هلال وبنى سليم على الهجوم تم التسرب إلى جميع أنحاء إفريقيا وتفكيك الدولة الزيرية، والجور على السكان المستقرين في المدن والأرياف في تقلص المدن الداخلية واندثار العديد منها مثل صبرا والمنصورية، وانكماش القيروان وراء أسوارها الدفاعية، والتجاء الحياة الحضرية إلى المدن الساحلية .

وهكذا فنرى الدولة الحفصية تختار مدينة تونس التي خلفت قرطاج الرومانية كعاصمة جديدة لها في القرن الثالث عشر الميلادي، فتوسعت مدينة تونس ومدن ساحلية أخرى مثل بنزرت وسوسة والمهدية وصفاقس وقابس وازدهرت، بينما شهدت القيروان تدهورا عمـرانيا مستمرا رغم الجهود التي قام بها بعض الملوك في العهد الحفصي والحسيني لترميمها وإحياء مجدها .

لكن هذا الازدهار الحضري كان مؤقتا، ولم يكتب له الدوام، فبعد سقوط غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي احتدت الحروب بين المسلمين والمسيحيين في البحر الأبيض المتوسط، وتسببت الهجومات المستمرة على السواحل في تعميم نظام القرصنة عند المسلمين والمسيحيين معا، فتدهورت التجارة الدولية، وكذلك الصناعة، وكان لهذا الظرف الجديد أسوأ

التأثيرات على الحياة الحضرية، وأصبحت المدن تحت سيطرة القراصنة في كامل أنحاء المغرب العربي مثل مدينة سلا في المغرب الأقصى، ومدينة الجزائر في المغرب الأوسط، وكذلك الشأن بالنسبة للموانئ التونسية في أواخر العهد الحفصي وفي العهد المرادي وأوائل العهد الحسيني .

وكانت كل المدن مهددة من طرف المهاجمين بجميع أصنافهم، أي العرب البدو بالنسبة للمدن الداخلية، والقراصنة والجيوش البحرية المسيحية، وكذلك العرب البدو بالنسبة للموانئ والمدن الساحلية. ولذا فلقد دعمت حماية كل هذه المدن بأسوار دفاعية وقلعات وأبراج أو قصبات لصد المهاجمين والدفاع عن السكان، وتقلصت أغلب المدن، وأصبحت صغيرة الحجم، وتتصف ببناءات متراصة وشوارع ضيقة، وكل ذلك لكثرة الحروب الفتاكة والهجوم المستمر وواجبات الدفاع.

لكن عندما استطاعت الدول الأوربية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر السيطرة من جديد على الملاحة في البحر الأبيض المتوسط وحرمت القرصنة، وتدخلت في الشؤون الداخلية لبلدان المغرب العربي، وضمتها شيئا فشيئا إلى منطقة نفوذها الاقتصادية والتجارية وأخيرا السياسية، عاد تدريجيا الدور الأساسي للتجارة الخارجية في القرن التاسع عشر، وظهر من جديد التمركز الحضري الساحلي، وخاصة المكانة المرموقة لتونس العاصمة. ففي سنة ١٨٨٠ أي قبيل الحماية كان ميناء حلق الواد (وهو ميناء مدينة تونس) يقوم بـ ٧٥٪ من التجارة البحرية للإيالة التونسية .

لكن هذا التمركز الحضري الساحلي كان معتمدا على اقتصاد منهار وبعدد قليل من السكان (١٢٠٠٠٠٠ نسمة سنة ١٨٨١م حسب تقديرات أغلب الملاحظين في ذلك العهد والمؤرخين)، وعلى نسيج حضري هزيل وعديم التوازن. ويمكن التيقن من انهيار النشاطات الحضرية وتقلص المدن التونسية واختلاف الوضع آنذاك بالنسبة للوضع الحالي وذلك بعرض تقديرات لعدد سكان بعض المدن التونسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومقارنتها مع الأرقام الحالية حسب تعداد سنة ١٩٧٥:

سيساعد انتصاب الحماية الفرنسية فى تدعيم التمركز الساحلي وجعله يخدم المصالح الاقتصادية والاستعمارية التى تشكل التجارة الخارجية عنصرا أساسيا منها .

اسم المدينة	عدد السكان سنة ١٩٨٧/٨٣	عددالسكان سنة ١٩٧٥
تونس العاصمة	١٢٥٫٠٠٠ [٣]	٩٠٠٫٠٠٠
صفاقس	٣٩٫١٠٠	٢٦٠٫٠٠٠
القيروان	١٣٫٧٠٠	٥٦٫٥٠٠
مساكن	٩٫٠٠٠	٣٣٫٠٠٠
نفطة	٨٫٨٠٠	١٢٫١٠٠
قابس	٧٫٣٠٠	٤٣٫٠٠٠
توزر	٦٫٩٠٠	١٧٫٥٠٠
المكنين	٦٫٦٠٠	٢٧٫٠٠٠
سوسة	٦٫١٠٠	٨٠٫٥٠٠
القلعة الكبرى	٦٫١٠٠	٢٣٫٠٠٠
بنزرت	٦٫٠٠٠	٨٤٫٠٠٠ [٤]
المنستير	٥٫٦٠٠	٣٣٫٠٠٠
لباجة	٥٫٠٠٠	٤١٫٠٠٠
الكاف	٤٫٩٠٠	٣٠٫٧٥٠
نابل	٤٫٠٠٠	٤٨٫٥٠٠ [٥]

٢ ـ نموذج التحضر في عهد الحماية :

ارتكزت السياسة الاقتصادية الاستعمارية على استغلال الأراضي الزراعية الخصبة في الشمال التونسي، وعلى استغلال الخيرات المنجمية للبلاد مثل الفوسفات والحديد والرصاص.. إلخ، أي على إنتاج مواد خام موجهة للتصدير نحو فرنسا وغيرها من الدول. وهكذا فقد رسم الاستعمار الفرنسي لتونس دور إنتاج المواد الأولية، واستهلاك المواد المصنعة المستوردة. ويفسر هذا الاتجاه الاقتصادي الجديد الدور الرئيسي للموانئ .

كانت الإيالة التونسية تملك قبل انتصاب الحماية ١٦ ميناء صغيرا وبسيطا غير مجهز بالتجهيزات البحرية المعروفة في ذلك العهد في أوروبا، فقررت سلطة الحماية تهيئة أربعة موانئ عصرية فقط موزعة من الشمال إلى الجنوب، وهي : بنزرت ، وتونس حلق الواد ، وسوسة، وصفاقس ، مع إعطاء دور دفاعي إلى بنزرت، وذلك بتشييد ميناء حربي في بنزرت، وتأسيس مدينة جديدة مجاورة على بحيرة بنزرت ، وهي فرفيل Ferryville وتجهيزها بترسانة للسفن البحرية ، وذلك في نطاق الاستراتيجية العسكرية الفرنسية في البحر المتوسط .

ولقد اعتمدت هذه السياسة الاقتصادية على وسائل النقل البرية لرفع المواد المصدرة وتوزيع المواد المستوردة، وخاصة على السكك الحديدية، ولذا فباستثناء الخط الحديدي الساحلي الرابط بين الشمال والجنوب فإن أغلب السكك الحديدية متجهة من الشرق إلى الغرب، أي من الموانئ إلى المناجم والسهول الزراعية الخصبة داخل البلاد. وأهم هذه الخطوط خط بنزرت ـ نقرة لنقل الحديد والرصاص والخارصين (الزنك)، وخط تونس ـ جريسة ـ القلعة الجرداء لنقل الحديد والفوسفات والحبوب، وخط سوسة ـ أم العرائس لنقل الفوسفات ، وأخيرا خط صفاقس ـ المتلوي الأساسي لنقل فوسفات حوض قفصة.

وهكذا فإن النظام الاقتصادي الاستعماري ساعد على نمو عدد محدود من المدن الساحلية حيث بعثت كل النشاطات التجارية والخدمات وبعض النشاطات الصناعية في العشرينات الأخيرة من عهد الحماية، وحيث استقر أغلب الأوربيين . ففي سنة ١٩٣٦ كان عدد الأوروبيين ٢١٣٠٠٠ نسمة، من بينهم ١٣٤٠٠٠ نسمة في المراقبة المدنية[٦] لتونس

العاصمة . وقد تدعم التمركز الحضري الساحلي بعد سنة ١٩٣٠ باندلاع الثورة الديموغرافية التي أدت إلى حركة نزوح مستمرة من الأرياف إلى المدن أى خاصة من القسم الداخلي للبلاد إلى المدن الساحلية، ولا سيما تونس العاصمة. فبينما نلاحظ أن مدن المناطق التي تتصف باقتصاد تقليدي لم يطرأ عليه أي تعصير مثل التجمعات الحضرية للساحل، باستثناء سوسة، وكذلك التجمعات الحضرية الموجودة في الواحات الجنوبية، باستثناء قفصة، شهدت بين سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٥٦ نموا ديموغرافيا منخفضا بالنسبة للمعدل التونسي، وساهمت في تغذية حركة الهجرة إلى مدن أخرى، نرى أن مدن المناطق الساحلية الغنية والمتطورة والتي تدعمت بازدهار زراعة الحوامض وكرم العنب والزيتون والخضر مثل الوطن القبلي[٧] وساحل بنزرت احتفظت بنموها الدموغرافي، وكذلك في مدينة القيروان لأهمية الصناعات التقليدية فيها ودورها الإداري بالنسبة لقسم كبير من السباسب السفلي .

ونلاحظ أيضا أن المراكز الواقعة في مناطق انتشار الاستعمار الزراعي الأوربي مثل باجة وجندوبة والكاف وسالم شهدت نموا سريعا يفوق المعدل التونسي، وكذلك الشأن بالنسبة للمراكز التجمعية مثل جريسة في إقليم الكاف و ٤ مدن حوض الفوسفات بمنطقة قفصة، أي المتلوي والرديف وغيرها. لكن هذا النمو الحضري الداخلي مرتبط بارتفاع عدد عمال المناجم أو بالخدمات أو بالنزوح من الأرياف ـ ومن المعروف أن مدن وادي مجردة مكتظة بالنازحين العاطلين ـ ويضم مدنا صغيرة تحتوي على أقل من ٢٠٠٠ ساكن في غالب الأحيان .

لكن النمو السريع الأساسي يضم المدن الموانى الأربعة، أي تونس العاصمة التي ارتفع عدد سكانها بـ ١٠٠٪ من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥٦، فقفز من ٢٦٥ر٠٠٠ ساكن إلى ٥٦٦ر٠٠٠ ساكن، وصفاقس التي بلغ عدد سكانها ١٠٠ر٠٠٠ نسمة بعد العاصمة، وسوسة التي بلغت ٤٨٠٠٠ نسمة سنة ١٩٥٦، وبنزرت التي يفوق عدد سكانها ٤٥٠٠٠ ساكن. ويمكن تفسير هذا النمو السريع باندلاع الثورة الديمغرافية كما رأينا، وكذلك استفحال الأزمة الاجتماعية في الأرياف على أثر استحواذ المستعمرين الأوربيين على أخصب أراضي الشمال التونسي، والثورة الديمغرافية، والاستعمال المتزايد للآلات الميكانيكية في الزراعة بعد سنة ١٩٢٠، وظهور البطالة وكذلك المجاعة التي عرفتها البلاد في السنوات الجافة المتواصلة من عام ١٩٤٣ إلى عام ١٩٤٧م .

ورغم بعث بعض الصناعات العصرية أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها في تونس العاصمة وصفاقس فإن عدد النازحين يفوق بكثير عدد مواطن الشغل الجديدة، هذا ما يفسر نشأة الأحياء القصديرية أو أحياء الأكواخ حول المدن وخاصة حول تونس العاصمة، ولقد بلغ عدد سكان أحياء الأكواخ حول مدينة تونس سنة ١٩٥٦ بلغ ١٠٥٠٠٠ نسمة، أي ٢٠٪ من سكان العاصمة، واتخذت المدن الكبرى منذ ذلك العهد الوجه morphologie الثلاثي المعروف، فأصبحت تحتوي على ثلاثة أقسام متباينة: المدينة القديمة أو المدينة La Medina ، والمدينة العصرية أو الأوربية المتكونة من عمارات وأحياء فيلات وحدائق La villeneuve ou ville europeenne وأخيرا أحياء الأكواخ Les gou-bivilles في الضواحي .

إذن شهدت البلاد التونسية نموا حضريا هاما بعد اندلاع الثورة الديموغرافية، واستفادت من هذا النمو خاصة المدن الساحلية، واستحوذت تونس العاصمة على نسبة عالية من هذا النمو، ونتج عن هذا التطور استفحال التباين الحضري الإقليمي بين الواجهة الساحلية الشرقية والمناطق الداخلية الغربية. ويبدو هذا التباين في ارتكاز ٨٠٪ من الصناعات التحولية في تونس العاصمة، و ٩٠٪ من هذه الصناعات في المدن الساحلية من بنزرت إلى صفاقس في سنة ١٩٥٦ .

٣ ـ نمط التحضر بعد الاستقلال: متابعة التحضر الساحلي ـ الجهود للحد من الظاهرة :

أظهرت السلطات التونسية بعد الاستقلال وإلى يومنا هذا اهتماما بالتباين الإقليمي بين تونس الساحلية وتونس الداخلية، واتخذت عدة إجراءات للسير نحو توازن إقليمي، ومن بين الإجراءات المتخذة يجدر ذكر المجهود الكبير المبذول منذ الاستقلال لمد المدن الداخلية وخاصة مراكز الولايات بتجهيزات إدارية واجتماعية وثقافية هامة من إدارات متفرعة عن الوزارات المركزية ومدارس ابتدائية وثانوية ومستشفيات .. إلخ. وكذلك إيجاد مصانع في المنطقة الداخلية رغم الصعوبات المالية والبشرية طيلة الفترة الواقعة بين سنة ٦٢ ـ ١٩٧٠، ونخص بالذكر منها معمل السكر بباجة، ومعمل عجين الورق بالقصرين.

لكن أمام الصعوبات المالية والبشرية، وانعدام الخدمات داخل البلاد، واختلال ميزان المداخيل والمدفوعات للمعامل الداخلية، فإن الاستثمارات الصناعية المنجزة في هذه الفترة

تدفقت خاصة على المناطق الساحلية الشرقية. وتمثلت هذه الاستثمارات في تحويل الميناء الحربي وترسخانة بنزرت ـ منزل بورقيبة إلى منطقة صناعية، وذلك ببعث معمل لتكرير النفط، ومعمل للفولاذ، وصناعات تعدينية، وصناعة النسيج، وفي تصنيع مدن ومراكز الساحل، وذلك ببعث مصانع للنسيج وصناعات تعدينية، وفي تأسيس القطب الصناعي الجديد بقابس الذي يعتمد على ميناء عميق، وعلى الصناعات الكيمياوية الفوسفاتية (والآزوتية)، وعلى محطة توليد الكهرباء الحرارية، وعلى معمل للإسمنت ومعمل للآجر. ورغم الرغبة في الحد من التمركز الصناعي في تونس العاصمة وصفاقس فإن هاتين المدينتين (وخاصة العاصمة) ما زالتا تشهدان نموا صناعيا نشيطا .

ولهذا فعوضا أن يقع توزيع ظاهرة التصنيع، وبالتالي التحضر داخل البلاد، فإن الصناعة تسربت إلى مناطق ساحلية شرقية جديدة، أي الساحل وقابس وبنزرت ـ منزل بورقيبة ـ ودعمت مقوماتها الحضرية القديمة. ونلاحظ أخيرا أن الاستثمارات الصناعية القومية والأجنبية منذ سنة ١٩٧٠ تتجه فقط إلى المناطق الساحلية أو تكاد .

وقد ساهم النشاط السياحي الذي انطلق منذ سنة ١٩٦٠ في تنشيط النمو الاقتصادي والاجتماعي على الواجهة الساحلية الشرقية، وفي تدعيم التباين الحضري بين الساحل الشرقي والمناطق الداخلية. ورغم محاولة السلطات تجهيز المناطق الداخلية بالنزل التي تمثلت في إنجازات الشركة السياحية الحكومية (الشركة الفندقية والسياحية التونسية) بين سنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٦٥ فإن التجربة برهنت على أن السواح الأجانب لا يرغبون في معظمهم إلا في الشواطئ .

ولذا ترى اليوم الممولين التونسيين والأجانب يركزون كل تمويلاتهم في المنطقة الساحلية الشرقية، أي ضواحي تونس العاصمة وفي منطقة نابل والحمامات وسوسة(٨) وجربة وجرجيس. وهكذا فإن أكثر من ٩٠٪ من التجهيزات الساحلية في البلاد مرتكزة على الساحل الشرقي .

إذن فلا غرابة أن نلاحظ أن النمو الاقتصادي المتواضع لتونس الداخلية والنمو السريع والمتنوع للواجهة الساحلية ما زالا يساهمان في حركة هجرة مستمرة من المناطق الداخلية إلى المدن الساحلية. ولقد برهن تعداد سنة ١٩٧٥ أن المدن الساحلية بما فيها مراكز ساحل سوسة

وقابس وجربة وجرجيس تشهد نموا ديموغرافيا هاما يفوق ٣٪ سنويا، وأحيانا ٥٪، وقد ساعد قيام النشاطات الصناعية الجديدة، وكذلك النشاطات السياحية، والضغط الديموغرافي على المدن الساحلية بتجهيزات للخدمات البنكية والتجارية والتجهيزات المدرسية والصحية والإدارات وكذلك الطرقات وتوسيع أو خلق موانئ(٩) أو مطارات(١٠) جديدة .. إلخ .

إذن ساعد كل التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي تشهده الجمهورية التونسية منذ الاستقلال على ازدهار المدن الساحلية وعلى تدعيم التحضر الساحلي الشرقي، ومما لا شك فيه أن ظاهرة التحضر الساحلي ظاهرة أساسية في القطر التونسي، وهي نتيجة للعوامل الطبيعية وخاصة العوامل البشرية والتطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي شهدته البلاد في عهد الحماية الفرنسية وفي عهد الاستقلال. ويتميز هذا التطور بالتفتح الكامل على السوق الخارجية، وبالدور القيادي للمدن والموانئ الشرقية التي تعتمد على تجارة التصدير والتوريد. ولقد بينا أن هذا الاتجاه الذي انطلق في عهد الحماية استمر بعد الاستقلال وحتى في الفترة التعاضدية، واستفاد بالطاقات البشرية والخبرات الفنية والتجهيزات العامة الموجودة في المدن الساحلية، وتدعم هذا الاتجاه بظهور النشاط السياحي وارتكازه على الحرفيين الأجانب قبل كل شيء .

وهكذا فمن الواضح أن التمركز الحضري الساحلي وتدعيمه المستمر يمثل ظاهرة جغرافية جوهرية في الجمهورية التونسية، وأن هذه الظاهرة تكاد تكون حتمية، ويصعب القضاء عليها، لأنها نتيجة سياسة التفتح على العالم الخارجي وعلى الأسواق الخارجية، وخاصة على الأقطار الأوروبية المتوسطية. لكن هذا لا يعني أن لا فائدة ولا جدوى في محاولة الحد من التباين الإقليمي، والسعي وراء تنشيط المدن الداخلية بل بالعكس .

لكن يجب التيقن من أن سياسة تنشيط المدن الداخلية لا يمكن أن تكون نتيجة تطور عفوي للمجتمع التونسي الحالي. لقد رأينا أن السياسة المتبعة تساعد على ازدهار الواجهة الساحلية الشرقية، وعلى ركود المناطق الداخلية، ومما لا شك فيه أيضا أن تنشيط المدن الداخلية عملية غير مربحة في الفترة الأولى ، ولا يمكن أن ننتظر شيئا من التمويلات الخاصة القومية أو الأجنبية التي تسعى وراء الربح الوافر والفوري، وكما برهنت تجربة العشرية ٦٢ ـ ١٩٧١ فإن الطريقة الوحيدة للحد من التباين الإقليمي، ومحاولة تنشيط المدن الداخلية،

تتمثل في سياسة صناعية نشيطة، وتمويلات من طرف الدولة لبعث مصانع في المدن الداخلية، لا ترمي إلى الربح الأقصى والسريع، بل تسعى وراء وضع البذور لتوسع صناعي مستمر من المترقب أن يكون غير مربح في أول الأمر، ولكنه قادر على خلق مناخ جديد وتعطيل الهجرة من المناطق الداخلية إلى السواحل الشرقية، أو الحد منها على الأقل، وتكوين اليد العاملة الفنية.

إذن فإن سياسة التهيئة العمرانية المثالية، والبحث عن تسلسل حضري متوازن، لا تتماشى إلا مع تدخل نشيط للتمويلات الحكومية في كل الميادين وخاصة في الميدان الصناعي. ويمكن القول بأن مستقبل النظام الحضري التونسي مرتبط بسياسة الدولة في الميدان الاقتصادي والاجتماعي، وهي الوحيدة القادرة على السير ضد الاتجاه السائد، والحد من التباين الإقليمي، والسعي وراء التوازن الحضري المنشود .

وإذا لم تتدخل الدولة فإن التباين الإقليمي، وازدهار المدن الساحلية الشرقية على حساب المدن الداخلية، سيتفاقم لأن هذه الظاهرة الجوهرية جزء لا يتجزأ من سياسة التفتح الاقتصادي والبشري للجمهورية التونسية على الخارج، ونتيجة حتمية لهذا التفتح وللتجارة الخارجية بقسميها التصدير والتوريد، ولأهمية التجارة الخارجية وبالنسبة للصناعة، وذلك بمدها بالمواد الأولية والطاقة وكذلك التجهيزات الأساسية وبالنسبة للزراعة وذلك بتوريد قسم من الأسمدة والحبوب وتصدير الزيوت والغلال وغيرها، وكذلك لفقر التحتية التونسية وضآلة المواد المعدنية القادرة على خلق أقطاب صناعية نشيطة وهامة داخل البلاد .

الحـــواشي

(١) لا مجال هنا للدخول في مناقشة الداعي لاختيار ٢٠٠٠ ساكن لاعتبار التجمعات السكنية كمدن، ومما لا شك فيه أن الحد الأدنى للتجمعات السكنية التي تعتبر حضرية يختلف من بلد إلى آخر، فمنهم من يختار ٥٠٠٠ ساكن، ومنهم من يختار ١٠٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠ ساكن . فإذا أخذنا هذه الاختيارات بعين الاعتبار فإن نسبة التحضر في الجمهورية التونسية تبلغ :

٤٦ر٠٦٪ من مجموع السكان إذا اعتبرنا فقط التجمعات السكانية التي تعد ٥٠٠٠ نسمة فأكثر.

٤٠ر٣٦٪ من مجموع السكان إذا اعتبرنا فقط التجمعات السكانية التي تعد ١٠٠٠٠ نسمة فأكثر .

٣٣ر٠٧٪ من مجموع السكان إذا اعتبرنا فقط التجمعات السكانية التي تعد ٢٠٠٠٠ نسمة فأكثر .

أي إن نسبة التحضر تبقى هامة مهما كان الحد الأدنى الذي يقع عليه الاختيار.

(٢) وتجدر هنا الإشارة إلى الدور الهام جدا الذي لعبته المدينة الصحراوية سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى .

(٣) ١٢٥ر٠٠٠ ساكن في تونس العاصمة، من بينهم ٣٤٠٠٠ أوروبي، وكل المدن التونسية الأخرى تعد أقل من ١٥٠٠٠ نسمة، ما عدا صفاقس .

(٤) المنطقة الحضرية لبنزرت أي بلديات بنزرت ومنزل جميل ومنزل عبدالرحمن، أما بلدية بنزرت وحدها فتعد ٦٨ر٥٠٠ نسمة .

(٥) يضم دار شعبان القرى المتصلة بنابل اليوم .

(٦) تمثل المراقبة المدنية تقسيما إداريا في عهد الحماية ، يعادل الولاية اليوم .

(٧) الوطن القبلي تسمية قديمة ومتداولة راجعة لعهد البايات لولاية نابل .

(٨) تجدر الإشارة هنا إلى المشروع الضخم الذي هو بصدد الإنجاز ، ألا وهو مشروع القفطاوى المسمى أحيانا مشروع «سوسة الشمالية» .

(٩) ميناء قابس .

(١٠) مطار صفاقس ـ المنستير ومطار جربة مليتة .

مشكلات التخطيط فى المدينة العربية

دكتور عبدالإله أبو عياش

مقدمـة :

شهدت المدينة العربية خلال العقود الثلاثة الماضية نمواً حضرياً سريعاً ومفاجئاً، وقد نجم هذا النمو الحضري المفاجئ من التزايد السكاني السريع من ناحية، ومن تسارع عملية التحضر من ناحية أخرى. فحتى أوائل هذا القرن لم يكن معدل الزيادة السكانية السنوية أكثر من واحد بالمائة، إلا أن هذه النسبة أخذت بالتزايد فى العقود اللاحقة نتيجة التطورات التى شهدتها مجالات الخدمات الصحية، وأدى تزايد العناية الصحية إلى تناقص نسب الوفيات وتزايد نسب الولادات. ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية أخذت نسبة الزيادة الطبيعية تصل إلى اثنين بالمائة، وفى الستينات والسبعينات وصلت النسبة إلى حوالي ثلاثة بالمائة. وقد انعكست آثار هذه الزيادات المضطردة على أعداد السكان فى المدن والمستقرات الحضرية، وراحت أحجام المدن تتضاعف خلال فترات قصيرة، مما أدى إلى تكون المدن الكبرى. فظاهرة المدن المليونية مثلاً هي ظاهرة حديثة لم تبرز فى الوطن العربي بصورة واضحة إلا خلال القرن العشرين. وهذا يوحى بأن أحجام المدن والمستقرات الحضرية بقيت خلال القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن صغيرة ومحدودة. ولهذا فإن ظاهرة النمو الحضرى السريع وتضخم أحجام المدن العربية جاء بشكل مباشر بعد الحرب العالمية الثانية .

ولم يكن عامل الزيادة السكانية الطبيعية هو المسؤول الوحيد عن نمو وتضخم أحجام المدن العربية، وإنما اقترن بهذا العامل زيادة أخرى فاقت فى تأثيراتها الزيادة الطبيعية، وهي الهجرة من البوادي والأرياف إلى المدن. وقد عملت قوى الجذب الحضرية فى المدن وقوى الطرد في البوادي والأرياف على اشتداد حدة الهجرة السكانية باتجاه المدن. وارتبط بذلك تزايد التخلخل في توزيع السكان، وبروز مشكلة الافتقار إلى التوازن الإقليمي. والذي لا شك فيه أن أخطار التخلخل الإقليمي تتفاقم كلما اشتدت حركة الهجرة. والـذي يؤدي إلى تفاقم الأوضاع هي النزعة المتزايدة لتركيز الاستثمارات والإنفاقات في برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المدن الكبرى، التي تمتص عادة معظم الأموال والجهود المخصصة لهذه البرامج .

وقد كانت النتيجة المسلم بها والناجمة عن التزايد الطبيعي للسكان ، وآثار الهجرة الواسعة

على تفريغ الأرياف والبوادي، وتكديس البشر في المدن، أن برزت مشكلات وأزمات ملحة، وقد أصبحت هذه المشكلات بمثابة التحديات الدائمة التي تواجه المسؤولين وأجهزة التخطيط في المدن العربية .

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على أهم المشكلات التخطيطية التي تواجهها المدينة العربية. وتأتي أهميّة هذه الدراسة في وقت أخذت فيه المدن العربية تنمو بشكل سريع لم تعهده من قبل. ودراسة هذه الجوانب لا تهدف فقط إلى معرفة المشكلات الحاضرة، وإنما يوجه الاهتمام أيضاً إلى المشكلات المستقبلية والمدى الذي يمكن أن تصل إليه. والمدينة العربية التي وجدت نفسها فجأة أمام تغيرات وتبدلات واسعة كان عليها أن تتحرك من خلال أجهزتها التخطيطية لتطويع وتكييف حياتها، لتتلاءم مع طبيعة التطورات التي أخذت تمر بها. ومن الحقائق التى واجهتها المدينة العربية هي ظاهرة النمو الحضري المبكر، وارتباطها بظاهرة التحضر السريع. كما أن المدينة أخذت تزداد تعقيداً بفعل التطورات التكنولوجية الواسعة التي بدأت تشهدها .

وقد نجم عن التحضر السريع والنمو الحضرى المبكر تزايد مستمر في أحجام المدن، وقد أدى تضاعف الأعداد السكانية لهذه المدن إلى ضغط متصاعد على ساحات المدينة واستخدامات الأرض فيها، وعلى أنشطتها وفعاليتها، وعلى مرافقها وخدماتها، وإداراتها وأجهزتها. وعندما يكون للمدينة مقدرة محدودة على تحمل الضغط وإمتصاصه فإن أي عبء إضافي سيعني تراكم الأعباء على مر الأيام. وعندما يشتد تراكم الأعباء في المدينة تجد الأجهزة المسؤولة أنها عاجزة عن مواجهتها. وهكذا تتعقد المشكلات التي يستعصي حلها، فتتحول إلى أزمات تشل من قدرة الأجهزة التخطيطية على معالجتها .

إن هدف هذه الدراسة تحليلى، إذ إنها تحاول تحديد المشكلات التي يمكن أن تواجه الأجهزة التخطيطية المسؤولة، ليتسنى وصف العلاج المناسب لها قبل استفحالها.

تضخم أحجام المدن:

تشير البيانات المتوفرة لدينا إلى النمو السكاني السريع في المستقرات الحضرية في الوطن

العربي. ففي عام ١٩٥٠م قدر عدد السكان الحضر في الوطن العربي بحوالي ٢٣٪، بينما كانت نسبة سكان الأرياف ٧٧٪. وقد ارتفعت نسبة السكان الحضر في عام ١٩٧٥م إلى حوالي ٣٩٪، مقابل ٦١٪ لسكان الأرياف. وهذا يعنى بشكل آخر أن عدد السكان الحضر زادوا بحوالي ٤٠ مليون نسمة خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٧٥م. ومن المتوقع أن تستمر الزيادة في نسبة السكان الحضر، وأن يقابلها انخفاض فى نسبة سكان الأرياف. وتضع التقديرات نسبة السكان الحضر في غام ٢٠٠٠م بحوالي ٥٥٪، وسكان الأرياف بحوالي ٤٥٪.(١)

وقد زاد السكان الحضر في الجزء الإفريقي من الوطن العربي من حوالي ١٣ مليون نسمة في عام ١٩٥٠ إلى حوالي ٣٢ مليون نسمة في عام ١٩٧٠م، وإلى حوالي ٤٠ مليون نسمة في عام ١٩٧٥م. وكان السكان الحضر في عام ١٩٥٠م يشكلون حوالي ٢٥٪ من مجموع السكان. وقد ارتفعت هذه النسبة إلى حوالي ٣٦٪ في عام ١٩٧٠م، وزاد السكان الحضر في الجانب الآسيوي من الوطن العربي من حوالي خمسة ملايين نسمة في عام ١٩٥٠ إلى ما يقارب ١٨ مليون نسمة في عام ١٩٧٥م.(٢)

وتعتبر العواصم في الوطن العربي المراكز الاستقطابية الرئيسية للسكان. وتدل البيانات على أنه كان في عام ١٩٧٠م ست مدن مليونية في الوطن العربي، هي: القاهرة، وبغداد الكبرى، والاسكندرية، والجزائر، وبيروت الكبرى. وقدرت القاهرة في عام ١٩٧٠م بحوالي سبعة ملايين نسمة. وكانت التقديرات لمدينة بغداد حوالي ٢ر٢ مليون نسمة، وللاسكندرية مليوني نسمة، وللدار البيضاء ما يقرب من ٥ر١ مليون نسمة، أما مدينة الجزائر فقدر حجمها بحوالي ٢ر١ مليون نسمة، وبلغ حجم بيروت السكاني حوالي المليون نسمة. وتشير التوقعات المستقبلية لأحجام السكان في هذه المدن إلى تزايدات كبيرة. ففي عام ٢٠٠٠م، أي في نهاية هذا القرن، يقدر عدد سكان القاهرة بحوالي ١٨ مليون نسمة. وتضع التقديرات سكان بغداد الكبرى، في حدود ١٢ مليون نسمة. ومن المتوقع أن تصل حجم مدينة الإسكندرية إلى حوالي سبعة ملايين نسمة. أما الدار البيضاء فيقدر سكانها بحوالي خمسة ملايين نسمة. وتتقارب تقديرات مدينة الجزائر مع الدار البيضاء. كما أنه من المتوقع أن تضم بيروت الكبرى حوالي ٥ر٣ مليون نسمة. وتقترب التوقعات لمدينة دمشق من توقعات مدينة بيروت.(٣)

فالذي يلاحظ إذن أن المدن العربية وصلت إلى أحجام سكانية كبيرة ، وأن تضخم هذه المدن سيستمر مستقبلاً، ومع كل تزايد سكاني تتراكم الأعباء نتيجة الضغط المتزايد على مساحات هذه المدن وخدماتها ومرافقها وأنشطتها المختلفة، ومع تزايد التراكم والأعباء والضغوط تتفاقم المشكلات المختلفة التى تواجهها. ولهذا فإننا سنستعرض في الصفحات القادمة أهم هذه المشكلات.

أولا ـ مشكلة الإسكان(*) :

تعتبر هذه المشكلة من أعقد المشكلات التي تواجه المخططين في المدن العربية. وحينما توجد مشكلة إسكانية على المرء أن يتوقع مشكلات أخرى مرتبطة بها. والمشكلة الإسكانية هي نتاج النمو الحضري السريع، والزيادات السكانية الغالبة، والهجرة الواسعة التي تعرضت لها هذه المدن. وقد أدت زيادة الضغط السكاني إلى ظهور أحياء سكنية متداعية ومفتقرة إلى الخدمات الأساسية، كما ظهر على أطراف هذه المدن مناطق سكنية متخلفة تنمو بشكل عشوائي، ولهذا يطلق عليها اسم الأحياء السرطانية النمو. وظاهرة الأحياء المتداعية سواء في أواسط المدن أو على أطرافها تكاد تتفشى في كل العواصم والمدن الكبرى وتشير الدراسات أن سكان الأحياء القصديرية في تونس زادوا أكثر من الضعف خلال الخمسة عشر عاماً المنتهية في عام ١٩٧٠م. وقد حدث ذلك رغم المحاولات المستمرة والبرامج الحكومية لاقتلاع هذه الأحياء وإعادة توطين سكانها. وقفز عدد سكان هذه الأحياء من ١٠٥ آلاف نسمة في عام ١٩٥٦م إلى حوالي ١٦٠ ألف نسمة في عام ١٩٦٦م، وإلى ٢٢٥ ألف نسمة في عام ١٩٧١م. ويقدر بأن حوالي ربع سكان مدينة الدار البيضاء في المغرب يعيشون في أحياء قصديرية.(٤) وفي القاهرة يزدحم عشرات الآلاف من بنى البشر في أحياء القاهرة الشعبية. وهناك عشرات الآلاف التي تعيش في أحياء أقيمت وسط المقابر.(٥)

ويقيم عشرات الألوف من سكان مدينة بغداد في أكواخ مصنوعة من اللبن. ورغم مشاريع الإسكان التي نفذت على شكل مدن توابع فإن هناك الآلاف التي ما زالت تنتظر الحصول على مساكن جديدة. ويسكن الآلاف في مدينة عمان بالأردن في مناطق تفتقر إلى

(*) تعتمد معلومات هذه الدراسة إلى حد كبير على بعض فصول كتاب سيصدر للمؤلف بعنوان : « أزمة المدينة العربية » .

المقومات البيئية والصحية الملائمة. وتبرز مثل هذه المناطق في أحيا. خيمات النازحين وأماكن تجمعهم كمخيم الحسين ومنطقة الوحدات. وبرزت هذه الظاهرة في حزام الفقر الذي كان يحيط ببيروت قبل الحرب الأهلية الأخيرة ففي الكرنتينا والنبعة وتل الزعتر كان السكان يعيشون في أكواخ وبيوت صفيحية .

وتعاني هذه الأحياء من الكثافات السكانية العالية التي تؤدي إلى تزايد الأعباء على المرافق والخدمات العامة. وقد تزايد الازدحام السكاني في الأحياء السكنية في المدن العربية. ففي القاهرة مثلاً كان متوسط عدد الأفراد في الغرفة الواحدة حوالي ٢٫٤ شخص في بداية السبعينات(٦). وقدرت الكثافة السكانية في مدينة عمان بالأردن في منتصف الستينات بحوالي ٢٫٥ شخص للغرفة الواحدة. وبينت إحدى الدراسات إلى أن ٢٧٪ من أسر مدينة عمان التي تتراوح أحجامها بين خمسة وسبعة أفراد تعيش في غرفة واحدة، كما بينت الدراسة أن حوالي نصف الأسر الأردنية ليس لديها غرف نوم خاصة بها، كذلك فإن حوالي ثلث أسر عمان لا تملك بيوتاً خاصة بها، وإنما تسكن بالإيجار.(٧) وتقدر الكثافة السكنية في مدينة بغداد بحوالي ثلاثة أشخاص للغرفة الواحدة .

والمشكلة الإسكانية ذات أبعاد متفاوتة، فالنمو السكاني يعني تزايد عدد الأسر والأشخاص الباحثين عن مساكن وبيوت جديدة لاستيعابهم. والضغط على المساكن لا يأتي نتيجة التزايد السكاني فقط، وإنما يكون أيضاً انعكاساً للتحسن المستمر في مستويات معيشة الأفراد. فالأسر أو الأفراد أصبحوا يتطلعون إلى بيوت ومساكن مستقلة، تتمتع بخصائص بيئية وصحية معينة، كما أن التحول الاجتماعي، وما ارتبط به من تغير في طبيعة تركيب الأسرة، أدى إلى زيادة الضغط على المساكن. فالانتقال من مرحلة الأسرة الممتدة، حيث كان يسكن في البيت أكثر من عائلة إلى مرحلة الأسرة الفردية، حيث يسكن في البيت عائلة واحدة، أدّى هو الآخر إلى زيادة الطلب على المساكن .

وهناك بعد آخر للمشكلة يتعلق بالتجديد الحضري (Urban Renewal) للأحياء والمساكن القديمة التي لم تعد تصلح للسكن، وتتكون هذه الأحياء القديمة عادة من عمارات وبنايات عفى عليها الزمن، وتشكل هذه البنايات المتداعية أخطاراً محدقة بساكنيها. وتبرز هذه المشكلة في مدينة القاهرة التي شهدت مسلسلات تساقط العمارات، ففي يوليو من عام

١٩٧٨م انهارت عمارة سكنية في حي الشرابية المكتظ بالسكان في القاهرة، وقد قتل في ذلك الأنهيار حوالي ثلاثين شخصاً دفنوا تحت الأنقاض. وذكر في حينها أن العمارة المنهارة والمكونة من خمسة طوابق كان قد طلب من سكانها إخلاؤها قبل انهيارها بشهرين. وبعد أقل من شهر من ذلك الحادث انهارت عمارة أخرى في القاهرة مؤلفة من ثلاثة طوابق، وقتل في ذلك الحادث الذي وقع في حي الدرب الأحمر الشعبي صبي وفتاة(٨) .

ورغم هذه المشكلات فإن أعداد المساكن المطلوبة وتوقعاتها في المدن العربية تتزايد باستمرار. وقد أوضحت دراسة صادرة عن مكتب الأمم المتحدة للشئون الاقتصادية والاجتماعية إلى أنه كان ينبغي على المسؤولين السوريين إنشاء ٢٠٠ ألف وحدة سكنية في المدن السورية الاثنتي عشرة الكبرى خلال فترة العشر سنوات الممتدة بين عام ١٩٦٠م وعام ١٩٧٠م . كما أشار التقرير إلى الحاجة إلى حوالي مائة ألف وحدة سكنية أخرى حتى عام ١٩٧٥م.(٩) وتشير البيانات المتعلقة بمدينة الرياض إلى أنه كان فيها حوالي خمسة آلاف وحدة سكنية في عام ١٩٣٥، وقد ارتفع العدد إلى ١٢ ألف وحدة سكنية في عام ١٩٥٠، وإلى ٣٨ ألف وحدة في عام ١٩٦٥م. وقدرت الوحدات السكنية في المدينة في عام ١٩٧٧ بحوالي ١٣٠ ألف وحدة (١٠) وتضع التقديرات احتياجات مدينة عمان بحوالي ٨٠ ألف وحدة سكنية خلال الفترة الممتدة بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٥م. وتمثل احتياجات مدينة عمان السكنية حوالي نصف احتياجات الأردن من المساكن. وتعتبر مدينة القاهرة أوضح مثال للمشكلات الإسكانية الخانقة التي تعيشها المدينة العربية اليوم، فقد قدرت الدراسات أن عدد الوحدات السكنية المطلوب تشييدها في إقليم القاهرة الكبرى بين عام ١٩٦٥ وعام ١٩٧٥ حوالي ٦٧٠ ألف وحدة سكنية. وهذا العدد هو بخلاف الوحدات المطلوبة لتعويض المساكن المتداعية. كما كان هناك ضرورة إلى وضع خطة لتشييد ٢٠٠ ألف وحدة سكنية خلال الفترة الواقعة بين عام ١٩٧٠م وعام ١٩٧٥م.(١١)

وإذا صحّت التوقعات بأن سكان الوطن العربي سيزيدون بحوالي مائة مليون نسمة خلال السنوات العشرين القادمة، فإن الوحدات السكنية المطلوب تشييدها لمواجهة هذه الأعداد السكانية تقدر بحوالي ١٧ مليون وحدة. وإذا ما أضيف لهذا العدد الأحتياجات السكنية الناجمة عن الأوضاع السكنية المتردية، والاحتياجات المرتبطة بتداعي وتهدم العمارات القديمة، فإن الاحتياجات الفعلية من المساكن ربما تصل إلى ما يقرب من ٢٥ مليون وحدة سكنية .

ثانياً: مشكلات المرور:

رغم أن مشكلة المرور عالمية، وتعاني منها كل المدن الكبيرة في دول العالم، إلا أنها اشد تعقيداً في المدن العربية. فالتطور التكنولوجي السريع الذي غزا المدينة العربية كان أكبر من قدراتها وإمكاناتها على التكيف والتأقلم للتغيرات الجديدة، كما أن النمو الحضري المبكر، والهجرة الواسعة من الأرياف إلى المدن العربية، والتوسعات المستمرة التي تعرضت لها هذه المدن، ترك عليها ضغوطاً لم تكن مؤهلة لاحتمالها أو مواجهتها. وهناك من يقرن بين التطور التكنولوجي المتمثل باختراع السيارة وشيوع استعمالها، وبين النمو الحضري والتوسع الكبير الذي شهدته المدن العربية. فدخول السيارة إلى المدينة أعطى السكان مرونة على الحركة لم تكن متوفرة من قبل، والاتصالات بين أحياء المدينة كانت بطيئة، ذلك لأن الحركة كانت تعتمد على ترجل المشاة أو استخدام الحيوانات، ولهذا فإن المسافات اليومية التي يمكن قطعها والتحرك فوقها كانت محدودة، وقد حددت هذه المسافات القصيرة حجم المدينة. إلا أن هذه الصورة تغيرت وانقلبت رأساً على عقب مع دخول السيّارة وتزايد استخدامها، واتسعت حدود المدينة، وانتقل السكان إلى اطراف المدينة والضواحي مستفيدين من المرونة الحركية التي وفرتها لهم السيّارة وقد أدى التطور الاقتصادي المتمثل بتزايد دخول الأفراد إلى تزايد القدرة على شراء السيارة واقتنائها، وأخذت المدينة العربية تشهد تزايداً غير متوقع في أعداد السيارات على طرقاتها وشوارعها.

وليس هناك اليوم من عاصمة عربية لا تشكو من ازمة المرور، وتزايد أعداد السيارات على طرقاتها، واكتظاظ شوارعها بحركة المرور، واختناق هذه الحركة في الكثير من التقاطعات وأماكن الوقوف. فمدينة القاهرة تواجه أزمة نقل ومرور مستعصية بسبب عشرات الآلاف من السيارات التي تتدفق على طرقاتها، وحتى مركبات النقل العام أخذت تواجه أزمات حادة بسبب الضغط المتزايد على خطوطها. وأصبحت من المناظر المألوفة في شوارع القاهرة أن ترى الركاب معلقين على جوانب المركبات والحافلات. وتواجه مدينة بغداد اختناقاً متزايداً في حركة السيارات. وتبرز المشكلة المرورية في مدينة الجزائر بسبب التزايد القوى المستمر في أعداد السيارات. وتلاحظ نفس الظاهرة في مدينة الدار البيضاء وفي مدينة تونس. وشهدت المدن الليبية وخاصة بنغازي وطرابلس تزايداً مستمراً في أعداد سياراتها، وتوضح البيانات إلى أن أعداد السيارات في ليبيا تضاعف ثلاث مرات خلال الفترة الواقعة بين عام ١٩٦٤ وعام

١٩٧١م. فقد ارتفعت أعداد السيارات خلال هذه الفترة من حوالي ٥٣ ألف سيارة إلى حوالي ١٦٦ ألف سيارة. ومن المتوقع أن يكون هذا العدد قد تضاعف مرة أخرى خلال السنوات السبع الماضية.[١٢]

وتزداد حدة المشكلة المرورية في المدن الخليجية الكبرى كجدة والرياض والكويت ودبي وأبو ظبي، فالنمو الاقتصادي السريع الذي اقترن بتدفق الثروة النفطية أدى إلى تحسن مفاجئ وسريع في دخول الأفراد، ونجم عن ذلك تزايد القدرات الشرائية للأفراد ، وكانت النتيجة أن تضاعف الإقبال على شراء السيارة. ففي بلد كالكويت لم يكن فيه في عام ١٩٤٨م أكثر من مائة سيارة، وقد قفز العدد إلى حوالي ٥٥ ألف سيارة في عام ١٩٦٣م ، وتزيد أعداد السيارات في الكويت في عام ١٩٧٨م عن ٣٥٠ ألف سيارة. وتعاني مدينة عمان بالأردن من مشكلات مرورية مستمرة، ويعتبر قلب المدينة بمثابة عنق زجاجة يعجز عن توفير انسياب معقول في حركة المرور، ومما يزيد من صعوبة المشكلة المرورية لمدينة عمان هو وضعها الطبوغرافي الصعب، حيث إن المدينة تقع في منطقة وادية ضيقة ، تحيط بها التلال من جميع الاتجاهات ولم يكن في مدينة عمان في بداية الخمسينات سوى حوالي ألف سيارة، أما في الوقت الحاضر فيقدر عدد السيارات فيها بحوالي مائة ألف سيارة.

وللأزمة المرورية جوانب أخرى عدا النمو الحضري السريع، والهجرة من الأرياف ، والتزايد السكاني السريع، وتوسع أحجام المدن العربية ومساحاتها. فالمدينة العربية بمورفولوجيتها القديمة المتميزة بطرقاتها وشوارعها الضيقة، وأزقتها المتعرجة ، لم تعد ملائمة لاستيعاب حركة المرور. وتبرز هذه الظاهرة في مدينة القدس العربية القديمة، وفي الأحياء الشعبية من القاهرة ، وفي دروب بغداد القديمة، كما تؤثر مورفولوجية المدينة وظروفها الطبيعية على حركة المرور فيها، فمورفولوجية مدينة الكويت التي تمثل ثلث دائرة من اليابسة تحدد اتجاهات الحركة من أطرافها إلى مركزها التجاري الرئيسي، ذلك أن ثلثي مساحة الدائرة تشغلها الواجهة البحرية . فلو كانت الحركة إلى مدينة الكويت تتجه من جميع النواحي لانخفضت أزمة المرور الحالية فيها إلى الثلثين. وتلعب مورفولجية مدينة عمان بحكم طبوغرافيتها الصعبة دوراً سلبياً في حركة المرور.

وترتبط الأزمة المرورية أيضاً بالكيفية والكثافة التي تتوزع بها الأنشطة والخدمات في

المدينة. فالمركزية الشديدة التي تتصف بها أنشطة المدينة العربية، والمتمثلة بتركزها وتكثفها في وسطها، تؤدي إلى كثافة عالية في السيارات ، وضغط مروري شديد على الطرق والشوارع المتجهة إلى المنطقة المركزية من المدينة. فالأنشطة التجارية المتمثلة بالمحلات والمخازن وخدمات الشركات ومكاتبها ، ووزارات الدولة ودوائرها، والفنادق تتركز في مراكز المدن العربية. وحينما يشتد تركز مثل هذه الأنشطة تزود أزمة المرور حدة وتعقيداً. فطبيعة استخدامات الأرض، والتوزيع غير المتوازن في هذه الاستخدامات، يؤدي إلى تفاقم أزمة المرور في المدينة العربية .

ثالثاً : مشكلات الخدمات والمرافق العامة :

تعاني المدينة العربية من ضغط متصاعد على خدماتها ومرافقها العامة. فمشكلة الخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية، ومشكلة المياه والكهرباء والمجاري، تكاد تستشري في معظم المدن العربية. فالتزايد السكاني المستمر للمدن العربية، والهجرة المتدفقة إليها، والنمو الحضري المبكر، يضع الإدارات المسؤولة والأجهزة التخطيطية أمام ضغوط شديدة. فالمدينة العربية تعاني من نقص في الخدمات الصحية التي يمكن توفيرها للسكان، كما أنها تواجه مشكلة النقص في الخدمات التعليمية والخدمات الاجتماعية . وتبرز مشكلة نقص المياه في بعض العواصم كتحد دائم أمام المسؤولين فيها. وتعتبر مدينة عمان مثالاً بارزاً للمدينة العربية التي تعاني من نقص مستمر في كمية المياه. وتعاني الأحياء القديمة من نقص في الإنارة، وهناك أحياء تعاني من خلل دائم في شبكاتها الكهربائية .

وتواجه المدينة العربية مشكلات نقص المرافق الصحيّة، وحتى إن وجدت ، فغالباً ما تكون مختنقة بحمولتها، ولهذا فإن الكثير من الأحياء السكنية تعيش في ظروف غير صحيّة، إذ تتسرب الملوثات إلى مياه الشرب من خلال الحفر الامتصاصية. وقد حدث مرة في شتاء ١٩٧٦م في مدينة السلط الأردنية أن اختلطت مياه المجاري بمياه الشرب، نتيجة عطل في أنابيب المياه. وقد أدى ذلك إلى تلوث المياه وتهديد حياة سكان المدينة. وقد نقل وقتها عشرات المصابين إلى المستشفيات وتبرز أخطر المشكلات المتعلقة بالمجاري في مدينة القاهرة، فشبكة المجاري التي أنشئت في القاهرة في عام ١٩٣٢م كانت بطاقة استيعابية مقدارها خمسين ألف متر مكعب يومياً. وفي عام بلغ حجم التصريف حوالي نصف مليون متر مكعب

يومياً، أي ما يعادل عشرة أضعاف ما كان مقدراً لها في عام ١٩٣٢. وبلغت الكميات المصرفة في عام ١٩٧٥ حوالي ٢٥ مليون متر مكعب. ورغم التوسعات التي تمت في شبكة المجاري لزيادة قدراتها الامتصاصية، إلا أن المشكلة لم تحل إلا جزئياً ،فقد قدر في عام ١٩٦٥م أن حوالي ٤٤٪ من إجمالي عدد المباني في إقليم مدينة القاهرة هي بدون مجاري. أما بالنسبة لخدمات المياه في المدينة فإن هناك عجزاً يومياً مقداره حوالي ٣٥ ألف متر مكعب[١٣]. وتعاني مدينة بغداد من مشكلة المجاري السطحية وخاصة في أحيائها القديمة.

فالواضح إذن أن هذه المشكلات تؤدي إلى تدهور الأحوال الصحيَّة في المدينة العربية. فعدم وجود شبكات مجاري، والافتقار إلى المراقبة على الحفر الامتصاصية، يؤدي إلى تلوث المياه الباطنية، خاصة إذا كان مستواها قريباً من سطح الأرض. ووجود شبكات المجاري العاجزة عن استيعاب حمولات المباني والمساكن يؤدي إلى طفح وفيضان المياه الآسنة في الأحياء والشوارع. ولا يخفى مدى الاخطار التي تحملها مثل هذه الملوثات، والأوبئة والأمراض التي تنشرها بين السكان. وتزداد حدة التلوث عندما تتجه المدينة إلى الصناعة، وتبدأ بإلقاء نفاياتها في مجاري الأنهار وعلى الشواطىء البحرية، فيؤدي ذلك إلى تهديد نوعية مياه الشرب، وتدمير الثروات البحرية كالأسماك التي هي مصادر مهمة لغذاء الإنسان. وتقترن مشكلة تلوث المياه مشكلة تلوث الهواء نتيجة الدخان المتصاعد من الصناعات والغازات السامة التي تنفثها ملايين السيارات في مدن الوطن العربي. ومن الأمثلة الواضحة لأخطار التلوث البحري تلك الموجودة في الخليج العربي، فقد أدى تزايد تسرب النفط من الأنابيب والناقلات إلى ظهور مشكلة التلوث في هذه المنطقة . والذي يزيد من احتمالات أخطار التلوث مستقبلاً تلك المشاريع الضخمة للصناعات البتروكياوية التي يجري التخطيط لها في العراق والكويت والبحرين وقطر والسعودية وإيران. ويخشى الباحثون أن يصبح الخليج العربي كبحيرة ايري في الولايات المتحدة وبحر البلطيق في أوربا، بدون حياة مائية، إذا لم تكثف الجهود من الآن لدراسة أخطار التلوث المحتملة. وبما أن المدن الخليجية الرئيسية تنتشر على طول سواحل الخليج، فإنها ستكون أول ما يتأثر بأية تغيرات تحدث لمياه الخليج .

رابعا: المشكلات الاجتماعية:

المتفق عليه بين الباحثين والأكاديميين أن المدينة العربية أخذت تواجه مشكلات اجتماعية

متزايدة خلال العقود الثلاثة الماضية، ولقد كانت أعقد المشكلات الاجتماعية تلك التي واجهت المهاجرين إلى المدن، فالجماعات المهاجرة، بحكم خلفياتها الاجتماعية والثقافية، لا تملك القدرات على التغير والتكيف السريع مع حياة العصر المتسارعة. فالتبدلات المادية، والتغيرات الاقتصادية غالباً ما تسبق التبدلات الاجتماعية، وتكون أسرع منها. فالأفراد يتقبلون التغيرات الاقتصادية، ومردوداتها المادية، ونزعاتها الاستهلاكية، ولكنهم يرفضون ما يصاحبها من تبدل في المفاهيم والقيم، وما يرتبط بها من انفتاح اجتماعي.

ولقد ظهر خلال السنوات الماضية العديد من الدراسات التي تناولت جوانب المشكلات الاجتماعية في المدينة العربية. ففي دراسة عن المهاجرين من الأرياف إلى مدينة عمّان أوضحت النتائج أن أهم المشكلات الاجتماعية التي واجهتهم عند وصولهم واستقرارهم في مدينة عمان الشعور بالعزلة الاجتماعية، والافتقار إلى المعارف، والابتعاد عن الأسرة. وكانت نسبة الذين أشاروا إلى هذه المشكلات حوالي ٤٠٪ من مجموع أفراد العينة التي اختيرت للدراسة.[١٤] وفيما يتعلق بالمهاجرين إلى مدينة بغداد وبقية المدن العراقية فقد أوضحت إحدى الدراسات أن أكثر ما يتصف به أولئك قبل هجرتهم هو تمسكهم بقيم الريف وتقاليده التي كانت سائدة بينهم قب هجرتهم، ولهذا يميل المهاجرون إلى السكن في مساكن قريبة من بعضها البعض، وفي أحياء خاصة تعكس خلفياتهم الاجتماعية المتشابهة. وحتى في مجالات العمل لوحظ أنهم يتوزعون على أساس علاقاتهم القبلية والعشائرية. وقد أظهرت بعض الدراسات الأخرى أن أكثر من تسعين بالمائة من مهاجري بعض المحافظات لا يزالون يحتفظون بروابطهم الاجتماعية التي ألفوها في قراهم، دون أن يستطيعوا التكيف لظروف البيئة الجديدة التي يعيشون فيها.[١٥]

وأوضحت دراسة عن مدينة بيروت مدى الأوضاع الاجتماعية المتردية التي يعيش فيها سكان الأحياء الفقيرة فيما كان يسمى بحزام الفقر من حول المدينة. ففي الدراسة التي أجريت عن منطقة الكرنتينا وجد أن ٨٠٪ من السكان فيها كانوا يعانون من أمراض صدرية، و٥٠٪ كانوا يعانون من أمراض معدية. وكشفت الدراسة أيضاً أن ٣٠٪ من الأطفال يموتون عند الولادة، وأن حوالي ٥٠٪ من نساء الحي أجهضن على الأقل مرة واحدة[١٦] ووصفت الدراسة مظاهر التحلل الاجتماعي، وانتشار الجريمة، وإدمان المخدرات بين السكان. ومما أشارت إليه الدراسة أيضاً:

«تعتبر مناطق السكن الأولى للنازحين الأحياء المتهدمة أو المتخلفة في المدينة، وتنشأ عنها مساكل صحية وغذائية جادة، فضلاً عن المشاكل الفقر المدقع، وقسوة ظروف المعيشة، فتتكسف درجة من الانحلال الشخصي كمظهر للانحلال الاجتماعي. كما أن الجريمة والبغاء والأمراض العقلية وإدمان الخمور والمخدرات تظهر بين عائلات هؤلاء الوافدين. إن هذه المساكل وما إليها تؤدي إلى اختلال في النظام الداخلي لوجود فئة ذات مظهر حضري لا تنعم بمنجزات التحضر. فهي محرومة في بيئتها الحضرية، مما يؤدي إلى زيادة الاضطرابات السياسية، وعدم الاستقرار الحكومي»(١٧) .

وحذرت الدراسات المتعلقة بتخطيط القاهرة الكبرى من تداعي الأحوال التعليمية والصحيَّة، وآثارها الاجتماعية السلبية على حياة المدينة. فقد أوضحت هذه الدراسات أن حوالي ربع الأطفال الذين هم في سن المرحلة الابتدائية لم يلتحقوا بمدارسهم، وأن هذه النسبة ترتفع إلى حوالي خمسين بالمائة بين الأطفال الذين هم في سن المرحلة الإعدادية، وتصل هذه النسبة إلى ٥٢٪ بين من هم في سن المرحلة الثانوية. وفي مجال الرعاية الصحية يوجد هناك نقص واضح في هذا النوع من الخدمات، فهناك مركز واحد لرعاية الطفل لكل ١٦٦ ألف فرد. وتوجد فقط عيادة واحدة لكل ١٧٥ ألف فرد(١٨) .

وتظهر في بعض مدن المغرب العربي أوضاع اجتماعية صعبة ففي دراسة عن الأحياء القصديرية في مدن شمال إفريقيا أوضحت النتائج أن حياة المهاجرين حول مدينة تونس تتميز بالبطالة وضعف مستوى المعيشة. وتقدر الدراسة أن نصف أرباب العائلات تقل دخولهم الشهرية عن ٢٢ ديناراً تونسياً. ويكثر في هذه الأحياء العاطلون وشبه العاطلين عن العمل، ويوجد حوالي ٨٠٪ من هؤلاء السكان يعملون كباعة متجولين. وأوضحت الدراسة أن حوالي ١١٪ من سكان حي الجبل الأحمر المكتظ بالسكان على أطراف مدينة تونس هم بدون عمل. كما بينت الدراسة أن حوالي ٣٢٪ من هؤلاء السكان هم من العمال اليوميين الذين يعانون من شبه بطالة. وترتفع نسبة البطالة بين العائلات الريفية المهاجرة إلى ٦٠٪، وترتفع بينهم نسب التفسخ الأخلاقي والانحلال الاجتماعي.(١٩) .

التخطيط لمواجهة المشكلات :

إن بروز المشكلات في المدينة العربية بالشكل الذى طرحناه يستدعي البحث عن

خطوات منظمة لملاقاتها في الحاضر والمستقبل. وحتى تكون الحلول شاملة فلا بد من أن تتم في إطار من الخطط الديناميكية القائمة على أحدث النظريات التخطيطية . ولكي تتمكن المدينة العربية من السير في طريق حل المشكلات المتنوعة التي تواجهها ، فإن على المخططين والمسؤولين أن يوجهوا العناية إلى النواحي التالية:

١ ـ إن على المدينة العربية أن تختار العلم طريقاً لحل مشكلاتها، ذلك لأن الحلول العملية تكون مبنية على أسس منطقية منظمة، وعلى قواعد موضوعية بعيدة عن التخـطيط والعشوائية .

٢ ـ إن الطريق العلمي يعني أن على المدينة العربية أن تواكب في حل مشكلاتها أحدث النظريات التنظيمية في مجالات التخطيط والتنمية. وهذا يتطلب منها أن تتخلى عن النظريات القديمة والخطط البالية التي لم تعد تلائم حياة المدينة العصرية .

٣ ـ أن يتحول التخطيط من التركيز على موقع واحد أو بضعة مواقع منفصلة عن بعضها البعض ومستقلة بذواتها، إلى التركيز على التخطيط الإقليمي الذي يعتبر جزءاً من نظام إقليمي واسع، تشكل شبكته وحدة تخطيطية واحدة. وهكذا يصبح التخطيط للمدينة وحل مشكلاتها جزءاً لا يتجزأ من حل إقليمي شامل. وهذا يعني أن التخطيط ينتقل من المستوى الضيق إلى المستويات الشاملة، ومن النظرة السطحية إلى الرؤيا العميقة .

٤ ـ وحتى تتميز العمليات التخطيطية بالديناميكية المميزة لحياة المدن الحديثة، فلا بد أن تطرح مجموعات من الإستراتيجيات والبدائل التي تتناسب مع الأوضاع والظـروف المعقدة التي يحتمل أن تواجهها المدينة خلال نموها وتطورها .

٥ ـ ولكي تتحقق التنمية الشاملة على المستوى الإقليمي فلا بد من العناية بجميع المناطق، وذلك عن طريق تبني برامج واسعة للتنمية، تشمل المدن والأرياف على حد سواء.

٦ ـ وهذا يعني أن على المخططين أن يأخذوا بمبدأ التوازن الإقليمي، بحيث يضمنوا توزيع الاستثمارات والإنفاقات على أوسع نطاق، وبين أكبر عدد ممكن من المراكز الحضرية والريفية. وهذا يتطلب الاهتمام بمشروعات التنمية المحلية، وتدعيم نظـام اللامـركزية الإدارية، وإنشاء المدن المحلية والإقليمية. إن الاهتمام بمثل هذه النواحي سيضعف من

تأثير الإغراءات الجاذبة في المدن، ويكبح جماح القوى الطاردة في الأرياف، مما يحقق توازناً سكانياً بين جميع المناطق. وعندما ينجح المخططون في تحقيق التوازن الإقليمي، فإن الفجوات الاقتصادية والاجتماعية التي تفصل بين المناطق تأخذ بالاضمحلال التدريجي .

٧ ـ إصدار التشريعات والقوانين والقيود والأنظمة التي تستطيع من خلالها الأجهزة المسؤولة برمجة وتحديد مقادير واتجاهات النمو، كما أن إصدار مثل هذه التشريعات سيمكن الأجهزة التنفيذية من تخطي العوائق والصعوبات التي يمكن أن تعترض تنفيذ الخطط .

٨ ـ التأكيد على دور المشاركة الشعبية في عمليات التخطيط، ذلك لأنه من غير المعقول أن يتم بناء الخطط في غياب مشاركة الناس، وتفهم ميولهم ورغباتهم تجاه ما يجري من تغيير وتطوير في بيئاتهم .

٩ ـ تطوير مراكز أبحاث حضرية وإقليمية تكون مهمتها تدعيم الأجهزة الإدارية والفنية بالأبحاث والدراسات. وهذا يتطلب إنشاء بنوك معلومات عن استخدامات الأرض والأنشطة القائمة عليها، والوظائف المتصلة بها، وكل ما يمكن أن يكون له علاقة باحتياجات التخطيط والتطوير مستقبلاً .

الخلاصة :

واجهت المدينة العربية خلال السنوات الممتدة بعد الحرب العالمية الثانية مشكلات متنوعة، أخذت تزداد اتساعاً وتعقيداً. ولقد برزت هذه المشكلات نتيجة التزايد السكاني السريع، وتسارع عملية التحضر، والنمو الحضري المبكر، وما ارتبط بكل ذلك من هجرات مكثفة من الأرياف والبوادي إلى المدن . وبما أن العواصم والمدن الكبرى هي المراكز الاستقطابية الرئيسية التي تجذب إليها المهاجرين، فقد برزت معظم المشكلات التخطيطية الملحّة في هذه المراكز. وتعتبر المشكلات الإسكانية الناجمة عن الطلب المستمر والمتزايد على الوحدات السكنية أولى المشكلات التي أشرنا إليها. وقد لاحظنا بشكل واضح أن القدرات المحدودة للعديد من العواصم العربية على مواجهة هذه المشكلات أدت إلى ظهور مناطق

العشيش والصرائف والأحياء القصديرية. وتعتبر هذه الأحياء السكنية من مظاهر تخلف حياة المدينة وعجز إداراتها وأجهزتها عن التخطيط لمواجهتها. وانطلاقاً من عدة معايير فقد قدرنا بأن مدن العالم العربي ستحتاج خلال ربع القرن القادم إلى حوالي ٢٥ مليون وحدة سكنية. وربما بدا هذا الرقم مذهلاً، إلا أنه يبقى حقيقة تفرض ذاتها على مستقبل حياة المدينة العربية .

ومن المشكلات الأخرى التي أشرنا إليها هي مشكلات المرور. فارتفاع مستوى المعيشة، وتزايد أعداد السكان، وحاجتهم المتزايدة إلى وسائل النقل، أدى إلى تضاعف أعداد السيارات في فترات قصيرة، فقد ترك ذلك ضغوطاً كبيرة على شبكات الطرق والشوارع، بحيث أصبحت العواصم والمدن الكبرى تعاني من الاختناقات المرورية. وما لم تتم مواجهة المشكلات الناجمة عن هذا التزايد المستمر في أعداد السيارات ، فإنها ستتحول إلى أزمات خانقة تشل أنشطة المدينة وفعالياتها. وتبرز مجموعة أخرى من المشكلات المتعلقة بالمرافق والخدمات العامة، فالضغط السكاني، والنمو الحضري المبكر، أدى إلى ازدياد الطلب على خدمات المدينة التعليمية والصحية والاجتماعية والثقافية، كما أدى إلى مزيد من الضغط على خدمات المياه والكهرباء وشبكات المجاري. والذي لا شك فيه أن افتقار المدينة إلى مثل هذه الخدمات يؤدي إلى تدهور أوضاعها البيئية.

وترتبط بالمبتدلات المكانية المصاحبة لهجرة السكان، وبالتغيرات الاقتصادية، مشكلات اجتماعية ونفسية معقدة، فالتطور المادي أو الاقتصادي يكون عادة أسرع من التطور الاجتماعي، ويقترن بالتطور الاقتصادي تغير في القيم والعادات والتقاليد، وصراع بين الأنظمة الاجتماعية التقليدية والأنظمة الاجتماعية المتطورة. وفي بعض الأحيان تزداد الأوضاع الاجتماعية سوءاً، خاصة عندما يفشل المهاجرون في الاستفادة من الفرص الاقتصادية التي أغرتهم أساساً بترك أريافهم باتجاه المدن. وتعتبر المشكلات الاجتماعية من أعقد ما يواجهه المخططون ، نظراً لأنهم يضطرون إلى التعامل مع جماعات ذات خلفيات اجتماعية وثقافية متنافرة .

ورغم اقتناعنا بأن المشكلات التخطيطيه في المدينة العربية هي أعقد وأوسع مما حاولنا استعراضه هنا، إلا أننا كما أشرنا في بداية هذه الدراسة حاولنا التركيز على ما يتفق عليه العديد من الباحثين بأنها أهم المشكلات التي يجب بحثها وتوجيه الاهتمام إليها .

وفي مجال البحث عن بعض الحلول لهذه المشكلات، فقد ركزنا على عدة نقاط، أبرزها أن على المدينة العربية أن تختار العلم ونظرياته المتطورة أساساً لإعادة تنظيمها، كما أن على المخططين أن ينطلقوا في تعاملهم مع المدينة من خلال المنظور الديناميكي القائم على طرح بدائل تتصف بالمرونة والحركة. ولكي تكون الحلول جذرية وشاملة فقد اقترحنا تنفيذها ضمن مفهوم التخطيط الإقليمي ، الذي يركز على ضرورة التوزيع العادل للاستثمارات والإنفاقات، والخدمات والأنشطة بين أكبر عدد ممكن من المراكز. ومن النقاط المهمة الأخرى التي أشرنا إليها ضرورة إنشاء وتطوير مراكز أبحاث ودراسات لمتابعة المشكلات الحاضرة، وما يمكن أن يستجد منها مستقبلاً .

الحــواشي

(١) سامي الكاسف، الموقف السكاني والنمو الحضري في العالم العربي، دراسة مقدمة للمؤتمر الخامس لمنظمة المدن العربية، الرباط، المغرب، يونيو ١٩٧٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) فرج السطنبولي، «الأحياء القصديرية في المدن الشمال ـ إفريقيه» مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت، مجلد ٦، العدد الأول (أبريل ١٩٧٨م)، ص ص : ٣٩ ـ ٥٨ .

(٥) صحيفة القبس الكويتية، مترجم عن الصنداي تايمز، ١٣ أكتوبر، ١٩٧٦، ص : ٨ .

(٦) جانيت أبو لغد، «مشاكل التحضرّ في الشرق الأوسط»، في الأمم المتحدة، دراسات عن مشاكل إنمائية في بعض بلدان الشرق الأوسط، ١٩٧٢، نيويورك، ١٩٧٤، ص ١٢٢ .

(٧) دائرة الإحصاءات العامة ، الهجره الداخلية والعد الشامل، عمان، الأردن، ١٩٦٨.

(٨) صحيفة الوطن الكويتية، ١٢ أغسطس، ١٩٧٨.

(٩) مكتب الأمم المتحدة للشئون الاقتصادية والاجتماعية، «التخطيط الإنمائي والأهداف الاجتماعية في سورية» بحث غير منشور، بيروت، مايو ١٩٧١.

(١٠) عبدالله الشنقيطي، «الرياض: مشكلة الهجرة من الريف إلى المدينة»، المملكة العربية السعودية، وزارة الشئون البلدية ، ١٩٧٧ .

(١١) جيرالد بريز، مجتمع المدينة، في البلاد النامية، ترجمة محمد الجوهري، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٢ ـ في تصدير لمحافظ القاهرة.

(١٢) الإدارة المركزية للمرور، احصائيات حوادث الطرق ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣، طرابلس، وزارة الداخلية ، الجمهورية العربية الليبية، ص : ٦.

(١٣) ميشيل فؤاد جورجي ، الهجرة من الريف إلى المدن في جمهورية مصر العربية، القاهرة، وزارة الإسكان والتعمير، ١٩٧٧، ص : ١٣ ـ ١٤.

(١٤) إدريس عزام، التحضر في الضفة الشرقية، رسالة ماجستير غير منشورة، الإسكندرية، جامعة الإسكندرية، ١٩٧١، ص : ٩٥ ـ ١١٦.

(١٥) رياض السعدي، الهجرة من الريف إلى الحضر في العراق، بحث قدم في المؤتمر الخامس لمنظمة المدن العربية، الرباط، ١٩٧٧ .

(١٦) ميشال مرقص، فكرة المدن الريفية، صحيفة النهار البيروتية، ديسمبر، ١٩٧٤، ص : ١٠ .

(١٧) نفس المصدر .

(١٨) ميشيل جورجي ، المصدر السابق، ص: ١٣ ـ ١٧ .

(١٩) فرج السطنبولي، المصدر السابق، ص : ٣٩ ـ ٤٨ .

النمو السياحي بالساحل التونسي ومشاكله

دكتور محمد الجديدي

المقدمـــة :

عرفت الجمهورية التونسية منذ فجر الاستقلال السياسي سنة ١٩٥٦ ولاسيا منذ بداية الستينات تاريخ الشروع فى إنجاز الخطة العشرية الأولى الاقتصادية والاجتماعية (١٩٦٢ ـ ١٩٧١) ـ تطورات هامة فى مختلف الميادين، تمثلت بالخصوص ـ إلى جانب النمو العمراني السريع، وانتشار التعليم في جميع أنحاء البلاد ـ في تغييرات اقتصادية ملموسة، أهمت بالدرجة الأولى قطاعي الصناعة والسياحة.

وفعلا فقد تركزت النزل السياحية خاصة على السواحل الشرقية المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وتوجد في الوقت الحاضر أربع مناطق سياحية ذات أولوية تخص بعناية كبيرة من طرف الدولة من حيث حجم الاستثمارات المرصودة والتهيئة وتركيز الهياكل الأساسية. وهذه المناطق هي على النحو التالي من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي:

- تونس والأحواز.
- نابل ـ الحمامات بإقليم الوطن القبلي.
- سوسة ـ صفاقس ـ المنستير بإقليم الساحل.
- جربة ـ جرجيس بالجنوب الشرقي، أي بولاية مدنين المتاخمة للحدود مع الجماهيرية الليبية الشقيقة.

غير أن نسق نمو السياحة بالساحل خلال السنوات القليلة الماضية قد تجاوز بكثير المعدل القومي، مما جعل منطقة سوسة ـ صفاقس ـ المنستير تزداد أهمية يوما بعد يوما، وتحرز نتائج جد باهرة.

وسنحاول من خلال هذا البحث المقتضب أن نسلط الأضواء ليس فقط على عوامل النمو السياحي الحثيث بالساحل ومظاهره الإيجابية، بل على انعكاساته السلبية والمشاكل الجديدة التي خلفها أيضا.

أولا ـ عوامل النمو السياحي المشهود بالساحل ومظاهره :

تحظى السياحة بالساحل التونسي بظروف ملائمة جدا، تتلخص في العوامل التالية:

ـ **المناخ معتدل ومشمس** : فالمعدل السنوي للأمطار بمدينة سوسة مثلا يتجاوز ٣٢٦ مليمترا، لا تنزل إلا في فترة محدودة من السنة لا تتعدى ٦٩ يوما، بينا العدد الجملي للساعات المشمسة فى كامل السنة ٣٢٨٨ ساعة، أى بمعدل ٩ ساعات فى اليوم.

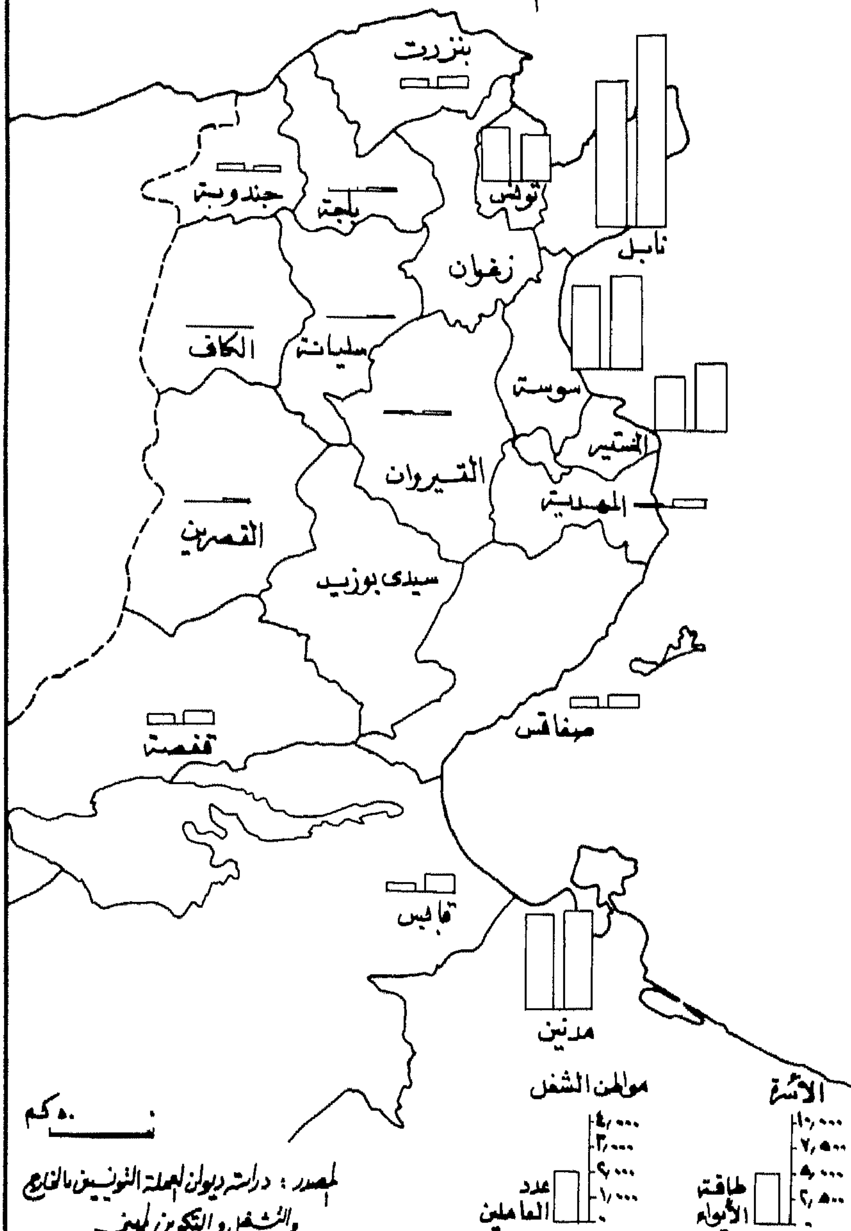
ـ **والشواطئ الرملية الجميلة تمتد على قرابة ١٥٠ كيلمتر، ومياه البحر هي أكثر دفئا من بقية مياه سواحل الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط** ، إذ يبلغ المعدل السنوي لدرجات الحرارة بها ١٨٫٨ د، مع حد أدنى في شهر فبراير مرتفع نسبيا (١٤ د)، وحد أقصى في شهر أغسطس يصل إلى ٢٥ د[1].

ـ **والمشاهد الجغرافية جذابة للغاية**، تتمثل في سهـل ساحلي تتخللـه بعض التـلال والمنخفضات، وتغطية غابات كثيفة من الزيتون وكذلك أشجار مثمرة متنوعـة وخضروات، تكون حزمة خضراء حول العديد من التجمعات السكنية من مدن ومراكز وقرى ساحلية أو شبه ساحلية، يغلب عليها البياض الناصع، وتنعكس عليها أشعة الشمس مع زرقة البحر، فتزيد المشهد روعة وجاذبية.

ـ **والمعالم الأثرية متنوعة جدا** ، تقوم شاهدا على الماضي العريق لهذا الإقليم الذي تعاقبت عليه جميع الحضارات التي عرفتها تونس منـذ القـديم، ولاسيا الحضـارة العـربية الإسلامية. كما أن عاصمة الإسلام الأولى بشمال أفريقيا ـ مدينة القيروان ـ لا تبعد عن جوهرة الساحل ـ مدينة سوسة ـ أكثر من ستين كيلومترا.

ـ **والتجهيز الأساسي مرض نسبيا**، وذلك بفضل وجود شبكة هامة من الطرقات المعبدة، والخطوط الحديدية التى تربط مدن الساحل بعضها ببعض وببقية البلاد، وميناء بحري عصري بمدينة سوسة يمكن أن يستعمل من طرف سفن الترفيه السياحية، وخاصة ميناء جوي دولي بصفاقس ـ المنستير لا يبعد عن سوسة إلا مسافة ١٢ كيلومترا.

توزيع طاقة الايواء وعدد العاملين بالنزل السياحية بتونس حسب الولايات
عام ١٩٧٥



المصدر : دراسة ديوان العملة التونسيين بالخارج والتشغيل والتكوين المهني

ـ والمراكز الحضرية مثل سوسة والمنستير قريبة جدا من النزل السياحية، وفي مجموعها مجهزة بما فيه الكفاية.

ـ وأخيرا لا ننسى دور العوامل السياسية : فالساحل قد اختص منذ أمد بعيد بكثافاته السكانية المرتفعة، إذ تجاوز معدل الكثافة العامة في تعداد مايو ١٩٧٥: ١١٥ نسمة/كلم٢، أي حوالي ٣ر٣ مرات للمعدل القومي (٥٠ر٣٤ نسمة/ كلم٢)، وذلك في الوقت الذي بقيت فيه إمكانيات الوسط الطبيعي محدودة، مما أدى إلى ظهور عدة مشاكل اقتصادية واجتماعية وتفاقم البطالة (قرابة ٥٤٫٠٠٠ عاطل عن العمل في يناير ١٩٦٢)، وذلك على الرغم من هجرة عدد كبير من السكان إلى مناطق أخرى من البلاد (ولاسيما العاصمة وضواحيها) وإلى الخارج. وكان لابد على السلطة المسؤولة أن تجد لها حلولا ولو جزئية، فحظى الساحل باهتمام وعطف كبيرين ليس لحدة المشاكل الموجودة به فحسب، بل وكذلك لمساهمة سكان هذا الإقليم مساهمة فعالة في تأسيس الحزب الحاكم[٢]، ومشاركتهم بقسط كبير في حركة التحرير من نير الاستعمار الفرنسي، ثم في تسيير شؤون البلاد بعد الاستقلال[٣]. وقد عمل المسؤولون على تركيز العديد من الصناعات المعملية التي تستوعب يدا عاملة وافرة، (لاسيما النسيج والملابس الجاهزة)، وتهيئة عدد من المناطق السقوية وتنمية السياحة الساحلية.

وقد أدت كل هذه الظروف والعوامل المواتية مجتمعة إلى النهضة السياحية التي نشاهدها اليوم بالساحل، والتي تتميز بعدة مظاهر إيجابية، نورد فيما يلي أهمها:

١ ـ نمو في الهياكل السياحية العلوية يتم بالساحل على نسق أسرع منه في بقية البلاد : وفعلا فقد تضاعف عدد النزل السياحية في تونس حوالي أربع مرات بين ١٩٦٢ و ١٩٧٦، إذ تطور من ٧٤ إلى ٢٧٦، بينما انتقل هذا العدد في الساحل من ٥ إلى ٤١[٤] خلال نفس الفترة، أي بزيادة أكثر من ٨ مرات.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار طاقة الإيواء لأمكن لنا أن نلاحظ أن نسق نموها كان ـ خلال الخمسة عشر سنة المذكورة ـ ثلاث مرات ونصف أسرع في منطقة سوسة ـ صفاقس ـ المنستير[٥] في كامل البلاد، إذ تطور فيها عدد الأسرة من ٣٧٠ إلى ١٦٠٩٦[٦]، (مقابل من ٤٠٧٧ إلى ٦٢.١٨١).

والجدير بالذكر أن الدولة هي التي بادرت ـ عن طريق الشركة التونسية للنزل والسياحة، وبإيعاز من رئيس الجمهورية نفسه ـ بإحداث أولى النـزل السياحية بمنطقة صفـاقس ـ المنستير، وذلك خلال الفترة ما بين ١٩٥٧ و١٩٦٦. وهذه النزل هي على التوالي: الرباط (١٩٥٧ و٢٠٢ سرير)، والنخيل (١٩٦١ و١٢٦ سريرا)، واسبلانـاد (١٩٦٢ و٢٦٠ سريرا)، وصقانس بالاص (١٩٦٤ و٣٠٠ سرير)، وتانيت (١٩٦٦ و٥٥٠ سرير). تم لم يلبث أن تبعها الخواص من تونسيين وأجانب[٧]، ولكن على نسق سريع للغاية، بحيث في الوقت الحاضر لا يمتلك القطاع العام (أي الشركة التونسية للنزل والسياحة التي أصبح مقرها الاجتماعي بالمنستير عوضا عن تونس منذ مايو ١٩٧٧) إلا ١٩٣٨ سريرا، أي خمس عدد الأسرة الموجودة بصفاقس ـ المستنير (٥٠، ٢١٪)، وأقل من ٩٪ من طاقة الايواء بكامل المنطقة.

٢ ـ امتلاك منطقتنا لأعلى نسبة في تعمير الأسرة : لقد تصكنت منطقتنا من التفوق على المنطقة السياحية بنابل ـ الحمامات، فأصبحت منذ ١٩٧١ تمتلك أحسن نسبة بالبلاد لتعمير الأسرة، مثلما يبين الجدول التالي:

جدول رقم (١) : تطور نسب تعمير الأسرة بمنطقة سوسة صفاقس ـ المنستير وبأهم المناطق السياحية بالبلاد بين ١٩٧١ و ١٩٧٦[٨]

الأعوام	سوسة ـ صفاقس المنستير	نابل ـ الحمامات	تونس والأحواز	جربة ـ جرجيس	كامل البلاد
١٩٧١	٦٥،٣٪	٥٨،٣٪	٥١،٦٪	٥٩،٩٪	٥٦،٧٪
١٩٧٢	٦٦،٧	٦١،٦	٤٨،٧	٥٧،٢	٥٧،٦
١٩٧٣	٥١،٥	٤٢،٣	٣٦،١	٤٣،٦	
١٩٧٤	٤٧،٨	٣٩،٨	٤٢،٧	٣٩،٦	٤١،٢
١٩٧٥	٦١،٤	٥٤،١	٤٢،٧	٥٠،٨	٥٣،٧
١٩٧٦	٥٨،٣	٤٨،٣	٥٢،٩	٤٩،٣	٥١،٠

٣ ـ مساهمة المنطقة أكثر فأكثر في إيواء السياح الأجانب :

لقد تضاعف عدد السياح الذين وصلوا إلى تونس منذ ١٩٦٤ أكثر من سبع مرات، إذ تطور من ١٣٨.٢٣٨ إلى قرابة المليون (٩٧٧.٨١٨ عام ١٩٧٦)، بينما في منطقتنا كان نسق النمو أهم من ذلك، إذ تضاعف العدد أكثر من ١١ مرة (١٩٦٤: ٢٩.٣٥٣ ـ ١٩٧٦: ٣٣٨.٠١١). وبذلك تمثل نسبة السياح الأجانب الذين تم استقبالهم في المنطقة عام ١٩٧٦ أكثر من الثلث (٣٤،٥٠٪)، بينما لم تكن تتجاوز الخمس (٢١٪) عام ١٩٦٤.

أما نصيب منطقتنا من الليالي المقضاة بالنزل فهو في تحسن مستمر: ١٥،٥٪ عام ١٩٦٤[٨]، الثلث (٣٣،٤٠٪) عام ١٩٧٦[١٠].

٤ ـ مقبوضات المنطقة من العملة تمثل أكثر من ثلث مقبوضات البلاد المتأتية من السياحة :

لقد زادت المقبوضات من العملة الصعبة منذ ١٩٦٤ بنسق هو حوالي مرتين أسرع في منطقتنا منه في مجموع البلاد.

الجدول رقم (٢) : تطور المقبوضات من العملة الصعبة (بحساب الأسعار الجارية)
بمنطقة سوسة ـ صفاقس ـ المنستير وبكامل البلاد
بيـــن ١٩٦٤ و ١٩٧٦

السـنة	منطقة سوسة ـ صفاقس المنستير	كامـل البـلاد
١٩٦٤	١.٠٧١.٠٠٠ دينار[١١]	٥.٣٠٠.٠٠٠ دينار
١٩٧٦	٤٦.٥٥٢.٠٠٠ دينار	١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار

كما أن نصيب منطقتنا من المقبوضات الجملية قد تضاعف أو يكاد : ٢٠،٢٠٪ عام ١٩٦٤، ٣٥،٨٠٪ عام ١٩٧٦.

٥ ـ نصيب المنطقة من الاستثمارات المعدة للهياكل العلوية للنزل هو في تطور ملموس :

ففي عام ١٩٦٢ كان حجم الاستثمارات بمنطقتنا يمثل ١٦٪ من المجموع (١.٦٥٧.٠٠٠ د)، بينما في عام ١٩٧٦ ارتفعت النسبة إلى الربع تقريبا (٤٨.٠٩٥.٠٠٠ د من جملة حوالي ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ د). والملاحظ أن نصيب الشركة التونسية للنزل والسياحة محدود للغاية، إذ لا يمثل إلا ٩٪ من مجموع الاستثمارات على الصعيد الإقليمي (٤.٣٤٥.٠٠٠ د).

وقد صرف أكثر من نصف الاستثمارات الجملية (٥٢٪) في السنوات القليلة الماضية، أي خلال الخطة الرباعية (١٩٧٣ ـ ١٩٧٦).

٦ ـ الارتفاع المتواصل لرقم معاملات النزل السياحية :

لقد بلغ هذا الرقم سنة ١٩٧٦، ١٥ مليون دينار على أقل تقدير، منها ١٠ مليون دينار حققتها نزل سوسة، وأكثر من ٥ مليون دينار نزل صفاقس ـ المنستير[١٢]. ويمثل ذلك على الصعيد القومي حوالي ربع رقم المعاملات الذي أنجزته النزل السياحية التونسية.

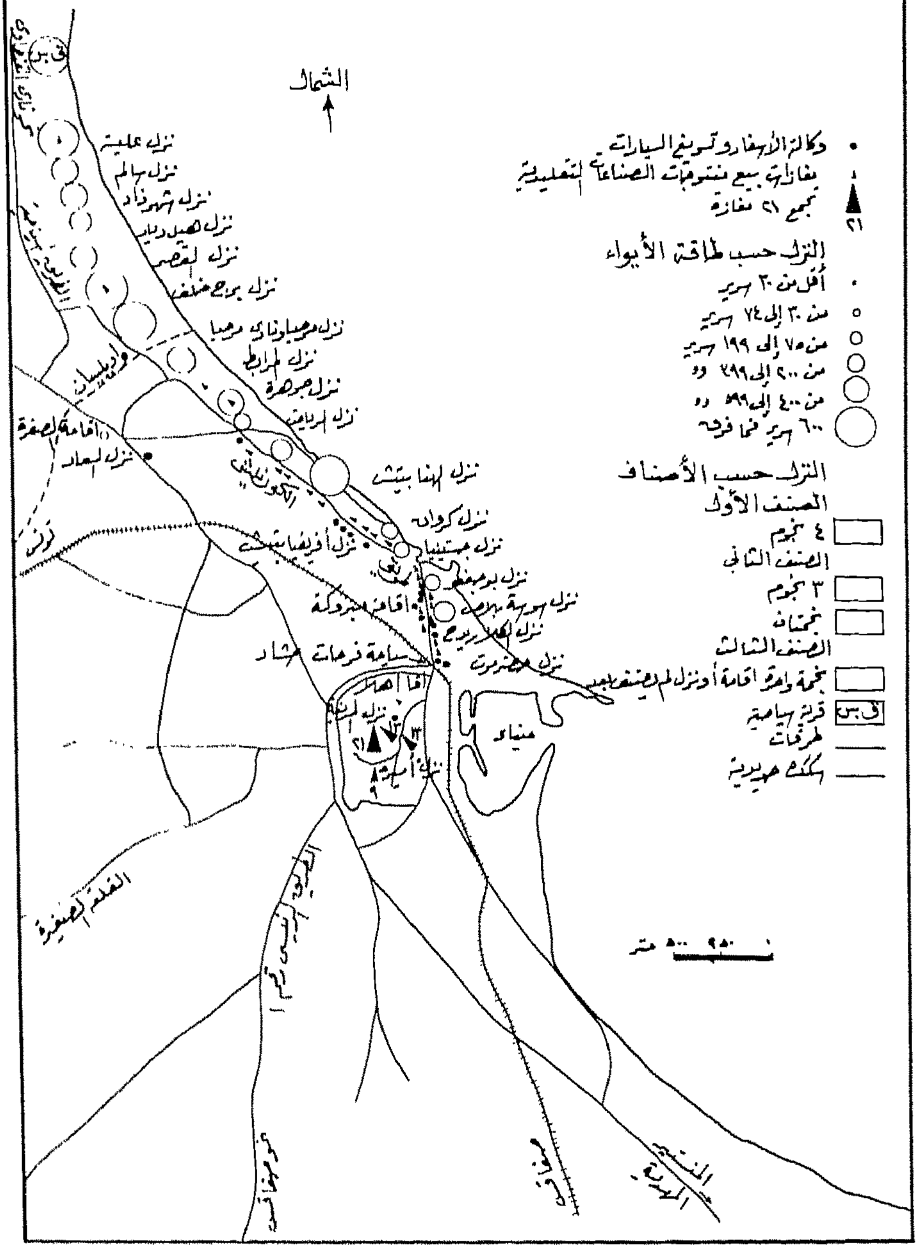
أما نصيب حجم الأجور الموزعة خلال عام ١٩٧٦ فهو يتراوح بين ٢٠ و ٢٥٪ من رقم المعاملات، أي على الأقل من ٣ إلى ٤ مليون دينار.

٧ ـ الإسهام المحسوس للنزل السياحية في تنمية الموارد المالية لبلديات المنطقة :

فبالنسبة لبلدية سوسة مثلا بلغت المقبوضات المتأتية من الأداءات على المؤسسات السياحية (١٪ من رقم المعاملات) عام ١٩٧٦ ٨٠٠.٠٠٠ دينار من جملة ٩٢٠.٠٠٠ دينار، تمثل موارد ميزان التصرف للبلدية أي ٨٧،٧٠٪ من المجموع. ومن المتوقع أن يرتفع هذا المقدار إلى ١٠.٠٠٠ دينار في نهاية السنة الجارية (من جملة ١.٧٣٥.٠٠٠ د.).

توزيع النزل ووكالات الأسفار ومغازات بيع منتوجات الصناعات التقليدية بسوسة

مارس ١٩٧٧



وأما بالنسبة لبلدية المنستير فمن المنتظر أن يصل حجم هذا النوع من المقبوضات إلى ٦٠.٠٠٠ دينار هذا العام (من جملة ٧٦٢.٦٠٠ د، أي حوالي ٨٪.

٨ ـ النمو المطرد في حجم مواطن الشغل :

لقد تضاعف عدد مواطن الشغل المباشرة بالنزل التونسية ٨ مرات خلال ١٢ عاما، إذ تطور من ٣٠٢٩ عام ١٩٦٤ إلى ٢٤.٨٢٢ عام ١٩٧٦. لكن في منطقة سوسة ـ صفاقس ـ المنستير كان نسق النمو خلال نفس الفترة مرتين ونصف أسرع: ٧٧٥٧ مواطن شغل عام ١٩٧٦[١٣] مقابل ٥١٦ عام ١٩٦٤. ويمثل ذلك حوالي ثلث المجموع.

والجدير بالذكر أن اليد العاملة من الإناث تمثل قرابة ربع اليد العاملة الجملية بالمنطقة، وثلث مجموع اليد العاملة النسائية بالنزل التونسية، مما يجعل منطقتنا تحتل في هذا المجال المرتبة الأولى من بين مختلف المناطق السياحية.

ومن جهة أخرى فإذا كان عدد مواطن الشغل للنزل الواحد لا يتجاوز في المعدل ٩٠ في كامل البلاد، فإن منطقتنا تتميز بمعدل أرفع، إذ يبلغ هذا الأخير ١٥٤ مع فارق ملموس بين صفاقس ـ المنستير، حيث نجد نزلا من الحجم الكبير (٦١١ سريرا في المعدل مع حد أدنى بنزل النخيل لا يتجاوز ١٢٦ سريرا، وحد أقصى بنزل صحراء ـ بيتش يصل إلى ٢١٠٠ سرير)، وسوسة التي بها تنوع كبير من الإقامة (إقامة «أهلا» ٢٤ سرير) إلى نزل خلف (١١٥٨ سرير)[١٤].

أما مواطن الشغل غير مباشرة فإن حجمها هو بلاشك أكثر أهمية، لكن يصعب لسوء الحظ ضبطه بكل دقة، نظر إلى أن نشاط النزل له انعكاسات كبيرة ـ من حيث تنمية الإنتاج، وخلق مواطن شغل جديدة ـ على بقية الأنشطة المهنية، ولاسيا الخدمات: (وكالات الأسفار، وتسويغ السيارات، النقل....) والصناعات التقليدية، وتجارة منتوجاتها، وصناعة مواد البناء والبناء....).

ويعتقد المتخصصون أن كل موطن شغل مباشر جديد بالنزل التونسية ينجر عنه من ١ إلى ٤ مواطن شغل غير مباشرة، أو بمعنى آخر أن هناك بالساحل على الأقل ٧ آلاف مواطن يعيشون بصفة غير مباشرة من النشاط السياحي، وقد يصل ذلك العدد إلى ٣٠ ألف تقريبا.

وقد اهتممنا خاصة بالأنشطة الاقتصادية التي لها اتصال مباشر بالسياح الأجانب، فتمكنا على سبيل المثال لا الحصر من إحصاء ١٣ وكالة للأسفار وتسويغ السيارات بكامل المنطقة، تشغل بصفة مباشرة ما بين ١١٠ و ١٢٠ مستخدما، وكذلك حوالي مائة مغازة مختصة في بيع منتوجات الصناعات التقليدية للسياح[١٥]، تشغل ما بين ٣٠٠ و ٣٥٠ شخصا[١٦].

وهكذا يمكن القول : إن دور السياحة في التنمية الإقليمية بالساحل وفي الحد من مشكلة البطالة هو في تزايد مطرد، غير أن هذا التوسع السياحي المشهود لا يخلو من سلبيات ومن نقاط الضعف، وقد أدى إلى ظهور عدة مشاكل جديدة، وإلى تفاقم تلك التي يعانى منها هذا الإقليم.

فما هي يا ترى نوعيتها ؟ وما هو مدى حدتها ؟

ثانيا ـ سلبيات النمو السياحي بالساحل ومشاكله :

يصعب في حقيقة الأمر التعرض إلى جميع الانعكاسات السلبية للنمو السياحي بالساحل، التي هي في الواقع ليست خاصة بمنطقتنا، بل تهم بدرجات متفاوتة مختلف المناطق السياحية إن لم نقل القطاع السياحي التونسي برمته.

وسنحاول على قدر المستطاع التأكيد على أبرز نقاط الضعف والمشاكل المنجزة عن النمو السياحي السريع، مع التركيز على آثارها في إقليم الساحل.

نعتقد أن أبرز سلبيات النمو السياحي الحثيث بتونس عموما، وبالساحل على وجه الخصوص يمكن تحديدها في المظاهر التالية:

١ ـ الحجم المرتفع للاستثمارات الضرورية لتهيئة المناطق السياحية والهياكل الأساسية مع ربط البلاد أكثر فأكثر بالاستثمارات الخارجية وبتقلبات السوق السياحية العالمية:

فبالنسبة للهياكل العلوية للنزل فقط ـ أي بناء النزل وتجهيزها ـ بلغ حجم الاستثمارات بكامل البلاد منذ بداية الستينات وإلى موفى ١٩٧٦ حوالي ٢٠٠ مليون دينار ـ كما أسلفنا ـ أحدث بفضلها ٦٢.١٨١ سريرا، أي بمعدل ٣٥٠٠ دينار للسرير الواحد بالأسعار الجارية.

وكان نصيب منطقة سوسة ـ صفاقس ـ المنستير قرابة الربع (أي أكثر من ٤٨ مليون دينار)، أحدث بمقتضاها ١٦٠٩٦ سريرا، أي بمعدل حوالي ٣٠٠٠ دينار للسرير الواحد.

غير أنه يبدو أن تكلفة السرير الواحد هي في ارتفاع مستمر إذ تعتقد المندوبية الجهوية للسياحة أنها قد بلغت بسوسة ٣.٥٠٠ دينار خلال المخطط الرابع (١٩٧٣ ـ ١٩٧٦)، وقد تصل إلى ٥٠٠٠ دينار بالنسبة للمخطط الخامس الحالي (١٩٧٧ ـ ١٩٨١).

هذا بدون اعتبار التكلفة المرتفعة لتهيئة المناطق السياحية وتركيز الهياكل التحتية (طرقات، قنوات وخزانات للمياه، قنوات ومحطات للتطهير، تجهيزات النور الكهربائي والبرق والهاتف...). وإذا كان الخواص يساهمون أكثر فأكثر في إقامة النزل الجديدة ـ لاسيا بسوسة ـ فإن التهيئة والتجهيزات الأساسية الباهظة التكاليف هي على نفقة القطاع العمومي.

ونظرا لأهمية الاستثمارات الضرورية للتنمية السياحية وللإمكانيات المادية المحدودة للباعثين التونسيين الخواص وحتى للدولة، فإنه كثيرا ما يلتجأ إلى قروض متوسطة وطويلة المدى من بنوك مقيمة بتونس، مثل الشركة المالية السياحية، والشركة التونسية للبنك، وبنك تونس للتنمية الاقتصادية...)، لكنها مرتبطة نوعا ما بالاستثمارات الخارجية.

وأحسن مثال لتصاعد دور الاستثمارات الأجنبية في السياحة التونسية هو مشروع سوسة الشمالية الذي يرمي إلى إنشاء أول محطة سياحية مندمجة بالبلاد، ستكون جاهزة عام ١٩٨٥. وقد أسست الدولة لهذا الغرض في ١٩٧٣/٦/٢٧ شركة عالمية خفية الاسم، وهي شركة الدراسات والتنمية بسوسة الشمالية، ويبلغ رأس مالها في الوقت الحاضر ٤.٥٠٠.٠٠٠ د، (مقابل ٣٠٠.٠٠٠ د. عند تأسيسها). ومن أهم المساهمين فيها ـ إلى جانب الدولة التونسية (١.٥٠٠.٠٠٠ د)، والشركة العالية السياحية (٧٩٩.٠٠٠ د)، وبنك تونس للتنمية الاقتصادية (٤٩٩.٠٠٠ د.)، وولاية سوسة (٥٠.٠٠٠ د)، وبلدية سوسة (٣٠.٠٠٠ د(، والديوان القومي للسياحة التونسية (٣٠.٠٠٠ د)، وبلدية حمام سوسة (٥.٠٠٠ د)، وبلدية أكودة (٥.٠٠٠ د) ـ نجد ٣ مؤسسات بنكية عالمية تساهم معا في أكثر من ثلث رأس المال الجملي، وهي: صندوق التنمية الاقتصادية بأبو ظبي (١٠٠.٠٠٠ د)، والشركة المالية العالمية (٢٧٠.٠٠٠ د)، والبنك العربي الدولي (Arab International Bank) الذي تموله رؤوس أموال عربية من الشرق الأوسط (٢٠٠.٠٠٠ د).

وبالإضافة إلى ذلك فإن وكالات الأسفار العالمية تتحكم نوعا ما في السوق السياحية التونسية، نظرا إلى أن وسائل الإشبار التونسية هي غير كافية، فهي المنتفع الأول من السياحة لا تبحث إلا على الربح العاجل، فتقوم بتنظيم قوافل سياحية جماعية بسفارات اقتصادية (Charter)، وترغم بصفة غير مباشرة أصحاب النزل على قبول أسعارها ـ مقابل خصم نسبة مئوية معينة ـ حتى يتمكنوا من تعمير الأسرة ولو كان الربح الناتج عن ذلك زهيدا.

وهكذا فإن السياحة التونسية ليس فقط تربط البلاد أكثر فأكثر بالاستثمارات الأجنبية، بل وكذلك تخضع لضغوط وكالات الأسفار العالمية، وتتأثر جديا بتقلبات السوق السياحية العالمية، لاسيا في فترات الكساد الاقتصادي بالبلدان الصناعية الأوربية، والأزمات التي قد تطرؤ على العلاقات السياسية بين تونس وهذه البلدان وخاصة فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأقطار شهال أوروبا.

٢ ـ ارتفاع تكلفة اليد العاملة السياحية وخاصة قلة كفاءتها المهنية :

يعتقد المتخصصون في الميدان السياحي أن إحداث سرير واحد في النزل السياحية قد ينجز عنه إحداث ما بين ٠،٤٠ و ٠،٥٠ موطن شغل مباشر، أو بالأحرى يتم زيادة موطن شغل مباشر كلما أضيف ما بين ٢ و ٢،٥ سرير جديد.

وفي هذه الحالة ـ وبقطع النظر عن تكلفة التكوين المهني ـ فإن إضافة موطن شغل مباشر جديد بالنزل قد تكون تكلفت ـ خلال الفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٧٦ ـ ما بين ٧٠٠٠ و ١٠.٥٠٠ د بكامل البلاد، وما بين ٦٠٠٠ د و ٧٥٠٠ د بالساحل.

صحيح أن معدل هذه التكلفة هو أقل مما هو عليه في الصناعات الكيميائية (أكثر من ١٠.٠٠٠ د لموطن الشغل الواحد، بل ١٤٩.٠٠٠ د بصناعة البترول)، غير أن ذلك لا يمنع أنه قد يكون ما بين ٤ و ٥ مرات أرفع مما هو عليه في صناعات النسيج (١٦٠٠ د)، وربما من ١٢ إلى ١٥ مرة أكثر لو اقتصرنا على صناعة الملابس الجاهزة (٥٠٠ د).

ومن المتوقع أن يرتفع هذا المعدل خلال المخطط الخامس (١٩٧٧ ـ ١٩٨١) ليصل إلى ١٠.٠٠٠ د إن لم نقل ١٢٠.٥٠٠ د.

وزيادة على ذلك فإن سرعة نسق النمو السياحي بتونس ـ ولاسيا بالساحل ـ لم تمكن المسؤولين عن السياحة من الانكباب على موضوع التكوين المهني بما فيه الكفاية، وذلك على الرغم من شعورهم بأهميته القصوى.

فإلى جانب وجود نسبة مرتفعة من الأميين (١٩٪ من مجموع العاملين بالنزل السياحية بالساحل)[١٧] ومن الذين لهم مستوى ضعيف لا يتجاوز مرحلة التعليم الابتدائي (٣٨٪)، يلاحظ أن اليد العاملة السياحية تشكو نقصا فادحا من حيث الكفاءة المهنية. ويمثل ذلك أحد المظاهر السلبية الرئيسية للسياحة التونسية.

وفعلا ففي منطقة الساحل لا يتجاوز عدد المستخدمين بالنزل الذين صرحوا بأنهم قد تلقوا تكوينا ما في معهد للتكوين النزلي والسياحي ثلث المجموع وتنزل النسبة عند الإناث إلى أقل من الخمس (١٩٪ مقابل ٣٨٪ عند الذكور).

والحال أن السلطة التونسية المعنية أكثر فأكثر من مجهوداتها في ميدان التكوين المهني، سواء فيا يخص تدريب الإطارات السفلى أو تكوين الإطارات المتوسطة والعليا.

ففي ميدان التدريب يقوم ديوان العملة التونسيين بالخارج والتوكين المهني والتشغيل منذ عام ١٩٧٠ بتدريب العملة المبتدئين: ٤٧٦ عام ١٩٧٢ ـ ١٦٠٠ سنويا خلال المخطط الرابع (١٩٧٣ ـ ١٩٧٦).

كما قام الديوان القومي للسياحة من جهته بتكوين عدد كبيرة من المبتدئين، وذلك بتدريبهم في أماكن عملهم (٢٤٠٠ سنتي ١٩٧١ و ١٩٧٢). وقام عام ١٩٧٦ بتنظيم تربص لتعمير الإطار الأساسي دام من ١٠ فبراير إلى ٥ مارس، وقد شمل ٥٣٨ مبتدىء.

ـ وأما تكوين الإطارات المتوسطة والعليا فهو يتم بتونس وبالخارج :

ـ **ففي تونس** تم تكوين ٣٦٧١ شابا، (منهم ٣٠٣١ ذكرا، و ٦٤٠ أنثى)، وذلك فيا بين ١٩٦٤ و ١٩٧٢.

وإذا كان المعهد القومي للنزل السياحية[١٨] يقوم بتكوين الإطارات العليا ـ فما بين ١٩٧٢ و ١٩٧٦ استقبل ٦٧٩ طالبا ـ فإن الإطارات المتوسطة تتكون حاليا بسبع مدارس

للنزل، تقع جميعها على الساحل الشرقي، غير بعيد عن النزل السياحية، أي بنزرت وسيدي الضريف ونابل وسوسة والمنستير وجربة. وقد بلغ عدد التلاميذ الذين زاولوا بها تعلمهم ٣١٤٠ شابا خلال ٥ سنوات، أي بين ١٩٧٢ و ١٩٧٦.

ـ **وأما بالخارج** فقد تم تكوين ١٦٨٢ شابا بين سنتي ١٩٥٨ و ١٩٧٦، منهم ٧٦٩ أرسلوا للدراسة في مدارس سياحية، و٩١٣ لقضاء تربصات بالمؤسسات السياحية.

لكن ـ مهما يكن من أمر فإن هذه المجهودات تظهر غير كافية، لاسيا خلال موسم ازدهار السياحة ـ أي في فصل الصيف ـ حيث يعمد أصحاب النزل لمواجهة تدفق السياح بأعداد غفيرة إلى انتداب يد عاملة موسمية كثيرة العدد (١٥٪ على الأقل من مجموع المستخدمين)، لكن غالبا ما تفتقر إلى الكفاءة المهنية.

والجدير بالملاحظة أن جميع أصحاب النزل تقريبا ـ الذين قبلوا شاكرين الإجابة عن أسئلتنا ـ يتذمرون من النقص في الكفاءة المهنية لليد العاملة، وهذا النقص أدى ويؤدي إلى نتيجتين سلبيتين خطيرتين:

ا ـ عدم استقرار الإطارات المتوسطة والعليا ذات الكفاءة المهنية المرضية نسبيا، لأن قلة عددها يجعل أصحاب النزل يتهافتون عليها، ويمنحونها مرتبات متنوعة وترقيات تفوق بكثير قيمتها الحقيقية مما يؤدي إلى تعميق الفوارق من حيث الأجر بينها وبين الإطارات السفلى.

ب ـ انخفاض المستوى الكيفي للخدمات في أغلبية النزل السياحية وسوء التصرف الإداري والمالي في العدد منها، مما ينتج عنه انعكاسات سيئة على موازنة المؤسسة وعلى سمعة السياحة التونسية بصفة عامة.

٣ ـ احتكار الشواطئ الرملية الجميلة من طرف نزل غالبا ذات طوابق عديدة انتصبت على طولها فحرمت سكان البلاد من التمتع بها:

تتكون النزل السياحية التونسية في غالب الأحيان ـ ولاسيا بالساحل [١٨] ـ من كتل من

البناءات العالية ذات الطوابق المتعددة، تختص بشكل معماري من الطراز الغربي لا ينسجم بتاتا مع النموذج المعماري العربي الإسلامي السائد بإقليم الساحل. ولم تكتف هذه النزل باحتلال مساحات كبيرة من الأراضي الصالحة لبناء المساكن أو للزراعة، بل هي امتدت إلى عديد من الكيلومترات على طول السواحل، واحتكرت الشواطئ الرملية الخلابة، فحرمت بذلك سكان هذه المناطق من التمتع بما فيه الكفاية بالبحر والشمس والرمال الناعمة.

وقد كان السكان إلى بداية الستينات يتوافدون للاصطياف ـ خلال شهري يولية وأغسطس ـ على شواطئ بوجعفر (بسوسة) وصفاقس والمنستير، ليس فقط من المدن والقرى المجاورة، بل وكذلك من المناطق الداخلية، وحتى من مدينة القيرواط وسهلها. لكن أصبحت اليوم أحسن الشواطئ تقريبا حكرا على السياح الأجانب، وعلى بعض التونسيين الموسرين الذين في وسعهم قضاء أيام معدودات بهذه النزل.

٤ ـ توسع المناطق السياحية على حساب الزراعة ولاسيما شمال مدينة سوسة :

بعد الاستقلال كان قسم لا يستهان به من الأراضي الساحلية التي تنتصب عليها اليوم النزل السياحية شمال مدينة سوسة وبصفاقس مستغلة زراعيا، إذ كانت تحتوي على عدد كبير من غروس الزيتون ومن الزراعات السقوية التقليدية التي كانت تعتمد على مياه الآبار السطحية. وقد قامت بلديتا سوسة والمنستير بالتفويت في الأراضي التابعة للدولة، وبشراء بقية الأراضي من الخواص بأسعار رمزية، وحتى بانتزاعها بدون مقابل إن لزم الأمر، وذلك لفائدة الباعثين السياحيين. تم أسست الدولة الوكالة العقارية السياحية بمقتضى القانون رقم ٢١/٧٣، الصادر في ١٤ أبريل ١٩٧٣[٢٠]، ومهمتها تتمثل في افتناء الأراضي الضرورية، سواء بالحسنى أو باستعمال حق الشفعة أو بالمصادرة، وجعلها تحت ذمة أصحاب المشاريع السياحية خاصة في المناطق التي تحظى بالأولوية.

وفيما يخص الساحل قامت الوكالة حتى شهر فبراير ١٩٧٨ بوضع يدها على ٣٤٣ هكتارا في كل من صفاقس ـ الدخيلة وسوسة الشمالية والمهدية:

ـ ففي صفاقس ـ الدخيلة : اقتنت الوكالة سنتي ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ـ ٥٧ هكتارا لفائدة مشروع نادي الفروسية بمعدل ١٠٠ مليم للمتر المربع.

- **وفي سوسة الشمالية** : شرعت الوكالة منذ ١٥ مايو ١٩٧٥ في تجميع الأراضي الضرورية للانجاز مشروع سوسة الشمالية. وقد تم حتى الآن اقتناء ٢٧٣ هكتاراً من جملة ٢٨٨ هكتاراً، وذلك، بمعدل ٤٢٥ مليم للمتر المربع الواحد، ثم باعتها إلى شركة الدراسات والتنمية بسوسة الشمالية بمعدل ٥١٤ مليم للمتر المربع[٢١].

- **وفي المهدية** : قامت الوكالة بعد شراء ١٣ هكتاراً من جملة ٤٠ هكتاراً ضرورية لإنجاز محطة سياحية مندمجة، وذلك بسعر لا يختلف كثيرا عن معدل سعر مشروع سوسة الشمالية، أي ٤٣٠ مليم للمتر المربع.

ما هي القيمة الزراعية لهذه الأراضي ؟

يظهر أن الأراضي التي وضعت على ذمة نادي الفروسية بالدخيلة هي ذات قيمة زراعية محدودة، وذلك خلافا لأراضي مشروع المحطة السياحية بالمهدية التي كان قسم كبير منها معدا للزراعة.

أما بشمال سوسة فإن المسؤولين عن الوكالة يؤكدون على أن ما بين ٣٠ و ٤٠٪ من الأراضي كانت بورا، بينما كانت بقية الأراضي إما مفروسة بأشجار الزيتون ومكتضة أو تحمل زراعات سقوية تقليدية ذات إنتاجية ضعيفة. كما أن الوضع العقاري لهذه الأراضي كان يتميز بالتفتت القطعي (٢٨٨ هكتارا مقسمة إلى ١١٧٠ قطعة، أي بمعدل ربع هكتار تقريبا للقطعة الواحدة) وكذلك بالعدد الكبير جدا للمستحقين (١٢٠٠ مستحق حسب المسؤولين عن الوكالة)[٢٢].

لكن مهما يكن من أمر فإن ضخامة حجم المساحات التي ستستوعبها المشاريع السياحية المبرمجة (٣٨٥ هكتارا) ستضرر منها بدون أدنى شك الزراعة بالساحل، لاسيما وأن التوسع الأفقي السريع للتجمعات السكنية - في إقليم موارده الزراعية غير كافية بالمرة - يستوعب سنويا مساحات جديدة هامة من الأراضي المزروعة أو الصالحة للزراعة.

كما أن مشروع سوسة الشمالية قد يهدد جديا المناطق السقوية العصرية المجاورة الموجودة بسط مريم، وقد يحد من توسعها الأفقي، ويزاحمها في استهلاك الماء.

٥ ـ استهلاك النزل السياحية لكميات كبيرة من الماء :

إذا كان الاستهلاك الجملي للماء الصالح للشراب بولايات الساحل الثلاث (سوسة والمنستير والمهدية) قد زاد بحوالي ٥٠٪ بين ١٩٦٩ (٨.٢٣٩.٨٥٤ مترا مكعبا)[٢٣] و ١٩٧٦ (١٢.١١٧.٩٤٠)[٢٣] فإن الاستهلاك السياحي قد تضاعف أكثر من أربع مرات خلال نفس الفترة، إذ تطور من ٥٠٢.٤٤٠ إلى ٢٩٠.٣٤٧ مترا مكعبا، كما أن نسبة هذا الاستهلاك بالمقارنة مع مجموع الاستهلاك قد تضاعفت أكثر من ثلاث مرات: ٦،١٠ عام ١٩٦٩[٢٥] ـ ١٨،٩٪ عام ١٩٧٦[٢٦].

والمعلوم أن الساحل يشكو نقصا فادحا من الماء الصالح للشراب، لاسيا في فصل الصيف. وإذا ما استثنينا منطقتي بوفيشة والنفيضة (شمال ولاية سوسة) اللتين يقع تزويدها بموارد مائية محلية (آبار عميقة)، فإن بقية إقليم الساحل يعتمد كليا على المياه الجوفية الموجودة غرب مدينة القيروان، ولاسيا ببوحفنة، والتي يبلغ حجمها السنوي ٢٦ مليون متر مكعب، أي بصبيب اعتيادي مسترسل يصل إلى ٨٣٠ لترا في الثانية. وإذا كان هذا المعدل كافيا في فصل الشتاء فإن الاستهلاك المفرط في فصل الصيف (من ١١٠٠ إلى ١٢٠٠ لترا في الثانية) ـ خاصة من طرف النزل السياحية ـ يستوجب الاستفادة من مياه سد نبهانة المعدة في الحقيقة للزراعات السقوية العصرية التي يبلغ حجمها السنوي ٧٥ مليون متر مكعب تقريبا[٢٧]، فيؤخذ منها سنويا ما بين ٢ر٣ مليون متر مكعب، أي بمعدل صبيب يومي يبلغ ١٠٠ لتر في الثانية.

ويتوقع المسؤولون في الشركة القومية لاستغلال وتوزيع المياه أن حاجيات الساحل من الماء الصالح للشراب ما يقارب ٥٦ مليون متر مكعب عام ٢٠٠٠[٢٨]، وسيكون نصيب الاستهلاك السياحي منها حوالي ١٦٪ (٨،٧١ مليون[٢٩]، أي قرابة أربعة أضعاف ما كان عليه عام ١٩٧٦.

وسيعتمد المسؤولون ـ لمحاولة سد هذه الحاجيات الضخمة إلى أفق عام ٢٠٠٠ ـ على جلب المياه إلى الساحل من الآبار الجوفية بمنطقة «سيسب» وبسهل القيروان (١٠ مليون متر مكعب في السنة)، وبالخصوص من شمال البلاد بفضل المياه السطحية التي ستوفرها مجموعة من السدود على نهر مجردة (٥٠٠ مليون متر مكعب من سد سيدي سالم الذي من المتوقع أن

بكون جاهزا عام ١٩٨١)، وكذلك من بحيرة «اشكل» غرب مدينة بنزرت، والسدود التي ستقام على الأنهار الصغيرة التي تصب فيها (مثل واد جومين: ٦٠ ـ ٧٠ مليون متر مكعب).

وقد يوفر «برنامج مياه الشمال» في مرحلته النهائية ما بين ٨٠٠ و ٩٠٠ مليون متر مكعب، وربما مليار متر مكعب من المياه التي سيستعمل جزء منها لتوسيع المناطق السقوية بالشمال وبالوطن القبلي، والجزء الآخر للتزويد بالماء الصالح للشراب لكل من تونس وبنزرت والوطن القبلي والساحل الذي من المتوقع أن تصله هذه المياه عام ١٩٨٣.

هل معنى ذلك أن مشكلة الماء بالساحل ستحل تمام إلى موفى هذا القرن ؟

٦ ـ النقص الكبير في المواد الغذائية الأساسية من لحم وأسماك وخضر وفواكه وألبان، والارتفاع المجحف لأسعارها لاسيما في فصل الصيف، مما يؤثر كثيرا على الطاقة الشرائية لذوي الدخل المحدود وحتى المتوسط :

إن اعتماد إقليم الساحل منذ القديم أساسا على الزيتون، وارتفاع عدد سكانه (حوالي ٧٠٠ ألف ساكن من جملة ٥.٥٧٧.٢٥٠ في تعداد مايو ١٩٧٥، أي قرابة ١٣٪ من المجموع) الذين يتكون قسم كبير منهم (٦٢،٥٠٪) من الحضر، مع نسبة عالية للنمو الديمغرافي بالمدن (٣،٨٢٪ سنويا بين ١٩٦٦ و ١٩٧٥)، وكذلك قلة الموارد المائية المحلية، مع تزايد حاجيات السكان تحت تأثير ارتفاع مستوى العيش بصفة عامة، قد أدت مجتمعة إلى تفاقم عجز الساحل من المنتوجات الزراعية.

صحيح أن تعصير الزراعة قد نجم عنه ارتفاع في إنتاج الألبان والأسماك واللحوم (لاسيما لحم الدواجن)، وكذلك الخضروات بجميع أنواعها، بفضل تركيز عدد من المناطق السقوية العصرية مثل شط مريم وطبلبة والساحلين... لكن تدفق أكثر من ٣٠٠ ألف سائح أجنبي (٣٣٨ ألف عام ١٩٧٦) يصل أغلبهم في فصل الصيف جعل الطلب يفوق بكثير العرض.

فعلى سبيل المثال أظهر استجواب قام به ـ في ٢١ نزلا تحتوي على ١١.٤٩٢ سرير بمنطقة سوسة ـ صفاقس ـ المنستير خلال شهري يناير وفبراير ١٩٧٦ ـ أعوان المشروع التونسي البلجيكي للإرشاد الفلاحي بديون الإحياء بنبهانة[٣٠] أن استهلاك هذه النزل من الخضر الطازجة قد بلغ في المعدل ٢٥٥٠ طنا شهريا عام ١٩٧٥، أي أكثر من ٣٠.٠٠٠ طن سنويا.

وقد نتج عن هذا التهافت الكبير للنزل السياحية على المواد الغذائية الأساسية ليس فقط نقصانها من السوق بالمنستير وخاصة بسوسة، بل وكذلك الارتفاع المهول لأسعارها.

ففي مدينة سوسة تنفذ هذه المواد ـ إن وجدت ـ في فصل الصيف في ساعة مبكرة، غالبا قبل العاشرة، بحيث ينبغي على السكان أن يتجمعوا مبكرين أمام نقاط البيع (لاسيا للحوم والأسماك) علهم يتمكنون من اقتناء ما يلزمهم منها بأسعار باهظة، رغم التعريفة الرسمية بالنسبة للبعض منها (اللحوم مثلا) التي قلما تحترم من طرف الباعة.

وبدون شك ينعكس ذلك بصفة محسوسة على الطاقة الشرائية للطبقات الكادحة وحتى المتوسطة التي قد تحرم من إمكانية اقتناء هذه المواد الضرورية بأسعار ليست في متناولها.

٧ ـ ومما يزيد في الطين بلة المشاكل الاجتماعية :

فتدفق هذه الأفواج الهائلة من السياح الأجانب الوافدين.خاصة من أوروبا الغربية والشمالية في وسط في معظمه محافظ ومتمسك كثيرا بالتقاليد العربية الإسلامية يؤدي حتما إلى الانحلال الأخلاقي، ليس فقط لأن القيم الأخلاقية والحضارية لهؤلاء الأجانب تختلف تماما عن قيم التونسيين، بل وكذلك لأنهم قدموا أساسا للترفيه والمتعة.

فلا يتحرج العديد منهم كشف عوراتهم على الشواطئ وكذلك في الشوارع الرئيسية للمدن، فيثيرون الشبان وحتى المتزوجين ذوي الإرادة الضعيفة والأخلاق المنحطة، فينجم عن ذلك ارتماؤهم بدون صعوبة تذكر في أحضان النساء الأجنبيات الفاتنات، فتتشتت العائلة بأسرها، وقد يؤدى ذلك إلى الطلاق أو على الأقل إتلاب الشاب من مراقبة الأولياء. زد على ذلك قضاء الليالى الساهرة المعربدة بالملاهي الليلية والإدمان على الخمر، وما ينتج عن ذلك من تسكع في الشوارع، وإقلاق راحة الغير... وربما حتى تفاقم الإجرام...

وهذه الظاهرة الخطيرة التي تتذمر منها كثير من العائلات بالساحل ولاسيا بسوسة تزيد في متاعب قوات الأمن، وفي تراكم القضايا أمام المحاكم، وتهدد بالتالي بصفة جدية كيان الأسرة التونسية، خاصة بالمناطق السكنية القريبة من النزل السياحية.

الخاتمـــة :

إنه مما لاشك فيه أن السياحة قد استطاعت - في ظرف سنوات معدودة - أن تترك تأثيرات عميقة بمنطقة سوسة - صفاقس - المنستير بالساحل التونسي. فهي بلا منازع نشاط اقتصادي هام، يسهم مساهمة فعالة - ليس فقط على الصعيد القومي، وذلك بتخفيف عجز ميزانية الدولة، بفضل العائدات السياحية المرتفعة من العملة الصعبة، وبالحد من مشكلة البطالة، بفضل تشغيل عدد كبير من العاطلين عن العمل - بل وكذلك على الصعيد الإقليمي بالسير حثيثا بحركة النمو الحضري بالساحل. ويتمثل في ثلاث مظاهر رئيسية:

- الاتساع الافقي لسوسة والمنستير، والتغييرات السريعة التي حصلت في وسط هاتين المدينتين، وذلك بتهيئة المعالم التاريخية، واحتلال الشوارع الرئيسية من طرف مكاتب تبديل العملة والبنوك ووكالات الأسفار ومغازات بيع منتوجات الصناعات التقليدية.
- توفير العملة الصعبة وخاصة الإسهام بصفة محسوسة في تنمية الموارد المالية للبلديات.
- الإسهام في التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالساحل، وذلك بإحداث آلاف من مواطن الشغل بالنزل والنشاطات المتفرعة عنها، وبالتأثير بصفة إيجابية - لكن متفاوتة - على مختلف الأنشطة الاقتصادية الأخرى...

ومن المتوقع أن تشهد السياحة بالساحل خلال السنوات القليلة القادمة توسعا لا مثيل له، وذلك بفضل المشاريع المبرمجة الكبيرة التي دخلت بعد حيز الانجاز، وأهمها مشروع سوسة الشمالية الذي تحدثنا عنه انفا، والذي يرجي إلى إحداث أول محطة سياحية مندمجة من نوعها بالبلاد. ويتكون هذا المشروع الذي قدرت تكاليفه بـ ٨٠ مليون دينار من ١٣ ٠٠٠ سرير، وملعب دولي للصولجان، وميناء دولي للنزهة، وعدد من العمارات والفيلات من النوع الرفيع، ومركز تجاري ومركز رياضي وترفيهي...

وبصفاقس - المنستير هناك أيضا مشاريع هامة؛ منها مشروع إنشاء مركب لسباق الخيل، وملعب للغولف، ومشروع تحت الدرس لإحداث محطة سياحية مندمجة، ومشروع إنعاش «حومة الطرابلسية» بالمدينة العتيقة.

وحتى لو اقتصرنا على مشاريع النزل المبرمجة فى المخطط فى المخطط الخامس (١٩٧٧ ـ ١٩٨١) فإننا نلاحظ أن منطقة سوسة ـ صفاقس المنستير تحتل مكانة مرموقة على الصعيد القومي بعدد من الأسرة المتوقعة يقارب ٧٥٪ من المجموع (١٣.٠٠٠ سرير)[٣١] من جملة (١٨.٠٠٠)،،وبحجم من الاستثمارات يفوق ٧٥٪ من المجموع (أكثر من ٦٠ مليون دينار من جملة ٨٠ مليونا).

كما أن حجم مواطن الشغل المباشرة قد يبلغ عام ١٩٨١ حوالي ضعف ما هو عليه عام ١٩٧٦ .

وإذا كان التكوين المهني سيأخذ حظه بإنشاء مدرسة لهذا الغرض بسوسة التمالية ـ ستكون عبارة عن نزل تطبيقي من المتوقع أنه يحتوي على ١٠٠ سرير، ويستوعب ٣٥٠ تلميذا ـ فهل أن ذلك سيحل جذريا مشكلة الكفاءة المهنية للعاملين خاصة، ونحن نعلم أنه في حالة ما إذا تم إنجاز في حالة ما إذا تم إنجاز كل هذه المشاريع فإن ذلك سيتطلب يدا عاملة ذات كفاءة مهنية عالية؟.

كما أن تشجيع المسؤولين في تونس لهذا النوع من السياحة الذي سيكون له اتجاه عالمي أكثر فأكثر، وكذلك اقتحام الإقليم من طرف أنماط جديدة من السياح الموسرين ـ مثل رجال الأعمال العرباوالغربيين الذين هم أكثر تقييدا من حيث نوعية الخدمات وأوفر استهلاكا ـ قد يؤدى في آجال غير بعيدة إلى زيادة التعكير الموجود فى مسالك التوزيع، والارتفاع المهول للأسعار، وتفاقم النقص في الماء والمنتوجات الفلاحية.

وأخيرا أفليس الاعتناء أكثر فأكثر بوسائل الترفيه مثل ألعاب الميسر قد تنجم عنها عواقب وخيمة على الحياة الاجتماعية؟؟

الحواشــــي

(١) والجدير بالملاحظة أن المعدل السنوي لدرجات حرارة مياه سواحل مدينة نيس (Nice) بجنوب فرنسا ـ أي بشمال الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ـ لا يبلغ إلا ١٦،٨ د، مع حد أدنى لا يتجاوز ١٢،٥ د (في فبراير)، وحد أقصى يصل إلى ٢٣ د فحسب (في أغسطس).

(٢) أسس حزب الدستور الجديد (الحزب الاشتراكي الدستوري حاليا) الذي قاد الحركة التحريرية بتونس بزعامة الرئيس الحبيب بورقيبة (أصيل مدينة المنستير) بمدينة قصر هلال بالساحل في مارس ١٩٣٤م.

(٣) فإلى جانب رئيس الجمهورية والوزير الأول هناك عدد كبير من الوزراء ومن الإطارات العليا في الدولة ينتمون إلى إقليم الساحل.

(٤) وذلك بدون اعتبار ٣ نزل سياحية موجودة بالمهدية .

(٥) بقطع النظر عن وجود ٦١٦ سريرا بالمهدية في موفى عام ١٩٧٦م.

(٦) وقد كان نسق النمو بسوسة (من ١٨٠ إلى ٩٣٨٠ سريرا) أسرع منه بصفاقس ـ المنستير (من ٣٧٠ إلى ٦٧١٦ سريرا).

(٧) حتى نادي البحر الأبيض المتوسط « Club Mediterranee» يدير قرية للاصطياف بها ١٠٨٠ سريرا، قامت بأحداثها الشركة التونسية للبنك عام ١٩٦٦ بتمويل قدره ٢.٧٠٠.٠٠٠ د، كما أن شركة السياحة الفرنسية نوفوتال (Novotel) تدير نزل إسبلاند.

ويمتلك الصندوق القومي للعمال المتقاعدين بفرنسا (CNRO) نزلا الشمس (١٩٧٤ و ١٢٠٠ سرير)، أما أكبر نزل بالمنطقة (صحراء ـ بيتش: ١٩٧٥ و ٢١٠٠ سرير) فقد قامت بإحداثه شركة ريم (RIM)، وهي شركة خفية الاسم فيها إلى جانب باعثين تونسيين (محمد العزيز ميلاد، الشركة السياحية التونسية، بنك تونس للتنمية الاقتصادية...) شركة تومسون (THOMSON) والبنك العالمي (BIRD)

(٨) انظر: «السياحة في أرقام» (بالفرنسية) : ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ـ الديوان القومي للسياحة بتونس.

(٩) أي ١٤٠.٩٠٠ ليلة من جملة ٩٠٦.٩٨٨ .

(١٠) أي ٣.١٩٢.٥٦٥ ليلة من جملة ٩.٥٨٤.١٠٠ .

(١١) والمعلوم أن الدينار التونسي يساوي حاليا في أسواق الصرف العالمية قرابة ٢،٥ د دولار أميركي.

(١٢) ولم يتجاوز رقم معاملات النزل الخمس التابعة للشركة التونسية للنزل والسياحة والموجودة بصفاقس ـ المنستير ١،٥ مليون دينار، أي عشر رقم المعاملات الجملي لكامل المنطقة.

(١٣) منها ٥٠٧١ بسوسة، ٢٦٨٦ بصفاقس المنستير (حسب المفوضية الجهوية للسياحة بسوسة).

(١٤) للحصول على مزيد من التفاصيل المرغوب مراجعة خريطتي توزع النزل ووكالات الأسفار ومغازات بيع منتوجات الصناعات التقليدية في كل من سوسة وصفاقس ـ المنستير، ص ٦، ٧.

(١٥) منها ٨٠ بسوسة ، ١٤ بصفاقس ـ المنستير (تعداد قمنا به في شهر مارس ١٩٧٧).

(١٦) منهم ٦٣ بالمندوبية الجهوية للديوان القومي للصناعات التقليدية بالمنستير.

(١٧) حسب بحث بالعينة قمنا به بنزل منطقة سوسة ـ صفاقس ـ المنستير في أوائل السنة الماضية (١٩٧٧).

(١٨) فتح أبوابه بنزل الرباط بالمنستير في أكتوبر ١٩٦٩، لكن أصبح مقره مند أكتوبر ١٩٧٦ بسيدي الضريف، بالضاحية الشمالية الشرقية لتونس العاصمة.

(١٩) نستثني منها قرية الأصطياف «نادى القنطاوي» شمال سوسة، ونزل الشمس، وقرية الاصطياف التابعة لنادى البحر الأبيض المتوسط بالدخيلة (منطقة صفاقس ـ المنستير).

(٢٠) وذلك إلى جانب إحداث الوكالة العقارية للسكنى والوكالة العقارية الصناعية. راجع في هذا الشأن «الرائد الرسمي للجمهورية التونسية» بتاريخ ١٧ ـ ٢٠ ـ أبريل ١٩٧٣.

(٢١) الفارق يمثل مصاريف الوكالة التي يحجر عليها الربح لأنها ليست مؤسسة تجارية.

(٢٢) لكن في الحقيقة تمكنا من إحصاء ١٩٥٩ مستحق بالنسبة لـ ٦٠،٢٣ هكتار مقسمة إلى ٣٦٧ قطعة. هل معنى ذلك أن عدد المستحقين يفوق بكثير العدد الرسمي؟ أم هل أن قسما لا يستهان به منهم يمتلكون عدة قطع أو يشاركون في ملكيتها؟

(٢٣) منها ٤.٨٢٥.١٦٥ متر مكعب بولاية سوسة، ٢.٦٦٥.٦٦٣ بولاية المنستير، ٧١٨.٦٩٢ بولاية المهدية.

(٢٤) منها ٦.٦٩٣.٢٦٤ متر مكعب بولاية سوسة، ٤.٣٤٧.٤٣٠ بولاية المنستير، و ١.٠٧٧.٢٦٤ بولاية المهدية.

(٢٥) وتتوزع النسب على النحو التالي بين الولايات : سوسة: ٧،٤٤٪ (٣٥٨.٩٢٣ متر مكعب)، المنستير: ٤،٧٠٪ (١٢٦.٦٠٤)، المهدية ٢،٣٥٪ (١٦.٩١٣)

(٢٦) سوسة : ٢٠،٤٠٪ (١.٣٦٦.٢٤٦ متر مكعب)، المنستير: ٢٠٪ (٨٦٩.٠٠٠)، المهدية: ٥،٥٠٪ (٥٥.١٠٠)

(٢٧) لا يستعمل منها للرى ـ حسب المسؤولين عن الشركة القومية لاستغلال وتوزيع المياه بتونس ـ إلا ٢٥ مليون متر مكعب في السنة.

(٢٨) ولاية سوسة : ٢٤،٩٢ مليون متر مكعب، ويلا المنستير : ١٩،٠٧ مليون، ولاية المهدية ١١،٨٧ مليون.

(٢٨) منها ٤،٠٢ مليون متر مكعب بولاية سوسة، ٢،٠١ بولاية المنستير، و ٢،٦٨ بولاية المهدية.

(٣٠) مقابل ٣،٥٥٪ في الوسط الحضري التونسي. وحتى لو اعتبرنا مجموع السكان فإن نسبة النمو الديمغرافي خلال نفس الفترة كانت في المعدل أرفع بالساحل (٢،٨٧٪ سنويا) منه في كامل البلاد (٢،٣٢٪).

(٣١) وذلك بدون اعتبار المشاريع المبرمجة بالمهدية خلال المخطط الخامس (٣٠٠٠ سرير عام ١٩٨١ مقابل ٦١٦ سريرا عام ١٩٧٦م).

ooo

بعض مراكز الثقل فى الجزيرة العربية
فى العصر الحديث
« تطبيق على بعض مدن السعودية »

دكتور على عبدالفتاح ابوعليه

تبوأت بعض مدن الجزيرة العربية مكانة ما جعلتها تحتل مركز الثقل فيها، وقد اختلفت تلك المكانة من مدينة لأخرى ومن عصر لآخر، وباختلاف المكانة هذه كان لا بد وأن يختلف كذلك مركز الثقل الذي يعتمد على مجموعة عوامل تشكل أساسا له .

وتتوزع مراكز الثقل إلى: مراكز ثقل دائمة، ويمثل هذا النوع مدينتا مكة المكرمة والمدينة المنورة، لاعتمادهما على المركز الديني. ومراكز ثقل كانت ثم ضعفت، ويمثل هذا النوع مدينتا الدرعية وحائل. ومراكز ثقل احتفظت باستمراريتها، ويمثل هذا النوع مدينة الرياض .

ومركز الثقل الذي نعنيه هنا لا يكون بالضرورة منطبقا فقط على المفهوم السياسى، وإنما نعنى به المفهوم الشامل لمركز الثقل المعتمد على المفاهيم السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية، حيث إن كل واحد من هذه المفاهيم يؤثر تأثيرا كبيرا على المركز يستمد أهميته من هذه المؤثرات، فتزداد هذه الأهمية بازدياد المؤثرات عليها .

والجدير بالذكر أنه في بعض الأحيان يتحول مركز مدينة ما من كونه يعتمد على عامل ومؤثر سياسي إلى وضع جديد يعتمد على عامل اقتصادي أو ديني أو ثقافي. وبالرغم من حدوث مثل هذا التحول فإن المدينة تبقى محتفظة بمركزها، رغم ما طرأ عليه من متغيرات جديدة .

وكتطبيق على مراكز الثقل الدائمة نورد مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، إذ إن مركزهما يعتمد في المقام الأول على المنزلة الدينية التي تتمتع بها كل من المدينتين المذكورتين.

مدينة مكة المكرمة :

تحتل مدينة مكة المكرمة شهرة عالمية، لما لها من منزلة دينية مقدسة، امتدت منذ بناء البيت الحرام الذي عاصر بداية العمران في المدينة. إن وجود البيت الحرام في مدينة مكة أكسبها تفوقا على غيرها من مدن الحجاز وغيره، ان وجود البيت الحرام جعل لمدينة مكة حرمة وقدسية، فهي المدينة التي تهوي أفئدة المسلمين إليها في شتى أقطارهم. وهذا الأمر جعل المدينة تحتل مركز

ثقل الحجاز السياسي في العهد العثماني، كما أنها مركز الثقل الديني لجميع العالم الإسلامي. وصارت فيما بعد قاعدة الأشراف ومركز الولاة العثمانيين في الحجاز، لأن الدولة العثمانية كانت تقيم بجانب الشريف أمير مكة واليا من قبلها ليدير الشئون العسكرية والأعمال الإدارية في المنطقة، ويشرف كذلك على جميع المصالح الحكومية فيها.(١) .

ومما أكسب المدينة أهمية موقعها بين بلاد الشام واليمن، إذ إن هذا الموقع أكسب المدينة وظيفة اقتصادية مهمة، وهي التجارة التي اشتغل بها معظم سكان المدينة بخاصة في العهود المبكرة. وغدت مدينة مكة المكرمة من أشهر وأهم مدن الحجاز في التجارة، ولا نبالغ إذا قلنا: إن مدينة مكة المكرمة هي من أهم المراكز التجارية في الجزيرة العربية، كما أن موقع المدينة جعلها ممرا ومكانا لاستراحة القوافل التجارية القادمة من الشام ومن اليمن.

ومما يزيد في أهمية التجارة في المدينة موسم الحج الذي يفد فيه آلاف من المسلمين لأداء فريضة الحج، مما يشكل رواجا تجاريا عظيما في المدينة من حيث البيع والشراء، ومن حيث التبادل النقدي الذي يغذي الأعمال المصرفية في المدينة .

وازدادت أهمية مدينة مكة الاقتصادية بسبب وجود منفذ بحري قريب لها، وهو بندر جده الذي بوساطته تجلب جميع المواد التجارية، بخاصة المواد التموينية والمصنوعات التي يشتريها الحجاج كهدايا عند عودتهم إلى بلادهم. وكان لا بد من تطوير هذا المنفذ تطويرا يتناسب مع حجم الضغط الناتج عن احتياجات ومتطلبات الحجاج وأهل المنطقة من هذه المواد وتلك المصنوعات .

لقد وهب الله سبحانه وتعالى مدينة مكة المكرمة مكانة اقتصادية تعتمد على التجارة، لأن المدينة بلد غير زراعي، فهي تقع في واد تحيط به جبال ذات شعاب أدت وظيفة دفاعية طبيعية عن المدينة، لأنها قامت مقام السور الذي يحيط بالمدن كوسيلة دفاع عنها(٢). فموقع المدينة في هذا الوادي جعلها شديدة الحرارة، كما أن مياهها شحيحة .

واستنادا على ما سبق ذكره فإن مركز مدينة مكة المكرمة استند على مجموعة ركائز ودعائم هي :

أولا: الأهمية الدينية للمدينة، ففيها المسجد الحرام الذي وسع عدة مرات حتى وصلت مساحته اليوم إلى ١٦٠ ألف متر مربع، ويتسع لـ ٣٠٠٫٠٠٠ مسلم يؤدون الصلاة دفعة واحدة. وتوجد في حرم هذا المسجد الكعبة المشرفة ، وبئر زمزم ، ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، والصفا والمروة. فالمدينة تحتل مكانة دينية مقدسة في قلب كل مسلم.. يفد إليها الحجاج من كل بلد إسلامى في العالم، فهي المركز الديني المقدس لدى جميع المسلمين، وستبقى المدينة محتفظة بهذا المركز.

ثانيا: ظلت المدينة قاعدة سياسية للحجاز، وهي مركز الاشراف، ومركز الثقل العثماني في الحجاز، وعاصمة الحكومة العربية الهاشمية في عهد الشريف حسين بن علي منذ قيام الثورة العربية الكبرى. وهذا المركز تطلب الكثير من المنشآت العمرانية، لتغطي احتياجات المؤسسات الحكومية من جهة، والمؤسسات والأعمال التجارية من جهة ثانية، واحتياجات الحجاج من جهة ثالثة. هذا إلى جانب الأهمية الاقتصادية التي تتمتع بها مدينة مكة، والتي بنيت أساسا على الدعامتين السابقتين .

المدينة المنورة :

تحتل المدينة المنورة مكانة دينية عند جميع المسلمين، ففيها مسجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد وسع هذا المسجد عدة مرات، وفيه تراث هندسي قيم. ويوجد في المدينة مسجد قباء، أول مسجد في الإسلام. وفيها جبل أحد. فهي مدينة إسلامية تتمتع بمركز ديني كبير عند المسلمين، لأن فيها قبر الرسول الكريم، وفيها قبر أبي بكر وعمر بن الخطاب، وفيها قبور معظم الصحابة والتابعين.

ومما أكسب المدينة المنورة أهمية موقعها الممتاز، فهي واقعة على الطريق التجاري الذي يربط بلاد الشام باليمن، لذا فإن المدينة المنورة لها شأن كبير في هذا المجال، غير أن مدينة مكة أصبحت أقدر على التفوق والازدهار من المدينة المنورة لتفوق مكانتها الدينية.

وتتميز المدينة المنورة عن مدينة مكة بأن الأولى مدينة زراعية بعد أن توافرت فيها متطلبات النماء والخصب، ففيها وادي العقيق الذي تصب فيه مياه عذبة، لذا فإن المدينة تحاط بالمزارع من جميع جهاتها باستثناء الجهة الغربية.[٣]

وازدادت أهمية المدينة المنورة الاقتصادية بسبب وجود منفذ بحري قريب لها، وهو بندر ينبع الذي تتعامل معه المدينة المنورة لجلب احتياجاتها من المواد الغذائية والمصنوعات اللازمة. وزادت الحركة التجارية في المدينة المنورة في العهد العثماني يوم أن كان يصلها خط سكة حديد الحجاز الذي خرب أثناء الحرب العالمية الأولى.

وتأسيسا على هذا فإن مركز ثقل المدينة المنورة يرتكز على قواعد أساسية، هي:

أولا : مكانة المدينة الدينية في نظر المسلمين، وستظل هذه المكانة، لأن فيها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيها الكثير من المعالم الإسلامية التي تشد المسلم إلى زيارتها .

ثانيا: إلى جانب المكانة الدينية فهي تتمتع كذلك بأهمية اقتصادية خاصة، فإلى جانب كونها ذات موقع تجاري ممتاز يتوسط بين بلاد الشام واليمن، فإنها كذلك تزداد حركتها التجارية وتنشط بفضل موسم الحج، وبفضل الزيارة المتواصلة التي يقوم بها المسلمون لمسجد الرسول الكريم وللصلاة فيه .

وكتطبيق على نمط آخر من أنماط مراكز الثقل، فإن هناك مراكز كانت ثم تقهقرت، وذلك نتيجة حتمية لمتغيرات كثيرة، كانت من أهمها المتغيرات السياسية التي ألمت بتاريخ المنطقة. فظهرت مدينة الدرعية[٤] الواقعة على ضفتي وادي حنيفة في مكان تلتقي فيه سبعة شعاب[٥]، خمسة منها من الناحية الغربية، واثنان من الناحية الشرقية[٦] فالموقع تتوافر فيه الشروط اللازمة للإقامة والتجمع، ففيه تتوافر المياه والتربة الصالحة للزراعة . فزرع السكان أشجار النخيل والحمضيات والفواكه ثم الخضروات، وخصوبة التربة في هذا المكان كانت قد شجعت على تزايد السكان فيه، وساعدت إلى حد كبير في تعميم الرخاء النسبي في المنطقة بخاصة في المواسم التي يكثر فيها سقوط المطر، لأن الزراعة في المنطقة تعتمد على تساقط الأمطار.

ظلت الدرعية منذ تعميرها عام ٨٥٠هـ حتى عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م[٧] بلدة عادية، لا تختلف عن بلدان وقرى المنطقة وقتذاك: كالرياض والعيينة والجبيلة ومنفوحة وغيرها، إلا أنه بعد هذا التاريخ حدثت فى المنطقة مجموعة متغيرات جديدة، ألمت بتاريخ قلب الجزيرة العربية بخاصة والجزيرة العربية بعامة، فأثرت هذه المتغيرات على مكانة الدرعية، فنقلتها من كونها

بلدة عادية صغيرة إلى مدينة احتلت مركز الثقل في وسط الجزيرة العربية وفي معظم أقاليم الجزيرة العربية بخاصة في أوج عهد الدولة السعودية الأولى .

كان ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في المنطقة، تم الاتفاق الذي تم بين الشيخ وبين أمير الدرعية آنذاك محمد بن سعود بن مقرن، ثم تعهد الطرفين على نشر مبادئ هذه الدعوة في كافة أنحاء الجزيرة العربية وخارجها، وإصلاح الدين الإسلامي مما شابه من بدع، كل هذه المتغيرات هي السبب الرئيسي في جعل الدرعية تحتل مكانة مركز ثقل في الجزيرة العربية في العصر الحديث .

بعد هذه الأحداث التاريخية الجديدة في المنطقة تغير مركز الدرعية وتغيرت أهميتها، وصارت لها مكانة متغايرة عن المكانة التي كانت لها قبل حدوث هذه الحوادث الجسيمة، وبوجه الخصوص قبل قيام اتفاق الدرعية. صارت الدرعية عاصمة للدولة السعودية الأولى، وصارت المركز الديني والثقافي الأول لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ومن هنا نلاحظ أن مركز ثقل الدرعية استند على قاعدتين، هما:

أ ـ القاعدة السياسية والحربية، فالدرعية غدت مركز الحكم في الدولة السعودية الأولى، وفيها مراكز القيادة السياسية والعسكرية وما يتبع ذلك من مؤسسات استحدثت لتساير الوضع السياسي والعسكري والقيادي الجديد. وأصبحت الدرعية كذلك المركز الذي تخرج منه كل الغزوات والحملات العسكرية لإخضاع الخصوم.

ب ـ القاعدة الدينية والثقافية للدعوة السلفية. ففيها أقام الشيخ وأولاده وتلاميذه، وفيها عقدت حلقات التدريس في المساجد والأماكن الخاصة بها. وأصبحت الدرعية المركز الأول الذي تجمع فيه العلماء وطلاب العلوم الشرعية واللغوية، كما ساد المدينة جو من التأليف في العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية، بخاصة في التاريخ وذلك لتدوين الأحداث التاريخية التي أخذت تصاحب المتغيرات السياسية والدينية في المنطقة، وكانت جل هذه المؤلفات تعتمد على النسخ الذي يكون عادة إما بخط المؤلف نفسه أو بخط جماعة عرفت بخطها الجميل الواضح، فعلى سبيل المثال لا الحصر: مؤلفات ورسائل وردود وتفسيرات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومؤلفات أولاده من بعده،

ومؤلفات العلماء المعاصرين وكتاباتهم (٨) فظلت تلك المؤلفات غير مطبوعة حتى عهد الملك عبدالعزيز آل سعود مؤسس الدولة السعودية الحديثة .

ومن الدرعية القاعدة الدينية بدأت تخرج البعثات العلمية الدينية إلى الأقطار المجاورة للقيام بنشر مبادىء الدعوة السلفية، كما ان الدرعية أصبحت المركز الديني الأول الذي خرج منه العلماء إلى الأقاليم الأخرى بخاصة الحجاز وعسير واليمن وعمان للتعريف بدعوتهم ومناقشة ومحاورة علماء هذه الأقاليم والرد على الخصوم منهم .

وتأسيسا على كون الدرعية مركز ثقل سياسي وديني في المنطقة كان لا بد وأن تروج الحياة الاقتصادية، وتنشط بطريقة تختلف عما كانت عليه قبل هذا الوضع الجديد. فازداد التجمع السكاني في المدينة، وازدادت متطلبات الحياة، وازدادت الهجرات الموسمية وغيرها نحو العاصمة، وظهرت مؤسسات ووظائف اقتصادية جديدة تتناسب مع المتغيرات الجديدة، فصارت الدرعية سوقا كبيرة. وخير ما يبين لنا هذا ما ذكره عثمان بن بشر المؤرخ النجدي المعاصر، فيقول: «وكانت قوة هذا البلد وعظم مبانيها وقوة أهلها وكثرة رجالها وأموالها لا يقدر الواصف صفتها، ولا يحيط العارف بمعرفتها، فلو ذهبت أعد رجالها وإقبالهم فيها وإدبارهم في كتائب الخيل والنجائب العمانيات، وما يدخل على أهلها من أحمال الأموال من سائر الأجناس التي لهم مع المسافرين من أهلها ومن أهل الأقطار لم يسعه كتاب ولرأيت العجب العجاب، فكان الداخل في موسمها لا يفقد أحدا من أهل الآفاق من اليمن وتهامة والحجاز وعمان والبحرين وبادية الشام ومصر وأناس من حاضرتهم إلى غير ذلك من أهل الآفاق ممن يطول عدهم، هذا داخل فيها، وهذا خارج منها، وهذا مستوطن فيها، وكانت الدور لا تباع إلا نادرا، وأثمانها سبعة آلاف ريال وخمسة آلاف، والداني بألف ريال وأقل وأكثر، وكل شيء بقدره على هذا التقدير. وكروة الدكان الواحد في الشهر خمسة وأربعون ريالا، وسائر الدكاكين الواحد بريال في اليوم وشيء نصف ريال، وذكر لي أن القافلة من الهدم إذا أتت إليها بلغت كروة الدكان في اليوم الواحد أربعة أريل ...» (٩) .

وصممت التجمعات السكنية في الدرعية على شكل يتناسب مع الظروف الحاضرة، فهناك حي الطريف ، وهو الحي الرئيسي بالدرعية، وبه آل سعود ووزراؤهم وأتباعهم، وبه المباني والمؤسسات الحكومية والقلاع والحصون وإصطبلات الخيول، كما فيه قصر الحاكم وبيت

المال والمسجد الجامع الكبير والحمام العام والقلعة الكبيرة المشرفة على وادي حنيفة. وكان هذا الحي فوق جبل مطل على الوادي، ومحاطا بسور قوي. وحي البجيري، وهو على ضفة الوادي الشرقية، يسكنه الشيخ وأهله، وفيه مدرسة الشيخ ومسجده وهو قريب من السوق المركزية. وحي السريحة من الناحية الشمالية لحي البجيري، ويسكنه الأعيان من أهالي الدرعية. وحي الظهرة (ظهرة سمحان) على رأس الجبل المقابل لحي الطريف من الناحية الشمالية، ويسكنه الذوات والأعيان كالشعراء والعلماء والكتاب وغيرهم. ثم هناك أحياء للأسر الكبيرة في المدينة كحي الطرفية، حي أسرة آل سويلم. حي غصيبة، حي أسرة آل دغيثر. وهناك أحياء أخرى مثل حي الظويهرة والنقيب وملوي والحويطة وجميعها في الناحية الشرقية من الوادي(١٠) هذا إلى جانب السوق المركزي وما حوله من دكاكين، ثم مسجد العيد الواقع في رأس الجبل عند المنازل الجنوبية.(١١)

وكعادة المدن في الجزيرة العربية والواحات كانت مدينة الدرعية محاطة بسور رئيسي، في داخله مجموعة أسوار أخرى تحيط بالأحياء. وكانت أسوار الدرعية أسوارا قوية، تتناسب مع مدى التحديات والغزوات التي كانت تتعرض لها، بخاصة عندما بدأت الدولة السعودية الأولى بنشر الدعوة السلفية وضم الأقاليم المجاورة لها، وما قابل هذا العمل من تحديات عنيفة من الأمارات المجاورة ومن الدولة العثمانية وولائها في مصر والعراق وبلاد الشام .

وكان في المدينة كذلك مجموعة حصون قوية وبارزة لعبت دورا كبيرا في حرب الدرعية ضد قوات إبراهيم باشا عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م. ومن هذه الحصون: حصن سمحة، وحصن المعانية، وحصن لزاز، وحصن السلماني، وحصن شديد، وحصن مشيرفة، وحصن كتلة، وحصن الرفايع، وحصن سمحان(١٢) وغيرها من الحصون. هذا إلى جانب مجموعة الأبراج والقلاع والمراقب المقامة في المنطقة.

ظلت الدرعية في مركز قوي طيلة فترة حكم الدولة السعودية الأولى، ثم تغير هذا المركز بعد سقوط الدولة المذكورة عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م على يد إبراهيم باشا الذي قاد حملة عسكرية كبيرة في المنطقة بأمر من والي مصر محمد علي باشا والدولة العثمانية.

تقهقرت مركز الدرعية بعد ذلك ، وتدمرت مبانيها، وتحطمت أسوارها وقلاعها وأبراجها، وهجرها الناس بعد الأوامر التي جاءت من والي مصر إلى إبراهيم باشا، فأمره بتدمير الدرعية

تدميرا تاما[١٣] كي لا تعود مرة أخرى إلى الظهور كسلطة متجددة. وبعد حادثة التدمير هذه أصبحت الدرعية أطلالا ما زالت معالمها باقية حتى وقتنا الحاضر.

وهكذا فقدت الدرعية مركز ثقلها السياسي والديني والثقافي والاقتصادي، وهجرها السكان، وتوزعوا في البلدان المجاورة، ومنهم من حاول إحياء المدينة من جديد، فبدأوا يبنون بيوتا مجاورة للمدينة المهدمة، لأن الناس ظلوا يملكون الأرض الزراعية، وبالرغم مما حل بالمدينة من تدمير للمباني ومن تحطيم للأسوار والحصون والقلاع، إلا أن هذا لم يمنع الناس من أن يقيموا حول أراضيهم الزراعية وقرب نخيلهم. ومنذ ذلك التاريخ لم تعد للدرعية أهميتها الأولى ولا مكانتها السابقة.

وكأنموذج آخر نورد:

مدينة حائل:

تقع مدينة حائل على مشارف صحراء النفوذ الكبير، وهي في سفح جبل أجا من الشرق، في سهل ذي تربه رملية حمراء. وهي قاعدة جبل شمر، ومركز ثقل الأمارة الرشيدية التي لعبت دورا بارزا في أحداث التاريخ النجدي بخاصة ، وتاريخ الجزيرة العربية الحديث بعامة[١٤].

وتنسب الأمارة الرشيدية إلى مؤسسها الأمير عبدالله بن علي بن رشيد، الصديق الحميم للإمام فيصل بن تركي. وقد نشأت هذه الأمارة في جبل شمر عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م، عندما عين الإمام السعودي فيصل بن تركي الأمير عبدالله بن علي بن رشيد أميرا على الجبل في السنة المذكورة. وظلت أسرة آل رشيد في الحكم مدة تقارب التسعين عاما[١٥]، ظلت حتى ٢٩ صفر ١٣٤٠هـ/٢١ نوفمبر ١٩٢١م حين استسلم آخر أمير من هذا البيت، وهو الأمير محمد بن طلاب بن رشيد إلى السلطة السعودية في عهد ابن سعود، وبعدها عاد جبل شمر إلى السيادة السعودية.

اكتسبت مدينة حائل[١٦] أهمية خاصة بسبب أن إقليم جبل شمر إقليم زراعي خصيب نسبيا، وأنه يقع على الطريق التجاري الذي يربط مناطق الجزيرة الغربية والجنوبية والوسطى بإيران والعراق وبلاد الشام، كما أن الإقليم يقع على طريق الحجاج، فهو المفتاح الشمالي للجزيرة العربية، هذا إلى جانب أن حائل كانت تعتبر من مراكز البريد البرية التي تهم

المصالح البريطانية في المنطقة، لذا فقد توافرت للإقليم مجموعة مزايا قل أن تتوافر لغيره. وكان لهذا كله أثر في جعل حكومة بريطانيا تحاول كسب ود آل رشيد بفتح علاقات معهم، بالرغم من أنها تعرف أن آل رشيد هم حلفاء للدولة العثمانية(١٧).

وتأسيسا على ما سبق استندت أهمية مدينة حائل ومركز ثقلها على قواعد أساسية، قوت مركزها فترة من الزمن في التاريخ الحديث . والقواعد التي اعتمد عليها مركز الثقل هنا هي:

أولا :

هي قاعدة الحكم للأمارة الرشيدية، امتد ذلك مدة من الزمن، فكانت المدينة محاطة بسور قوي وحصون وأبراج للدفاع عنها كعادة المدن في الجزيرة العربية. وتطلب الأمر نشوء مؤسسات حكومية واجتماعية تتناسب مع كون المدينة العاصمة السياسية لآل رشيد وجبل شمر. ومع هذا فإن أبنية المدينة وتخطيطها ومؤسساتها ظلت تسير على النمط التقليدي القبلي القديم، لأن مركز ثقل المدينة المذكورة وأهميتها تقلص واضمحل فيما بعد، بعد سقوط الأسرة الرشيدية عام ١٣٤٠هـ/١٩٢١م. فعند سقوط الأمارة كانت البلاد تعيش في ظل النمط التقليدي القبلي القديم، ولم تتأثر بعد بوسائل العلم الرشيدية/ الحديثة (التكنولوجيا) إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد توافر الأموال في مبيعات النفط الذي وسع على المنطقة، وأعطاها قدرة شرائية كبيرة، وديناميكية لم تكن متوافرة في المنطقة من قبل، وبعد عهد الاستقرار السياسي والأمن الداخلي الذي ساد المنطقة، وساعد في تطوير وتقدم البلاد.

ثانيا :

كون المدينة واقعة على الطريق التجاري في الشمال، الطريق الذي يصل مناطق الجزيرة العربية بالبلدان المجاورة كإيران والعراق وبلاد الشام. إن هذا الموقع التجاري الممتاز أكسب المدينة أهمية اقتصادية ساعدت في تدعيم مركز ثقل المدينة، وساعد على رواج التجارة فيها، وهذا بدوره أثر على نظام العمران والأبنية فيها(١٨).

ثالثا :

كون المدينة تتمتع بموقع ممتاز تمر منه قوافل الحجيج القادمة من بلاد العجم والعراق وبلاد الشام. فكان لهذا أثر في تدعيم الوضع الاقتصادي للمدينة، وبالتالي أثر في مركز ثقلها.

ويجدر التنويه إلى أن مركز ثقل مدينة حائل لم يعمر طويلا، ولم تستمر المدينة في الاحتفاظ بأهميتها، وهذا الأمر يشابه تماما أهمية الدرعية ومركز ثقلها. وهكذا عادت مدينة حائل مدينة عادية بالرغم من أهمية موقعها، وبالرغم من سمعة المدينة التاريخية، لأن الكثير من الرحالة الأجانب وغيرهم زاروا المدينة على فترات زمنية متعاقبة، فزارها السيد عباس المكي الحسني الموسوي في سادس المحرم سنة ١١٣١هـ، وقال عنها: «حائل ذات نخيل وأشجار، وعيون وآبار، وطيور وأزهار وبساتين واسعة وتمار، وكأنها روضة من رياض الجنة، فيها من كل فاكهة زوجان(١٩)... وزارها والان الفلندي مرتين: الأولى سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٥م، والثانية سنة ١٨٤٨م/١٢٦٥هـ، وأعطانا وصفا لها ولمياهها وأبنيتها وحكامها وأسواقها وغير ذلك(٢٠). وقد زارت المدينة الليدي آن بلانت وزوجها سنة ١٨٧٩م، وألفت كتابا بعنوان (Pilgrimage to Nejd.) وصفت فيه الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للمدينة وجبل شمر في العهد الرشيدي. وزار المدينة موزل سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٤م يوم أن كانت حائل في أوج ازدهارها في عهد الأمير محمد بن رشيد، وقد وصفها في مؤلفه «شمال نجد» .

واليوم فإن مدينة حائل ما زالت حاضرة، ويسكنها حوالي ٢٥ ألف نسمة(٢١)، وما زالت قاعدة جبل شمر. يقول عنها الشيخ حمد الجاسر ما يلي: «وبعد زوال أمارة آل رشيد باستيلاء الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ على قاعدة تلك الأمارة، بدأها الانتعاش، ولكن بصورة بطيئة. فقد أنهكت أهلها الحروب، وانقطعت السبل، فأصيبت البلدة بالضعف، مما اضطر كثيرا من أهلها إلى مغادرتها، ولكنها ما زالت تنتعش كغيرها من مدن المملكة...»(٢٢)

وكتطبيق آخر على نمط آخر من أنماط مراكز الثقل، وهي المراكز التي حافظت على مكانتها، نورد مدينة الرياض كأنموذج على هذا النوع .

مدينـة الـرياض :

في وسط حوض صغير، وعلى جانبي وادي البطحاء، أحد روافد وادي حنيفة، نشأت الرياض الصغيرة التي أخذت في النمو والتطور تدريجيا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في الوقت الحاضر.

أطلق اسم الرياض على أنقاض مدينة حجر قاعدة اليامة. وكان بنو حنيفة قد استوطنوها

قبل ظهور الإسلام بمدة تقارب القرنين[٢٣]. ويذكر المؤرخون أن مركز الثقل الذي كانت تتمتع به مدينة حجر لم يعد لها بعد ظهور الخضرمة التي غدت قاعدة الدولة الأخيضيرية[٢٤]. وازداد تقهقر مدينة حجر تدريجيا حتى أصبحت بقايا قرى وأنقاض مباني في القرن العاشر الهجري. وهي تشكل الآن المكان المعروف حاليا بالبطحاء وشارع الوزير في مدينة الرياض الحديثة.

وبعد مدة من الزمن أطلق اسم الرياض على ما بقي من محلات قديمة من مدينة حجر، وهي: معكاك، ومقرن، والعود وغيرها. وغدت الرياض تشكل أمارة كغيرها من الأمارات في المنطقة الوسطى، عندما تولى أمارتها دهام بن دواس بن عبدالله آل شعلان في حدود عام ١٢٥١هـ/١٧٣٨م[٢٥]، «وسميت بهذا الاسم لأنها محاطة من جهة وادي حنيفة بمزارع نخيل واسعة وينابيع ذات مياه عذبة ووفيرة»[٢٦].

وإذا نظرنا إلى الرياض من زاوية الموقع الجغرافي فإن محلاتها وأبنيتها القديمة أسست أساسا في المرتفعات المحيطة بالحوض الواقع على جانبي وادي الوتر (البطحاء)، فكانت المياه تنساب إلى الحوض من السيول، وهكذا نلاحظ توافر المياه، وبالتالي التربة الصالحة للزراعة، وهذا بدوره كان مجالا واسعا لتجمع سكاني في المنطقة، بخاصة وأنها قريبة من وادي حنيفة الذي توافرت فيه شروط الحياة كالمياه والتربة. وعلينا أن نلاحظ أن مياه وادي حنيفة ووادي البطحاء كانت غزيرة وقتذاك[٢٧]، مما يساعد في تركيز التوطن في المنطقة بشكل أوسع وأكثر كثافة سكانية.

والمنطقة غنية بالمدرجات الرسوبية التي نشأت عليها الواحات الغنية المشكلة تربتها من الرسوبيات التي يجرفها وادي حنيفة وروافده. وقد ساهم الناس في المحافظة على الرسوبيات هذه عندما أقاموا الأسوار الطينية حول بساتينهم[٢٨]. وما زال هذا النمط موجودا حتى وقتنا الحاضر في كل واحات المملكة العربية السعودية .

وتتوافر في المنطقة مواد البناء كالصلصال الجيري والحجارة والخشب المأخوذ من جذوع أشجار النخيل أو نبات الأثل والقش المأخوذ من نبات القمح ونحوه. وقد ساهمت هذه المواد، في حركة تعمير المنطقة .

وكعادة البلدان في المنطقة فقد أحيطت الرياض بسور ومجموعة قلاع كمراكز دفاع عن المدينة، بخاصة وأن البلاد كثيرا ما كانت تتعرض لغزو المجاورين لها، أو لغزو خارجي يكون عادة من الأقاليم والبلاد المجاورة. وبالرغم من أن الأسوار كانت من وسائل الحماية للمدينة، إلا أنها من زاوية أخرى كانت تعيق تطور المدينة ونموها، لأن مساحة المدينة ظلت محصورة في نطاق السور المحيط بها

ظلت الرياض بلدة عادية لا تختلف عن البلدان المجاورة لها حتى تهديم الدرعية والقضاء على الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م. وعندما قام الإمام السعودي تركي بن عبدالله محاولا إعادة تكوين الدولة السعودية الثانية اتخذ من مدينة الرياض قاعدة سياسية جديدة، وكان لهذا الإجراء ما يبرره:

١ ـ فالرياض مدينة مسورة ، وذات مرقب وأبراج محصنة تحصينا قويا منذ عهد أميرها دهام بن دواس الدي حصنها ليدافع عن أمارته ضد الغزوات المتلاحقة عليها من قبل الدولة السعودية الأولى، والتي دامت حوالي ثمانية وعشرين سنة[٢٨]. فبالرغم مما أصاب سور المدينة وقلاعها ومرقبها من تهديم، إلا أن هذا لم يمنع الإمام تركي من اتخاذها عاصمة لدولته الجديدة. فأصلح الإمام ما أمكن إصلاحه، تم حصن المدينة تحصينا لائقا، كي تقاوم الهجوم المنتظر عليها من خصومها في الداخل والخارج.

٢ ـ ما حدث للدرعية من تدمير لمنازلها ومؤسساتها وأسوارها وأبراجها، فغدت لا تصلح مركزا للدولة الجديدة بخاصة بعد ترحيل سكانها .

٣ ـ إن موقع مدينة الرياض يتوسط إقليم نجد إلى حد ما، فهي تحتل موقعا وسطا بين بلدان نجد، وكذلك بين الأماكن المعمورة على أطراف شبه الجزيرة العربية[٣٠]

٤ ـ كانت الرياض محطة من محطات التجارة في قلب الجزيرة العربية، وهذا له مدلولاته الاقتصادية، بخاصة وأن المدينه تقع على أطراف وادي البطحاء وقريبة من وادي حنيفة.

٥ ـ لأن موقع الرياض مرتفع وكاشف للأراضي المحيطة به .

٦ ـ لأن جزءا كبيرا من المقاومة السعودية تركزت في منطقة الرياض، مما يساعد في دعم الإمام ضد الخصوم. صارت مدينة الرياض عاصمة للدولة السعودية الثانية، ثم عاصمة

للدولة السعودية الحديثة، وما زالت حتى وقتنا الحاضر، فقد اعتمد مركز ثقل مدينة الرياض على عدد من القواعد الآساسية التي تعطي أهمية معينة. إن الأسس والقواعد التي اعتمدت عليها أهمية مدينة الرياض تعود إلى:

أولا :

كونها قاعدة سياسية للدولتين السعوديتين الثانية والحديثة، وهذا ما أعطى المدينة وأكسبها أهمية لم تكن تتمتع بها من قبل، لأن العاصمة تتركز فيها معظم الأنشطة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وهذا بدوره يضاعف من أهمية المدينة(٣١) .

ثانيا:

كونها قاعدة دينية انطلقت منها تعاليم الدعوة السلفية في عهد الدولتين السعوديتين الثانية والحديثة. فقد ورثت الرياض هذه المهمة بعد سقوط الدولة السعودية الأولى وتدمير عاصمتها الدرعية التى كانت القاعدة السياسية والدينية للدولة المذكورة .

ثالثا :

كونها محطة من المحطات التجارية في المنطقة التي تمر فيها القوافل التجارية القادمة من المناطق الشرقية والشمالية والجنوبية والغربية من مناطق الجزيرة العربية، هذا مما أكسبها أهمية اقتصادية دعمتها كل من الأهميتين السابقتين .

رابعا :

كان لاكتشاف النفط في البلاد السعودية بكميات تجارية أثره الفعال في أهمية مركز الرياض، لأن هذا الحدث التاريخي الاقتصادي غيّر ملامح مدينة الرياض، وزاد في أهميتها السياسية والاقتصادية، بخاصة بعد تطور إنتاجه في البلاد السعودية، فعمت الرياض نهضة عمرانية وتجارية وثقافية جاءت بشكل تدريجي، ثم تطورت بشكل سريع في السبعينيات من القرن العشرين/ التسعينيات من القرن الرابع عشر الهجري. «ويعتبر اكتشاف النفط في السعودية نقطة تحول في تاريخها الحديث والمعاصر، لأنه

يشكل الحد الفاصل بين نهاية الخط الاقتصادي التقليدي القبلي الذي كان سائدا في البلاد قبل اكتشاف الزيت، وبين الخط الاقتصادي النامي المتطور الذي أخذ اتجاها وأبعادا مغايرة للخط الأول.»(٣٢) .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن نمو المدينة العمراني والسكاني جاء متأخرا بسبب المراحل التاريخية والسياسية المضطربة التي كانت تسود الأوضاع في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي. إن التطور والعمران وزيادة السكان في مدينة الرياض جاء بعد مرحلة الاستقرار والأمن اللذين سادا البلاد أثناء عهد الملك عبدالعزيز، وبعد أن انتهى من حروبه، وشكل المملكة العربية السعودية عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م .

وعلينا أن نشير كذلك إلى أن بداية عهد النمو والتطور لمدينة الرياض كان بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وبعد اكتشاف النفط وتصديره بكميات كبيرة إلى بلدان العالم. ومنذ ذلك التاريخ أخذت مدينة الرياض تكبر وتنظم وتخطط تدريجيا بخاصة بعد تهديم جميع أسوارها.

لقد نشطت الحركة العمرانية في المدينة، ونشطت الحياة الاقتصادية فيها، وعمت المدينة حركة اجتماعية وثقافية متطورة. وما زالت المدينة في مرحلة النمو والتوسع في مجالات المواصلات والتجارة والعمران والثقافة والمرافق العامة، لأنها ما زالت في عهد شبابها وبحاجة كبيرة إلى مثل هذا النمو في شتى مناحي الحياة .

الحواشي

(١) ارجع في هذا الموضوع إلى :

حسين بن محمد بن نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، ١٣٤٩هـ .

(٢) أحمد الشريف، مكة والمدينة ، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ١٧ .

(٣) انظر: أحمد الشريف، مكة والمدينة، ص ١٩ .

(٤) عمرت الدرعية عام ٨٥٠هـ، وقد عمرها مانع المريدي جد آل سعود، ثم اتسعت في عهد ذريته وجماعته من بعده. كان مانع المريدي قد زار ابن عمه ابن درع صاحب حجر اليمامة والجزعة، وذلك بناء على طلب من ابن درع. أعطى ابن درع لابن عمه مانع موضعين قريبين منه، هما: المليبيد وغصيبة، فسكنهما مانع وأهله وجماعته بعد أن رحل عن موطنه الأول القريب من القطيف في شرقي الجزيرة العربية. وقد سمى هذا المكان الجديد باسم بلاده الأولى، أو ربما نسبة لأسرته .

انظر: تاريخ الفاخري في حوادث سنة ٨٥٠هـ . قام الأستاذ عبدالله التسيل بتحقيق المخطوط ونال عليه درجة الماجستير في التاريخ من جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٧م .

انظر كذلك: عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، المجلد الثاني ص ٢٠ ـ ٢١، طبعة مطابع القصيم بالرياض، ١٣٨٥هـ .

(٥) الشعاب هي: سدير، صفار، عبيراء، الحريقة، الخسيف من الغرب. وعمران وقصير من الشرق .

(٦) انظر مقال بعنوان: «الدرعية معالم وأطلال»، بقلم الأستاذ عبدالله بن خميس، نشر بمجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الأول، ربيع الأول ١٣٩٥هـ ـ مارس ١٩٧٥م.

(٧) بعد رحيل الشيخ محمد بن عبدالوهاب عن العيينة علم ١١٥٧هـ ووصوله الى الدرعية في السنة نفسها، حدث اتفاق بينه وبين أمير الدرعية محمد بن سعود بن مقرن، سمي هذا الاتفاق باتفاق الدرعية، تعاهد فيه الطرفان على نشر مبادىء الدعوة السلفية، وإصلاح المفاسد والخلل الذي شاب تعاليم الدين الإسلامي الحنيف .

انظر: عثمان بن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٤ .

انظر كذلك: حسين بن غنام، روضة الأفكار والأفهام، الجزء الثاني، ص ٤ ، طبعة المكتبة الأهلية بالرياض، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

(٨) للتعرف على المؤلفين والمؤلفات في هذا المجال ارجع إلى مخطوط «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» لمحمد بن عبدالله بن حميد.

(٩) عثمان بن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦٠ .

(١٠) انظر عبدالله بن خميس، الدرعية معالم وأطلال، مجلة الدارة، العدد الأول ربيع الأول ١٣٩٥هـ/ مارس ١٩٧٥م، ص ص ١٨ ـ ٢٢.

(١١) انظر ابن بشر ، المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٢٣٩ .

(١٢) انظر عبدالله بن خميس، المقال نفسه، ص ٢٢ .
انظر كذلك نشرات مصلحة الآثار السعودية في هذا الشأن .
انظر ابن بشر، المصدر السابق، ص ٢٣٧ ـ ٢٥٢. حوادث الاشتباكات بين أهالي الدرعية بقيادة الامام عبدالله بن سعود وبين قوات محمد علي باشا بقيادة ابنه إبراهيم باشا عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م.
(١٣) انظر:
عثمان بن بشر، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٥٩، ٢٦٠ .
(١٢) لمعرفة المزيد عن هذا الدور وعن الأحداث التي لعبتها الأمارة الرشيدية ارجع إلى: أمين الريحاني، نجد وملحقاته، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت
ـ إبراهيم بن صالح بن عيسى ، عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في أواخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر الهجري، مكتبة النهضة الحديثة بالرياض ، ١٣٧٢هـ .
(١٥) انظر ضاري بن رشيد، نبذة تاريخية عن نجد، طبعت بإشراف الشيخ حمد الجاسر صاحب دار اليمامة في الرياض وبيروت عام ١٩٦٨م.
ـ لمعرفة اسم حائل وما يعني عند المتقدمين ارجع إلى الشيخ حمد الجاسر: المعجم الجغرافي، شمال المملكة ـ القسم الأول ـ دار اليمامة للنشر، ١٩٧٧م .
(١٦) يقول الشيخ حمد الجاسر عن حائل في مؤلفه المعجم الجغرافي ـ شمال المملكة، القسم الأول، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م، ص ٣٨٢ ما يلي: «لم يطلق اسم حائل على البلدة ـ فيما أعلم ـ إلا في عصر متأخر، وكانت الشهرة إلى ما قبل قرنين من الزمن لبلده قفار الواقعة جنوب قرية حائل التي كانت قرية صغيرة شرق موقع المدينة الآن ...»
(١٧) انظر:

Foreign Office, 686, vol 24,
Telegram From Foreign Office, London to High commissioner For Egypt, dated 24 June, 1919, No 768.

(١٨) هناك مؤلف مفيد عن حائل وجبل شمر ، وهو معلومات دونت أثناء قيام المؤلف برحلة إلى جبل شمر والمؤلف هو:
Blunt (Lady Anne), Pilgrimage to Nejd, the Cradle of Arab race (A visit to court of the Arab Amir and Our persian Campaign), 2 Vols. Second edition, John Murray, London 1881.
(١٩) انظر ما أورده السيد عباس المكي الحسني عن حائل في كتاب، المعجم الجغرافي، للشيخ حمد الجاسر، ص ٢٨٥، ٣٨٦ .
(٢٠) قام الأستاذ سمير سليم شبيلي بترجمة أوراق الرحلتين إلى العربية بعنوان: «صور من شمالي جزيرة العرب، في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وراجع الترجمة الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك، منشورات أوراق لبنانيه .
(٢١) وزارة الإعلام السعودية، المملكة العربية السعودية.
(٢٢) حمد الجاسر ، المعجم الجغرافي، ص ٣٩٤ .
(٢٣) انظر ابن حزم (علي بن أحمد بن حزم) في جمهرة أنساب العرب، ص ٣١٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م .
(٢٤) الدولة الأخيضرية هي إحدى الدول العلوية التي كانت وليدة الحركات العلوية المناهضة للدولة العباسية. وتنسب الدولة الأخيضرية إلى الأخيضر، وهو محمد بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن علي، الذي

أسسها في اليامة في حوالى منتصف القرن الثالث الهجري، واتخذ مدينة الخضرمة عاصمة له. انظر المسعودي في مروج الذهب، ج ٤، ص ٩١ و ٩٤ نشردار الأندلس، ط ٢ بيروت ١٩٧٣م. وانظر كذلك جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ج ١، ص ٤٦ .

(٢٥) انظر محاضرات في تاريخ الدولة السعودية للأستاذ عبدالله الشبل، ١٣٩٥هـ، ص ٤٧ .

(٢٦) انظر المملكة العربية السعودية، وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية .

(٢٧) انظر مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، للشيخ حمد الجاسر، منشورات دار اليامة بالرياض، ١٩٦٦م، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٢٨) انظر كتاب مدينة الرياض للدكتور عبدالرحمن الشريف، مطبعة المدينة بالرياض ، ص ٣٢ و ٣٣ .

(٢٩) يعتبر دهام بن دواس أقوى خصوم الدولة السعودية الأولى في المنطقة الوسطى. ظل دهام هذا يناصب الدرعية العداء حتى سقطت الرياض عام ١١٨٧هـ . فظلت الحروب قائمة من سنة ١١٥ ـ ١١٨٧هـ وبلغت الغزوات في حدود سبع وثلاثين غزوة. ارجع إلى: حسين بن غنام في مؤلفه «روضة الأفكار والافهام»، ثم إلى ابن بشر في مؤلفه «عنوان المجد في تاريخ نجد»، وإلى الشيخ حمد الجاسر في مؤلفه «مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ» .

(٣٠) ظلت الرياض عاصمة سياسية طيلة حكم الدولة السعودية الثانية، ثم توقف هذا الأمر في غياب الدولة السعودية الثانية بعد رحيل الإمام عبدالرحمن بن فيصل إلى الكويت وامتداد حكم آل رشيد إلى الرياض عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م. وظل هذا التوقف مدة عشر سنوات، ظلت حتى عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م، عندما استرد عبدالعزيز آل سعود الرياض. ومنذ هذا التاريخ حتى وقتنا الحاضر والرياض عاصمة للدولة السعودية الحديثة .

(٣١) انظر: د. عبدالفتاح حسن أبو عليه، الدولة السعودية الثانية. ثم كتاب «الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود» .

(٣٢) د. عبدالفتاح أبو عليه، الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز، طبع على نفقة وزارة التعليم العالي في مطابع الأوفست الأهلية عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص ١٧٣ .

المصـــادر

١ ـ الفاخري: تاريخ الفاخري، مخطوط حققه الأستاذ عبدالله الشبل، ونال عليه درجة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٧م.

٢ ـ عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، مجلدان ، طبعة مطابع القصيم بالرياض ١٣٨٥هـ .

٣ ـ حسن بن غنام: روضة الأفكار والأفهام، الجزء الثاني، طبعة المكتبة الأهلية بالرياض ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .

٤ ـ على بن أحمد بن حزم: جمهرة أنساب العرب، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م.

٥ ـ المسعودي: مروج الذهب، الجزء الرابع، نشر دار الأندلس، طبعة بيروت ١٩٧٣م .

٦ ـ عبدالله الشبل: محاضرات في تاريخ الدولة السعودية، ١٣٩٥هـ .

٧ ـ حمد الجاسر: مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، منشورات دار اليمامة بالرياض ، ١٩٦٦م.

٨ ـ حمد الجاسر: المعجم الجغرافي ـ شمال المملكة، القسم الأول، الطبعة الأولى ١٩٧٧م .

٩ ـ عبدالرحمن الشريف: مدينة الرياض، مطبعة المدينة بالرياض .

١٠ ـ عبدالفتاح أبو علية: الدولة السعودية الثانية، مؤسسة الأنوار بالرياض، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

١١ ـ عبدالفتاح أبو علية: الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز، طبع على نفقة وزارة التعليم العالي بمطابع الأوفست الأهلية ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

١٢ ـ أمين فارس الريحاني: نجد وملحقاته، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت.

١٣ ـ إبراهيم بن صالح بن عيسى: عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في أواخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر الهجري، مكتبة النهضة الحديثة بالرياض ١٣٧٢هـ .

١٤ ـ ضاري بن رشيد: نبذة تاريخية عن نجد، طبعت بإشراف الشيخ حمد الجاسر صاحب دار اليمامة في الرياض عام ١٩٦٨م .

١٥ ـ فالين: صور من شمالي جزيرة العرب، ترجمة سمير سليم شبيلي ومراجعة يوسف يزبك، منشورات أوراق لبنانية.

١٦ ـ وزارة الإعلام السعودية ـ المملكة العربية السعودية .

١٧ ـ أحمد الشريف: مكة، المدينة ، دار الفكر العربي، القاهرة، (بدون) .

١٨ ـ حسين بن محمد بن نصيف: ماضي الحجاز وحاضره، ١٣٤٩هـ .

١٩ ـ مجلة دارة الملك عبدالعزيز، العدد الأول، ربيع الأول ١٣٩٥هـ/ مارس ١٩٧٥م .

(20) Foreign Office, 686, Vol.24, Telegram From Foreign Office, London to High commissioner for Egypt, Ramaleh, dated 24 June, 1919, No 769.

(21) Blunt, (Lady Anne), Pilgrimage to Nejd, the Cradle of Arabic race (A visit to court of the Arsb Amir and our persian Campaign, 2 Vols. Second edition, John Murray, London, 1881.

(22) Musil (Alios), Northern Nejd, Newyork, 1928.

○○○

مراكز الاستقرار فى بلاد العالم الإسلامى
« النمط اليمنى »

دكتور محمد متولى موسى

قبل أن نعرض لدراسة ظاهرة الاستقرار في دولة اليمن الشمالي لا بد من تحديد المفهوم الجغرافي لهذه الظاهرة، والمعنى الذي يحمله إلى الأذهان، لأن الاستقرار في نظر الجغرافي له أنماط متباينة .

وما نعنيه بالاستقرار هنا هو الإقامة في مكان ما إقامة دائمة، وهذا يباعد بيننا وبين البداوة التي تعني التنقل والارتحال، ومن ثم الإقامة في مكان ما إقامة مؤقتة، كما يباعد بيننا وبين الإقامة في المدن الكبيرة، وهي ما يعبر عنها بالإنجليزية بلفظ Urbanization، ذلك لأن مراكز الاستقرار في دولة اليمن كلها من النمط الصغير الحجم. وبناء على ذلك فإن الإقامة الدائمة التي نقصدها هي الإقامة في القرى وفي المدن الصغيرة .

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن اليمنيين عرفوا حياة الاستقرار منذ زمن مبكر، ربما يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ. فالآثار التي كشف عنها في جهات عديدة من أرض اليمن تؤكد أن اليمنيين مارسوا حياة الاستقرار، وكانت لهم مراكز يقيمون فيها إقامة دائمة بعيدة عن التنقل والارتحال منذ العصر الحجرى الحديث، عندما توصل الإنسان اليمني إلى استئناس النبات وممارسة الزراعة .

١ ـ العوامل الجغرافية التي ساعدت على قيام حياة مستقرة منذ زمن مبكر :

- الواقع أن الخصائص الجغرافية التي تمتاز بها أرض اليمن من الناحية الجغرافية، وبخاصة ما يتعلق منها بالمناخ أو الموقع أو التضاريس، أثرت إلى حد كبير في تهيئة هذا البلد لكي يكون وطنا للإنسان منذ العصور المبكرة، ومهدا قديما للحضارة وحياة الاستقرار وظهور طلائع القرى والمدن وقيام الحياة المستقرة .

- أما عن المناخ فإن العامل الرئيسي الذي كان له أكبر الأثر في قيام حياة مستقرة فوق أرض اليمن هو الأمطار، فاليمن دون غيرها من مختلف أنحاء شبه جزيرة العرب تنعم بنصيب لا بأس به من الأمطار، يتراوح في متوسطه بين ٤٠٠ مم ٦٠٠ مم. وللأمطار هنا موسمان:

موسم يتركز حول شهرى أبريل ومايو، وهو موسم قصير نسبيا، وأقل أمطارا.
وموسم يتركز حول شهري يولية وأغسطس، وهو موسم أكثر طولا، وأغزر مطرا .

والمطر في كلا الموسمين من النوع المداري الذي يرتبط بحركة الشمس الظاهرية بين خط الاستواء ومدار السرطان، وما ينجم عن ذلك من تكوين انخفاضات جوية .

فأمطار الموسم الأول تسقط عندما تتعامد الشمس على أرض اليمن، وهي في حركتها من خط الاستواء نحو مدار السرطان، بينا تسقط أمطار الموسم الثاني عندما تتعامد الشمس ثانية على أرض اليمن، وهي في طريق العودة من مدار السرطان نحو خط الاستواء .

وإذا استثنينا القطاع الجنوبي الغربي من العربية السعودية فإن اليمن هي البلد الوحيد في شبه الجزيرة العربية الذي يسقط فيه هذا النوع من الأمطار. وقد ساعد سقوطها على قيام حياة نباتية لا تتوافر في أية جهة أخرى من شبه الجزيرة، كما ساعد على ممارسة الزراعة وقيام حياة مستقرة في مختلف أنحاء اليمن حيث تمارس الزراعة .

والمعروف عن اليمنيين أنهم منذ العصور القديمة برعوا في الإفادة من كل قطرة من قطرات المطر التي تسقط في بلادهم، واستغلالها استغلالا مثمرا في الإنتاج الزراعي. فلقد حذقوا إقامة السدود لحجز المياه التي تنحدر في أودية اليمن العديدة، للانتفاع بها في أغـراض الـري والزراعة. ويروى لنا التاريخ أنهم أقاموا منها المئات بل الآلاف منذ الأزمان القديمة، وأشهرها جميعا سد مأرب العظيم. كما حذقوا الإفادة من مياه الأمطار التي تنحدر على جوانب الجبال، وذلك ببناء المدرجات على تلك الجوانب، لكي تتلقى تلك المياه، بهدف استغلالها في الزراعة .

وكان طبيعيا أن تقوم مراكز الاستقرار وسط الأراضي الزراعية التي تنتشر حول السدود أو على جوانب الجبال، وهذه وتلك ظهرت في أرض اليمن منذ الأزمان القديمة، وتطورت تطورا مطردا على مرّ العصور .

أما عن الموقع الجغرافي فإن قيام اليمن في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، ووقوعها في مكان متوسط بين مواطن إنتاج البخور في جنوبي شبه الجزيرة العربية، وإنتاج الأفاوية والتوابل في جنوب شرقي آسيا، وبين مراكز

الحضارات القديمة في بلاد فارس والعراق ومصر، أهّلها لأن تكون حلقة اتصال بين هذه المناطق، ومعبرا للتجارة الدولية منذ الأزمان القديمة، وجعل من اليمنيين حملة لتلك التجارة، وحماة لطرق القوافل التي تمتد عبر أراضيهم، وجباة للضرائب والمكوس التي كانوا يفرضونها عليها. وقد ساعد ذلك على قيام مراكز تجارية قديمة في أرض اليمن، ومحطات للقوافل التي كانت تحمل التجارة، كما ساعد على توافر ثروات ضخمة كانت السبيل إلى قيام حياة عمرانية لا ترتكز على التجارة وحدها، وإنما تعتمد كذلك على بناء السدود والتوسع في النشاط الزراعي .

أما عن تضاريس أرض اليمن فإنها كعامل جغرافي لا تقل أهمية عن المناخ أو الموقع الجغرافي، فلقد ساعدت هي الأخرى على قيام حياة مستقرة منذ زمن مبكر فالطبيعة الجبلية لهذه الأراضي هيأت لها المنعة، الأمر الذي ضمن لمستوطناتها أن تنشأ في حضانتها، وأن تعمّر في حمايتها، وأن تنمو نموا مطردا. كما أن ارتفاعها عن مستوى سطح البحر بنحو كيلومترين جعل من أرض اليمن بيئة جغرافية فريدة في شبه الجزيرة العربية، فالحرارة الشديدة التي تسود أنحاء شبه الجزيرة تختفي اختفاء تاما بفضل هذا الارتفاع، ويسود بدلا منها جو دائم الاعتدال، مما يساعد على السكن في كل صقع من أصقاع اليمن، ويبعث على النشاط وبذل الجهد ومواصلة الإنتاج .

كما أن تنوع التضاريس وكثرة ما بأرض اليمن من أودية عميقة وقيعان منبسطة تحيط بها المرتفعات من كل جانب هيأ الأسباب لقيام مستوطنات يمنية في أفضل المواقع منعة وأكثرها تحصينا، مما ضمن لها الأمن ودوام البقاء .

٢ ـ أعداد مراكز الاستقرار وأحجامها :

على الرغم من أن عدد سكان اليمن الذين يقيمون داخل حدودها يبلغ نحوا من خمسة مليون ونصف المليون نسمة[١]، وهو عدد قليل نسبيا، إلا أنهم موزعون على عدد كبير جدا من مراكز العمران، يصل إلى ٣٤٤٨٢ مستوطنة، بمتوسط مقداره ١٥٢ نسمة للمستوطنة الواحدة. ولا يعدل اليمن في هذا العدد الضخم من مراكز الاستقرار بالنسبة للعدد المحدود من السكان، ولا في هذا المتوسط الضئيل لسكان المركز الواحد، أي بلد آخر من بلاد العالم

الإسلامي، سواء في ذلك البلاد العربية أو غيرها. وهذا ما يدعونا إلى أن نعتبر مراكز الاستقرار في دولة اليمن الشمالي نمطا عمرانيا تنفرد به دون غيرها من بلاد العالم الإسلامي.

وأهم ما يميز هذا النمط الفريد من مراكز الاستقرار سواء كانت مدنا أو قرى أنها جميعا تتصف بضآلة أحجامها وقلة سكانها، إذ هي قورنت بنظائرها في البلاد الأخرى[١].

أما عن المدن فإن الأرقام التالية ـ وهي لعواصم الأقضية أ و الألوية في دولة اليمن توضح بجلاء أنها لضآلتها لا تنضوي في عداد المدن، لأنها أقرب إلى القرى :

وإذا استثنينا مدينة صنعاء وعدد السكان فيها ١٣٤٫٥٨٨ نسمة[٢]
، ومدينة الحديدة وعدد السكان فيها ٨٠٫٣١٤ نسمة، ومدينة تعز وعدد السكان فيها ٧٨٫٦٤٢ نسمة، فإن عواضم الألوية جميعا تدخل في عداد القرى أكثر مما تدخل في عداد المدن، إذ يقل عدد السكان في كل منها عن عشرين ألفا، بل قد لا يزيد في بعضها عن ٢٥٠٠ نسمة ـ

المدينة	عدد السكان
صنعاء	١٣٤٥٨٨
الحديدة	٨٠٣١٤
تعز	٧٨٦٤٢
ذمار	١٩١٦٧
آب	١٩٠٦٦
البيضاء	٥٩٧٥
محة	٥٨١٣
منعدة	٤٢٥٢
مأرب	٢٩٢٢
المحويت	٢٤٢٤

أما عن القرى فإنها هي الأخرى من نمط قزم فريد، يؤكد ذلك الأرقام التالية، وهي لمناطق مختارة في أنحاء مختلفة باليمن:

أولا : في منطقة جبل عيال يزيـد :

وتقع غير بعيد من مدينة صنعاء على مسافة ٣٥ كم منها ناحية الشمال الغربي. في هذه المنطقة يبلغ عدد مراكز الاستقرار ٢٢٨ قرية، والسكان فيها موزعون على النحو الآتي:

عدد القرى	عدد السكان	٪
١	اكثر من ١٠٠٠ نسمة	٤٪
١٠	من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ نسمة	٤٪
١٥	٢٠٠ إلـى ٥٠٠ نسمه	٧٪
٣٩	١٠٠ إلـى ٢٠٠ نسـمة	١٧٪
٤٧	٥٠ إلـى ١٠٠ نسـمة	٢١٪
١١٥	أقـــل من ٥٠ نسـمة	٥١٪
٢٢٨		١٠٠٪

ومعنى هذا أنه في أكثر من نصف عدد القرى في هذه المنطقة يقل عدد سكان القرية عن ٥٠ نسمة، وأن هناك قرية واحدة يزيد عدد سكانها عن ١٠٠٠ نسمة، إذ يصل إلى ١٣٨٥ نسمة .

ثانيا : في ناحية بنى الحارث :

وهي منطقة أخرى تقع على مشارف مدينة صنعاء، يبلغ عدد القرى ٥٤، والسكان فيها موزعون على النحو الآتي :

عدد القرى	عـدد السـكان	٪
٢	أكـثر من ١٠٠٠ نسمة	٤٪
٥	من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ نسمة	٩٪
١٢	٢٠٠ إلـى ٥٠٠ نسمة	٢٢٪
١٤	١٠٠ إلـى ٢٠٠ نسـمة	٢٧٪
١٨	٥٠ إلـى ١٠٠ نسـمة	٣٥٪
٣	أقـل من ٥٠ نسـمة	٦٪
٥٤		١٠٠٪

وهنا تتكرر نفس الظاهرة، ففي ٦٨٪ من عدد القرى في المنطقة يقل عدد السكان في أي منها عن ٢٠٠ نسمة، وأن قريتين فقط هما اللتان يزيد عدد السكان في كل منهما عن ١٠٠٠ نسمة .

ثالثا: في منطقة اللحية :

وتقع في أدنى وادي مر الذي ينتهي في سهل تهامة، يبلغ عدد القرى ١٢٥ قرية، والسكان فيها موزعون على النحو الآتي:[٤]

عدد القرى	عـدد السـكان	٪
٦	أكثر من ١٠٠٠ نسمة	٥ ٪
١١	من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ نسمة	٩ ٪
٢٧	٢٠٠ الى ٥٠٠ نسمة	٢١٪
٣٤	١٠٠ إلى ٢٠٠ نسمة	٢٧٪
١٩	٥٠ الـى ١٠٠ نسمة	١٥٪
٢٨	أقل من ٥٠ نسمة	٢٣٪
١٢٥		١٠٠٪

وهذا معناه أن ٦٥٪ من عدد القرى في هذه المنطقة يقل عدد السكان في أي منها عن ٢٠٠ نسمة، وأن هناك ٦ قرى فقط يزيد عدد السكان في كل منها عن ١٠٠٠ نسمة .

رابعـا: تتكرر نفس هذه الظاهرة في نواحي مأرب وصرواح وجوبة والمطمة وحزم الجوف وخب ومراشق وسوق العنان ورجوزة، وتقع جميعا في مناطق متفرقة من أرض اليمن في الشمال والجنوب والشرق والغرب. ففيها يبلغ عدد القرى ٧١٧ قرية، وفي نحو ٣٤٪ منها يقل عدد السكان عن ٢٠٠ نسمة في كل قرية .

والخلاصة التي نصل إليها من هذا البيان أن مراكز الاستقرار في بلاد اليمن ذات نمط فريد، فهي في مجموعها مراكز قزمة صغيرة الحجم .

٣ ـ العوامل الجغرافية التي أدت إلى تعدد مراكز الاستقرار :

وتعدد مراكز الاستقرار على هذا النحو الفريد مع الأعداد المحدودة من السكان الذين يقيمون في كل مركز منها إنما يرجع إلى عدد من العوامل الجغرافية، نذكر منها ما يلي :

أولا: طبيعة البلاد الجبلية، مع ضيق المساحات التي تتجمع فيها التربة الصالحة للاستغلال الزراعي وتناثرها. والاقتصاد اليمني اقتصاد زراعي بالدرجة الأولى، فلقد عاش الشعب اليمني في خلال تاريخه الطويل معتمدا على الإنتاج الزراعي في سد حاجاته المعيشية. ولما كانت أرض اليمن جبلية في جملتها، وكانت تمزقها الأودية في أنحائها جميعا، وكانت هذه الأودية ضيقة وذات جوانب شديدة الانحدار، كانت المساحات التي تتجمع فيها التربة الصالحة للاستغلال الزراعي محدودة الامتداد، بحيث لا تتسع لأن يستغلها عدد كبير من الأيدي العاملة، هذا فضلا عن تشتتها وتناثرها بين حنايا الأودية وعلى جوانب الجبال. ولما كان الاستغلال الزراعي يتطلب الاستقرار إلى جانب مواطن الإنتاج فقد نجم عن ذلك تناثر مراكز الاستقرار من جهة، وقلة عدد السكان في كل مركز منها من جهة أخرى .

وفي مناطق محدودة للغاية من أرض اليمن، وهي المناطق التي تعرف بالقيعان، حيث تتسع المساحات القابلة للزراعة بعض الشيء، وحيث تتوافر المياه الجوفية التي تستغل في أغراض الري، فإن مراكز الاستقرار تكون أكبر نسبيا، وتكون بمثابة الأسواق التي يلتقى فيها سكان المراكز الصغيرة القريبة لتبادل السلع التجارية.

وربما كان ما يعمد إليه اليمنيون من بناء السدود الحاجزة في مجاري الأودية والسيول، أو إقامة المدرجات على جوانب الجبال، ليس لمجرد حجز المياه التي تنحدر عقب سقوط الأمطار، وإنما يهدف إلى استحداث مساحات خصبة مما يترسب من غرين لاستغلالها زراعيا إلى جانب توفير المياه اللازمة لأغراض الري .

ومما يروى عن سد مأرب العظيم الذى أقامه السبئيون القدامى عند مخرج وادي أذنة من جبل بلق أنه إلى جانب حجزه لمقادير وافرة من مياه السيول قد ساعد على استحداث مساحة زراعية واسعة من أرض الصحراء على كلا جانبيه، بما أرسبه عليها من مواد غرينية غاية في الخصوبة، لهذا كانت مراكز الاستقرار القديمة التي قامت هناك قبل انهيار السد مراكز كبيرة نسبيا .

وكذلك الشأن في المدرجات التي حذق اليمنيون بناءها على منحدرات الجبال، فإنها إلى جانب حجزها لمياه الأمطار التي تنحدر على جوانب الجبال ساعدت على استحداث مساحات

من الأراضي الزراعية على تلك الجوانب، وهي مناطق تأبى طبيعة انحدارها أن ترتكز عليها التربة لولا تلك المدرجات. ولما كانت المساحات المنزرعة التي تستحدثها مثل هذه المدرجات صغيرة المساحة فإن المستوطنات التي تقوم عندها تكون صغيرة الحجم كما تكون متناثرة على جوانب الجبال .

ثانيا: شح الماء :

إذا استثنينا المسيلات المؤقتة التى تتركز فيها مياه الأمطار بعد سقوطها مباشرة، ولا تلبث طويلا حتى تختفي، واستثنينا المجاري الدائمة الصغيرة التي تنحدر فيها المياه القليلة التي تنبثق من العيون، وهي التي يطلق عليها اليمنيون اسم «الغيول»، فإن الأمطار القليلة التي تسقط على أرض اليمن لا تتركز في جهة واحدة أو في عدد من الجهات، وإنما تتناثر في جهات اليمن جميعا، لهذا كان القدر الذي يصيب أيا منها نصيبا محدودا. فإذا ساعدت الظروف على تجمع مياه الأمطار في منخفض ما أو بقعة من البقاع تجمع الناس حولها واستقروا، لأنها عندئذ تكون مصدرهم الوحيد الذي يغذيهم بالماء. والعديد من القرى يقوم إلى جانب هذه المنخفضات أو البرك، وعندئذ يتوقف حجم القرية على مقدار ما يتجمع من الماء في المنخفض المجاور. وقد يبقى الماء في المنخفض إلى موسم المطر التالي، وقد يتحول الى ماء آسن، ومع ذلك فإن السكان لا يكفون عن التزود منه، لأنه مصدرهم الوحيد .

ونظرا إلى أن هذه المنخفضات محدودة السعة عادة فإن ما يتجمع فيها من الماء يكون قليلا، وبناء على ذلك فإن حجم مراكز الاستقرار التي تقوم إلى جانبها يكون صغيرا، بحيث لا يتعدى بضع عشرات من السكان .

ثالثا: صعوبة الانتقال :

في بلاد جبلية كاليمن حيث تمزق الأودية كل جزء من أجزائها، وتحولها إلى كتل جبلية منفصل بعضها عن بعض، وحيث تتعدد الشعاب، ويعظم عمق الأودية، ويشتد انحدار جوانبها، تكثر الجيوب، وينعزل بعضها عن بعض، ويصعب اتصالها أحدها بالآخر.

من أجل هذا عاش كل مركز من مراكز الاستيطان فيها في عزلة عن غيره، وصعب سكنى

الناس بعيدا عن الأراضي التي يزرعونها، الأمر الذي أدى إلى تعدد هذه المراكز وصغر حجمها .

وحتى في الوداي الواحد فإن كثرة شعابه، وما يكثر فيه من اختناقات بسبب الخوانق الضيقة والصخور الضخمة التي تنهار من جوانبه وتشغل قاعه، فإن الانتقال بين المستوطنات التي تقوم في الجيوب التي تمتد على طوله يكون صعبا للغاية، مما يجعل كلا منها يعيش في عزلة كاملة، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى تعددها وصغر حجم السكان في كل منها .

٤ ـ تطور مراكز الاستقرار في اليمن :

إذا كان الجغرافيون قد وضعوا العديد من الأسس لتصنيف مراكز الاستقرار في العالم، والتمييز بين ما يعتبر قرية أو مدينة صغيرة أو مدينة كبيرة، سواء كان ذلك عدد السكان في كل منها، أو كثافتهم فيها، أو فئات السكان الذين يقيمون فيها، وما تزاوله كل فئة من أعمال وحرف، أو ما يتوافر فيها من خدمات، فإن أيا من هذه الأسس لا يمكن تطبيقه في دولة اليمن، لأن لليمن وضعا فريدا لا نجده في أي من بلاد العالم. فمراكز الاستقرار فيها يختلط بعضها ببعض، وما يكون قرية في العرف الجغرافي العام قد يكون مدينة في اليمن، وما يكون مدينة قد يكون قرية، وهكذا. ومن أجل ذلك فلن نفرق في هذه الدراسة بين المدينة وبين القرية، وسنعالجها جميعا على أنها مراكز للاستقرار وحسب .

ومراكز الاستقرار في اليمن ظاهرة قديمة، ونشأتها لم تكن ظاهرة فجائية، إذ سبقتها مراحل عدة ، بدأت بتوجيه جهود اليمنيين نحو استغلال البيئة الطبيعية في أرضهم، والإفادة من مواهبها المختلفة في سبيل البقاء، والمحافظة على الحياة. وتبع ذلك مرحلة أخرى تميزت بالتركيز على تفاعل اليمني مع بيئته الاجتماعية أكثر من تفاعله مع البيئة الطبيعية، وفيها ظهرت طلائع القرى والمدن، وأصبحت دلائل التحضر والاستقرار واضحة في اليمن في خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد، عندما اتخذت الدولة المعينية عاصمة لها في معين .

ومعين مدينة أثرية قديمة تتوسط المنطقة الصحراوية التي تمتد شرقي اليمن، ولم يبق منها حتى اليوم سوى خرائب يستدل منها على ما كانت عليه من عظمة وازدهار. وهي تقع وسط سهل فسيح يمتد على شكل حوض عظيم هو حوض الجوف، والامتداد العام لهذا الحوض من

الشرق إلى الغرب، وموقعها منه في طرفه الشرقي وفي وسطه تماما على طريق التجارة الرئيسية بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها. وهي قائمة على أكمة من أرض طينية منحدرة الجوانب، وتعلو عن مستوى الحوض بنحو ١٥ مترا. ومثل هذه الأكمة كان ضروريا لحماية المدينة من أخطار السيول الجارفة التي تأتي عادة من الجبال المجاورة .

ومعين مدينة مستطيلة الشكل(٥)، وتبلغ مساحتها نحوا من ١٠٠ ألف متر مربع، ويرجح أن سكانها كانوا يبلغون ٣ آلاف نسمة. وهؤلاء كانوا يؤلفون الملك وأهله وحاشيته والنبلاء والوجهاء والقواد والجند والكهنة وسدنة المعابد من رجال ونساء والكتبة وجباة الضرائب وأمناء المخازن وباقي رجال الدولة من هيئة الطبقة الحاكمة. أما جمهور الشعب فأغلب الظن أنهم كانوا يعيشون خارج أسوار المدينة. وكانت المدينة تحصل على حاجتها من الماء من مجرى نهر الخارد .

ويستدل من الأطلال الباقية على أن معين كانت مدينة مسورة بسور عال، كانت به مزاغل لتصويب السهام وللمراقبة، وذلك للوقاية من الغزوات التي كانت تتعرض لها من قبل الجماعات البدوية .

ومن موقع مدينة معين في وسط منطقة الجوف الحوضية، حيث تصل المياه التي تسيل من وادي أدنه ، وحيث تنتشر الرواسب التي جلبتها السيول في مساحات واسعة من أرض الجوف، ومن الآثار التي كشف عنها المنقبون من بقايا مدينة معين، يمكن تتبع المراحل التي مرت بها المستوطنة حتى تحولت إلى مدينة عامرة ومركز حضري هام .

أما المرحلة الأولى فقد بدأت بظهور قبائل بدوية متنقلة، كانت تعيش على رعي الإبل، وتجوب المنطقة سعيا وراء الكلأ، كما كانت تغير بين وقت وآخر على قوافل التجارة التي كانت تمر عبر حوض الجوف الصحراوي آتية من حضرموت وجنوب الجزيرة العربية في طريقها إلى نجران وشمال الجزيرة، وكانت تنهب ما تحمله من متاجر .

وأعقب ذلك مرحلة رأت فيها القبائل أن تكف عن الإغارة على قوافل التجارة، والتحول إلى حراستها وحمايتها من غارات القبائل الأخرى، مقابل ضريبة تفرضها عليها. وهنا بدأت القبائل تستقر إلى جانب موارد الماء التي تمتد على طول طريق القوافل، فكان ذلك بداية تكوين عدد من المحطات التي تتوقف عندها القوافل بهدف الراحة والتزود بالماء .

وكان طبيعيا أن يهتدي البدوي الذي استقر إلى جانب مورد الماء إلى نوع من الزراعة الأولية، فبدأ يبذر الحب في مناطق مختارة تقع على مقربة من مورد الماء، وتتوافر فيها الرواسب الغرينية الصالحة للإنبات، وبهذا بدأ يجمع بين البداوة وبين الاستقرار، مما أدى إلى قيام حياة مستقرة وفريدة من التجمع السكاني، وظهور النواة الأولى للقرية اليمنية، كما أن التطور في مجال الزراعة وتربية الحيوان، وما تبع ذلك من تبادل تجاري، كانت عوامل أخرى لظهور طلائع المدن من القرى، إذ إن الوفرة في الإنتاج مكنت من إعالة أعداد أكبر من السكان، وهذا بدوره وفر طاقة بشرية جديدة أمكن استغلالها في نشاطات أخرى خارج نطاق الحقل الزراعي كالتجارة والفنون والخدمات. وعلى هذا النحو تعددت نشاطات السكان، وتنوعت أعمالهم ومصالحهم ووظائفهم، وبذا تكون مجتمع جديد هو مجتمع المدينة .

٥ ـ الشكل العام لمراكز الاستقرار في اليمن :

لكي نوضح الشكل العام الذي تتخذه المدينة اليمنية ينبغي أن نفرق بين نوعين مختلفين من المدن، هما: المدن ذات الأسوار، والمدن غير المسورة .

والهدف من الأسوار التي تقام حول المدن هو تحصينها في وجه ما تتعرض له من غارات وغزوات. والمعروف أن مدن اليمن جميعا كانت تتعرض دائما للغارات التي تشنها القبائل اليمنية بعضها على بعض . وهذا معناه أن المدن غير المسورة تتوافر لها الحماية الطبيعية من مواقعها على قمم الجبال أو على منحدراتها الوعرة التي تستعصي على المغيرين .

والمدن المسورة هي المدن التي تقوم في الأراضي المنبسطة أو المكشوفة، سواء كانت أرضا سهلة كما هو الشأن في أرض تهامة التي تقوم فيها مدينة كمدينة زبيد المسورة، أو أرض الهضاب المفتوحة كما هو الشأن في الهضبة الشمالية من أرض اليمن حيث تقوم مدينة صعدة المسورة، أو كانت منطقة حوضية واسعة «أو قاعا» وسط الجبال كما هو الشأن في قاع أرحب حيث تقوم مدينة صنعاء المسورة .

والشكل العام للمدن المسورة هو الشكل الدائري، ومن ثم كانت الأسوار التي تقام حولها تأخذ شكل الدائرة أو ما يقرب من الدائرة. أما الأشكال الهندسية الأخرى التي تتصف بها بعض المدن فغير معروفة بين مدن اليمن. والشكل الدائري هو السمة البارزة التي تميز الغالبية

العظمى من المدن العربية القديمة قبل أن تتطور تطورها الحديث وتخرج عن نطاق الأسوار القديمة. وربما كان الشكل الدائري للمدينة المسورة هو أنسب الأشكال التي تيسر الدفاع عنها وحمايتها من جميع جوانبها، كما أنه يضفي على المدينة بنية محتشدة وملمومة تساعد السلطات الإدارية على ضمان السيطرة عليها، ويقلل المسافات بين أجزائها المعمورة .

أما المدن التي تقوم على قمم الجبال فإنها تأخذ شكل امتداد القمة، فإذا كانت قمة مستديرة كان الشكل العام للمدينة مستديرا، وإن كانت القمة تمتد في شكل مربع أو مستطيل أو مثلث اتخذت المدينة نفس الشكل. والمساكن في هذه المدن تبدو متراصة على طول حواف القمة الجبلية، وتبدو بظهورها التي تتجه نحو الخارج على شكل حائط، وتظهر كما لو كانت امتدادا رأسيا لجوانب القمة. وفي هذه الحالة تقوم مقام الأسوار، وتبدو المدينة كحصن حصين .

أما المدن والقرى التي تقام على منحدرات الجبال ، وهي الغالبية العظمى من مراكز الاستقرار في أرض اليمن، فليس لها شكل ثابت، إذ إنها تمتد على هذه المنحدرات في غير نظام، ويكون امتدادها حسب ما تمليه طبيعة المنحدرات الجبلية. والظاهرة التي تميز هذه المستوطنات أن المساكن فيها تكون متفرقة وعلى مستويات مختلفة من جانب الجبل، ولا تحاط عادة بأية أسوار، لأن مجرد وقوعها على منحدرات الجبال يكفل لها الحماية الطبيعية، ومن ثم كان انتشار المساكن وتفرقها.

٦ ـ طبيعة مراكز الاستقرار في أرض اليمن وتصنيفها حسب مواقعها ووظائفها:

لا تختلف مراكز الاستقرار في بلاد اليمن كثيرا بعضها عن بعض، فجميعها تؤدي نفس الوظيفة تقريبا، ولكنها تتباين فيما بينها حسب الموقع الذي تحتله. وفيما يلي عرض لطبيعة هذه المراكز والمواقع التي تقوم فيها:

أولا ـ مدن العواصم :

اليمن من البلاد التاريخية القديمة التي امتدت حضارتها على مدى قرون عديدة سواء قبل ميلاد المسيح أو بعده، ففيها قامت دولة معين في زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ثم تتابعت فيها الدول واحدة إثر أخرى . فبعد المعينية قامت السبئية ثم

الحميرية. وكان الكثير من الدول يقوم في أرض اليمن في وقت واحد، أي إن بعضها كان يعاصر البعض الآخر، وكانت كل منها تقوم في جزء من البلاد وتستقل بالسيطرة عليه. ويرجع ذلك إلى طبيعة البلاد الجبلية، وانعزال أجزائها المختلفة انعزالا يكاد يكون تاما، ثم لسيادة الروح القبلية ، وسيطرة القبائل على الأراضي التي تعيش فيها. وكان طبيعيا أن يكون لكل دولة أو قبيلة عاصمتها التي تتركز فيها السلطة وأجهزة الحكم وإداراته المختلفة، ويقيم فيها الحاكم وحاشيته من الأعيان والوجهاء إلى جانب الحراس والجند الذين يتولون شئون الدفاع وجباية الضرائب وأمناء المخازن ثم أفراد الرعية من زراع وصناع وتجار.

من أجل هذا كثرت مدن العواصم في أنحاء اليمن كثرة لم يشهدها بلد عربي آخر، ففي القطاع الشرقي من البلاد، وهو القطاع الذي نبتت فيه الحضارة اليمنية أول ما نبتت، وظهرت فيه أقدم الدول اليمنية، قامت مدينة قرناو كأول عاصمة للدولة المعينية، ثم مدينة معين كعاصمة ثانية، كما قامت مدينة مأرب كعاصمة للدولة السبئية، وريدان «ظفار» كعاصمة للدولة الحميرية. ولما غزا الأحباش بلاد اليمن قبيل ظهور الإسلام اتخذوا مدينة صنعاء عاصمة لهم، ومن بعدهم كانت عاصمة المسلمين الأوائل. ولما تتابعت الدول الإسلامية، وتولت حكم اليمن كان لكل منها عاصمتها .

ثانيا: مدن التجارة والأسواق التجارية:

اليمن هي بلاد التجارة والتجار، فلقد حذق اليمنيون منذ القدم أساليب التجارة وفنونها، وكانت حضارتهم القديمة تعتمد على التجارة والتبادل التجاري . فلقد عرفوا أهمية الموقع الجغرافي لبلادهم، واستغلوه أحسن استغلال، فأقاموا العلاقات التجارية بينهم وبين الشعوب المحيطة بهم، وكانوا حملة التجارة بين بلاد الهند والصين وشرقي إفريقيا من جهة وبين بلاد مصر والشام والعراق من جهة أخرى. ولقد عرفوا أساليب التجارة ومسالكها ومواردها وكيف يحافظون عليها. وقد ساعدهم ذلك على احتكار سلع بعينها كانت تدر عليهم أرباحا طائلة، كانت هي الأساس الذي ارتكزت عليه حضارتهم القديمة. فمن حضرموت احتكروا تجارة البخور واللبان، ومن الهند والصين احتكروا تجارة العطور والتوابل، ومن شرق إفريقيا احتكروا تجارة العاج والجلود، ومن اليمن احتكروا تجارة العقيق والسيوف .

وقد اتخذوا من القطاع الشرقي من بلادهم، وهو القطاع الصحراوي، طريقا للقوافل التي كانت تحمل هذه التجارة بين الجنوب والشمال، وقد حبب إليهم اتخاذ هذا الطريق أنه يمتد في أرض مستوية السطح، يسهل اجتيازها، وأنه يجنبهم الأودية العديدة التي تمزق القطاع الجبلي الأوسط، والتي تقف عقبة في وجه حركة الانتقال. ثم إن موارد الماء فيه تمتد متقاربة على طوله دون انقطاع، مما يسر اجتيازه للقوافل التي كانت تسير فيه. ومع مضي الزمن قامت المحطات على طول هذا الطريق لكي تتزود فيها القوافل بالماء والمؤن، ولكي تصرف فيها بعض ما تحمل من سلع ومتاجر. ثم تطورت المحطات إلى مدن مزدهرة بسبب ما كانت تجبيه من مكوس على التجارة التي تمر بها، وما تجمعه من ثروات من تبادل السلع التجارية فيها .

وحول هذه المدن ـ حيثما كان ذلك ممكنا ـ كانت تمتد حقول القمح والشعير والذرة، ومن حولها تموج حدائق النخيل وأشجار الفاكهة. وهكذا ازدهرت المدن، وتجمع فيها مزيد من السكان، فكثرت حركة العمران، وقامت المعابد والقصور وخانات التجار .

ومن المدن الرئيسية التي قامت على طول طريق القوافل ظفار وسواران وشبوة وقنا وميفعة ومأرب ومعين ونجران، إلا أن أغلب هذه المدن فقد أهميته بسبب تحول التجارة عن هذا الطريق .

ومدن الأسواق الحالية في دولة اليمن على نوعين :

أما مدن النوع الأول ، فهى المدن التي تعتبر أسواقا عامة لبلاد اليمن جميعا، وفيها تتجمع التجارة الواردة من بلاد العالم الخارجي، ومنها توزع على بقية المدن. وعلى هذا النحو تتركز فيها تجارة الجملة، وتعتبر أسواقا دائمة. والمدن التي تنتمي إلى هذا النوع كل من صنعاء العاصمة الحالية لليمن، وتعز العاصمة السابقة، والحديدة الميناء الرئيسي في اليمن. وإليه تنتمي مجموعة من المدن تقع في القطاع الشمالي من البلاد، وفيها تتجمع البضائع المهربة من العربية السعودية عبر الحدود، ومن أشهرها صعدة ورايدة وعمران.

أما مدن النوع الثاني فهي المدن التي تعتبر أسواقا محلية، وهذه تتوسط في العادة مجموعة من القرى، وفيها يتجمع سكان القرى المجاورة مرة أو مرتين في كل أسبوع لتبادل السلع

ولإشباع حاجتهم من البضائع المستوردة كالشاي والسكر والأقمشة والملابس. والمدن التي تنتمي إلى هذا النوع كثيرة جدا، وهي تنتشر في أنحاء اليمن جميعا .

ثالثا: مدن الحصون أو المدن المحصنة :

المدن المحصنة ظاهرة شائعة في أرض اليمن، بل تكاد تكون هي الصفة الغالبة في المدن اليمنية جميعا. فليس ثمة مدينة أو مستوطنة فيها من غير تحصين. ولعل طبيعة القبائل اليمنية التي لا تكف عن الغزو والقتال، والتي تقوم بينها المنازعات والمشاحنات باستمرار، هي التي دعت إلى تحصن المستوطنات جميعا .

وقد استمرت المنازعات والمشاحنات بين القبائل اليمنية طوال عصور التاريخ، وامتدت حتى وقتنا الحاضر، ويرجع ذلك إلى استئثار القبائل بمناطق معينة من أرض اليمن وإخضاعها لسيطرتها، وإنكارها على غيرها من القبائل أي حق فيها، وكأنها صاحبة السلطان المطلق فيها دون منازع. وبناء على ذلك فإن الانتقال في بعض هذه المناطق يكاد يكون أمرا مستحيلا. وما زالت هناك قطاعات معينة من أرض اليمن مغلقة تماما في وجه حركة الانتقال بسبب سيطرة القبائل عليها، وتكاد تكون مستعصية حتى على الهيئات الحكومية نفسها، إذ تعيش فيها القبائل في عزلة وشبه استقلال عن الحكومة المركزية. وهذا ينطبق بصفة خاصة على المناطق الشرقية، حيث تقيم قبائل همدان، والمناطق الشمالية حيث تقيم قبائل وائلة وحاشد .

وتتوافر الحماية الطبيعية ـ كما أشرنا من قبل ـ للمستوطنات القائمة على منحدرات الجبال أو قممها العالية. وقد عمد السكان إلى إقامتها في هذه المواقع حتى تستعصي على الغزاة والمغيرين. وليست هذه المستوطنات في حاجة إلى أن تقام الأسوار حولها، إذ إن مجرد وقوعها في مستوى مرتفع يصعب الوصول إليه يكفل لها الحماية، ويعوضها عن الأسوار. وليس من الضروري أن تؤلف المساكن في هذه المستوطنات وحدة متراصة من المساكن، تقوم فيها المنازل بعضها إلى جانب بعض، بل الظاهرة الغالبة أن تقوم المنازل متفرقة وإن كانت متقاربة، كما تبنى في مستويات مختلفة حسب طبيعة المنحدرات التي تقام عليها .

أما المستوطنات التي تقام في السهول والأراضي المشكوفة فإنها تزود بالأسوار والحصون

المنيعة التي تكفل لها الحماية . والمنازل في هذه المستوطنات تؤلف معا وحدة متراصة في العادة بحيث يضمها جميعا السور الذي يقام حولها .

والأمثلة عديدة لكلا النوعين :

فمن أمثلة المدن المسورة صنعاء، وتعز، وصعدة، والحديدة، وزبيد.

ومن أمثلة المدن الجبلية غير المسورة حجة، ومناخة .

رابعا ـ مدن الأودية :

ساعدت الانكسارات والعيوب التي تعرضت لها أرض اليمن على أن تمزق تلك الارض، وتكون فيها العديد من الأودية والأخاديد. وكنتيجة لسقوط الأمطار فإن المياه تتركز فيها وتجري فيها على شكل جداول وأنهار .

ولما كانت المياه هي عصب الحياة في بلد كاليمن يعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على الزراعة والإنتاج الزراعي فإن نشاط السكان وتجمعاتهم يتركزان في هذه الأودية. ولما كانت الغالبية العظمى من أودية اليمن عظيمة العمق، وجوانبها شديدة الانحدار، فإن مياه الأمطار التي تنحدر إليها وتجري فيها تكون جياشة، وعلى شكل سيول جارفة، بحيث لا تسمح بإقامة أية تجمعات سكانية في بطون الأودية، اللهم إلا في الأجزاء التي تتبسط فيها الأرض ، ويهدأ تيار الماء. من أجل هذا فإن مدن الأودية يقوم أغلبها على جوانب الجبال في المستويات التي تتوافر فيها إمكانيات الحياة من حيث توافر التربة، وعلى هذا النحو تمتد على طول الأودية ابتداء من المنبع حتى المصب .

ومن الأودية الهامة التي تنتشر مراكز الاستقرار على طول امتدادها وادي مور وسردد ورماع وزبيد، وهي تنحدر نحو سهل تهامة فى غرب اليمن، ثم وادي الجوف وأدنـة، وهما ينحدران نحو الصحراء في الشرق .

خامسا ـ المدن الواقعة عند مخارج الأودية :

تنحدر المجاري المائية في الأودية الجبلية لكي تنتهي في الأراضي المنخفضة المجاورة، وهي تسيل في تدفق، وعندما تنتهي في الأراضي المنبسطة التي تمتد عند حضيض الجبال، سواء في

سهل تهامة في غرب البلاد أو المنطقة الصحراوية في الشرق أو المناطق الحوضية «القيعان» في وسط الجبال، يهدأ تيارها، وتلقي بحمولتها من الرواسب الخشنة والناعمة عند مخارجها من الأرض الجبلية، وتكون منها دالات مروحية عند حضيض الجبال. ومما يميز هذه الدالات أنها تؤلف أرضا غاية في الخصوبة، وأنها تحتفظ في جوفها بقدر كبير من المياه التي تتدفق من الأودية في مواسم الأمطار، وتكون منها خزانا ضخما من الماء الجوفي على عمق يسير من سطح الأرض، وهذا وذلك يساعدان على قيام حياة مستقرة وتجمعات سكانية عديدة. ومن أمثلة هذه التجمعات ما يأتي :

- الزهرة عند مخرج وادي مور.
- الضاحي عند مخرج وادي سردد.
- بيت الفقيه عند مخرج وادي سروال.
- الحسينية عند مخرج وادي ريما.
- زبيد عند مخرج وادي زبيد.
- موزعة عند مخرج وادي نميل.

سادسا ـ مدن الأحواض الجبلية «القيعان» :

إذا استثنينا القطاع الشرقي الأقصى من أرض اليمن، وهو منطقة الصحراء الشرقية، والقطاع الغربي الأقصى، وهو سهل تهامة، فإن بقية الأرض اليمنية تتألف من هضبة جبلية مزّقتها الانكسارات والعيوب، مما ساعد على تكوين العديد من الأودية والأخاديد والأحواض الجبلية.

والأحواض الجبلية في بلاد اليمن عبارة عن مساحات من الأراضي المنبسطة، تحيط بها المرتفعات من كل جانب، وإليها تنحدر الجداول الجبلية والمسيلات التي تحمل مياه الأمطار من المرتفعات المحيطة ومعها الرواسب التي تجرفها، وتلقي بها فوق الأراضي المنبسطة في تلك الأحواض، فتتكون طبقة رسوبية يختلف سمكها باختلاف ما تحمله إليها الجداول والمسيلات. ومما يميز الرواسب في هذه القيعان أن التربة فيها تكون غاية في الخصوبة، وأن طبقاتها السفلى تؤلف خزانا طبيعيا للمياه الجوفية التي تنحدر إليها من المرتفعات المجاورة، وهذه يمكن استغلالها في الزراعة.

وتعرف هذه الأحواض في بلاد اليمن بالقيعان، وهي واسعة الانتشار بحيث تعد بالمئات ، ومن أشهرها: قاع صنعاء، وقاع البون، وقاع العمشية، وقاع صعدة، وقاع جهمران، وقاع زمار، وقاع ديلمي، وقاع مشرعة، وقاع الحقل، وقاع آب، وقاع الجند .

ونظرا إلى أن المياه الجوفية في هذه القيعان توجد على عمق يسير يتراوح بين ١٠ أمتار و ٣٠ مترا فقد سهل استخراجها واستغلالها. ولما كانت التربة فيها خصبة فقد أمكن استغلالها في الزراعة. وبناء على ذلك فقد قامت عليها مراكز حضرية على درجة كبيرة من الأهمية، تعتمد أساسا على الإنتاج الزراعي، ومنها: صنعاء، وعمران، وخمر، وبرط، وصعدة، وزمار، ورداع، ويريم، وآب، وتعز .

ولما كانت هذه المدن جميعا تقوم في أرض منبسطة مكشوفة فقد أقيمت حولها الأسوار حماية لها مما تتعرض له من غزو القبائل المجاورة وهجومها المتكرر .

سابعا ـ المدن على طول الطرق وعند التقائها:

ربما كانت اليمن من أتعس بلاد العالم من حيث صعوبة الانتقال فيها من جهة إلى أخرى، وأكثرها فقرا فيما يتوافر لديها من طرق صالحة تربط بين أنحائها المختلفة. وقد كان ذلك سببا من الأسباب الرئيسية التي فرضت العزلة على أنحائها المختلفة على مر العصور .

وترجع هذه الصعوبة إلى طبيعة أرضها الجبلية ، وانتشار الأودية التي تمزقها كل ممزق. من أجل هذا فإن استعمال وسائل النقل الحديثة لم تنتشر بعد الانتشار الذي يخرج أنحاء اليمن المختلفة من عزلتها الطويلة، فما زالت الحمير والإبل حتى اليوم هي الوسيلة التي يمكن استعمالها للانتقال بين بلد وآخر، وحتى هذه فإنه يتعذر استخدامها في المناطق الوعرة وهي كثيرة، ولا يكون الانتقال فيها إلا سيرا على الأقدام .

ومع ذلك فهناك قطاعان رئيسيان في اليمن تنبسط فيهما الأرض، وبذا تمتد الطرق ويسهل الانتقال. أما الأول فهو القطاع الغربي، حيث يمتد سهل تهامة في اتجاه عام من الشمال إلى الجنوب بموازاة ساحل البحر الأحمر، لذلك كان هذا السهل معبرا طوال العصور التاريخية، وما زال كذلك حتى الآن. وعلى طول هذا الطريق قامت المدن منذ وقت مبكر

كمحطات رئيسية تيسر الحركة فيه ، سواء في ذلك حركة التجارة أو حركة الحجاج إلى بيت الله في مكة. ومن المدن الهامة التي قامت على امتداد هذا الطريق موزعة، وحيس، وزبيد، وبيت الفقيه، والمنصورية، والضاحي، وعبس .

أما الثاني فهو القطاع الشرقي، حيث تمتد الأراضي الصحراوية في اتجاه عام من الشمال إلى الجنوب بموازاة حضيض الجبال، لذلك كانت هذه الصحراء معبرا للقوافل التي كانت تحمل التجارة في الأزمان القديمة. وعلى طول هذا الطريق قامت مدن اليمن القديمة كمحطات تتزود منها القوافل بحاجتها من الماء والمؤن. ومن المدن الهامة التي قامت هناك عواصم الدول التي حكمت اليمن في عهد ازدهارها القديم، من أمثال معين، ومأرب، وتبوه، إلا أن هذه المدن فقدت أهميتها القديمة بسبب تحول طريق التجارة عنها .

ولا يخلو القطاع الأوسط من أرض اليمن وهو القطاع الجبلي الذي يؤلف غالبيتها العظمى من المسالك الجبلية التي تمتد على طول الأودية، وتيسر حركة الانتقال بين أجزائها المختلفة. ومن هذه المسالك ما يمتد شرقا فيربطها بالأراضي الصحراوية في الشرق، ومنها ما يمتد غربا فيربط المناطق الرئيسية في بلاد اليمن بعضها ببعض، كما يربطها بالعربية السعودية في الشمال ، وباليمن الجنوبي في الجنوب. وعلى طول هذه الطرق وعند التقائها قامت مدن هامة عديدة، نذكر منها: على طول الطريق من صنعاء إلى تعز: ذمار ، ويريم ، وآب.

على طول الطريق من صنعاء إلى صعدة: عمران، ورايدة، وفمر .

على طول الطريق من صنعاء إلى الحديدة: مناخة، وباجل .

على طول الطريق من صنعاء إلى مأرب : جهانة، وصرواح .

ثامنا ـ المدن ذات الصبغة الدينية:

لقد احتضنت اليمن مختلف الأديان منذ أن ازدهرت الحضارات القديمة في أرضها حتى اليوم

ففي الأزمان القديمة عبد اليمنيون الشمس والقمر، وأقاموا لها المعابد في كل مكان . ولما ظهرت الموسوية كان اليمنيون من الشعوب التي سبقت إلى اعتناقها .

ولما ظهرت المسيحية اعتنقها اليمنيون، وتحمسوا لها تحمسا كبيرا، وأقاموا لها الكنائس التي يعتبر القلس (في صنعاء) أهمها جمعا. وفي الجاهلية عبدوا الأصنام وأقاموا لها الهياكل.

وعندما ظهر الإسلام كانوا سباقين إلى اعتناقه، وكان لفقهاء اليمن دورا بارزا في الفقه الإسلامي، وكان اليمنيون أكبر عون لنشر الدعوة في مختلف أنحاء العالم.

من أجل هذا كان للكثير من مدن اليمن صبغة دينية، نذكر منها ما يلي:
مأرب، وصرواح، وآرام، وفيها قامت المعابد لعبادة الشمس والقمر.
صعدة، والسودة، وذمار، وهي من مراكز المذهب الزيدي الهامة.
زبيد، وتعز والمغزالة، وجبلة، وهي من مراكز المذهب السني الرئيسية.

ملاحق إحصائية :

نمط جبل عيال يزيد (قضاء عمران)(٦)

	ذكور	إناث	جملة		ذكور	إناث	جملة
(١) عزلة الأكهوم				(٢) عزلة بني عبد			
بيت حيرة	٦٨	٧١	١٣٩	بني عبد	٧٦٧	٦١٨	١٣٨٥
بيت عاطف	٢٦	٤٣	٦٩	درب الحيد	٢٣	٤٤	٦٧
بيت أكمس	٧١	٦٧	١٤٧	بنى عسكر	٤٦	٦٠	١٠٦
الضالعين	٧٠	٨٤	١٥٤	جفير	٣٨	٤٧	٨٥
العلبى	٢٧	٣٠	٥٧	محل الجفرة	٣٣	٣٩	٧٢
المنهسى	٧١	٧٦	١٤٧	بيت العفيف	٢٩	٢٦	٥٥
ضيان	٢٦	٣٥	٦١	بيت الحومري	٥٣	٧٥	١٢٨
وثيق	٢٩	٤٣	٦٣	بيت الطماح	٣٦	٤٢	٦٨
شعلان	٨٠	٧١	١٥١	بيت مهدي	٢٤	٢٦	٥٠
المعمر	٢٩	٢٣	٥٢	متبقى	١٧١	١٩٨	٣٦٩
كشر	٣٠	٣٢	٦٢				
بنى علاء	٧١	٨٩	١٦٠	(٣) عزلة عيال حاتم			
بيت العنس	٢٨	٢٧	٥٥				
بيت الوادعي	١٢٧	١٣٨	٢٦٥	عقار	٦٩	٧٨	١٤٧
محل بيت القعورة	٢٣	٢٨	٥١	بني ناعم	١٠٥	١٢٣	٢٢٨
محل بيت العرى	٥١	٨٢	١٣٣	بنى جابر	٤١	٤٥	٨٦
بيت العمري	٨٦	٨١	١٦٧	بيت المروسي	٤٢	٤٢	٨٤
محل المصنعة	٢٤	٣٩	٦٣	بيت القصيبة	٦	٥	١١
محل النشمة	٢٩	٢٧	٥٦	درب الميدان	٤٥	٥٦	١٠١
محل الحجار	٣٥	٤٦	٨١	القنجة	٣٠	٣٩	٦٩
متبقى	١٨٥	٢٢٥	٤١٠	المقفز	٣١	٤٨	٧٩

(تابع) **ملاحق إحصائية :**

نمط جبل عيال يزيد (قضاء عمران)[٦]

	ذكور	إناث	جملة		ذكور	إناث	جملة
				(٤) عزلة بني قطيل			
بيت بادي	٢٥٨	٢٨٧	٥٤٥	بيت الحويت	٧٣	٧٨	١٥١
القابلة	٨٧	٨٩	١٧٦	بدع	٨٠	٩٣	١٧٣
نفاش	٧٠	٩٤	١٦٤	الزيلة	٦٤	٩٩	١٦٣
بيت عامر	٥٦	٥٠	١٠٦	مقتل	٤٢	٤١	٨٣
المبلد	٤٦	٧٤	١٢٠	معمر	٧٩	٧٩	١٥٨
الطموي	٢٣٤	٣٢٤	٥٥٨	بيت الصيدي	٣٧	٣٨	٧٥
نفرة	٢٣	٢٩	٥٢	ريمة	٥٤	٧١	١٢٥
بيت الأقرع	١٦٨	٢٢٢	٣٩٠	القوزع	٥٢	٦٠	١١٢
بيت القارني	٥٣	٨٩	١٤٢	العبرين	٢٤	٢٧	٥١
الريسي	٢٨	٣٨	٦٦	الهجر	١٣٩	١٨١	٣٢
بيت المطرح	٢١	٣٠	٥١	هجرة المنتصر	٦١	٦٢	١٢٣
الأشقا	٤٣	٤١	٨٤	الدرب الأسود	١٢٣	١٥١	٢٧٤
ساقية بيت غيثان	٤٥	٥٢	٩٧	القفاحة	٢٥	٢٨	٥٣
				ضبيان	٢٦	٣٦	٦٢
درحان	١٩١	٢١٥	٤٠٦	متبقى	٨٧	٩٧	١٧٤
المجرة	٨٥	١٠٧	١٩٢				
حصن قاعة	٦٨	٩٣	١٦١	(٥) عزلة الربع الشرقي			
بيت الرحيمي	٣٥	٣٢	٦٧				
المعمر	٤٩	٦٨	١١٧	ضباعين	١٠٠	١٠٦	٢٠٦
بيت شعلان	٤٦	٤١	٨٧	بيت المعصار	٥١	٧٦	١٢٧
بيت عرجي	٤٠	٤٥	٨٥	بيت العقود	٤١	٦١	١٠٢
متبقى	٣٢٣	٣٨٧	٧١٠	بيت جعدان	٥٧	٥٥	١١٢
				المعمر	١١١	١٠٣	٢١٤

نمط جبل عيال يزيد (قضاء عمران)(٦)

	ذكور	إناث	جملة		ذكور	إناث	جملة
الأحرق	١٨١	١٠٧	٢٨٨	بيت ظافر	٣٣	٤٥	٧٨
السوادين	١٨٥	٢٥٠	٤٣٥	بيت مدرك	٤٧	٤٩	٩٦
قاع السوادين	٢٣	٣٢	٥٥	خراب القصر	٦	١٥	٢١
قينة	١٩٦	٢٣٤	٤٣٠	بيت الحارثي	٢١٨	٢٣٩	٤٥٧
المهجر	٥٤	٥٦	١١٠	بيت القصاري	١٥٣	١٨٠	٣٣٣
جوب الأعلى	٣٨٨	٤٩٨	٨٨٦	الهجرة	٢٤	٢٨	٥٢
جوب الأسفل	٤٠٧	٤١٩	٨٢٦	الصرارة	١٢	١٩	٣١
متبقسى	٤٦	٣٧	٨٣	(٧) عزلة عيال يحيى			
				القبدلة	٩٢		١٩١
(٦) عزلة الثلث				وهفان	٤٥		١٠٦
الأبرق	٣٤٥	٤٣٤	٧٧٩	شهران	١٧٧		٣٩٩
بيت سبيل	١٤١	٢٠٦	٣٤٧	بيت ركب	٢٥		٥٤
دميان	٢٧	٢٦	٥٣	بيت شبان	٦٩		١٢٣
بيت خاتم	٣٦	٣٣	٦٩	بيت ذانب	٣٠٠		٦٥٩
المضلعة	٢٨٠			شعب	٨٨		٢١٢
الموفرة	٣٠			اللوفى	٢٦٢		٥٤٤
الخدرة	٣٦٩			بيت انكف	٨١		١٩٠
بيت ظافر	٣٣			الوادي	٤٥		١٠٠
بيت مدرك	٤٧			وضيح	٢٧		٥٦
بيت خاتم	٣٦			غضبان	٣٤		٨٢
المضلعة	٢٨٠			بيت رطاص	١٠٩		٢٣٣
الموفرة	٣٠			بيت هبة	٨٥		١٦٩
الخدرة	٢٦٩			الجلحلة	١٩٣		٤١٣

الجملة العامة لناحية جبل عيال يزيد :

	ذكور	إناث	جملة
عزلة الأكهوم	١١٨٦	١٣٥٧	٢٥٤٣
بنى عبد	١٢١٠	١١٧٥	٢٣٨٥
عيال حاتم	٢٣٣٨	٢٨٤٣	٥١٨١
بنى قطيل	٩٦٦	١١٣١	٢٠٧٩
الربع الشرقي	١٨٧٩	٢١٣٨	٤٠٣٥
الثلث	٢٣٤٩	٢٨٩٩	٥٢٤٨
عيال يحيى	١٨١٧	٢١٠٥	٣٩٢٢

الحواشي

(١) في مصر حيث يصل عدد السكان إلى نحو ٤٠ مليون نسمة لا يزيد عدد مراكز العمران عن ٤٢٠٠ مركز.
(١) و (٢) التعداد العام لعدد السكان في اليمن (فبراير ١٩٧٥) .
(٢) المصدر السابق .

(4) Herman, A. Escher: Wirtschafts und socialgeographische untersvchungen in der wadi Mawr Region. 1976. Germany.

(٥) محمد توفيق : معين، من مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة .
(٦) تعداد السكان في اليمن: فبراير ١٩٧٥م ـ صنعاء .
فريق التصوير والمسح الجوي : الهيئة الفنية السويسرية ـ ١٩٧٦م ـ صنعاء .

المصـــادر

اعتمد هذا البحث على المصادر الآتي بيانها :

١ ـ تعداد السكان في اليمن الذي أجري في شهر فبراير عام ١٩٧٥م.
٢ ـ دراسة ميدانية قام بها الباحث في ناحية بني الحارث عام ١٩٧٦م.
٣ ـ دراسة ميدانية أجراها فريق التصوير والمسح الجوي لمشروع الهيئة الفنية السويسرية في عام ١٩٧٦م في ناحية جبل عيال يزيد: برئاسة: Hens Stiffen.
٤ ـ دراسة ميدانية أجراها Herman Escher في وادي مورفي عام ١٩٧٦م، ىم نشرت بعنوان :

Wirtschafts - und Socialgeographische Untersvchungen in der wadi Mawr Region (Arabische Republike Jemen) .

ooo

KINGDOM OF SAUDI ARABIA

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION

IMAM MUHAMMAD
IBN SAUD ISLAMIC UNIVERSITY

RESEARCH CENTRE



PROCEEDINGS OF THE FIRST ISLAMIC GEOGRAPHICAL CONFERENCE

VOLUME V

Published Under The Supervision of The
Department of Culture and Publications

1404 AH - 1984 AD

Imam University Press